

تأليف

الدكتور سيد بن حسين العفاني

قدم له

الشيخ محمد صفوت نور الدين

الشيخ محمد إسماعيل المقدم — الشيخ عائض القرني

الشيخ محمد عبد المقصود — الشيخ أبو إسحاق الحويني

المجلد الأول

مؤسسة الرسالة

صلاح الأمة في علو الهمة

١

الطبعة الأولى

١٤١٧هـ / ١٩٩٧م



مؤسسة الرسالة - بيروت - وطى المصيطبة - مبنى عبدالله سليت
تلفاكس : ٨١٥١١٢ - ٣١٩٠٣٩ - ٦٠٣٢٤٣ - ص . ب : ٧٤٦٠ - برقياً: بيوشران

Al-Resalah
PUBLISHING HOUSE
BEIRUT / LEBANON - TELEFAX : 815112 -319039 - 603243 - P. O. BOX : 117460
E-mail: Resalah@Cyberia.net.lb : البريد الإلكتروني

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

□ مقدمة □

إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يُضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله .

﴿يأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾.

﴿ يأيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبثَّ منهما رجالًا كثيرًا ونساءً واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبًا ﴾ .

﴿ يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولًا سديدًا يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزًا عظيمًا ﴾ .

أما بعـد :

فإن أصدق الحديث كتاب الله ، وأحسن الهدي هدي محمد ﷺ ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار .

ثم أما بعد :

في أيام عطرة ليست من الدنيا ، بل هي أقرب نسبةً إلى الآخرة ، وفي أطيب الأماكن ؛ في روضـة رسول الله ﷺ ، التي قال فيها : « ما بين بيتي ومـنبري روضـة من رياض الجنة ، وإن مـنبري على ترعـة من ترع

الجنة »[1]، تهبُّ نسمات الرحمة ، ويرقُّ القلب .

هنا منبر رسول الله ﷺ الذي قال فيه : « قوائم منبري رواتب في الجنة»[2]. هنا صعد النبي ﷺ منبره الحبيب، وأحدق به المهاجرون والأنصار، وربَّاهم وأدَّبهم وشوَّقهم إلى الآخرة .

أرنو إلى المنبر الميمون مُدَّكرا وكل من في رحاب البيت قد هدروا
وأجتني الروضة الفيحاء عن كثب يشوقني تُربُها الغالي وأصطبرُ

هنا أُسطِّر مقدمة لـ « صلاح الأمة في علو الهمة » وأذكر همة سيد المرسلين الذي قالت فيه أم المؤمنين رضي الله عنها : وأيكم يُطيق ما كان يُطيق رسول الله ﷺ .

ونسرد جوانب من عُلوِّ همَّة الجيل القرآني الفريد، الذين تربَّوا على عين رسول الله ﷺ في هذا المسجد، وفي هذه الروضة، فكانوا سادة الدنيا وملوك الآخرة.

كنا جبالا في الجبال وربما سرنا على موج البحار بحارا

وأذكر همة المرسلين ، وعُلوَّ الهمة في الكتاب والسنة ، وتأتي بقية فصول الكتاب ؛ فصل عن دناءة الهمة ، وعُلوِّ الهمة في طلب العلم ، والدعوة

---

(١) صحيح : روى الشطر الأول منه أحمد والبخاريُّ ومسلمٌ والنسائيُّ عن عبد الله ابن زيد المازني ، والترمذي عن أبي هريرة ، وروى الشطر الأخير منه أحمد عن أبي هريرة .

(٢) صحيح : رواه أحمد والنسائيُّ وابن حبان عن أم سلمة ، والطبراني في الكبير ، والحاكم في المستدرك عن أبي واقد ، ورواه ابن سعد وأبو نعيم في الحلية عن أم سلمة ، وقال الهيثمي : فيه عند الطبراني يحيى بن عبد الحميد الحمَّاني ، وهو ضعيف ، وصحَّحه الحاكم والسيوطي، والألباني في صحيح الجامع رقم (٤٢٨٨)، والسلسلة رقم (٢٠٥٠) وعدَّ السيوطي هذا من خصائصه .
ورواتب : يعني مستقرة .

إلى الله ، وعُلُوِّ الهمة في الصلاة والصوم ، والزكاة ، والحج ، والجهاد ، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ونذكر عُلُوّ همة الصبيان، والنساء ، والشيوخ ، والملوك ، والوزراء .

فاللهم ضعْ لهذا الكتاب القبولَ في الأرض، وافتحْ لي به بابَ مغفرتك، وسهِّرْني عما نامت عنه أعين الغافلين ، وارزقني اتِّباعَ نبيك ﷺ ، والشوقَ إليك ، ولذةَ النظر إلى وجهك الكريم .

وصلَّى الله على النبي محمد ، وعلى آله وصحبه .

وكتب

سيد بن حسين العفاني

الخميس ١٥ ذو القعدة ١٤١٤ هـ

روضة المسجد النبوي بالمدينة المنورة

أنا البحرُ في أحشائِهِ الدُّرُّ كامنٌ

فهل ساءلوا الغوّاصَ عن صدفاتي



بســم اللَّهَ الرحمن الرحيــم

قال أهل اللغـة : الهِمَّة : فِعلة من الهَمّ ، وهو مبدأ الإرادة ، ولكن خصُّوها بنهاية الإرادة ، والهمُّ مبدؤها ، والهِمّة نهايتها .

وفي المصباح : الهمّة ؛ بالكسر : العزم ، وقد تُطلق على العزم القوي ، فيقال: له هِمّة عالية(١) .

وفي لسان العرب :

* شمِّر فإنك ماضي الهَمِّ شِمِّير *

الهَمّة والهِمَّة : ما همَّ به من أمر ليفعله . وتقول: إنه لصغير الهِمَّة ، وإنه لبعيد الهِمَّة والهَمَّة بالفتح .

والهمام : الملك العظيم الهِمَّة .

قال ابن سيدَه: الهمام اسم من أسماء الملك؛ لعِظَم همَّته ، وقيل : لأنه إذا همَّ بأمر أمضاه ، لا يُردُّ عنه ؛ بل ينفذ كما أراد ، وقيل : الهمام : السيد الشجاع السخي ، ولا يكون ذلك في النساء . والهمام : الأسد على التشبيه .

والهِمّ بالكسر: الشيخ البالي .

قال الشاعر :

* وما أنا بالهِمِّ الكبير ولا الطفل *

وفي الحديث : أنه أُتي برجل هِمٍّ .

وفي حديث عمر رضي اللَّه عنه : كان يأمر جيوشه ألا يقتلوا هِمًّا ولا امرأة .

وقالوا : هَمَّه السّقم هَمًّا ؛ إذا أذابه وأذهب لحمه(٢) .

هَمّك ما أهمّك .

---

(١) بصائر ذوي التمييز للفيروزآبادي ٣٤٩/٥ .

(٢) لسان العرب لابن منظور ٤٧٠٣/٦ .

﴿ والسابقون السابقون أولئك المقربون ﴾

« كمال الإنسان بهِمَّة تُرقِّيه ، وعلمٍ يُبصِّره ويهديه »

ابن قيم الجوزية



□ ﴿والسابقون السابقون أولئك المقربون﴾ □

قال تعالى : ﴿والسابقون السابقون أولئك المقربون﴾ [الواقعة: ١٠-١١].

من صفا صُفّي له ، ومن كَدَّر كُدِّر عليه .

السابقون في الدنيا إلى الخيرات ، سبقوا في الآخرة إلى الجنات ، فإن السبْق هناك على قدر السبْق هنا .

قُرِبت قلوبهم من بساط المعرفة ، وإلى الحق في دار الدنيا ، فقال الله عنهم : ﴿ أولئك المقربون ﴾ ، النعيم الأكبر والأسنى نعيم القُرْب ، وجنات النعيم لا تساوي ذلك التقريب ، ولا تعدل ذلك النصيب .

اليوم جنان العرفان ، وغدًا جنان الرضوان .

يقول قائلهم : إنه تمُرُّ بالقلب أوقات يرقص فيها القلب طربًا ، وأقول : إن كان أهل الجنة في مثل هذا العيش؛ إنهم لفي عيش طيِّب .

لا ينفكون عن أفضالهم ، ولا يخرجون عن أحوالهم ، فهم أبدًا في الجنة ، ولا إخراج لهم منها ، أبدًا لهم القربى والزلفى ، لا حجاب لهم عنها .

السابقون السابقون ، إنهم هم هم وكفى ، فهو مقام لا يزيده الوصف شيئًا .

السابقون بصدْق القدم وعُلُوِّ الهمم ... أولئك المقربون ... ولله ما أحلى لفظ القـرآن ! فكم الفـرق بين (المقربون) و (المتقربون) ... سيقت إليهم الجنة ، وزُفِّت إليهم لكرامتهم على ربهم .

مَنْ وقعت عليه غبرة في طريقهم ، لم تقع عليه قترة فراقهم .

مَنْ خطا خطوة إليهم؛ وجد حظوة لديهم .

من رفع إليهم يدا؛ أجزلوا له رغدا .

من التجأ إلى سُدَّة كرمه؛ آواه في ظل نعمه .

من شكا فيهم غليلا ؛ مهَّدوا له في دار فضلهم مقيلا .

يقول شيخ الإسلام ابن القيم :

« للإنسان قوتان : قوة علمية نظرية ، وقوة عملية إرادية ، وسعادته التامة موقوفة على استكمال قوتيْه العلمية والإرادية .

واستكمال القوة العلمية إنما يكون بمعرفة فاطره وبارئه ، ومعرفة أسمائه وصفاته ، ومعرفة الطريق التي توصِّل إليه ، ومعرفة آفاتها ، ومعرفة نفسه، ومعرفة عيوبها، فبهذه المعارف الخمسة يحصل كمال قوته العلمية، وأعلم الناس أعرفهم بها وأفقههم فيها .

واستكمال القوة العملية الإرادية لا تحصل إلا بمراعاة حقوقه سبحانه على العبد ، والقيام بها إخلاصًا ، وصدقًا ، ونصحًا ، وإحسانًا ، ومتابعةً ، وشهودًا لمنَّته عليه ، وتقصيره هو في أداء حقه ، فهو مستحيِي من مواجهته بتلك الخدمة ؛ لعلمه أنها دون ما يستحقُّه عليه ، ودون دون ذلك ، وأنه لا سبيل له إلى استكمال هاتين القوتين إلا بمعونته ، فهو مُضطرٌّ إلى أن يهديه الصراط المستقيم ، الذي هدى إليه أولياءه وخاصَّته ، وأن يُجنِّبه الخروج عن ذلك الصراط؛ إما بفساد في قوته العلمية فيقع في الضلال، وإما في قوته العملية، فكمال الإنسان وسعادته لا تتم إلا بمجموع هذه الأمور»[(١)].

فعهْد الله الكريم ، وصراطُه المستقيم ، ونبؤه العظيم « لا يُوصل إليه أبدًا إلا من باب العلم والإرادة ، فالإرادة باب الوصول إليه ، والعلم مفتاح ذلك الباب المتوقف فتْحُه عليه ، وكمال كل إنسان إنما يتم بهذين النوعين : « همَّة تُرقِّيه ، وعلم يُبصِّره ويهديه » ، فإن مراتب السعادة والفلاح إنما تفوت العبد من هاتين الجهتين أو من إحداهما ؛ إما أن لا يكون له علم بها فلا يتحرك في طلبها ، أو يكون عالمًا بها ولا تنهض همَّتُه إليها ، فلا يزال في حضيض طبْعه محبوسًا ، وقلبُه

(١) الفوائد لابن القيم صـ ٢٨-٢٩ مكتبة الجامعة .

عن كماله الذي خُلق له مصدودًا منكوسًا ، قد أسام نفسه مع الأنعام راعيًا مع الهمل ، واستطاب لقيمات الراحة والبطالة ، واستلان فراش العجز والكسل ، لا كمن رُفع له علمٌ فشمَّرَ إليه ، وبورك له في تفرُّدِه في طريق طلَبِه ؛ فلزمه واستقام عليه ، قد أبت غلبات شوقه إلاَّ الهجرة إلى الله ورسوله ، ومقتت نفسه الرفقاء ، إلا ابن سبيل يُرافقه في سبيله .

ولما كان كمال الإرادة بحسب كمال مرادها ، وشرفُ العلم تابعًا لشرف معلومه ؛ كانت نهاية سعادة العبد - الذي لا سعادة له بدونها ، ولا حياة له إلا بها - أن تكون إرادته مُتعلِّقة بالمراد الذي لا يبلى ولا يفوت ، وعزمات هِمَّته مسافرة إلى حضرة الحي الذي لا يموت ، ولا سبيل له إلى هذا المطلب الأسنى والحظ الأوفى ؛ إلا بالعلم الموروث عن عبده ورسوله وخليله وحبيبه ، الذي بعثه لذلك داعيًا ، وأقامه على هذا الطريق هاديًا ، وجعله واسطة بينه وبين الأنام ، وداعيًا لهم بإذنه إلى دار السلام ، وأبى أن يفتح لأحد منهم إلا على يديه ، أو يقبل من أحد منهم سعيًا إلا أن يكون مبتدئًا منه ومنتهيًا إليه ، فالطرق كلها إلا طريقه ﷺ مسدودة ، والقلوب بأسرها إلا قلوب أتباعه المنقادة إليه عن الله محبوسة مصدودة ، فحُقَّ على مَنْ كان في سعادة نفسه ساعيًا ، وكان قلبُه حيًّا عن الله واعيًا - أن يجعل على هذين الأصلين مدار أقواله وأعماله ، وأن يُصيِّرهما أخبيته التي إليها مفزعه في حياته وطاء له »[1].

قلبي يُحدِّثني ألّا يليق به ... رضًا بجهل ذليل اللُّب يرضيهِ
قد ثار ثائر نفسٍ عزَّ مطلبُها ... وطارَ طائر لُبٍّ في مراقيهِ
كالنسر لا حاجبَ للشمس يحرِقُهُ ... ولا الصواعَقُ والأرواحُ تُثنيهِ
ليس الطموحُ إلى «العلياء» من سَفَهٍ ... لا السُّمُوُّ إلى حقٍّ بمكروهِ
إن لم أنلْ منه ما أروي الغليلَ به ... قد يحمَدُ المرءُ ماءً ليس يرويهِ

(١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة لابن القيم ص٤٦ -٤٧ دار الكتب العلمية .

والقانعون بما قد دان عيْشُهمُ ... موت فإن هدوءَ القلب يُرديهِ
ياقلبُ يهنيك نبضٌ كُلُّهُ حَرَقٌ ... إلى الغرائب مما عزَّ ساميهِ[(١)]

أخي، ائت الديار البكر، وارتَد كل يوم منزل فضْلٍ لم يُعرف لأحد في عصرك، وائت في التنافس بجديد، كأنك طليعة جيش، حتى يصدق فيك قول القائل:

عجبًا بأنك سالم من وحشة ... في غاية مازلتَ فيها مُفردا

يقول ابن القيم :

« سمعتُ شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - يقول : في بعض الآثار الآلهية يقول الله تعالى : « إني لا أنظر إلى كلام الحكيم ، وإنما أنظر إلى هِمَّته » . قال : والعامة تقول : قيمة كل امرىء ما يُحسن . والخاصة تقول : قيمة كل امرىء ما يطلب ؛ يريد أن قيمة الرجل هِمَّتُه ومطلبُه »[(٢)] .

فهنالك هِمَّة تدور حول الأنتان والحُشِّ: ذكر الله حسب صاحبها وموته، وذكر الناس فاكهته وقوته ، يُنادى إلى الله عز وجل والدار الآخرة من مكان قريب فلا يُجيب النداء ، الدنيا تصمُّه عما سوى الباطل وتُعميه[(٣)] .

فاستأنس بغيبته ما أمكنك ، فإنه لا يُوحشك إلا حضورُه عندك ، فإذا ابتُليت به فأعطِهِ ظاهرك ، وتَرَحَّل عنه بقلبك ، وفارقْه بسرِّك ، ولا تشغلْ نفسك إلا بما هو أولى بك .

واعلم أن الحسرة كل الحسرة : الاشتغالُ بمن لا يجُرُّ عليك الاشتغالُ به إلا فوتَ نصيبك وحظِّك من الله عز وجل ، وانقطاعك عنه ، وضياعَ وقتك عليك ، وضعْفَ عزيمتك وتفرُّقَ همِّك ، وإياك وقاطعَ الطريق ولو كان من كان، فانجُ بقلبك، وضنَّ بيومك وليلتك، لا تغرب عليك الشمس قبل وصول

---

(١) عبد الرحمن شكري .
(٢) مدارج السالكين ٣/٣ .
(٣) إغاثة اللهفان لابن قيم الجوزية .

المنزلة فتؤخذ[١]، ولا تُدرك أحبابًا أنى لك بلحاقهم .

وهِمَّةٌ أخرى : ارتبطت بمن فوق العرش جل وعلا إرادةً وطلبًا ، وشوقًا ومحبةً ، وإخباتًا وإنابةً ، لا مُستراحَ لها إلا تحت شجرة طوبى ، ولا قرارَ لها إلا في يوم المزيد ، كلما طال عليها الطريق تلمَّحت المقصد ، وكلما أمرّت الحياة حلى تذكُّرت ﴿ **هذا يومكم الذي كنتم توعدون** ﴾ .

كان الأعرابي يأتي إلى رسول الله يسأله حفنةً من شعير قائلًا: يا محمد، أعطني من مال الله ، فإنه ليس مالك ولا مال أبيك .. ما يطلب إلَّا ما يذهب إلَّا إلى الحش .. هذه هِمَّةٌ .. وهِمَّة ربيعة بن كعب الأسلمي رضي الله عنه هِمَّة فوق الشمس .

عن ربيعة بن كعب الأسلمي قال : كنتُ أبيتُ مع رسول الله ﷺ فأتيته بوضوئه وحاجته، فقال لي: «سل»، فقلتُ: أسألك مرافقتك في الجنة. قال: «أو غير ذلك؟» قلتُ: هو ذاك. قال: «فأعني على نفسك بكثرة السجود»[٢].

حدِّثْ عن القوم فالألفاظ ساجدة ... خلف المحاريب والأوزان تبتهلُ

قال شيخ الإسلام الهروي الأنصاري :

«الهِمَّة: ما يملك الانبعاث للمقصود صِرفًا، لا يتمالك صاحبها ولا يلتفت عنها».

قال ابن قيم الجوزية :

« قوله : « يملك الانبعاث للمقصود » ؛ أي يستولي عليه كاستيلاء المالك على المملوك .

والمراد : أن همة العبد إذا تعلَّقت بالحق تعالى طلبًا صادقًا خالصًا محْضًا ، فتلك هي الهمة العالية ، التي « لا يتمالك صاحبها » ؛ أي لا يقدر على المُهلة ، ولا يتمالك صبره ؛ لغلبة سلطانه عليه ، وشدة إلزامها إياه بطلب

(١) الوابل الصيب لابن قيم الجوزية .

(٢) رواه مسلم في صحيحه . كتاب الصلاة باب فضل السجود والحث عليه .

المقصود، «ولا يلتفت عنها» إلى ما سوى أحكامها. وصاحب هذه الهمة سريعٌ وصولُهُ وظَفَرُهُ بمطلوبه، ما لم تعقه العوائق، وتقطعْه العلائق، والله أعلم»[(١)].

قال الهروي : وهي على ثلاث درجات :

الدرجة الأولى : هِمَّة تصون القلب عن وحشة الرغبة في الفاني ، وتحمله على الرغبة في الباقي ، وتُصفِّيه من كَدَر التواني .

يقول ابن القيم :

الفاني: الدنيا وما عليها، أي يزهد القلب فيها وفي أهلها، وسمَّى الرغبة فيها «وحشة» ؛ لأنها وأهلها توحش قلوب الراغبين فيها، وقلوب الزاهدين فيها.

أما الراغبون فيها : فأرواحهم وقلوبهم في وحشة من أجسامهم ، إذ فاتها ما خُلقت له ، فهي في وحشة لفواته .

وأما الزاهدون فيها: فإنهم يرونها موحشة لهم؛ لأنها تحول بينهم وبين مطلوبهم ومحبوبهم، ولا شيء أوحش عند القلب مما يحول بينه وبين مطلوبه ومحبوبه.

وأيضًا : فالزاهدون فيها : إنما ينظرون إليها بالبصائر ، والراغبون ينظرون إليها بالأبصار ، فيستوحش الزاهد مما يأنس به الراغب ، كما قيل :

وإذا أفاق القلب واندمَلَ الهوى رأت القلوبُ ولم ترَ الأبصارُ

وكذلك هذه الهمة تحمله على الرغبة في الباقي لذاته ، وهو الحق سبحانه ، والباقي بإبقائه وهو الدار الآخرة .

« وتصفِّيه من كدر التواني » ؛ أي تُخلِّصه وتُمَحِّصه من أوساخ الفتور والتواني ، الذي هو سبب الإضاعة والتفريط ، والله أعلم .

قال :

والدرجة الثانية : هِمَّةٌ تُورث أَنَفَةً من المبالاة بالعلل ، والنزول على العمل ، والثقة بالأمل .

---

(١) مدارج السالكين ٣/٣ - ٤ .

قال ابن القيم : « العلل » هاهنا هي علل الأعمال من رؤيتها ، أو رؤية ثمرتها وإرادتها ونحو ذلك ، فإنها عندهم علل .

فصاحب هذه الهمة يأنف على هِمَّته وقلبه من أن يُبالي بالعلل ، فإن همته فوق ذلك ، فمبالاته بها ، وفكرته فيها ، نزول من الهمة ، وعدم هذه المبالاة ، إما لأن العلل لم تحصل له ؛ لأن عُلُوَّ هِمَّته حال بينه وبينها ، فلا يُبالي بما لم يحصل له ، وإما لأن هِمَّته وسعَتْ مطلوبه ، وعُلُوَّه يأتي على تلك العلل ويستأصلها ، فإنه إذا علَّق هِمَّته بما هو أعلى منها ؛ تضمَّنتها الهِمَّة العالية ، فاندرج حكمُها في حكم الهمة العالية . وهذا موضع غريب عزيز جدًا ، وما أدري أقصده الشيخ أو لا ؟

وأما أَنَفَته من النزول على العمل : فكلام يحتاج إلى تقييد وتبيين ، وهو أن العالي الهمة مطلبُه فوق مطلب العُمَّال والعُبَّاد ، وأعلى منه ، فهو يأنف أن ينزل من سماء مطلبه العالي إلى مجرد العمل والعبادة ، دون السفر بالقلب إلى الله ، ليحصل له ويفوز به ، فإنه طالبٌ لربه تعالى طلبًا تامًّا بكل معنى واعتبار في عمله، وعبادته ومناجاته، ونومه ويقظته، وحركته وسكونه، وعُزْلته وخُلطته، وسائر أحواله، فقد انصبغ قلبه بالتوجُّه إلى الله تعالى أيّما صبغة.

وهذا الأمر إنما يكون لأهل المحبة الصادقة ، فهم لا يقنعون بمجرد رسوم الأعمال ، ولا بالاقتصار على الطلب حال العلم فقط .

قال :

الدرجة الثالثة: هِمَّةٌ تتصاعد عن الأحوال والمعاملات، وتزري بالأعواض والدرجات ، وتنحو عن النعوت نحو الذات .

أي هذه الهمة أعلى من أن يتعلَّق صاحبها بالأحوال التي هي آثار الأعمال والواردات ، أو يتعلَّق بالمعاملات ، وليس المراد تعطيلها ، بل القيام بها مع عدم الالتفات إليها والتعلُّق بها .

ووجه صعود هذه الهمة عن هذا : ما ذكره من قوله : « وتُزري

بالأعواض والدرجات، وتنحو عن النعوت نحو الذات»؛ أي صاحبها لا يقف عند عِوَضٍ ولا درجة ، فإن ذلك نزول من هِمَّته ، ومطلبُه أعلى من ذلك ، فإن صاحب هذه الهمة قد قصر هِمَّته على المطلب الأعلى ، الذي لا شيء أعلى منه ، والأعواض والدرجات دونه ، وهو يعلم أنه إذا حصل له فهناك كل عِوَضٍ ودرجة عالية .

وأما نحوها « نحو الذات » فيريد به : أن صاحبها لا يقتصر على شهود الأفعال والأسماء والصفات ؛ بل الذات الجامعة لمتفرقات الأسماء والصفات والأفعال ، والله أعلم[1] .

أخي ، إنما خُلقنا لنحيا مع الخالق ، في دار غرسَ غراسها الرحمنُ بيده ، ﴿ **إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة** ﴾ ، فما اشترى إلا سلعةً هذَّبها الإيمان ، فخرجت من طبعها إلى بلد ؛ سُكَّانُه التائبون العابدون .

سلِّم المبيع قبل أن يتلف في يدك ، فلا يقبله المشتري ، قد علم المشتري بعيب السلعة قبل أن يشتريها فسلمها ، ولك الأمان من الرد .

قدْرُ السلعة يُعرف بقدر مشتريها ، والثمن المبذول فيها ، والمنادي عليها ، فإذا كان المشتري عظيمًا ، والثمن خطيرًا ، والمنادي جليلًا؛ كانت السلعة نفيسةً.

يابائعًا نفسه بيع الهوان لو اسـ ... ـترجعتَ ذا البيع قبل الفوت لم تخبِ
وبائعًا طيبَ عيشٍ ما له خطرٌ ... بطيفِ عيشٍ من الآلام منتهبِ
غبنت والله غبنًا فاحشًا ولدى ... يوم التغابن تلقى غاية الحَرَبِ[2]
ووارِدًا صفْو عيشٍ ما له كدرٌ ... أمامك الوردُ حقًّا ليس بالكذبِ
وحاطبَ الليل في الظلماء منتصبًا ... لكل داهية تدني من العطبِ
ترجو الشفاءَ بأحداق بها مرضٌ ... فهل سمعتَ ببُرءٍ جاء من عطبِ

---

(١) مدارج السالكين لابن القيم ٣ / ٤ - ٦ .
(٢) الحرب : الهلاك .

ومُفنيًا نفْسَهُ في إثر أقبحهم ... وصفًا للطخِ جمالٍ فيه مُستلبِ
وواهبًا نفْسَهُ في مثل ذا سفهًا ... لو كنتَ تعرف قدر النفس لم تهبِ
شاب الصِّبا والتصابي بعد لم يشب ... وضاع وقتُك بين اللهو واللعبِ
وشمسُ عمرك قد حان الغروبُ لها ... والفيء في الأفق الشرقي لم يغبِ
وفاز بالوصل مَنْ قد جدَّ وانقشعت ... عن أُفْقِهِ ظلماتُ الليل والسُّحبِ
كم ذا التخلف والدنيا قد ارتحلت ... ورسْلُ ربك قد وافتك في الطلب
ما في الديار وقد سارت ركائبُ مَنْ ... تهواه للصبِّ من شكرٍ ومن أَرَبِ
ما في الخيام أخو وجْدٍ يُريحك إنْ ... بثثتَه بعضَ شأنِ الحبِ فاغتربِ
وسِرْ في غمرات الليل مهتديًا ... بنفحة الطيب لا بالعود والحطبِ
وعادِ كل أخي جُبنٍ ومَعجزة ... وحارب النفسَ لا تلقيك في الحربِ
وخذْ لنفسك نورًا تستضيء به ... يوم اقتسام الورى الأنوار بالرتَبِ(١)

يا مختار القدر ... يامن هو من أرباب الخبرة ، اعرف قدْر قدرِك ، إنما خلقت الأكوان كلها لك ...

ياوعاء البدائع ... يامن غُذِّي بلبان البر ، وقُلِّب بأيدي الأيادي، يازرعًا تهمي عليه سُحُبُ الألطاف ، كل الأشياء شجرة وأنت الثمرة ، وصورة وأنت المعنى، وصَدَفٌ وأنت الدُّرُّ، مخ وأنت الزبد، مكتوب اختيار مولاك لك، واضح الخط، غير أن استخراجك ضعيف، ويحك.. لو عرفت قدْر نفسك ما أهنتها.. ياجوهرة بمضيعة، كم من ملك في السموات يُسبِّح ما لهم رتبة ﴿**تتجافى**﴾، لا يعرف طعم طعام ، وما لهم مقام « ولخلوف » ، سبحان من اختارك على الكل ، وجادل عنك الملائكة قبل وجودك ﴿ **إني أعلم ما لا تعلمون** ﴾ .

صوّب إلى الرحيل ﴿**ياليت قومي يعلمون**﴾،تلمَّح القوم الوجود، ففهموا المقصود، فأجمعوا الرحيل قبل الرحيل، وشمَّروا للسير في سواء السبيل.

(١) الفوائد ١٠١ - ١٠٢ .

أخي ، إن هَمَمْتَ فبادرْ ، وإن عزمتَ فثابرْ ، واعلم أنه لا يُدرك المفاخر ، من رضي بالصف الآخر .

بليت الهمم العالية بعشق الفضائل، شجرُ المكاره يُثمر المكارم، متى لاحت الفريسة قذفت الغابة السبع، إذا استقام للجواد الشوط، لم يحوج راكبه إلى السوط.

إذا طلع نجم الهمة في ظلام ليل البطالة، ثم ردفه قمر العزيمة؛ أشرقت الأرض بنور ربها.

ياطالبًا للدَّعَة أخطأتَ الطريق ، علة الراحة التعب ، إن لم تكن أسدًا في العزم ولا غزالًا في السبق ؛ فلا تتثعلب .

شَمِّر عن سوق الدأب ، في سوق الأدب ، أين عزائم الرجال ؟ أين صرائم الأبطال ؟ تدَّعي وتتوانى ، هذا محال .

أشتاقكم ويحولُ العزمُ دونكمُ ... فأدّعي بُعْدَكم عني وأعتذرُ
وأشتكي خطرًا بيني وبينكمُ ... وآيةُ الشوقِ أن يستصغرَ الخطرُ

أخي ، من احتشم ركوب الأهوال بقي عن إدراك الآمال.الخواصُّ في كل وقت يقلُّ عددُهم، ولكن يجلُّ قدْرُهم، حتى إن ماتوا فهم أحياء، فكم من أناس موتى تحيا القلوب بذكرهم، وأناس أحياء تموت القلوب برؤيتهم.

ولو أنّ فوقي تربةً ودعوتني ... لأجبتُ صوتك والعظام رفاتُ

يقول ابن القيم :

وتفنى عظامُ الصبِّ بعد مماته ... وأشواقُهُ وقْفٌ عليه مُحرَّمُ

وعلى الطرف الآخر :

يابؤس من يموت وتبقى ذنوبه من بعده .

من عرف قدْرَ مطلوبه سهُل عليه بذل مجهوده .

إذا شام الفتى برقَ المعاني ... فأهونُ فائتٍ طِيبُ الرقادِ

لله دَرُّ القائل :

إن لم تكن للحق أنت فمن يكون ... والناس في محراب لذات الدنايا عاكفون

قال العلّامة ابن رجب الحنبلي في كتابه لطائف المعارف :

« لما سمع القوم قول اللّه عز وجل: ﴿فاستبقوا الخيرات﴾ ، وقوله : **﴿سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض﴾** ؛ فهموا أن المراد من ذلك أن يجتهد كل واحدٍ منهم أن يكون هو السابق لغيره إلى هذه الكرامة ، والمُسارعَ إلى بلوغ هذه الدرجة العالية ، فكان أحدهم إذا رأى مَنْ يعمل عمّلا يعجز عنه؛ خشي أن يكون صاحب ذلك العمل هو السابق له ، فيحزن لفوات سبْقه ، فكان تنافُسهم في درجات الآخرة واستباقهم إليها ، ثم جاء من بعدهم قومٌ ، فعكسوا الأمر ، فصار تنافُسهم في الدنيا الدنيئة وحظوظها الفانية » .

قال الحسن : إذا رأيتَ الرجل ينافسك في الدنيا فنافسْه في الآخرة .

وقال رحمه اللّه: من نافسك في دينك فنافسْه ، ومَنْ نافسك في دنياك فألقها في نحره .

وقال وهيب بن الورد: إن استطعتَ ألا يسبقك إلى الله أحدٌ فافعل .

وقال بعض السلف : لو أن رجّلا سمع برجل أطوع لله منه ، فانصدع قلبه فمات ؛ لم يكن ذلك بعجب .

وقال أحدهم: لو أن رجّلا سمع برجل أطوع منه لله؛ كان ينبغي أن يُحزنه ذلك .

قال عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه: أمرنا رسول اللّه ﷺ أن نتصدَّق ، ووافق ذلك مني مالّا ، فقلتُ: اليوم أسبقُ أبا بكر إن سبقته . قال : فجئتُ بنصف مالي ، فقال رسول الله ﷺ : « ما أبقيتَ ؟ » ، فقلتُ : مثله . وأتى أبو بكر بكل ما عنده ، فقال: « يا أبا بكر ، ما أبقيت لأهلك؟ » قال: أبقيتُ لهم الله ورسوله . قلتُ : لا أسبقه إلى شيء أبدًا[1].

---

(١) صحيح : رواه أبو داود والترمذي ، وقال الترمذي : حديث حسن صحيح .

لله دَرُّكَ من صِدِّيق !!

وهذا الذي يسبق العلماء برتوة ؛ معاذ بن جبل ، يقول : أنام أول الليل ، وأقوم آخره ، فأحتسب نومتي ، وأحتسب قومتي[(١)] .

وهذا عبد الله بن مسعود ، يقول عنه شقيق بن عبد الله : مرض عبد الله ابن مسعود فعُدناه ، فجعل يبكي ، فعُوتب ، فقال : إني لا أبكي لأجل المرض ، لأني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « المرض كفَّارة » ، وإنما أبكي أنه أصابني على حال فترة ، ولم يُصبني في حال اجتهاد ، إنه يُكتب للعبد من الأجر إذا مرض ما كان يُكتب له قبل أن يمرض فمنعه منه المرض[(٢)].

وهذا عمر رضي اللَّه عنه يقول: إني لأُكره نفسي على الجماع؛ رجاءَ أن يُخرج اللَّه نسمة تذكره .

وهذا الفضيل بن عياض يقول: أدركت أقوامًا يستحيون من اللَّه في سواد الليل من طول الهجعة ، إنما هو على الجنب ، فإذا تحرَّك قال: ليس هذا لك ، قومي خذي حظّك من الآخرة .

وكان ابن سيرين يدخل السوق نصف النهار ، فيُكبِّر اللَّهَ ويُسبِّحه ويذكره ، ويقول : إنها ساعةُ غفلة للناس .

وهذا الأسود بن الأسود لا يأكل الخبز إلا بنية ، كان يأكل فإذا ثقُل عن الصلاة خفَّف بها ، فإذا خفَّف ضعُف فأكل ليقوى ، فكان أكلُه له وتركُه لها . وخف أي نشط وتلذذ بها .

وهذا محمد بن المنكدر يقول: بتّ أغمز رِجْلَ أمي ، وبات أخي عمر يُصلّي ، وما أودُّ أن ليلتي بليلته .

وقال رجل لمالك بن دينار: رأيتُ فيما يرى النائم مناديًا ينادي :

---

(١) تاريخ بغداد ٢/٣٧٥ .

(٢) جامع الأصول لابن الأثير ٩/٨٥٦- الأولى دار الفكر .

الرحيل الرحيل ، فما رأيت أحدًا يرتحل إلا محمد بن واسع ، فصاح مالك وغشي عليه .. ﴿ **والسابقون السابقون أولئك المقربون** ﴾ .

قيل لبعض المجتهدين في الطاعات: لِمَ تُعذّب هذا الجسد ؟ قال: كرامَتَهُ أريد .

وإذا كانت النفوس كبارا   تعبت في مرادها الأجسام

صاحب الهمة العلية ، والنفس الشريفة التوّاقة ، لا يرضى بالأشياء الدنيئة الفانية وإنما هِمَّته المسابقة إلى الدرجات الباقية .

قال عمر بن عبد العزيز : إن لي نفسًا توّاقة ، ما نالت شيئًا إلا تاقت إلى ما هو أفضل منه ، وإنها لما نالت هذه المنزلة - يعني الخلافة - وليس في الدنيا منزلة أعلى منها ، تاقت إلى ما هو أعلى منها - يعني الآخرة .

على قدر أهل العزم تأتي العزائم .

وجاءت مولاة لعمر بن عبد العزيز ، فقصَّت أنها رأت في المنام كأن الصراط قد نُصب على جهنم ، وهي تزفر على أهلها ، وذكرت أنها رأت رجالًا مرُّوا على الصراط فأخذتهم النار ، قالت : ورأيتُك يا أمير المؤمنين وقد جيء بك ، فوقع مغشيًّا عليه ، وبقي زمانًا يضطرب ، وهي تصيح في أذنه : رأيتك والله قد نجوت(١) .

أخي، لما علم الصالحون قِصَرَ العمر، وحثَّهم حادي ﴿**وسارعوا**﴾؛ طووْا مراحل الليل مع النهار انتهابًا للأوقات . أصغِ سمعك لنداء ربك ﴿ **ففروا إلى الله**﴾، وبادرْ طيَّ صحيفتك، واحسرْ عن رأسك قناع الغافلين، وانتبهْ من رقدة الموتى، وشمِّرْ للسباق غدًا، فإن الدنيا ميدان المتسابقين، واعلم أنما خُلقنا لنحيا مع الخالق، ونافسْ في الفردوس، فإن الرحمن جلَّ جلاله قد غرس غراسه بيده.

ياإخوتاه ، سيروا إلى ربكم سيرًا جميلًا .

---

(١) لطائف المعارف لابن رجب الحنبلي صـ ٢٦٠ ، ٢٦١ طبع دار الفتح .

أيا صاحِ هذا الركبُ قد سار مسرعًا ونحن قعود ما الذي أنت صانعُ
أترضى بأن تبقى المُخلَّفَ بعدهم صريعَ الأماني والغرام ينــازعُ
على نفسه فليبكِ مَنْ كان باكيًا أيذهب وقتٌ وهو باللهو ضائعُ

كن بقلبك بل بكلّك مع القوم الذين قال عنهم شيخنا ابن القيم « حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح » :

« رفع لهم علم الجنة فشمَّروا إليه ، ووضح لهم صراطها المستقيم فاستقاموا عليه ، ورأوا من أعظم الغبن بيع ما لا عين رأت ، ولا أُذُنٌ سمعت ، ولا خطر على قلب بشر في أبد لا يزول ولا ينفد ، بصبابة عيش إنما هو كأضغاث أحلام ، أو كطيف زار في المنام ، مشوب بالنغص ، ممزوج بالغصص ، إنْ أضحك قليلًا أبكى كثيرًا ، وإنْ سرَّ يومًا أحزن شهورًا ، آلامه تزيد على لذاته ، وأحزانه أضعاف أضعاف مسرّاته ، أوله مخاوف ، وآخره متالف .

فيا عجبًا من سفيه في صورة حليم ، ومعتوه في مسلاخ عاقل ، آثر الحظ الفاني الخسيس على الحظ الباقي النفيس ، وباع جنة عرضُها الأرض والسموات ، بسجن ضيِّق بين أرباب العاهات والبليَّات ، ومساكن طيبةً في جنّات عدن تجري من تحتها الأنهار ، بأعطان ضيِّقة آخرها الخراب والبوار ، وأبكارًا عُرُبًا أترابًا كأنهن الياقوت والمرجان ، بقذِرَاتٍ دَنِساتٍ سيئاتِ الأخلاق مُسافحات أو متخذات أخدان ، وحورًا مقصوراتٍ في الخيام ، بخبيثات مسيّبات بين الأنام ، وأنهارًا من خمر لذة للشاربين ، بشراب بخس مُذهبٍ للعقل ، مُفسدٍ للدنيا والدين ، ولذةَ النظرِ إلى وجه العزيز الرحيم ، بالتمتُّع برؤية الوجه القبيح الدميم ، وسماعَ الخطاب من الرحمن ، بسماع المعازف والغناء والألحان ، والجلوسَ على منابر اللؤلؤ والياقوت والزبرجد في يوم المزيد ، بالجلوس في الطرقات مع كُلّ شيطان مريد .

فلو توهَّم المتخلف عن هذه الرفقة ما أعدَّ الله لهم من الإنعام ، وادَّخر

لهم من الفضل والإكرام ، وما أخفى لهم من قُرَّة أعين لم يقع على مثلها بصرٌ ، ولا سمعتْهُ أُذُنٌ ، ولا خَطَرَ على قلب بشر - لعلم أي بضاعة أضاع ، وأنه لا خير له في حياته ، وهو معدود من سقط المتاع .

فياعجبًا لها ، كيف نام طالبها وكيف لم يسمح بمهرها خاطبُها ، وكيف طاب العيش في هذه الدار بعد سماع أخبارها ، وكيف قرَّ للمشتاق القرارُ دون معانقة أبكارها ، وكيف قرّت دونها أعينُ المشتاقين ، وكيف صبرت عنها أنفسُ الموقنين ، وكيف صدفت عنها قلوب أكثر العالمين ، وبأي شيء تعوّضت عنها نفوس المعرضين ؟!! »[١] .

لقد حرّك الداعي إلى الله وإلى دار السلام: النفوسَ الأبية ، والهممَ العاليةَ ، وأسمع منادي الإيمان مَنْ كانت له أُذُنٌ واعية ، وأسمع الله مَنْ كان حيًّا فهزّه السماع إلى منازل الأبرار، وحدا به في طريق سيره، فما حطّت به رحاله إلا بدار القرار.

فحيَّهلا إن كنتَ ذا هِمَّة فقد ... حدا بك حادي الشوق فاطو المراحلا
وقُلْ لمنادي حبِّهم ورضاهمُ ... إذا ما دعا لَبَّيْك ألفًا كواملا
ولا تنظرِ الأطلالَ من دونهم فإنْ ... نظرتَ إلى الأطلال عُدْنَ حوائلا
فلا تنتظرْ بالسير رفقةَ قاعدٍ ... ودعْهُ فإنَّ الشوقَ يكفيك حاملا
وخذْ منهم زادًا إليهم وسِرْ على ... طريق الهدى والحب تصبح واصلا
وأحي بذكراهـم سراك إذا دنت ... ركابُك فالذكرى تُعيدك عاملا
وإما تخافنَّ الكلال فقل لها ... أمامك وردُ الوصل فابغِ المناهلا
وخذْ قبسًا من نورهم ثم سِرْ به ... فنورُهم يهديك ليس المشاعلا[٢]

لا تضعْ عصا السير عن عاتقك حتى تبدوَ لك أعلامُ دارِك وخيامها ،

---

(١) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح لابن قيم الجوزية صـ ٦ - ٧ .
(٢) زاد المعاد لابن قيم الجوزية .

وواصلِ السيرَ ليلَ نهارَ ، فعند الصباحِ يحمدُ القومُ السرى .

كيف لا يتسارع في يومه وغده ، سير مَنْ قطع به أمسُهُ مرحلةً نحو غايته ، ومن أيقن أنه يتبع رسولًا من أولي العزم ﷺ ، فكيف لا يستمد منه عزمه[١] .

النية الصالحة ، والهِمَّة العليَّة : نفسٌ تضيء ، وهمّة تتوقَّد .

وبَعْدُ ، ياداعية الإسلام :

إن مَنْ جَدّ وجد ، وليس من سهر كمن رقد .

هذا دبيب الليالي يُسارق نفسك ساعاتها ، وإنَّ سِلَعَ المعالي غاليات الثمن ، وإنما ثمنُها اتِّباع مدارس السلف ، فانظر لنفسك واغتنم وقتك ، فإن الثواء قليل ، والرحيل قريب ، والطريق مخوف ، والاغترار غالب ، والخطر عظيم ، والناقد بصير[٢] .

لو قال لك البطّالون من الكسالى: «لو تفرَّغت لنا»؛ فاقرعْ أسماعهم بصوت عمر بن عبد العزيز : وأين الفراغ ؟ ذهب الفراغ ، فلا فراغ إلَّا عند الله ، لا مُستراح للعابد إلا تحت شجرة طوبى .

كن ممن قال فيهم البنا رحمه الله :

قد سهرت عيونهم والناس نيام، وشُغلت نفوسهم والخليُّون هُجَّع[٣].

من هشيم فيك أذكِ اللهبا ... من تراب فيك أطلع شهبا
من لهيب القلب عِلمُ الكامِلِ ... مقصْد الإسلام تركُ الآفل
صدَّ إبراهيم عما يأفل ... فحوته كالجنان الشعل[٤]

(١) الرقائق صـ ٤١ .
(٢) الرقائق صـ ١٣٧ .
(٣) إلى أي شيء ندعو الناس . للبنا ، المجموعة صـ ٢٩١ .
(٤) الأسرار والرموز .

قيل لبعض العباد : ارفقِ بنفسك . قال : الرفقَ أطلبُ ، أو : من الرفق أتيت[(١)] .

لما عرف الصالحون قدْرَ الحياة؛ أماتوا فيها الهوى فعاشوا، انتهبوا بأكُفِّ الجدِّ، ما قد نثرته أيدي البطَّالين، ثم تخايلوا القيامة، فاحتقروا الأعمال، فماتت قلوبهم بالمخافة، فاشتاقت إليهم الجوامد، فالجذعُ يحنُّ إلى الرسول ﷺ، و « إن الجنة لتشتاق إلى ثلاثة : علي وعمَّار وسلمان »[(٢)] ، أنفوا من مزاحمة الخلق في أسواق الهوى ، وقوي شوقهم فلم يحتملوا حصْرَ الديار ، فخرجوا إلى فضاء العز في صحراء التقوى ، وضربوا مخيم الجدِّ في ساحة المجد .

ليكن نشيدك : لا لا يا قيود الأرض .
أأقنع بروضة على مزبلة والملك يدعوني إلى فردوسه الأعلى ؟!
أأرضى بخرابات البلى عن الفردوس الأعلى ، يالها صفقة غبن ؟!
أأقنع بخسائس الحشائش والرياض مُعشبةٌ بين يديَّ ؟!
لا يحصل خطير إلا بخطر ، فالدُّرُّ في عقر اليم .
مَنْ لم تبكِ الدنيا عليه ، لم تضحك الآخرة إليه .

لو قُرب الدُّرُّ على جلابه ... ما لججّ الغائص في طِلَابهِ
ولو أقام لزما أصدافه ... لم تكنُ التيجانُ في حسابهِ
ما لؤلُؤُ البحرِ ولا مرجانُه ... إلا وراءَ الهولِ من عُبابهِ
من يعشقِ العليا يلق عندها ... ما لقي المُحبُّ من أحبابهِ[(٣)]

---

(١) اللطف في الوعظ لابن الجوزي صـ ١٥ .

(٢) حَسَنٌ: رواه الترمذي والحاكم في المستدرك عن أنس، وحسَّنه الترمذي والألباني في صحيح الجامع رقم (١٥٩٤)، لكنه قال في المشكاة حديث (٦٢٢٥): وإسناده ضعيف، وإنْ حسَّنه الترمذي، فإنَّ فيه عنعنة البصري، وفيه أبو ربيعة الإيادي.

(٣) اللطف في الوعظ لابن الجوزي صـ ٥١١ .

وقتُ العارِفِ جَدٌّ كُلُّه ؛ لعلمه بشرف الزمان ، لا وجه للراحة ، لما عاينت أبصار البصائر يوسف العواقب ؛ قطعت أيدي الهوى بسكين الشوق ، فإذا حان حين الحين؛ فرح سائر الليل بقطع المنزل، وصاحت ألسنة الجد بالعاذلين ﴿ **فذلكن الذي لُمْتُنَّني فيه** ﴾ .

قلوب أبتْ أن تعرف الصبر عنه « ما بأحشائهم عشقت فأسلو أثمان المعالي غالية ، فكيف يستامها مفلس ؟ » .

وكيف يُنال المجدُ والجسمُ وادعٌ وكيف يُحازُ الحمدُ والوفرُ وافرُ

كلما تعاظمت الهِمَمُ ، تصاغرت الجُثَثُ .

ولستَ ترى الأجسامَ وهي ضئيلةٌ نواحلَ إلا والنفوسُ كبـارُ[(١)]

العوامُّ يحملون المشاقَّ بنفوسهم وجسومهم، والخواصُّ بقلوبهم وهمومهم، وقالوا : « والقلب يحمل ما لا يحملُ البدن » ، وقالوا :

وإنْ تروني أعاديها فلا عجبٌ على النفوس جنايات من الهممِ

عن زِرّ بن حبيش عن ابن مسعود، أنه كان رقيق الساقين ، فجعلت الريح تُلقيه ، فضحك القوم منه ، فقال رسول الله ﷺ : « مِمَّ تضحكون ؟ » . قالوا : يانبي الله ، مِن رِقّة ساقَيْه . قال : « والذي نفسي بيده ، لهُما أثقلُ في الميزان من أُحدٍ » . قال ابن كثير: تفرَّد به أحمد ، وإسناده جيِّد قوي[(٢)] .

مفاوز الدنيا تُقطعُ بالأجسام ، ومفاوز الآخرة تُقطع بالهِمَم والقلوب ، والتذلُّل لعلَّام الغيوب ، وأبواب الملوك لا تقرع بالأظافير ، بل بوجيب القلوب .

عالي الهمة لسان حاله :

إذا اشتغل اللاهون عنك بشغلهم جعلتُ اشتغالي فيك يا منتهى شُغلي

لسان حاله يقول :

---

(١) اللطف في الوعظ صـ ٦٦ ، ٦٧ .

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ٢/٢٩ .

قلبُهُ تحت سماءٍ لا يقرّْ ... هو فوق الزهرِ ما إنْ يستقرّْ
طائر ينقرُ نجمَ الحُبُكْ ... طائرًا فيما وراء الفلك[1]

«الكيِّسُ يقطعُ من المسافة بصحة العزيمة، وعُلُوِّ الهمة، وتجريد القصد، وصحة النية مع العمل القليل ؛ أضعافَ أضعافَ ما يقطعه الفارغ من ذلك ، مع التعب الكثير والسفر الشاقّ ، فإن العزيمة والمحبة تُذهِبُ المشقةَ ، وتُطيِّب السيرَ ، والتقدم والسبق إلى الله ، إنما هو بالهِمَمِ وصِدْقِ الرغبة والعزيمة ، فيتقدم صاحب الهمة – مع سكونه – صاحب العمل الكثير بمراحل[2] .

مَنْ لي بمثل سيرك المُدلَّل ... تمشي رويدًا وتجي في الأوّل

أخي ، استجلب نور القلب بدوام الجد ، إنه استعلاء ، ثمنُهُ التعبُ ، ليكن شعارك الصبر ، وراحتك التعب .

إن الداعية المسلم لايملك نفسه حتى يسوغ له أن يمنح نفسه إجازة ، وإنما هو « وقفٌ لله تعالى » .

اعلم يا أخي « أن الراحة للرجال غفلة » كما يقول الفاروق رضي الله عنه ، وأتعبُ الناسِ من جلَّت مطالبه .

قال شعبة : لا تقعدوا فراغًا ، فإن الموت يطلبكم .

سأل سائل ابن الجوزي : أيجوز أن أفسح لنفسي في مباح الملاهي ؟ فقال له : عند نفسك من الغفلة ما يكفيها .

يقول ابن القيم: لابد من سِنَةِ الغفلة ورقاد الغفلة، ولكن كن خفيف النوم.

وانتبه من رقدة الغفـ ... ـلة فالعمر قليلْ
واطّرح سوف وحتى ... فهما داء دخيلْ

---

(١) الأسرار والرموز لإقبال .
(٢) الفوائد صـ ١٤٠ .

فاخلع الراحة يأخي ، وليكن شعارك قولَ مُعلِّمِ الخير أحمد بن حنبل لابنه : يا بُنيَّ ، لقد أعطيتُ المجهود من نفسي .

رحمك الله يا إمام ... نفسٌ لهوها التعب .

استمع إليه حين يُسأل : متى يجد العبد طعم الراحة ؟ فيقول : عند أول قدم تضعها في الجنة .

الطالب الصادق كلما ناله همٌّ أو حزن جعله في أفراح الآخرة و «من لمح فجر الأجر هان عليه ظلام التكليف » ، كما يقول ابن الجوزي ، ولعمر الله ما هو بظلام ، ولكنها لغة اضطر إليها ؛ ليعقل مرادَهُ الراقدون[1] .

سأل رجل بلالًا مولى أبي بكر رضي الله عنه ، فقال له : مَنْ سَبَقَ ؟ قال : سبق المقرَّبون ، قال : إنما أسألك عن الخيل ؟ قال : وأنا أجيبك عن الخير[2] .

أخي ، هل أنت عالي الهمة .. أم تشتاق أن تكون من عُلاة الهمة .. إذن فتعالَ ، واعرفْ صفة قلوبهم ، وحاكِهم .

فقلبُ عالي الهمة : قلبٌ لا يعرف القيود والقضبان .. لا تأسره الأرض كلها وما عليها .

وقلبُ عالي الهمة : لا يُصاد بالطُّعم ، فهو مُتطلِّعٌ يَقِظٌ ، لا يعرف الغفلة ، ولا يحتال عليه كاذبٌ ، ولا يصيده شيطانٌ .

وقلبُ عالي الهمة : دائمُ الثأر من الشيطان .

يقول ابن القيم :

فإن كان قلبُه من قلوب الرجال المتسابقين في حلبة الجدِّ ؛ جدَّ في أخْذ الثأر وغاظ عدُوَّه كلَّ الغيظ وأضناه ، كما جاء عن بعض السلف : إن

---

(١) الرقائق ٤٩ - ٦٢ .

(٢) البيان والتبيين جـ٢ / ٢٨٢ للجاحظ - دار الفكر .

المؤمن لينفي شيطانه كما ينفي أحدكم بعيره في سفره[١] .

وقلبُ عالي الهمة : لا يعرف التثاؤب ، ولا الراحة ، ولا السكونَ ، ولا الترف ، « إن عبادَ الله ليسوا بالمُنعَّمين » .

وكذا كان قلب الصحابي الجليل أبي موسى الأشعري رضي الله عنه ، فقد كان يصوم حتى يعود كالخلال[٢] ، فقيل له : لو أجممت[٣] نفسك ؟ فقال : هيهات ، إنما يسبق من الخيل المضمرة[٤] .

لا ينهض القلبُ إلا حين يدفعه ... عزمُ الرجال إذا ما استيقظت فيهِ
والحَبُّ يخترقُ الغبراءَ مُندفعًا ... إلى السماء إذا هبَّت تُناديهِ
والقيدُ يألفه الأمواتُ ما لبثوا ... أما الحياة فيبليها وتبليهِ

نعم ، أبا القاسم الشابي :

إذا ما طمحت إلى غاية ... ركبتُ المنى ونسيتُ الحذرْ
ولم أتجنَّبْ وعورَ الشِّعاب ... ولا كُبَّةَ اللهب المستعرْ
ومن لا يُحبُّ صعودَ الجبالِ ... يعشْ أبدَ الدهرِ بين الحُفَرْ
وقالت لي الأرضُ لما سألتُ ... يا أم هل تكرهين البشرْ ؟
أباركُ في الناس أهلَ الطموح ... ومَنْ يستلذُّ ركوبَ الخطرْ
وألعنُ من لا يُماشي الزمانَ ... ويقنعُ بالعيشِ عيش الحجَرْ
هو الكونُ حيٌّ، يُحبُّ الحياةَ ... ويحتقرُ الميْتَ مهما كبُرْ
فلا الأفقُ يحضنُ ميْتَ الطيورِ ... ولا النحلُ يلثمُ ميْتَ الزهرْ

---

(١) « نفا بعيره هزله ، ونفا ثوبه خلعه ، ونفا سيفه سلَّه » مختار الصحاح ٦٦٥ .
(٢) العود الذي يُخلِّل به الأسنان .
(٣) أي تركتها تستريح . من كتاب صفة الصفوة لابن الجوزي ١/٥٦٠ .
(٤) من كتاب الوقت عمار أو دمار لجاسم محمد بدر المطوع- بتصرف جـ٢/٢٦-٣١.

هذا هو الشعر ، وإلا فلا .

كن كالصقور على الذُّرا تصغي لوسوسة القمـرْ
لا كالغراب يُطارد الـ ـجيفَ الحقيرة في الحُفر

نعم .

إذا أنتَ غمَّت عليك السماءُ وضَلَّتْ حواسُّك عن صُبْحها
فعشْ دودةً في ظلام القبور تغوصُ وتسبحُ في قيحها

يا مُخنَّثَ العزم ، أقلُّ ما في الرقعة البيذق ، فلما نهض تفرزنَ[1] .

أخي ، إنما تفاوتَ القومُ بالهِمَم لا بالصُّوَر .

أخي ، الدنيا مضمار سباق ، وقد انعقد الغبار ، وخفي السابق ، والناس في المضمار بين فارس وراجل ، وأصحاب حُمُرٍ معقرة .

سوف ترى إذا انجلى الغبارُ أتحتك فــرسٌ أم حمارُ[2]

رأى بعض الحكماء برذونًا[3] يُسقى عليه، فقال: لو هملج[4] هذا لرُكب.

طِرْ بجناح الجدِّ مِنْ وكْر الكسل ، تابعًا آثارَ الأحباب تصل .

تَلَفَتُّ حتى لم يبنْ من ديارهم جنابٌ ولا من نارهنَّ وقودُ
وإنَّ التفاتَ القلبِ من بعد طرْفِهِ طوالَ الليـالي نحوهـم لَيَزِيدُ
ولو قال لي الغادون ما أنت مُشتَهٍ غداة جزعنا الرمل قلتُ أعودُ

(١) الفوائد لابن القيم صـ ٦٠ . البيدق أو البيذق « فارسي مُعرَّب » من العساكر : تفرزن البيدق ، صار فرزانًا من الفرزان ، وهو الملك في لعبة الشطرنج ، والمعنى أن الإنسان إذا جدَّ واجتهد ؛ فاز وساد .
(٢) الفوائد صـ ٦٦ .
(٣) البرذون : دابة دون الخيل وأقدر من الحمير « البغل » .
(٤) هملج : مشى مشية سهلة في سرعة .

أأصبر والوعساء بيني وبينهم ... وأعلام خبتٌ إنني لجليـدُ

يا هذا .. الجد جناح النجاة ، والكسل كمزن ، مَنْ كدَّ كدَّ العبيد ؛ تنعَّم تنعُّم الأحرار ، ومَنِ امتطى راحلة الشوق ، لم يشُقَّ عليه بُعْدُ السفر .

على قدْر أهل العزم تأتي العزائم ... وتأتي على قدرِ الكرام المكارمُ

يا هذا .. ركائب الرحيل قد أُنيخت بالجناب ولم تتحرَّج ، وناقد البايع قائم على الباب ، ونقدك بهرج ، كيف يلحق السابقين كسلانُ أعرجُ !! استوطأت مهاد الكسل ، وإبر النحل دون العسل .

إخواني ، إلى متى سُكر عن المقصود ؟ ألا صَحْوُ ساعة !

إنْ دنت هِمَّتك فخفْ من عقوبته ، وإنْ عَلَتْ قليلًا فارغب في معاملته ، وإن تناهتْ فتعلَّقْ بمحبته .

إن قصُرت هِمَّتُك فآثرتْ قطْعَ الشوك صحبك حمارٌ ، وإنْ رضيت سياسة الدواب رافقك بغلٌ ، وإن سددت بعض الثغور أُعطيتَ فرسًا ، فإن كنتَ تُحسن السباق ؛ كان عربيًّا ، فإنْ عزمتَ على الحج ركبتَ جملًا ، وإن شمخت هِمَّتُك إلى المَلِك ، فالفيل مركب الملوك .

رأيتُ عليَّات الأمور منوطة ... بمستودعات في بطون الأساودِ

ليس كل الخيل للسباق ، ولا كل الطيور تحمل الكتب .

أخي ، من طلب الأنْفَسَ هجر الألذَّ ، مَن اهتمَّ بالجوهر نسي العرض .

في حُبِّكم يهون ما قد ألقى ... ما يحصل بالنعيم من لا يشقى

ما وصل القوم إلى المنزل إلا بعد طول السرى ، ما نالوا حلاوة الراحة إلا بعد مرارة التعب ، فأين أنت من هذا ؟!

يا من إذا أصبح طلب المعاش بالشهوات ، وإذا أمسى انقلب إلى فراش الغفلات ، أين أنت من أقوام نصبوا الآخرة نُصْبَ أعينهم فنصبوا ، فوفر النصب نصيبهم ﴿ **إنا أخلصناهم بخالصةٍ ذكرى الدار** ﴾ .

قال بعض السلف : لقيت رجلًا في برية ، فقلت : من أين ؟ فقال : من عند قوم ﴿ **لا تُلهيهم تجارةٌ ولا بيْعٌ عن ذكر الله** ﴾ ، فقلت : وإلى أين ؟ فقال : إلى قوم ﴿ **تتجافى جنوبهم عن المضاجع** ﴾ .

بنفسي من غداة نأيتُ عنهم تركتُ القلب عندهمُ رهينا
أمالَكَ أيها القلبُ اعتبارٌ بما فعل الهوى بالعاشقينا

ملئوا مراكب القلوب متاعًا لا ينفق إلا على الملك ، فلما هبَّت رياح الدُّجى دفعت المراكب .

إذا الصَّبا سحبت أذيالها سَحَرًا على العقيق وقرّت في ربى إضَمِ
وحرَّشت بين بانِ الجزعِ ظالمةً وشيحةً وجرت في الضالِّ والسَّلم
تنفَّس الوجدُ وارتاح المشوقُ وعا ش بالروح بعد الأخذِ بالكظم

ياسوق الأكل ، أين أرباب الصيام ؟! يا فُرُشَ النوم ، أين حُرَّاسُ الظلام ؟! درست والله المعالم ، ووقعت الخيام ، قفْ بنا على الأطلال نخصُّها بالسلام .

أين سكانُك لا أين هم أحجازًا سلكوها أم شآمَا
قد وقفنا بعدهم في ربْعهم فنهبناه استلامًا والتزامَا
أترى أي طريق سلكوا ؟ أترى أي شِعبٍ أخذوا ؟
حمامة الواديين ما الخبرُ ؟ أعرّسوا بالفرات أم عبروا

إخوتاه .. انتبهوا من رقدات الأغمار ، وانتهبوا لحظات الأعمار ، وقاطعوا الكسل فقد قطع الأعذار ، واسمعوا زواجر الزمن ، فما داجي الدجى وقد بهر النهار ، وخذوا بالحزم فقد شفى تلف من رضي بشفا جُرُفٍ هارٍ .

لله دَرُّ العارفين بزمانهم ، إذْ باعوا ما شانهم بإصلاح شأنهم ، ما أقلّ ما تعبوا ، وما أيسر ما نصبوا ، وما زالوا حتى نالوا ما طلبوا ، شمَّروا عن سوق الجدِّ في سوق العزائم ، ورأوا مطلوبهم دون غيره ضربة لازم ، وجادوا

مُخلصين فربحوا إذ خسر حاتم ، وأصبحوا في منزل النجاة وأنت نايم ، متى تسلك طريقهم يا ذا المآثم ؟!متى تندب الذنوب ندْب المآتم ؟! يا رجالًا ما بانت رجوليتهم إلا بالعمائم ، يا إخوان الأمل ، قد بقي القليل ، وتفنى المواسم ، أين أنت من القوم ؟! ما قاعد كقائم .

صحب الله راكبين إلى العز طريقًا من المخافة وعــرا
شربوا الموتَ في الكريهة حُلْوا خوفَ أن يشربوا من الضيم مرّا

شمَّر المتقون عن سوق الجد في سوق المعاملة ، كلما رأوا مراكب الحياة تخطف في بحر العمر ؛ شغلهم هولُ ما هم فيه عن التنزُّه في عجائب البحر ، فما كان إلا قليل حتى قدموا من السفر ، فاعتنقتهم الراحة في طريق التلقِّي ، فدخلوا بلد الوصل ، وقد حازوا ربح الدهرِ .

زمُّوا المطايا فدمعُ العين منطلقٌ والقلبُ عانٍ وراء الخوف مأسورُ
فغلَّسوا من زرود وجه يومهمُ وحطّهم لظلال البانِ تهجيرُ
وضمَّنوا الليلَ سلعا إذ رأوه وقد غنَّتْ على فنقِ سلع العصافير

أملُهم أقصرُ من فتر ، منازلهم أقفرُ من قبر ، نومُهم أعزُّ من الوفاء ، السهر عندهم أحلى من رقدة الفجر ، أخبارهم أرقُّ من نسيم السَّحَر ، آماقهم بالدموع دامية ، والهموم على الجوانح جوانح ، لأنفسهم أنفاسٌ من مثلها يهيج البهيجُ ، روض رياضتهم مطلول الخمايل ، يُحَدِّث ريًّا ريِّه عنهم ، فالرايحة رائجة بالخير ، خذْ حديث القوم جملة واقنع بالعنوان ؛ كواكبُ هِمَمِهم في بروج عزائمهم سيَّارة ، ليس فيها زُحَل . ناموا في الدجى على مهاد القلق ، فلمّا جنَّ الليل جنَّ الحذر ، فاستيقظت عينٌ ما تهنَّت بطعم الرقاد .

كفى سائقًا بالشوق بين الأضالعْ لهيبُ اشتياقٍ ثم فيضُ مدامعْ

كلهم قد بات بليل النابغة ؛ التائب يقول : أنا المُقرُّ على نفسي بالخيانة ! أنا الشاهد عليها بالجناية !

اعفُ عني وأقلْني عثرتي ... يا عتادي لِمُلمَّاتِ الزمنْ
لا تُعاقبني فقد عاقبني ... ندمٌ أقلق روحي في البدنْ

والمتعبِّدُ يبكي على الفتور بكاء الثكلى بين القبور ، ويندب زمان الوصال ، ويتأسَّف على تغير الحال .

قد كان لي مشربٌ يصفو برؤيتكم ... فكدَّرته يدُ الأيام حين صفا

والخائف ينادي : ليت شعري ، ما الذي أسقطني من عينك ، أَقلتَ : هذا فراقُ بيني وبينك ؟!

آهٍ لأمراض نفوسٍ قد يئس طبيبُها، ولأصوات مواعظَ قد أخرس مُجيبُها.

الحزمُ مطيَّة النُّجْح ، والطمعُ مركبُ التلف ، والتواني أبو الفقر ، والبطالةُ أُمُّ الخسران ، والتفريطُ أخو الندم ، والكسلُ ابنُ عمٍّ الحسرة .

أخي ، ما يحصل بردُ العيش إلا بحرِّ التعب ، ما العزُّ إلا تحت ثوب الكدِّ ، على قدر الاجتهاد تعلو الرُّتب .

هذا جمعٌ جمعتُه لكل مسلم ؛ صادقِ الإيمان ، نقيِّ العقيدة ، ذي همَّة ، ينظر إلى واقع الأمة وسقوطها في المستنقع الآسن .

وقائلة لِمَ غيّرتك الهمومُ ... وأمرُك مُمتثلٌ في الأممْ
فقلتُ ذريني عَلَى غَصَّتي ... فإن الهمومَ بقدر الهمَمْ

هذا الوحل ... وهذا الواقع المرير الذي يُبكي قلوب الرجال ، وآهٍ من بكاء الرجال ... فما ظنُّك ببكاء النساء ... وبكاء المقدسات .

أيا فلسطين .. من يُهديك أفئدةً ... ومن يُعيدُ لك البيتَ الذي خربا
شرِّدتِ فوق رصيفِ الدمع باحثةً ... عن الحنان ولكن ما وجدتِ أبا
تلفَّتـي تجدينـا في مباذلنـا ... من يعبدُ الجنسَ أو من يعبدُ الذهبا
يا شامُ إن جراحي لا ضفافَ لها ... فمسِّحي عن جبيني الحزنَ والتَّعبا
أتيتُ من رحم الأحزانِ يا وطني ... أقبِّلُ الأرضَ والأمجادَ والشُّهُبَا

أنـــا قبيلـــةُ آلامٍ بكاملهـــا ... ومن دموعِي سقيتُ البحرَ والسُّحُبَا
ياشامُ أين هما عينا معاوية ... وأين من زاحموا بالمنكبِ الشُّهُبَا
وقبرَ خالد في حمصٍ نُلامسُهُ ... فيرجفُ القبرُ من زوَّاره غضبا
يارُبَّ حيٍّ ترابُ القبر مسكنُهُ ... ورُبَّ ميْتٍ على أقدامِهِ انتصبا
يا ابن الوليد ألا سيفٌ نؤجِّرُهُ ... فكلُّ أسيافِنا قد أصبحت خشبا
أدمت سياطُ حزيران ظهورَهمُ ... فأدمنوها وباسوا كفَّ مَنْ ضربا
وطالعوا كتب التاريخ واقتنعوا ... متى البنادقُ كانت تسكنُ الكُتُبا
يا مَنْ يُعاتب مذبوحًا على دمه ... ونزف شريانه ما أسهل العتبا
من جرّب الكيّ لا ينسى مواجعَه ... ومن رأى السُّمَّ لا يسقى كمن شربا
حبل الفجيعة ملتفٌ على عنقي ... من ذا يُعاتب مشنوقًا إذا اضطربا

والأحزان والمصائب تشحذ الهمم ، وتصنع الرجال .

يا أمتي عارٌ تـردَّد أننـا ... أبناءُ مَنْ سادوا الأنامَ وكانوا
والقدسُ غارقةٌ يُمزِّقها الأسى ... ويُعيد رجْعَ أنِينها الجولان
حتّامَ ينخرُ في عزائمنا الهوى ... وتُذيبنا الآهاتُ والأحـزانُ

نعم ... إن لم تحفزْنا المصائب ... وتُغْـلِ هممَنا الآلامُ والأحزانُ ... فما الذي يُعلينا ... ياله من دين لو أن له رجالًا .

ورحتُ من سفرٍ مضنٍ إلى سفرٍ ... أضنى لأنّ طريق الراحةِ التعبُ
لكن أنا راحلٌ في غير ما سفرٍ ... رحلي دمي وطريقي الجمرُ والحطبُ
إذا امتطيتُ ركابًا للنوى فأنا ... في داخلي أمتطي ناري وأغتربُ
قبري ومأساة ميلادي على كتفي ... وحوليَ العدمُ المنفوخُ والصخبُ
لكن موت المجيد الفذِّ يبدؤهُ ... ولادة من صباها تُرضَعُ الحِقَبُ
حبيبُ ما زال في عينيك أسئلةٌ ... تبدو وتنسى حكاياها فتنتـقبُ
ولا تزال بحلقي ألفُ مُبكيـةٍ ... من رهبةِ البوح تستحي وتضطربُ

سحائبُ الغزو تشوينا وتحجُبُنا ... يومًا ستحبَل من إرعادنا السُّحُبُ
ألا ترى يا أبا تمام بارقنا ... إن السماء تُرجَّى حين تحتجبُ[1]

فإلى الرجال وللرجال كتبتُ ، وجمعتُ جمعي للرجوع بالأمة إلى إسلامها ... لزيادة بذل ، وترقيق قلب القلب .

أنت فذٌّ وكلامي شُعَلٌ ... غُلَّ شدوي مُضرِمٌ فيك حريقا
ليس في قلبي إلا أن أرى ... قطرةً فيك غدت بحرًا عميقَا
لا عرَى الروحَ هدوءٌ ولتكن ... بحياة الكدِّ والكدح خليقا

لتكن كلّك للإسلام .. دينك لحمك .. دينك عِرضك .. دينك دمك.

سِرْ في الزمان وحدِّثْ أننا نفرٌ ... شُمُّ العرانين يومَ الهولِ نفتقدُ
عُدنا إلى الله في أعماقنا قبسٌ ... من السموات لا يغتالُه الأبدُ
جئنا نُعيدُ إلى الإسلام عزَّتَهُ ... وفوق شُمِّ الرواسي تُنصبُ العُمُدُ

أخي ، إن المستقبل كل المستقبل للإسلام .

قال ﷺ : « إن الله زوى[2] لي الأرض ، فرأيتُ مشارقها ومغاربها ، وإن أمتي سيبلغ مُلكُها ما زُوي لي منها »[3] .

وقال ﷺ : « ليبلغنَّ هذا الأمرُ ما بلغ الليلُ والنهارُ ، ولا يترك الله بيتَ مدرٍ ولا وبرٍ إلا أدخله هذا الدين بعزِّ عزيز ، أو بِذُلِّ ذليل ؛ عِزًّا يُعزُّ الله به الإسلام ، وذُلًّا يُذلُّ به الكفر »[4] .

وعن أبي قبيل قال : كنا عند عبد الله بن عمرو بن العاص ، وسُئل:أيّ

---

(١) البَرَدُّوني : من قصيدة (أبو تمام وعروبة اليوم) .
(٢) أي جمع وضمَّ .
(٣) رواه مسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجه وأحمد ، من حديث ثوبان .
(٤) صحيح : رواه ابن حبان وأبو عروبة في « المنتقى من الطبقات » وصحَّحه الألباني في الصحيحة رقم (٣) .

المدينتين تُفتح أولًا ؛ القسطنطينية أو رومية ؟ فدعا عبد الله بصندوق له حِلَق ، قال : فأخرج منه كتابًا ، قال : فقال عبد الله : بينما نحن حول رسول الله ﷺ نكتب ، إذ سُئل رسول الله ﷺ : أي المدينتين تفتح أولًا ؛ أقسطنطينية أو رومية ؟ فقال رسول الله ﷺ : « مدينة هرقل تُفتح أوَّلًا » ؛ يعني قسطنطينية[1].

لا تهيء كفني يا عاذلي فأنا لي مع الفجر مواثيق وعهدُ

وقال ﷺ : « تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة ، فتكون ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون مُلكًا عاضًّا ، فيكون ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها إذا شاء الله أن يرفعها ، ثم تكون مُلكًا جبريا فتكون ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة ، ثم سكت »[2] .

أحلامُنا لم نزل في الطين نغرسُها إنْ يرحلِ العمرُ ما للحلمِ ترحيلُ
لن يقتلوا الشمس مهما غاب موعدُها إنْ مزَّقوا الشمس لن تخبو القناديلُ
ما زلت في العين نورًا لا يُفارقُنا فالكلُّ يمضي ويبقى وحي جبريلُ

---

(١) صحيح : رواه أحمد والدارمي وابن أبي شيبة في المصنف وأبو عمرو الداني في « السنن الواردة في الفتن » وعبد الغني المقدسي في كتاب « العلم »، وقال : حديث حسن الإسناد ، والحاكم وصحَّحه ووافقه الذهبي ، وصحَّحه الألباني في الصحيحة رقم (٤) .

(٢) صحيح : رواه أحمد ، والطيالسي ، والعراقي في « محجة القرب إلى محبة العرب » وقال : صحيح . ورواه البزار والطبراني ببعضه في الأوسط وقال الهيثمي : ورجاله ثقات . وصححه الألباني في الصحيحة رقم (٥) .

فمتى ستُنبتُ ياغدي بين الثرى زهرًا وعُشبا
وبأي جزءٍ في سماء الكون سوف تصيرُ سُحبا
وبأي أرضٍ سوف تشرق ياغدي فجرًا وحبًّا
وبأي نهرٍ في بلادِ الله تسري بالرحيق وتملأُ الأرجاء خصْبا
رغم انشطارِ مسارنا في كل نبضٍ في الجوانح لم أزل أخفيك قلبًا
رغم ابتعاد مكاننا مازلت في العين الحزينة ياغدي تزدادُ قُرْبى

هذا في الدنيا ... فما ظنُّك بآمال القرْب من الله والخلود في جنته .

وأخيرًا :

ما ارتفع صوت الحادي يومًا ما لرفقة أولي صَمَم ، ولا ارتفع الفلك الأعلى لغير أهل الشموخ .

طِرْ بهمتك :

أهمّ بشيء والليالي كأنها ... تطارِدُني عن كونها وأُطارِدُ
فريدٌ عن الخِلَّان في كل بلدةٍ ... إذا عظُم المطلوبُ قلَّ المساعدُ

اللهم ما أعطيتنا مما نُحبُّ فاجعلْه قوةً لنا فيما تُحبُّ ، اللهم وما زويت عنا مما نُحبُّ فاجعله فراغًا لنا فيما تُحبُّ .

إلهي ، أدِلْنا من نفوسنا التي هي أقرب أعدائنا ، وأعظمهم نكايةً فينا ، تُلاعب خوادع آمالنا ببضائع أعمارنا ، فصرنا مفاليس ، أغارت علينا خيولُ الهوى ، فاستأسرنا بأسرنا ، فيا ملاذ الخائفين ، ياملاذ العارفين خذْ بيد مَنْ قد زلَّت قدمُ فطنتِهِ ، في مزْلَقِ فتنتِهِ ، أقِمْ من قعد به سوءُ عمله ، ويامالك الملك ، أنقذْ حبيسنا ، وخلِّصْ أسيرنا ، وسَيِّرْ أوبتنا من بلاد غربتنا ، نسألك لذة العيش بعد الموت ، وحُسْنَ النظر إلى وجهك الكريم ، وآخر دعوانا أنِ الحمدُ لله رب العالمين .

الفصْلُ الأَوَّل

عُلُوُّ الهِمَّة في الكتابِ والسُّنَّةِ

﴿ يا يحيىٰ خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيًّا ﴾

□ عُلُوُّ الهِمَّةِ في الكتابِ والسُّنَّةِ □

قال تعالى لنبيه ﷺ : ﴿ **فاستمسك بالذي أُوحي إليك إنك على صراط مستقيم** ﴾ [الزخرف : ٤٣] .

وقال تعالى له : ﴿ **ولربك فاصبر** ﴾ [المدثر :٧] .

وقال تعالى : ﴿ **وأمرْ أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقًا نحن نرزقك والعاقبة للتقوى** ﴾ [طه : ١٣٢] .

وقال تعالى : ﴿ **رب السموات والأرض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سميًّا** ﴾ [مريم : ٦٥] .

قال البقاعي في نظم الدرر (١٢ / ٢٣٢) :

« اعبده بالمراقبة الدائمة على ما ينبغي له من مثلك ، واصبر صبرًا عظيمًا بغاية جهدك على ما ينبغي الاصطبار عليه كذلك لأجل عبادته ، فإنها لا تكون إلا عن مجاهدة شديدة » .

وقال تعالى : ﴿ **يأيها المزمل قم الليل إلا قليلًا نصفه أو انقص منه قليلًا أو زِدْ عليه ورتِّل القرآن ترتيلًا إنا سنُلقي عليك قولًا ثقيلًا إن ناشئة الليل هي أشدُّ وطئًا وأقومُ قيلًا إن لك في النهار سبحًا طويلًا** ﴾ .

إنها دعوة السماء ، وكلام الكبير المتعال .. قم .. قم للأمر العظيم الذي ينتظرك والعبء الثقيل المُهيَّأ لك .. قم للجهد والنصب ، والكدِّ والتعب ، قم فقد مضى وقت النوم والراحة .. قم فتهيَّأ لهذا الأمر واستعدَّ .

وإنها لكلمة عظيمة رهيبة ، تنتزعه ﷺ من دفء الفراش في البيت الهادىء ؛ لتدفع به في الخضمِّ بين الزعازع والأنواء ، وبين الشدِّ والجذب ، في ضمائر الناس ، وفي واقع الحياة سواء .

قيل لرسول الله ﷺ : ﴿ قم ﴾ ، فقام وظل قائمًا بعدها أكثر من عشرين عامًا ! لم يسترحْ ، ولم يسكنْ ، ولم يعش لنفسه ولا لأهله ، قام وظلَّ قائمًا على دعوة الله ، يحمل على عاتقه العبء الثقيل الباهظ ، ولا ينوء به ؛ عبء الأمانة الكبرى في هذه الأرض ، عبء البشرية كلها ، وعبء العقيدة كلها ، وعبء الكفاح والجهاد في ميادين شتى .

حمل عبء الكفاح والجهاد في ميدان الضمير البشري الغارق في أوهام الجاهلية وتصوُّراتها ، المُثقَّل بأثقال الأرض وجواذبها ، المُكبَّل بأوهاق الشهوات وأغلالها ، وقام على دعوة الله ، وعلى المعركة الدائبة في ميادينها المتفرقة ؛ في شظفٍ من العيش ، والدنيا مقبلة عليه ، وفي جهد وكدٍّ ، والمؤمنون يستروحون من حوله ظلال الأمن والراحة ، وفي نَصَبٍ دائم لا ينقطع ... وفي صبر جميل على هذا كله .

إن الذي يعيش لنفسه قد يعيش مستريحًا ، ولكنه يعيش صغيرًا ويموت صغيرًا ، فأما الكبير الذي يحمل هذا العبء الكبير ... فما له والنوم ؟ وما له والراحة ؟ ما له والفراش الدافئ ، والعيش الهادئ والمتاع المريح ؟! ولقد عرف رسولنا ﷺ حقيقة الأمر وقدَّره ، فقال لخديجة رضي الله عنها : « مضى عهد النوم ياخديجة » . أجل ! مضى عهد النوم ، وما عاد منذ اليوم إلا السَّهر والتعب والجهاد الطويل الشاق .

قال تعالى : ﴿ ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزمًا ﴾ [طه : ١١٥] .

قال ابن جرير الطبري :

« ﴿ **ولم نجد له عزمًا** ﴾ . اختلف أهل التأويل في معنى العزم ها هنا، فقال بعضهم : معناه : الصبر .

قال قتادة : ﴿ **ولم نجد له عزمًا** ﴾ : صبرًا .

وقال آخرون : بل معناه : الحفظ ، قالوا : ومعناه : ولم نجد له حفظًا لما عهدنا إليه .

عن عطية قال : حفظًا لما أمرته .

وقال ابن عباس : لم نجد له حفظًا .

وقال ابن زيد : العزم : المحافظة على ما أمره الله تبارك وتعالى بحفظه والتمسُّك به .

عن ابن عباس قال : لم نجعل له عزمًا .

قال أبو جعفر : وأصل العزم : اعتقاد القلب على الشيء يُقال منه : عزم فلان على كذا : إذا اعتقد عليه ونواه ، ومن اعتقاد القلب : حفظ الشيء ، ومنه : الصبر على الشيء ؛ لأنه لا يجزع جازعٌ من خور قلبه وضعفه، فإذا كان كذلك، فلا معنى لذلك أبلغ مما بيَّنه الله تبارك وتعالى، فيكون تأويله : ولم نجد له عزمَ قلبٍ على الوفاء لله بعهده ، ولا على حفْظ ما عهد إليه »[(١)] .

اعلم أن التحرُّرَ من رغائب النفس وشهواتها يحفظ للروح حرية الانطلاق من الضرورات عندما تريد ، فلا تستعبدها الرغائب وتقهرها ، فعالي الهِمَّة مَنْ يقول لقيود الأرض : لا ...لا ياقيود الأرض .

* * *

قال تعالى: ﴿واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار إنا أخلصناهم بخالصةٍ ذكرى الدار ﴾ [ص : ٤٥ - ٤٦] .

قال ابن جرير الطبري :

---

(١) تفسير الطبري ٨/٢٢١ - ٢٢٢ .

« قوله: ﴿أولي الأيدي والأبصار﴾، ويعني بالأيدي: القوة، يقول: أهل القوّة على عبادة الله وطاعته ، ويعني بالأبصار: أنهم أهل أبصار القلوب ؛ يعني به : أولي العقول الحق .

قال ابن عباس : ﴿ أولي الأيدي والأبصار ﴾ أولى القوة والعبادة، ﴿ والأبصار ﴾؛ يقول : الفقه في الدين .

وعنه : فُضِّلوا بالقوة والعبادة .

وقال منصور : ﴿ أولي الأيدي ﴾ : القوة .

وقال مجاهد : ﴿ أولي الأيدي ﴾ : القوة في أمر الله ، وقال : القوة في طاعة الله .

وقال قتادة : أُعطوا قوةً في العبادة ، وبصرًا في الدين .

وقد يمكن أن يكون عَنى بقوله ﴿ أولي الأيدي ﴾: أولي الأيدي عند الله بالأعمال الصالحة ، فجعل الله أعمالهم الصالحة التي عملوها في الدنيا أيديًا لهم عند الله ؛ تمثيلًا لها باليد، تكون عند الرجل الآخر »(١) .

قال ابن كثير :

«يعني بذلك: العمل الصالح والعلم النافع، والقوة في العبادة والبصيرة النافذة »(٢) .

قال ابن جرير في تفسيره (١٠ / ١٧١ - ١٧٢) :

« ﴿ إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار ﴾ ؛ أي أنهم كانوا يذكِّرون الناس الدار الآخرة ، ويدعونهم إلى طاعة الله والعمل للدار الآخرة .

قال قتادة : بهذه أخلصهم الله ، كانوا يدعون إلى الآخرة وإلى الله .

وقال مجاهد : بذكْر الآخرة ، فليس لهم همٌّ غيرها .

---

(١) تفسير الطبري ١٠/١٧٠ .

(٢) تفسير ابن كثير ٧/٦٦ .

وقال ابن جرير : ﴿ **إنا أخلصناهم بخالصة** ﴾: هي ذكرى الدار الآخرة ، فعملوا لها في الدنيا ؛ لأن ذلك من طاعة الله ، والعمل للدار الآخرة » .

قال ابن كثير (٧ / ٦٧) :

« قال مجاهد : جعلناهم يعملون للآخرة ، ليس لهم همٌّ غيرها ، وكذا قال السدي : ذكرُهم للآخرة ، وعملُهم لها .

وقال مالك بن دينار : نزع الله من قلوبهم حُبَّ الدنيا وذكْرها ، وأخلصهم بحب الآخرة وذكْرها ، وكذا قال عطاء الخراساني .

وقال سعيد بن جبير : يعني بالدار الجنة ؟ يقول : أخلصناها لهم بذكرهم لها » .

« أخلصهم الله بصفة خاصة ؛ ليذكروا الدار الآخرة ، ويتجردوا من كل شيء سواها ، فهذه ميّزتهم ورفعتْهم وهذه جعلتهم عند الله مُختارين أخيارًا »[1] .

* * *

قال تعالى : ﴿ وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظةً وتفصيلًا لكل شيء فخذْها بقوة وأمرْ قومَك يأخذوا بأحسنها سأوريكم دار الفاسقين ﴾

[الأعراف : ١٤٥] .

الأمر الإلهي الجليل لموسى عليه السلام أن يأخذ الألواح بقوة وعزم .

إنه كذلك يوحي بالمنهج الواجب في أخْذ كل أمة لكل عقيدة تأتيها .

إن العقيدة أمْر هائل عند الله سبحانه ، وأمْر هائل في حساب هذا

(١) الظلال ٥ / ٣٠٢٢ .

الكون ، وقدر الله الذي يصرفه .

وأمرٌ له هذه الخطورة عند الله ، وفي حساب الكون ، وفي طبيعة الحياة ، وفي تاريخ الإنسان - يجب أن يُؤخذ بقوة ، وأن تكون له جدِّيَّته في النفس ، وصراحتُه وحسمُه .

ولا ينبغي أن يُؤخذ في رخاوة ، ولا في تميُّع ، ولا في ترخُّصٍ ؛ ذلك أنه أمْر هائلٍ في ذاته ، فضلًا على أن تكاليفه باهظة ، لا يصبر عليها مَنْ طبيعتُه الرخاوةُ والتميُّع والترخُّصُ، أو من يأخذ الأمر بمثل هذه المشاعر، ويهرب من العقيدة وتكاليفها ، ويسير مع القطيع ؛ لأن السير مع القطيع لا يُكلِّفه شيئًا . وليس معنى هذا - بطبيعة الحال - هو التشدُّد والتعنُّت والتعقيد والتقبُّض، فهذا ليس من طبيعة دين الله، ولكنّ معناه الجدّ والهِمَّة، والحسم والصراحة، وهي صفات ومشاعر أخرى غير مشاعر التشدُّد والتعنُّت والتعقيد والتقبُّض »[1] .

لقد تحمَّل موسى تكاليف العقيدة ، وقام بأمر الدعوة كأكمل ما يكون القيام ، وعانى من أمة القبط ، وصلف فرعون وغروره وتكبُّره ... وتحمَّل ما تحمَّل من بني إسرائيل ... وهيَّأ نفسه ، وأخذها بأشدِّ ما تؤخذ به النفوس من العبادة ؛ تهيؤًا للقاء الله .

قال تعالى : ﴿ **وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتمَّ ميقاتُ ربِّه أربعين ليلة وقال موسى لأخيه هارون اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين** ﴾ [الأعراف : ١٤٢] .

قال ابن كثير :

« قال المفسرون : فصامها موسى عليه السلام ، فلما تمّ الميقات استاك بلحاء شجر ، فأمره الله بأن يُكمل بعشر أربعين ، ولما تمَّ الميقات عزم موسى

---

(١) الظلال ٣/١٣٧٠ بتصرف .

على الذهاب إلى الطور؛ شوقًا للقاء الله والوقوف بين يديه، وقد ذاق حلاوته، فانظر إلى عُلُوِّ همَّته . قال تعالى : ﴿ **وما أعجلك عن قومك ياموسى قال هم أولاء على أثري وعجلتُ إليك رب لترضى** ﴾ [طه: ٨٣- ٨٤] » .

* * *

قال تعالى : ﴿ اصبرْ على ما يقولون واذكرْ عبدنا داود ذا الأيد إنه أوَّاب ﴾ [ص : ١٧] .

قال ابن جرير الطبري (١٠ / ١٣٦) :

« يعني بقوله : ﴿ **ذا الأيد** ﴾ : ذا القوة والبطش الشديد في ذات الله ، والصبر على طاعته .

قال مجاهد : ذا القوة في طاعة الله .

وقال قتادة : أُعطي قوة في العبادة ، وفقهًا في الإسلام .

وقال السدي : ذا القوة في طاعة الله . وكذا قال ابن زيد : ذا القوة في عبادة الله .

وقد قال رسول الله ﷺ : « كان داودُ أعبدَ البشر »[1] .

وقال ﷺ : « أحبُّ الصيام إلى الله صيامُ داود ؛ كان يصوم يومًا ويُفطر يومًا ، وأحبُّ الصلاة إلى الله صلاة داود ؛ كان ينامُ نصف الليل ، ويقوم ثُلُثَهُ ، وينام سُدسَه »[2] .

* * *

---

(١) حسن : رواه الترمذي والحاكم في المستدرك عن أبي الدرداء ، ورواه البخاري في التاريخ عن أبي الدرداء ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٤٣٢٩ .

(٢) رواه أحمد والبخاري ومسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه .

وقال تعالى : ﴿وزكريا إذ نادى ربه رب لا تذرني فردًا وأنت خير الوارثين فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبًا ورهبًا وكانوا لنا خاشعين﴾ [الأنبياء : ٨٩ - ٩٠] .

* * *

قال تعالى : ﴿ يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكمَ صبيًّا ﴾ [مريم : ١٢].

« ورث يحيى أباه زكريا ، ونودي ليحمل العبء ، وينهض بالأمانة في قوة وعزم ، لا يضعف ولا يتهاون ولايتراجع عن تكاليف الوراثة .

آتاه الله الحكمة صبيًّا، فكان فذًّا في زاده، كما كان فذًّا في اسمه وميلاده فالحكمة تأتي متأخرة ، ولكن يحيى قد زُوِّد بها صبيًّا »[1] .

* * *

وقال تعالى عن بني إسرائيل : ﴿ وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطورَ خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون ﴾ [البقرة : ٦٣] .

* * *

وقال تعالى : ﴿ وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطورَ خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا قالوا سمعنا وعصينا وأُشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين ﴾ [البقرة : ٩٣] .

* * *

---

(١) الظلال ٤ / ٢٣٠٤ .

وقال تعالى : ﴿ وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظُلَّة وظنُّوا أنه واقعٌ بهم خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون ﴾ [الأعراف : ١٧١].

« لابدَّ من أخذ عهْد الله بقوة وجدٍّ ، واستجماع نفس وتصميم .. لابدّ من تذكُّر ما فيه ، واستشعار حقيقته ، والتكيُّف بهذه الحقيقة ؛ كي لا يكون الأمر كله مُجرَّد حماسة وحميَّة وقوة . فعهدُ الله منهجُ حياة ، منهجٌ يستقر في القلب تصوُّرًا وشعورًا ، ويستقر في الحياة وضعًا ونظامًا ، ويستقر في السلوك أدبًا وخُلُقًا ، وينتهي إلى التقوى والحساسية برقابة الله وخشية المصير .

ولكن هيهات ! لقد أدركت إسرائيل نحيزتها ، وغلبت عليها جِبِلَّتها » .

* * *

وقال تعالى : ﴿ ولكلٍّ وجهة هو مولِّيها فاستبقوا الخيرات أين ما تكونوا يأتِ بكم الله جميعًا إن الله على كل شيء قدير ﴾ [البقرة : ١٤٨] .

* * *

وقال تعالى : ﴿ وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مُصدِّقًا لما بين يديه من الكتاب ومُهيمنًا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكلٍّ جعلنا منكم شرعة ومنهاجًا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم في ما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعًا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون ﴾ [المائدة : ٤٨] .

* * *

وقال تعالى : ﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضُها السموات والأرض أُعدَّت للمتقين ﴾ [آل عمران : ١٣٣] .

هذا ندبٌ وأمرٌ من الله في فعْل الخيرات ، والمسارعة في نيل القُرُبات فمنِ المُشمِّر عالي الهِمَّة في الطاعات ... بانوا وكأنهم ما كانوا ..

* * *

قال تعالى : ﴿ وأنّ إلى ربك المنتهى ﴾ [النجم : ٤٢] .

قال ابن قيم الجوزية :

« مُتضمنٌ لكنز عظيم ، وهو أن كل مراد إن لم يُرد لأجله ويتصل به ؛ فهو مُضمحلٌّ منقطع ، فإنه ليس إليه المنتهى ، وليس المنتهى إلا الذي انتهت إليه الأمور كلها ، فانتهت إلى خلقه ومشيئته وحكمته وعلْمه ، فهو غاية كل مطلوب ، وكل محبوب لا يُحبُّ لأجله فمحبَّتُه عناءٌ وعذابٌ ، وكلُّ عمل لا يُراد لأجله فهو ضائع وباطل ، وكل قلب لا يصل إليه فهو شقيٌّ محجوبٌ عن سعادته وفلاحه ، فاجتمع ما يُراد منه كله في قوله : ﴿ وإنْ من شيء إلا عندنا خزائنه ﴾ [الحجر : ٢١] ، واجتمع ما يُراد له في قوله : ﴿ وأنَّ إلى ربك المنتهى ﴾ ، فليس وراءه سبحانه غاية تُطلب ، وليس دونه غاية إليها المنتهى وتحت هذا سِرٌّ عظيم من أسرار التوحيد ، وهو أن القلب لا يستقر ، ولا يطمئن ، ولا يسكن ، إلا بالوصول إليه ، وكل ما سواه مما يُحَبُّ ويُراد فمرادٌ لغيره .

وليس المراد المحبوب لذاته إلا واحد إليه المنتهى .

ويستحيل أن يكون المنتهى إلى اثنين كما يستحيل أن يكون ابتداء المخلوقات من اثنين . فمن كان انتهاء محبته ورغبته وإرادته وطاعته إلى غيره ؛

بطُل عليه ذلك ، وزال عنه ، وفارقه أحوج ما يكون إليه . ومن كان انتهاء محبته ورغبته ورهبته وطلبه هو سبحانه ؛ ظَفر بنعيمه ولذّته وبهجته وسعادته أبد الآباد »[1] .

« إن في القلب شعثًا : لا يلمُّه إلا الإقبالُ على الله .

وفيه وحشةٌ : لا يُزيلها إلا الأُنسُ به في خلوته .

وفيه حُزْنٌ : لا يُذهبه إلا السرورُ بمعرفته ، وصدق معاملته .

وفيه قلق : لا يُسكنه إلا الاجتماعُ عليه ، والفرارُ منه إليه .

وفيه نيرانُ حسراتٍ : لا يُطفئها إلا الرضا بأمره ونهيه وقضائه ، ومعانقة الصبر على ذلك إلى وقت لقائه .

وفيه طلبٌ شديدٌ : لا يقف دون أن يكون هو وحده مطلوبه .

وفيه فاقةٌ : لا يسدها إلا محبته ودوام ذكْره والإخلاص له ، ولو أُعطي الدنيا وما فيها لم تُسَدَّ تلك الفاقة منه أبدًا .

وفيه مرضٌ : لا يشفيه إلا لقاء مولاه في يوم المزيد » .

* * *

قال تعالى : ﴿ ففرُّوا إلى الله إني لكم منه نذيرٌ مُبين ﴾ [الذاريات : ٥٠] .

مَنْ صحَّ فِراره إلى الله صحَّ قرارُه مع الله .

« والتعبير بلفظ الفرار عجيبٌ حقًّا ، وهو يوحي بالأثقال والقيود والأغلال والأوهاق التي تشدُّ النفس البشرية إلى هذه الأرض ، وتثقلها عن الانطلاق ، وتحاصرها وتأسرها وتدعها في عقال ، وبخاصة أوهاق الرزق والحرص والانشغال بالأسباب الظاهرة للنصيب الموعود . ومن ثمَّ يجيء

---

(١) الفوائد لابن القيم (١٩٦ - ١٩٧) .

الهتاف قويًّا للانطلاق والتملُّص والفرار إلى الله من هذه الأثقال والقيود»[(١)].

ومن اللفتات الجميلة : أن الله حين ذكر الدنيا قال : ﴿ **فامشوا في مناكبها** ﴾، وحين ذكر الذكْر فيها قال : ﴿ **فاسعوا إلى ذكر الله** ﴾، وحين تكلَّم عن الجنة قال : ﴿ **وسارعوا** ﴾، و ﴿ **سابقوا** ﴾، وحين تكلَّم عن العليِّ قال : ﴿ **ففروا إلى الله** ﴾، ﴿ **إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلبٌ أو ألقي السمع وهو شهيد** ﴾ .

* * *

قال تعالى : ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينَّهم سُبُلَنا وإن الله لمع المحسنين ﴾

[العنكبوت : ٦٩] .

قال ابن كثير (٦ / ٣٠٣) :

« يعني الرسولَ - صلوات الله وسلامه عليه - وأصحابَه وأتباعَه إلى يوم الدين . ﴿ **لنهدينهم سُبُلَنا** ﴾ : أي لنبصرنَّهم سُبُلنا ؛ أي طرقنا في الدنيا والآخرة .

قال أحمد بن أبي الحواري : حدَّثنا عباس الهمداني أبو أحمد - من أهل عكَّا - في قول الله : ﴿ **والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين** ﴾ ؛ قال : الذين يعملون بما لا يعلمون ، يهديهم لما لا يعلمون . قال أحمد بن أبي الحواري : فحدَّثتُ به أبا سليمان الداراني فأعجبه ، وقال : ليس ينبغي لمن أُلهم شيئًا من الخير أن يعمل به حتى يسمعه في الأثر ، فإذا سمعه في الأثر عمل به ، وحمد الله حين وافق ما في نفسه » .

(١) الظلال ٦ / ٣٣٨٦ .

وقال البقاعي في نظم الدرر (١٤ / ٤٨١ - ٤٨٢) :

« ﴿ والذين جاهدوا ﴾ ؛ أي أوقعوا الجهاد بغاية جهدهم على ما دلَّ عليه بالمفاعلة. ﴿فينا﴾: أي بسبب حقِّنا ومراقبتنا؛ خاصة بلزوم الطاعات، من جهاد الكفار وغيرهم، من كل ما ينبغي الجهاد فيه، بالقول والفعل، في الشدة والرخاء، ومخالفة الهوى عند هجوم الفتن وشدائد المحن، مُستحضرين لعظمتنا . ﴿ لنهدينهم ﴾ بما نجعل لهم من النور الذي لا يضلُّ مَنْ صَحِبَه ، هداية تليق بعظمتنا . ﴿ سُبُلَنَا ﴾ التي لا سُبُل غيرها ، علمًا وعملًا ونكون معهم بلُطفنا ومعونتنا. ﴿ وإن الله لمع المحسنين ﴾ بالنصر والمعونة في دنياهم، والثواب والمغفرة في عقباهم .

قال المحاسبي : مَنْ صحَّح باطنه بالمراقبة ؛ زيَّن الله ظاهره بالمجاهدة واتباع السنة » .

وقال الشيخ سيد قطب في الظلال (٥ / ٢٧٥٢) :

« الذين جاهدوا في الله ليصلوا إليه ، ويتصلوا به . الذين احتملوا في الطريق إليه ما احتملوا ، فلم ينكصوا و لم ييأسوا . الذين صبروا على فتنة النفس ، وعلى فتنة الناس . الذين حملوا أعباءهم ، وساروا في ذلك الطريق الطويل الشاق الغريب .. أولئك لن يتركهم الله وحدهم، ولن يُضيع إيمانهم ، ولن ينسى جهادهم . إنه سينظر إليهم من عليائه فيرضاهم ، وسينظر إلى جهادهم إليه فيهديهم، وسينظر إلى محاولتهم الوصول فيأخذ بأيديهم، وسينظر إلى صبرهم وإحسانهم فيُجازيهم خير الجزاء » .

« من رفع إليهم خطوة نال منهم حظوة ، ومن ترك فيهم شهوة وجد منهم صفوةً .

الذين زيَّنوا ظواهرهم بالمجاهدات حَسُنت سرائرهم بالمشاهدات .

الذين شغلوا ظواهرهم بالوظائف أوصلوا إلى سرائرهم اللطائف .

الذين قاسوا فيهم التعب من حيث الصلوات جازاهم بالطرب من

حيث المواصلات .

ويقال : الجهاد فيه أولًا بترك المُحرَّمات ، ثم بترك الشُّبُهات ، ثم بترك الفضلات ، ثم بقطع العلاقات ، والتنقِّي من الشواغل في جميع الأوقات »[1] .

* * *

وقال تعالى: ﴿نحن نقصُّ عليك نبأهم بالحق إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربُّنا ربُّ السموات والأرض لن ندعوَ من دونه إلهًا لقد قلنا إذًا شططًا﴾ [الكهف : ١٣- ١٤] .

إنهم فتية أشدَّاء في أجسامهم ، أشدَّاء في إيمانهم ، أشدَّاء في استنكار ما عليه قومهم ، ربط الله على قلوبهم ، فإذا هي ثابتة راسخةٌ ، مُطمئنة إلى الحق الذي عرفت ، مُعتزّةٌ بالإيمان الذي اختارت . ﴿ **إذ قاموا** ﴾ والقيام حركة تدل على العزم والثبات . التفت هؤلاء الفتية إلى ما عليه قومهم فاستنكروه ، وفرَّوا بدينهم ، واختاروا الكهف على زينة الحياة .

﴿ **وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف ينشرْ لكم ربُّكم من رحمته ويهيىء لكم من أمركم مرفقًا** ﴾ .

« وهنا ينكشف العجب في شأن القلوب المؤمنة ، فهؤلاء الفتية الذين يعتزلون قومهم ، ويهجرون ديارهم ، ويُفارقون أهلهم ، ويتجردون من زينة الأرض ومتاع الحياة. هؤلاء الذين يأوون إلى الكهف الضيّق الخشن المُظلم؛ هؤلاء يستروحون رحمة الله ، ويحسُّون هذه الرحمة ظليلةً فسيحةً مُمتدةً ، ولفظة ﴿**ينشر**﴾ تُلقي ظلال السعة والبحبوحة والانفساح ، فإذا الكهف

---

(١) لطائف الإشارات ٥/٨٨ ، ١٠٦ .

فضاء فسيح رحيب وسيع ، تنتشر فيه الرحمة ، وتتسع خيوطها ، وتمتد ظلالها ، وتشملهم بالرفق واللين والرخاء ، إن الحدود الضيقة لتنزاح ، وإن الجدران الصلدة لترقّ ، وإن الوحشة الموغلة لتشفّ ، فإذا الرحمة والرفق والراحة والارتفاق .

إنه الإيمان !!

وما قيمة الظواهر ؟ وما قيمة القيم والأوضاع والمدلولات التي تعارفَ عليها الناس في حياتهم الأرضية ؟ إن هنالك عالمًا آخر في جنبات القلب المغمور بالإيمان المأنوس بالرحمن ، عالمًا تُظلِّله الرحمة والرفق والاطمئنان والرضوان »[1] .

لا تُسمع قصة الأحباب أعلى وأجلّ مما تُسمع من الأحباب ، قال عزَّ من قائل : ﴿ **نحن نقص عليك** ﴾، وأنشدوا :

وحدَّثتني يا سعد عنها فزدتني ... حنينًا فزدني من حنينك ياسعدُ

﴿ **إنهم فتية آمنوا بربهم** ﴾ .

يُقال : إنهم فتية ؛ لأنهم آمنوا على الوهلة بربهم ، آمنوا من غير مهلة ، لما أتتهم دواعي الوصلة .

ويقال : فتية ؛ لأنهم قاموا لله ، وما استقروا حتى وصلوا إلى الله .

﴿ **وزدناهم هدى وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض..** ﴾ .

لاطفهم بإحضارهم ، ثم كاشفهم في أسرارهم ، بما زاد من أنوارهم ، فلقّاهم أوَّلًا التبيين ، ثم رقّاهم عن ذلك باليقين .

﴿ **وربطنا على قلوبهم** ﴾ بزيادة اليقين حتى مَتَعَ نهارُ معارفهم ، واستضاءت شموسهم ، ولم يبق للتردُّد مجال في خواطرهم ، وتمَّت سكينة

(١) الظلال .

قلوبهم .

أفناهم عن الأغيار ، وأغناهم عن التفكُّر بما أولاهم من نور التبصُّر ، فلم تسنح فيها هواجس التخمين ، ولا وساوس الشياطين .

﴿ **إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض** ﴾ .

قاموا لله بالله ، ومَنْ قام بالله فُقِدَ عما سوى الله .

ويُقال : مَنْ قام لله لم يقعد حتى يصل إلى الله .

ويُقال : قعدت عنهم الشهوات فصحّ قيامُهم بالله .

﴿ **وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف ينشرْ لكم ربكم من رحمته ويهيىء لكم من أمركم مرفقًا** ﴾ .

العزلة عن غير الله توجب الصلة بالله ، بل لا تحصل الوصلة بالله إلا بعد العزلة عن غير الله .

ويُقال : لما اعتزلوا ما عُبد من دون الله ؛ آواهم الحق إلى كنف رعايته ، ومهَّد لهم مثوى في كهف عنايته .

ويُقال : من تبرَّأ من اختياره في احتياله ، وصدق رجوعه إلى الله في أحواله ، ولم يستعن بغير الله من أشكاله وأمثاله ؛ آواه إلى كنف أفضاله ، وكفاه جميع أشغاله ، وهيَّأ له محلًّا يتفيَّؤ فيه في برد ظلاله بكمال إقباله .

ياأخي ، انظر إلى ما في القصة ﴿ **وكلبهم باسطٌ ذراعيه بالوصيد** ﴾، ﴿ **سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم** ﴾ .

كلب خطا مع أحبائه خطواتٍ ، فإلى يوم القيامة يُتلى ﴿ **وكلبهم باسط** ... ﴾ الآية، فهل ترى أن مسلمًا يصحب أحبابه من وقت شبابه إلى وقت مشيبته يردُّه يوم القيامة خائبًا ؟!

ويُقال : كلب بسط يده على وصيد الأولياء ، فإلى يوم القيامة يُقال : ﴿ **وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد** ﴾، فهل إذا رفعها مسلم إلى الله خمسين سنة ، تُرى يردُّها خائبة ؟ هذا بكرمه لا يكون .

ويُقال : لما صحبهم الكلب ؛ لم تضرَّه نجاسة صفته ، ولا خساسة قيمته .

أخي ، إن كنت مع الأبرار وفي جوارهم ؛ حَمَلُوكَ إلى ديارهم . كن في نواحيهم ؛ يصوِّت بك صوت حاديهم .

* * *

قال تعالى : ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالمٌ لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابقٌ بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير ﴾ [فاطر : ٣٢] .

قال ابن كثير :

« **﴿ ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ﴾** : وهو الفاعل للواجبات والمُستحَبَّات ، التارك للمُحرَّمات والمكروهات .

فإذا تقرَّر هذا ، فإن الآية عامَّة في جميع الأقسام الثلاثة في هذه الأمة ، فالعلماء أغبطُ الناس بهذه النعمة ، وأولى الناس بهذه الرحمة ، « وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب ، إن العلماء هم ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يوِّرثوا دينارًا ولا درهمًا ، وإنما ورَّثوا العلم ، فمن أخذ به أخذ بحظٍّ وافر » .

قال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس في قوله : **﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا ﴾** قال : هم أمة محمد ﷺ ؛ ورّثهم الله كل كتاب أنزله ، فظالُمهم يُغفر له ، ومقتصدُهم يُحَاسبُ حسابًا يسيرًا ، وسابقهم يدخل الجنة بغير حساب .

وقال ابن عباس: السابق بالخيرات يدخل الجنة بغير حساب، والمقتصد يدخل الجنة برحمة الله ، والظالم لنفسه وأصحاب الأعراف يدخلون الجنة

بشفاعة محمد ﷺ .

قالت عائشة رضي الله عنها : أما السابق بالخيرات : فقد مضى على عهد رسول الله ﷺ ، شهد له رسول الله ﷺ بالحياة والرزق ، وأما المقتصد : فمن اتبع أثره من أصحابه حتى لحق به ، وأما الظالم لنفسه : فمثلي ومثلكم . قال : فجعلت نفسها معنا .

قال ابن كثير: وهذا منها رضي الله عنها، من باب الهضم والتواضع، وإلا فهي من أكبر السابقين بالخيرات ؛ لأن فضلها على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام .

قال كعب الأحبار: تماسّت مناكبهم ورَبِّ كعب، ثم أعطوا الفضل بأعمالهم .

وقال محمد بن الحنفية : إنها أمة مرحومة ، الظالم مغفورٌ له ، والمقتصد في الجنان عند الله ، والسابق بالخيرات في الدرجات عند الله »[1] .

الظالم من غلبت زلّاته ، والمقتصد من استوت حالاته ، والسابق من ازدادت حسناته .

« هذه كلمات جديرة بأن توحي لهذه الأمة بكرامتها على الله ، كما توحي إليها بضخامة التَّبِعة الناشئة عن هذا الاصطفاء وعن تلك الوراثة، وهي تَبِعة ضخمة ذات تكاليف، فهل تسمع الأمة المصطفاة وتستجيب ؟! »[2] .

* * *

(١) تفسير ابن كثير ٦/٥٣٢- ٥٣٥ ، انظر تفسير الطبري ٢٢/٩٠ .
(٢) الظلال ٥/٢٩٤٤ .

قال تعالى : ﴿ والسابقون السابقون أولئك المقربون ﴾ [الواقعة : ١٠] .

قال الحسن وقتادة : ﴿ **والسابقون السابقون** ﴾ : أي من كل أمة .

وقال ابن سيرين : الذين صلَّوا للقبلتين .

وقال مجاهد : هم الأنبياء عليهم السلام .

وقال عثمان بن أبي سودة : أَوَّلُهم رواحًا إلى المسجد ، وأوّلُهم خروجًا في سبيل الله .

قال ابن كثير :

« وهذه الأقوال كلها صحيحة ، فإن المراد بالسابقين هم المبادرون إلى فعل الخيرات كما أمروا ، كما قال تعالى : ﴿ **سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض** ﴾ . فمن سابق في هذه الدنيا وسبق إلى الخير ؛ كان من السابقين إلى الكرامة ، فإن الجزاء من جنس العمل ، وكما تدين تُدان؛ ولهذا قال تعالى: ﴿**أولئك المقربون في جنات النعيم**﴾»[1] .

قال ابن كثير :

« وقد اختلفوا في المراد بقوله: ﴿**ثُلَّةٌ من الأولين وقليلٌ من الآخرين**﴾، فقيل : المراد بالأولين : الأمم الماضية ، وبالآخرين : هذه الأمة . هذا رواية عن مجاهد والحسن البصري ؛ رواها عنهما ابن أبي حاتم ، وهو اختيار ابن جرير .

وهذا الذي اختاره ابن جرير هاهنا فيه نظرٌ ، بل هو قول ضعيف ؛ لأن هذه الأمة هي خير الأمم بنصِّ القرآن ، فيبعُدُ أن يكون المقربون في غيرها أكثر منها ، اللهم إلا أن يُقابل مجموع الأمم بهذه الأمة . والظاهر أن المقربين من هؤلاء أكثر من سائر الأمم ، والله أعلم .

فالقول الثاني في هذا المقام هو الراجح ، وهو أن يكون المراد بقوله :

---

(١) تفسير ابن كثير ٧/٤٩٠ - ٤٩١ .

﴿ثلة من الأولين﴾: أي من صدر هذه الأمة، ﴿وقليل من الآخرين﴾: أي من هذه الأمة .

قال الحسن : ﴿ ثلة من الأولين ﴾ : ثُلَّةٌ ممن مضى من هذه الأمة .

وعن محمد بن سيرين أنه قال في هذه الآية : ﴿ ثلة من الأولين وقليل من الآخرين ﴾ كانوا يقولون – أو يرجون أن يكونوا – كلهم من هذه الأمة .

فهذا قول الحسن وابن سيرين أن الجميع من هذه الأمة ، ولا شكَّ أن أوَّل كل أمة خيرٌ من آخرها ، فيُحتمل أن يعُمَّ الأمر جميع الأمم ؛ كل أمة بحسبها .

ولهذا ثبت في الصحاح وغيرها من غير وجه ، أن رسول الله ﷺ قال : « خير الناس قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ... »[١] .

أما الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن عمَّار بن ياسر قال : قال رسول الله ﷺ : « مثل أمتي مثل المطر : لا يُدرى أوَّله خيرٌ أم آخره»[٢]. فهذا الحديث – بعد الحكم بصحة إسناده – محمولٌ على أن الدين كما هو محتاج إلى أول الأمة في إبلاغه إلى مَنْ بعدهم ؛ كذلك هو محتاج إلى القائمين به في آخرها ، وتثبيت الناس على السنة وروايتها وإظهارها ، والفضل للمتقدم . وكذلك الزرع الذي يحتاج إلى المطر الأول وإلى المطر الثاني ، ولكن العمدة الكبرى على الأول ، واحتياج الزرع إليه آكدُ ، فإنه لولاه ما

(١) رواه البخاري ومسلم ، والترمذي وابن ماجه ، وأحمد ، وابن حبان ، وأبو يعلى ، والطبراني في الكبير ، والبيهقي في السنن .

(٢) صحيح : أخرجه أحمد عن عمار ، وأحمد والترمذي عن أنس ، والطبراني في الكبير عن ابن عمر ، وعن ابن عمرو ، ورواه الطيالسي ، وابن حبان ، وأبو نعيم في الحلية .

نبت في الأرض ، ولا تعلَّق أساسُه فيها . والغرض أن هذه الأمة أشرف من سائر الأمم، والمقربون فيها أكثر من غيرها وأعلى منزلةً، لشرف دينها، وعِظَمِ نبيِّها ﷺ »(١) .

أخي ، إن كنتَ عالي الهمة ستحلُّ قريبًا من أحبابك ، وتكون يومًا مع أشكالك .

* * *

قال تعالى : ﴿ فأما إن كان من المقربين فَرَوْحٌ وريحانٌ وجنةُ نعيم ﴾

[الواقعة : ٨٨ ، ٨٩] .

الألفاظ ذاتها تقطر رِقَّةً ونداوة ... وتُلقي ظلال الراحة الطيبة ، والنعيم اللِّين ، والأنس الكريم .

قال ابن كثير عن المقربين في تفسيره لهذه الآيات :

«هم الذين فعلوا الواجبات والمُستَحبَّات، وتركوا المُحرَّمات والمكروهات وبعض المباحات، فلهم رَوْحٌ وريحان، وتُبشِّرهم الملائكة بذلك عند الموت. والروح والريحان معناهما : أي رحمة ورزق وفرح وسرور » .

قال القشيري في لطائف الإشارات (٦ / ٩٦) :

« يُقال : الرَّوْحُ لقلوبهم ، والريحانُ لنفوسهم ، والجنة لأبدانهم .

ويُقال : رَوْح في الدنيا ، وريحانٌ في الجنة ، وجنةُ نعيمٍ في الآخرة .

ويُقال : رَوْحٌ وريحانٌ مُعجَّلان ، وجنةُ نعيم مؤجَّلة .

ويُقال : رَوْحُ نسيم القُرْب ، وريحانُ كمالِ البسطِ، وجنةُ نعيم في محلِّ المُناجاة .

---

(١) تفسير ابن كثير ٤٩٣/٧ .

ويُقال : رَوْحُ رؤية الله ، وريحانُ سماعِ كلامه بلا واسطة ، وجنةُ نعيم أن يدوم هذا ولا ينقطع في الجنة » .

* * *

قال تعالى : ﴿ واصبرْ نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعدُ عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تُطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمرُهُ فُرُطًا ﴾. [الكهف : ٢٨]

الله غايتهم ، يتوجَّهون إليه بالغداة والعشي ، لا يتحوَّلون عنه ، ولا يبغون إلا رضاه ، وما يبتغونه أجلُّ وأعلى من كل ما يبتغيه طُلَّاب الحياة .

اصبرْ نفسك مع هؤلاء ، صاحبْهم وجالسْهم وعلِّمْهم ، ففيهم الخير ، وعلى مثلهم تقوم الدعوات .

فالدعوات لا تقوم على من يعتنقونها لأنها غالبة، ومن يعتنقونها ليقودوا بها الأتباع ، ومن يعتنقونها ليُحققوا بها الأطماع ، وليتَّجِروا بها في سوق الدعوات ، تُشترى منهم وتُباع ؛ إنما تقوم الدعوات بهذه القلوب التي تتجه إلى الله وحده خالصةً له ، لا تبتغي جاهًا ولا متاعًا ولا انتفاعًا ، إنما تبتغي وجهه وترجو رضاه .

يُريدون وجهه ، وداوموا دعاءهم ربَّهم بالغداة والعشي ، ونظروا إلى الله بقلوبهم ، فأمر رسوله ﷺ بألَّا يرفع بصره عنهم ، ولا يُقلع عنهم نظره .

لا تقطع اليوم عنهم نظرك ، فإنا لا نمنع غدًا نظرهم عنَّا .

آويناهم في الدنيا بعظمائنا ، وفي عقباهم بكرائمنا .

منهم عمّـار بن ياسـر ، الذي قال فيه رسول الله ﷺ : « مُلِئ إيمانًا إلى مُشاشه »(١) .

---

(١) إسناده صحيح : رواه البزار من حديث عائشة ، وقال الحافظ في الفتح ٧ / ٩٢ : وإسناده صحيح .

إن زينة الحياة الدنيا لا ترتفع إلى ذلك الأفق العالي الذي يتطلع إليه مَنْ يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه .

أما الهامات المتشامخة التي لا تُخفِّف من غلوائها ، ولا تُطامن من كبريائها ، فهي وأقوال أصحابها سفةٌ ضائع ، لا يستحق إلا الإغفال ؛ جزاءَ ما غفلوا عن ذكر الله .

هذا دين رفيع .. لا يُعرض عنه إلا مطموسٌ ، ولا يعيبُه إلا منكوسٌ ، ولا يغفلُ عنه ويُحاربُه إلا موكوسٌ .

* * *

قال تعالى : ﴿ ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمنٌ فأولئك كان سعيُهم مشكورًا ﴾ [الإسراء : ١٩] .

الذي يُريد الآخرة لابدَّ أن يسعى لها سعيها ، فيؤديَ تكاليفها ، وينهض بتَبِعاتها ، ويُقيم سعْيه لها على الإيمان ، وليس الإيمان بالتمني ، ولكن ما وقر في القلب وصدَّقه العمل . والسعي للآخرة يمدُّ بالبصر إلى آفاقٍ أعلى ، فلا يكون المتاع في الأرض هو الهدف والغاية ، ولا ضير بعد ذلك من المتاع حين يملك الإنسان نفسه ، فلا يكون عبدًا لهذا المتاع .

وإذا كان الذي يُريد العاجلة ينتهي إلى جهنم مذمومًا مدحورًا ، فالذي يُريد الآخرة ويسعى لها سعيها ؛ ينتهي إليها مشكورًا ، يتلَّقى التكريم من الملأ الأعلى، جزاءَ السعي الكريم لهدفٍ كريم، وجزاء التطلُّع إلى الأفق البعيد الوضيء .

إن الحياة للأرض حياةٌ تليقُ بالديدان والزواحف والحشرات والهوامّ

والوحوش والأنعام ، فأما الحياة للآخرة فهي الحياة اللائقة بالإنسان الكريم على الله ، الذي خلقه فسوَّاه ، وأودع روحه ذلك السِّر الذي ينزع به إلى السماء ، وإنْ استقرَّت على الأرض قدماه . إنها رفرفة الروح إلى آفاق لائقة بكمال الإنسان ، أما الذين يقفون عند الحياة الدنيا ؛ بما فيها من نقصٍ وهبوطٍ ، ويرضونها ويستغرقون فيها ، فلا يُنكرون فيها نقصًا ، ولايُدركون أنها لا تصلح أن تَكون نهاية البشر ، فإنها تهبط بهم ثم تهبط ؛ لأنهم لا يرفعون رؤوسهم إلى قمة ، ولا يتطلَّعون بأبصارهم إلى أفق ، إنما يخفضون رؤوسهم وأبصارهم دائمًا إلى هذه الأرض وما عليها .

* * *

قال تعالى : ﴿ انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجاتٍ وأكبر تفضيلًا ﴾ [الإسراء : ٢١] .

« من شاء التفاوت الحق ، ومن شاء التفاضُل الضخم ، فهو هناك في الآخرة . هنالك في الرقعة الفسيحة ، والآماد المتطاولة التي لا حدود لها... وفي ذلك فليتنافس المُتنافسون، لا في متاع الدنيا القليل الهزيل»(١).

* * *

(١) الظلال ٤ / ٢٢١٨ - ٢٢١٩ .

قال تعالى : ﴿ إن الأبرار لفي نعيم على الأرائك ينظرون تعرف في وجوههم نضرة النعيم يُسقون من رحيقٍ مختوم ختامُه مسكٌ وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ﴾ [المطففين : ٢٢ - ٢٦] .

« **﴿ إن الأبرار لفي نعيم ﴾** اليوم وغدا ؛ اليوم في رَوْح العرفان ، وراحة الطاعة والإحسان ، ونعمة الرضا ، وأُنس القربة ، وبسْط الوصلة وغدًا في الجنة وما وُعدوا به من الزلفة والقربة »[٢] .

قال ابن كثير عن مآل الأبرار السابقين :

« وفي مثل هذه الحال فليتفاخر المتفاخرون ، ليستبق إليه المُتسابقون ، كقوله تعالى : **﴿ لمثل هذا فليعمل العاملون ﴾** » .

وقال البقاعي في نظم الدرر (٢١ / ٣٢٩ - ٣٣٠) :

« وفي ذلك الأمر العظيم البعيد المتناول - وهو العيش والنعيم والشراب الذي هذا وصفُه - فليرغبْ غاية الرغبة بجميع الجهد والاختيار المتنافسون ، الذين من شأنهم المنافسة ؛ لأنه نفيسٌ جدًّا ، والنفيس هو الذي تحرص عليه نفوس الناس وتتغالى فيه ، والمنافسة في مثل هذا بكثرة الأعمال الصالحات والنيَّات الخالصة » .

الأبرار المُقربون من علَتْ بهم هِمَمُهم وأعمالهم، وحظَوْا بجوار الملك.. كتابهم في عِلِّيِّين ، يشهده المُقربون من الملائكة ، وهذا يُلقي ظلًّا كريمًا طاهرًا رفيعًا على كتابهم ، فهو موضع مشاهدة المُقربين من الملائكة ، ومُتعتُهم بما فيه من كرائم الأفعال والصفات ، وهذا ظِلٌّ كريم شفيف ، يُذكر بقصد التكريم .

تفيض نضرة الأبرار على وجوههم وملامحهم ، وشرابهم مُصفى ، ختامُه مسك . وإنما يكون التنافس في ذلك النعيم ، وفي ذلك التكريم ..

---

(١) لطائف الإشارات للقشيري ٥ / ٢٧٠ .
(٢) الظلال بتصرف ٦ / ٣٨٥٩ - ٣٨٦٠ .

فهو مطلب يستحقُّ المنافسة ، وهو أفق يستحق السباق ، وهو غاية تستحق الغلاب . والذين يتنافسون على شيء من أشياء الأرض ، مهما كَبُر وجلَّ وارتفع وعظُم ، إنما يتنافسون في حقير قليل ، فانٍ قريب . والدنيا لا تزن عند الله جناح بعوضة ، ولكن الآخرة ثقيلة في ميزاته . فهي إذن حقيقة تستحق المنافسة فيها والمسابقة . ومن عجب أن التنافس في أمْرِ الآخرة يرتفع بأرواح المتنافسين جميعًا، بينما التلفس في أمر الدنيا ينحطُّ بها جميعًا. والسعي لنعيم الآخرة يُصلح الأرض ويعمرها ويُطهِّرُها للجميع، والسعي لعَرَض الدنيا يدع الأرض مُستنقعًا وبيئًا ، تأكل فيه الديدان بعضها البعض ، أو يتنهش فيه الهوامُّ والحشرات جلود الأبرار الطيبين ، وياله من مستنقع آسن !!

إنّ عمر المرء في هذه العاجلة محدودٌ، وعمره في الآجلة لا نهاية له، وإنّ متاع هذه الأرض في ذاته محدود، ومتاع الجنة لا تحُدُّه تصوُّراتُ البشر، وإنّ مستوى النعيم في هذه الدنيا معروف، ومستوى النعيم هناك يليق بالخلود! فأين مجال من مجال؟! وأين غاية من غاية؟! إلا إن السباق إلى هناك»(١)؛ السباق إلى القرب، وتعليق القلب بالله، وجولان الهمم في الملكوت .

* * *

وقال تعالى : ﴿ لمثل هذا فليعمل العاملون﴾ [الصافات : ٦١] .

لمثل هـذا النعيم الذي لا يُدركه فوتٌ ، ولا يُخشى عليه من نفـاد ،

---

(١) الظلال بتصرف ٦ / ٣٨٥٩ - ٣٨٦٠ .

ولا يعقبُه موتٌ ، ولا يتهدَّدُه العذابُ ؛ لمثل هذا فليعمل العاملون ، فهذا هو الذي يستحق الاحتفال ، وما عداه - مما يُنفق فيه الناس أعمارهم على الأرض - زهيدٌ زهيدٌ ، حين يُقاس إلى هذا الخلود والنعيم الآمن الدائم الراضي ، والتكريم الذي ما فوقه تكريم .

السباق السباق قولًا وفعلًا حَذِّرِ النفسَ حسرة المسبوقِ

* * *

إنه الإعداد للمهمة الكبرى بوسائل الإعداد الإلهية المضمونة .. قيام الليل .

إن تلقِّي القرآن والنور لثقيل ، يحتاج إلى استعداد طويل .

إنَّ الاصطبار للعبادة ، وقيام الليل والناس نيام ، والانقطاع عن غبشِ الحياة اليومية وسفسافها ، والاتصال بالله ، وتلقِّي وحي الله ونوره ، والأُنس بالخلوة ؛ إن هذا كله هو الزاد لاحتمال القول الثقيل ، والعبء الباهظ ، والجهد المرير الذي ينتظر الرسول ، وينتظر مَنْ يدعو بهذه الدعوة في كل جيل، ويُنير القلب في الطريق الشاقِّ الطويل ، ويعصمه من وسوسة الشيطان ، ومن التيه في الظلمات الحافّة بهذا الطريق المُنير .

إنّ مغالبة هتاف النوم وجاذبية الفراش بعد كدِّ النهار أشدُّ وطئًا ، وأجهد للبدن ، ولكنه إعلانٌ لسيطرة الروح ، واستجابة لدعوة الله ، ومن ثَمَّ فإنها أقوم قيلًا ؛ لأن للذِّكْر فيها حلاوته ، وللصلاة فيها خشوعها ، وللمناجاة فيها شفافيتها .. وإنها لتسكب في القلب أنسًا وراحة وشفافية ونورًا .

* * *

قال تعالى : ﴿ واذكر اسم ربك وتبتَّل إليه تبتيلًا ﴾ [المزمل : ٨] .

قال ابن كثير :

« أي أكثر من ذكْره ، وانقطع إليه ، وتفرَّغْ لعبادته إذا فرغت من أشغالك .

وقال ابن عباس : أي أخلص له العبادة . وقال ابن جرير : يقال للعابد : مُتبتِّل »[١] .

«والتبتُّل هو الانقطاع الكُلِّي عما عدا الله، والاتجاه الكُلِّي إليه بالعبادة والذكر والخلوص من كل شاغل ومن كل خاطر ، والحضور مع الله بكامل الحسِّ والمشاعر »[٢] .

* * *

وقال تعالى: ﴿ فإذا فرغت فانصب وإلى ربك فارغب ﴾ [الانشراح: ٧-٨].

قال ابن مسعود : إذا فرغت من الفرائض فانصب في قيام الليل .

وقال ابن عباس : إذا فرغتَ من الصلاة فانصب في الدعاء .

وقال مجاهد : إذا فرغت من أمْر دنياك فانصب في عمل آخرتك .

وقال علي بن أبي طلحة: إذا صحَّ بدنك فاجعل صحتك نصبًا في العبادة.

قال ابن كثير: إذا فرغتَ من أمور الدنيا وأشغالها وقطعتَ علائقها؛ فانصب إلى العبادة، وقمْ إليها نشيطًا فارغ البال، وأخلص لربك النيَّة والرغبة.

إذا فرغت من شغلك مع الناس ومع الأرض فتوجَّهْ بقلبك كله إلى ما يستحق أن تنصب فيه وتكدَّ وتجهد .. العبادة والتجرُّد والتطلُّع والتوجُّه ، **﴿ وإلى ربك فارغب ﴾** إلى ربك وحده خاليًا من كل شيء ، حتى من أمْر الناس الذين تشتغل بدعوتهم .. إنه لا بدَّ من الزاد للطريق .. وهذا الزاد ... هذا هو الطريق .

* * *

(١) تفسير ابن كثير .
(٢) زاد المسير ٩ / ١٦٦ – ١٦٧ .

قال تعالى : ﴿ والذين يُمسِّكون بالكتاب وأقاموا الصلاة إنا لا نضيع أجْر المصلحين ﴾ [الأعراف : ١٧١] .

« إن الصيغة اللفظية ﴿ **يُمسِّكون** ﴾ تصوِّر مدلولًا يكاد يُحسّ ويُرى ، إنها صورة القبض على الكتاب بقوة وجدّ وصرامة .. الصورة التي يُحبُّ الله أن يؤخذ بها كتابه وما فيه .. في غير تعنُّت ولا تنطُّع ولا تزمُّت .. فالجدُّ والقوة والصرامة شيء ، والتعنُّت والتنطُّع والتزمُّت شيء آخر .. إن الجدَّ والقوة والصرامة لا تُنافي اليُسْر ، ولكنها تُنافي التميُّع ! ولا تُنافي سعة الأفق ، ولكنها تنافي الاستهتار .

والتمسُّك بالكتاب في جدٍّ وقوة وصرامة ، وإقامة الصلاة - أي شعائر العبادة - هما طرفا المنهج الربَّاني لصلاح الحياة .. والتمسُّك بالكتاب في هذه العبارة مقرونًا إلى الشعائر يعني مدلولًا مُعيَّنًا .. إذ يعني تحكيم هذا الكتاب في حياة الناس لإصلاح هذه الحياة ، مع إقامة شعائر العبادة لإصلاح قلوب الناس .. فهما طرفان للمنهج الذي تصلح به الحياة والنفوس ، ولا تصلح بسواه.. والإشارة إلى الإصلاح في الآية: ﴿**إنا لا نُضيع أجْر المصلحين**﴾»[1] .

قال القشيري في لطائف الإشارات (١ / ٥٨٣ - ٥٨٤) :

﴿ **يُمسِّكون بالكتاب** ﴾ إيمانًا ، ﴿ **وأقاموا الصلاة** ﴾ إحسانًا ، فبالإيمان وجدوا الأمان ، وبالإحسان وجدوا الرضوان ؛ فالأمان مُعجَّل ، والرضوان مُؤجَّل . ويُقال ﴿ **يُمسكون بالكتاب** ﴾ سبب النجاة ، وإقامة الصلاة تُحقِّق المناجاة ؛ فالنجاة في المآل ، والمناجاة في الحال .

ويُقال : أفرد الصلاة ها هنا بالذكر عن جملة العبادات ؛ ليُعْلَم أنها أفضل العبادات بعد معرفة الذات والصفات .

مَنْ أمَّل سبب إنعامهم ؛ لم تَخْسِر له صفقة ، ولم تخفق له في الرجاء رفقة . مَنْ نقل إلى بابه قَدَمَه ؛ لم يَعْدم في الآجل نعمَه . ومَنْ رفع إلى

---

(١) الظلال ٣ / ١٣٨٨ .

ساحات جوده هِمَمَه ؛ نال في الحال كرمَه . ومَنْ توصَّل إليه بجوده ؛ نال في الدارين شرفَه . ومن اكتفى بجوده ، كان الله عنه خلفه .

* * *

قال تعالى : ﴿ إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورًا عينًا يشربُ بها عبادُ الله يفجِّرونها تفجيرًا يُوفون بالنذر ويخافون يومًا كان شرُّه مُستطيرًا ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ إن هذا كان لكم جزاءً وكان سعيُكم مشكورًا ﴾ [الإنسان : ٥ - ٢٢] .

قال ابن القيم :

« أخبر سبحانه عن العين التي يشرب بها المُقربون صرفًا ؛ لأن شراب الأبرار يُمزج منها؛لأن أولئك أخلصوا الأعمال كلها لله فأخلص شرابهم ، وهؤلاء مزجوا فمزج شرابهم .

إنه سبحانه أخبر عن مزج شراب المقربين بالكافور وبرده ، في مقابلة ما وصفهم به من حرارة الخوف ، والإيثار ، والصبر ، والوفاء بجميع الواجبات التي نبَّه على وفائهم بأضعفها ، وهو ما أوجبوه على أنفسهم بالنذر على الوفاء بأعلاها ، وهو ما أوجبه الله عليهم ، ولهذا قال : ﴿ **وجزاهم بما صبروا جنة وحريرًا** ﴾ ، فإن في الصبر من الخشونة وحبْس النفس عن شهواتها ما اقتضى أن يكون في جزائهم من سعة الجنة ، ونعومة الحرير ، ما يُقابل ذلك الحبس والخشونة ، وجمع لهم بين النضرة والسرور ، وهذا جمال ظواهرهم ، وهذا حال بواطنهم ، كما جملوا في الدنيا ظواهرهم بشرائع الإسلام ، وبواطنهم بحقائق الإيمان ، ونظيره قوله في آخر السورة : ﴿ **عاليهم ثيابُ سُنْدُس خضرٌ وإستبرقٌ وحُلُّوا أساورَ من فضة** ﴾ فهذه زينة الظاهر ، ثم قال : ﴿ **وسقاهم ربهم شرابًا طهورًا** ﴾ فهذه زينة الباطن المُطهَّر لهم من

كل أذى ونقص »[١] .

يقول ابن القيم :

صفَّى المُقرب سعيه فصفا له ذاك الشرابُ فتلك تصفيتانِ
لكنَّ أصحابَ اليمين فأهلُ مزْ ج بالمُباح وليس بالعصيانِ
مُزِجَ الشرابُ لهم كما مزجوا همُ الْـ أعمال ذاك المزج بالميزانِ

قال ابن جرير الطبري :

« الأبرار الذين برّوا بطاعتهم ربهم وأداء فرائضه واجتناب معاصيه .

قال قتادة: ﴿**يوفون بالنذر**﴾ : كانوا ينذرون طاعة الله من الصلاة والزكاة والحجّ والعمرة وما افترض عليهم ، فسمَّاهم الله بذلك الأبرار .

قال قتادة: ﴿**وجزاهم بما صبروا جنةً وحريرًا**﴾: جزاهم بما صبروا على طاعة الله ، وصبروا عن معصيته ومحارمه ؛ جنة وحريرًا .

وقال قتادة : ﴿ **ويُسقون فيها كأسًا كان مزاجُها زنجبيلًا عينًا فيها تُسمَّى سلسبيلًا**﴾: رقيقة يشربها المقربون صرفًا، وتُمزج لسائر أهل الجنة.

﴿ **إن هذا كان لكم جزاءً وكان سعيكم مشكورًا** ﴾ :

يقول الله تعالى ذكره : يُقال لهؤلاء الأبرار حينئذ : إن هذا الذي أعطيناكم من الكرامة ؛ كان لكم ثوابًا على ما كنتم تعملون في الدنيا من الطاعات .

﴿ **وكان سعيُكم مشكورًا** ﴾ : كان عملكم فيها مشكورًا ، حمدكم عليها ربُّكم ، ورضيه لكم ، فأثابكم بما أثابكم به من الكرامة عليه .

قال قتادة : غفر لهم الذنب ، وشكر لهم الحسن »[٢] .

يُسمِّيهم الله في الآية الأولى ﴿ **الأبرار** ﴾ ، ويُسمِّيهم في الثانية ﴿ **عباد الله** ﴾ .. إيناسًا وتكريمًا ، وإعلانًا للفضل تارة ، وللقُرْب من الله

---

(١) حادي الأرواح لابن القيم صـ ١٨٤ - ١٨٥ .
(٢) تفسير الطبري ١٢ / ٢٠٦ - ٢٢٤ .

تارة ، في معرض النعيم والتكريم .

﴿ **يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرًا** ... ﴾ إلى آخر الآيات :

صورة وضيئة شفَّافة لقلوب مخلصة جادة عازمة على الوفاء لله بتكاليف العقيدة ، مع رحمة ندية بعباده الضِّعاف ، وإيثار على النفس ، وتحرُّج وخشية لله ، ورغبة في رضاه ، وإشفاق من عذابه ، تبعثه التقوى والجد في تصوّر الواجب الثقيل.﴿ **يوفون بالنذر** ﴾ فيفعلون ما اعتزموا من الطاعات ، وما التزموا من الواجبات ، فهم يأخذون الأمر جدًّا خالصًا ، لا يُحاولون التفلُّت من تَبِعاته ، ولا التفصِّي من أعبائه ، ولا التخلِّي عنه بعد التزامه ، وهذا معنى أنهم يوفون بالنذر ، فهو أعمُّ من المعنى العُرفي المُتبادر من كلمة « النذر » .

ويُقابل هذا عطاءٌ كريمٌ من مُعطٍ كريم ، ثم يتلقون عليه الودَّ والتكريمَ ، ﴿ **إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورًا** ﴾ .

يتلقَّون هذا النطق من الملأ الأعلى ، وهو يعدل هذه المناعم كلها ، ويمنحها قيمة أخرى فوق قيمتها .

يقول القشيري :

« الأبرار : هم الذين سمت هِمَّتُهم عن المُستحقرات ، وظهرت في قلوبهم ينابيع الحكمة ، فاتقوا عن مساكنة الدنيا ، يوفون بالعهد القديم الذي بينهم وبين الله على وجه مخصوص » .

* * *

وهناك آيات تدعو إلى عُلُوِّ الهمة ؛ بذكر الأجر العظيم أو الكبير أو الكريم لأصحابها ، فعِظَمُ الجزاء والأجر يدعو إلى التنافس والحرص على هذه الأعمال :

قال تعالى : ﴿ ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيِّب وما كان الله ليُطلعكم على الغيب ولكنّ الله يجتبي من رُسُلِهِ من يشاء فآمنوا بالله ورُسُلِهِ وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجْر عظيم ﴾ [آل عمران : ١٧٩] .

قال تعالى : ﴿ وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر عظيم ﴾ [المائدة : ٩] .

وقال تعالى : ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنُبوِّئنَّهم من الجنة غُرَفًا تجري من تحتها الأنهار نعم أجر العاملين ﴾ [العنكبوت : ٥٨] .

وقال تعالى: ﴿الذين كفروا لهم عذاب شديد والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجْر كبير ﴾ [فاطر : ٧] .

وقال تعالى: ﴿إنما تُنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب فبشِّرْه بمغفرة وأجرٍ كريم ﴾ [يس : ١١] .

وقال عن المتقين : ﴿ وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوَّأ من الجنة حيث نشاء فنِعْمَ أجْر العاملين ﴾ [الزمر : ٧٤] .

وقال تعالى : ﴿ إلاَ الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤت الله المؤمنين أجرًا عظيمًا ﴾ [النساء : ١٤٦] .

وقال تعالى: ﴿لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أُنزل إليك وما أُنزل من قبلك والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر أولئك سنؤتيهم أجرًا عظيمًا ﴾ [النساء : ١٦٢] .

وقال تعالى: ﴿ويُبشِّر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرًا كبيرًا ﴾ [الإسراء : ٩] .

وقال تعالى: ﴿ويُبشِّر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرًا حسنًا ﴾ [الكهف : ٢] .

وقال تعالى : ﴿ ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرًا عظيمًا ﴾ [الفتح : ١٠] .

وقال تعالى عن الصحابة: ﴿وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرًا عظيمًا ﴾ [الفتح : ٢٩] .

وقال تعالى : ﴿ ومن يتق الله يُكفِّر عنه سيئاته ويُعظِم له أجرًا ﴾ [الطلاق : ٥] .

ومرة أخرى يدعوهم إلى عُلُوِّ الهمة ببيان أن الجزاء هو الفوز العظيم :

قال تعالى: ﴿ومن يُطع الله ورسوله فقد فاز فوزًا عظيمًا﴾[الأحزاب: ٧١].

وقال تعالى : ﴿ تلك حدود الله ومن يُطع الله ورسوله يُدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم ﴾ [النساء : ١٣] .

وقال تعالى : ﴿ وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم ﴾ [التوبة : ٧٢] .

وقال تعالى : ﴿ أَلَا إنَّ أولياء الله لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البُشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم ﴾ [يونس : ٦٤] .

وقال تعالى : ﴿ فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيُدخلهم ربُّهم في رحمته ذلك هو الفوز المبين ﴾ [الجاثية : ٣٠] .

وقال تعالى : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير ﴾ [البروج : ١١] .

* * *

ومرة أخرى يُشير إلى تفاوت الدرجات عند الله ، ويحفز أهل الهِمم العالية إلى الدرجات العُلى .

أنت القتيلُ بكُلِّ مَنْ أحببتَه فاخترْ لنفسك في الهوى من تصطفي

قال تعالى : ﴿ **أفمن اتَّبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله ومأواه جهنم وبئس المصير هم درجات عند الله والله بصيرٌ بما يعملون** ﴾ [آل عمران : ١٦٣] .

وقال تعالى: ﴿ **وتلك حُجَّتُنَا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجاتٍ من نشاء إن ربك حكيم عليم** ﴾ [الأنعام : ٨٣] .

وقال تعالى : ﴿ **ومن يأته مُؤمنًا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجاتُ العُلى** ﴾ [طه : ٧٥] .

وقال تعالى : ﴿ **يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير** ﴾ [المجادلة : ١١] .

* * *

قال تعالى : ﴿ سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضُها كعرض السماء والأرض أُعدَّت للذين آمنوا بالله ورسله ذلك فضلُ الله يُؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾ [الحديد : ٢١] .

هذه دعوة من الكبير المتعال إلى ميدان السباق الحقيقي .. للغاية التي تستحق السباق ؛ الغاية التي تنتهي إليها مصائرهم .. إنها دوامٌ يستحق الاهتمام ، فلا بُدَّ من تعلُّق النفوس بها ورفعة الهِمَم إليها .

وليس السباق إلى الدنيا .. إلى إحراز اللهو واللعب والتفاخر والتكاثر بسباق يليق بمن شبُّوا عن الطوق ، وتركوا عالم اللهو واللعب للأطفال

والصغار ، إنما السباق إلى ذلك الأفق ، وإلى ذلك الهدف ، وإلى ذلك الملك العريض ، إلى جنة عرضُها كعرض السماء والأرض .

لابُدَّ لصاحب العقيدة أن يتعامل مع هذا الوجود الكبير ، ولا يحصر نفسه ونظره وتصوُّرَه واهتمامه ومشاعره في عالم الأرض الضيِّق الصغير .. لابُدَّ له من هذا ليؤدي دوره اللائق بصاحب العقيدة . هذا الدور الشاق الذي يصطدم بحقارات الناس وأطماعهم ، كما يصطدم بضلال القلوب والتواء النفوس .. ويُعاني من مقاومة الباطل وتشبُّثه بموضعه من الأرض ، ما لا يصبر عليه إلا من يتعامل مع وجود أكبر من هذه الحياة ، وأوسع من هذه الأرض ، وأبقى من ذلك الفناء .

إن مقاييس هذه الأرض وموازينها لا تمثل الحقيقة التي ينبغي أن تستقر في ضمير صاحب العقيدة ، وما تبلغ من تمثيل تلك الحقيقة إلا بقدر ما يبلغ حجم الأرض بالقياس إلى حجم الكون، وما يبلغ عمر الأرض بالقياس إلى الأزل والأبد . والفارق هائل هائل ، لا تبلغ مقاييس الأرض كلها أن تحدِّده ، ولا حتى أن تُشير إليه .

وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول : « لموضعُ سوطٍ في الجنة خيرٌ من الدنيا وما فيها »،ومن ثَمَّ يبقى صاحب العقيدة في أفق الحقيقة الكبيرة مُستعليًا على واقع الأرض الصغير ، مهما تضخَّم هذا الواقع وامتد واستطال يبقى يتعامل مع تلك الحقيقة الكبيرة الطليقة من قيود هذا الواقع الصغير .. ويتعامل مع الوجود الكبير الذي يتمثَّلُه في الأزل والأبد .. وفي ملك الآخرة الواسع العريض .. وفي القيم الإيمانية الثابتة التي لا تهتزُّ لخلل يقع في موازين الحياة الدنيا الصغيرة الخادعة .. وتلك وظيفة الإيمان في حياة أصحاب العقائد ، المختارين لتعديل قيم الحياة وموازينها ، لا للتعامل بها والخضوع لمقتضياتها .

روى الإمام أحمد عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « للجنة أقربُ إلى أحدكم من شراك نعله ، والنار مثل ذلك » . أخرجه البخاري .

فمن علم أن الجنة تُزيَّن فوقه وتُنجَّد ، فكيف لا يطير شوقًا إليها ؟!

خَوْدٌ تُزفُّ إلى ضرير مُقعدٍ   يا محنة الحسناءِ بالعُميانِ

* * *

وقال تعالى : ﴿ إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون والذين هم بآيات ربهم يؤمنون والذين هم بربهم لا يُشركون والذين يُؤتون ما آتوا وقلوبهم وجِلَة أنهم إلى ربهم راجعون أولئك يُسارعون في الخيرات وهم لها سابقون﴾

[المؤمنون : ٥٧ - ٦١] .

عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : يارسول الله ، الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة : هو الذي يسرق ويزني ويشرب الخمر ، وهو يخاف الله ؟ قال : « لا يابنت الصديق ، ولكنه الذي يصلِّي ويصوم ويتصدَّق ، وهو يخاف الله عز وجل »(١) ، فجعلهم من السابقين .

« إن قلب المؤمن يستشعر ويحسُّ آلاء الله في كل نفس وكل نبضة .. ومن ثمَّ يستصغر كل عباداته ، ويستقلُّ كلَّ طاعاته ، إلى جانب آلاء الله ونعمائه .. كذلك هو يستشعر بكل ذرَّة فيه جلال الله وعظمته ، ومن ثمَّ يشعر بالهيبة والوجل ، ويُشفق أن يلقى الله وهو مُقصِّرٌ في حقِّه ، لم يُوفِّه حقَّه عبادةً وطاعةً ، ولم يُقارب أياديه عليه معرفةً وشكرًا . وهؤلاء هم الذين يُسارعون في الخيرات ، وهم الذين يسبقون لها ، فينالونها في الطليعة ، بهذه

---

(١) صحيح : رواه أحمد والترمذي .

اليقظة ، وبهذا التطلُّع ، وبهذا العمل ، وبهذه الطاعة ، لا أولئك الذين يعيشون في غمرة ، ويحسبون - لغفلتهم - أنهم مقصودون بالنعمة ، مُرادون بالخير ، كالصيد الغافل يُستدرج إلى مصرعه بالطُّعم المغري ، ومثل هؤلاء في الناس كثير ، يغمرهم الرخاء ، وتشغلهم النعمة ، ويُطغيهم الغنى ، ويُلهيهم الغرور ، حتى يُلاقوا المصير .

تلك اليقظة التي يفرضها الإسلام على قلب المؤمن، والتي يستجيشها الإيمان بمجرد استقراره في القلب .. ليست أمرًا فوق الطاقة ، وليست تكليفًا فوق الاستطاعة، إنما هي الحساسية الناشئة من الشعور بالله والاتصال به ، ومراقبته في السر والعلن ، وهي في حدود الطاقة الإنسانية حين يُشرق فيها ذلك النور الوضيء »[1] .

* * *

قال تعالى : ﴿ في بيوت أذن الله أن تُرفع ويُذكر فيها اسمُه يُسبِّح له فيها بالغُدُوِّ والآصال رجالٌ لا تُلهيهم تجارةٌ ولا بيعٌ عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يومًا تتقلبُ فيه القلوبُ والأبصارُ ليجزيَهم الله أحسنَ ما عملوا ويزيدَهم من فضله والله يرزقُ من يشاءُ بغير حساب﴾ [النور: ٣٦- ٣٨].

قال ابن جرير :

يُصلِّي له في هذه البيوت بالغدوات والعشيات رجالٌ .

وعن سالم بن عبد الله أنه نظر إلى قوم من السوق ، قاموا وتركوا بياعاتهم إلى الصلاة فقال : هؤلاء الذين ذكر الله .

وقال ابن عباس : لا يشغلهم ذلك عن الصلاة المكتوبة ، ولا يشغلهم

(١) الظلال ٤ / ٢٤٧٢ - ٢٤٧٣ .

ذلك أيضًا عن إقام الصلاة بحدودها في أوقاتها .

﴿ وإيتاء الزكاة ﴾ ، قال ابن جرير : إخلاص الطاعة لله .

عن ابن عباس، قوله: ﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾، ﴿وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة ﴾ ، وقوله : ﴿ وأوصاني بالصلاة والزكاة ﴾ ، وقوله : ﴿ ولولا فضلُ الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدًا ﴾ ، وقوله :﴿ وحنانًا من لدنا وزكاة ﴾ ، ونحو هذا في القرآن . قال : يعني بالزكاة : طاعة الله والإخلاص .

قال ابن جرير : «إنهم لم تُلههم تجارةٌ ولا بيعٌ عن ذكر الله ، وأقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وأطاعوا ربهم مخافة عذابه يوم القيامة ؛ كي يُثيبهم الله يوم القيامة بأحسن أعمالهم التي عملوها في الدنيا ، ويزيدهم على ثوابه إياهم على أحسن أعمالهم التي عملوها في الدنيا من فضله ، فيُفضل عليهم من عنده بما أحبَّ من كرامته لهم »[(١)] .

قلوب تتصل بالله، تتطلَّع إليه وتذكره وتخشاه، وتتجرَّد له وتُؤثره على كل مغريات الحياة . قلوب وضيئة طاهرة ، مُسبِّحة واجفة ، مُصلِّية واهبة .

جدُّوا في انطلاقهم إلى خلَّاقهم ، وراضوا أنفسهم بتحسين أخلاقهم ، فإذا بهم قد أذابهم كربُ اشتياقهم ، أتدري ما حبسك عن لحاقهم ؟! حبُّ الدرهم والدينار .. أما هم ، فانظر إلى مدحهم إلى أين انتهى وصار ﴿ يخافون يومًا تتقلب فيه القلوبُ والأبصارُ ... ﴾ ، فما ظنك برزق أرواحهم وأشباحهم ... أفضال وفنون نوال .

* * *

(١) تفسير الطبري ٩ / ١٤٧ - ١٤٨ .

وهذه أحاديث نبوية كريمة في عُلُوِّ الهِمَّة ؛ فعَضَّ عليها بالنواجذ :

عن الحسين بن علي رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « إنَّ الله تعالى يُحِبُّ معاليَ الأمور وأشرافها ، ويكره سَفسافها »[١] .

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إنّ الله يُحِبُّ معاليَ الأخلاق ، ويكره سفسافها »[٢] .

وعن كُليب رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله تعالى يُحِبُّ من العامل إذا عمل أن يُحسن»[٣]. فما ظنُّك بالعمل للآخرة، وهو العمل كل العمل .

وقال رسول الله ﷺ : « نعمتان مغبونٌ فيهما كثيرٌ من الناس : الصحة والفراغ »[٤] .

وقال ﷺ : « بادروا بالأعمال الصالحة ، فستكون فتنٌ كقطع الليل المُظلم ، يُصبح الرجلُ مؤمنًا ويُمسي كافرًا ، ويُمسي مؤمنًا ويُصبح كافرًا ، يبيعُ دينه بعَرَضٍ من الدنيا »[٥] .

وقال ﷺ: «المؤمن القوي خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كلٍّ خير ، احرص على ما ينفعك ، واستعن بالله ولا تعجز ، وإن أصابك

---

(١) صحيح : رواه الطبراني في الكبير، ورواه ابن عدي ، وأبو الشيخ وأبو نعيم في الحلية عن سهل ، وابن عساكر وابن النجار عن سعد ، وصححه الألباني .

(٢) صحيح : رواه الحاكم في المستدرك عن سهل بن سعد ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (١٨٨٩ ، ١٨٩٠) .

(٣) حسن : رواه البيهقي في شعب الإيمان ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم (١٨٩١) .

(٤) رواه البخاري عن ابن عباس .

(٥) رواه مسلم عن أبي هريرة .

شيء فلا تقل : لو أني فعلتُ كذا كان كذا وكذا ، ولكن قل : قدَّر الله وما شاء فعل »[١] .

وفي الحديث القدسي : « يا عبادي ، إنما هي أعمالكم أُحصيها لكم ثم أوفِّيكم إياها » .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لو كان الإيمانُ عند الثُّريَّا ؛ لتناوله رجال من فارس »[٢] .

ولفظ مسلم : « لو كان الإيمان عند الثُّريَّا ؛ لذهب به رجل من أبناء فارس حتى يتناوله » .

وعن سلمان رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ليس شيء خيرًا من ألف مثله إلا الإنسان »[٣] . رجل بألف ، وألف بخفّ .

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « عند الله خزائن الخير والشر ، مفاتيحها الرجال ، فطوبى لمن جعله الله مفتاحًا للخير مغلاقًا للشر ، وويلٌ لمن جعله الله مفتاحًا للشر مغلاقًا للخير »[٤] .

وقال رسول الله ﷺ : « لكل قرن سابق »[٥] .

---

(١) رواه مسلم عن أبي هريرة .

(٢) رواه البخاري ومسلم والترمذي .

(٣) حسن : رواه الطبراني في الكبير ، والضياء في المختارة ، وتمّام ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم (٥٣٩٤)، والصحيحة رقم (٢١٨٣) .

(٤) حسن : رواه الطبراني في الكبير ، والضياء عن سهل ، ورواه ابن ماجه ، وابن أبي عاصم في السنة ، والخرائطي ، والطيالسي ، وأبو يعلى في مسنده ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم (٤١٠٨) .

(٥) صحيح : رواه أبو نعيم في الحلية عن أنس ، وصححه الألباني في الصحيحة رقم (٢٠٠١) .

وقال ﷺ : « لكل قرن من أمتي سابقون »[١] .

وعن عتبة بن عبد قال : قال رسول الله ﷺ : « لو أنَّ رجلًا يُجَرُّ على وجهه من يوم وُلد إلى يوم يموت هرما في مرضاة الله ، لحقره يوم القيامة »[٢] .

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « كما لا يُجتنى من الشوك العنبُ ، كذلك لا يَنزلُ الفجارُ منازلَ الأبرار ، وهما طريقان ، فأيهما أخذتم أدركتم إلَيه »[٣] .

قال يزيد بن مرثد رحمه الله: كما لا يُجتنى من الشوك العنب، كذلك لا ينزل الفجارُ منازلَ الأبرار ، فاسلكوا أيَّ طريق شئتم ، فأي طريق سلكتم وردتم على أهله .

وقال ﷺ : « إن من الناس ناسًا مفاتيح للخير مغاليق للشر ، وإنّ من الناس ناسًا مفاتيح للشر مغاليق للخير ، فطوبى لمن جعل الله مفاتيح الخير على يديه ، وويل لمن جعل الله مفاتيح الشر على يديه »[٤] .

وانظر إلى عُلُوِّ هِمَّة عمر :

قال رسول الله ﷺ : « إني لأنظر إلى شياطين الجن والإنس قد فرُّوا من عمر »[٥] .

---

(١) صحيح : رواه أبو نعيم في الحلية عن ابن عمر ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (٥١٧٢) .

(٢) حسن : رواه أحمد ، والبخاري في التاريخ ، والطبراني في الكبير ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم (٥٢٤٩) ، والصحيحة رقم (٤٤٧) .

(٣) صحيح: رواه ابن عساكر وأبو نعيم، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (٤٥٧٦).

(٤) حسن : رواه ابن ماجه عن أنس ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم (٢٢٢٣) ، والصحيحة رقم (١٣٣٢) .

(٥) صحيح : رواه الترمذي عن عائشة ، وكذا رواه النسائي وابن شاهين ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (٢٤٩٦) .

وعن سعد رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ايه يا ابن الخطاب ! والذي نفسي بيده ، ما لقيك الشيطان قطُّ سالكًا فجًّا ، إلا سلك فجًّا غير فجِّك » رواه الشيخان .

وانظر إلى عُلُوّ هِمَّة الصدِّيق في تحصيل العمل لزيادة إيمانه :

روى أحمد بإسناده عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال : لو وُزِن إيمان أبي بكر بإيمان أهل الأرض لرجح بهم[(١)] .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ جعل الهموم همًّا واحدًا - همَّ المعاد - كفاه الله سائر همومه ، ومَنْ تشعَّبت به الهموم من أحوال الدنيا ؛ لم يُبال الله في أي أوديتها هلك »[(٢)] .

وقال ﷺ : « مَنْ جعل الهمَّ همًّا واحدًا ؛ كفاه الله سائر همومه » .

وقال رسول الله ﷺ: «مَنْ كانت الآخرة همَّه؛ جعل الله غناه في قلبه، وجمع له شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومَنْ كانت الدنيا همَّه، جعل الله فقره بين عينيه وفرَّق عليه شمله، ولم يأته من الدنيا إلا ما قُدِّر له»[(٣)] .

أخي ، من صفا صُفِّي له ، ومن كدر كُدِّر عليه ، ومن أحسن في ليله كوفىء في نهاره ، ومن أحسن في نهاره كوفىء في ليله ، وإنما يُكال للعبد كما كال ، فمن طلب المنزلة العليا من الجنة فعليه بعُلُوِّ الهمَّة .

---

(١) صحيح : رواه أحمد في الإيمان وفي فضائل الصحابة ، وأخرجه عبد الله بن أحمد في السنة ، والصابوني في عقيدة السلف ، والإبانة لابن بطة ، وقال السخاوي : رواه إسحاق بن راهويه والبيهقي في الشعب بسند صحيح عن عمر ، وهو عند ابن المبارك في الزهد ، ومعاذ بن مثنى في زيادات مسند مسدّد .

(٢) حسن : رواه ابن ماجه عن ابن مسعود ، ورواه أبو نعيم في الحلية ، والحاكم في المستدرك عن ابن عمر ، وحسّنه الألباني في صحيح الجامع رقم (٦١٨٩) .

(٣) صحيح : رواه الترمذي عن أنس ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (٦٥١٠) ، والصحيحة رقم (٩٤٩، ٩٥٠) .

قال رسول الله ﷺ : « مَنْ أراد أن يعلم ما له عند الله ، فلينظر ما لله عنده »[(١)] .

وقال ﷺ : « من خاف أدلج ، ومن أدلج بلغ المنزل ، ألا إنّ سلعة الله غالية ، ألا إن سلعة الله الجنة »[(٢)] .

وروى البخاري ومسلم وأحمد عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف في الجنة ، كما تراءون الكواكب في السماء » .

وروى البخاري ومسلم وأحمد عن أبي سعيد ، والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم ، كما تراءون الكوكب الدُّرِّيّ الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب ؛ لتفاضلِ ما بينهم » .

وقال ﷺ: «إن أهلَ الدرجات العُلى يراهم مَنْ هو أسفل منهم، كما ترون الكوكب الطالع في أُفق السماء، وإن أبا بكرٍ وعمرَ منهم وأنْعِما»[(٣)].

ومن علتْ به هِمَّتُه تتبّع الأحاديث التي فيها نصٌّ على عِظم أجرها ، وتمسَّك بها ، وحرص على هذه الأعمال ، طلبًا لعظيم الأجر ، ومنها :

---

(١) حسن : رواه الدارقطني في الأفراد عن أنس ، وأبو نعيم في الحلية عن أبي هريرة وسمرة ، وحسَّنه في صحيح الجامع رقم (٦٠٠٦) ، والصحيحة رقم (٢٣١٠) .

(٢) صحيح : رواه عبد بن حميد والعقيلي في الضعفاء ، وأبو نعيم ، والقضاعي ، والحاكم في المستدرك عن أُبي ، وصحَّحه الحاكم ، وصحَّحه الألباني في الصحيحة رقم (٢٣٣٥) ، وصحيح الجامع رقم (٦٢٢٢) .

(٣) صحيح : رواه أحمد والترمذي وابن ماجه وابن حبان عن أبي سعيد ، والطبراني في الكبير عن جابر بن سمرة ، وابن عساكر عن ابن عمرو وعن أبي هريرة ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (٢٠٣١) .

(أ) أحاديث الأعمال التي توجب محبة الله للعبد :

فليس الشأن أن تُحِبَّ ، إنما الشأن أن تُحَبَّ ، شأنٌ عظيمٌ أن تُحِبَّ مولاك ، وأعظم منه أن يُحِبَّكَ الله عز وجل .. فيحرص الإنسان على الأعمال التي تجلب محبة الله لعبده ، وهذا عنوان عُلُوِّ همة العبد .

ومنها : قال رسول الله ﷺ : « إن الله تعالى يُحِبُّ الرفق في الأمر كله »[١].

ومنها : قوله ﷺ : « إن الله يُحبُّ العبدَ التَّقيَّ الغنيَّ الخفيَّ »[٢] .

ومنها : قوله ﷺ : « ثلاثة يُحبُّهم الله ، وثلاثة يشنؤهم الله : الرجل يلقى العدو في فئة فينصب لهم نحره ، حتى يُقتلَ أو يفتح لأصحابه ؛ والقوم يسافرون فيطول سراهم ، حتى يُحبُّوا أن يمسُّوا الأرض فينزلون ؛ فيتنحَّى أحدُهم فيُصلِّي حتى يوقظهم لرحيلهم ، والرجل يكون له الجار ، يُؤذيه جاره ، فيصبر على أذاه ، حتى يُفرِّق بينهما موتٌ أو ظعنٌ ، والذين يشنؤهم الله : التاجر الحلّاف ، والفقير المختال ، والبخيل المنّان »[٣] .

(ب) من يُعطون أجورهم مرتين :

عن أبي موسى رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة يُؤتَوْن أجرهم مرتين : رجل من أهل الكتاب ؛ آمن بنبيه ، وأدرك النبي ﷺ فآمن به واتبعه وصدّقه ؛ فله أجران ، وعبد مملوك ، أدَّى حقَّ الله وحقَّ سيِّده ؛ فله أجران ، ورجل كانت له أمة ، فغذَّاها فأحسن غذاءها ، ثم أدَّبها فأحسن تأديبها ، ثم أعتقها وتزوَّجها ؛ فله أجران »[٤] .

---

(١) رواه البخاري عن عائشة .
(٢) رواه أحمد ومسلم عن سعد بن أبي وقاص .
(٣) صحيح : رواه أحمد والترمذي وابن حبان والحاكم وابن المبارك وابن أبي شيبة وابن نصر والطحاوي عن أبي ذر ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع .
(٤) رواه أحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه .

(ج) الأعمال التي توجب صلاة الله وملائكته على فاعلها :

ومن تمسَّك بهذه الأعمال علتْ هِمَّتُه ؛ كطلب العلم ، والصلاة في الصفِّ الأول أو الصفوف المقدمة ، ووصل الصفوف ، والسحور .

قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله وملائكته يُصلُّون على المُتسحِّرين»(١).

(د) الأعمال التي يضحك الله من عبده إذا فعلها ويستبشر بها أو يعجب منها :

وهي أعمال رفيعة تدل على عُلُوِّ هِمَّة صاحبها .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يضحك الله إلى رجلين ، يقتل أحدهما الآخر ، يدخلان الجنة ، يقاتل هذا في سبيل الله فيُقتل، ثم يتوب الله على القاتل فيُسلم، فيقاتل في سبيل الله فيُستشهد». رواه أحمد والبخاري ومسلم والنسائي وابن ماجه .

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «يعجب ربك من راعي غنم، في رأس شظية بجبل، يُؤذِّن للصلاة ويُصلِّي ، فيقول الله عز وجل : انظروا إلى عبدي هذا يُؤذِّن ويُقيم الصلاة ، يخاف مني ، قد غفرت لعبدي وأدخلته الجنة »(٢) .

(هـ) ومنها الأعمال التي يجري أجرها لصاحبها بعد موته :

والحرص عليها دليل عُلُوِّ الهِمَّة :

---

(١) حسن : رواه ابن حبان والطبراني في الأوسط وأبو نعيم في الحلية عن ابن عمر ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (١٨٤٤) ، والصحيحة رقم (١٦٥٤) .

(٢) صحيح : رواه أحمد وأبو داود والنسائي ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (٨١٠٢) .

عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « سبعٌ يُجرى للعبد أجرُهُنَّ وهو في قبره بعد موته : مَنْ عَلّم علمًا ، أو أجرى نهرًا ، أو حفر بئرًا ، أو غرس نخلًا ، أو بنى مسجدًا ، أو ورَّث مصحفًا ، أو ترك ولدًا يستغفر له بعد موته »[١] .

وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أربعة تجرى عليهم أجورهم بعد الموت : من مات مُرابطًا في سبيل الله ، ومن علَّم علمًا أُجري له عمله ما عمل به ، ومن تصدَّق بصدقة فأجرها يجري له ما وُجدت ، ورجل ترك ولدًا صالحًا فهو يدعو له »[٢] .

(و) الأعمال التي شهد لها رسول الله ﷺ بالخيرية وتفاضل الناس فيها :

مثل أن يقول ﷺ : « خيركم ... » ، أو « خير الأعمال ... » .

فمن تمسَّك بها علت هِمَّتُه :

عن ابن عمرو رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « خياركم أحاسنكم أخلاقًا ، الموطَّؤون أكنافًا ، وشرارُكم الثرثارون ، المتفيهقون ، المُتشدِّقون »[٣] .

وقال ﷺ : « خياركم ألينكم مناكب في الصلاة »[٤] .

---

(١) حسن : رواه البزار وسمويه ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم (٣٦٠٢) .
(٢) صحيح : رواه أحمد والطبراني في الكبير ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (٨٧٧) .
(٣) صحيح : رواه البيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (٣٢٦٠) ، والصحيحة (٧٩١) .
(٤) صحيح : رواه أبو داود والبيهقي في سننه ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (٣٢٦٤)، وصحيح أبي داود (٢٦٧٦) والمشكاة (١٠٩٩) .

وقال ﷺ : « خياركم خياركم لنسائهم »(١) .

وقال ﷺ : « خياركم خيركم لأهله »(٢) .

وقال ﷺ : « خياركم من تعلَّم القرآن وعلَّمه »(٣) .

وقال ﷺ : « خير العمل أن تُفارق الدنيا ولسانك رطبٌ من ذكْر الله »(٤) .

وقال ﷺ : « خير المسلمين من سَلِمَ المسلمون من لسانه ويده » . رواه مسلم عن ابن عمرو .

وقال ﷺ : « خير الناس أنفعهم للناس »(٥) .

وعن ابن عمرو رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « خير الناس ذو القلب المحموم واللسان الصادق » . قيل : ما القلب المحموم ؟ قال : « هو التقي النقي الذي لا إثم فيه ولا بغي ولا حسد » . قيل : فمن على أثره ؟ قال : « الذي يشنأ الدنيا ، ويُحبُّ الآخرة » . قيل : فمن على أثره ؟

---

(١) صحيح : رواه ابن ماجه عن ابن عمرو ، وكذا رواه أحمد ، والترمذي وابن حبان عن أبي هريرة ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (٣٢٦٥) .

(٢) صحيح : رواه الطبراني في الكبير عن أبي كبشة ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (٣٢٦٦) .

(٣) صحيح : رواه ابن ماجه عن سعد ، والدارمي أيضًا عن سعد ، وأحمد وابن أبي شيبة عن علي ، وابن أبي شيبة عن عثمان .

(٤) صحيح : رواه أبو نعيم في الحلية عن عبد الله بن بُسر ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (٣٢٨٢) ، والصحيحة (١٨٣٦) .

(٥) صحيح : رواه القضاعي ، والطبراني في الكبير ، والدارقطني ، والبيهقي في شعب الإيمان ، وابن عساكر عن جابر ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (٣٢٨٩) .

قال : « مُؤمن في خُلُق حسن »[١] .

وقال رسول الله ﷺ : « خير دينكم الورع »[٢] .

وقال ﷺ : « خيركم إسلامًا أحاسنكم أخلاقًا إذا فقهوا »[٣] .

وقال ﷺ : « خيركم من أطعم الطعام وردَّ السلام »[٤] .

وقال ﷺ : « خيركم من تعلَّم القرآن وعلَّمه » . رواه البخاري عن عثمان ، والترمذي عن علي ، وأحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه عن عثمان .

وقال رسول الله ﷺ : « خيركم من يُرجى خيرُه ، ويُؤمن شرُّه ، وشرُّكم من لا يُرجى خيرُه ، ولا يُؤمن شرُّه »[٥] .

وقال ﷺ : « إن خيار عباد الله المَوَفُّون المُطيَّبون »[٦] .

---

(١) صحيح : رواه الحكيم ، والطبراني في الكبير ، وأبو نعيم ، والبيهقي في الشعب عن ابن عمرو ، وشطره الأول عند ابن ماجه عن ابن عمرو ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (٣٢٩١) .

(٢) صحيح: رواه أبو الشيخ في الثواب عن سعد، والحاكم والديلمي والبزار، والطبراني في الأوسط عن حذيفة، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (٣٣٠٨).

(٣) صحيح : رواه البخاري في الأدب وأحمد عن أبي هريرة ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (٣٣١٢) .

(٤) حسن : رواه أبو يعلى في مسنده ، والحاكم عن صهيب ، ورواه أحمد وأبو الشيخ ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم (٣٣١٨) .

(٥) صحيح : رواه أبو يعلى عن أنس ، وأحمد والترمذي عن أبي هريرة ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (٣٣٢٠) ، والمشكاة (٩٤٩٣) .

(٦) صحيح: رواه الطبراني في الكبير، وأبو نعيم في الحلية عن أبي حميد الساعدي، وأحمد عن عائشة، ورواه الطبراني في الصغير، وأبو الشيخ، والعقيلي، والمخلدي، وأبو حميد، والبزار عن عائشة، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (٢٠٦٢).

وقال ﷺ : « أفضل الأعمال أن تُدخل على أخيك المؤمن سرورًا ، أو تقضي عنه دَيْنًا ، أو تُطعمه خبزًا »(١).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال ﷺ : « أحبُّ الأعمال إلى الله الصلاة لوقتها ثم برُّ الوالدين ، ثم الجهادُ في سبيل الله » . رواه أحمد والبخاري ومسلم وأبو داود والنسائي .

وقال رسول الله ﷺ : « أفضل المؤمنين إسلامًا من سلم المسلمون من لسانه ويده ، وأفضل المؤمنين إيمانًا أحسنهُم خُلُقًا ، وأفضلُ المُهاجرين مَنْ هجر ما نهى الله تعالى عنه ، وأفضلُ الجهاد من جاهد نفسه في ذات الله عز وجل »(٢) .

(ز) ومن عُلُوِّ الهِمَّة حرصُ الرجل على أعمال تُقرِّبُه من رسول الله ﷺ في الجنة :

وهذه غاية شمّر إليها مَنْ فقه عن رسول الله أمْرَه ، ومَنْ أحبَّ جوار الله ورسوله ، وكان من السبّاقين :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « كافل اليتيم له أو لغيره ، أنا وهو كهاتين في الجنة » . رواه مسلم وأحمد .

وروى مسلم والترمذي والحاكم عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من عال جاريتين حتى يُدركا؛ دخلتُ أنا وهو الجنة كهاتين».

(ح) أعمال من فعلها حُرِّمت عليه النار :

وقد يسر الله لي جمعَها في كتاب « البحار الزاخرة في أسباب المغفرة » ، مثل

(١) حسن: رواه ابن أبي الدنيا في قضاء الحوائج، والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي هريرة، وابن عدي عن ابن عمر، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (١٠٩٦).

(٢) صحيح : رواه الطبراني في الكبير عن ابن عمرو ، ورواه ابن نصر ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (١١٢٩) ، والصحيحة رقم (١٤٩١) .

قوله ﷺ: «مَنْ كان سهلًا هيِّنًا ليِّنًا حرَّمه الله على النار»(١).

(ط) ومن عُلوِّ الهمة الواردة في السنة حرصُ الرجل على أعمال تُظلُّه في ظلِّ الله يوم لا ظلَّ إلا ظلُّهُ :

ومنها : عن أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : « سبعة يُظلُّهم الله في ظله يوم لا ظلَّ إلا ظلّه : إمام عادل ، وشابٌّ نشأ في عبادة الله عز وجل ، ورجل قلبُهُ مُعلَّقٌ بالمسجد إذا خرج منه يعود إليه ، ورجلان تحابَّا في الله ، فاجتمعا على ذلك وافترقا عليه ، ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال ، فقال : إني أخاف الله ، ورجل تصدَّق بصدقة فأخفاها ، حتى لا تعلم شمالُه ما تُنفق يمينُه » . رواه أحمد والبخاري ومسلم ، ومالك والنسائي والترمذي وابن حبان ومالك ، والبيهقي في السنن الكبرى ، وابن المبارك والدارقطني في « غرائب مالك » ، وأبو نعيم في فضل العادلين .

ومنهم غير هؤلاء السبعة :

عن أبي اليَسَر رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «مَنْ أنظر مُعسرًا أو وضع عنه، أظلَّه الله في ظلِّه يوم لا ظلَّ إلا ظلُّهُ»(٢).

---

(١) صحيح: رواه الحاكم في المستدرك، والبيهقي في سننه عن أبي هريرة، ورواه الطبراني في الأوسط، والعقيلي في الضعفاء، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (٦٤٨٤).

(٢) صحيح: أخرجه عبد بن حميد، والطبراني في المعجم الكبير، والبغوي في شرح السنة، والبيهقي في «الأربعون الصغرى»، والخطيب في تلخيص المتشابه، والدارمي في السنن، والقضاعي في مسند الشهاب، وابن أبي الدنيا في قضاء الحوائج، وصحَّحه ابن حجر. انظر تمهيد الفرش في الظلال الموجبة لظلِّ العرش، ومعه بزوغ الهلال في الخصال الموجبة للظلال للسيوطي صـ ٤٩ تحقيق: مشهور حسن سليمان – مكتبة المنار بالأردن .

وأخرجه الطبراني في الكبير بلفظ : « إن أول الناس يستظل في ظل الله يوم القيامة ؛ لرجلٌ أنظر مُعسرًا ، أو تصدَّق عليه » . وإسناده حسن .

وعن سهل بن حنيف رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ أعان مجاهدًا في سبيل الله ، أو غارمًا في عُسرته ، أو مُكاتبًا في رقبته ؛ أظلَّه الله يوم لا ظلَّ إلا ظلُّه »(١) .

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ أظلَّ رأس غازٍ ؛ أظلَّه الله يوم القيامة »(٢) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « سبعة في ظل العرش ، يوم لا ظلَّ إلا ظلُّه : رجل ذكر الله ، ففاضت عيناه ، ورجل قلبُهُ مُعلَّقٌ بالمساجد من شدَّة حُبّه إياها ، ورجل يُحِبُّ عبدًا لا يُحبُّه إلا لله ، وإمام مُقسطٌ في رعيَّته ، ورجل يُعطي الصدقة بيمينه يكاد يُخفيها عن شماله ، ورجل عرضت عليه امرأة نفسها ، ذات منصب وجمال ، فتركها لجلال الله ، ورجل كان في سريَّةٍ مع قوم ، فلقوا العدو فانكشفوا ، فحمى آثارهم ، حتى نجوا ، ونجا أو استُشهد »(٣) .

قال ابن حجر :

وزدْ سبعة إظلالَ غازٍ وعونَه ... وإنظارَ ذي عُسْرٍ وتخفيف حملِهِ
وحامي غزاةٍ حين ولَّوا وعونَ ذي ... غرامة حق معْ مكاتبِ أهلِهِ

---

(١) صحيح : أخرجه عبد بن حميد ، وصحَّحه ابن حجر .

(٢) صحيح : رواه في المسند ، والخطيب في « موضح أوهام الجمع والتفريق » ، وابن عدي ، والبوصيري في « الزوائد » ، والعلائي في « جامع التحصيل » ، وصحَّحه ابن حجر ، وصحَّحه الضياء عن عمر مرفوعًا .

(٣) أخرجته أم الفضل بيبي الهرثمية في جزئها ، وأبو نعيم في فضل العادلين ، وقال ابن حجر : هذا حديث حسن .

وعن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة على كثبان المسك ، لا يهولهم الفزع الأكبر يوم القيامة : رجل أَمَّ قومًا وهم له راضون ، ورجل كان يُؤذِّن في كل يوم وليلة ، وعبد أدَّى حقَّ الله وحقَّ مواليه »[١] .

(ى) ومن عُلُوِّ الهِمَّة الوارد في السنة الحرصُ على أعمال عظيم أجرها ؛ كذكْر السوق ، وعيادة المرضى ، والتسبيح ، وغيره :

عن ابن عمر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من دخل السوق فقال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمدُ ، يُحيي ويُميت ، وهو حيٌّ لا يموت ، بيده الخير ، وهو على كل شيء قدير ؛ كتب الله له ألفَ ألفِ حسنة ، ومحا عنه ألف ألفَ سيئة ، ورفع له ألف ألف درجة ، وبنى له بيتًا في الجنة »[٢] .

وقال رسول الله ﷺ : « إذا عاد الرجل أخاه المسلم ؛ مشى في خرافة الجنة حتى يجلس ، فإذا جلس غمرته الرحمة ، فإن كان غدْوةً صلَّى عليه سبعون ألف ملك حتى يُمسي ، وإن كان عشيًّا صلَّى عليه سبعون ألف ملك حتى يُصبح »[٣] .

---

(١) صحيح : رواه الترمذي ، والطبراني في الصغير والأوسط ، وأحمد في مسنده ، والديلمي في الفردوس . وقال المنذري : إسناده لا بأس به . وقال العراقي : أخرجه الترمذي وحسَّنه .

(٢) حسن : رواه أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم عن ابن عمر ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (٦٢٣١) .

(٣) صحيح : رواه أحمد ، وأبو يعلى ، والبيهقي في سننه عن علي ، وكذا رواه أبو داود والحاكم ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (٦٨٢) .

(ك) الحرص على أعمال نصَّ الرسول ﷺ أن العبد إذا فعلها بُني له بيت في الجنة ، أو كان ضامنًا على الله ، أو كان أولى الناس بالله ، أو كان من أهل الله :

قال رسول الله ﷺ: «إن أولى الناس بالله، من بدأهم بالسلام»(١).

قال ﷺ : « خمسٌ مَنْ فعل واحدةً منهن كان ضامنًا على الله : مَنْ عاد مريضًا ، أو خرج غازيًا ، أو دخل على إمامه يُريد تعزيره وتوقيره ، أو قعد في بيته ؛ فسلِمَ الناسُ منه ، وسلِمَ من الناس »(٢) .

وقال ﷺ : « ثلاثة في ضمان الله عز وجل : رجل خرج إلى مسجد من مساجد الله عزَّ وجلَّ ، ورجل خرج غازيًا في سبيل الله تعالى ، ورجل خرج حاجًّا »(٣) .

وقال رسول الله ﷺ : « من بنى لله مسجدًا ؛ بنى الله له بيتًا في الجنة »(٤) .

وعليك أخي بهذه الهدية علَّك تكون من أهلها :

قال رسول الله ﷺ: «يدخل الجنةَ من أمتي سبعون ألفًا بغير حساب،

---

(١) صحيح رواه أبو داود عن أبي أمامة ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (٢٠١١) .

(٢) صحيح : رواه أحمد والطبراني في الكبير عن معاذ ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (٣٢٥٣) .

(٣) صحيح : رواه أبو نعيم في الحلية عن أبي هريرة ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (٣٠٥١) .

(٤) صحيح : رواه ابن ماجه عن علي ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (٦١٢٨) .

هم الذين لا يسترقون، ولا يتطيَّرون، ولا يكتوون، وعلى ربهم يتوكَّلون»[(١)] .

هذه أحاديث طيِّبة في عُلُوِّ الهمة ، فاحرص على أداء أعمالهم جيِّدًا ، وضعْها نُصْبَ عينيك ، فهي أحاديث الذي لا ينطق عن الهوى ﷺ ، أعلى الناس هِمَّة .. ويكفيك من عُلُوِّ هِمَّته : تفرُّدُه وسؤاله أعلى درجات الجنة .

قال ﷺ : « إن الوسيلة درجة عند الله ، ليس فوقها درجة ، فسَلُوا الله أن يؤتينيها على الخلق يوم القيامة »[(٢)] .

* * *

---

(١) رواه البخاري عن ابن عباس ، وأحمد ومسلم عن عمران بن حصين ، ومسلم عن أبي هريرة .

(٢) حسن : رواه ابن مردويه عن أبي سعيد ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (١٩٨٨) ، وفضل الصلاة (٤٩) .



الفصْلُ الثَّانِي

علو الهمـة في الإِخلاص

□ علو الهمة في الإخلاص □

من وجد الله فماذا فقد !! ومن فقد الله فماذا وجد !!

متى صحّ منك الودُّ فالكلُّ هيِّنٌ وكلُّ الذي فوق التراب ترابُ

إذا اطَّلع الخبير على الضمير فلم يجد في الضمير غير الخبير ، جعل فيه سراجًا مُنيرًا .

قال عبد الله بن عروة بن الزبير : أشكو إلى الله عيبي ما لا أترك ، ونعتي ما لا آتي ، إنما نبكي بالدين للدنيا[1] .

ويرحم الله الفضيل بن عياض: أدركنا الناس وهم يُراءون بما يعملون، فصاروا الآن يُراءون بما لا يعملون .

ياإخوتاه ، قولوا لمن لم يكن صادقًا : لا تتعنَّى .

قال يحيى بن أبي كثير : تعلَّموا النية ، فإنها أبلغ من العمل[2] .

قال الفضيل : من لم يكن في عمله أكيس من ساحر ؛ وقع في الرياء .

لله دَرُّهُـمْ ، كم راعوا هذه الكلمة في أقوالهم وحركاتهم وسكناتهم وبكائهم !

قال نعيم بن حمَّاد : ضربُ السياط أهونُ علينا من النية الصالحة .

ياإخوتاه ، أعربنا في القول ، ولحنَّا في العمل ، وإخلاصُنا يحتاج إلى إخلاص .

كان طبيب القلوب الفضيل بن عياض يقول : إذا كان يَسألُ الصادقين عن صدقهم، مثل إسماعيل وعيسى عليهما الصلاة والسلام؛ فكيف بالكذَّابين

---

(١) الزهد والرقائق صـ ٦٤ .

(٢) الحلية ٣ / ٧٠ .

من أمثالنا .

وكان رحمه الله إذا قرأ ﴿ **ونبلو أخباركم** ﴾ يقول : اللهم إنك إن بَلَوْتَ أخبارَنا ؛ فضحْتنا وهتكْت أستارنا ، وأنت أرحمُ الراحمين .

لله ما أحلى هذا الكلام !!

كان كلامهم دواءً للخطَّائين . قال مالك : أما رأيتموهم ؟ ثم يرجع إلى نفسه ، فيقول : بلى ! والله لقد رأيناهم : الحسن ، وسعيد بن جبير ، وأشباههم ، الرجل منهم يُحيي الله بكلامه الفئام من الناس .

ويرحم الله إبراهيم بن أدهم إذ يقول : كان العلماء إذا علموا عملوا ، فإن عملوا شُغِلوا ، فإن شُغِلوا فُقدوا ، فإن فُقِدوا طُلبوا ، فإن طُلبوا هربوا .

سُئل الإمام أحمد بن حنبل عن الصِّدق والإخلاص ؟ فقال : بهذا ارتفع القوم .

نعم ياإخوتاه ، بضاعة الآخرة لا يرتفع فيها إلا مُخلِصٌ صادقٌ !

ياإخوتاه ، الإخلاص مِسْكُ القلب ، وماءُ حياتِهِ ، ومدارُ الفلاح كلهِ عليه .

قال تعالى : ﴿ **وما أُمروا إلا ليعبدوا الله مُخلصين له الدين حنفاء ويُقيموا الصلاة ويُؤتوا الزكاة وذلك دينُ القيمة** ﴾ [البينة : ٥] .

وقال تعالى : ﴿ **قل إن صلاتي ونُسُكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أُمرتُ وأنا أول المسلمين** ﴾ [الأنعام : ١٦٢، ١٦٣] .

وقال تعالى : ﴿ **إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مُخلصًا له الدين ألا لله الدين الخالص ...** ﴾ [الزمر : ٢، ٣] .

قال أبو عثمان المغربي : الإخلاص نسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلى الخالق .

قال سهل بن عبد الله التستري : نظر الأكياس في تفسير الإخلاص ،

فلم يجدوا غير هذا : أن تكون حركتُه وسكونُه في سرِّه وعلانيته لله تعالى ، لا يُمازجه شيء ؛ لا نفس ، ولا هوى ، ولا دنيا .

قال ابن عباس : إنما يُحفظ الرجلُ على قدْر نيَّته .

فحفظ القلب من الخيانة والحقد ؛ إنما هو بالإخلاص :

عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال في حجة الوداع : « نضَّر الله امرأً سمع مقالتي فوعاها ، فرُبَّ حامل فقهٍ ليس بفقيه ، ثلاثٌ لا يُغَلُّ[1] عليهن قلبُ امرئ مؤمن : إخلاص العمل لله ، والمُناصحة لأئمة المسلمين ، ولزوم جماعتهم ، فإن دعاءهم يُحيط من ورائهم »[2] .

وتحفظ الأمة وتنصر بإخلاص رجالها :

قال رسول الله ﷺ : « إنما ينصر الله هذه الأمة بضعيفها ؛ بدعوتهم وصلاتهم وإخلاصهم »[3] .

وعن أُبي بن كعب قال : قال رسول الله ﷺ : « بَشِّرْ هذه الأمة بالسناء والدين والرفعة والتمكين في الأرض ، فمن عمل منهم عَمَل الآخرة للدنيا ؛ لم يكن له في الآخرة من نصيب »[4] .

---

(١) هو من الإغلال : الخيانة في كل شيء ، يروى « يَغلُّ » بفتح الياء من الغِل وهو الحقد والشحناء ؛ أي لا يدخله حقد يُزيله عن الحق ، وروي « يُغَل » بالتخفيف، و «عليهن» في موضع الحال، تقديره: لا يغل كائنًا عليهن قلب مؤمن.

(٢) رواه البزار، وقال المنذري في الترغيب والترهيب : إسناده حسن ، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ١ / ٥ : صحيح .

(٣) صحيح : رواه النسائي وغيره ، وهو في البخاري وغيره دون ذكر الإخلاص ، وصحَّحه الألباني في صحيح الترغيب ١ / ٦ .

(٤) صحيح : رواه أحمد وابن حبان في صحيحه والحاكم والبيهقي ، وقال الحاكم : صحيح الإسناد، وصحَّحه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ١/١٥-١٦.

وعند البيهقي : « بشِّر هذه الأمة بالتيسير والسناء والرفعة بالدين والتمكين في البلاد والنصر ، فمن عمل منهم بعمل الآخرة للدنيا ؛ فليس له في الآخرة من نصيب » .

فالنجاة : أن لا يُمازج العمل ما يشوبُه من شوائب إرادات النفس ؛ إما طلبُ التزيُّن في قلوب الخلق ، وإما طلبُ مدحهم ، والهرب من ذمِّهم ، أو طلبُ تعظيمهم ، أو طلبُ أموالهم ، أو خدمتهم ، أو محبَّتهم ، وقضائهم حوائجه ، أو غير ذلك من العلل والشوائب ، التي عقدُ مُتفرِّقاتها هو : إرادة ما سوى الله بعمله ، كائنًا ما كان .

قيل لحمدون بن أحمد : ما بال كلام السلف أنفع من كلامنا ؟ قال : لأنهم تكلَّموا لعزِّ الإسلام ، ونجاة النفوس ، ورضا الرحمن ، ونحن نتكلم لعزِّ النفوس ، وطلب الدنيا ، ورضا الخلق[1] .

فاعقل درجتك ، ولا تزهو عند الخلق ، وجوهرُك جوهر الفضائح ، وسيماك سيما الأبرار، وعُدَّ نفسك مع أنفُس الكذّابين، وروحك مع أرواح الهلكى ، وبدنك مع أبدان المُذنبين .

وأقبلْ على تعلُّم الإخلاص ، فوالله إنّ علْمَه خيرُ العلم ، وفقْهَه الفقهُ كُلُّ الفقهِ .

قالت رُقيَّة العابدة : تفقَّهوا في مذاهب الإخلاص ، ولا تفقَّهوا فيما يؤدِّيكم إلى ركوب القلاص .

ولا نجاة ولا فقْه إلا مع سير السلف الصالحين ... فقد كان الشيوخُ في قديم الزمان أصحاب قدَمٍ .. والطلابُ أصحابَ أَلَمٍ ، فذهب القدمُ والألمُ ، اليوم لا غُصَّة ولا قصَّة .. وإن التربية بالقدوة خيرُ وسائل التربية .

والحكايات عن سلفنا جُندٌ من جنود الله تعالى، يُثبِّتُ الله بها قلوبَ أوليائه.

---

(١) صفة الصفوة ٤ / ١٢٢ .

قال الإمام أبو حنيفة : الحكايات عن العلماء ومحاسنهم أحبُّ إليَّ من كثير من الفقه ؛ لأنها آداب القوم وأخلاقهم .

قال تعالى: ﴿**لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب**﴾ [يوسف: ١١١].

وقال تعالى لنبيه : ﴿ **أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده** ... ﴾ [الأنعام : ٩] .

قال مالك بن دينار : الحكايات تحفُّ الجنة .

وقال الجنيد : الحكايات جندٌ من جنود الله عز وجل ، يُقوِّي بها إيمان المريدين ، فقيل له : هل لهذا من شاهد ؟ قال : قوله تعالى : ﴿ **وكُلًّا نقصُّ عليك من أنباء الرسل ما نُثبِّت به فؤادك** ﴾ .

«وخير وسيلة لإشعال العزائم، وإثارة الروح الوثَّابة، وقدْح المواهب، وإذكاء الهِمَم ، وتقويم الأخلاق ، والتسامي إلى معالي الأمور ، والترفُّع عن سَفْسَافها ، والائتساء بالأسلاف الأجلّاء – هو قراءة سِيَر النُّبغاء الصُّلحاء ، والتملِّي من اجتلاء مناقب الصالحين الربَّانيين ، والاقتراب من العلماء النُّبهاء العاملين المُجدِّين . فذلك خير مهماز لرفع الهِمَم ، وشدِّ العزائم ، وسُمُوِّ المقاصد ، وإنارة القلوب ، واحتلال ذُرَى المجد الرفيع ، واغتنام الباقيات الصالحات ، وإخلاص النيَّات »[١] .

وهذه نقطة من بحار السلف ... وعجائبهم ... فارعها قلبَك ، وإن كانت غريبة في عالمنا ... وأي شيء عندهم لا يكون اليوم غريبًا ، ولسان حالهم يقول :

تركنا البحارَ الزاخراتِ وراءنا ... فمن أين يدري الناسُ أنَّا توجَّهنا

---

(١) «صفحات من صبر العلماء على شدائد العلم والتحصيل» لأبي غدة صـ ١٧– ١٨، نشر مكتب المطبوعات الإسلامية بحلب .

الإخلاص في الصلاة :

فهذا الربيع بن خثيم تلميذ عبد الله بن مسعود الذي قال فيه عبد الله بن مسعود : ياأبا يزيد ، لو رآك رسول الله ﷺ لأحبَّك ، وما رأيتُك إلا ذكرتُ المُخبتين ، وكان إذا دخل على عبد الله بن مسعود لم يكن عليه إذنٌ لأحد ، حتى يفرغ كل واحد من صاحبه[1] .

ما رُئي الربيع مُتطوِّعًا في مسجد قومه قطُّ إلا مرة واحدة .

وعامر بن عبد قيس : ما رُئي مُتطوِّعًا في المسجد قط[2] .

قال أبو تميم بن مالك : كان منصور بن المعتمر إذا صلى الغداة ؛ أظهر النشاط لأصحابه ، فيُحدِّثهم ويُكثر إليهم ، ولعله إنما بات قائمًا على أطرافه ، كل ذلك ليُخفي عليهم العمل[3] .

وهذا السليم الأسلم المذكور بالسواد الأعظم ، الطوسي محمد بن أسلم ، قال خادمه أبو عبد الله : صحبتُ محمد بن أسلم نيِّفًا وعشرين سنة لم أره يُصلي حيث أراه من التطوع إلا يوم الجمعة ، ولا يُسبِّح ولا يقرأ حيث أراه ، ولم يكن أحد أعلمَ بسرِّه وعلانيته مني ، وسمعتُه يحلف كذا كذا مّرة أن لو قدرتُ أن أتطوع حيث لا يراني ملكاي لفعلتُ ، ولكن لا أستطيع ذلك ؛ خوفًا من الرياء[4] .

وهذا شيخ الإسلام عبد الله بن المبارك نورُ مروٍ وجمالُها ، ونجمُها وهلالُها ، يقول عنه محمد بن أعين - وكان صاحبه في أسفاره ، وكان كريمًا

---

(١) حلية الأولياء ٢ / ١٠٦ .
(٢) الزهد لابن حنبل صـ ٢٢٣ .
(٣) صفة الصفوة ٣ / ١١٤ .
(٤) صفة الصفوة ٤ / ١٢٦ ، الحلية ٩ / ٢٤٣ .

عليه -: كان ذات ليلة ونحن في غزاة الروم ، ذهب ليضع رأسه ليُريني أنه ينام ، فقلتُ : أنا برمحي في يدي قبضت عليه ، ووضعتُ رأسي على الرمح كأني أنام كذلك ، قال : فظنَّ إني قد نمتُ ، فقام فأخذ في صلاته ، فلم يزل كذلك حتى طلع الفجر وأنا أرمُقُه ، فلمّا طلع الفجر أيقظني وظنّ أني نائم ، وقال : يامحمد ، فقلتُ : إني لم أنم . قال : فلما سمعها مني ما رأيتُه بعد ذلك يُكلِّمني ولا ينبسط إليَّ في شيء من غزاته كلها ، كأنه لم يُعجبْه ذلك مني ، لما فطنتُ له من العمل ، فلم أزل أعرفها فيه حتى مات ، ولم أر رجلًا أسرَّ بالخير منه[1] .

وقال علي بن الحسن بن شقيق : لم أر أحدًا من الناس أقرأ من ابن المبارك ولا أحسن قراءةً ، ولا أكثر صلاةً منه ، كان يُصلِّي الليل كله في السفر وغيره ، وإنما ترك النوم في المحمل ؛ لأنه كان يُصلِّي ، وكان الناس لا يدرون .

وهذا سيِّدُ الفتيان ، وفتى العُبَّاد والرُّهبان : السختياني ؛ أيوب بن كيسان ، يقوم الليل كلَّه ، فيُخفي ذلك ، فإذا كان عند الصبح رفع صوته ، كأنه قام تلك الساعة[2] .

ولكن كيف يُخفي الليلُ بدرًا ساطعًا ؟!

أسائل عمن لا أريدُ وإنما ... أريدكُمُ من بينهم بسؤالي
فيعثر ما بين الكلام ورجعهِ ... لساني بكم حتى ينمَّ بحالي
وأطوي على ما تعلمون جوانحي ... وأُظهرُ للعذّال أني سالي

رحمك الله ياسيِّد الفقهاء ؛ لسان حالك يقول :

أُكلِّفُ القلبَ أن يهوى وأُلزمُه ... صبرًا وذلك جمعٌ بين أضدادِ

---

(١) الجرح والتعديل ١ / ٢٦٦ ، ٢٦٧ .
(٢) حلية الأولياء ٣ / ٨ .

وأكتمُ الركبَ أوطاري وأسألُهُ حاجاتِ نفسي لقد أتعبتُ زوَّادي
هل مدلجٌ عنده من مبكرٍ خبر وكيف يعلمُ حالَ الرائح الغادي

وكان ابن أبي ليلى إذا دخل داخل وهو يُصلي اضطجع على فراشه .

أفدي ظباءَ فلاةٍ ما عرفن بها مضغ الكلام ولا صبْغَ الحواجيبِ[١]

وهذا زيْنُ القراء محمد بن واسع ، يقول عنه أبو الطَّيب موسى بن بشّار : صحبتُ محمد بن واسع من مكة إلى البصرة ، فكان يُصلِّي الليل أجمع في المحمل جالسًا يومىء برأسه إيماءً ، وكان يأمر الحادي يكون خلفه ، ويرفع صوته حتى لا يفطن له، وكان ربما عرَّس من الليل فينزل فيُصلِّي، فإذا أصبح أيقظ أصحابه رَجُلًا رَجُلًا، فيجيء إليه فيقول: الصلاة الصلاة[٢].

وهذا نجيب بني أمية عمر بن عبد العزيز :

كانت له درَّاعةٌ من شَعْرٍ ، وغُلٍّ ، وكان له بيتٌ في جوف بيت ، يُصلِّي فيه ، لا يدخل فيه أحدٌ ، فإذا كان في آخر الليل فتح ذلك السفط ، ولبس تلك الدرَّاعة ، ووضع الغلَّ في عُنقه ، فلا يزال يُناجي ربه ويبكي ، حتى يطلع الفجر[٣] .

قال أبو إسحاق كعب الأحبار صاحب الكتب والأسفار : من تعبَّد لله ليلة حيث لا يراه أحد يعرفه ، خرج من ذنوبه كما يخرج من ليلته[٤] .

وأبو سلمة مسعر بن كدام ، يقول عنه ابنه محمد : كان أبي لا ينام حتى يقرأ نصف القرآن ، فإذا فرغ من وِرْده لفَّ رداءه ، ثم هجع عليه هجعة خفيفة ، ثم يثِبُ كما يثِبُ الرجلُ الذي فُقد منه شيء فهو يطلبه ، وإنما هو

---

(١) المدهش لابن الجوزي صـ ٤١٥ .
(٢) حلية الأولياء ٢ / ٣٤٦ .
(٣) حلية الأولياء ٥ / ٢٩١ .
(٤) حلية الأولياء ٥ / ٣٨٣ .

السواك والطهور ، ثم يستقبل المحراب فكذلك إلى الفجر ، وكان يجتهد على إخفاء ذلك جدًّا(١) .

وحسان بن أبي سنان ، تقول عنه زوجه : كان يجيء فيدخل في فراشي ، ثم يُخادعني كما تخادع المرأة صبيَّها ، فإذا علم أني نمتُ سلَّ نفسه فخرج، ثم يقوم فيُصلِّي، قالت: فقلتُ له: ياأبا عبد الله، كم تُعذِّب نفسك، ارفق بنفسك ، فقال : اسكتي ، ويحك ، فيوشك أن أرقد رقدةً لا أقوم منها زمانًا(٢) .

صدقة السِّر :

ولله ما أحلى قول نبينا ﷺ في السبعة الذين يُظلُّهم الله في ظلّه يوم لا ظلّ إلا ظلّه : « ورجلٌ تصدَّق بصدقة فأخفاها ، حتى لا تعلم شمالُه ما تُنفقُ يمينُه » .

ولبيت النبوة القدْحُ المعلَّى في ذلك :

فهذا زيْنُ العابدين علي بن الحسين رحمه الله يقول عنه أبو حمزة الثمالي : كان علي بن الحسين يحمل جراب الخبز على ظهره بالليل ، فيتصدَّق به ، ويقول : إن صدقة السرِّ تطفيء غضب الرب عزَّ وجلَّ .

وعن شيبة بن نعامة : كان علي بن الحسين يُبَخَّلُ ، فلما مات وجدوه يقوت مائة أهل بيت بالمدينة .

قال جرير : إنه حين مات وجدوا بظهره آثارًا مما كان يحمل بالليل الجِرَب إلى المساكين .

وقال عمرو بن ثابت : لمّا مات علي بن الحسين فغسَّلوه ؛ جعلوا ينظرون إلى آثار سواد بظهره ، فقالوا : ما هذا ؟ فقيل : كان يحمل جِرَبَ

---

(١) حلية الأولياء ٧ / ٢١٦ .
(٢) حلية الأولياء ٣ / ١١٧ .

الدقيق ليلًا على ظهْره ،يُعطيه فقراء أهل المدينة .

وعن محمد بن إسحاق : كان ناس من أهل المدينة يعيشـون ، لايدرون من أين كان معاشهم ، فلما مات علي بن الحسين فقدوا ما كانوا يُؤتَون به في الليل .

وعن ابن عائشة قال : قال أبي : سَمعتُ أهل المدينة يقولون : ما فقدنا صدقة السرّ حتى مات علي بن الحسين(١) .

هذا الذي تعرفُ البطحاءُ وطأتَهُ والبيتُ يعرفُهُ والحِلُّ والحرمُ
يكادُ يمسكه عرفانُ راحتِهِ عند الحطِيم إذا ما جاء يستلمُ
إذا رأته قريشٌ قال قائلُها إلى مكارم هذا ينتهي الكرمُ

وشيخ الإسلام عبد الله بن المبارك ، يقول عنه محمد بن عيسى : كان ابن المبارك كثير الاختلاف إلى طرسوس ، وكان ينزل الرَّقة في خانٍ ، فكان شابٌّ يختلف إليه ، ويقوم بحوائجه ويسمع منه الحديث ، فقدم عبد الله مرّة فلم يره ، فخرج في النفير مُستعجلًا ، فلما رجع سأل عن الشابِّ ، فقال : محبوس على عشرة آلاف درهم ، فاستدلّ على الغريم ، ووزن له عشـرة آلاف، وحلَّفه ألا يُخبر أحدًا ما عاش، فأخرج الرجل، وسرى ابن المبارك، فلحقه الفتى على مرحلتين من الرّقة ، فقال لي : يافتى ، أين كنت ، لم أرك ؟ قال: ياأبا عبد الرحمن، كنت محبوسًا بدَيْن. قال: وكيف خلصت ؟ قال : جاء رجل فقضى دَيْني و لم أدر ، قال : فاحمد الله . و لم يعلم الرجل إلا بعد موت عبد الله(٢) .

الصــوم :

وإذا ذُكر الصومُ وإخفاؤه ، فاذكر داود بن أبي هند .

---

(١) حلية الأولياء ٣ / ١٣٥ - ١٣٦ .

(٢) تاريخ بغداد ١٠ / ١٥٩ .

صام داود بنُ أبي هند أربعين سنة لا يعلم به أهله ولا أحد ، وكان خزَّازًا ، يحمل معه غداءه من عندهم ، فيتصدَّق به في الطريق ، ويرجع عشيًّا فيُفطر معهم[(١)] ، فيظنُّ أهلُ السوق أنه قد أكل في البيت ، ويظنُّ أهله أنه قد أكل في السوق .

ومستخبرٍ عن سرِّ حُبِّي رددتُهُ فأصبح في حُبِّي بغير يقينِ
يقولون خبِّرنا فأنت حبيبُه وما أنا إن خبَّرتهم بأمينِ

وعمرو بن قيس الملائي : أقام عشرين سنة صائمًا ؛ ما يعلم به أهلُه ، يأخذ غداءه ويغدو إلى الحانوت، فيتصدق بغدائه، ويصوم، وأهله لا يدرون. وكان إذا حضرته الرقّة ، يُحوِّل وجهَه إلى الحائط ، ويقول لجلسائه : ما أشدّ الزكام[(٢)] .

وعن المسيح عيسى ابن مريم قال : إذا كان صومُ يوم أحدكم ، فليدهنْ أو ليمسحْ شفتيه من دهنه ، حتى ينظر إليه الناظر ، فلا يرى أنه صائم ، وإذا صلَّى أحدكم في بيته فليُخف عليه ستره ، فإن الله يقسم الثناء كما يقسم الرزق[(٣)] .

وعَلَمُ الزهاد أبو محفوظ معروف الكرخي : سُئل : كيف تصوم ؟ فغالط السائل وقال : صوم نبينا ﷺ كان كذا وكذا ، وصوم داود كذا وكذا ، فألحَّ عليه ، فقال : أُصبح دهري صائمًا ، فمن دعاني أكلتُ ، ولم أقل إني صائم[(٤)] .

قال إبراهيم بن أدهم : لا تسأل أخاك عن صيامه ، فإن قال : أنا

---

(١) صفة الصفوة ٣ / ٣٠٠ .
(٢) صفة الصفوة ٣ / ١٢٤ .
(٣) الزهد لهنَّاد بن السري ، ورجاله ثقات .
(٤) تاريخ بغداد ١٣ / ٢٥٢ ، وسير أعلام النبلاء ٩ / ٣٤١ .

صائم فرحتْ نفسُه بذلك، وإنْ قال: أنا غير صائم حزنت نفسه، وكلاهما من علامات الرياء، وفي ذلك فضيحة للمسئول واطّلاع على عوراته من السائل.

الذِّكْر وقراءة القرآن :

قالت سُرّية الربيع بن خثيم : كان عملُ الربيع كلُّه سرّا ، إن كان ليجيء الرجل ، وقد نشر المصحف ؛ فيُغطّيه بثوبه[(١)] .

قال ابن الجوزي : كان إبراهيم النخعي إذا قرأ في المصحف فدخل داخل غطّاه[(٢)] .

وإمام أهل السنة أحمد بن حنبل ، يقول عنه تلميذه أبو بكر المروزي : كنتُ مع أبي عبد الله نحوًا من أربعة أشهر بالعسكر ، وكان لايدع قيام الليل وقراءات النهار ، فما علمت بختمة ختمها ، وكان يُسرُّ بذلك .

قال رجل خراساني للإمام : الحمد لله الذي رأيتُك ، فقال له : اقعدْ ، أي شيء ذا ؟ ومن أنا ؟

رحمك الله ياإمام، والله لأنت أولى الناس بقولك: القلانس من السماء تنزل على رؤوس قوم يقولون برؤسهم هكذا وهكذا . والمعنى أنهم لا يُريدون الرئاسة ، وهي تقع عليهم .

قال الإمام أحمد : أشتهي ما لا يكون ... أشتهي مكانًا لا يكون فيه أحد من الناس .

كان شيخ الإسلام إذا أصبح النهار يخرج إلى الصحراء، ويقول مُتمثِّلًا:

وأخرج مِنْ بين البيوت لعلّني أُحدّث عنك القلبَ بالسر خاليا

---

(١) حلية الأولياء ٢ / ١٠٧ .

(٢) المدهش صـ ٤١٥ .

البكـــاء :

قال الثوري : البكاء عشرة أجزاء ؛ تسعة لغير الله ، وواحد لله ، فإذا جاء الذي لله في السنة مرة فهو كثير[(١)] .

لشدّ ما حاسبوا أنفسهم ودّققوا ... حتى الدموع ياأمير المؤمنين في الحديث !!.

قال سفيان: إذا استكمل العبد الفجور ملك عينيه، يبكي بهما متى يشاء.

هذا العالم العابد ، الإمام المُدقِّق ، سفيان الثوري ، له مع الفضيل بن عياض- طبيب القلوب- وقفة يحكيها لنا الأصبهاني في حلية الأولياء (٧/٦٤): التَقى سفيان الثوري وفضيل بن عياض فتذاكرا ، فبكيا ، فقال سفيان : إني لأرجو أن يكون مجلسنا هذا أعظمَ مجلسٍ جلسناه بركةً . قال فضيل : ترجو، لكني أخاف أن يكون أعظمَ مجلسٍ جلسناه علينا شؤمًا، أليس نظرتَ إلى أحسن ما عندك ، فتزيَّنتَ به لي ، وتزيَّنت لك به ، فعبدتَني وعبدتك . قال فبكى سفيان حتى علا نحيبه ، ثم قال : أحياك الله كما أحييتني .

وهذا أيوب السختياني : كان في ثوبه بعضُ الطول لستر الحال ، وكان إذا وعظ فرقَّ ؛ فَرَقَ من الرياء ، فيمسح وجهه ويقول : ما أشدّ الزُّكام !!

أحبس دمعي فيند شاردًا كأنني أضبطُ عبدًا آبقَا
ومن محاشاة الرقيب خلتُني يوم الرحيل في الهوى منافقا[(٢)]

قال ابن الجوزي : كان ابن سيرين يتحدَّث بالنهار ويضحك ، فإذا جاء الليل فكأنه قتل أهل القرية .

نهاري نهار الناس حتى إذا بدا الليل هزَّتني إليك المضاجِعُ
أُقضِّي نهاري بالحديث وبالمنى ويجمعني والهمّ بالليل جامع

---

(١) الحلية ٧ / ١١ .

(٢) المدهش ٤١٤ .

كان خوفهم من الرياء يُوجب مدافعة النهار ، فإذا خلوْا بالحبيب لم يصبر الشوق .

أحنُّ بأطرافِ النهارِ صبابـةً ... وفي الليل يدعوني الهوى فـأُجيبُ
وأيامُنا تفنـى وشوقي زائـدٌ ... كأنَّ زمانَ الشوق ليس يغيبُ[(١)]

قال الحسن البصري : إن كان الرجل ليجلسُ المجلس ، فتجيئه عبرته فيردّها ، فإذا خشى أن تسبقه قام[(٢)] .

قال عبد الكريم بن رشيد: كنت في حلقة الحسن، فجعل رجل يبكي وارتفع صوته ، فقال الحسن : إن الشيطان ليُبكي هذا الآن[(٣)] .

وعن عيسى بن زاذان قال : يأتي على الناس زمان ؛ يسكن الشيطان في أعين الناس ، فمن شاء أن يبكي بكى[(٤)] .

عن عاصم قال : كان أبو وائل إذا صلَّى في بيته ينشُجُ نشيجًا ، ولو جُعلت له الدنيا على أن يفعله وأحدٌ يراه ما فعله[(٥)] .

يقول زيْنُ القرّاء محمد بن واسع : لقد أدركتُ رجالًا ، كان الرجل يكون رأسُه مع رأس امرأته على وسادة واحدة ، قد بلَّ ما تحت خدِّه من دموعه، لا تشعر به امرأته، ولقد أدركتُ رجالًا، يقوم أحدهم في الصف، فتسيل دموعُه على خدِّه ، ولا يشعر به الذي إلى جنبه[(٦)] .

والله إنها لأغرب من الخيال ... !!

---

(١) المدهش .
(٢) الزهد لأحمد بن حنبل صـ ٢٦٢ .
(٣) الزهد لأحمد صـ ٢٧٣ .
(٤) الزهد لأحمد صـ ٢٧٥ .
(٥) الزهد لأحمد صـ ٣٥٨ .
(٦) حلية الأولياء ٢ / ٣٤٧ .

حالت لفقدكمُ أيامُنا فغدتْ سودًا وكانت بكم بيضًا ليالينا
مَنْ مُبلِغُ الملبسينا عنا بانتزاحهم حزنا مع الدهر لا يبلى ويُبلينا
أن الزمانَ الذي قد كان يُضحكُنا أُنْسًا بقربهمُ قد عاد يُبكينا
ليُسقَ عهدُكمُ عهدُ السرور فما كنتم لأرواحنا إلا رياحينَا

قال محمد بن واسع : إن كان الرجل ليبكي عشرين سنة وامرأته معه لا تعلم به(١) .

قال حمّاد بن زيد : دخلنا على محمد بن واسع في مرضه نعوده . قال : فجاء يحيى البكَّاء يستأذن عليه ، فقالوا : ياأبا عبد الله ، هذا أخوك أبو سلمة على الباب . قال : منْ أبو سلمة ؟ قالوا : يحيى . قال : منْ يحيى ؟ قالوا : يحيى البكَّاء . قال حمَّاد : وقد علم أنه يحيى البكَّاء ؟! فقال : إن شرّ أيامكم يومٌ نسبتم فيه إلى البكاء(٢) .

قال سفيان بن عُيينة : أصابتني ذات يوم رِقَّةٌ فبكيتُ ، فقلتُ في نفسي: لو كان بعض أصحابنا لرقَّ معي، ثم غفوتُ، فأتاني آتٍ في منامي، فرفسني ، وقال : ياسفيان ، خذْ أجرك ممّنْ أحببتَ أن يراك .

عن القاسم بن محمد قال : كنا نسافر مع ابن المبارك ، فكثيرًا ما كان يخطر ببالي ، فأقول في نفسي : بأي شيء فضُل هذا الرجل علينا ، حتى اشتهر في الناس هذه الشهرة ، إن كان يُصلّي إنا لنُصلّي ، وإنْ كان يصوم إنا لنصوم ، وإن كان يغزو فإنا لنغزو ، وإن كان يحجّ إنا لنحجّ ؟! قال : فكنا في بعض مسيرنا في طريق الشام ليلة نتعشَّى في بيت، إذ طُفِىء السِّراج، فقام بعضنا فأخذ السِّراج، وخرج يستصبح، فمكث هنيهة، ثم جاء بالسراج، فنظرتُ إلى وجه ابن المبارك ، ولحيته قد ابتلَّت من الدموع ، فقلتُ في

(١) حلية الأولياء ٢ / ٣٤٧ .
(٢) حلية الأولياء ٢ / ٣٤٧ .

نفسي : بهذه الخشية فضُل هذا الرجل علينا ، ولعلّه حين فُقد السراج فصار إلى ظُلْمةٍ ذكر القيامة[١] .

وهذا شيخ الإسلام محمد بن أسلم الطوسي ، يقول عنه خادمه أبو عبد الله : كان محمد يدخل بيتًا ويُغلق بابه ، ويُدخل معه كوزًا من ماء ، فلم أدر ما يصنع ، حتى سمعتُ ابنًا صغيرًا له يبكي بكاءه ، فنهتْه أُمُّه ، فقلتُ لها : ما هذا البكاء ؟ فقالت : إن أبا الحسن يدخل هذا البيت ، فيقرأ القرآن ويبكي ، فيسمعه الصبي فيحكيه ، فكان إذا أراد أن يخرج غسل وجهه ؛ فلا يُرى عليه أثرُ البكاء . وكان يصل قومًا ويُعطيهم ويكسوهم ، فيبعث إليهم ، ويقول للرسول : انظر أن لا يعلموا مَنْ بعثه إليهم ، فيأتيهم هو بالليل ، فيذهب به إليهم ، ويُخفي نفسه ، فربما بليتْ ثيابُهم ، ونفد ما عندهم ، ولا يدرون مَنِ الذي أعطاهم[٢] .

لله دَرُّك ياأبا الحسن !!

لما مات الطوسي قالوا لأحمد بن نصر : ياأبا عبد الله ، صلَّى عليه ألفَ ألفٍ من الناس ، وقال بعضهم : ألف ألفٍ ومائة ألفٍ من الناس ؛ يقول صالحهم وطالحهم : لم نعرف لهذا الرجل نظيرًا ، فقال أحمد بن نصر : ياقوم ، أصلِحوا سرائركم بينكم وبين الله ، ألا ترون رجلًا دخل بيته بطوس ، فأصلح سرَّه بينه وبين الناس ، ثم نقله الله إلينا ، فأصلح الله على يديه ألف ألفٍ ومائة ألفٍ من الناس[٣] .

الدعــاء :

قال ابن المنكدر : إني لَلَيلة حذاء هذا المنبر جوف الليل أدعو ، إذا

---

(١) صفة الصفوة ٤ / ١٢١ .
(٢) حلية الأولياء ٩ / ٢٤٣ .
(٣) حلية الأولياء ٩ / ٢٤٠ - ٢٤١ .

إنسانٌ عند أُسطوانة ، مقنَّعٌ رأسَه ، فأسمعه يقول : أيْ رب ، إن القحط قد اشتدَّ على عبادك ، وإني مُقسِمٌ عليك يارب إلا سقيتَهم ! قال : فما كان إلا ساعة ، إذا بسحابة قد أقبلت ، ثم أرسلها الله سبحانه ، وكان عزيزًا على ابن المنكدر أن يخفى عليه أحدٌ من أهل الخير ، فقال : هذا بالمدينة ولا أعرفه ؟! فلما سلَّم الإمام تقنَّع وانصرف ، فاتَّبعه ، ولم يجلس للقاصّ ، حتى أتى دار أنس ، فدخل موضعًا ، وأخرج مفتاحًا ففتح ثم دخل . قال : ورجعتُ ، فلما سبَّحت أتيتُه ، فإذا أنا أسمع نجرًا في بيته ، فسلمتُ ، ثم قلتُ : أدخل ؟ قال : ادخل ، فإذا هو ينجر أقداحًا يعملُها ! فقلت : كيف أصبحتَ أصلحك الله ؟ قال : فاستشهدها وأعظمَها مني ، فلما رأيتُ ذلك ، قلتُ : إني سمعتُ إقسامك البارحة على الله عز وجل . ياأخي ، هل لك في نفقة تغنيك عن هذا ، وتُفرِّغك لما تُريد من الآخرة ؟ فقال : لا ! ولكن غير ذلك لا تذكرْني لأحد ، ولا تذكرْ هذا عند أحد حتى أموت ، ولا تأْتِني ياابن المنكدر ، فإنك إن تأْتني شهرتني للناس ، فقلتُ : إني أُحبُّ أن ألْقاك ، قال : القني في المسجد ، وكان فارسيًّا . قال : فما ذكر ذلك ابن المنكدر لأحد حتى مات الرجل . قال ابن وهب : بلغني أنه انتقل من ذلك الدار ، فلم يره ولم يدر أين ذهب ، فقال أهل تلك الدار : الله بيننا وبين ابن المنكدر ، أخرجَ عنا الرجل الصالح[1] .

العلـم :

قال الشافعي : وددتُ أنَّ الخلق تعلموا هذا[2]، على أن لا يُنسَب إليَّ حرفٌ منه .

وقال عون بن عمارة: سمعتُ هشامًا الدستوائي يقول: والله ما أستطيع

---

(١) حلية الأولياء ٣ / ١٥٢ .
(٢) يقصد عِلْمَهُ .

أن أقول : إني ذهبتُ يومًا قطُّ أطلبُ الحديث أُريد به وجه الله عز وجلّ .

قال الذهبي: والله ولا أنا، فقد كان السلف يطلبون العلم لله؛ فنبلوا... فنسأل الله النجاةَ والعفو ، كما قال بعضهم : ما أنا عالم ولا رأيتُ عالمًا[١] .

والإمام أبو الحسن الماوردي علي بن محمد بن حبيب شيخ الشافعية . قيل : إنه لم يُظهر شيئًا من تصانيفه في حياته ، وجمعها في موضع ، فلما دنت وفاتُه ؛ قال لمن يثق به : الكتب التي في المكان الفلاني كُلُّها تصنيفي ، وإنما لم أُظهرها ؛ لأني لم أجد نيَّة خالصة ، فإذا عاينتُ الموت ووقعت في النزع ؛ فاجعل يدك في يدي ، فإن قبضتُ عليها وعصرتُها ؛ فاعلم أنه لم يُقبل مني شيء منها ، فاعمد إلى الكتب وألقها في دجلة ، وإن بسطتُ يدي و لم أقبض على يدك ؛ فاعلم أنها قد قُبِلت ، وأني قد ظفرتُ بما كنتُ أرجوه من النيّة .

قال ذلك الشخص: فلما قارب الموتَ وضعتُ يدي في يده؛ فبسطها و لم يقبض على يدي، فعلمتُ أنها علامة القبول، فأظهرت كُتُبَه بعده.

قلتُ[٢]: لعلَّ هذا بالنسبة إلى «الحاوي»، وإلا فقد رأيتُ من مُصنَّفاته غيره كثيرًا، وعليه خطُّه، ومنه ما أكملتُ قراءته عليه في حياته[٣].

الزهــــد :

هذا عَلَمُ الزُّهَّاد أيوب السختياني يقول: ليتَّقِ الله رجلٌ، فإن زهد فلا يجعلنَّ زهده عذابًا على الناس؛ فَلأَنْ يُخفي الرجل زهده خيرٌ من أن يُعلنه.

---

(١) سير أعلام النبلاء ٧ / ١٥٢ - ١٥٣ .

(٢) أي التاج السبكي صاحب كتاب طبقات الشافعية الكبرى .

(٣) طبقات الشافعية الكبرى ٥ / ٢٦٨ - ٢٦٩ .

قال حمَّاد : وكان أيوب ممّن يُخفي زُهْدَه ؛ دخلنا عليه فإذا هو على فراش مخنس أحمر ، فرفعتُه ، أو رفعه بعض أصحابنا ، فإذا خَصَفَة محشوَّة بليف[(١)] .

وكان الإمام الربَّاني العابد هارون بن رئاب يُخفي الزهد ويلبس الصوف تحت ، وكان النور على وجهه[(٢)] .

الجهـــاد :

قال رسول الله ﷺ : « لَصوتُ أبي طلحة في الجيش خيرٌ من ألف رجل »[(٣)] ... فهذا صوتُه ، فكيف رُمحُهُ ؟!

وقال رسول الله ﷺ : « كم من أشعث أغبر ذي طِمرين ، لا يُؤبَه له ، لو أقسم على الله لأبرَّه ؛ منهم البراء بن مالك »[(٤)] .

وقال ﷺ: «رُبَّ ذي طمرينِ لا يُؤبَه له، لو أقسمِ على الله لأبرَّه»[(٥)].

وقال ﷺ: «رُبَّ أشعثٍ مدفوع بالأبواب، لو اقسم على الله لأبرَّه»[(٦)].

لقي البراء المشركين وقد أوجع المشركون في المسلمين ، فقالوا له : يا براء ، إن رسول الله ﷺ قال : إنك لو اقسمتَ على الله لأبرَّك ، فأقسِمْ على ربك . قال : أُقسِمُ عليك يارب لما منحتنا أكتافهم ... وذكر الحديث ، وانتصر المسلمون في هذه المعركة بإخلاص البراء ودعائه .

---

(١) سير أعلام النبلاء ٦ / ١٩ .
(٢) سير أعلام النبلاء ٥ / ٢٦٣ .
(٣) صحيح : أخرجه الحاكم عن جابر ، وصححَّه الألباني في صحيح الجامع رقم (٤٩٥٧) .
(٤) حسن صحيح : أخرجه الترمذي عن أنس بن مالك .
(٥) صحيح: رواه البزار عن مسعود، وصححَّه الألباني في صحيح الجامع رقم (٣٤٨١).
(٦) رواه أحمد ومسلم عن أبي هريرة .

وهذا الصحابي العلاء بن الحضرمي رضي الله عنه : يخوض البحر على فرسه في يوم دارين ، ومعه جيش المسلمين ، فما ابتلَّ لهم سَرْجٌ ... يجوزون الخليج ... وإنَّ ما بين دارين والساحل مسيرة يوم وليلة لسفر البحر ، يقول عفيف بن المنذر :

ألم تر أن الله ذلَّل بحْرَهُ وأنزل بالكفار إحدى الجلائل
دعونا الذي شقَّ البحارَ فجاءنا بأعجب من فلْق البحار الأوائل

وكان أبو هريرة يقول : رأيتُ من العلاء ثلاثة أشياء ، لا أزال أُحِبُّه أبدًا : قطع البحر على فرسه يوم دارين ، وقدم يُريد البحرين ، فدعا الله بالدَّهناء ، فنبع لهم ماءٌ فارتووا . ونسي رجلٌ منهم بعض متاعه ، فردَّ ، فلقيه ، ولم يجد الماء . ومات ونحن على غير ماء ، فأبدى الله لنا سحابةً ، فمطرنا ، فغسَّلناه ، وحفرنا له بسيوفنا ودفناه ، ولم نلحد له[1] .

وقد أسنده ابن أبي الدنيا عن عبد الملك بن سهم عن سهم بن منجاب قال : غزونا مع العلاء الحضرمي ... فذكره . وقال في الدعاء : ياعليم ، ياحليم ، ياعليّ ، ياعظيم ، إنا عبيدُك ، وفي سبيلك نُقاتل عدوَّك ، اسقنا غيثًا نشرب منه ونتوضأ ، فإذا تركناه فلا تجعل لأحد فيه نصيبًا غيرنا . وقال في البحر : اجعل لنا سبيلًا إلى عدوِّك . وقال في الموت : اخفِ جثتي ، ولا تُطلِع عورتي أحدًا ، فلم يُقدَرْ عليه .

وعند البيهقي مرسلًا : قال : فحفرنا له وغسَّلناه ودفناه ، فأتى رجلٌ بعد فراغنا من دفنه ، فقال : مَنْ هذا ؟ فقلنا : هذا خيرُ البشر ، هذا ابن الحضرمي ، فقال إن هذه الأرض تلفظ الموتى ، فلو نقلتموه إلى ميل أو ميلين ؛ إلى الأرض تقبل الموتى ، فقلنا : ما جزاء صاحبنا أن نُعرِّضه للسباع تأكله ، قال : فاجتمعنا على نبشه ، فلما وصلنا إلى اللحد إذا صاحبنا ليس

---

(١) سير أعلام النبلاء ١ / ٢٦٥ - ٢٦٦ .

فيه ، وإذا اللحد مدُّ البصر نور يتلألأ ، قال : فأعدنا التراب إلى اللحد ، ثم ارتحلنا[١] .

أولئك آبائي فجئني بمثلهم إذا جمعتنا ياجريرُ المجامعُ

وسيِّدُ فرسان الحديث عبد الله بن المبارك ... وما أدراك ما عبد الله ابن المبارك !!

قال عبدة بن سليمان : كنا في سرية مع عبد الله بن المبارك في بلاد الروم ، فصادفنا العدو ، فلما التقى الصفَّان ؛ خرج رجل من العدو ، فدعا إلى البراز ، فخرج إليه رجل ، فطارده ساعة ، فطعنه فقتله ، ثم آخر فقتله ، ثم آخر فقتله ، ثم دعا إلى البِراز ، فخرج إليه رجل ، فطارده ساعة ، فطعنه فقتله ، فازدحم عليه الناس ، وكنت فيمن ازدحم عليه ، فإذا هو يلثم وجهه بِكُمِّه ، فأخذتُ بطرف كُمِّهِ فمددتُه ، فإذا هو عبد الله بن المبارك ، فقال : وأنت يا أبا عمرو ممن يُشنِّع علينا[٢] ... ممن يُشنِّع !! وكأن في الأمر إظهارًا للمساوىء ... إن كانت هذه مساوىء ، فكيف بالحسنات !!

ولهذه القصة أختٌ عند عمر ، وبذكر عمر تطيبُ المجالس :

قضاء حوائج المسلمين :

قال طلحة بن عبيد الله : خرج عمر ليلة في سواد الليل ، فدخل بيتًا ، فلما أصبحتُ ذهبتُ إلى ذلك البيت ، فإذا عجوز عمياء مُقعدة ، فقلتُ لها : ما بال هذا الرجل يأتيكي ؟ فقالت : إنه يتعاهدُني مدة كذا وكذا ، يأتيني بما يُصلحني، ويُخرج عني الأذى فقلتُ لنفسي: ثكلتْك أُمُّك ياطلحة، أعثرات عمر تُتَّبع ؟!![٣] .

---

(١) البداية والنهاية ٥ / ١٦٣ .
(٢) صفة الصفوة ٤ / ١١٩ .
(٣) البداية والنهاية ٧ / ١٣٩ - ١٤٠ .

وهذه عثرات ... تبارك خالق هذه الهمم !!

أصحاب السرائر والخوف من الشهرة :

قال عبد الرحمن بن مهدي : قلت لابن المبارك : إبراهيم بن أدهم ممن سمع ؟ قال قد سمع من الناس ، وله فضلٌ في نفسه ، صاحبُ سرائر ، وما رأيتُه يُظهر تسبيحًا ، ولا شيئًا من الخير ، ولا أكل مع قوم قط ، إلا كان آخر مَنْ يرفع يده[(١)] . كان إبراهيم يقول : أعربنا في الكلام ، ولحنّا في العمل .

قال سفيان : كان إبراهيم بن أدهم يُشبه إبراهيم الخليل ، ولو كان في الصحابة لكان رجلًا فاضلًا .. له سرائر ، وما رأيتُه يُظهر تسبيحًا ولا شيئًا[(٢)] .

قال إبراهيم بن أدهم : ما صدق الله عبدٌ أحبَّ الشهرة[(٣)] .

لله ما أندى ذكرك يابن أدهم من صادق ، وافق عملك قولَك !!

ذكر إبراهيم بن أدهم نِطارَتَهُ الرُّمَّان ، وقال الخادم له : أنت تأكل فاكهتنا ، ولا تعرف الحُلو من الحامض ؟ قلت : والله ما ذقتُها ، فقال : أتراك لو أنك إبراهيم بن أدهم ، فانصرف فلما كان من الغد ، ذكر صفتي في المسجد ، فعرفني بعض الناس ، فجاء الخادم ومعه عُنُق[(٤)] من الناس ، فاختفيتُ خلف الشجر ، والناس داخلون ، فاختلطت معهم وأنا هارب[(٥)] .

---

(١) سير أعلام النبلاء ٧ / ٣٩٠ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٧ / ٣٩٠ ، والبداية والنهاية ١٠ / ١٣٦ .

(٣) سير أعلام النبلاء ٧ / ٣٩٣ .

(٤) العُنُق : الجماعة من الناس والرؤساء .

(٥) السير ٧ / ٣٩٦ .

يقول إمام الوعاظ ابن الجوزي في المدهش صـ ٤١٥ :

اشتهر ابن أدهم ببلد ، فقيل : هو في البستان الفلاني ، فدخل الناس يطوفون ويقولون : أين إبراهيم بن أدهم ؟ فجعل يطوف معهم ويقول : أين إبراهيم بن أدهم ؟!

ضنًّا بأن يعلمَ الناسُ الهوى ولمن   وهبتُ للسرّ فيه لذة العلنِ
عرِّضْ بغيري ودعني في ظنونهم   إنْ قيل مَنْ بك يُخفي الحق في الظّنِ

مرض إبراهيم بن أدهم ، فجعل عند رأسه ما يأكله الأصحَّاء ؛ لئلا يتشبَّه بالشاكين ، هذه والله بهرْجة أصحُّ من نقدك .

قد سحب الناسُ أذيالَ الظنون بنا   وفرّق الناسُ فينا قولَهم فرقا
فكاذبٌ قد رمى بالظن غيرَكم   وصادقٌ ليس يدري أنه صَدَقًا

قال الإمام الحافظ القدوة عبد الله بن داود الخُرَيْبي : كانوا يستحبُّون أن يكون للرجل خبيئة من عمل صالح ، لا تعلمُ به زوجتُه ولا غيرها[١] .

وانظر إلى العلاء بن زياد العدوي الذي قال فيه الحسن البصري : إلى هذا والله انتهى استقلال الحزن .

قال له رجل : رأيتُ كأنك في الجنة ، فقال له : ويحك !! أما وجد الشيطان أحدًا يسخر به غيري وغيرك[٢] .

وإبراهيم النخعي الإمام الفقيه : كان لا يجلس إلى السارية - العمود - في المسجد ، توقيًا للشهرة .

وكان يقول : تكلَّمتُ ، ولو وجدتُ بُدًّا ما تكلَّمتُ ، فإن زمانًا أكونُ فيه فقيه الكوفة لَزمانُ سوءٍ[٣] .

---

(١) سير أعلام النبلاء ٩ / ٣٤٦ - ٣٥٢ .
(٢) حلية الأولياء ٢ / ٢٤٥ .
(٣) الحلية ٤ / ٢٢٣ ، وصفة الصفوة ، سير أعلام النبلاء .

وكان يقول :

خلت الديارُ فسُدْتُ غير مُسوّدِ ومن البلاء تفرُّدي بالسؤدد

وكان محمد بن يوسف الأصبهاني عروس الزهاد لا يشتري زاده من خبّاز واحد. قال: لعلهم يعرفوني فيحابوني، فأكون ممن أعيش بديني[١].

وأبو محيريز عبد الله بن مُحيريز الذي قال فيه رجاء بن حيوة : إن كنتُ لأُعُدُّ بقاء ابن مُحيريز أمانًا لأهل الأرض .

عن بشير بن صالح قال : دخل ابن مُحيريز حانوتًا بدانق ، وهو يريد أن يشتري ثوبًا ، فقال رجل لصاحب الحانوت : هذا ابن مُحيريز ، فأحسن بيْعَه ، فغضب ابن مُحيريز وخرج ، وقال : إنما نشتري بأموالنا ، لسنا نشتري بديننا .

وكان ابن محيريز يقول : اللهم إني أسألك ذكْرًا خاملًا .

قال عبد الله بن عوف القاري : لقد رأيتُنا برودس ، وما في الجيش أحدٌ أكثر صلاةً من ابن مُحيريز في العلانية ، ثم أقصر عن ذلك حين شُهر وعُرِف[٢] .

وهذا الإمام المرضيُ ، الوَرِعُ التَّقي ، أبو عبد الله سفيان بن سعيد الثوري ، الذي كانت له النّكتُ الرائقة ، والتُّحَفُ الفائقة ، المُسلَّم له في الإمامة ، المُثبت به الرعاية ، مَنْ كان العلمُ حليفه والزهدُ أليفَه ، الذي قال فيه شعبة : سفيان الثوري أمير المؤمنين في الحديث .

قال ابن المبارك : قال لي سفيان : إياك والشهرة ، فما أتيتُ أحدًا إلا وقد نهاني عن الشهرة[٣] .

---

(١) الحلية ٨ / ٢٣١ .

(٢) صفة الصفوة ٤ / ٢٠٦ ، ٢٠٧ .

(٣) الحلية ٧ / ٢٣ .

قال خلف بن تميم : رأيتُ سفيان الثوري بمكة وقد أكثر عليه أصحاب الحديث ، فقال : إنا لله وإنا إليه راجعون ، أخاف أن يكون الله ضيّع هذه الأمة حيث احتجَّ إلى مثلي[١] .

يقول هذا رحمه الله ، وإمام أهل السنة أحمد يقول عنه : أتدري مَنِ الإمامُ ؟ الإمام سفيان الثوري ، لا يتقدَّمه أحدٌ في قلبي .

وكان رحمه الله لا يترك أحدًا يجلس إليه ، إلا نحو ثلاثة أنفس ، فغفل يومًا ، فرأى الحلقة قد كبُرت ، فقام فزعًا ، وقال : أُخِذنا والله ولم نشعر ، والله لو أدرك أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه مثلي وهو جالس في هذا المجلس ؛ لأقامه وقال له : مثلُك لا يصلح لذلك .

وكان يقول : قلَّ عالمٌ تكبرُ حلقة درسه ، إلا ويدخُلُه العُجْبُ .

وكان رحمه الله إذا جلس لإملاء الحديث ؛ يجلس مرعوبًا خائفًا ، وكانت السحابة تمرُّ عليه ، فيسكت حتى تمرَّ ، ويقول : أخاف أن يكون فيها حجارةٌ ترجمنا بها .

وكان يقول : كل شيء أظهرتُه من عملي فلا أعُدُّه شيئًا ؛ لعجز أمثالنا عن الإخلاص إذا رآه الناس .

يقول مُعلِّم الخير والإخلاص سفيان : إن أقبح الرغبة أن تطلب الدنيا بعمل الآخرة .

قال رحمه الله : ما رأيتُ للإنسان خيرًا من أن يدخل جُحرًا[٢] .

قال الإمام أحمد : كان سفيان الثوري إذا قيل له : رُؤي في المنام ؛ يقول : أنا أعرف بنفسي من أصحاب المنامات .

وكان أشدَّ الناس بُعدًا عن السلاطين ؛ خوفًا على الإخلاص :-

---

(١) الحلية ٧ / ٦٤ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٧/ ٢٦٠ .

قال الثوري : إن الرجل ليستعير من السلاطين الدابَّة والسرجَ أو اللجام ؛ فيتغيَّر قلبُه لهم .

وقال رحمه الله: إني لألقى الرجل أبغضُه، فيقول لي: كيف أصبحت ؟ فيلين له قلبي ، فكيف بمن أكل ثريدَهم ، ووطىء بساطَهم[1] ؟!

وسيِّدُ البكّائين الحسن البصري ؛ الذي يُشبه كلامُه كلامَ الأنبياء ، والذي لمَّا سُئل عنه يونس بن عبيد : هل رأيتَ من يعمل بعمل الحسن ؟ فقال : والله ما رأيتُ مَنْ يقول قولَهُ ، حتى أرى مَنْ يعملُ بعمله ... إن الحسن كان إذا تكلَّم أدمى القلوبَ ، ووعْظُ غيره لا يُبكي العيون .

يقول الحسن – الذي مكث ثلاثين سنة لا يضحك –: لقد أدركتُ أقوامًا ، ما أنا عندهم إلا لصٌّ . يقول هذا ويوقن به ، وكأنه حقيقة ؛ لأنه القائل أيضًا : من ذمَّ نفسه في الملأ فقد مدحها ، وذلك من علامات الرياء .

مرَّ الحسن على طاوس وهو يُملي الحديث في الحرم في حلقة كبيرة ، فقرب منه ، وقال له في أُذُنه : إنْ كانت نفسُك تُعجبك فقم من هذا المجلس ، فقام طاوس فورًا .

ومن بعده مرَّ إبراهيم بن أدهم على حلقة بشر الحافي ، فأنكر عليه كِبَرَ حلقة درسِهِ ، وقال : لو كانت هذه الحلقة لأحد من الصحابة ؛ ما أمن على نفسه العُجب .

بشر بن الحارث إمام أهل الورع والزهد ؛ الذي قال : ما اتقى الله مَنْ أحبَّ الشهرة ... يتعلَّم من إبراهيم بن أدهم ... بشر الذي قال الإمام أحمد بعد المحنة ، لما بلغه ثناءُ بشرٍ عليه ؛ قال : الحمد لله الذي رضًى بشرًا بما صنعنا .

قال أحمد بن نصر : كنا قعودًا قُدّام بشر بن الحارث نفسيْن ، قال :

(١) حلية الأولياء ٧ / ١٧ ، ٧ / ٤١ .

فجاء الثالث ، فقام ودخل .

وبعث إليه عاصم بن علي : قد اشتدَّ شوقي إليك ، حتى كدتُ أن آتيك من غير إذن ، فعلمتُ كراهيتك لمجيء الرجال ، فإن رأيتَ أن تأذن لي فآتيك لأُسلّم عليك ، فلعل الله أن ينفعني برؤيتك ، فقال : لا تأْتِني ، فإن في مجيئك إليّ شهرةً عليَّ وعليك .

وقال رحمه الله : لقد شهرني في الدنيا ، فليته لا يفضحني في القيامة . ما أقبح مثلي !! يُظنُّ فيَّ ظنٌّ وأنا على خلافه ، إنما ينبغي لي أن أكون أكبر مما يُظنُّ بي ، إني أكره الموت ، وما يكره الموت إلا مُريب ، ولولا أني مُريب ، لأي شيء أكره الموت ! .

وكان يقول : اللهم استُرْ ، واجعل تحت السِّتر ما تُحبُّ ، فربما سترتَ على ما تكره .

صلَّى رحمه الله ، فقال في سجوده : اللهم إنك تعلمُ فوق عرشك أن الذلَّ أحبُّ إليّ من الشرف ، اللهم إنك تعلمُ فوق عرشك أن الفقر أحبُّ إليّ من الغنى ، اللهم إنك تعلمُ فوق عرشك أني لا أوثر على حُبِّك شيئًا ، فسمعه رجلٌ ، فأخذه الشهيق والبكاء ، فلما سمع الرجل ؛ قال : اللهم إنك تعلمُ أني لو أعلم أن هذا هاهنا لم أتكلم .

قال بشر : لا ينبغي لأمثالنا أن يُظهر من أعماله الصالحة ذرَّة فكيف بأعماله التي دخلها الرياء ، فالأولى بأمثالنا الكتمان !

وشيخ الحجاز سفيان بن عيينة ، قيل له : ألا تجلس فتحدِّثنا ؟ فقال : والله ما أراكم أهلًا لأنْ أُحدِّثكم ، ولا أرى نفسي أهلًا أن تسمعوا مني ، وما مثلي ومثلكم إلَّا كما قال القائل : افتضحوا فاصطلحوا .

وانظر إلى تحقيرهم لأنفسهم وإزرائهم عليها :

أخذ الفضيل بن عياض بيد سفيان بن عيينة إلى الوادي ، وقال له : إن كنتَ تظنُّ أنه بقي على وجه الأرض شرٌّ مِنّي ومنك ؛ فبئس ما تظنُّ .

وكان محمد بن أسلم الطوسي شيخ الإسلام يقول : والذي لا إله إلا هو ، ما رأيتُ نفسًا تُصلّي إلى القبلة شرًّا عندي من نفسي[(١)] .

وقال السري السقطي : ما أُحِبُّ أن أموتَ حيث أعرف ، فقيل له : ولِمَ ذاك يا أبا الحسن ؟ قال : أخاف أن لا يقبلني قبري فأُفتضَح[(٢)] .

وكان مالك بن دينار يقول : إذا ذُكر الصالحون فأفٍّ لي وتُفٍّ .

وقال أيوب السختياني : إذا ذُكر الصالحون كنتُ عنهم بمعزل .

وقال يونس بن عُبيد : إني لأعرف مائة خصلة من خصال البرِّ ، ما فيَّ منها واحدة .

وقال الفضيل : منْ أراد أن ينظر إلى مُراءٍ فلينظر إليَّ .

وقال مطرف بن عبد الله لمّا وقف بعرفة : اللهم لا تردَّهم من أجلي .

وقال بكر بن عبد الله المزني : ما أشرفه من مقام وأرجاه لولا أني فيهم .

قال قتادة : قال عيسى بن مريم : سلوني فإن قلبي ليِّن ، وإني صغير في نفسي[(٣)] .

وقال محمد بن واسع زين القرّاء : لو كان يوجد للذنوب ريحٌ ؛ ما قدرتم أن تدنوا مني من نَتْن ريحي[(٤)] .

وانظر إلى داود الطائي الذي كان ابن المبارك يقول فيه : وهل الأمر إلا ما كان عليه داود الطائي :

يقول رحمه الله : سبقني العابدون وقُطع بي ، وَا لَهْفَاهُ !!

وهو الذي قيل له : لِمَ لا تُسرِّح لحيتك ؟ قال : إني عنها مشغول .

---

(١) الحلية ٩ / ٢٤٤ .
(٢) حلية الأولياء ١٠ / ٩٨ ، ٩٩ .
(٣) الزهد لأحمد صـ ٥٨ .
(٤) صفة الصفوة ٣ / ٢٦٨ .

قال داود : ولو يعلم الناسُ بعض ما نحن فيه ؛ ما ذلَّ لنا لسانٌ بذكر خير أبدًا[١] .

وقال رحمه الله : تركتنا الذنوبُ ، وإنا لنستحي من كثير من مجالسة الناس .

رحمك الله ياداود، تقول: تركَتْنا الذنوبُ، ولا تقول: تركْنا الذنوبَ !!

وقال شيخ الإسلام عبد الله بن المبارك: أُحِبُّ الصالحين ولستُ منهم، وأبغضُ الطالحين وأنا شرٌّ منهم[٢] .

عن شعيب بن حرب قال : بينا أطوف بالبيت ؛ إذا رجل يشدُّ ثوبي من خلفي ، فالتفتُّ فإذا بفُضيل بن عياض ، فقال : لو شفع فيَّ وفيك أهل السماء ؛ كنا أهلًا أن لا يشفع فينا ، قال شعيب : ولم أكن رأيتُه قبل ذلك بسنة ، قال : فكسرني ، وتمنيْتُ أني لم أكن رأيتُه[٣] .

وعن علي بن الحسن قال : بلغ فُضيلًا أنّ جريرًا يُريد أن يأتيه . قال : فأقفل الباب من خارج . قال : فجاء جرير فرأى البابَ مُقفلًا فرجع . قال عليٌّ : فبلغني ذلك ، فأتيته فقلت له : جرير ، فقال : ما يصنع بي ؟ يُظهر محاسن كلامه ، وأُظهِرُ له محاسن كلامي ، فلا يتزيَّن لي ولا أتزيَّن له خيرٌ له[٤] .

وقال الفضيل : إني لأسمع صوت حلقة الباب ، فأكره ذلك ؛ قريبًا كان أم بعيدًا ، ولوددت أنه طار في الناس أني قد متُّ ، حتى لا أسمع له بذكر ، ولا يسمع لي بذكر ، وإني لأسمع صوت أصحاب الحديث ،

---

(١) حلية الأولياء ٧ / ٣٥٩ .
(٢) حلية الأولياء ٨ / ١٧ .
(٣) حلية الأولياء ٨ / ٩٠ .
(٤) حلية الأولياء ٨ / ٩٠ .

فيأخذني البول ، فرقًا منهم .

وكان رحمه الله يقول لأصحاب الحديث : لِمَ تُكرهوني على أمر تعلمون أني كاره له ؟ لو كنتُ عبدًا لكم فكرهتكم ، لو أني أعلم إذا دفعتُ ردائي هذا لكم ذهبتم عني ؛ لدفعته إليكم .

وقال رحمه الله : لو رأيتُ رجلًا اجتمع الناس حوله ؛ لقلتُ : هذا مجنون ، ومن الذي اجتمع الناس حوله لا يُحب أن يُجوِّد لهم كلامه !

وقال للحسين بن زياد : احفظْ لسانك ، وأقبلْ على شانك واعرف زمانك ، وأخفِ مكانك .

وقال له: عساك ترى أن في ذلك المسجد- يعني المسجد الحرام- رجلًا شرًّا منك ، إن كنت ترى فيه ، فقد ابتُليت بعظيم[1] .

وقال رحمه الله : تُريد الجنة مع النبيين والصدِّيقين ، وتُريد أن تقف المواقف مع نوح وإبراهيم ومحمد عليهم الصلاة والسلام ، بأي عمل ، وأي شهوةٍ تركتها لله عز وجلّ ، وأي قريب باعدتَه في الله ، وأيّ بعيد قرَّبتَه في الله !! ثم قال رحمه الله : لا يترك الشيطان الإنسان ، حتى يحتال له بكل وجه ، فيستخرج منه ما يُخبر به من عمله ، لعله يكون كثير الطواف ، فيقول : ما كان أحلى الطواف الليلة ، أو يكون صائمًا ، فيقول : ما أثقل السحور ، وما أشدّ العطش ، فإن استطعت أن لا تكون مُحدِّثًا ولا مُتكلِّمًا ولا قارئًا ، إن كنتَ بليغًا ؛ قالوا : ما أبلغه وأحسن حديثه وأحسن صوته ، فيُعجبك ذلك فتنتفخ ، وإن لم تكن بليغًا ولا حسنَ الصوت ؛ قالوا : ليس يُحسِن يُحدِّث ، وليس صوتُه بحسن ؛ أحزنك وشقَّ عليك ، فتكون مرائيًا ، وإذا جلست فتكلمت ، ولم تُبال مَنْ ذمَّك ومَنْ مدحك من الله فتكلَّمْ[2] .

---

(١) حلية الأولياء ٨ / ٩٤ - ٩٥ .

(٢) حلية الأولياء ٨ / ٩١ .

عِلُوُّ هِمَّتِهم في الإخلاص بالتجافي عن مجالس الحكَّام والسلاطين :

قيل لداود الطائي : أرأيت رجلًا دخل على الأمراء ، فأمرهم بالمعروف ونهاهم عن المنكر ؟ قال : أخاف عليه السوط ، قال : إنه يقوى ، قال : أخاف عليه السيف ، قال : إنه يقوى ، قال : أخاف عليه الداء الدفين من العُجب(١) .

قسَّم أمير البصرة أمواله على أهل البصرة ، فبعث إلى مالك بن دينار ، فقبل ، فأتاه محمد بن واسع ، فقال : يامالك ، أقبلتَ جوائز السلطان ؟ قال : يا أبا بكر ، سلْ جُلسائي ، فقالوا : ياأبا بكر ، اشترى بهم رقابًا فأعتقهم ، فقال له محمد بن واسع : أنشُدُك الله ، أقلبُك الساعة له على ما كان قبل أن يُجيزك ؟ قال : اللهم لا ، قال : ترى أيّ شيء دخل عليك ؟ فقال مالك لجلسائه : إنما مالك حمار ، إنما يعبد الله مثلُ محمد بن واسع .

قال عطاء بن مسلم : لما استخلف المهدي بعث إلى سفيان ، فلما دخل عليه ؛ خلع خاتمه فرمى به إليه ، فقال : يا أبا عبد الله ، هذا خاتمي ، فاعمل في هذه الأمة بالكتاب والسنة ، فأخذ الخاتم بيده ، وقال : تأذن في الكلام ياأمير المؤمنين ؟ قال : نعم ، قال : أتكلَّم على أني آمِنٌ ؟ قال : نعم ، قال : لا تبعث إليَّ حتى آتيك ، ولا تُعطني شيئًا حتى أسألك ، قال : فغضب من ذلك وهمَّ به ، فقال له كاتبه : أليس قد أمَّنته يا أمير المؤمنين ؟ قال : بلى ، فلما خرج حفَّ به أصحابه ، فقالوا : ما منعك ياأبا عبد الله ، وقد أمرك أن تعمل في هذه الأمة بالكتاب والسنة ؟ قال: فاستصغر عقولهم، ثم خرج هاربًا إلى البصرة(٢) .

---

(١) حلية الأولياء ٧ / ٣٥٨ .
(٢) حلية الأولياء ٧ / ٤٠ - ٤١ .

خاتمة ... مَوْقفان لجبلين من شيوخ الإسلام وعُلُوِّ هِمَّتهما في الإخلاص :

أما الأول فهو أمير المؤمنين في الحديث سفيان الثوري :

قال عبد الرزاق : بعث أبو جعفر الخشّابين حين خرج إلى مكة ، فقال : إن رأيتم سفيان الثوري فاصلبوه ، قال : فجاء النّجارون ، فصلبوا الخشب ، ونُودي سفيان ، فإذا رأسُهُ في حجر فُضَيل بن عياض ، ورجلاه في حجر ابن عُيينة ، فقالوا له : ياأبا عبد الله ، اتق الله ولا تُشمتْ بنا الأعداء ، قال : فتقدَّم إلى الأستار ، ثم دخله ، ثم أخذه وقال : برئت منه إن دخلها أبو جعفر ، قال : فمات قبل أن يدخل مكة ، فأُخبر بذلك سفيان فلم يقل شيئًا[1] .

قال الذهبي في السير ٧ / ٢٥١ : هذه كرامة ثابتة .

أما الخبر الثاني فهو عن شيخ الإسلام الواعظ القدوة أبو عثمان الحيري :

قال الذهبي في سير أعلام النبلاء (١٤ / ٦٥) :

ذكر الحاكم أخبار أبي عثمان في خمس وعشرين ورقة ، وفي غضون ذلك من كلامه في التوكُّل واليقين والرضا ؛ قال الحاكم : وسمعتُ أبي يقول : لما قَتَلَ أحمد بن عبد الله الخُجستاني الذي استولى على البلاد – الإمام حَيْكان ابن الذُّهلي؛ أخذ في الظلم والعسف، وأمر بحربة رُكزت على رأس المرّبعة[2]، وجمع الأعيان ، وحلف : إن لم يصبُّوا الدراهم حتى يغيب رأس الحربة ، فقد أحلُّوا دماءهم ، فكانوا يقتسمون الغرامة بينهم ، فخصَّ تاجر بثلاثين ألف درهم ، فلم يكن يقدر إلا على ثلاثة آلاف درهم ، فحملها إلى أبي عثمان ،

---

(١) الحلية ٧ / ٤١ – ٤٢ .

(٢) المرّبعة : خشيبة قصيرة يرفع بها العدل ... وقال الأزهري : هي عصا تُحمل بها الأثقال حتى تُوضع على ظهر الدواب .

وقال : أيها الشيخ ، قد حلف هذا كما بلغك ، ووالله لا أهتدي إلّا إلى هذه ، قال : تأذن لي أن أفعل فيها ما ينفعُك ؟ قال : نعم ، ففرَّقها أبو عثمان ، وقال للتاجر : امكث عندي ، وما زال أبو عثمان يتردَّد بين السكّة والمسجد ليلته حتى أصبح ، وأذَّن المؤذِّن ، ثم قال لخادمه : اذهب إلى السوق ، وانظرْ ماذا تسمع ، فذهب ورجع ، فقال : لم أرَ شيئًا ، قال : اذهب مرة أخرى ، وهو في مناجاته يقول : وحقّك ، لا أقمتُ ما لم تفرِّج عن المكروبين ، قال : فأتى خادمه الفرغاني يقول : وكفى الله المؤمنين القتال ، شُقَّ بطن أحمد بن عبد الله ، فأخذ أبو عثمان في الإقامة .

قلتُ[1] : بمثل هذا يعظَّم مشايخ الوقت !!

بدمِ المُحبِّ يُباع وصلُهمُ ... فمنِ الذي يبتاعُ بالثمنِ

* * *

(١) أي الذهبي .

الفصْلُ الثَّالِث

علو الهمة

في طلب العلم ونشره

□ علو الهمة في طلب العلم ونشره □

اعلم يا أخي « أن الله سبحانه وتعالى لما اقتضت حكمتُه إخراجَ آدم وذريته من الجنة – أعاضهم أفضلَ منها ، وهو ما أعطاهم من عهده[1] ، الذي جعله سببًا موصلًا لهم إليه ، وطريقًا واضحًا بيِّن الدلالة عليه ، مَنْ تمسَّك به فاز واهتدى ، ومَنْ أعرض عنه شقي وغوى ، ولما كان هذا العهد الكريم ، والصراط المستقيم ، والنبأ العظيم ، لا يُوصل إليه أبدًا إلا من باب العلم والإرادة؛ فالإرادة باب الوصول إليه، والعلم مفتاح ذلك الباب المتوقِّف فتْحه عليه .

وكمال كل إنسان إنما يتمُّ بهذين النوعين : هِمَّة تُرقِّيه ، وعلْم يُبَصِّرِّه ويهديه .

فإن مراتب السعادة والفلاح إنما تفوت العبد من هاتين الجهتين ، أو من إحداهما ؛ إما أن لا يكون له علمٌ بها فلا يتحرّك في طلبها ، أو يكون عالمًا بها ولا تنهض هِمَّتُه إليها ، فلا يزال في حضيض طبْعه محبوسًا ، وقلبه عن كماله الذي خلق له مصدودًا منكوسًا ، قد أسام نفسه مع الأنعام ، راعيًا مع الهمل، واستطاب لُقيمات الراحة والبطالة، واستلان فراش العجز والكسل،

---

(١) وهو قوله تعالى : ﴿ قلنا اهبطوا منها جميعًا فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون ﴾ [البقرة : ٣٨] ، وفي الآية الأخرى قال تعالى : ﴿ قال اهبطا منها جميعًا بعضكم لبعضٍ عدوٌّ فإما يأتينكم مني هدى فمن اتَّبع هداي فلا يضلُّ ولا يشقى ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشةً ضنكًا ونحشره يوم القيامة أعمى قال ربِّ لِمَ حشرتني أعمى وقد كنت بصيرًا قال كذلك أتتك آياتُنا فنسيتها وكذلك اليوم تُنسى ﴾ [طه : ١٢٣ – ١٢٦] .

لا كمن رُفع له علمٌ فشمرّ إليه ، وبورك له في تفرُّده في طريق طلبه فلزمه واستقام عليه ، قد أبت غلباتُ شوقه إلا الهجرة إلى الله ورسوله ، ومقتت نفسُهُ الرفقاء إلا ابنَ سبيلٍ يُرافقه في سبيله .

ولما كان كمال الإرادة بحسب كمال مرادها ، وشرفُ العلم تابعًا لشرف معلومه ؛ كانت نهاية سعادة العبد - الذي لا سعادة له بدونها ، ولا حياة له إلا بها - أن تكون إرادته متعلقةً بالمراد الذي لا يبلى ولا يفوت ، وعزماتُ هِمَّته مسافرةً إلى حضرة الحي الذي لا يموت ، ولا سبيل له إلى هذا المطلب الأسنى والحظ الأوفى ، إلا بالعلم الموروث عن عبده ورسوله وخليله وحبيبه ، الذي بعثه داعيًا ، وأقامه على هذا الطريق هاديًا ، وجعله واسطةً بينه وبين الأنام ، وداعيًا لهم بإذنه إلى دار السلام ، وأبى سبحانه أن يفتح لأحد منهم إلّا على يديه ، أو يقبل من أحد منهم سعيًا إلا أن يكون مبتدأً منه ومنتهيًا إليه ، فالطرقُ كلها إلا طريقه ﷺ مسدودة ، والقلوبُ بأسرها إلا قلوب أتباعه المنقادة إليه عن الله محبوسةٌ مصدودةٌ .

ومنْ لا يُربِّيه الرسولُ ويسقِهِ لبانًا له قد درَّ من ثدي قُدسِهِ
فذاك لقيطٌ ما له نسبة الولا ولا يتعدَّى طورَ أبناءِ جنسِهِ

فحُقَّ على من كان في سعادة نفسه ساعيًا ، وكان قلبُه حيًّا عن الله واعيًا ؛ أن يجعل على هذين الأصلين مدار أقواله وأعماله ، وأن يُصيِّرهما أخبيته التي إليها مفزعُه في حياته »[1] .

فعياذًا بك اللهم ممن دنتْ هِمَّتُه « وقصر في العلم باعُه ، وطال في الجهل ، وأذى عبادك ذراعُه ، فهو لجهله يرى الإحسان إساءةً ، والسنةَ بدعةً ، والعُرف نُكرًا ؛ يُجالس أهل الغيِّ والجهالة ويزاحمهم بركبتيه ، قد ارتوى من ماءٍ آجنٍ ، وتضلّع واستشرف إلى مراتب ورثة الأنبياء وتطلّع ،

(١) مفتاح دار السعادة جـ ١ / ٤٦ - ٤٧ .

يركض في ميدان جهْله مع الجاهلين ، ويبرز عليهم في الجهالة ، فيظن أنه من السابقين ، وهو عند الله ورسوله والمؤمنين عن تلك الوراثة النبوية بمعزل ، وإذا أنزل الورثة منازلهم منها ، فمنزلته منها أقصى وأبعدُ منزل .

نزلوا بمكة في قبائل هاشمٍ   ونزلتُ بالبيداء أبعدَ منزِلِ»[1]

وإذا كانت العين لا تكاد إلا على هؤلاء تُفتح ، والميزان بهم يخفُّ ولا يرجح ، فما أُحرى اللبيب بأن لا يُعيرهم من قلبه جزءًا من الالتفات ، ويُسافر في طريق مقصده بينهم سفره إلى الأحياء بين الأموات ، وما أحسن ما قال القائل :

وفي الجهل قبل الموت موتٌ لأهلِهِ   وأجسامُهم قبل القبور قبورُ
وأرواحُهم في وحشةٍ من جسومهم   وليس لهم حتى النشورِ نشورُ

* * *

(١) مفتاح دار السعادة ١ / ٤٧ - ٤٨ .

□ فضلُ العلم وشرفُهُ وعمومُ الحاجةِ إليه □

○ وتوقُّف كمال العبد ونجاته عليه ○

وقد جلب شيخ الإسلام ابن القيم في كتابه « مفتاح دار السعادة » في « فضل العلم » نفائس ، في مثلها يتنافس المتنافسون ، وجلب لنا فيه عرائس، إلى مثِلهِنَّ بادر الخاطبون، وهي تحفة عرائس؛ معانيها تُجلى عليك، وخودُ أبكارها البديعة الجمال ترفل في حُلَلها وهي تُزفُّ إليك، وشمسُ منازلها بسعد الأسعد، وخودٌ لا تُزفُّ إلى ضريرٍ مُقعَد[1].

قوله تعالى : ﴿ **شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائمًا بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم** ﴾ [آل عمران : ١٨] .

١ – فاستشهد الله أهلَ العلم دون غيرهم من البشر .

٢ – وأقرن شهادتهم بشهادته .

٣ – وفي ضمن هذا تزكيتُهم وتعديلُهم ، فإن الله لا يستشهدُ من خلقه إلا العدول .

٤ – أنه استشهد بهم على أجلّ مشهودٍ به وأعظمه وأكبره ، وهو شهادة أن لا إله إلا الله وتوحيده ، والعظيم القدْر إنما يستشهدُ على الأمر العظيم أكابرَ الخلق وساداتهم .

٥ – نفى سبحانه التسوية بين أهل العلم وبين غيرهم ، كما نفى التسوية بين أصحاب الجنة وأصحاب النار ، فقال تعالى : ﴿ **قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون** ﴾ [الزمر : ٩] .

---

(١) يسَّر الله إخراجها في كتيِّب مستقل هو تحت الطبع الآن .

٦ - جعل سبحانه أهل الجهل بمنزلة العميان الذين لا يبصرون ، فقال تعالى : ﴿ **أفمن يعلم أنما أُنزل إليك من ربك الحقُّ كمن هو أعمى** ﴾ [الرعد : ١٩] . فما ثَمَّ إلا عالمٌ أو أعمى .

٧ - وأخبر سبحانه عن أولي العلم بأنهم يرون أن ما أُنزل من ربه حقًّا ، وجعل هذا ثناءً عليهم ، فقال تعالى : ﴿ **ويرى الذين أوتوا العلم الذي أُنزل إليك من ربك هو الحقَّ** ﴾ [سبأ : ٦] .

٨ - أمر سبحانه بسؤالهم والرجوع إلى أقوالهم، وجعل ذلك كالشهادة منهم ، فقال تعالى : ﴿ **وما أرسلنا من قبلك إلا رجالًا نُوحي إليهم فاسئلوا أهلَ الذِّكْر إن كنتم لا تعلمون** ﴾ [النحل : ٤٣] . وأهل الذِّكْر هم أهلُ العلم بما أُنزل على الأنبياء .

٩ - واستشهد بهم على صحَّة ما أنزل على رسوله ﷺ ، فقال تعالى : ﴿ **أفغير الله أبتغي حَكَمًا وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مُفصَّلًا والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه مُنَزَّلٌ من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين** ﴾ [الأنعام : ١١٤] .

١٠- وسلَّى نبيَّه بإيمان أهل العلم به ، وأمره بأن لا يعبأ بالجاهلين شيئًا ، فقال تعالى : ﴿ **وقرآنًا فرقناه لتقرأه على الناس على مُكْث ونزَّلناه تنزيلًا قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يُتلى عليهم يَخِرُّون للأذقان سُجَّدًا ويقولون سبحان ربنا إن كان وعْدُ ربنا لمفعولًا** ﴾ [الإسراء : ١٠٦- ١٠٨] .

١١- أنه سبحانه مدح أهل العلم وأثنى عليهم وشرَّفهم ؛ بأن جعل كتابه آيات بيِّنات في صدورهم ، وهذه خاصَّةٌ ومنقبةٌ لهم دون غيرهم ، فقال تعالى : ﴿ **بل هو آياتٌ بيِّناتٌ في صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون** ﴾ [العنكبوت : ٤٩] .

١٢- أنه سبحانه أمر نبيَّه ﷺ أن يسأله المزيد من العلم ، وكفى

بهذا شرفًا للعلم . قال تعالى : ﴿ **فتعالى الله الملك الحقُّ ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يُقضى إليك وحيُه وقل ربِّ زدني علمًا** ﴾ [طه : ١١٤] .

١٣- أخبر سبحانه عن رفعة درجات أهل العلم والإيمان خاصَّة ، فقال تعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسَّحوا في المجالس فافسحوا يفسح الله لكم وإذا قيل انشزوا فانشزوا يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير** ﴾ [المجادلة : ١١] .

١٤- واستشهد سبحانه بأهل العلم والإيمان يوم القيامة على بطلان قول الكفار ، فقال تعالى : ﴿ **ويوم تقوم الساعة يُقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يُؤفكون وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون** ﴾ [الروم : ٥٥ - ٥٦] .

١٥- وأمر الله سبحانه أهل العلم بالفرح بما آتاهم ، وأخبر أنه خيرٌ مما يجمع الناس ، فقال تعالى : ﴿ **قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون** ﴾ [يونس : ٥٨] .

١٦- قال رسول الله ﷺ : « الدنيا ملعونةٌ ، ملعونٌ ما فيها ، إلا ذكْر الله وما والاه وعالمٌ ومتعلمٌ »(١) .

١٧- والعلم أفضل الجهاد ، وطلبُه من سبيل الله ؛ لأن به قوامَ الإسلام ، كما أن قوامه بالجهاد ، ولهذا كان الجهاد نوعين :

الأول : جهادٌ باليد واللسان ، وهذا المشارك فيه كثيرٌ .

الثاني : الجهاد بالحجة والبيان ، وهذا جهادُ الخاصة من أتباع الرسل ، وهو

---

(١) أخرجه الترمذي وابن ماجه والبيهقي في شعب الإيمان وابن عبد البر في « جامع بيان العلم » عن أبي هريرة ، وإسناده حسن . وقد صحَّح الحديث بشواهده : الضياء المقدسي والشيخ الألباني .

جهاد الأئمة ، وهو أفضل الجهادين ، لِعِظَمِ منفعته ، وشدَّة مؤنته ، وكثرة أعدائه .

قال تعالى في سورة الفرقان – وهي مكية –: ﴿ **ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيرًا فلا تُطع الكافرين وجاهدهم به جهادًا كبيرًا** ﴾ [الفرقان : ٥١- ٥٢] ، فهذا جهادٌ لهم بالقرآن وهو أكبر الجهادين ، وهو جهاد المنافقين أيضًا ، فإن المنافقين لم يكونوا يُقاتلون المسلمين ، بل كانوا معهم في الظاهر ، وربما كانوا يُقاتلون عدوَّهم معهم ، ومع هذا فقد قال تعالى : ﴿ **يأيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم** ﴾ [التوبة : ٧٣] ، ومعلوم أن جهاد المنافقين بالحجة والقرآن .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من جاء مسجدي هذا لم يأته إلا لخير يتعلّمه أو يعلمُه فهو بمنزلة المجاهد في سبيل الله ، ومن جاء لغير ذلك فهو بمنزلة الرجل ينظر إلى متاع غيره »[١] .

١٨– وقال ﷺ : « إن الله وملائكته ، حتى النملة في جحرها ، وحتى الحوت في البحر ؛ لَيُصلُّون على مُعلِّم الناس الخير »[٢] .

١٩– وطلبة العلم هم وصية رسول الله ﷺ، فقد قال: «سيأتيكم أقوامٌ يطلبون العلم ، فإذا رأيتموهم ، فقولوا لهم : مرحبًا بوصية رسول الله وأفتوهم »[٣] .

(١) صحيح : رواه ابن ماجه والحاكم في المستدرك ، وصحَّحه الحاكم ، والألباني في صحيح الجامع رقم (٦٠٦٠) .
(٢) صحيح : رواه الطبراني في الكبير والضياء عن أبي أمامة ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (١٨٣٤) .
(٣) حسن : رواه ابن ماجه عن أبي سعيد ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم (٣٥٤٥) .

٢٠- قال رسول الله ﷺ : « فضلُ العالم على العابد كفضلي على أدناكم »[1] .

وهل بعد هذا فضلٌ للعلم وأهله ؟!

وقال رسول الله ﷺ : « فضلُ العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب »[2] .

٢١- والله تبارك وتعالى يُباهي ملائكته بالقوم الذين يتذاكرون العلم، ويذكرون الله ويحمدونه على ما منَّ عليهم به منه .

٢٢- والملائكة تضع أجنحتها ؛ تواضُعًا لطالب العلم ، وتوقيرًا وإكرامًا لما يحمله من ميراث النبوة ويطلبه ، والعلماء هم ورثة الأنبياء .

عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « مَنْ سلك طريقًا يبتغي فيه علمًا سلك الله به طريقًا إلى الجنة ، وإن الملائكة لتضعُ أجنحتها رضا لطالب العلم ، وإن العالم ليستغفر له مَنْ في السموات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء ، وفضلُ العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب ، إن العلماء ورثة الأنبياء ، إن الأنبياء لم يوِّرثوا دينارًا ولا درهمًا ؛ إنما ورَّثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظٍّ وافرٍ ، وموتُ العالم مصيبةٌ لا تُجبر ، وثُلمةٌ لا تُسدُّ ، ونجمٌ طُمِس ، وموت قبيلة أيسرُ من موت عالم »[3] .

---

(١) صحيح: رواه الترمذي عن أبي أمامة، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (٤٠٨٩).

(٢) صحيح : رواه أبو نعيم في الحلية عن معاذ ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (٤٠٨٨) .

(٣) حسن : أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه ، وأحمد والدارمي ، والبغوي في شرح السنة، وابن حبان، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم»، والطحاوي في «مشكل الآثار»، وحسَّنه ابن القيم في «مفتاح دار السعادة» ٦٣/١.

فأعظِمْ بالعلم من ميراث جليل خطرُهُ !!

قال الفُضيل بن عياض : « عالمٌ عاملٌ مُعلّمٌ يُدعى كبيرًا في ملكوت السموات » .

٢٣- قال تعالى: ﴿والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصِّدِّيقون﴾ [الحديد: ١٩]. فالصِّدِّيقُون هم أئمةُ أتباعِ الرسل، ودرجتهم أعلا الدرجات بعد النبوة، والصدِّيقية هي كمال الإيمان بما جاء به الرسول علمًا وتصديقًا وقيامًا به ، فهي راجعة إلى نفس العلم . فالصدِّيقية شجرة ؛ أصولُها العلمُ ، وفروعُها التصديقُ ، وثمرتُها العملُ .

فإنْ جرى قلمُ العالم بالصدِّيقية ، وسال مداده بها ؛ كان أفضلَ من دم الشهيد الذي لم يلحقه في رتبة الصِّدِّيقية، وإنْ سال دم الشهيد بالصدِّيقية، وقطر عليها؛ كان أفضلَ من مداد العالم الذي قصر عنها، فأفضلُهما صدِّيقهما، فإن استويا في الصدِّيقية استويا في المرتبة .

تعلَّمْ ما الرزيةُ فقْد مالٍ ... ولا شاة تموتُ ولا بعيرُ
ولكنَّ الرزيةَ فقْدُ حُرٍّ ... يموتُ بموته بشرٌ كثيرُ

٢٤- قال الإمام أحمد : « الناس محتاجون إلى العلم أكثر من حاجتهم إلى الطعام والشراب ؛ لأن الطعام والشراب يُحتاج إليه في اليوم مرة أو مرتين ، والعلم يحتاج إليه بعدد الأنفاس » .

وقال ابن القيم :

«العلماء بالله وأمْره هم حياة الموجود وروحه، ولا يُستغنى عنهم طرفة عين، فحاجةُ القلب إلى العلم ليست كالحاجة إلى التنفس في الهواء ؛ بل أعظم ، وبالجملة فالعلم للقلب مثل الماء للسمك ، إذا فقده مات ، فنسبة العلم إلى القلب كنسبة ضوء العين إليها » .

وقال محمد بن إسماعيل الصائغ : كنتُ أصوغُ مع أبي ببغداد ، فمرَّ

بنا أحمد بن حنبل وهو يعدو ونعلاه في يديه ، فأخذ أبي بمجامع ثوبه ، فقال : ياأبا عبد الله ، ألا تستحي ، إلى متى تعدو مع هؤلاء ؟ قال : إلى الموت »(١) .

هذا دأب المؤمن إلى الممات !

« قال الحسين بن منصور الجصّاص : قلت لأحمد بن حنبل رضي الله عنه : إلى متى يكتب الرجل الحديث ؟ قال : إلى الموت .

وقال نعيم بن حماد : سمعت عبد الله بن المبارك رضي الله عنه ، وقد عابه قوم في كثرة طلبه للحديث ، فقالوا له : إلى متى تسمع ؟ قال : إلى الممات .

وقال عبد الله بن بشر الطالقاني : أرجو أن يأتيني أمري والمحبرة بين يدي ، و لم يفارقني العلم والمحبرة .

وقال حميد بن محمد بن يزيد البصري: جاء ابن بسطام الحافظ يسألني عن الحديث ، فقلت له : ما أشدَّ حرصَك على الحديث ! فقال : أو ما أُحِبُّ أن أكون في قطار آل رسول الله ﷺ !

وسُئل الحسن عن الرجل له ثمانون سنة : أيحسُنُ أن يطلب العلم ؟ قال : إن كان يحسُنُ به أن يعيش »(٢) .

٢٥- وأخيرًا في شرف العلم وفضله حتى نُفرد له كتابًا مستقلًّا ، أنه سبحانه ذكر فضْله ومنَّته على أنبيائه ورسله وأوليائه بما آتاهم من العلم :

فذكر نعمته على خاتم أنبيائه ورسله ﷺ بقوله تعالى : ﴿ **وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلَّمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيمًا** ﴾ [النساء : ١١٣] .

---

(١) مفتاح دار السعادة ١ / ٧٤ .
(٢) مفتاح دار السعادة ١ / ٧٤ .

وأثنى الله على خليله إبراهيم بقوله تعالى: ﴿**إن إبراهيم كان أُمَّةً قانتًا لله حنيفًا ولم يكُ من المشركين شاكرًا لأنعمه اجتباه**﴾ [النحل: ١٢٠- ١٢١].

والأمة هو الذي جمع صفات الكمال من العلم والعمل ، والمقصود أنه مدح خليله بأربع صفات ؛ كلُّها ترجع إلى العلم والعمل بموجبه وتعليمه ونشره ، فعاد الكمال كله إلى العلم والعمل بموجبه ودعوة الناس إليه .

وقال في يوسف : ﴿ **ولما بلغ أشُدَّه آتيناه حُكمًا وعلمًا وكذلك نجزي المحسنين** ﴾ [يوسف : ٢٢] .

وقال في كليمه موسى : ﴿ **ولما بلغ أشُدَّه واستوى آتيناه حُكمًا وعلمًا وكذلك نجزي المحسنين** ﴾ [القصص : ١١٤] .

وقال في حقِّ المسيح : ﴿ **ياعيسى ابن مريم اذكرْ نعمتي عليك وعلى والدتك إذ أيَّدتك بروح القُدُسِ تُكلِّمُ الناس في المهد وكهلًا وإذ علَّمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل** ﴾ [المائدة : ١١٠] .

وقال في حقِّ داود : ﴿**وآتيناه الحكمة وفصْل الخطاب**﴾ [ص: ٢٠].

وقال في حقِّ الخضر صاحب موسى وفتاه : ﴿ **فوجدا عبدًا من عبادنا آتيناه رحمةً من عندنا وعلَّمناه من لدُنَّا علمًا** ﴾ [الكهف : ٦٥] .

وقال في داود وسليمان : ﴿ **ففهّمناها سليمان وكلًّا آتينا حُكمًا وعلمًا** ﴾ [الأنبياء : ٧٩] .

وقال في حقِّ هذه الأُمَّة : ﴿ **هو الذي بعث في الأُمِّيين رسولًا منهم يتلو عليهم آياته ويُزكِّيهم ويُعلِّمهم الكتابَ والحكمة وإن كانوا من قبلُ لفي ضلال مُبين** ﴾ [آل عمران : ١٦٤] ،فامتنَّ عليهم سبحانه بأنْ علَّمهم بعد الجهل ، وهداهم بعد الضلالة ، وياها من منَّة عظيمة فاتت المنن ، وجَلَّت

أن يقدر العباد لها على ثمن ! »[١] .

قال ميمون بن مهران : « بنفسي ، العلماءُ هم ضالتي في كل بلدة ، وهم بُغيتي إذا لم أجدهم ، وجدت صلاح قلبي في مجالسة العلماء »[٢] .

قال سابق البربري في قصيدة له :

والعلمُ يجلو العمى عن قلبِ صاحبِهِ ... كما يُجلي سوادَ الظُّلمَةِ القمرُ
وليس ذو العلم بالتقوى كجاهلِها ... ولا البصيرُ كأعمى ما له بصرُ

وقال أحمد بن عمر بن عصفور في العلم :

مع العلم فاسلك حيث ما سلك العلمُ ... وعنه فكاشفْ كلَّ من عنده فهمُ
ففيه جلاءٌ للقلوبِ من العمى ... وعونٌ على الدِّينِ الذي أمرُهُ حتمُ
فإني رأيتُ الجهلَ يُزري بأهلِهِ ... وذو العلم في الأقوام يرفعُه العلمُ
يُعدُّ كبيرَ القومِ وهو صغيرُهم ... وينفذُ منه فيهمُ القولُ والحكمُ
وأي رجاءٍ في امرئ شاب رأسُه ... وأفنى سنيه وهو مستعجمٌ فدم[٣]
يروحُ ويغدو الدهرَ صاحبَ بطنةٍ ... تركَّب في أحضانِها اللحمُ والشحمُ
إذا سُئل المسكينُ عن أمر دِينِهِ ... بدت رحضاءُ العيِّ في وجهه تسمو
وهل أبصرتْ عيناك أقبحَ منظرٍ ... من أشيب لا علمٌ لديه ولا حلمُ
هي السوءةُ السوءاءُ فاحذرْ شماتَها ... فأوَّلُها خِزيٌ وآخرها ذمُّ
فخالطْ رواةَ العلْم واصحبْ خيارَهم ... فصحبتُهم زيْنٌ وخُلْطتهم غُنْمُ
ولا تعدونْ عيناك عنهم فإنهم ... نجومٌ إذا ما غاب نجمٌ بدا نجمُ
فوالله لولا العلمُ ما اتضح الهدى ... ولا لاح من غيبِ الأمورِ لنا رسمُ[٤]

---

(١) انتهى مُلخصا من مفتاح دار السعادة لابن القيم .
(٢) جامع بيان العلم وفضله ١ / ٢٢١ تحقيق الشيخ حسن أبي الأشبال الزهيري .
(٣) بعيد الفهم .
(٤) جامع بيان العلم وفضله ١ / ٢١٩ - ٢٢٠ .

قال أبو الأسود الدؤلي :

العلمُ زيْنٌ وتشريفٌ لصاحبِـهِ ... فاطلبْ هُديتَ فنونَ العلم والأدبا
لا خيرَ فيمن له أصلٌ بلا أدبٍ ... حتى يكون على ما زانه حدبا
كم من كريم أخي عيٍّ وطمطمةٍ ... فدمٍ لدى القومِ معروفٍ إذا انتسبا
في بيت مكرُمةٍ آباؤه نُجُبٌ ... كانوا الرؤوسَ فأمسى بعدهم ذَنَبا
وخاملٍ مُقرفِ الآباءِ ذي أدبٍ ... نال المعاليَ بالآداب والرُّتَبـا
العلمُ كنزٌ وذُخرٌ لا نفادَ له ... نعم القرينُ إذا ما صاحبٌ صحبا
قد يجمعُ المرءُ مالًا ثم يُسْلَبُهُ ... عما قليل فيلقى الذُّلَّ والحَرَبَا
وجامعُ العلم مغبوطٌ به أبدًا ... فلا يُحاذرُ فوتًا لا ولا هَرَبا
ياجامعَ العلم نعم الذُّخرُ تجمعُهُ ... لا تعدلنَّ به دُرًّا ولا ذهبـا[(١)]

قال بعض العلماء : « من شرفِ العلم وفضلِهِ : أنَّ كلَّ من نُسب إليه فرح بذلك وإن لم يكن من أهله ، وكل من دُفع عنه ونُسب إلى الجهل عزَّ عليه ونال ذلك من نفسه وإن كان جاهلًا »[(٢)] .

وقال ابن شهاب الزهري : « العلمُ ذكرٌ يُحِبُّه ذكورة الرجال ويكرهُهُ مؤنَّثوهم »[(٣)] .

قال العباس بن محمد الخراساني :

رحلتُ أطلبُ أصلَ العلم مجتهدًا ... وزينةُ المرءِ في الدنيا الأحاديثُ
لا يطلبُ العلمَ إلا بازلٌ ذكرٌ ... ولـيس يبـغضُه إلا المخانـيثُ

---

(١) الفقيه والمتفقه (١ / ٥٢) للخطيب البغدادي .
(٢) جامع بيان العلم وفضله ١ / ٢٥١ . وهو قول عليٍّ ، كما جاء في المجموع للنووي ١ / ٤١ .
(٣) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر ٢٥١/١ .

لا تعجبنَّ بمال سوف تتركُهُ ... فإنما هذه الدنيا مواريثُ[(١)]

قال ابن القيم رحمه الله :

« السعادة الحقيقية هي سعادة نفسانية روحية قلبية ، وهي سعادة العلم النافع ثمرته ، فإنها هي الباقية على تقلُّب الأحوال ، والمصاحبة للعبد في جميع أسفاره وفي دُوره الثلاثة، وبها يترقَّى معارج الفضل ودرجات الكمال، كلما طال الأمدُ ازدادت قوةً وعلوًّا ، وهذه السعادة لا يعرف قدرَها ويبعث على طلبها إلا العلمُ بها ؛ وإنما رغَّب أكثر الخلق عن اكتساب هذه السعادة وتحصيلها - وعورة طريقها ، ومرارة مباديها ، وتعبُ تحصيلها ، وأنها لا تُنال إلا على جسر من التعب ، فإنها لا تحصل إلا بالجدّ المحض .

وسعادة العلم لا يورثك إياها إلا بذلُ الوسع ، وصدقُ الطلب ، وصحةُ النِّيَّة ، وقد أحسنَ القائلُ في ذلك :

فقلْ لمُرَجّي معالي الأمور ... بغير اجتهادٍ رجوتَ المُحالا

وقال الآخر :

لولا المشقةُ ساد الناسُ كلُّهُمُ ... الجودُ يُفقر والاقدامُ قتَّالُ

ومن طمحت هِمَّته إلى الأمور العالية ؛ فواجبٌ عليه أن يَشُدَّ على محبة الطرق الدينية وهي السعادة ، وإن كانت في ابتدائها لا تنفكُّ عن ضرب من المشقة والكُره والتأذِّي ، وأنها متى أُكرهت النفسُ عليها ، وسيقت طائعةً وكارهةً إليها، وصبرت على لأوائها وشدَّتِها- أفضت منها إلى رياض مونقة، ومقاعد صدقٍ ، ومقام كريم ، تجد كلَّ لذةٍ دونها لعبَ الصبيِّ بالعصفور بالنسبة إلى الذَّات الملوك ، فحينئذٍ حالُ صاحبِها كما قيل :

(١) الرحلة في طلب الحديث للخطيب البغدادي صـ ٩٦ تحقيق د . نور الدين عتر . طبع دار الكتب العلمية .

وكُنتُ أرى أنْ قد تناهى بي الهوى إلى غاية ما بعدها لي مذهبُ
فلما تلاقينا وعاينت حُسْنَها تيقَّنتُ أني إنما كنتُ ألعبُ

فالمكارمُ منوطةٌ بالمكاره ، والسعادة لا يُعبرُ إليها إلا على جسر المشقة ، فلا تُقطع مسافتُها إلا في سفينة الجدِّ والاجتهاد .

قال مسلم في صحيحه : قال يحيى بن أبي كثير : لا يُنال العلمُ براحة الجسد . وقد قيل : من طلب الراحة ترك الراحة .

فيا وصلَ الحبيبِ أما إليه بغير مشقَّةٍ أبدًا طريقُ

ولولا جهلُ الأكثرين بحلاوة هذه اللذة وعِظَمِ قدْرها ؛ لتجالدوا عليها بالسيوف، ولكن حُفَّت بحجابٍ من المكاره، وحُجبوا عنها بحجاب من الجهل ؛ ليختصَّ الله لها مَنْ يشاء ، والله ذو الفضل العظيم »[١] .

« قال عقبة بن عامر رضي الله عنه : « تعلَّموا قبل الظَّانين » . قال البخاري : يعني الذين يتكلَّمون بالظن »[٢] .

« ومعناه : تعلَّموا العلم من أهله المُحققِّين الورِعين قبل ذهابهم ومجيء قوم يتكلَّمون في العلم بظنونهم التي ليس لها مُسْتَنَدٌ شرعيٌّ »[٣] .

وقال سفيان بن عيينة رحمه الله : أرفعُ الناس منزلةً عند الله مَنْ كان بين الله وبين عباده ، وهم الرسل والعلماء[٤] .

قال أبو بكر بن دُريد ؛ أعلمُ الشعراءِ ، وأشعرُ العلماءِ :

أهلًا وسهلًا بالذين أُحِبُّهم وأودُّهم في الله ذي الآلاءِ
أهلًا بقومٍ صالحين ذوي تقى غُرِّ الوجوهِ وزينِ كلِّ ملاءِ

---

(١) مفتاح دار السعادة .
(٢) كتاب الفرائض من صحيح البخاري .
(٣) فضل العلم صـ ٩٤ للشيخ محمد سعيد رسلان .
(٤) مفتاح دار السعادة ١ / ١٢٨ .

ومدادُ ما تجري به أقلامُهم أزكى وأفضلُ من دم الشهداءِ
يا طالبي علمَ النبيِّ محمد ما أنتمُ وسواكمُ بسواءِ

« وقال الأحنف بن قيس : كاد العلماء أن يكونوا أربابًا ، وكلُّ عزٍّ لم يؤكد بعلم فإلى ذُلٍّ ما يصير .

وقال أبو الأسود الدؤلي : الملوك حُكَّامٌ على الناس ، والعلماء حُكَّامٌ على الملوك »[1] .

انظر رحمك الله إلى قصة الفراء أمير المؤمنين في النحو ، وإمام الكوفيين وأعلمهم باللغة والنحو :

يقول الخطيب البغدادي في تاريخه ١٤/١٥ :

«كان الخليفة المأمون قد وكَّل الفرَّاء يُلَقِّنُ ابنَيْه النحو، فلما كان يومًا أراد الفرَّاء أن ينهض إلى بعض حوائجه ، فابتدرا إلى نعل الفرَّاء يُقدِّمانها له ، فتنازعا أيهما يُقدِّمُها ، ثم اصطلحا على أن يُقدِّم كل واحدٍ منهما فردةً ، فقدَّماها وكان المأمون له على كل شيء صاحبُ خَبَرٍ ، فرفع إليه ذلك الخبر ، فوجَّه إلى الفرَّاء فاستدعاه ، فلما دخل عليه قال له : من أعزُّ الناس ؟ قال : ما أعرفُ أحدًا أعزّ من أمير المؤمنين ، قال : بلى ، مَنْ إذا نهض تَقَاتَلَ على تقديم نعليه وليَّا عهد المسلمين ، حتى رضي كلُّ واحدٍ منهما أن يُقدِّم له فردةً .

قال : ياأمير المؤمنين ، لقد أردتُ منْعهما من ذلك ، ولكن خشيتُ أن أدفعَهما عن مكرمة سبقا إليها، وأكسر نفوسهما عن شريفة حصلا عليها، وقد رُوي عن ابن عباس أنه أمسك للحسن والحسين رضي الله عنهما ركابيهما حتى خرجا من عنده ، فقال له بعض مَنْ حضر : أتُمسك لهذين الحَدَثَيْن ركابَيْهما وأنت أسنُّ منهما ؟ فقال له : اسكُتْ ياجاهل ، لا يعرفُ الفضل

(١) جامع بيان العلم وفضله ١ / ٢٥٦ - ٢٥٧ .

لأهل الفضل إلا ذوو الفضل .

قال له المأمون : لو منعتهما عن ذلك ؛ لأوجعتُك لومًا وعُتْبًا ، وألزمتُك ذنبًا ، وما وَضَعَ ما فعلاه من شرفهما ؛ بل رفع من قدْرهما ، وبيَّن عن جوهرهما ، ولقد ثبتت لي مَخيلة الفراسة بفعلهما ، فليس يكبُر الرجل وإن كان كبيرًا عن ثلاث: عن تواضُعِهِ لسلطانه ، ووالده ، ومُعلِّمه العلمَ ، وقد عوَّضتُهما بما فعلاه عشرين ألف دينار ، ولك عشرة آلاف درهم على حُسن أدبك لهما » .

« قيل لأبي جعفر المنصور – الخليفة العباسي –: ياأمير المؤمنين ، هل بقي شيء من اللذَّات لم تنله ؟ قال : شيء واحد ، قالوا : وما هو ؟ قال : قول المُحدِّث للشيخ : مَنْ ذكرتَ رحمك الله ، فاجتمع وزراؤه وكُتَّابُه ، وجلسوا حوله ، وقالوا : لِيُمل علينا أمير المؤمنين شيئا من الحديث ، فقال : لستُ منهم ، إنما هم الدَّنِسةُ ثيابُهم ، المُشَّقَقةُ أرجلُهم ، الطويلة شعورُهم، روَّادُ الآفاق، وقُطَّاع المسافات؛ تارةً بالعراق، وتارةً بالحجاز ، وتارةً بالشام ، وتارةً باليمن ، فهؤلاء نقلةُ الحديث »[1] .

« رحم الله مَنْ تَسابَقَ أبناءُ الملوك إلى تقديم نعالهم ، ولهم عند الله تعالى في الدار الآخرة من الأجر والمقام المحمود ؛ ما لا عينٌ رأت ، ولا أُذُنٌ سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

وما أُغمضت منهم العيون لوداع هذه الدار الفانية ، حتى تلقَّتهم رحابُ الخلد ، واستقبلتهم حورُها في الدار الباقية ، فلقوا التكريم والهناء ، ونسوا الشقاء والبلاء ، فكان لهم كما قيل :

هناءٌ محا تلك العزاء المُقدَّما ... فما عبس المحزونُ حتى تبسَّما»[2]

---

(١) البداية والنهاية ١٠/١٢٥ ، ١٢٦ .

(٢) صفحات من صبر العلماء على شدائد التحصيل صـ ٣٨٨ .

رحم الله مَنْ كانت حياتُهم عسلًا مُصفىً ، وكاملًا مُوَفًّى ، وغدت الأحاديث عنهم حوافز ، واستماعُ أخبارِهم مُتعًا ولذائذ .

إيه أحاديث نعمانٍ وساكنِهِ إن الحديثَ عن الأحباب أسماءُ

* * *

وحدَّثتني ياسعدُ عنها فزدتني جنونًا فزدني من حديثك ياسعدُ

هواها هوىً لم يعرف القلبُ غيرَهُ فليس له قبلٌ وليَس له بعدُ

قال ابن القيم :

« لا يُنال العلمُ إلا بهجر اللَّذات وتطليق الراحة . قال إبراهيم الحربي : أجمع عقلاءُ كل أمَّة أن النعيم لا يُدرك بالنِّعم ، ومَنْ آثر الراحة فاتتْه الراحة ، فما لصاحب اللَّذات وما لدرجة ورثة الأنبياء .

فدعْ عنك الكتابة لستَ منها ولو لطّختَ وجْهَك بالمدادِ

فإن العلمَ صناعةُ القلب وشُغُلُه ، فما لم تتفرّغْ لصناعته وشغله ، لم تنلها ، ومن لم يغلب لذة إدراكه العلم وشهوته على لذة جسمه وشهوة نفسه ؛ لم ينل درجة العلم أبدًا »[1] .

* * *

---

(١) مفتاح دار السعادة ١ / ١٤٢ .

□ صفحاتٌ نورانيةٌ في عُلُوِّ الهِمَّةِ في طلبِ العِلْمِ ونشْرِهِ □

١ - رحلة كليم الله موسى وفتاه لطلب العلم على يد الخضر :

قال ابن قيم الجوزية في مفتاح دار السعادة ١ / ٥٥ - ٥٦ :

« إن الله سبحانه أخبرنا عن صفيِّهِ وكليمه ؛ الذي كتب له التوراة بيده ، وكلَّمه منه إليه ، أنه رحل إلى رجل عالم[1] يتعلَّم منه ويزداد علمًا إلى علمه ، فقال تعالى : ﴿ **وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتىٰ أبلغ مجمع البحرين أو أمضي حُقُبًا** ﴾ [الكهف : ٦٠] ؛ حرصًا منه على لقاء هذا العالم وعلى التعلُّم منه ، فلما لقيه سلك معه مسلك المُتعلِّم مع مُعلِّمه ، وقال له : ﴿ **هل أتَّبِعُك على أن تُعلِّمن مما عُلِّمت رُشْدًا** ﴾ ، فبدأ بعد السلام بالاستئذان على متابعته ، وأنه لا يتَّبِعُه إلا بإذنه ، قال : ﴿ **على أن تُعلِّمنِ مما عُلِّمتَ رُشْدًا** ﴾ ، فلم يجئ مُمتحِنًا ولا مُتعنتًا ، وإنما جاء مُتعلمًا مُستزيدا علمًا إلى علمه . وكفى بهذا فضلًا وشرفًا للعلم ، فإن نبي الله وكليمه سافر ورحل ، حتى لقي النَّصَبَ من سفره في تعلُّم ثلاث مسائل من رجل عالم ، ولمّا سمع به لم يَقرَّ له قرارٌ ، حتى لقيه ، وطلب منه متابعته وتعليمه ، وفي قصتهما عِبَرٌ وآيات وحِكَمٌ ، ليس هذا موضعَ ذكرها » .

قال الخطيب البغدادي :

« قال بعض أهل العلم : إن فيما عاناه موسى ؛ من الدأب والسفر والصبر عليه ، ومن التواضع والخضوع للخضر ، بعد معاناة قصْده ، مع محلِّ موسى من الله ، وموضعِه من كرامته ، وشرفِ نُبُوَّتِه - دلالةً على ارتفاع قدْر العلم ، وعُلُوِّ منزلة أهله ، وحُسْنِ التواضع لِمن يُلتمس منه ويؤخذ

---

(١) هو نبي الله الخضر .

عنه ، ولو ارتفع عن التواضع لمخلوق أحدٌ بارتفاع درجةٍ وسُمُوٍّ منزلةٍ ؛ لسبق إلى ذلك موسى ، فلما أظهر الجدَّ والاجتهاد ، والانزعاج عن الوطن ، والحرص على الاستفادة ، مع الاعتراف بالحاجة إلى أن يصل من العلم إلى ما هو غائبٌ عنه - دلَّ على أنه ليس في الخلق مَنْ يعلو على هذه الحال ولا يكبُرُ عنها »(١).

ولقد بوَّب الإمام البخاري في صحيحه في كتاب العلم ، باب « ما ذكر في ذهاب موسى في البحر إلى الخَضِر عليهما السلام ، وقوله تعالى : ﴿ **هل أتَّبِعُك على أن تُعلِّمنِ مما عُلِّمتَ رُشْدًا** ﴾ » .

عن ابن عباس رضي الله عنهما « أنه تمارى - أي اختلف - هو والحرُّ ابن قيس الفزاري في صاحب موسى عليه السلام مَنْ هو ؟ فقال ابن عباس : هو خَضِر ، فمرَّ بهما أُبيُّ بن كعب ، فدعاه ابن عباس ، فقال : إني تماريتُ أنا وصاحبي هذا في صاحب موسى الذي سأل السبيل إلى لُقِيِّه ، هل سمعت النبي ﷺ يذكر شأنه ؟ قال : نعم ؛ سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : بينما موسى في ملأ من بني إسرائيل ، جاءه رجلٌ ، فقال : هل تعلمُ أحدًا أعلم منك ؟ قال موسى : لا ، فأوحى الله إلى موسى : بل عبدنا الخضر ، فسأل موسى السبيل إليه ، فجعل الله له الحوت آية ، وقيل له : إذا فقدت الحوت ؛ فارجع ، فإنك ستلقاه . وكان يتبع أثر الحوت في البحر ، فقال لموسى فتاه : ﴿ **أرأيتَ إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيتُ الحوت وما أنسانيه إلا الشيطانُ أن أذكره واتخذ سبيله في البحر عجبا قال ذلك ما كنا نبغ فارتدَّا على آثارهما قصصًا** ﴾ [الكهف : ٦٣ - ٦٤] ، فوجدا خضرًا ، فكان من شأنهما الذي قصَّ الله عز وجل » .

---

(١) الرحلة في طلب الحديث صـ ١٠٦، ١٠٧ ، للخطيب البغدادي . تحقيق : نور الدين عتر . دار الكتب العلمية .

قال ابن حجر : « ظاهر التبويب أن موسى عليه السلام ركب البحر لما توجَّه في طلب الخضر ، وفيه نظرٌ ؛ لأن الذي ثبت عند المصنِّف - البخاري - وغيره أن موسى خرج في البر وفي بعض روايات البخاري وأحمد : « فخرجا يمشيان حتى أتيا الصخرة » .

وقال الحافظ ابن رشيد : يُحتمل أن يكون ثبت عند البخاري أن موسى توجَّه في البحر لما طلب الخضر .

قلتُ - القائل ابن حجر -: ويُؤيِّد هذا الاحتمال ما جاء عن أبي العالية وغيره، أن موسى التقى بالخضر في جزيرة من جزائر البحر، والتوصُّل إلى جزيرة في البحر لا يقع إلا بسلوك البحر غالبًا »[(١)] .

وقال الحافظ ابن حجر : « هذا الباب معقود للترغيب في احتمال المشقَّة في طلب العلم ؛ لأنَّ ما يُغْتبط به تُحتَمل المشقة فيه ، ولأن موسى عليه الصلاة والسلام لم يمنعه بلوغُه من السيادة ! المحلّ الأعلى ؛ من طلب العلم ، وركوب البر والبحر لأجله .

وفي الحديث : ركوب البحر في طلب العلم ؛ بل في طلب الاستكثار منه ، وفيه فضلُ الازدياد من العلم ، ولو مع المشقة والنَّصَب بالسفر »[(٢)] .

٢ - حِرْصُ الفاروق عمر رضي الله عنه على تحصيل العلم :

روى البخاري في « صحيحه » عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : « كنتُ أنا وجار لي من الأنصار[(٣)] ، في بني أمية بن زيد[(٤)]، وهي

(١) فتح الباري ١ / ١٥٣ .
(٢) فتح البـاري ١ / ١٥٣ .
(٣) هو أوس بن خوليّ الأنصاري ، كما قال ابن حجر في كتاب النكاح من فتح الباري ٩ / ٢٤٤ .
(٤) أي ناحية بني أمية .

من عوالي[١] المدينة، وكنا نتناوب النزول على رسول الله ﷺ؛ ينزل يومًا وأنزل يومًا ، فإذا نزل جئته بخبر ذلك اليوم من الوحي وغيره ، وإذا نزل فعل مثل ذلك »[٢] .

٣ - معاذ بن جبل مقدام العلماء :

قال رسول الله ﷺ : « إن العلماء إذا حضروا ربَّهم عز وجل ؛ كان معاذ بين أيديهم رَتْوةً[٣] بحجر »[٤] .

وقال ﷺ : « معاذ بن جبل ، أمام العلماء يوم القيامة برتوة »[٥] .

وقال عمر بن الخطاب : « لو استخلفتُ معاذ بن جبل رضي الله عنه ، فسألني عنه ربي عز وجل : ما حملك على ذلك ؟ لقلتُ : سمعتُ نبيَّك ﷺ يقول : « إن العلماء إذا حضروا ربَّهم .... » الحديث .

وروي عن معاذ لما حضرته الوفاة أنه قال : « اللهم إنك تعلم أني لم أكن أُحِبُّ البقاء في الدنيا لكري الأنهار ولا لغرس الأشجار ، ولكن كنتُ أُحِبُّ البقاء ؛ لمكابدة الليل الطويل ، ولظمأ الهواجر في الحرِّ الشديد ،

---

(١) قرى بقرب المدينة من ناحية الشرق .

(٢) فتح الباري ١ / ١٦٧ - كتاب العلم - (باب التناوب في العلم) .

(٣) أي رَمْيَة ، وزنًا ومعنى .

(٤) صحيح : روي من حديث عمر ، ومحمد بن كعب مُرسلًا ، وأبي عون مرسلًا ، والحسن البصري .
قال الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة رقم (١٠٩١ جـ ٣ / ٨١ - ٨٣) : « وبالجملة فالحديث بمجموع هذه الطرق صحيح بلا شكٍّ ، ولا يرتاب في ذلك من له معرفة بهذا العلم الشريف » .

(٥) صحيح : رواه أبو نعيم في الحِلْيَةُ ، والطبراني في المعجم الكبير عن محمد بن كعب مرسلًا ، والحديث صحيح بمجموع الطرق ؛ صحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (٥٨٨٠) . والرتوة : رمية سهم ، وقيل : مدُّ البصر .

ولمزاحمة العلماء بالرُّكَبِ عند حِلَقِ الذِّكْر » .

وإن أردتَ أن تعرف عُلُوَّ هِمَّة معاذ مقدام العلماء في تحصيل العلم ؛ فانظر كم سِنُّهُ يوم إسلامه ، وكم سِنُّه يوم وفاته ، ومكانته من العلم !!

قال الذهبي في سير أعلام النبلاء (١ / ٤٤٥) :

« قال عطاء : أسلم معاذ وله ثمان عشرة سنة » .

وقد شهد العقبة الثانية ، وحتى هجرة الرسول ﷺ ، انظر كم مرَّ من أيام لم ينعم فيها بالقرب من الرسول ﷺ وتحصيل العلم منه .. وانظر إلى سِنِّه عند وفاته !!

قال الشيخ الألباني في الصحيحة (٣ / ٨٣ - ٨٤) :

« روى الحاكم بإسناد صحيح عن مالك بن أنس قال : « إن معاذ ابن جبل هلك وهو ابن ثمان وعشرين وهو أمام العلماء برتوة » ، وهو قول الذهبي أيضًا » .

وقال ابن المسيب : « قُبِضَ معاذ وهو ابن ثلاث أو أربع وثلاثين سنة » .

والأشهر أنه مات وهو ابن ثمان وعشرين سنة .. أي مدة تحصيله للعلم لا تبلغ عشر سنوات ، ومع هذا فهو إمام العلماء ، فكيف مرَّت عليه هذه السنون حتى بلغ ما بلغ !!

روى البخاري والترمذي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : « جَمَعَ القرآن على عهد رسول الله ﷺ أربعةٌ كلهم من الأنصار : أُبيُّ ابن كعب ، ومعاذُ بن جبل ، وزيد بن ثابت ، وأبو زيد أحدُ عمومتي » .

وروى البخاري ومسلم والترمذي عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « خذوا القرآن من أربعة : من ابن مسعود ، وأُبيٍّ ، ومعاذ بن جبل ، وسالم مولى أبي حذيفة » .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« معاذ بن جبل أعلمُ الناس بحلال الله وحرامه »[(١)] .

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أرحم أمتي بأمتي أبو بكر، وأشدُّهم في أمْر الله عمر، وأصدقُهم حياءً عثمان، وأقرؤهم لكتاب الله أُبي بن كعب، وأفرضُهم زيدُ بن ثابت ، وأعلمُهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل، ولكل أمةٍ أمينٌ، وأمينُ هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح»[(٢)].

عن الشعبي قال : « قرأ عبد الله : إن معاذًا كان أُمَّةً قانتًا لله حنيفًا ، فقال له فروة بن نوفل : إن إبراهيم ، فأعادها ، ثم قال : إن الأُمَّة : مُعلِّمُ الخير ، والقانت : المُطيع ، وإن معاذًا رضي الله عنه كان كذلك »[(٣)] :

وفي رواية أخرى : « قيل له : يا أبا عبد الرحمن ، نسيتَها ؟ قال : لا ، ولكنا كنَّا نُشبِّهُه بإبراهيم »[(٣)].

وعن سهل بن أبي حَثْمَة قال : كان الذين يُفتون على عهد رسول الله ﷺ ثلاثة من المهاجرين : عمر ، وعثمان ، وعلي ، وثلاثة من الأنصار : أُبيّ ابن كعب ، ومُعاذ ، وزيد .

وعن علي بن رباح قال : خطب عمر الناس بالجابية ، فقال : من أراد الفقه فليأت معاذ بن جبل[(٤)] .

وقال عمر : « عجزت النساءُ أن يلدن مثل معاذ ، لولا معاذ لهلك عمر »[(٥)] .

---

(١) صحيح : رواه أبو نعيم في الحلية ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (٥٨٧٩) .
(٢) صحيح : رواه أحمد والترمذي والنسائيُ وابن ماجه وابن حبان والحاكم والبيهقي في سننه ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (٨٩٥) .
(٣) صحيح : أخرجه أبو نعيم في الحلية ، والحاكم وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .
(٤) أخرجه الحاكم وصحَّحه، ووافقه الذهبي، وصحَّحه الحافظ في الفتح ١٢٦/٧.
(٥) نسبه صاحب كنز العمال إلى عبد الرزاق وابن أبي شيبة والبيهقي في الدلائل .

فكيف بلغ ما بلغ إلا بعُلُوِّ هِمَّتِه في تحصيل العلم ومُزاحمة العلماء بالرُّكبِ عند حِلَقِ الذِّكْر ، كما أخبر رضي الله عنه .

٤ - عبد الله بن مسعود صاحب السواك والوساد والنعلين رضي الله عنه ، الإمام الحبر فقيه الأمة .

عن ابن مسعود قال : « كنتُ أرعى غنمًا لعقبة بن أبي مُعيط ، فمرّ بي رسول الله ﷺ وأبو بكر ، فقال : ياغلام ، هل من لبن ؟ قلت : نعم ، ولكني مؤتمَن ، قال : فهل من شاة لم ينزُ عليها الفحل ؟ فأتيتُه بشاة ، فمسح ضرعها ، فنزل لبن ، فحلب في إناء ، فشرب ، وسقى أبا بكر ، ثم قال للضرع : اقلُص ، فقلص - زاد أحمد قال : ثم أتيته بعد هذا ، ثم اتفقا - فقلتُ : يارسول الله ، علِّمني من هذا القول ، فمسح رأسي ، وقال : يرحمك الله ، إنك غُلَيِّمٌ مُعلَّم »[(١)] .

وفيه زيادة ؛ منها : « فلقد أخذتُ من فيه ﷺ سبعين سورةً ، ما نازعني فيها بشرٌ » .

وروى البخاري عن شقيق بن سلمة قال: خطبنا عبد الله بن مسعود، فقال : والله لقد اخذتُ من فِيِّ رسول الله ﷺ بضعًا وسبعين سورةً . والله لقد علم أصحاب النبي ﷺ أني من أعلمهم لكتاب الله ، وما أنا بخيرهم . قال شقيق : فجلستُ في الحِلَقِ أسمعُ ما يقولون ، فما سمعتُ رادًّا يقول غير ذلك .

عن أبي وائل قال : كنتُ مع حذيفة ، فجاء ابن مسعود ، فقال حذيفة : « إن أشبه الناس هديًا ودلًّا وقضاءً وخطبةً برسول الله ﷺ ؛ مِنْ

---

(١) رواه أحمد ، والفسوي في المعرفة والتاريخ ، والذهبي في سير أعلام النبلاء ، وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ، وقال مُحقِّق هذا الجزء من السير : بل حسن ؛ لأن عاصمًا - وهو ابن بهدلة - لا يرتقي حديثه إلى درجة الصحيح .

حين يخرج من بيته إلى أن يرجع، لا أدري ما يصنع في أهله- لَعَبْدُ الله ابنُ مسعود ، ولقد علم المتهجِّدون من أصحاب محمد ﷺ أنّ عبد الله من أقربهم عند الله وسيلة يوم القيامة »[(١)] .

وعن أبي الأحوص قال : أتيتُ أبا موسى وعنده عبد الله وأبو مسعود الأنصاري ، وهم ينظرون إلى مصحف ، فتحدَّثنا ساعة ، ثم خرج عبد الله وذهب ، فقال أبو مسعود : « والله ما أعلم النبي ﷺ ترك أحدًا أعلمَ بكتاب الله من هذا القائم »[(٢)] .

انظر رحمك الله إلى عُلُوِّ همة ابن مسعود في طلب العلم والحرص عليه:

روى البخاري عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : « والذي لا إله غيره ، ما أُنزلت سورةٌ من كتاب الله إلا أنا أعلمُ أين أنزلت ، ولا أُنزلت آية من كتاب الله إلا أنا أعلم فيمن أُنزلت ، ولو أعلمُ أحدًا أعلم مني بكتاب الله تبلغُه الإبلُ لركبتُ إليه » .

قال عنه عمر بن الخطاب : « كُنيفٌ مُلِئَ علمًا »[(٣)] .

٥ - أبو ذر الغفاري رضي الله عنه :

روى البخاري ومسلم واللفظ له عن ابن عباس رضي الله عنه قال :

---

(١) أخرج البخاري نحوه ، والترمذي ، والحاكم وصحَّحه ، ووافقه الذهبي ، وأخرجه ابن سعد ، والذهبي في سير أعلام النبلاء ، وقال الذهبي : « لفظ منصور : كذا قال المتهجِّدون ، ولعله المجتهدون » .

(٢) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة ، باب من فضائل عبد الله بن مسعود ، والفسوي في « المعرفة والتاريخ » .

(٣) إسناده صحيح : رواه ابن سعد وأبو نعيم ، والذهبي في سير أعلام النبلاء ٤٩١/١ . والكُنيف : تصغير كنف ، وهو الوعاء . وقال هذا ؛ نظرًا لصغر جسمه ، مع أنه من أعلم الصحابة .

« لما بلغ أبا ذر مبعثُ النبي ﷺ بمكة ، قال لأخيه - أُنيْس -: اركب إلى هذا الوادي ، فاعلم لي علْمَ هذا الرجل ، الذي يزعم أنه يأتيه الخبر من السماء ، فاسمع من قوله ، ثم ائتني .

فانطلق - أُنَيس - حتى قدم مكة وسمع من قوله ، ثم رجع إلى أبي ذر ، فقال : رأيتُه يأمر بمكارم الأخلاق ، وسمعتُه يقول كلامًا ما هو بالشعر ، فقال أبو ذر : ما شفيتني فيما أردت !

فتزوَّد أبو ذر وحمل شنَّةً له فيها ماءٌ ، حتى قدم مكة ، فأتى المسجد ، فالتمس النبيَّ ﷺ ولا يعرفه ، وكره أن يسأل عنه ، حتى أدركه الليل فاضطجع ، فرآه علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، فعرف أنه غريب ، ودعاه إلى منزله، فتبعه، فلم يسأل واحدٌ منهما صاحبه عن شيء حتى أصبح.

ثم احتمل قربته وزاده إلى المسجد ، وظلَّ ذلك اليوم ولا يَرى النبيَّ ﷺ حتى أمسى ، فعاد إلى مضجعه ، فمرَّ به عليٌّ ، فقال : ما آن للرجل أن يعلم منزله ؟ فأقامه ، فذهب به معه ، ولا يسأل واحدٌ منهما صاحبه عن شيء ، حتى إذا كان يوم الثالث فعل مثل ذلك ، فأقامه عليٌّ معه ، ثم قال له : ألا تُحَدِّثني ما الذي أقدمك ؟ قال : إن أعطيتني عهدًا وميثاقًا لَتُرشدني ؛ فعلتُ ، ففعل ، فأخبره ، فقال : فإنه حقٌّ ، وهو رسول الله ﷺ ، فإذا أصبحت فاتبعني ، فإنْ رأيتُ شيئًا أخافُ عليك ؛ قمتُ كأني أُريق الماءَ ، فإنْ مضيتُ فاتبعني حتى تدخل مدخلي ، ففعل ، فانطلق يقفوه ، حتى دخل على النبي ﷺ ودخل معه ، فسمع من قوله وأسلم مكانه » .

ثم انظر إلى عُلُوِّ هِمَّتِه في تبليغ العلم الذي سمعه من رسول الله ﷺ ، يقول : « لو وضعتم الصِّمصامة[1] على هذه - وأشار بيده إلى قفاه - ثم

(١) الصمصامة : السيف القاطع .

ظننتُ أني أنْفِذُ كلمةً سمعتُها من رسول الله ﷺ قبل أن تُجيزوا عليَّ ؛ لأنفذتُها »[١] .

٦ - أبو الدرداء حكيم الأمة :

روى البخاري عن أنس رضي الله عنه قال : « مات النبي ﷺ ، ولم يجمع القرآن غير أربعة: أبو الدرداء، ومعاذ، وزيد بن ثابت، وأبو زيد».

وقال ابن إسحاق : كان الصحابة يقولون : أتبعُنا للعلم والعمل أبو الدرداء .

وروى ابن عساكر عن يزيد بن عميرة قال : « لما حضرت معاذاً الوفاةُ؛ قالوا: أوصنا، فقال: العلم والإيمان مكانهما، من ابتغاهما وجدهما - قالها ثلاثًا - فالتمسوا العلم عند أربعة : عند عويمر أبي الدرداء ، وسلمان ، وابن مسعود ، وعبد الله بن سلام الذي كان يهوديًّا فأسلم »[٢] .

وعن يزيد بن معاوية قال : « إن أبا الدرداء من العلماء الفقهاء ، الذين يشفون من الداء » .

يقول أبو الدرداء رضي الله عنه : « لو أُنسيتُ آيةً لم أجد أحدًا يُذكِّرُنيها إلا رجلًا بِبَرْك الغِماد[٣] ؛ رحلتُ إليه » .

٧ - أمير المؤمنين في الحديث أبو هريرة رضي الله عنه :

قال أبو هريرة : « لم يكن يشغَلني عن رسول الله ﷺ غرسُ الوَدِيّ ولا صفقٌ في الأسواق ، وإنما كنتُ أطلبُ من رسول الله ﷺ كلمةً يُعَلِّمُنيها ،

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية ١ / ١٦٠ ، والذهبي في سير أعلام النبلاء ٢ / ٦٤ .
(٢) ابن عساكر ١٣ / ٣٧٣ / ١ .
(٣) أخرجه ابن عساكر ١/٣٧٢/١٣ ، وبرك الغماد : موضع بناحية اليمن . انظر سير أعلام النبلاء ٢ / ٣٤٢ .

أو أكلةً يُطعمُنيها .

فقال ابن عمر: كنتَ ألزمنا لرسول الله ﷺ، وأعلمَنا بحديثه»(١) .

قال الذهبي : « كان حفظُ أبي هريرة الخارق من معجزات النبوة » .

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « ألا تسألني من هذه الغنائم التي يسألني أصحابك ؟ قلت : أسألك أن تُعلِّمني مما علمك الله ، فنزع نمرةً كانت على ظهري ، فبسطها بيني وبينه ، حتى كأني أنظر إلى النمل يدبُّ عليها ؛ فحدَّثني ، حتى إذا استوعبتُ حديثه ، قال : اجمعها فصُرْها إليك ، فأصبحتُ لا أُسقطُ حرفًا مما حدَّثني »(٢) .

فانظر إلى همِّ أبي هريرة ... ما يسأل الرسولَ شيئًا إلا العلم ، مع شدَّة حاجته وفقره .

روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه : « لقد رأيتني وإني لأخرُّ فيما بين منزل عائشة والمنبر مغشيًّا عليَّ من الجوع ، فيمرُّ الرجل ، فيجلس على صدري ، فأقول : ليس الذي ترى ، إنما هو الجوع » أي كان يظنُّه مصروعًا ... مجنونًا .

وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « إنكم تقولون : إن أبا هريرة يُكثر الحديث عن رسول الله ﷺ ! وتقولون ما للمهاجرين والأنصار لا يُحدِّثون مثله ! وإن إخواني المهاجرين كان يشغلُهم الصفقُ بالأسواق ، وكان إخواني من الأنصار يشغلُهم عملُ أموالِهم ، وكنت امرأً مسكينًا من مساكين الصُّفَّة ، ألزمُ رسول الله ﷺ على ملءِ بطني ،

---

(١) جزء من حديث رواه أحمد ، وصحَّحه الحاكم ، ووافقه الذهبي . والوَدِيُّ : صغار النخل ، الواحدة : وديَّة ، والصفقُ : المرة من التصفيق ، والمراد هنا : التبايع ؛ لأن المتبايعين يضع أحدهما يده على يد الآخر .

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية ورجاله ثقات . والنَّمِرةُ : شملةٌ فيها خطوط بيض وسود .

فأحضر حين يغيبون ، وأعي حين ينسَوْن ، وقد قال رسول الله ﷺ في حديث يُحدِّثه يومًا : « إنه لن يبسط أحدٌ ثوبه حتى أقضي جميع مقالتي ، ثم يجمع إليه ثوبه ، إلَّا وَعَى ما أقول » ، فبسطتُ نَمِرةً عليَّ ، حتى إذا قضى مقالته ؛ جمعتُها إلى صدري ، فما نسيتُ من مقالة رسول الله ﷺ تلك من شيء » .

وروى البخاري أيضًا عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « تزعمون أني أكثرُ الرواية عن رسول الله ﷺ !- والله الموعدُ - إني كنتُ أمرأً مسكينًا ، أصحبُ رسول الله ﷺ على ملءِ بطني ، وإنه حدَّثنا يومًا ، وقال: «من يبسط ثوبَهُ حتى أقضي مقالتي، ثم قبضه إليه ، لم ينسَ شيئًا سمع مني أبدًا»، ففعلتُ، فوالذي بعثه بالحق، ما نسيتُ شيئًا سمعتُه منه»[1].

٨ - حَبْرُ الأُمَّةِ وإمامُ التفسير أبو العبَّاس عبدُ الله بنُ عبَّاسَ رضي الله عنهما :

صحِبَ النبيَّ ﷺ نحوًا من ثلاثين شهرًا ، ودعا له الرسول ﷺ : « اللهم علِّمْه الحكمة » . وفي رواية : « اللهم علِّمْهُ الكتابَ »[2] .

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال : بتُّ في بيت خالتي ميمونة ، فوضعتُ للنبي ﷺ غُسْلًا ، فقال : « مَنْ وضع هذا ؟ » . قالوا : عبد الله ، فقال : « اللهم علِّمْهُ التأويلَ وفقِّهْهُ في الدين »[3] .

---

(١) قال ابن حجر في الفتح ١ / ١٠٤ : والإسنادان جميعًا محفوظان ؛ صحَّحهما الشيخان .

(٢) رواه البخاري في العلم ، باب قول النبي ﷺ : « اللهم علّمْه الكتاب » ، والترمذي وابن ماجه والطبراني .

(٣) إسناده صحيح : رواه أحمد وابن سعد والبلاذري ، وصحَّحه الحاكم ، ووافقه الذهبي .

وصحَّ عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال : لو أدرك ابن عباس أسناننا ما عاشره منا رجلٌ . وكان يقول : نعم ترجمان القرآن ابن عباس .

وقال ابن عمر : هو أعلمُ الناس بما أنزل الله على محمد ﷺ .

وعن أبي وائل : قرأ ابن عباس سورة النور ، ثم جعل يُفسِّرُها ، فقال رجل : « لو سمعت هذا الديلم لأسلمت »[١] .

وصحَّ عن علي أنه قال فيه « ويح ابن أم الفضل ، إنه لغوَّاص على الهَنَات »[٢] .

وقال فيه معاوية لعكرمة : مولاك والله أفقهُ مَنْ مات ومن عاش .

فانظر إلى عُلُوِّ هِمَّة ربانيِّ هذه الأمة :

قال ابن عباس: «لما توفِّي رسول الله ﷺ؛ قلتُ لرجل من الأنصار: هلمَّ نسأل أصحاب رسول الله ﷺ ، فإنهم اليوم كثير ، فقال : واعجبًا لك يا ابن عباس ! أترى الناس يحتاجون إليك ، وفي الناس من أصحاب النبي ﷺ مَن ترى ؟ فترك ذلك ، وأقبلتُ على المسألة ، فإن كان ليبلغُني الحديث عن الرجل ، فآتيه وهو قائلٌ ، فأتوسَّد ردائي على بابه ، فتُسفي الريحُ عليَّ الترابَ ، فيخرجُ فيراني ، فيقول : يا ابن عـمِّ رسول الله ، ألا أرسلتَ إليَّ فآتيك ؟ فأقول : أنا أحقُّ أن آتيك ، فأسألك . قال : فبقي الرجل حتى رآني وقد اجتمع الناس عليَّ ، فقال : هذا الفتى أعقلُ مني »[٣] .

وعنه : « وجـدتُ عامَّـة علم رسول الله ﷺ عند هـذا الحي من

---

(١) رواه يعقوب في تاريخه ، وإسناده صحيح .
(٢) رواه الفسوي في تاريخه ، وإسناده صحيح .
(٣) رواه الذهبي في السير ٣/٣٤٣ ، وابن سعد والفسوي ، وصحَّحه الحاكم ، ووافقه الذهبي ، وقال الهيثمي في المجمع : رواه الطبراني ، ورجاله رجال الصحيح .

الأنصار ، إن كنتُ لآتي الرجل منهم ، فيُقال : هو نائم ؛ فلو شئت أن يُوقظ لي لَأُوقِظَ ، فأدعُهُ حتى يخرج ؛ لأستطيب بذلك قلبَه .

وعند ابن سعد : لو شئتُ أن يُوقظ لي لَأُوقِظَ ، فأجلس على بابه ، تُسفي الريحُ على وجهي التراب ، حتى يستيقظ متى استيقظ ، فأسأله عما أُريدُ ، ثم أنصرف »(١) .

قال الذهبي في السير (٣ / ٣٤٤) :

«قال ابن عباس: إنْ كنتُ لأَسألُ عن الأمر الواحد ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ »(٢) .

قال فيه أبو الطفيل الكناني :

كنا نجيء ابنَ عباسٍ فيُقْبسُنا فقهًا ويُكسبُنا أجرًا ويهدينا

وقال حسَّان في ابن عباس :

إذا ما ابنُ عباسٍ بدا لك وجهُهُ رأيتَ له في كل أقواله فضلا
إذا قال لم يتركْ مقالًا لقائلٍ بمنتظماتٍ لا ترى بينها فصلا
كفى وشفى ما في النفوس فلم يدعْ لذي أَرَب في القول جدًّا ولا هزلا

وقال ابن عباس رضي الله عنه لمّا عمي :

إنْ يأخذِ الله من عينيَّ نورَهما ففي لساني وقلبي منهما نورُ
قلبي ذكيٌّ وعقلي غيرُ ذي دخلٍ وفي فمي صارمٌ كالسيف مأثورُ(٣)

* * *

(١) رواه ابن سعد والبلاذري والذهبي في السير ٣ / ٣٤٤ ، وسندهم حسن .

(٢) سير أعلام النبلاء ٣/٣٤٤ . وقال الذهبي : إسناده صحيح .

(٣) سير أعلام النبلاء ٣ / ٣٥٧ .

○ مَنْ رحل من الصحابة في طلبِ حديثٍ واحدٍ ○

٩ - جابر بن عبد الله الأنصاري ورحلته إلى عبد الله بن أُنيس رضي الله عنه:

قال جابر بن عبد الله : « بلغني عن رجل من أصحاب النبي ﷺ حديث سمعه من رسول الله ﷺ ، فاشتريتُ بعيرًا ، ثم شددتُ رحلي ، فسِرْتُ إليه شهرًا ، حتى قدمتُ الشامَ ، فإذا هو عبد الله بن أُنَيْس ، فقلتُ للبوَّاب : قل له : جابرٌ على الباب ، فقال : ابن عبد الله ؟ قلتُ : نعم ، فخرج عبد الله بن أُنَيْس فاعتنقني ، فقلتُ : حديث بلغني عنك أنك سمعته من رسول الله ﷺ ، فخشيتُ أن أموت أو تموت قبل أن أسمعه ، فقال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : يحشر الله الناس يوم القيامة عُراة غُرْلًا بُهْمًا ، قلنا : ما بُهْمًا ؟ قال : ليس معهم شيء ، فيُناديهم بصوت يسمعُه مَنْ بَعُد كما يسمعُه من قَرُب : أنا الملكُ ، أنا الديَّان ، لا ينبغي لأحد من أهل الجنة يدخل الجنةَ، وأحدٌ من أهل النار يطلبُه بمظلمة، ولا ينبغي لأحد من أهل النار يدخل النار، وأحدٌ من أهل الجنة يطلبُه بمظلمة، حتى اللَّطمة. قال: قلنا: كيف هو، وإنما نأتي الله تعالى عُراةً غُرْلًا بُهْمًا؟! قال: بالحسنات والسيئات»[1].

١٠ - أبو أيوب الأنصاري ورحلتُه في طلب حديثٍ واحدٍ إلى عقبة بن عامر بمصر :

قال عطاء بن أبي رباح : « خرج أبو أيوب إلى عقبة بن عامر وهو

(١) صحيح بمجموع الطرق : أخرجه أحمد في المسند ، والبخاري في الأدب المفرد ، « باب المعانقة » وذكره في صحيحه بصيغة الجزم في كتاب العلم ، « باب الخروج في طلب العلم » ، والحاكم في المستدرك وصحَّحه ، ووافقه الذهبي ، والطبراني في مسند الشاميين ، والخطيب في الرحلة في طلب الحديث .

بمصر يسألُه عن حديث سمعه من رسول الله ﷺ ، فلما قدم أتى منزل مَسْلَمَة بن مُخَلَّد الأنصاري ؛ وهو أمير مصر ، فأخبر به ، فعجل ، فخرج إليه ، فعانقه ، وقال : ما جاء بك ياأبا أيوب ؟ قال : حديثٌ سمعتُه من رسول الله ﷺ ، لم يبق أحدٌ سمعه غيري وغير عقبة ، فابعث مَنْ يدُلُّني على منزله ، قال : فبعث معه منْ يدُلُّه على منزل عقبة ، فأخبر عقبة به ، فعجل ، فخرج إليه ، فعانقه ، وقال : ما جاء بك ياأبا أيوب ؟ فقال : حديثٌ سمعته من رسول الله ﷺ ، لم يبق أحدٌ سمعه غيري وغيرك في ستر المؤمن . قال : نعم ، سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « مَنْ ستر مؤمنًا في الدنيا على خُربة[١] ستره الله يوم القيامة»، فقال له أبو أيوب: صدقت، ثم انصرف أبو أيوب إلى راحلته ، فركبها راجعًا إلى المدينة ، فما أدركته جائزة مسلمة بن مخلَّد إلا بعريش مصر »[٢] .

١١ - سيِّدُ التابعين : سعيد بن المسيب رحمه الله :

قال سعيد بن المسيب : « إن كنتُ لأسيرُ الأيامَ والليالَي في طلب الحديث الواحد »[٣] .

١٢ - التابعي الجليل عروة بن الزبير :

وهو أحد فقهاء المدينة السبعة رحمه الله :

« قال عروة : لقد كان يبلغُني عن الرجل من المهاجرين الحديث ، فآتيه

(١) أي ستر سوءةً أو معصيةً فعلها و لم يفضحه .

(٢) الحديث حسن بمجموع الطرق : رواه أحمد ، والحميدي ، والخطيب البغدادي في الرحلة في طلب الحديث صـ ١١٨- ١٢٠ ، والخطيب في « الأسماء المبهمة في الأنباء المحكمة » .

(٣) المعرفة والتاريخ ٤٦٨/١، ٤٦٩، الرحلة في طلب الحديث للبغدادي صـ ١٢٧، سير أعلام النبلاء ٢٢٢/٤ .

فأجده قد قالَ ، فأجلس على بابه ، فأسأله عنه ؛ يعني إذا خرج »[١] .

١٣ - سعيد بن جبير رحمه الله :

عن المغيرة بن النعمان قال : « سمعتُ سعيد بن جبير يقول : اختلف أهل الكوفة في قوله تعالى : ﴿ **وَمَنْ يقتل مؤمنًا مُتعمدًا فجزاؤه جهنم خالدًا فيها** ... ﴾ الآية[٢]، فرحلتُ فيها إلى ابن عباس ، فسألتُه عنها ، فقال : نزلت هذه الآية : ﴿ **ومن يقتل مؤمنًا مُتعمدًا فجزاؤه جهنم** .. ﴾ الآية ، في آخر ما نزل ، ما نسخها شيء »[٣] .

انظر إلى عُلُوِّ هِمَّة سعيد بن جبير ، يرحل في تفسير آية واحدة من الكوفة إلى المدينة !

وقال سعيد بن جبير : « ربما أتيتُ ابن عباس ، فكتبتُ في صحيفتي حتى أملأها ، وكتبتُ في نعلي حتى أملأها ، وكتبتُ في كفِّي ، وربما أتيته فلم أكتب حديثًا حتى أرجع ، لا يسأله أحدٌ عن شيء »[٤] .

وروى الدارمي في سننه عن سعيد بن جبير رحمه الله قال : « كنتُ أسيرُ مع ابن عباس في طريق مكة ليلًا ، وكان يُحدِّثني بالحديث ، فأكتبه في واسطة الرحل ، حتى أُصبحَ فأكتبه » .

---

(١) تاريخ الإسلام ٤ / ٣٢ .

(٢) النساء : ٩٣ ، وتمامها : ﴿ وغضِبَ الله عليه ولعنه وأعدَّ له عذابًا عظيمًا ﴾ .

(٣) الرحلة في طلب الحديث للخطيب صـ ١٣٩ .
قال الدكتور نور الدين عتر في تعليقه : « وقول ابن عباس : ما نسخها شيء ؛ ذهابٌ منه إلى أن القاتل لا توبة له ، ولكنَّ الجمهور على أنه تُقبل توبة القاتل ؛ لما ورد من النصوص في قبول التوبة النصوح من كل مُذنب » .
والحديث متفق عليه ، واللفظ للبخاري في تفسير سورة النساء .

(٤) الطبقات لابن سعد ٦ / ٢٥٧ ، السير ٤ / ٣٣٥ .

١٤ - أبو عثمان النهدي :

عن أبي عثمان النهدي قال : « بلغني عن أبي هريرة حديثٌ أنه قال : إن الله لَيكتُبُ لعبده المؤمن بالحسنة الواحدة ألفَ ألفِ حسنةٍ ، فحججتُ ذلك العام ، و لم أكن أُريد الحجَّ إلا للقائه في هذا الحديث ، فأتيتُ أبا هريرة ، فقلتُ : ياأبا هريرة ، بلغني عنك حديثٌ ، فحججت العام ، و لم أكن أُريد الحجَّ إلا لألقاك ، قال : فما هو ؟ قلتُ : إن الله لَيكتُبُ لعبده المؤمن بالحسنة الواحدة ألفَ ألفِ حسنةٍ ، فقال أبو هريرة : ليس هكذا قلتُ ، و لم يحفظ الذي حدَّثك . قال أبو عثمان : فظننتُ أن الحديث قد سقط . قال : إنما قلتُ : إن الله ليُعطي عبْدَه المؤمن بالحسنة الواحدة ألفي ألفِ حسنةٍ ، ثم قال : أوَ ليس في كتاب الله تعالى ذلك ؟ قلتُ : كيف ؟ قال : لأنَّ الله يقول : ﴿ **مَنْ ذا الذي يُقرضُ الله قرضًا حسنًا فيُضاعفه له أضعافًا كثيرة**﴾[١]، والكثيرة عند الله أكثر من ألفي ألف وألفي ألف»[٢].

١٥ - الضحّاك بن مزاحم :

كان رحمه الله من أوعية العلم ، وكان من أئمة المفسرين :

قال رحمه الله : « أدركتهم وما يتعلّمون إلا الورع » .

وقال رحمه الله: حقٌّ على كلِّ مَنْ تعلَّم القرآن أن يكون فقيهًا، وتلا قول الله: ﴿**كونوا ربَّانيِّين بما كنتم تُعلِّمون الكتاب**...﴾ الآية [آل عمران: ٧٩] .

---

(١) البقرة : ٢٤٥ .

(٢) رواه أحمد مختصرًا ٧٩٣٢ ومطوَّلًا بمعناه ٥٢١/٢، وفيه « فوالله ، لقد سمعتُ النبي ﷺ يقول : إن الله لَيُضاعفُ الحسنة ألفي ألف حسنة » ، ولكنه ذكر في الموضع الثاني آية : ﴿ وإنْ تكُ حسنةً يُضاعفْها ويُؤتِ من لدنه أجرًا عظيمًا ﴾ [النساء : ٤٠] . وحقق العلّامة أحمد شاكر صحة الإسنادين في تعليقه على المسند . انظر الرحلة للخطيب ١٣٢ - ١٣٤ .

قال الثوري : « كان الضحَّاك يُعلِّم ولا يأخذ أجرًا » .

« كان رحمه الله فقيه مكتبٍ كبيرٍ إلى الغاية ، فيه ثلاثة آلاف صبي ، فكان يركب حمارًا ، ويدور على الصبيان »(١) .

فانظر رحمك الله إلى عُلُوِّ هِمَّتِه في تعليم ثلاثة آلاف صبي القرآن .

١٦ - عكرمة مولى ابن عباس :

قال عبد الرحمن بن حسَّان : سمعتُ عكرمة يقـول : « طلبتُ العلم أربعين سنةً ، وكنتُ أُفتي بالباب ، وابن عباس في الدار » .

وقال عكرمة رحمه الله : « كان ابن عباس يضع في رجلي الكَبل(٢) على تعليم القرآن والسنن »(٣) .

رحمهم الله ؛ قيَّدوهم للعمل فقادوا الناس ، ولما أخذوا برأس الأمر وصبروا ؛ صاروا رؤوسًا .

١٧ - عطاء بن أبي رباح المكي :

سيِّدٌ من سادات التابعين ، هجر النوم والدَّعة والراحة في سبيل العلم ، يصدق فيه قول نصر السمرقندي : « لا ينالُ هذا العلمَ إلا من عطَّل دُكَّانه ، وخرَّب بستانه ، وهجر إخوانه ، ومات أقربُ أهله إليه فلم يشهد جنازته » .

قال ابن جريج : « كان المسجدُ فراشَ عطاء عشرين سنة ! » .

وقال إسماعيل بن أمية : « كان عطاء يُطيلُ الصمت ، فإذا تكلَّم خُيِّلَ إلينا أنه مؤيَّدٌ ، وكان أسود أعور ، أفطس ، أشلَّ ، أعرج ، ثم عمي ! ففي جسمه ستة عيوب ، ولكنه كان ركنًا من أركان العلم والدين والصلاح والقدوة ،

---

(١) سير أعلام النبلاء ٤ / ٥٩٩ .

(٢) الكبل : القيد .

(٣) سير أعلام النبلاء ٥ / ١٤ .

وكان ثقةً فقيهًا ، حجَّ نيِّفًا وسبعين حجةً »[١] .

١٨ - ابن الديلمي عبد الله بن فيروز، ورحلتُه إلى ابن عمرو رضي الله عنهما:

وابن الديلمي من ثقات التابعين .

قال رحمه الله : بلغني حديثٌ عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، فركبتُ إليه إلى الطائف أسأل عنه - وكان ابن الديلمي بفلسطين - قال : فدخلتُ عليه وهو في حديقة له ، فوجدتُه مختصرًا بيد رجل كنا نتحدَّث بالشام أن ذلك الرجل من شَرَبَةِ الخمر . قال : فقلتُ له : ياأبا محمدٍ ، هل سمعت رسول الله ﷺ يقول في شارب الخمر شيئًا ؟ قال : فاختلج[٢] الرجل يده من يد عبد الله بن عمرو ، فقال[٣] : نعم ، سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « من شرب الخمر لم تُقبل له صلاة أربعين صباحًا » .

قلتُ : ما حديث بلغني عنك تقوله : « إن صلاةً في بيت المقدس كألف صلاة ، وإن القلم قد جفَّ ؟ » فقال عبد الله : اللهم إني لا أُحلُّ لهم أن يقولوا إلا ما سمعوا مني ، قالها ثلاثًا . قال : ولكني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « إن سليمان بن داود سأل الله ثلاثًا : سأله مُلكًا لا ينبغي لأحد من بعده فأعطاه ، وسأله حُكمًا يُصادف حُكمَه فأعطاه إياه ، وسأله مَنْ أتى هذا البيت لا يُريد إلا الصلاة فيه أن يغفر له » .

وسمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « إن الله خلق الناس في ظلمةٍ ، فأخذ نورًا من نوره ، فألقى عليهم ، فأصاب مَنْ شاء ، وأخطأ مَنْ شاء ، فقد عرف من يُخطِئه ممن يُصيبه ، فمَنْ أصابه من نوره اهتدى ، ومَنْ أخطأه

---

(١) تاريخ الإسلام للذهبي ٤ / ٢٧٩ ، سير أعلام النبلاء .

(٢) أي سحبها وذهب ، كما في المسند « فلما سمع الفتى ذكْر الخمر اجتذب يده من يده ثم انطلق » .

(٣) القائل هو عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما .

ضلَّ ، فلذلك أقول : إنّ القلمَ قد جفَّ »[١] .

١٩ - الشعبي عامر بن شراحيل التابعي الجليل :

روى الحافظ الرامهرمزي في «المُحدِّث الفاصل بين الراوي والواعي» عن الشعبي « أنه خرج من الكوفة إلى مكة في ثلاثة أحاديث ذُكرت له ، فقال : لعلّي ألقى رجلًا لقي النبي ﷺ ، أو من أصحاب النبي ﷺ » .

قال ابن شبرمة : « سمعتُ الشعبيَّ يقول : ما كتبتُ سوداءَ في بيضاءَ إلى يومي هذا ، ولا حدَّثني رجلٌ بحديث إلا حفظتُه ، ولا أحببتُ أن يُعيده عليَّ ، ولقد نسيتُ من العلم ما لو حفظه أحدٌ لكان به عالمًا » .

وقال : ما أروي شيئًا أقلَّ من الشعر ، ولو شئتُ لأنشدتكم شهرًا لا أُعيد .

قال ابن المديني : قيل للشعبي : من أين لك هذا العلم كله ؟ قال : بنفي الاعتماد[٢]، والسير في البلاد ، وصبْر كصبر الحمار[٣] ، وبكور كبكور

---

(١) إسناده صحيح : أخرجه الإمام أحمد (٦٦٤٤) عن ابن الديلمي ، فلم يُصرِّح برحلته ، لكنه يُشير إليها إشارة ، وأخرجه الحاكم في المستدرك وصحَّحه ، ووافقه الذهبي ، فقال : « على شرطهما ولا علَّة له » وصحَّح إسناده الشيخ أحمد شاكر في تعليقه على المسند . واللفظ هنا للخطيب من « الرحلة في طلب الحديث » صـ ١٣٥ - ١٣٦ .

(٢) أي نفي الاعتماد على الغير .

(٣) كصبر الحمار وقد صُحِّفت إلى صبر الجماد أو الحمام ، والعرب إنما تضرب المثل في الصبر بصبر الحمار ، كما قال الميداني في « مجمع الأمثال » صـ ٣٨٣ : « أصبر من حمار » .

الغراب[١] »[٢] .

وقال صالح بن صالح بن حيٍّ : « جاء رجل إلى الشعبي وأنا عنده ، فقال : ياأبا عمرو ، إن ناسًا عندنا يقولون : إذا أعتق الرجل أَمتَهُ ثم تزوَّجها ؛ فهو كالراكب بدنتَهُ ! قال الشعبي : حدَّثني أبو بردة بن أبي موسى عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال : « ثلاثة يُؤْتَون أجرهم مرتين : الرجل من أهل الكتاب كان مُؤمنًا قبل أن يُبعث النبي ﷺ ؛ فله أجران ، ورجل كانت له جاريةٌ ، فعلَّمها فأَحسن تعلمها ، وأدَّبها فأحسن تأديبها ، ثم اعتقها وتزوَّجها ؛ فله أجران ، وعبدٌ أطاع الله وأدَّى حقَّ سيِّده ؛ فله أجران »[٣] خذها بغير شيء ، فقد كان الرجل يرحل في أدنى منها إلى المدينة »[٤] .

وقال سفيان بن عيينة : « سمعتُ عطاءً يحدِّث عن عبد الله بن عبيد بن عمير : قيل لابن عمر : « ما لنا لا نراك تستلم إلا هذين الركنين ؟ » ، فقال : إن رسول الله ﷺ قال : « إن استلام الركنين يحطُّ الخطايا كما يتحاتُّ ورقُ الشجر »[٥] .

قال سفيان : حدَّثني بهذا الحديث عطاء ، وأنا وهو في الطواف . قال : فكأنه لم يرني أُعجبتُ به ، فقال : أتزهد في هذا ياابن عيينة ؟! حدَّثت

---

(١) قال حمَّاد الرواية : كانت العرب تقول : تعجَّبنا من أربعة أشياء : من الغراب والخنزير والكلب والسِّنَّوْر ؛ فأما الغراب : فسرعة بكوره وسرعة إيابه قبل الليل .

(٢) تذكرة الحفاظ ١ / ٨١، ٨٤ ، سير أعلام النبلاء ٤ / ٣٠٠ .

(٣) رواه البخاري ومسلم والخطيب في الرحلة واللفظ له صـ ١٤٠ - ١٤١ .

(٤) هذا من كلام الشعبي كما صرَّح به الشيخان .

(٥) صحيح الإسناد : أخرجه أحمد وعبد الرزاق والطيالسي وابنُ حبان والحاكم وصحَّحه ، ووافقه الذهبي ، وتفرَّد الخطيب بقوله : « كما يتحاتُّ » ، وهو صحيح .

به الشعبي ، فقال : لو رُحِل في هذا الحديث كذا وكذا ؛ لكان أهلًا له »[١] .

٢٠ ، ٢١ - علقمة بن قيس النخعي ، والأسود بن يزيد النخعي :

« قيل لأحمد بن حنبل : رجل يطلب العلم يلزم رجلًا عنده علمٌ كثير أو يرحل ؟ قال : يرحل ، يكتب عن علماء الأمصار ، فيُشامُّ[٢] الناسَ ويتعلَّم منهم »[٣] .

« وقيل لأحمد بن حنبل : أيرحل الرجلُ في طلب العلم ؟ فقال : بلى والله شديدا ، لقد كان علقمة بن قيس النخعي ، والأسود بن يزيد النخعي - وهما من أهل الكوفة بالعراق - يبلغهما الحديث عن عمر ، فلا يقنعهما ، حتى يخرجا إليه - إلى المدينة المنورة - فيسمعانه منه »[٤] .

فلولا اغتراب المسكِ ما حلَّ مَفْرِقًا ... ولولا اغترابُ الدُّرِّ ما حلّ في التاجِ

ويرحم الله أبا إسحاق الغزي حيث يقول :

أخفاك مُكثك في أرض نشأت بها ... وليس يُعرف قدرُ الدُّرِّ في اللُّجَجِ

٢٢ - مسروق بن الأجدع الهَمداني :

قال فيه الشعبي : « ما رأيت أطْلَبَ للعلم منه » !

وحكى الحافظ ابن عبد البر « أن مسروقًا رحل في حرف[٥]، وأن

---

(١) الرحلة في طلب الحديث صـ ١٤١ - ١٤٢ .

(٢) يشامُّ : قال ابن الأثير في « النهاية » : « يُقال : شاممتُ فلانًا ؛ إذا قاربته وتعرَّفت ما عنده بالاختبار والكشف ، وهي مُفاعلةٌ من الشمِّ ، كأنك تشمُّ ما عنده ويشمُّ ما عندك ؛ لتعملا بمقتضى ذلك » .

(٣) فتح الباري ١/١٥٩ ، الرحلة في طلب الحديث صـ ٨٨ .

(٤) شرح الألفية للعراقي ٢/٢٢٦، وفتح المغيث للسخاوي صـ ٣٢١ .

(٥) أي من أجل كلمة واحدة .

أبا سعيد[١] رحل في حرف »[٢] .

٢٣ - أبو العالية رُفَيْع بن مِهْران :

قال أبو العالية رحمه الله : « كنا نسمع الرواية عن أصحاب رسول الله ﷺ ونحن بالبصرة ، فما نرضى حتى نركب إلى المدينة ، فنسمعها من أفواههم »[٣] .

٢٤ - الحسن البصري :

« رحلتُ إلى كعب بن عجرة من البصرة إلى الكوفة ، فقلتُ : ما كان فداؤك حين أصابك الأذى ؟ قال : شاة »[٤] .

٢٥ - مغيرة بن مِقْسَم الضبِّي :

أبو هشام الكوفي الأعمى ؛ تفقَّه بإبراهيم النخعي وبالشعبي .

قال الفضيل بن غزوان : « كنا نجلس أنا ومغيرة - وعددٌ ناسًا - نتذاكر الفقه ، فربما لم نقم حتى نسمع النداء بصلاة الفجر »[٥] .

٢٦ - القاضي الفقيه التابعي عبد الله بن شُبْرُمة :

عن الفُضيل بن غزوان قال : « كنا نجلس - أنا وعبد الله بن شبرمة والحارث بن يزيد العُكلي والمغيرة بن مقسم الضبي والقعقاع بن يزيد - بالليل نتذاكر الفقه ، فربما لم نقم حتى نسمع النداء لصلاة الفجر . وفي رواية :

---

(١) لعله الحسن البصري .
(٢) جامع بيان العلم وفضله ٩٤/١ .
(٣) الكفاية في علم الرواية صـ ٤٠٣ .
(٤) الرحلة في طلب الحديث صـ ١٤٣ .
(٥) تذكرة الحفاظ للذهبي ١ / ١٤٣ ، « تاريخ الإسلام ٥ / ٣٠٢ » .

فلم يُفرِّق بينهم إلا أذانُ الصبح »[١] .

٢٧ - مكحول الدمشقي الإمام :

قال ابن إسحاق : سمعتُ مكحولًا يقول : « طفتُ الأرضَ في طلب العلم »[٢] .

قال مكحول رحمه الله : « كنتُ عبدًا بمصر لامرأة من بني هُذَيْل ، فأعتقتني ، فما خرجتُ من مصر وبها عَلمٌ ؛ إلا حويتُ عليه فيما أرى ، ثم أتيتُ الحجاز ، فما خرجتُ منها وبها علمٌ ؛ إلا حويتُ عليه فيما أرى ، ثم أتيت العراق ، ، فما خرجتُ منها وبها علمٌ ؛ إلا حويتُ عليه فيما أرى ، ثم أتيتُ الشام فغربلتُها ؛ كلَّ ذلك أسألُ عن النَّفَل[٣]، فلم أجد أحدًا يُخبرني فيه بشيء، حتى أتيتُ شيخًا يُقال له: زياد بن جارية التميمي، فقلتُ له: هل سمعت في النَّفل شيئًا ؟ قال: نعم؛ سمعتُ حبيب بن مسلمة الفهري يقول: شهدتُ النبي ﷺ نفَّل الرُّبعَ في البَدْأة، والثُّلُثَ في الرجعة»[٤].

٢٨ - محمد بن شهاب الزهري :

أول من دوَّن الحديث وكتبه .

قال الليث بن سعد : « ما رأيتُ عالمًا قطُّ أجمع من ابن شهاب ، يُحدِّث في الترغيب ؛ فتقول : لا يُحسن إلا هذا ، وإن حدَّث عن العرب والأنساب ؛ قلتَ : لا يُحسن إلا هذا ، وإنْ حدَّث عن القرآن والسنة ؛

---

(١) سنن الدارمي ١ / ١٢٠ ، باب مذاكرة العلم ، وتهذيب التهذيب ٥ / ٢٥٠ .
(٢) تذكرة الحفاظ ١ / ١٠٨ .
(٣) النَّفَل هو الزيادة على الحق المفروض للجندي ، يجعله له القائد ؛ تشجيعًا على القتال ، أو مُكافأةً على عمل أجراه .
(٤) رواه أبو داود بلفظه في الجهاد وسكت عليه أبو داود والمنذري ، ورواه بلفظه أيضًا الخطيب في « الرحلة في طلب الحديث » صـ ١٩٨ - ١٩٩ .

كان حديثه »[١] .

قال أبو الزناد : كنا نطوف مع الزهري على العلماء ، ومعه الألواح والصُّحُف ، يكتب كلَّ ما سمع .

قال عنه ابن أخيه : « جمع عمِّي القرآن في ثمانين ليلة » . سبحان الله ! يحفظ القرآن كلَّه في ثمانين ليلة !!.

وحدَّث هو عن نفسه ، فقال : « نشأتُ وأنا غلام لا مال لي ، ولا أنا في ديوان ، وكنتُ أتعلَّم نسب قومي من عبد الله بن ثعلبة بن صُعير ، وكان عالمًا بذلك ، وهو ابن أخت قومي وحليفهم ، فأتاه رجل ، فسأله عن مسألة من الطلاق ، فعيَّ بها وأشار له إلى سعيد بن المسيب ، فقلتُ في نفسي : ألا أراني مع هذا الرجل المسنِّ يذكر أن رسول الله ﷺ مسح رأسه ، ولا يدري ما هذا ؟! فانطلقتُ مع السائل إلى سعيد بن المسيب ، وتركتُ ابن ثعلبة ، وجالستُ عروة ، وعبيد الله ، وأبا بكر بن عبد الرحمن ، حتى فَقُهْتُ ، فرحلتُ إلى الشام » .

ويقول رحمه الله: «مسَّت ركبتي ركبة سعيد بن المسيب ثماني سنين».

وقال : كنتُ أخدم عُبيد الله بن عبد الله ، حتى إنْ كنتُ أستقي له الماء المالح، وكان يقول لجاريته: من بالباب؟ فتقول: غلامك الأعمش .

رحمه الله ! من طولِ صبْره وملازمته لعبيد الله وخدمته له ؛ ظنَّته مولى لعبيد الله ، وهو القُرشيُّ الحرُّ الحسيبُ النسيبُ .

وقال أبو الزناد : كنا نكتب الحلال والحرام ، وكان ابن شهاب يكتب كلَّ ما سمع ، فلما احتيج إليه ، علمتُ أنه أعلمُ الناس ، وبصَر عيني به ومعه ألواحٌ وصُحُفٌ ، يكتب فيها الحديث ، وهو يتعلَّم يومئذٍ .

قال الليث بن سعد : تذكر ابن شهاب ليلة بعد العشاء حديثًا وهو

---

(١) سير أعلام النبلاء ٥ / ٣٢٨ .

يتوضَّأ ، فما زال ذاك مجلسه حتى أصبح .

« وقال يعقوب بن عبد الرحمن : إن الزهري كان يبتغي العلم من عروة وغيره ، فيأتي جاريةً له ، وهي نائمة ، فيوقظها ؛ يقول لها : حدَّثني فلان بكذا ، وحدَّثني فلان بكذا ، فتقول : ما لي ولهذا ؟ فيقول : قد علمتُ أنك لا تنتفعي به، ولكن سمعتُ الآن، فأردتُ أن أستذكره»[١].

قال معمر : كنا نرى أنا قد أكثرنا عن الزهري ، حتى قُتل الوليد ، فإذا الدفاتر قد حُمِلت على الدوابِّ من خزائنه ، يقول : منْ علْم الزهري .

وقال الزهري : اختلفتُ من الحجاز إلى الشام خمسًا وأربعين سنةً ، فما استطرفتُ حديثًا واحدًا ، ولا وجدتُ من يُطرفُني حديثًا .

قال الليث: سمعتُه- أي الزهري- يبكي على العلم بلسانه، ويقول: يذهب العلم ، وكثيرٌ ممن كان يعمل به ، فقلت له : لو وضعتَ من علمك عند من ترجو أن يكون خلفًا ، قال : والله ما نشر أحدٌ العلم نشري ، ولا صبر عليه صبري ، ولقد كنا نجلس إلى ابن المسيب ، فما يستطيع أحدٌ منا أن يسأله عن شيء ؛ إلا أن يبتدىء الحديث أو يأتي رجل يسأله عن شيء قد نزل به .

وروى إبراهيم بن سعد عن أبيه ، قال : ما رُؤي أحد جمع بعد رسول الله ﷺ ما جمع ابن شهاب .

سأل جعفر بن ربيعة عراك بن مالك : « مَنْ أفقهُ أهل المدينة ؟ قال : أما أعلمُهم بقضايا رسول الله ﷺ، وقضايا أبي بكر وعمر وعثمان، وأفقهُهم فقهًا ، وأعلمُهم بما مضى من أمر الناس ؛ فسعيد بن المسيب ، وأمّا أغزرُهم حديثًا فعروة ، ولا تشاءُ أن تُفجِّرَ من عبيد الله بن عبد الله بحرًا إلا فجَّرتَه ، وأعلمُهم عندي جميعًا ابن شهاب ، فإنه جمع علمَهم جميعًا إلى علمه » .

(١) سير أعلام النبلاء ٥ / ٣٣٤ .

يرحم الله ابن شهاب القائل : « إنما يُذهبُ العلمَ النسيانُ ، وتركُ المذاكرة » .

فأدِمْ للعلمِ مدارسةً فحياةُ العلم مُدارستُهْ

يرحم الله ابن شهاب الزهري الذي قال له سعيد بن المسيب : « ما مات من ترك مثلك »[1] .

علمُ الحديث أَجَلُّ السُّؤْل والوطرِ فاقطعْ به العيشَ تعرفْ لذةَ العُمرِ
وانقلْ رحالك عن مغناك مُرتحِلًا لكي تفوز بنقلِ العلمِ والأثرِ
ولا تقلْ عاقني شُغْلٌ فليس يرى في الترك للعلم من عُذْرٍ لمُعتذِرِ
وأيُّ شُغل كمثل العلم تطلبُهُ ونقل ما قد رووا عن سيِّد البشر
ألهى عن العلِم أقوامًا تطلُّبهم لَذَّاتِ دنيا غدوا منها على غَرَرِ
وخلَّفوا ما له حظٌّ ومكرمةٌ إلى التي هي دأبُ الهونِ والخطرِ
وأيُّ فخرٍ بدنياه لمن هدمتْ معايبُ الجهلِ منه كل مفتخَرِ
لا تفخرنَّ بدنيا لا بقاء لها وبالعفافِ وكسبِ العلم فافتخرِ
يفنى الرجالُ ويبقى علمُهم لهمُ ذكْرًا يُجدَّدُ في الآصالِ والبُكرِ
ويذهب الموت بالدنيا وصاحبِها وليس يبقى له في الناس من أَثرِ
تظنُّ أنك بالدنيا أخو كِبَرٍ وأنت بالجهلِ قد أصبحتَ ذا صِغَرِ
ليس الكبير عظيمَ القدرِ غير فتى مازال بالعلمِ مشغولًا مدى العُمُرِ
قد زاحمتْ رُكبتاه كلَّ ذي شَرَفٍ في العلم والحلم لا في الفخر والبطرِ
والحَقْ بقوم إذا لاحتْ وجوهُهمُ رأيتَها من سنا التوفيقِ كالقمر
أضحوا من السُّنَّة العلياء في سَنَنٍ سهلٍ وقاموا بحفظِ الدينِ والأثرِ
أجلُّ شيءٍ لديهم قال « أخبرنا » عن الرسول بما قد صحَّ من خبرِ

---

(١) سير أعلام النبلاء ٥ / ٣٣٧ .

هذي المكارمُ لا قِعْبان من لبنٍ ... ولا التمتُّع باللَّـــذاتِ والأشر
لا شيءَ أحسنُ من «قال الرسول» وما ... أجلَّ من سندٍ عن كلِّ مُشتهرِ
ومجلسٌ بين أهلِ العلم جاد بما ... حلا من الدَّرِّ أو حَلَّى من الدُّرَرِ
يومٌ يمرُّ ولم أروِ الحديثَ به ... فلستُ أحسبُ ذاك اليوم من عُمُري
فإنّ في درس أخبارِ الرسولِ لنا ... تمتُّعًا في رياضِ الجنةِ الخُضْرِ
تعلُّلا إذْ عدمنا طِيبَ رؤيته ... مَنْ فاته العينُ هدَّ الشوقَ بالأثرِ
كأنــه بيــن ظهرينــا نشاهــدُهُ ... في مجلس الدرس بالآصالِ والبُكَرِ[١]
صلَّى عليه إلهُ العرشِ ثُمَّ على ... أصحابِهِ ما جرى طلٌّ على زَهَرِ

قال إبراهيم بن أدهم : إن الله تعالى يدفع البلاء عن هذه الأمة برحلة أصحاب الحديث[٢] .

قال يزيد بن هارون : قلتُ لحمَّاد بن زيد : يا أبا إسماعيل ، هل ذكر الله عزَّ وجلَّ أصحاب الحديث في القرآن ؟ فقال : بلى ، ألم تسمع إلى قوله : ﴿ **ليتفقَّهوا في الدين ولِيُنذروا قومهم إذا رجعوا إليهم** ﴾ الآية ؟ فهذا في كل مَنْ رحل في طلب العلم والفقه ، ويرجع به إلى مَنْ وراءه ، يُعلِّمهم إياه .

وعن عكرمة مولى ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ **السائحون** ﴾ قال : هم طلبة الحديث .

وكان عليّ بن معبد إذا رأى أصحاب الحديث؛ يقول: شَعِثةٌ رؤوسهم، دَنِسةٌ ثيابُهم ، مُغبرَّةٌ وجوهُهم ، إن لم يكن مع هذا ثوابٌ ، فهذا والله العقاب[٣] .

---

(١) قواعد التحديث للقاسمي : تحقيق : محمد بهجة البيطار صـ ٤٠٦ - ٤٠٨ - طبعة عيسى الحلبي .
(٢) شرف أصحاب الحديث صـ ٥٩ .
(٣) شرف أصحاب الحديث للخطيب صـ ٦٠ .

٢٩ - أبو قلابة عبد الله بن زيد الجَرْمي :

قال رحمه الله : « أقمتُ في المدينة ثلاثًا ، ما لي بها حاجة إلا قدوم رجل بلغني عنه حديثٌ، فبلغني أنه يقدُمُ، فأقمتُ حتى قدم فحدَّثني»[(١)].

٣٠ - أبو معشر الكوفي :

عن أبان بن أبي عياش قال : قال لي أبو معشر الكوفي : « خرجتُ من الكوفة إليك إلى البصرة في حديث بلغني عنك. قال: فحدَّثتُه به»[(٢)].

والمسافة بين الكوفة والبصرة ٣٥٠ كيلو مترًا .

٣١ - شعبة بن الحجَّاج أبو بسطام :

قال أبو بكر البكراوي : « ما رأيتُ أحدًا أعْبَدَ لله من شعبة » .

وقال حماد بن زيد الحافظ الإمام : « إذا خالفني شعبة تَبعتُه ؛ لأنه كان لا يرضى أن يسمع الحديث عشرين مرة ، وأنا أرضى أن أسمعه مرةٍ » .

وكان رحمه الله عظيم العناية بالبحث عن الحديث وحال رواته ، حتى قال : « مَنْ طلب الحديث أفلس ، بعتُ طستَ أُمِّي بسبعة دنانير » .

« وكانت ثيابُه كلون التراب »[(٣)] ، كما قال أبو قطن تلميذه ؛ لانشغاله بالعلم .

يرحم الله شعبة كم تحمَّل في سبيل الحديث ، وهان عليه في مرضاة ربه كلُّ صعبٍ وشديدٍ .

إذا صح منك الوُدُّ فالكلُّ هيِّنٌ ... وكلُّ الذي فوق الترابِ ترابُ

---

(١) « الرحلة في طلب الحديث » للخطيب صـ ١٤٥ ، والدارمي في سننه « الرحلة في طلب العلم » ، وإسناده صحيح .

(٢) الرحلة في طلب الحديث صـ ١٤٨ .

(٣) تذكرة الحفاظ ١ / ١٩٤ ، سير أعلام النبلاء .

قال الإمام أحمد عن شعبة ومنزلته في الحديث : « هو أُمَّةٌ وحده في هذا الشأن » .

وقال فيه الشافعي : « لولا شعبةُ ما عُرف الحديثُ بالعراق » .

قال أحمد بن حنبل : « أقام شعبة على الحكم بن عُتيْبَة ثمانية عشر شهرًا حتى باع جزوعَ بيتِهِ »[١] .

وانظر إلى هذه القصة العجيبة التي تُريك عُلُوَّ هِمَّة أبي بسطام في طلبه للعلم[٢] .

« عن نصر بن حماد قال : كنا بباب شعبة نتذاكر الحديث ، فقلتُ : ثنا إسرائيل ، عن أبي إسحاق ، عن عبد الله بن عطاء ، عن عقبة بن عامر قال : كنا في عهد رسول ﷺ نتناوبُ رعاية الإبل ، فرحتُ ذات يوم ، ورسول الله ﷺ جالسٌ ، وحوله أصحابه ، فسمعتُه يقول : « من توضَّأ فأحسن الوضوءَ ، ثم دخل المسجد ، فصلَّى ركعتين واستغفر الله ، غفر الله له » . قال : فما ملكتُ نفسي أن قلتُ : بخٍ بخٍ . قال : فجذبني رجل من خلفي ، فالتفتُ ، فإذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فقال : ياابن عامر ، الذي قال قبل أن تجيء أحسنُ ، قلتُ : ما قال فداك أبي وأمي ؟ قال : قال : « مَنْ شهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ؛ فُتحت له ثمانية أبواب من الجنة ، من أيها شاء دخل » . قال : فسمعني شعبة ، فخرج إليَّ ، فلطمني لطمة ، ثم دخل ، ثم خرج ، فقال : ما له يبكي ؟ فقال عبد الله ابن إدريس : لقد أسأت إليه ! فقال : أما تسمعُ ما يُحدِّث عن إسرائيل عن

---

(١) العلل ومعرفة الرجال للإمام أحمد بن حنبل ١ / ٣٦٥ .

(٢) هذه القصة أخرجها الخطيب في الكفاية ٤٠٠ - ٤٠١ ، والرامهرمزي في « المُحدِّث الفاصل » ، والخطيب في « الرحلة ١٤٨-١٥٣ » ، والحاكم في المستدرك ١ / ٩٧ .

أبي إسحاق عن عبد الله بن عطاء عن عقبة بن عامر! وأنا قلتُ لأبي إسحاق: أَسَمِعَ عبد الله بن عطاء من عقبة بن عامر ؟ قال : لا ، وغضب . وكان مِسعَر بن كدام حاضرًا ، فقال لي مسعر : أغْضَبْتَ الشيخ ، فقلتُ : ما له؟ لَيُصَحِّحنَّ لي هذا الحديث أو لأُسقطنَّ حديثَه! فقال مسعر: عبد الله ابن عطاء بمكة . قال شعبة : فرحلت إليه ، لم أرِدِ الحجَّ ، إنما أردتُ الحديث، فلقيتُ عبد الله بن عطاء فسألتُه، فقال: سعد بن إبراهيم حدَّثني، فقال لي مالك بن أنس : سعد بن إبراهيم بالمدينة لم يحجَّ العام ، فدخلتُ المدينة ، فلقيتُ سعد بن إبراهيم فسألتُه ، فقال : الحديث من عندكم ، زياد بن مخراق حدَّثني ، فقلتُ : أي شيء هذا الحديث ! بينا هو كوفيٌّ صار مكيًّا ، صار مدنيًّا ، صار بصريًّا ، فدخلتُ البصرة ، فلقيتُ زياد بن مخراق فسألتُه ، فقال : ليس هذا من بابتك ، قلتُ : بلى ، قال : لا تُريده ؟ قلتُ : أُريدُه ، قال : شهربن حوشب حدَّثني عن أبي ريحانة عن عقبة بن عامر، قال: فلما ذكر لي شهرًا ؛ قلتُ : دمِّر على هذا الحديث ، لو صحَّ لي هذا الحديث ؛ كان أحبَّ إليَّ من أهلي ومن مالي ومن الدنيا كلها » .

فانظر تتبُّع شعبة للحديث من بلد لآخر ، ورحلته من أجل هذا السَّنَد !! ولكن أصل الحديث صحيح والحمد لله ، صحَّ عن عقبة بن عامر من طريق آخر أخرجه مسلم في صحيحه ، باب الذِّكر المُستحَبِّ عَقِبَ الوضوء .

٣٢ - سفيان الثوري :

أمير المؤمنين في الحديث !

انظر كم بلغ به الشغلُ كل الشغل بالعلم أن جاع ... ويرحم الله الشافعي حين يقول : « لا يطلبُ أحدٌ هذا العلمَ بالمُلك وعزِّ النفس فيُفلح ،

ولكن من طلبه بذُلِّ النفس ، وضيق العيش،وخدمة العلماء أفلح . وقال أيضًا : لا يُدرَكُ العلمُ إلا بالصبر على الذُّلِّ . وقال أيضًا : لا يصلحُ طلبُ العلم إلا لمُفلس ، فقيل : ولا الغنيّ المكفيّ ؟ قال : ولا الغنيّ المكفيّ .

وقال إبراهيم الآجري : مَنْ طلب العلمَ بالفاقة ورث الفهم »[١] .

« حدَّث سفيان بن عيينة ، قال : جاع سفيان الثوري جوعًا شديدًا ؛ مكث ثلاثة أيام لا يأكل شيئًا ، فمرَّ بدارٍ فيها عُرسٌ ، فدعتْه نفسُه إلى أن يدخل ، فعصمه الله ، ومضى إلى منزل أخته ، فأتته بقُرص فأكله ، وشرب ماءً ، فتجشَّى ، ثم قال :

سيكفيك عمّا أُغلقَ البابُ دُونَه   وضَنَّ به الأقوامُ مِلْحٌ وجَرْدَقُ[٢]
وتشربُ من ماءٍ فُراتٍ وتَغْتَدي   تُعارضُ أصحابَ الثَّريد المُلَبَّق[٣]
تَجشَّى إذا ما هم تَجشَّوْا كأنما   ظَلِلت بأنواع الخَبيص تَفَتَّقُ»[٤][٥]

قال أبو شهاب الحنَّاط : « بعثتْ أختُ سفيان الثوري معي بجرابٍ إلى سفيان ، وهو بمكة ، فيه كعك وخشكنانج ، فقدمتُ مكة ، فسألتُ عن سفيان ، فقيل لي : إنه ربما يقعُدُ دُبُرَ الكعبة مما يلي باب الحنَّاطين ، قال أبو شهاب : فأتيتُه هناك- وكان لي صديقًا - فوجدتُه مستلقيًا ، فسلمتَ عليه ، فلم يُسائلني تلك المساءلة ، ولمْ يُسَلِّمْ عليَّ كما كنتُ أعرف منه ، فقلتُ له : إن أختك بعثت إليك معي بجرابٍ فيه كعك وخشكنانج ، قال : فعَجلْ به عليَّ، واستوى جالسًا ! فقلتُ: ياأبا عبد الله، أتيتُك وأنا صديقك،

---

(١) المجموع ١ / ٦٤ للنووي ، طبعة المطيعي .
(٢) الجردق : الرغيف من الخبز .
(٣) المُلبَّق : المُليَّن بالدسم . وفي البيت إقواء .
(٤) الخبيص : حلواء يخلط فيها التمر بالسَّمْن. وتَفتَّق : أي تتَّسع خواصرك من كثرة شِبَعِك منه .
(٥) حلية الأولياء ٦ / ٣٧٣ .

فسلَّمتُ عليك ، فلم تردَّ عليَّ ذاك الردَّ ، فلما أخبرتُك أني أتيتُك بجرابِ كعكٍ لا يُساوي شيئًا جلستَ وكلَّمتني ؟! فقال : ياأبا شهاب ، لا تلُمني ، فإن هذه لي ثلاثة أيام لم أذق فيها ذواقًا ! قال أبو شهاب : فعذرتُه »[(١)] .

قلتُ للفقر أين أنت مُقيمٌ   قال لي في عمائم الفقهاءِ
إنَّ بيني وبينهم لإخاءً   وعزيزٌ عليَّ قطعُ الإخاءِ

هذا ، سفيانٌ أعلمُ الناس في عصره !!

قال ابن المبارك : ما أعلم على وجه الأرض أعلم من سفيان .

قال ابن حنبل للمروذي : أتدري مَن الإمام ؟ الإمام سفيان الثوري لا يتقدَّمه أحدٌ في قلبي .

وقال شعيب بن حرب : إني لأحسب أنه يُجاء غدًا بسفيان حجةً من الله على خلقه ، يقول لهم : لم تُدركوا نبيَّكم ، قد رأيتم سفيان .

وقال بشر الحافي : كان الثوري عندنا إمامَ الناس . وعنه قال : سفيان في زمانه كأبي بكر وعمر في زمانهما .

قال يحيى بن سعيد : سفيان أثبتُ من شعبة ، وأعلمُ بالرجال .

وقال شعبة : سفيان أمير المؤمنين في الحديث .

قال الذهبي : « يُقال : إن عدد شيوخه ستمائة شيخ ، وأما الرواة عنه ، فخلْقٌ ذكر أبو الفرج ابن الجوزي أنهم أكثر من عشرين ألفًا ، وهذا مدفوع ممنوع ، فإن بلغوا ألفًا ، فبالجَهْد »[(٢)] .

« قال الأشجعي : سمعتُ من الثوري ثلاثين ألف حديثٍ »[(٣)] .

« عن مهران الرازي قال : كتبت عن سفيان الثوري أصنافه ، فضاع

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٦ / ٣٧٢ .
(٢) سير أعلام النبلاء ، ترجمة سفيان ٧ / ٢٢٩ - ٢٨٠ .
(٣) سير أعلام النبلاء ٧ / ٢٤٧ .

مني كتاب الدِّيات ، فذكرتُ ذلك له ، فقال : إذا وجدتني خاليًا فاذكر لي حتى أُمِلّه عليك ، فحجَّ ، فلما دخل مكة ، طاف بالبيت ، وسعى ، ثم اضطجع فذكرتُه ، فجعل يُملي عليَّ الكتاب ؛ بابًا في إثر باب ، حتى أملاه جميعَه من حفظه »(١) .

« قال عبد الرزاق : ما رأيتُ أحدًا أحْفَظَ لما عنده من الثوري ، قيل له : ما منعك أن ترحل إلى الزُّهري ؟ قال : لم تكن دراهم »(٢) .

٣٣ - الإمام أبو حنيفة :

فقيه الملة وعالم العراق !

قال الذهبي : « عُني بطلب الآثار ، وارتحل في ذلك ، وأما الفقه والتدقيق في الرأي وغوامضه ؛ فإليه المنتهى ، والناس عليه عيالٌ في ذلك »(٣) .

وقال الشافعيُّ : الناس في الفقه عيالٌ على أبي حنيفة .

قال الذهبي : « الإمامة في الفقه ودقائقه مُسلَّمةٌ إلى هذا الإمام ، وهذا أمْر لا شكَّ فيه » .

وليس يصحُّ في الأذهانِ شيءٌ إذا احتاج النهارُ إلى دليل

قال الشافعي : « قيل لمالك : هل رأيتَ أبا حنيفة ؟ قال : نعم ، رأيتُ رجلًا لو كلَّمك في هذه السارية أن يجعلها ذهبًا ؛ لقام بحُجَّتِهِ » .

وقال ابن المبارك : « لولا أن الله أعانني بأبي حنيفة وسفيان ؛ كنتُ كسائر الناس » . وقال أيضًا « أبو حنيفة أفقهُ الناس » .

وقال علي بن عاصم: «لو وُزن علمُ الإمام أبي حنيفة بعلم أهل زمانه؛

(١) السير ٧ / ٢٤٧ .
(٢) السير ٧ / ٢٤٦ .
(٣) سير أعلام النبلاء ٦ / ٣٩٢ .

لرجح عليهم » .

وروي عن الأعمش أنه سئل في مسألة ، فقال : إنما يُحسن هذا النعمانُ بنُ ثابت الخزَّاز ، وأظنُّه بورك له في علمه .

وقال جرير : « قال لي مغيرة : جالسْ أبا حنيفة تفقه ، فإن إبراهيم النخعي لو كان حيًّا لجالسه » .

قال يحيى بن سعيد القطان : « لا نكذب الله ، ما سمعنا أحسن من رأي أبي حنيفة ، وقد أخذنا بأكثر أقواله » .

قال الذهبي في السير ٧ / ٤٠٣ « تُوفي شهيدًا مسقيًّا » .

قال أبو حنيفة رحمه الله: «يُستعان على الفقه بجمع الهمِّ، ويُستعان على حذف العلائق بأخذ اليسير عند الحاجة ولا تزد » .

وقال رحمه الله : « قدمتُ البصرة فظننتُ أني لا أُسأل عن شيء إلا أجبتُ فيه ، فسألوني عن أشياء لم يكن عندي فيها جوابٌ ، فجعلتُ على نفسي ألَّا أُفارق حمادًا - يعني ابن أبي سليمان - حتى يموت ؛ فصحبتُه ثماني عشرة سنة »[١] .

٣٤ - إمام دار الهجرة : مالك بن أنس رحمه الله :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « ليضربنَّ الناسُ أكبادَ الإبل في طلب العلم ، فلا يجدون عالمًا أعلمَ من عالم المدينة »[٢] .

ويُروى عن ابن عيينة قال : كنتُ أقول : هو سعيد بن المسيب ،

---

(١) سير أعلام النبلاء ٦ / ٣٩٨ .

(٢) أخرجه أحمد والترمذي وابن حبان والحاكم والبيهقي ، كلهم من حديث ابن عيينة عن ابن جريج عن أبي الزبير عن جابر ، ورجاله ثقات ، إلا أن ابن جريج وأبا الزبير مُدلِّسان وقد عنعنا ، وَأَعَلَّه أحمد بالوقف ، ومع ذلك حسَّنه الترمذي ، وصحَّحه الحاكم ، ووافقه الذهبي ، وصحَّحه ابن حبان .

حتى قلتُ: كان في زمانه سليمان بن يسار، وسالم بن عبد الله، وغيرهما، ثم أصبحتُ اليوم أقول : إنه مالك ، لم يبق له نظير بالمدينة .

قال القاضي عياض : هذا هو الصحيح عن سفيان .

قال ابن عيينة : مالكٌ عالمُ أهل الحجاز ، وهو حجةُ زمانه .

وقال الشافعي - وصدق وبرَّ - إذا ذُكر العلماء فمالكٌ النجمُ .

وقال الذهبي : « ولم يكن بالمدينة عالمٌ من بعد التابعين يُشبهُ مالكًا في العلم والفقه والجلالة والحفظ ، فقد كان فيها بعد الصحابة مثل سعيد ابن المسيب والفقهاء السبعة ، فلما تفانوا ؛ اشتهر ذكْر مالك بها ، وابن أبي ذئب ، وابن الماجشون ، وسليمان بن بلال ، وفليح بن سليمان ، والدراوردي، وأقرانهم، فكان مالكٌ هو المُقدَّم فيهم على الإطلاق، والذي تُضربُ إليه آباط الإبل من الآفاق » .

وقال الذهبي أيضًا في السير ٧/٢٣٤: «ما علمتُ أحدًا من الحفَّاظ روى عنه عددٌ أكثر من مالك، وبلغوا بالمجاهيل والكذَّابين ألفًا وأربعمائة».

قال مالك : « ما أجبتُ في الفتوى حتى سألت مَنْ هو أعلم مني : هل تراني موضعًا لذلك ؟ سألت ربيعة ، وسألتُ يحيى بن سعيد ؛ فأمراني بذلك » .

قال خلف : « ودخلتُ عليه ، فقال لي : انظر ما ترى تحت مصلَّاي أو حصيري ، فنظرتُ ، فإذا أنا بكتاب ، فقال : اقرأه ، فإذا رؤيا بعثها بعض إخوانه ، يقول : رأيت النبيَّ ﷺ في المنام ، في مسجد قد اجتمع الناس عليه ، فقال لهم : إني قد خبَّأت تحت منبري طيبًا أو علمًا ، وأمرت مالكًا أن يُفرِّقه على الناس ، فانصرف الناس وهم يقولون : إذًا يُنفذ مالكٌ ما أمره به رسول الله ﷺ ، ثم بكى ، فقمتُ عنه »(١) .

(١) سير أعلام النبلاء ٨ / ٦٢ ، الحلية ٦ / ٣١٧ .

روى علي بن المديني عن سفيان قال : رحم الله مالكًا ، ما كان أشدّ انتقاده للرجال .

قال ابن عيينة: كان مالكٌ لا يبلِّغ من الحديث إلا صحيحًا، ولا يُحدِّث إلا عن ثقة، وما أرى المدينة إلا ستخرب بعد موته- يعني من العلم-.

وقال الشافعي : إذا جاء الأثر كان مالكٌ كالنجم ، وهو وسفيان القرينان .

وقال : لولا مالكٌ وابن عيينة ؛ لضاع علمُ الحجاز .

وقال ابن معين : مالك من حُججِ الله على خلقه .

وذكر أحمد بن حنبل مالكًا ، فقدَّمه على الأوزاعي والثوري والليث وحمَّاد والحكم في العلم . وقال : هو إمامٌ في الحديث وفي الفقه .

ومع هذا كان يقول : ينبغي للعالم أن يُوَرِّث جلساءه قول : « لا أدري » ، حتى يكون ذلك أصلًا يفزعون إليه .

قال ابن وهب : لو شئت أن أملأ ألواحي من قول مالك : « لا أدري » ، لفعلتُ .

قال مالك رحمه الله : حدَّثنا ابن شهاب ببضعة وأربعين حديثًا ، ثم قال : أعِدْها عليَّ فأعدتُ عليه منها أربعين حديثًا .

قال مالك رحمه الله في صبر أهل العلم على طلبه : « كان الرجل يختلف إلى الرجل ثلاثين سنةً يتعلَّم منه »[(١)] .

وقال رحمه الله : « لا يبلغ أحدٌ من هذا العلم ما يُريد حتى يضرَّ به الفقر ، ويُؤثره على كل شيء » .

وقال القاضي عياض في «ترتيب المدارك لمعرفة أعلام مذهب مالك»[(٢)] :

---

(١) سير أعلام النبلاء ٨ / ١٠٨ .

(٢) ٢/٦٨ ، باب « ابتداء طلب مالك العلم وصبره عليه » .

« قال ابن القاسم : أفضى بمالك طلبُ العلم إلى أن نقض سقف بيته فباع خشبه ! ثم مالت عليه الدنيا بعد » . ثم قال القاضي عياض[١]: « قال مالك : لا يُنال هذا الأمرُ حتى يُذاق فيه طعمُ الفقر » .

٣٥ - شيخ الإسلام « المقرىء » :

شيخ الحرم أبو عبد الرحمن ، عبد الله بن يزيد الأهوازي .

« قال محمد بن المقرىء : كان ابن المبارك إذا سُئل عن أبي ؛ قال : كان ذهبًا خالصًا »[٢] .

قال رحمه الله : « أنا ما بين التسعين إلى المائة ، وأقرأتُ القرآن بالبصرة ستًّا وثلاثين سنةً ، وها هنا بمكة خمسًا وثلاثين سنةً »[٣] .

فلله دَرُّهُ ! ما كان أعلى هِمّتِهِ في إقراء الناس القرآن سبعين سنةً .

٣٦ - عبد الله بن فرُّوخ القيرواني :

أحد أصحاب الإمام مالك وأبي حنيفة والثوري وغيرهم .

قال رحمه الله : « لما أتيتُ الكوفة ، وأكثرُ أمَلي السماعُ من سليمان ابن مهران- الأعمش- فسألتُ عنه، فقيل لي: غضب على أصحاب الحديث، فحلف أن لا يُسمعهم مُدّةً ، فكنتُ أختلفُ إلى باب داره ؛ لعلي أصل إليه ! فلم أقدر على ذلك ! فجلستُ يومًا على بابه ، وأنا مُتفكِّرٌ في غربتي وما حُرمتُه من السماع منه ! إذ فتحت جارية بابه يومًا وخرجت منه ، فقالت لي : ما بالك على بابنا ؟! فقلت : أنا رجل غريب ، وأعلمتُها بخبري . قالت: وأين بلدكم ؟ قلتُ: إفريقية، فانشرحت إليَّ، وقالت: تعرف القيروان ؟

---

(١) ٢ / ٦٨ .

(٢) تهذيب الكمال ، سير أعلام النبلاء ١٠ / ١٦٨ .

(٣) سير أعلام النبلاء ١٠ / ١٦٧ .

قلتُ : أنا من أهلها ، قالت : تعرفُ دار ابن فرّوخ ؟ قلتُ : أنا هو ، فتأمّلتني ، ثم قالت : عبد الله ؟ قلتُ : نعم ، وإذا هي جارية كانت لنا ؛ بعناها صغيرةً ، فسارعت إلى الأعمش ، وقالت له : إنّ مولاي الذي كنتُ أُخبرك بخبره بالباب ، فأمرها بإدخالي ، فدخلتُ ، وأسكنني قُبالةَ بيته ، فسمعتُ منه وحدَّثني ، وقد حرم سائر الناس إلى أن قضيتُ أَرَبي منه .

وذكر القاضي عياض عنه أنه رحل قديمًا ، فلقي الشيوخ والفقهاء ، وسمع من أبي حنيفة مسائل كثيرة غير مُدوَّنة ، يقال: إنها عشرة آلاف مسألة ، وذكر أنه قال : سقطت جرَّة من أعلى دار أبي حنيفة - وأنا عنده - على رأسي فأُدمِي ! فقال : اختر : الأرش[1] أم ثلاثمائة حديث ؟ قلتُ : الحديث ، فحدَّثني »[2] .

٣٧ - عبد الرحمن بن القاسم العُتقي المصري :

أحد أصحاب مالك والليث ؛ بل هو تلميذ مالك المُبرَّز ، وهذه قصتّه ، وهي والله عجبُ العجاب !

قال القاسم : « كنتُ آتي مالكًا غلَسًا ، فأسأله عن مسألتين ، ثلاثة ، أربعة ، وكنتُ أجد منه في ذلك الوقت انشراح صدرٍ ، فكنتُ آتي كلَّ سَحَرٍ ، فتوسَّدتُ مرة عَتَبَتَهُ ، فغلبتني عيني فنِمتُ ، وخرج مالك إلى المسجد ولم أشعر به ، وركضتني جارية سوداء له برِجلها ، وقالت لي : إنّ مولاك قد خرج ، ليس يغفُل ، كما تغفُل أنت ، اليوم له تسعٌ وأربعون سنةً ، قلّما صلّى الصبح إلا بوضوء العتمة » .

ظنَّت السوداء أنه مولاه من كثرة اختلافه إليه !!

قال ابن القاسم : « وأنختُ بباب مالك سبع عشرة سنة ، ما بعتُ

---

(١) الدِّية .

(٢) ترتيب المدارك للقاضي عياض ٣ / ١١٠ .

فيها ولا اشتريتُ شيئًا ، قال : فبينما أنا عنده ؛ إذ أقبل حاجُّ مصر ، فإذا شابٌّ مُتلثِّمٌ دخل علينا ، فسلَّم على مالك ، فقال : أفيكم ابن القاسم ؟ فأُشيرَ إلي ، فأقبل يُقبِّل عينيَّ ، ووجدتُ منه ريحًا طيِّبةً ، فإذا هي رائحة الولد ، وإذا هو ابني ، وكان ابن القاسم ترك أُمَّه حاملًا به ، وكانت ابنة عمه ، وقد خيَّرها عند سفره ؛ لطول إقامته ، فاختارت البقاء »[1] .

٣٨ - هشام بن عمَّار :

شيخ البخاري وأبي داود ، حافظ دمشق ، ومُقرئها ، ومُحدِّثها .

قال رحمه الله : « باع أبي بيتًا له بعشرين دينارًا ، وجهَّزني للحج ، فلما حضرت إلى المدينة أتيتُ مجلس مالك بن أنس ، ومعي مسائل أريدُ أن أسأله عنها ، فأتيتُه وهو جالس في بيته في هيئة الملوك ، وغلمانٌ قيامٌ ، والناسُ يسألونه وهو يُجيبهم ، فلما انقضى المجلس ؛ قال لي بعض أصحاب الحديث : سَلْ عما معك ، فقلتُ له : ياأبا عبد الله ، ما تقول في كذا وكذا ؟ فقال : حَصَلْنا على الصبيان ! ياغلام ، احمله ! فحملني كما يُحمل الصبيُّ ، وأنا يومئذٍ غلامٌ مُدرِكٌ ، فضربني بدِرَّةٍ مثل دِرَّة المُعلمين سبع عشرة درَّة ، فوقفتُ أبكي ، فقال لي مالك بن أنس : ما يُبكيك ، أوجعتك هذه الدِّرَّة ؟! قلتُ: إنَّ أبي باع منزله، ووجَّه بي، أتشرَّفُ بك وبالسماع منك، فضربتني! فقال: اكتب، فحدَّثني سبعة عشر حديثًا، وسألتُه عما كان معي من المسائل فأجابني»[2] .

وقال الحافظ جزرة : سمعتُ هشام بن عمَّار يقول : دخلتُ على مالك ابن أنس ، فقلتُ له : حدِّثني ، فقال : اقرأ ، فقلتُ : لا ، بل حدِّثني ،

---

(١) ترتيب المدارك ٣ / ٢٥٠ .

(٢) تهذيب الكمال للمزي ٣ / ١١٤٤ .

فقال : اقرأ ، فلما رادَدْتُه ، قال : ياغلام ، تعالَ اذهب بهذا فاضربه خمسة عشر ، قال : فذهب بي ، فضربني خمس عشرة درَّة ، ثم جاء بي إليه ، فقال : قد ضربتُه ، فقلتُ : قد ظلمتني ! ضربتني خمس عشرة درَّة بغير جُرْمٍ ، لا أجعلُك في حِلٍّ ، فقال مالكٌ : فما كفَّارتُهُ ؟ قلتُ : كفَّارتُهُ أنْ تُحَدِّثَنِي بخمسة عشر حديثًا ، قال : فحدثني بخمسة عشر حديثًا ، فقلتُ له : زدْ من الضرب ، وزدْ من الحديث ، فضحك مالكٌ وقال : اذهب »[١] .

٣٩ - محمد بن سحنون القيرواني :

الفقيه المالكي المُحدِّث الإمام .

قال القاضي عياض في « ترتيب المدارك » (٣ / ١١٤) :

« كانت لمحمد بن سحنون سُرِّيَّة[٢] يُقال لها : أُمُّ مُدَام ، فكان عندها يومًا ، وقد شُغل في تأليف كتاب إلى الليل ، فحضر الطعام ، فاستأذنته ليأكل ، فقال لها : أنا مشغول الساعة ، فلما طال عليها ؛ جعلت تُلقِّمه الطعام حتى أتتْ عليه ، وتمادى هو على ما هو فيه ، إلى أنْ أُذِّن لصلاة الصبح ، فقال : شُغِلنا عنك الليلة ياأُمَّ مُدام ، هاتِ ما عندك ، فقالت : قد - والله ياسيدي - ألقمتُه لك ، فقال لها : ما شعرتُ بذلك » .

سَهَري لتنقيحِ العلومِ ألَذُّ لي ... من وَصْلِ غانيةٍ وطيبِ عناقِ
وتمايُلي طربًا لِحَلِّ عويصةٍ ... أشهى وأحلى من مُدامةِ ساقي
وصريرُ أقلامي على أوراقها ... أحلى من الدُّوكَاهِ[٣] والعُشَّاقِ
وألَذُّ مِنَ نقرِ الفتاةِ لدُفِّها ... نقري لأُلقي الرملَ عن أوراقي

---

(١) معرفة القرَّاء الكبار للذهبي ١ / ١٩٦ .
(٢) أي أَمَة .
(٣) نوع من أنواع النغم .

يا مَنْ يُحاولُ بالأماني رتبتي كم بين مُسْتَفِلٍ وآخرَ راقي
أأبيتُ سهرانَ الدُّجى وتَبيتُه نومًا وتبغي بعد ذاك لَحَاقي[١]

لقد شغلهم العلمُ عن كلِّ شيء ! وإن تعجبْ فاعجبْ لهذا الخبر !

٤٠ - قتادة بن دعامة التابعي الجليل :

هذا الذي شغله وأفناه تحصيله للعلم عن نفسه ، فيقول لغلامه : ياغلام ، ناولني نعلي ، قال : نعلُك في رجْلك .

٤١ - القاضي شَرِيك بن عبد الله النخعي :

العلّامة الحافظ الفقيه !

«قال يحيى بن يزيد: مرَّ شريك القاضي بالمُستنير بن عمرو النخعي، فجلس إليه ، فقال له المُستنير : ياأبا عبد الله ، مَنْ أدَّبك ؟ قال : أدبتني نفسي والله تعالى . وُلدت بخراسان ببخارى ، فحملني ابن عمٍّ لنا ، حتى طرحني عند بني عمٍّ لي بنهر صرصر ، فكنتُ أجلس إلى مُعلِّم لهم ، فعَلَقَ بقلبي تعلُّمُ القرآن، فجئتُ إلى شيخهم، فقلتُ: ياعمَّاه، الذي كنت تجري علي هاهنا ، أجْرِهِ عليَّ بالكوفة أعرف بها السُنّة وقومي ، ففعل . قال : فكنتُ بالكوفة أضربُ اللبن وأبيعُه ، وأشتري دفاتر وطروسًا ، فأكتب فيها العلم والحديث ، ثم طلبتُ الفقه ، فبلغتُ ما ترى ، فقال المستنير بن عمرو لولده : سمعتم قول عمِّكم ؟ وقد أكثرتُ عليكم في الأدب ولا أراكم تُفلحون فيه، فليؤدِّبْ كل رجل منكم نفسه،.فمن أحسن فلها، ومن أساء فعليها»[٢].

وانظر رحمك الله كيف آثر العلمَ على المال ، حتى أضرَّ به الفقر ... شغله طلب العلم عن المال ، حتى ما يجد له ثوبًا .

---

(١) نُسبت هذه إلى الزمخشري ، ونُسبت الأبيات الأربعة الأولى إلى التاج السبكي .

(٢) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ٩ / ٢٨٠ .

« قال عمر بن هيَّاج بن سعيد الهمداني : كنتُ من صحابة شريك ، فأتيتُه يومًا باكرًا ، فخرج إليَّ في فروٍ ليس تحته قميصٌ ، عليه كساءٌ ، فقلتُ له : قد أضحيت عن مجلس الحكم ، فقال لي : غسلتُ ثيابي أمس فلم تجفَّ ، فأنا أنتظر جفوفها ، اجلس ، فجلستُ ، فجعلنا نتذاكر باب العبد يتزوَّج بغير إذن مواليه ، فقال : ما عندك فيه ؟ ما تقول فيه ؟! »[1] .

٤٢ - إمام العربية الخليل بن أحمد الفراهيدي :

قال عنه سفيان الثوري : « من أحبَّ أن ينظر إلى رجُل خُلق من الذهب والمسك ، فلينظر إلى الخليل بن أحمد » .

قال عنه الذهبي في السير (٧ / ٤٢٩ - ٤٣٠) :

« الإمام ، صاحب العربية ، ومنشيء علم العروض .

حدَّث عن: أيوب السختياني، وعاصم الأحول، والعوام بن حوشب، وغالب القطّان . وكان رأسًا في لسان العرب ، ديِّنًا ، وَرِعًا قانعًا ، متواضعًا كبيرَ الشأن ، يُقال : إنه دعا الله أن يرزقه علمًا لا يُسبقُ إليه ؛ ففُتح له بالعروض ، وله كتاب « العين في اللغة » ، ومات و لم يُتمِّم كتاب « العين » ولا هذَّبه ، ولكن العلماء يغرفون من بحره .

أخذ عنه سيبويه النحو ، و النضر بن شميل .

وثقَّه ابن حبان . وقيل : كان مُتقشِّفًا مُتعبِّدًا .

قال النضر : أقام الخليل في خُصٍّ له بالبصرة ، لا يقدر على فلسين ، وتلامذته يكسبون بعلمه الأموال .

قال رحمه الله : لا يعرف الرجلُ خطأ مُعلِّمه ، حتى يُجالس غيره .

قال أيوب بن المتوكل : كان الخليل إذا أفاد إنسانًا شيئًا ، لم يُرِه بأنه أفاده ، وإن استفاد من أحدٍ شيئًا ؛ أراه بأنه استفاد منه .

---

(١) أخبار القضاة لوكيع ٣ / ١٦٩ ، تاريخ بغداد ٩ / ٢٨٨ .

قال الذهبي : صار طوائف في زماننا بالعكس » .

قال رحمه الله حاضًّا الطلاب على الطلب والتحصيل للعلم والصبر عليه : « لا يصلُ أحدٌ من النحو إلى ما يحتاج إليه ، إلا بعد معرفة ما لا يحتاج إليه » .

قال الصفدي في « الوافي بالوفيات » (١ / ٦) : « وهكذا كلُّ علم ، لا يبلغ الإنسانُ إتقانَه إلا بعد تحصيل ما لم يفتقر إليه » .

وقال رحمه الله: «أصفى ما يكون ذهنُ الإنسان في وقت السحر».

٤٣ - مُسنِدُ العراق : عليُّ بن عاصم :

من أسنان سفيان بن عيينة .

قال الخطيب : « قد كان علي من ذوي الأموال والاتساع في الدنيا ، ولم يزل يُنفق في طلب العلم ويُفضل على أهله قديمًا وحديثًا .

قال علي رحمه الله : دفع إليَّ أبي مائة ألف درهم ، وقال : اذهب ، فلا أرى لك وجهًا إلا بمائة ألف حديث .

وقال : أعطاني أبي مائة ألف درهم ، فأتيتُه بمائة ألف حديث ، وكنتُ أُردفُ هَشِيمًا خلفي ؛ ليسمع معي الشيء بعد الشيء »[1].

« قال علي بن عاصم : خرجتُ من واسط أنا وهُشيم إلى الكوفة لِلُقيِّ منصور ، فلما خرجت فراسخ لقيني أبو معاوية ، فقلتُ : أين تُريد ؟ قال : أسعى في دَيْنٍ عليَّ ، فقلتُ : ارجع معي ، فإنّ عندي أربعة آلاف ، أُعطيك منها ألفين ، فرجعتُه ، فأعطيتُه ألفين ، ثم خرجتُ ، فدخل هُشيم الكوفة غداة، ودخلتُها بالعشيِّ، فذهب، فسمع من منصور أربعين حديثًا، ودخلتُ أنا الحمّام ، ثم أصبحتُ ، فأتيتُ باب منصور ، فإذا جنازته ، فقعدتُ أبكي ، فقال شيخٌ هناك : يافتى ، ما يُبكيك ؟ قلتُ : قدمتُ لأسمع من

---

(١) تاريخ بغداد للخطيب ١١ / ٤٤٧ - ٤٤٨ .

هذا الشيخ ، فمات . قال : أدُلُّك على مَنْ شهد عُرسَ أُمِّ ذا ؟ قلت : نعم ، قال: اكتب: حدَّثنا عكرمة عن ابن عباس، فجعلت أكتب شهرًا، فقلتُ: مَنْ أنت ؟ قال : أنا حُصين بن عبد الرحمن ، ما كان بيني وبين أن ألقى ابن عباس إلا تسعة دراهم ، وكان عكرمة يسمع منه ، ثم يجيء فيُحدِّثني »[(١)] .

وثَّقه وكيع وأخذ عنه أحمد .

قال البيكندي : « كان يجتمع عند علي بن عاصم أكثر من ثلاثين ألفًا ، وكان يجلس على سطحٍ ، وكان له ثلاثة مُستملين »[(٢)] .

٤٤ - هُشَيم بن بَشير :

مُحدِّث بغداد وحافظُها .

قال الإمام أحمد بن حنبل : « لزمتُ هُشيمًا أربع سنين ، أو خمسًا ، ما سألتُه عن شيء إلا مرتين ، هيبةً له »[(٣)] .

قال هشيم رحمه الله : « كنتُ أكون بأحد المِصْرين ، فيبلغني أن بالمصر الآخر حديثًا، فأرحل إليه، حتى أسمعه وأرجع»[(٤)]. ويعني بالمصرين: الكوفة والبصرة .

٤٥ - شيخ الإسلام عبد الله بن المبارك :

قال الإمام أحمد : لم يكن في زمان ابن المبارك أطْلَبُ للعلم منه .

وقال أبو أسامة : ما رأيتُ أطْلَبَ للعلم في الآفاق من ابن المبارك .

---

(١) تاريخ بغداد ١١/٤٥٣ ، سير أعلام النبلاء ٩ / ٢٥٣ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٩ / ٢٥٧ ، وتاريخ بغداد ١١ / ٤٥٤ .

(٣) سير أعلام النبلاء ٨ / ٢٩٠ .

(٤) « الرحلة في طلب الحديث » صـ ١٥٥ .

قال : هو أمير المؤمنين في الحديث .

قال ابن المبارك : حملتُ عن أربعة آلاف شيخ ، فرويتُ عن ألف منهم .

قال عبد الله بن إدريس : كل حديث لا يعرفه ابن المبارك ، فنحن منه براء .

وقال فضالة النسائي : كنتُ أُجالسهم بالكوفة ، فإذا تشاجروا في حديث ؛ قالوا : مُرُّوا بنا إلى هذا الطبيب حتى نسأله ؛ يعنون ابن المبارك .

وقال علي بن الحسن بن شقيق : قمت لأخرج مع ابن المبارك في ليلة باردة من المسجد ، فذاكرني عند الباب بحديث ، أَوْ ذاكرتُه ، فما زلنا نتذاكر ، حتى جاء المؤذِّن للصبح .

وقيل لابن المبارك : إلى متى تكتب العلم ؟ قال : لعل الكلمةَ التي أنتفع بها لم أكتبها بعد .

وكان ابن المبارك رحمه الله يقول : الحِبر في الثوب خَلوق العلماء .

قال زكريا بن عدي : رأيتُ ابن المبارك في النوم ، فقلتُ : ما فعل الله بك ؟ قال : غفر لي برحلتي في الحديث .

قال أشعث بن شعبة المصيصي : قدم الرشيدُ الرَّقَّة ، فانجفل الناس خلف ابن المبارك ، وتقطَّعت النعال ، وارتفعت الغبرة ، فأشرفت أمُّ ولد لأمير المؤمنين من برج من قصر الخشب ، فقالت : ما هذا ؟ قالوا : عالم من أهل خراسان قدم . قالت : هذا والله المُلْك ، لا مُلْك هارون الذي يجمع الناس بِشُرَط وأعوان .

وكان ابن المبارك رحمه الله يُكثر الجلوس في بيته ، فقيل له : ألا تستوحش ؟ فقال : كيف أستوحشُ وأنا مع النبي ﷺ وأصحابه !

قال الذهبي في السير ٨ / ٣٧٩ : « طلب العلم وهو ابن عشرين سنة ، فأقْدمُ شيخ لقيه هو الربيع بن أنس الخراساني ، تحيَّل ودخل إليه

إلى السجن ، فسمع منه نحوًا من أربعين حديثًا ، ثم ارتحل في سنة إحدى وأربعين ومائة ، وأخذ عن بقايا التابعين ، وأكثر من التِّرحال والتِّطواف ، وإلى أن مات ؛ في طلب العلم ، وفي الغزو ، وفي التجارة ، والإنفاق على الإخوان في الله وتجهيزهم معه إلى الحج » .

هارون بن المغيرة عن إسماعيل بن مسلم عن الحسن قال : « لا تشتر مودَّة ألفِ رجلٍ بعداوة رجلٍ واحد » .

قال هارون : « قدم عليَّ ابنُ المبارك ، فجاء إليَّ وهو على الرحل ، فسألني عن هذا الحديث فحدَّثته ، فقال : ما وضعتُ رَحْلي من مرو إلا لهذا الحديث »[1] .

فرحم الله مَنْ قال فيه الرشيد لما مات : مات اليوم سيِّد العلماء !

٤٦ - إسماعيل بن عيَّاش الحمصي الحافظ العابد :

قال أبو اليمان عامر بن عبد الله الحمصي : « كان إسماعيل جارنا ، منزله إلى جنب منزلي ، فكان يُحيي الليل ، وربما قرأ ، ثم قطع ، ثم رجع ، فسألته يومًا عن ذلك ؟ فقال : وما سؤالُك ؟ قلت : أُريد أن أعرف ، قال : إني أُصلِّي فأقرأ ، فأذكر الحديث في الباب من الأبواب التي أخرجتُها ، فأقطع الصلاة ، فأكتبه ، ثم أرجع إلى صلاتي »[2] .

سبحان الله ! إلى هذا الحدِّ بلغ شغفُهم بالعلم !!

٤٧ - النضر بن شميل : إمام النحو واللغة والشعر والأدب والحديث :

عالمُ أهل مرو ، وأنهض تلامذة الخليل بن أحمد .

« قال داود بن مخراق : سمعتُ النضر بن شميل يقول : لا يجدُ الرجل

(١) « الرحلة في طلب الحديث » صـ ١٥٦ - ١٥٧ .

(٢) تذكرة الحفاظ للذهبي ١ / ٢٥٣ .

لذة العلم ، حتى يجوع وينسى جوعه »[١] .

قال ابن المبارك عن النضر : « هو أحد الأحَدِين » . وهو أول مَنْ أظهر السنةَ بمرو وخراسان .

قال أبو عبيدة : ضاقت المعيشة على النضر بن شميل البصري بالبصرة ، فخرج يُريد خراسان ! فشيَّعه من أهل البصرة نحوٌ من ثلاثة آلاف رجل ، ما فيهم إلا مُحدِّثٌ أو نحويٌّ أو لغوي أو عروضي أو أخباري ، فلما صار بالمِرْبد[٢]- مربد البصرة- جلس وقال: ياأهل البصرة، يعزُّ عليَّ فراقكم! والله لو وجدتُ كل يوم كَيْلَجَة باقليّ[٣] ما فارقتُكم ، وسار حتى وصل إلى خراسان .

قال النضر : كنتُ أدخلُ على المأمون في سمره ، فدخلتُ ذات ليلة وعليَّ ثوبٌ مرقوع ، فقال : يانضر ، ما هذا التقشُّف ، حتى تدخل على أمير المؤمنين في هذه الخلقان ؟ قلتُ : ياأمير المؤمنين ، أنا شيخ ضعيف ، وحرُّ مروٍ شديدٌ ، فأتبرَّد بهذه الخلقان ، قال : لا ، ولكنك رجلٌ مُتقشِّفٌ ، ثم أجرينا الحديث ، فأجرى هو ذكْرَ النساء ، فقال : حدَّثنا هشيم ، عن مجالد، عن الشعبي، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول ﷺ : « إذا تزوَّج الرجل المرأة لدينها وجمالها ؛ كان فيه سِدَادٌ مِنْ عَوَرٍ » ، فأورده بفتح السين (سَدَادٌ من عَوَر) ، فقلتُ : صدق هشيم ، حدَّثنا عوف بن أبي جميلة ، عن الحسن بن علي بن أبي طالب رضوان الله عليه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا تزوَّج الرجل المرأة لدينها وجمالها ؛ كان فيها سِدَادٌ

---

(١) تذكرة الحفاظ للذهبي ١ / ٣١٤ .

(٢) موقف الإبل ومحبسُها ، وبه سُمِّي مربدُ البصرة ، كان سوقًا للإبل ، وكان الشعراء يجتمعون فيه .

(٣) كيل معروفٌ لأهل العراق ، والباقليّ : الفول .

من عَوَرٍ » . قال : وكان المأمون مُتَّكئًا ، فاستوى جالسًا ، وقال : يانضر ، كيف قلتَ : سِدَاد ؟ قلتُ : لأن السَّدَاد هاهنا لحنٌ ، قال : أَوَ تُلحِّنني ؟ قلتُ : إنما لحن هشيمٌ ، وكان لحَّانة ، فتبع أمير المؤمنين لفظه ، قال : فما الفرقُ بينهما ؟ قلتُ : السَّدَاد بالفتح : القصد في الدين والسبيل ، والسِّداد بالكسر : البُلغَة وكل ما سددتَ به شيئًا فهو سِدَاد ، قال : أو تعرف العرب ذلك ؟ قلتُ : نعم ، هذا العَرْجى يقول :

أضاعوني وأيّ فتىً أضاعوا ليوم كريهةٍ وسِدَاد ثغرِ

فقال المأمون : قبَّح الله مَنْ لا أدبَ له ! وأطرق مليًّا ، ثم قال : ما لَك يا نضر ؟ قلتُ : أُريضة بمرو أتصابُّها وأتمزَّزُها[1]، قال: أفلا نُفيدك مالًا معها ؟ قلتُ : إني إلى ذلك لمحتاجٌ ، فأخذ القرطاس ، وأنا لا أدري ما يكتب ، ثم قال لخادمه : تبلغ معه إلى الفضل بن سهل ، فلما قرأ الفضل القرطاس ؛ قال : يانضر ، إن أمير المؤمنين قد أمر لك بخمسين ألف درهم ، فما كان السبب فيه ؟ فأخبرتهُ ، ولم أُكذبْه ، فأمر لي بثلاثين ألف درهم ، فأخذتُ ثمانين ألف درهم بحرف استُفيد مني »[2] .

وهذا يدلُّ على حرص المأمون على العلم ، وتقديره لأهله .

لمّا فتح المأمون مصر قال : قد بقيتْ لي خَلَّة - أي حاجة - قال فرج النوبي : وما هي يا أمير المؤمنين؟ قال : جلوسي في عَسْكر - يعني مكان مُرتفع - ومُسْتَمْل يقول : مَنْ ذكرتَ رضي الله عنك ؟ فأقول : حدَّثنا فلان ، قال : حدَّثنا الحمَّادان : حمَّاد بن سلمة بن دينار ، وحمَّاد ابن زيد بن درهم ، قالا : حدَّثنا ثابت البناني ، عن أنس بن مالك ، قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ عال ابنتين أو ثلاثًا ، حتى يُمتْنَ أو يموت عنهن ؛

---

(١)
(٢) وفيات الأعيان لابن خلكان ٢ / ١٦١ .

كنتُ أنا وهو في الجنة كهاتين - وأشار بالمُسبّحة والوسطى - »[١] .

قال المأمون ليحيى بن أكثم : أُريد أن أحدِّث ، فقلتُ : ومَنْ أولى بهذا من أمير المؤمنين ؟ فقال : ضعوا لي منبرًا ، ثم صعد ، فأوَّل ما حدَّثنا : حدثنا هشيم ، عن أبي الجهم ، عن الزهري ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة رفع الحديث ، قال : « امرؤ القيس صاحب لواء الشعراء إلى النار » ، ثم حدَّث بنحو ثلاثين حديثًا ، ثم نزلَ ، فقال لي : كيف رأيتَ يا يحيى مجلسنا ؟ فقلتُ : أجلُّ مجلس ، يُفقِّه الخاصَّة والعامَّة ، قال : ما رأيتُ لكم حلاوة ، وإنما المجلس لأصحاب الخِلقان[٢] والمحابر[٣] .

« ركب الأمين والمأمون إلى عبد الله بن إدريس وعيسى بن يونس ، فحدَّثهما ابن إدريس بمائة حديث ، فقال المأمون : ياعمّ ، أتأذن لي أن أُعيد من حفظي ؟ فقال : افعل ، فأعادها ، فعجب من حفظه . ثم صار إلى عيسى بن يونس ، فحدَّثهما ؛ فأمر المأمون له بعشرة آلاف درهم ، فأبى أن يقبلها ، وقال : ولا شربةَ ماءٍ على حديث رسول الله ﷺ »[٤] .

٤٨ - الواقدي :

صاحب التصانيف والمغازي ، أحدُ أوعية العلم على ضعفه !

قال الذهبي في السير (٩/٤٥٤- ٤٥٥) : « جمع فأوعى ، وخلط الغثَّ بالسَّمين، والخرزَ بالدُّرِّ الثمين، فاطَّرحوه لذلك، ومع هذا فلا يُستغنى عنه في المغازي ، وأيام الصحابة وأخبارهم » .

وقال الخطيب : « هو ممن طبق ذكْرُه شرق الأرض وغربها ، وسارت

---

(١) شرف أصحاب الحديث (٩٨) ، والمُحدِّث الفاصل (١٨٠) .
(٢) أي الثياب البالية .
(٣) فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي ٢ / ٢٣٥ .
(٤) سير أعلام النبلاء ١٠ / ٢٧٦ ، وتذكرة الحفاظ ١ / ٢٨١ .

بكتبه الركبان في فنون العلم؛ من المغازي والسِّيَر والطبقات والفقه»[١].

قال ابن المبارك : « كنتُ أقدمُ المدينة ، فما يُفيدني ويدلُّني على الشيوخ إلا الواقدي .

وقال يعقوب بن شيبة : لما انتقل الواقدي من جانب الغربيّ ؛ يُقال : إنه حمَّل كُتُبَهُ على عشرين ومائة وقر » .

قال إبراهيم الحربي : « سمعتُ المُسَيَّبي يقول : رأينا الواقدي يومًا جالسًا إلى أسطوانة في مسجد المدينة ، وهو يُدرِّس ، فقلنا : أي شيء تُدرِّس ؟ فقال : جزئي من المغازي . وقلنا يومًا له : هذا الذي تجمع الرجال تقول: حدَّثنا فلان وفلان، وجئت بمتنٍ واحدٍ، لو حدَّثتنا بحديث كل واحد على حِدَةٍ، فقال: يطول، قلنا له: قد رضينا، فغاب عنا جُمعةً، ثم جاءنا بغزوة أُحُدٍ، في عشرين جلدًا، فقلنا: رُدَّنا إلى الأمر الأول »[٢] .

قال محمد بن سعد : « رآني الواقدي مُغتمًّا ، فقال لي : لا تغتمَّ ، فإنَّ الرزق يأتي من حيث لا يحتسب ، أملقتُ مرَّة حتى بعتُ برذوني[٣] ، فاستبطأني يحيى بن خالد ، فاعتذرتُ إليه ، فوقف على حالي ، فأمر لي بخمسمائة دينار »[٤] .

ويهون هذا كله من أجل العلم وتحصيله !!

٤٩ -.زياد بن عبد الله بن الطفيل البكائي :

قال جزرة صالح بن محمد : « ليس كتاب المغازي[٥] عند أحد أصحَّ

---

(١) تاريخ بغداد للخطيب ٣ / ٣ .

(٢) تاريخ بغداد ٣ / ٧ ، سير أعلام النبلاء ٩ / ٤٦٥ .

(٣) نوع من الخيل غير العربية .

(٤) ترتيب المدارك للقاضي عياض (٢١٢ - ٢١٣) .

(٥) لابن إسحاق .

منه عند زياد ، وذلك أن زيادًا باع داره ، وخرج يدور مع ابن إسحاق ، حتى سمع منه الكتاب »(١) .

٥٠ - الحافظ أبو الحسين العُكْلي زيد بن الحُبَاب الخراساني :

قال الذهبي في السير (٩ / ٣٩٣) :

« الحافظ الثقة الربَّاني . جال في طلب العلم من مرو الشاهجان - من أقصى المشرق - إلى مصر ، حتى قيل : إنه دخل إلى الأندلس . حدَّث عنه أحمد بن حنبل ، وقال : صاحب حديث ، كيِّس ، قد رحل إلى مصر وخراسان في الحديث ، ما كان أصبره على الفقر ! كتبتُ عنه بالكوفة وهاهنا(٢) . وقال علي بن حرب : أتينا زيد بن الحباب ، فلم يكن له ثوبٌ يخرج فيه إلينا ، فجعل الباب بيننا وبينه حاجزًا !! وحدَّثنا من ورائه رحمه الله »(٣) .

إذا أبقت الدنيا على المرء دينَهُ فما فاته منها فليس بضائر

عن زيد بن الحباب : ثنا سفيان الثوري ، عن أسامة بن زيد ، عن موسى بن علي اللخمي ، عن أبيه ، عن أبي قيس مولى عمرو ، عن عمرو أن النبي ﷺ قال : « فرقُ ما بين صيامنا وصيام أهل الكتاب أكْلَة السَّحَر »(٤) .

قال زيد بن الحباب : فلما ذهبتُ لأقوم من مجلس سفيان الثوري ؛ قال لي رجل: أنا خلَّفتُ أسامة حيًّا بالمدينة، فركبتُ راحلتي وأتيتُ المدينة،

(١) تهذيب التهذيب ٣ / ٣٧٥ - ٣٧٦ .
(٢) يعني بغداد .
(٣) سير أعلام النبلاء ٩ / ٣٩٣ .
(٤) رواه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي .

فلقيتُ أسامة ، فقلتُ : حديث حدَّثنيه سفيان الثوري عنك ، عن موسى ابن علي ، عن أبيه ، عن قيس مولى عمرو ، عن عمرو ، عن النبي ﷺ قال : « فرقُ ما بين صيامنا وصيام أهل الكتاب أَكْلَةُ السَّحَر » .

قال زيد : فلما ذهبتُ لأقوم من مجلس أسامة ؛ قال رجل : أنا خلَّفتُ موسى بن عليٍّ حيًّا بمصر ، فركبتُ راحلتي وأتيتُ مصر ، فجلستُ ببابه ، فخرج إليّ شيخٌ راكبٌ على فرس ، قال : ألك حاجة ؟ قال : قلتُ : نعم ، حديث حدَّثنيه سفيان الثوري ، عن أسامة بن زيد ، عنك ، عن أبيك ، عن أبي قيس مولى عمرو ، عن عمرو أن النبي ﷺ قال : « فرقُ ما بين صيامنا وصيام أهل الكتاب أَكْلَةُ السَّحَر » ، فقال : نعم ، حدَّثني أبي ، عن أبيْ قيس مولى عمرو ، عن عمرو أن النبي ﷺ قال : « فرقُ ما بين صيامنا وصيام أهل الكتاب أَكْلَةُ السَّحَرِ » .

أيُّ فارس أَنت يازيد !!

ولله دَرُّ مَنْ قال: «فرسان هذا الدين رجال الأسانيد»! وطلبُ الإسناد العالي من الدين.قيل: ما تشتهي؟ قال: «بيتٌ خالٍ وإسنادٌ عالٍ». «ولا يصبر على الخَلِّ إلا دوده»، ولا يصبر على الحديث إلا فرسانه ورجاله!!

٥١ - الشاذكوني سليمان بن داود:

من أفراد الحافظين لكنه واهٍ. قال ابن حنبل لعمرو الناقد: اذهب بنا إلى سليمان نتعلَّم منه نقد الرجال .

قال الشاذكوني: «دخلتُ الكوفة نيِّفًا وعشرين دخلةً أكتب الحديث، فأتيتُ حفص بن غياث فكتبتُ حديثه ، فلما رجعتُ إلى البصرة وصرتُ في بُنانة[١] ؛ لقيني ابن أبي خدُّويه ، فقال : ياسليمان ، من أين جئت ؟

(١)محلّةٌ من محَالِّ البصرة قديمًا ، اختطَّها بنو بنان ، يُنسب إليها التابعي ثابت البناني .

قلتُ : من الكوفة ، قال : حديثُ مَنْ كتبت ؟ قلتُ : حديث حفص بن غياث ، قال : أفكتبتَ علْمَه كُلَّهُ ؟ قلتُ : نعم ، قال : أذْهب عليك مني شيء ؟ قلتُ : لا ، قال : فكتبتَ عنه ، عن جعفر بن محمد ، عن أبيه ، عن أبي سعيد الخدري ، « أنَّ النبي ﷺ ضحَّى بكبش فَحِيل ؛ كان يأكل في سواد ، وينظر في سواد ، ويمشي في سواد »[١] ؟ قلتُ : لا ، قال : فأسخن الله عينيك ، أيش كنتَ تعملُ بالكوفة ؟! قال : فوضعتُ خرجي عند النرسيين ، ورجعتُ إلى الكوفة ، فأتيتُ حفصًا ، فقال : من أين ؟ قلتُ : من البصرة ، قال : لِمَ رجعتَ ؟ قلتُ : إن ابن أبي خَدُّويَه ذاكرني عنك بكذا وكذا » ، قال : فحدثني ورجعت ، ولم يكن لي حاجة بالكوفة غيرها[٢] .

٥٢ - الحافظ صالح بن محمد المُلقَّب بجزرة :

قال صالح : « قدمتُ خراسان بسبب هذا الحديث ؛ حديث الأعمش عن عبد الملك بن عمير والمسيب بن رافع » . عن وراد قال : أملى عَليّ المغيرة بن شعبة كتابًا إلى معاوية:إني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول إذا قضى الصلاة : « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملكُ وله الحمدُ وهو على كل شيء قدير ، اللهم لا مانع لما أعطيتَ ، ولا مُعطيَ لما منعت ، ولا ينفعُ ذا الجدِّ منك الجدُّ »[٣] .

---

(١) فحيل : من الفحولة . ومعنى « يأكل في سواد ويمشي في سواد » أن ما حول فمه أسود وكذا ما حول عينيه وأن قوائمه سوداء .

(٢) « الرحلة في طلب الحديث » صـ ١٦٠- ١٦٢، وحديث أبي سعيد غريب بهذا السند ، وقد أخرجه من غير طريق الشاذكوني الترمذي ، وقال : حديث حسن صحيح غريب ، وابن ماجه .

(٣) متنُ الحديث مُتَّفقٌ عليه. والقصة من كتاب «الرحلة في طلب الحديث» صـ١٦٢- ١٦٣.

٥٣ – شيخ الإسلام أبو نُعيْم الفضل بن دُكين :

قال الذهبي عن منزلته بين الحفاظ : « كان من أئمة هذا الشأن وأثباتهم » .

وقال عنه الإمام أحمد : « أبو نعيم أعلمُ بالشيوخ وأنسابهم وبالرجال ، ووكيع أفقه » .

وقال الإمام أحمد : « أبو نعيم أثبتُ من وكيع » . وقال : « إذا مات أبو نعيم صار كتابُه إمامًا ، إذا اختلف الناس في شيء ؛ فزعوا إليه »[(١)] .

وقال يحيى بن معين : « ما رأيت أحدًا أثبتَ من رجلين ؛ أبي نعيم وعفَّان » .

وقال يعقوب الفسوي : « أجمع أصحابنا أن أبا نعيم كان غايةً في الإتقان » .

وقال أبو حاتم : « لم أرَ من المُحدِّثين مَنْ يحفظ ويأتي بالحديث على لفظ واحد لا يُغيِّره ؛ سوى قبيصة وأبي نعيم في حديث الثوري ، وكان أبو نعيم يحفظ حديث الثوري حفظًا جيِّدًا[(٢)] . قال: وهو ثلاثة آلاف وخمسمائة حديث ، ويحفظ حديث مسعر ، وهو خمسمائة حديث ، وكان لا يُلقَّن » .

قال ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل ٧ / ٦٢ : « وهذا دلالة على تمكُّنه من الحفظ، فإن التلقين هو أن يُحدِّث المُحدِّث، فيغلط أثناء الحديث، أو يتوقَّف ، فيردّه الطلبة فيأخذ بقولهم » .

قال أحمد بن منصور الرمادي : « خرجتُ مع أحمد ويحيى إلى عبد الرزاق خادمًا لهما ، قال : فلما عُدنا إلى الكوفة ؛ قال يحيى بن معين : أُريد أن أختبر أبا نعيم ، فقال أحمد : لا تُرد ، فالرجل ثقة ، قال يحيى : لَا بُدَّ

---

(١) تهذيب الكمال ، سير أعلام النبلاء ١٠ / ١٤٧ .

(٢) أي الذي عنده .

لي ، فأخذ ورقة ، فكتب فيها ثلاثين حديثًا ، وجعل على رأس كل عشرة منها حديثًا ليس من حديثه ، ثم إنهم جاءوا إلى أبي نُعيم ، فخرج ، وجلس على دُكَّان طينٍ ، وأخذ أحمد بن حنبل ، فأجلَسَه عن يمينه ، ويحيى عن يساره ، وجلستُ أسفل الدُّكَّان ، ثم أخرج يحيى الطبق ، فقرأ عليه عشرة أحاديث ، فلما قرأ الحادي عشر ؛ قال أبو نعيم : ليس هذا من حديثي ، اضربْ عليه، ثم قرأ العشر الثاني، وأبو نعيم ساكت، فقرأ الحديث الثاني، فقال أبو نعيم : ليس هذا من حديثي ، فاضرب عليه ، ثم قرأ العشر الثالث ، ثم قرأ الحديث الثالث ، فتغيَّر أبو نعيم ، وانقلبت عيناه ، ثم أقبل على يحيى ، فقال : أمَّا هذا - وذراع أحمد بيده - فأورعُ من أن يعمل مثل هذا ، وأمّا هذا - يُريدني - فأقلُّ من أن يفعل ذاك ، ولكنَّ هذا من فعْلك يافاعل ، وأخرج رجله ، فرفس يحيى ، فرمى به من الدُّكَّان ، وقام فدخل داره ، فقال أحمد بن حنبل ليحيى : ألم أمنعْك وأقلْ لك : إنه ثبتٌ ؟! قال : والله ، لرفستُه لي أحبُّ إليَّ من سَفرتي »[1] .

قال ابن حنبل تلميذه عنه : نُزاحم به سفيان بن عيينة[2] .

بلغ به الحرص على العلم والاهتمام به والشغل به عن السعي على الكسب؛ أنه ما كان يجد الطعام لأهل بيته !

يقول أبو نعيم : « يلومونني على الأخذ ، وفي بيتي ثلاثة عشر نفسًا ، وما في بيتي رغيف »[3] .

قال الذهبي: «لاموه على الأخذ، يعني من الإمام لا من الطلبة»[4].

---

(١) مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي ٧٩ / ٨٠ ، وتاريخ بغداد ١٢/٣٥٤ ، سير أعلام النبلاء ١٠ / ١٤٩ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٠ / ١٥١ .

(٣) تهذيب الكمال .

(٤) سير أعلام النبلاء ١٠ / ١٥٢ .

قال أبو نعيم : عندي عن أمير المؤمنين في الحديث سفيان أربعة آلاف حديث .

قال عثمان بن أبي شيبة مرة : حدَّثنا الأسد ، فقيل:مَنْ ؟ قال : أبو نعيم(١) .

٥٤ - القاضي أبو يوسف : يعقوب بن إبراهيم :

قال يحيى بن معين : « أبو يوسف صاحب حديث ، صاحب سُنَّة » .

وقال أحمد بن حنبل : « كان أبو يوسف مُصنفًا في الحديث » .

وقال أحمد أيضًا: «أوَّلُ ما كتبتُ الحديث اختلفتُ إلى أبي يوسف».

« قال أبو يوسف : كنتُ أطلبُ الحديث والفقه ، وأنا مُقِلٌّ رثُّ الحال ، فجاء أبي يومًا وأنا عند أبي حنيفة ، فانصرفتُ معه ، فقال : يا بُني ، لا تمدنَّ رِجْلك مع أبي حنيفة، فإنَّ أبا حنيفة خُبزُه مشويٌّ، وأنت تحتاج إلى المعاش. فقصَّرتُ عن كثير من الطلب ، وآثرتُ طاعة أبي ، فتفقَّدني أبو حنيفة وسأل عني ، فجعلتُ أتعاهد مجلسه ، فلما كان أول يوم أتيتُه بعد تأخّري عنه ، قال لي : ما شغلك عنا ؟ قلتُ : الشغل بالمعاش وطاعة والدي ، فجلستُ ، فلما انصرف الناسُ ؛ دفع إليَّ صُرَّةً ، وقال : استمتع بهذه ، فنظرتُ فإذا فيها مائة درهم ، فقال لي : الزم الحلْقة ، وإذا نفدت فأعلِمْني ، فلزمتُ الحلقة، فلما مضت مُدَّة يسيرة، دفع إليَّ مائة أخرى، ثم كان يتعاهدني، وما أعلمتُه بخلَّةٍ قطُّ ، ولا أخبرتُه بنفاد شيء ما ، وكان كأنه يُخبَر بنفادها ، حتى استغنيتُ وتموَّلتُ ، فلزمتُ مجلسه ، حتى بلغتُ حاجتي ، وفتح الله لي- ببركته وحُسْن نيَّته- ما فتح من العلم والمال، فأحسن الله عني مكافأته وغفر له »(٢) .

---

(١) تاريخ بغداد ١٢ / ٣٥٤ .

(٢) تاريخ بغداد ١٤ / ٢٤٤ .

قال الذهبي في السير (٨ / ٥٣٦ - ٥٣٧) :

« كان أبو حنيفة يتعاهد أبا يوسف بالدراهم مائة بعد مائة .

وعن أبي يوسف : صحبتُ أبا حنيفة سبع عشرة سنةً .

وعن هلال الرأي قال : كان أبو يوسف يحفظ التفسير ، ويحفظ المغازي ، وأيام العرب ، كان أحد علومه الفقه » .

وانظر إلى هذا الإمام الجليل وعُلُوِّ هِمَّتِهِ في تحصيل العلم :

روى محمد بن قدامة قال: «سمعتُ شجاع بن مخلد قال: سمعتُ أبا يوسف يقول: مات ابن لي، فلم أحضر جهازه ولا دفْنَه، وتركتُه على جيراني وأقربائي؛ مخافة أن يفوتني من أبي حنيفة شيء، لا تذهب حسرتُه عني»[(١)] .

٥٥ - محمد بن الحسن الشيباني :

فقيه العراق ، والتلميذ الثاني لأبي حنيفة .

قال رجل للمزني: قال محمد، فقال له: مَنْ محمد؟ قال ابن الحسن، فقال : مرحبًا بمن يملأ الأذن سمعًا والقلب فهمًا ، ثم قال : ما أنا قلتُه ، الشافعيُّ قاله .

«وقال الشافعي: ما رأيتُ أعلم بكتاب الله من محمد، كأنه عليه نزل.

وقال : ما سمعتُ أحدًا قط كان إذا تكلَّم رأيتُ أن القرآن نزل بلُغَتِه ، غير محمد بن الحسن ، وقد كتبتُ عنه حمْلَ بُخْتِيّ »[(٢)(٣)] .

وفي رواية : « كتبتُ عنه وِقْرَ بُخْتِيّ » .

وقال : « حملتُ عن محمد وِقْرَ بعيرٍ كُتُبًا »[(٤)] .

---

(١) مناقب أبي حنيفة للإمام الموفق المكي ١ / ٤٧٢ .

(٢) البختي : واحد البخت ، وهي الإبل .

(٣) ترجمة الإمام محمد بن الحسن الشيباني للذهبي .

(٤) لسان الميزان ٥ / ١٢١ .

وقال: ما رأيتُ رجلًا أعلمَ بالحلال والحرام والعلل والناسخ والمنسوخ من محمد بن الحسن.

وقال : لو أنصف الناس الفقهاء ؛ لعلموا أنهم لم يروا مثل محمد ابن الحسن ، ما جالستُ فقيهًا قطُّ أفقه منه ، ولا فتق لساني بالفقه مثله ، لقد كان يُحسن من الفقه وأسبابه شيئًا يعجز عنه الأكابر .

« قال إبراهيم الحربي : قلتُ للإمام أحمد : من أين لك هذه المسائل الدقاق ؟ قال : من كُتُبِ محمد بن الحسن »[١] .

وعن محمد بن سلمة : أنه جزَّأ الليل ثلاثة أجزاء : جزء للنوم ، وجزء للصلاة ، وجزء للدرس ، وكان كثير السهر ، فقيل له : لِمَ لا تنام ؟ قال : كيف أنام وقد نامت عيون المسلمين تعويلًا علينا ، وهم يقولون : إذا وقع لنا أمرٌ رفعناه إليه فيكشفه لنا ، فإذا نمنَا ففيه تضييعٌ للدين . اهـ .

لمحمد بن الحسن كتابُ الأصل المعروف بـ « المبسوط » أسلم حكيمٌ من أهل الكتاب بسبب مطالعة «المبسوط» هذا، قائلًا: هذا كتابُ مُحمَّدِكم الأصغر ، فكيف كتاب مُحمَّدِكم الأكبر ؟!

قول الشافعي : « حملتُ عن محمد بن الحسن حمْلَ بختيّ ليس عليه إلا سماعي » ؛ معناه : أنه هو الذي سمعه هو خاصَّة في مجالس خاصَّة ؛ لأن ما سمعه عليه ومعه العراقيون في مجلسه العام؛ يكون عليه سماع وسماع الآخرين. فرحمةُ الله على الشيباني .

« قال الشيباني : أقمتُ عند مالك ثلاث سنين وكسرًا ، وسمعتُ من لفظه سبعمائة حديث »[٢] . ونسخة ورواية الشيباني أجودُ روايات الموطأ « قال محمد بن الحسن : ترك لي أبي ثلاثين ألف درهم ، فأنفقتُ خمسة

---

(١) سير أعلام النبلاء ٩ / ١٣٦ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٩ / ١٣٥ .

عشر ألفًا على النحو والشِّعْر، وخمسة عشر ألفًا على الحديث والفقه»[١].

قال محمد بن سماعة : كان محمد بن الحسن قد انقطع قلبُه من فكره في الفقه، حتى كان الرجل يُسلِّم عليه، فيدعو له محمد، فيزيده الرجل في السلام، فيردُّ عليه ذلكْ الدعاء بعينه، الذي ليس من جواب الزيارة في شيء.

٥٦ - هشام بن عبيد الله الرازي :

الفقيه الحنفي،تفقَّه على يد أبي يوسف ومحمد بن الحسن ، وأخذ عنه أبو حاتم الرازي .

قال هشام الرازي رحمه الله : « لقيتُ ألفًا وسبعمائة شيخ ، وخرج مني في طلب العلم سبعمائة ألف درهم »[٢] .

وهذا الخبر بذاته يكفي ، ولا تعليق !!

٥٧ - الإمام الحافظ عفان بن مسلم :

« قال عنه الإمام أحمد : لزمنا عفَّان عشر سنين ، وكان أثبت من ابن مهدي .

قال أحمد : كان عفَّان يسمع بالغداة ، ويَعرض بالعشيِّ .

قال ابن المديني- وذُكر عنده عفَّان- فقال: كيف أذكر رجلًا يشكُّ في حرف ، فيضرب على خمسة أسطر !!

قال علي : قال عبد الرحمن : أتينا أبا عوانة ، فقال : مَنْ على الباب ؟ فقلنا:عفَّان ، وبهْز ، وحبّان ، فقال : هؤلاء بلاء من البلاء ، قد سمعوا ، يُريدون أن يعرضوا »[٣] .

---

(١) تاريخ بغداد للخطيب ٢ / ١٧٣ .

(٢) تذكرة الحفاظ للذهبي ١ / ٣٨٧ .

(٣) سير أعلام النبلاء ، ترجمة عفَّان ١٠ / ٢٤٢ - ٢٥٠ .

يسمع أول النهار، ويَعرض ما سمعه على الشيخ ثانيةً بالعشيِّ !!

« كان عفَّان رحمه الله على مسائل معاذ بن معاذ القاضي، فجُعل له عشرة آلاف دينار، على أن يقف عن تعديل رجل، فلا يقول: عدل ولا غير عدل، فأبى، وقال: لا أُبطِل حقًّا من الحقوق ».

رحمه الله هذا مع شِدَّة فقْرِه، فقد قال عمرو بن علي: « جاءني عفّان في نصف النهار، فقال لي: عندك شيء نأكله؟ فما وجدتُ في منزلي خبزًا ولا دقيقًا ولا شيئًا نشتري به، فقلتُ: إنَّ عندي سَوِيق شعير؛ فقال لي: أخرجْه، فأخرجتُه، فأكل منه »(١).

٥٨ - أسد بن الفرات: الإمام القاضي الشهيد:

« رحل به والده وعمره عامان مع الجند العربي بقيادة ابن الأشعث، ودخل معه القيروان سنة ١٤٦ هـ، ثم دخل تونس، وانقطع لقراءة القرآن وعلومه، وروى « الموطأ » على ابن زياد، وفي الثامن عشر من عمره رحل للمشرق، وأقام بالمدينة مُدَّة، وأعاد رواية « الموطأ » على مالك، ثم رحل للعراق، ولقي أعلامًا من أصحاب أبي حنيفة؛ منهم الإمام أبو يوسف ومحمد ابن الحسن، وأخذ عنهما علمًا غزيرًا، ثم رحل لمصر، ولقي جماعة من أعيان العلماء؛ منهم الإمام عبد الرحمن بن القاسم، فلزمه مُدَّةً، وهناك ألف « الأسدية »، ثم قفل راجعًا إلى القيروان، وبها انتشر ذكْرُه، وظهر علمُه، وارتفع قدْرُه. قال للناس لما أتوا لوداعه عند غزوه لصقلية: يامعشر الناس، والله ما ولي لي أبٌ ولا جدٌّ ولاية قطُّ، ولا أحدٌ من سلفي رأى هذا قطُّ، وما رأيتُ ما ترون إلا بالأقلام(٢)، فأجهدوا أنفسكم، وأتعبوا أبدانكم في طلب العلم وتدوينه، واصبروا على شِدَّته، فإنكم تنالون به خَيْرَيْ الدنيا

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٠ / ٢٤٣.
(٢) أي بتعلُّم العلم والصبر عليه وخدمته.

والآخرة »[١] .

« لما حضر أسد بن الفرات عند محمد بن الحسن الشيباني قال له : إني غريبٌ ، قليلُ النَّفَقة ، والسماعُ منك نذرٌ ، والطلبة عندك كثيرٌ ، فما حَيلتي ؟ فقال له محمد بن الحسن : اسمع مع العراقيين بالنهار ، وقد جعلتُ لك الليل وحدك ، فتبيتُ عندي وأُسمعك . قال أسد : وكنتُ أبيتُ عنده ، وينزل إليَّ ، ويجعل بين يديه قدحًا فيه الماء ، ثم يأخذ في القراءة ، فإذا طال الليل ونعستُ ، ملأ يده ، ونضح وجهي بالماء فأنتبه ، فكان ذلك دأبه ودأبي ، حتى أتيتُ على ما أُريد من السماع عليه . وكان محمد بن الحسن يتعهَّدُه بالنفقة حين علم أن نفقته نفدت ، وأعطاه مرةً ثمانين دينارًا حين رآه يشرب من ماء السبيل » .

٥٩ - شيخ الإسلام قتيبة بن سعيد ، أبو رجاء :

قال الذهبي في سير أعلام النبلاء (١١ / ١٣) : « ارتحل قتيبة في طلب العلم ، وكتب ما لا يوصف كثرةً وذلك في سنة ثنتين وسبعين ومائة » .

« قال قتيبة : كنتُ في حداثتي أطلب الرأي ، فرأيتُ فيما يرى النائم أن مزادةً دُلِّيت من السماء ، فرأيتُ الناس يتناولونها ، فلا ينالونها ، فجئتُ أنا فتناولتُها، فاطَّلعتُ فيها، فرأيتُ ما بين المشرق والمغرب، فلما أصبحتُ؛ جئتُ إلى مخضَح البزَّار - وكان بصيرًا بعبارة الرؤيا - فقصصتُ عليه رؤياي ، فقال : يا بُنيَّ ، عليك بالأثر ، فإن الرأي لا يبلغ المشرق والمغرب ، إنما يبلغ الأثر . قال : فتركتُ الرأي ، وأقبلتُ على الأثر .

وقال رحمه الله : قال لي أبي : رأيتُ النبي ﷺ في النوم ؛ في يده

(١) شجرة النور الزكيَّة في طبقات المالكية لمحمد مخلوف المالكي صـ ٦٢، ١١٩ من كتاب التَتِمَّة في آخره .

صحيفةٌ، فقلتُ: يارسول الله، ما هذه الصحيفة ؟ قال: فيه أسامي العلماء، قلتُ: ناولْني، أنظر فيه اسم ابني، فنظرتُ، فإذا فيه اسم ابني »[١] .

وانظر رحمك الله إلى عُلُوِّ هِمَّتِهِ في نشر العلم :

« قال قتيبة لأحمد بن سيار المروزي : أقِمْ عندي هذه الشَّتوة ، حتى أُخرِجَ لك مائة ألف حديث ، عن خمسة أناسيّ ، فقلتُ : لعلَّ أحدهم عمر ابن هارون ؟ قال : لا ، كنت كتبتُ عن عمر بن هارون وحده أكثر من ثلاثين ألفًا ، ولكن وكيع بن الجراح ، وعبد الوهاب الثقفي ، وجرير ، ومحمد بن بكر البُرساني ، ونسيتُ الخامس »[٢] .

قال الذهبي : « حدَّث عنه الحميدي ، ومحمد بن الفضل الواعظ ، وبينهما في الموت ثمانية وتسعون عامًا .

وأما الخطيب ، فقال في كتاب « السابق واللاحق » : حدَّث عنه نُعيم ابن حماد ، وأبو العباس السَّرَّاج ، وبين وفاتيهما أربع وثمانون سنة »[٣] .

قال أحمد بن سلمة : عمل أبي طعامًا ودعا إسحاق ، ثم قال : إن ابني هذا قد ألحَّ عليَّ في الخروج إلى قتيبة ، فما ترى ؟ فنظر إليَّ ، وقال : هذا قد أكثر عني، وهو يجلس بالقُرْب مني، وأبو رجاء عنده ما ليس عندنا، فأرى أن تأذن له عسى أن ينتفع .

رحل إليه النسائي سنة ثلاثين ومائتين، فأقام عنده سنة كاملة، وكتب عنه شيئًا كثيرًا .

قال أبو حاتم الرازي عنه : « حضرتُه ببغداد ، وقد جاءه أحمد ، فسأله عن أحاديث ، فحدَّثه بها . وجاء أبو بكر بن أبي شيبة وابن نُمْير

---

(١) سير أعلام النبلاء ١١ / ١٧ - ١٨ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١١ / ١٨ .

(٣) سير أعلام النبلاء ١١ / ١٩ .

بالكوفة إليه ليلة ، وحضرتُ معهما ، فلم يزالا ينتخبان عليه وأنتخبُ معهما إلى الصبح »[(١)] .

٦٠ - ناصر السنة : الشافعي الإمام :

« قال الشافعي : سُمِّيتُ ببغداد : ناصر الحديث .

وقال أحمد: ما أحدٌ مسَّ محبرةً ولا قلمًا، إلا وللشافعي في عُنُقِهِ مِنَّةٌ.

قال أحمد بن حنبل : إن الله يُقيِّض للناس في رأس كل مائة من يُعلِّمهم السنن ، وينفي عن رسول الله ﷺ الكذب ، قال : فنظرنا ، فإذا في رأس المائة : عمر بن عبد العزيز ، وفي رأس المائتين : الشافعي »[(٢)] .

قال الشافعي : ولدتُ باليمن فخافت أُمِّي عليَّ الضيعة ، وقالت : الحقْ بأهلك ، فتكون مثلهم ، فإني أخاف عليك أن تُغلب على نسبك ، فجهَّزتني إلى مكة ، فقدمتُها يومئذٍ وأنا ابن عشر سنين ، فصرتُ إلى نسيب لي ، وجعلتُ اطلبُ العلم ، فيقول لي : لا تشتغلْ بهذا ، وأقبلْ على ما ينفعك ، فجعلتْ لذَّتي في العلم . وفي رواية : ولدتُ بغزة »[(٣)] .

وقال رحمه الله: «لم يكن لي مالٌ، وكنتُ أطلب العلم في الحداثة، وكنتُ أكتب في الأكتاف والعظام، وكنتُ أذهب إلى الديوان أستوهب الظهور فأكتب فيها» ؛ أي ظهور الأوراق المكتوب عليها .

---

(١) الجرح والتعديل ٧ / ١٤٠ ، وسير أعلام النبلاء ١٦/١١ ، والانتخاب : هو أن ينتقي التلميذ من أحاديث شيخه ، ويختار منها .

(٢) تاريخ بغداد ٦٢/٢، ومعرفة السنن والآثار ١٣٨/١، وحلية الأولياء ٩٧/٩، ٩٨، قال رسول الله ﷺ : « إن الله يبعث لهذه الأُمَّة على رأس كل مائة سنة مَنْ يُجدِّد لها أمْر دينها»، ورجاله ثقات. قال الحافظ ابن حجر في «توالي التأسيس» صـ٤٨: وإسناده قوي. انظر رسالتي: «عبق النسرين في ذكر المُجدِّدين».

(٣) سير أعلام النبلاء ١٠ / ١٠ .

قال عمرو بن سوَّاد : قال لي الشافعي : كانت نهمتي في الرمي وطلب العلم ، فنِلتُ من الرمي ، حتى كنتُ أُصيب من عشرةٍ عشرة ، وسكت عن العلم ، فقلتُ : أنت والله في العلم أكبر منك في الرمي .

قال الشافعي : كتبتُ عن محمد بن الحسن الشيناني وقْرَ بعيرٍ .

وقال رحمه الله : قد أنفقتُ على كُتُبِ محمد ستين دينارًا ، ثم تدبرتها ، فوضعتُ إلى جنب كل مسألة حديثًا ردًّا عليه .

قال الشافعي : أخذتُ اللُّبان سنة للحفظ فأعقبني صبُّ الدم سنة .

قال الحميدي : سمعتُ مسلم بن خالد الزنجي يقول للشافعي : أفتِ ياأبا عبد الله ، فقد والله آن لك أن تُفتي ، وهو ابن خمس عشرة سنة .

وكان ابن عيينة إذا جاءه شيء من التفسير والفتيا؛ التفت إلى الشافعي، فيقول : سلوا هذا .

وقال هارون بن سعيد : لو أنّ الشافعي ناظر على أن هذا العمود الحجر خشبٌ ؛ لغلب .

قال الشافعي رحمهِ الله : وددتُ أن الناس تعلَّموا هذا العلم - يعني كتبَه - على أن لا يُنسب إليَّ منه شيءٌ .

وقال : ما ناظرتُ أحدًا إلا على النصيحة .

وقال رحمه الله : لو أردت أن أضع على كل مُخالف كتابًا لفعلتُ ، ولكن ليس الكلام من شأني ، ولا أُحبُّ أن يُنسب إليَّ منه شيءٌ .

قال الذهبي في السير (١٠ / ٣١) : « هذا النَّفَس الزكيُّ متواترٌ عن الشافعي » .

قال ابن عبد الحكم : ما رأيتُ الشافعي يُناظر أحدًا إلا رحمتُه ولو رأيت الشافعيَّ يُناظرك لظننت أنه سبعٌ يأكلك ، وهو الذي عَلَّم الحُجَجَ .

قال الشافعي رحمه الله : لولا أصحاب المحابر لخطبَتِ الزنادقة على المنابر .

وعن أبي ثور الكلبي : كتب عبد الرحمن بن مهدي إلى الشافعي - وهو شابٌّ - أن يضع له كتابًا فيه معاني القرآن ، ويجمع قبول الأخبار ، وحجة الإجماع ، وبيان الناسخ والمنسوخ ، فوضع له كتاب « الرسالة » .

وهو أوَّلُ من كتب في أصول الفقه ، والناس والعلماء عالةٌ عليه في هذا العلم .

قال ابن وارة : قدمتُ من مصر ، فأتيتُ أحمد بن حنبل ، فقال لي : كتبتَ كُتُبَ الشافعي ؟ قلتُ : لا ، قال : فرَّطتَ ، ما عرفنا العموم من الخصوص ، وناسخ الحديث من منسوخه ، حتى جالسنا الشافعي ، قال : فحملني ذلك على الرجوع إلى مصر ، فكتبتُها .

وقال ابن حنبل : صاحبُ حديث لا يشبع من كُتُب الشافعي .

وقال ابن حنبل : الشافعي فليسوف في أربعة أشياء : في اللغة ، واختلاف الناس ، والمعاني ، والفقه .

وقال المبرد: كان الشافعي من أشعرِ الناس، وآدبِ الناس، وأعرفهم بالقراءات .

وقال يونس بن عبد الأعلى قال : كان الشافعي إذا أخذ في التفسير كأنه شهد التنزيل .

قال الشافعي : حفظتُ الموطَّأ قبل أن أحتلم .

قال يونس الصدفي : كان الشافعي إذا أخذ في أيام الناس ؛ قلتُ : هذه صناعته .

وقال مصعب بن عبد الله: ما رأيتُ أحدًا أعلم بأيام الناس من الشافعي.

وقال رحمه الله : ما أردتُ بها - يعني العربية والأخبار - إلا للاستعانة على الفقه .

وكان رحمه الله من أعلم الناس بالأنساب ، لقد اجتمعوا معه ليلة ، فذاكرهم بأنساب النساء إلى الصباح، وقال: أنساب الرجال يعرفها كل أحد.

قال المزني: قدم علينا الشافعي، فأتاه ابن هشام صاحب المغازي، فذاكره أنساب الرجال، فقال له الشافعي: دعْ عنك أنساب الرجال، فإنها لا تذهب عنا وعنك، وحدِّثنا في أنساب النساء، فلما أخذوا فيها بقي[1] ابن هشام.

وقال ثعلب،الإمام في اللغة: الشافعي إمامٌ في اللغة.

قال الربيع بن سليمان: كان الشافعي قد جزَّأ الليل، فثُلثُهُ الأول يكتب، والثاني يُصلِّي، والثالث: ينام.

« قال المزني أو الربيع: كنا يومًا عند الشافعي؛ إذ جاء شيخ عليه ثياب صوف، وفي يده عكازة، فقام الشافعي، وسوَّى عليه ثيابه، وسلَّم الشيخ وجلس، وأخذ الشافعي ينظر إلى الشيخ هيبة له؛ إذ قال الشيخ: أسأل؟ قال: سل، قال: ما الحجة في دين الله؟ قال: كتاب الله، قال: وماذا؟ قال: سنة رسول الله ﷺ، قال: وماذا؟ قال: اتفاق الأمة، قال: من أين قلت: اتفاق الأمة؟ فتدبَّر الشافعي ساعةً، فقال الشيخ: قد أجَّلتُك ثلاثًا، فإن جئتَ بحُجَّةٍ من كتاب الله، وإلا تُبْ إلى الله تعالى، فتغيَّر لون الشافعي، ثم إنه ذهب، فلم يخرج إلى اليوم الثالث بين الظهر والعصر، وقد انتفخ وجهه ويداه ورجلاه وهو مِسقام، فجلس، فلم يكن بأسرع من أن جاءه الشيخ، فسلَّم، وجلس، فقال: حاجتي؟، فقال الشافعي: نعم، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، قال الله تعالى: ﴿ **ومَنْ يُشاقق الرسول من بعد ما تبيَّن له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نولِّه ما تولّى** ﴾ الآية [النساء: ١١٥]، قال: فلا يُصليه على خلاف المؤمنين إلا وهو فرض، فقال: صدقتَ، وقام فذهب، فقال الشافعي: قرأتُ القرآن

---

(١) أي انقطع.

في كل يوم وليلة ثلاث مرات حتى وقفت عليه »[١] .

قال ابن ماجه القزويني : جاء يحيى بن معين إلى أحمد بن حنبل ، فبينا هو عنده ؛ إذ مرَّ الشافعي على بغلته ، فوثب أحمد يُسلِّم عليه ، وتبعه فأبطأ ، ويحيى جالس ، فلما جاء ؛ قال يحيى : ياأبا عبد الله ، كم هذا ؟ فقال : دع عنك هذا ، إن أردتَ الفقه ؛ فالزم ذَنَبَ البغلةِ !

قال الشافعي رحمه الله في عزِّ العلم وقيمته عند العلماء :

أأنثر دُرًّا بين سارحةِ النَّعَم ... وأنظِمُ منثورًا لراعية الغنمْ
فإنْ فرَّج الله اللطيفُ بلُطْفِهِ ... وصادفتُ أهلًا للعلومِ وللحِكَمْ
بثثتُ مُفيدًا واستفدتُ ودادَهم ... وإلا فمخزونٌ لديَّ ومُكتَتَمْ
ومَنْ منح الجُهَّال علمًا أضاعه ... ومَنْ منع المستوجبين فقد ظلمْ
وكاتمُ علمِ الدين عمَّن يُريدُهُ ... يبوءُ بإثم زادَ وإثمٍ إذا كتمْ

قال الذهبي في السير (١٠/٩٩): «لا نلام والله على حُبِّ هذا الإمام».

وإنْ تعجبْ فاعجب ياأخي لحرص العلماء على الاستفادة من علم الشافعي :

« قال أحمد بن سلمة النيسابوري : تزوَّج إسحاق بن راهويه بامرأة رجل كان عنده كُتُبُ الشافعي ، مات ، لم يتزوَّج بها إلا للكتب ، قال : فوضع « جامع الكبير » على كتاب الشافعي ، ووضع « جامع الصغير » على « جامع سفيان » ، فقدم أبو إسماعيل الترمذي نيسابور ، وكان عنده كتبُ الشافعي عن البويطي ، فقال له إسحاق : لا تحدِّثْ بكُتب الشافعي مادمتَ هنا ، فأجابه »[٢] .

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٠/٨٣- ٨٤ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٠/٧٠ ، مناقب الشافعي ١/٢٦٦، ٢٦٧، وحلية الأولياء ٩/١٠٢، وتاريخ ابن عساكر ١٥/٤/٢ .

« وقال إسحاق بن راهويه : ما كنتُ أعلمُ أنَّ الشافعي في هذا المحل ، ولو علمتُ لم أفارقْه » .

قال الشافعي رحمه الله :

ما هِمَّتي إلا مطالبةُ العُلا خَلِقَ الزمانُ وهِمَّتي لم تَخلَق
الجدُّ يُدني كلَّ أمرٍ شاسعٍ والجَدُّ يفتح كلَّ بابٍ مُغْلَقِ[1]

وقال رحمه الله :

هِمَّتي هِمَّةُ الملوكِ ونفسي نفسُ حُرٍّ ترى المذلة كُفرا

وقال :

وما أنا بالغيرانِ من دون أهلِهِ إذا أنا لم أضحى غيورًا على علمي
طبيبُ فؤادي مذ ثَلاثين حَجَّةً وصيقلُ ذهني والمُفرِّجُ عن همِّي

« قال المزني : قيل لمحمد بن إدريس الشافعي : كيف شهوتُك للعلم ؟ قال : أسمع بالحرف مما لم أسمعه ، فتودُّ أعضائي أنَّ لها أسمْاعًا تتنعَّم به مثل ما تنعَّمت الأُذنان . قيل : وكيف حرصُك عليه ؟ قال : حرصُ الجَموع المنوع على بلوغ لذَّاته في المال . وقال : كيف طلبُك له ؟ قال : طلبُ المرأة المُضلَّة ولَدَها وليس لها غيره »[2].

هذا والله يُكتب بالنور !!

« وقال الشافعي رحمه الله : ليس بعد أداء الفرائض شيء أفضل من طلب العلم . قيل له : ولا الجهاد في سبيل الله ؟ قال : ولا الجهاد في سبيل الله .

وقال : لو أنَّ أهلِ كُورَة اجتمعوا على ترك طلب العلم ؛ لرأيت للحاكم أن يجبرهم على طلب العلم .

وقال الشافعي : سمعتُ « ابن عيينة » يقول : لم يُعطَ أحدٌ في الدنيا شيئًا

---

(١) مناقب الشافعي للبيهقي . تحقيق : السيد أحمد صقر صـ ٩٢ . مكتبة دار التراث .

(٢) مناقب الشافعي للبيهقي صـ ١٤٣ - ١٤٤ .

أفضل من النبوَّة ، ولم يُعطَ بعد النبوة شيئًا أفضل من طلب العلم والفقه .

وقال الشافعي : بقيتُ ستَّ عشرة سنة ، ما كان طعامي إلا رَخْفًا وتمرًا ، آكل منه بقدر ما يقوم به جسدي ، فقيل له : ما الذي أردتَ به ياأبا عبد الله ؟ قال : أردتُ الحفظ للعلم والفقه ، تركتُه لله ، فرزقني بعد ذلك .

وقال رحمه الله : ما أفلح في العلم إلا مَنْ طلبه بالقِلَّة ، ولقد كنتُ أطلب ثمن القرطاس فيعزُّ عليَّ .

وقال : لا يصلح طلب العلم إلا لمُفلسٍ قيل : ولا لغنيٍّ مكفيٍّ ؟ قال : ولا لغنيٍّ مكفيٍّ .

وقال : لا يُفلح الرجل في هذا الشأن حتى يكون له قميصٌ ولا يكون له سراويل ، ويكون له سراويل ولا يكون له قميصٌ .

وقال : يحتاج طالب العِلم إلى ثلاث خصال : أوَّلُها : طول العمر ، والثاني : سعة ذات اليد ، والثالث : الذكاء .

قال البيهقي : وهذا لا يُخالف ما مضى ، وإنما أراد بما مضى حكايةً عن غالب أحوال الناس في زهادة أهل الثروة في طلب العلم وقِلَّة صبرهم عليه ، وأراد بهذا أن يكون له سِعةٌ في المعيشة ، لا يشغله طلبُ القوت عن التعلُّم ، والله أعلم .

وقال الشافعي : مَنْ تعلَّم علمًا فليُدِّقق فيه ؛ لئلا يضيع دقيق العلم !

قال الربيع بن سليمان : قال لي الشافعي : لو أستطيع أن أطعمك العلم لأطْعَمْتُكَهُ .

وقال الشافعي : أزينُ شيء بالعلماء الفقرُ مع القناعة والرضا بهما .

وقال : فقرُ العلماءِ فقرُ اختيارٍ ، وفقرُ الجُهَّال فقرُ اضطرار .

وقال : ياأبا موسى : لقد أفلستُ ثلاث مرات ، ولقد رأيتُني آكل السَّمك بالتمر ، لا أجد غيرهما .

وقال رحمه الله : لا يصلح في هذا الشأن إلا من أحرق قلبَه البُنُّ .

قال البيهقي : والبنُّ فيما بلغني : كامخُ يُصنع بالشامات ومصر من عَكَرِ المرِّي ، يتأدَّم به الغرباء .

وقال : إن لم يكن الفقهاء أولياءَ الله في الآخرة ؛ فما لله وليٌّ .

وقال : إن لم يكن الفقهاء العاملون أولياء لله عز وجلّ ؛ فما لله ولي .

وقال : العلم مروءة مَنْ لا مروءة له .

وقال رحمه الله : كفى بالعلم فضيلةً أنه يدَّعيه مَنْ ليس فيه ؛ ويفرح إذا نسب إليه ، وكفى بالجهل شرًّا أن يتبرأ منه مَنْ هو فيه ، ويغضب إذا نُسب إليه »[1] .

٦١ - قبيصة بن عقبة أبو عامر السُّوائي الحافظ العابد :

« قال عنه الإمام أحمد : كان رجلًا صالحًا ثقةً ، وأي شيء لم يكن عنده ؟ يعني أنه كثير الحديث .

كان هنَّاد إذا ذكر قبيصة ؛ قال : الرجل الصالح ، وتدمع عيناه ، وكان هنَّاد كثير البكاء .

قال قبيصة : جالستُ الثوريَّ وأنا ابن ست عشرة سنةً،ثلاثَ سنين .

قال حفص بن عمر : ما رأيتُ مثل قبيصة ، ما رأيتُه مُتبسِّمًا قطُّ ، من عباد الله الصالحين .

قال الذهبي : كذا كان والله أهل الحديث ؛ العلم والعبادة ! واليوم فلا علم ولا عبادة ، بل تخبيط ولحن ، وتصحيف كثير ، حفظ يسير ، وإذا لم يرتكب العظائم ، ولا يخلُّ بالفرائض ، فلله دَرُّه !!

قال جعفر بن حمدويه : كنّا على باب قبيصة ، ومعنا دُلَف ابن الأمير

(١) مناقب الشافعي للبيهقي ١٣٨ - ١٥٦ .

أبي دُلَف ، ومعه الخدم يكتب الحديث ، فصار إلى باب قبيصة ، فدَّق عليه، فأبطأ قبيصة، فعاوده الخدم، وقيل له: ابنُ مَلكِ الجبل على الباب، وأنت لا تخرج إليه ! فخرج وفي طرف إزاره كِسَرٌ من الخبز ، فقال : رَجُلٌ قد رضي من الدنيا بهذا؛ ما يصنع بابن ملك الجبل ؟ والله لا أُحَدِّثه ، فلم يُحدِّثه »[(١)] .

٦٢ - يحيى بن معين أمير المؤمنينَ في الحديث :

الإمام الحافظ الجهبذ ، شيخ المحدِّثين ، أبو زكريا يحيى بن معين .

كان معينٌ على خراج الريِّ ، فخلَّف ليحيى ابنه ألفَ ألفَ درهم ، فأنفقه كل على الحديث ، حتى لم يبق له نعلٌ يلبسه .

قال أحمد بن حنبل : السماع مع يحيى بن معين شفاءٌ لما في الصدور .

وقال ابن المديني : انتهى العلم إلى يحيى بن آدم ، وبعده إلى يحيى بن معين رحمه الله .

وقلَّما سمَّى الإمام أحمد يحيى بن معين باسمه ، بل يُكنِّيه .

وجاء رجل إلى الإمام أحمد ، وقال : ياأبا عبد الله ، انظر في هذه الأحاديث ، فإن فيها خطأ ، قال : عليك بأبي زكريا ، فإنه يعرف الخطأ .

وقال أحمد رحمه الله : ها هنا رجل خلقه الله لهذا الشأن ، يُظهر كذبَ الكذَّابين ؛ يعني ابن معين .

وقال أحمد : كلُّ حديث لا يعرفه يحيى بن معين ؛ فليس بحديث .

قال ابن معين : لما قدم عبد الوهاب بن عطاء ؛ أتيته فكتبت عنه ، فبينا أنا عنده ، ؛ إذ أتاه كتاب من أهله ، فقرأه وأجابهم ، فرأيتُه ، وقد كتب على ظهره : قدمتُ بغداد ، وقَبِلني يحيى بن معين ، والحمد لله رب العالمين .

قال علي بن المديني : ما أعلم أحدًا كتب ما كتب يحيى بن معين .

---

(١) تاريخ بغداد ١٢ / ٤٧٦ ، وسير أعلام النبلاء ١٠ / ١٣٤ .

وقال علي أيضًا : لا نعلم أحدًا من لدُن آدم كتب من الحديث ما كتب يحيى .

قال أحمد بن عُقبة: سألتُ يحيى بن معين: كم كتبتَ من الحديث ؟ قال : كتبتُ بيدي هذه ستمائة ألف حديث . قال الذهبي : يعني بالمُكرَّر .

وخلَّف يحيى من الكتب مائة قِمَطرٍ ، وأربعة عشر قِمَطرًا ، وأربعة حِباب[1] شرابية مملوءة كُتُبًا .

قال أبو حاتم الرازي : إذا رأيتَ البغدادي يُحبُّ أحمد بن حنبل ؛ فاعلم أنه صاحبُ سُنَّة ، وإذا رأيتَه يُبغض يحيى بن معين ؛ فاعلم أنه كذّاب .

قال يحيى بن معين رحمه الله: كتبنا عن الكذَّابين، وسجَّرنا به التنُّورَ، وأخرجنا به خبزًا نضيجًا .

قال يحيْى الأحول : تلقينا يحيى بن معين مقدمه من مكة ، فسألناه عن الحسين بن حبان ؛ فقال : أُحدِّثكم أنه لما كان بآخر رمق ؛ قال لي : ياأبا زكريا ، أترى ما مكتوب على الخيمة ؟ قلت : ما أرى شيئًا ، قال : بلى ، أرى مكتوبًا : يحيى بن معين يقضي أو يفصل بين الظالمين ، قال : ثم خرجت نفسُهُ .

قال يحيى بن معين : لو لم نكتب الحديث خمسين مرَّةً ما عرفناه .

وقال رحمه الله : كتبتُ بيدي ألفَ ألفِ حديث .

قال الذهبي : يعني بالمُكرَّر ، ألا تراه يقول : لو لم نكتب الحديث خمسين مرةً ما عرفناه .

وقال رحمه الله : إني لأُحدث بالحديث فأسهر له ؛ مخافة أن أكون قد أخطأتُ فيه .

---

(١) جمع حُبّ ، وهي الجرَّة أو الضخمة منها .

وقال : أشتهي أن أقع على شيخٍ ثقة ، عنده بيتٌ مُلئ بكُتُبٍ ، أكتب عنه وحدي .

وقال مجاهد بن موسى : كان يحيى بن معين يكتب الحديث نيِّفًا وخمسين مرةً .

قال يحيى بن معين : حضرتُ نعيم بن حماد بمصر ، فجعل يقرأ كتابًا صنَّفه ، فقال : حدَّثنا ابن المبارك ، عن ابن عون ، وذكر أحاديث ، فقلتُ : ليس ذا عن ابن المبارك ، فغضب ، وقال : تردُّ عليَّ ؟ قلتُ : أي والله ، أُريد زَيْنَك ، فأبى أن يرجع ، فلما رأيتُه لا يرجع ، قلتُ : لا والله ، ما سمعتَ هذه من ابن المبارك، ولا سمعها هو من ابن عون قطُّ، فغضب، وغضب مَنْ كان عنده ، وقام فدخل ، فأخرج صحائف ، فجعل يقول ، وهي بيده : أين الذين يزعمون أن يحيى بن معين ليس بأمير المؤمنين في الحديث ؟ نعم ، ياأبا زكريا ، غَلطت ، وإنما روى هذه الأحاديث غير ابن المبارك ، عن ابن عون[(١)] .

وانظر رحمك الله إلى غيرته على العلم ! ذكروا عنده حديث « مَنْ عشق ، وعفَّ ، وكتم وصبر ، غفر الله له وأدخله الجنة » ، فقال : « والله لو كان عندي فرسٌ ورمحٌ لغزوتُ سويدًا في هذا الحديث » . وسويد بن سعيد : ساقط كذَّاب متروك الحديث .

مات رحمه الله بالمدينة ، فأخرجوا له الأعواد التي غُسِّل عليها رسول الله ﷺ ، وحمل على سرير النبي ﷺ ، ورجُلٌ يُنادي بين يديه : هذا الذي كان ينفي الكذب عن حديث رسول الله ﷺ .

قال حُبَيْش بن مبشر الفقيه ، وهو ثقة : رأيتُ يحيى بن معين في النوم ، فقلتُ : ما فعل الله بك ؟ قال : أدخلني عليه في داره ، وزوَّجني

---

(١) سير أعلام النبلاء ١١ / ٨٩ - ٩٠ .

ثلاثمائة حوراء - [ومهَّد لي بين البابين] - ثم قال للملائكة : انظروا إلى عبدي كيف تَطرَّى وحَسُن .

٦٣ - شيخ الحرم الحميدي عبد الله بن الزبير القرشي شيخ البخاري :

قال ابن حنبل : الحميدي عندنا إمام .

وقال أبو حاتم: أثبتُ الناس في ابن عيينة الحميدي، وهو رئيس أصحاب ابن عيينة ، وهو ثقة إمام .

وقال الفسوي : حدَّثنا الحميدي ، وما لقيتُ أنصح للإسلام وأهله منه .

قال ابن راهويه : الأئمة في زماننا : الشافعي ، والحميدي ، وأبو عبيد .

وقال محمد بن إسماعيل البخاري : الحُميدي إمام في الحديث .

قال الشافعي: ما رأيتُ صاحب بلغم أحفظ من الحميدي، كان يحفظ لسفيان بن عيينة عشرة آلاف حديث .

قال الحميدي: جالستُ سفيان بن عيينة تسع عشرة سنة أو نحوها[1].

«قال الحميدي: كنتُ بمصر، وكان لسعيد بن منصور حلقة في مسجد مصر ، ويجتمع إليه أهل خراسان والعراق ، فجلستُ إليهم ، فذكروا شيخًا لسفيان ، فقالوا : كم يكون حديثه ؟ فقلتُ : كذا وكذا ، فشنَّج سعيد بن منصور وأنكر ذلك ، وأنكر ابن دَيْسَم ، وكان إنكار ابن ديسم أشدَّ علي ، فأقبلت على سعيد ، فقلتُ : كم تحفظ عن سفيان عنه ؟ فذكر نحو النصف مما قلتُ ، وأقبلتُ على ابن دَيْسَم ، فقلتُ : كم تحفظ عن سفيان عنه ؟ فذكر زيادة على ما قال سعيد نحو الثلاثين مما قلتُ أنا ، فقلتُ لسعيد : تحفظ ما كتبتَ عن سفيان عنه ؟ فقال : نعم ، قلتُ : فعُدَّ ، وقلتُ لابن ديسم : فعُدَّ ما كتبتَ ، قال : فإذا سعيد يُغرِب على ابن ديسم أحاديث ، وابن ديسم يُغرب

---

(١) الجرح والتعديل ٥ / ٥٧ .

على سعيد في أحاديث كثيرة ، فإذا قد ذهب عليهما أحاديث يسيرة ، فذكرتُ ما ذهب عليهما ، فرأيتُ الحياء والخجل في وجوههما »[١] .

« قال الحميدي : والله لَأَنْ أغزوَ هؤلاء الذين يردُّون حديث رسول الله ﷺ أحبُّ إليّ مِنْ أنْ أغزو عدَّتهم من الأتراك .

وقال الحميدي: ما دمتُ بالحجاز، وأحمد بن حنبل بالعراق، وإسحاق بخراسان ؛ لا يغلبنا أحد »[٢] .

٦٤ - شيخ الإسلام الحافظ المقرىء خلف بن هشام :

تصدَّر رحمه الله للإقراء والرواية .

قال الدارقطني : كان ثقةً عابدًا فاضلًا .

قال عنه الذهبي في السير (١١ / ٥٧٧ - ٥٧٨) : « له اختيار في الحروف صحيح ثابت ، ليس بشاذٍّ أصلًا ، ولا يكاد يخرج فيه عن القراءات السبع ، وأخذ عنه خلقٌ لا يُحصوْن .

قال الحسين بن فهم : ما رأيتُ أنبل من خلف بن هشام ، كان يبدأ بأهل القرآن، ثم يأذن لأصحاب الحديث ، وكان يقرأ علينا من حديث أبي عوانة خمسين حديثًا .

يقول رحمه الله – وما أعلى هِمَّته في تحصيل العلم والحرص عليه –: أشكل عليَّ بابٌ من النحو ، فأنفقتُ ثمانين ألف درهم حتى **حَذَقْتُه** »[٣]!!

٦٥ - الإمام الحافظ محمد بن سَلَام البيكَنْدي :

كان من أوعية العلم وأئمة الأثر ، حدَّث عنه البخاري والدارمي .

---

(١) المعرفة والتاريخ للفسوي ٢ / ١٧٩ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٠ / ٦١٩ .

(٣) سير أعلام النبلاء ٥٧٨/١١ ، معرفة القرَّاء الكبار للذهبي ٢٠٩/١ .

قال يحيى بن يحيى : بخراسان كنزان : كنز عند محمد بن سلام البيكندي ، وكنز عند إسحاق بن راهويه(١) .

عن محمد بن مبشّر قال : انكسر قلم محمد بن سلام البيكندي في مجلس شيخ ، فأمر أن يُنادي : قلم بدينار ، فطارت إليه الأقلام .

قال رحمه الله : أنفقتُ في طلب العلم أربعين ألفًا ، وأنفقتُ في نشْره أربعين ألفًا ، وليت ما أنفقتُهُ في طلبه كان في نشره أو كما قال .

وقال رحمه الله : أحفظُ نحوًا من خمسة آلاف حديث . وتفرَّغ رحمه الله لنشر العلم(٢) .

قال محمد بن يعقوب : سمعتُ على بن الحسين يقول : كان محمد بن سلام في منزله ، فدُقَّ بابه ، فخرج ، فقال الشخص : ياأبا عبد الله ، أنا جنِّي رسول ملكِ الجنِّ إليك ؛ يُسلِّمُ عليك ، ويقول : لا يكون لك مجلسٌ ؛ إلا يكون منا في مجلسك أكثر من الإنس .

قال محمد بن يعقوب : هذه حكاية مُستفيضةٌ عندنا مشهورةٌ(٣) .

ياسبحان الله !! مجالس العلم، هي مجالس الذكْر، هي مجالس الملائكة .. فلا عجب أن تكون مجالس الجن الصالحين ... وملوكهم ... أو ما تدري ما فعلت الجنُّ عند سماعهم من رسول الله ﷺ قوله تعالى : ﴿ **فبأي آلاء ربكما تُكذِّبان**﴾، وماذا قال الحبيب ﷺ للصحابة ؟ فإن لم يحضر ملوك الإنس لمجالس الحديث ؛ فكفى المُحدِّثين شرفًا حضورُ الصالحين من عالم الغيب .

٦٦ - الإمامُ الحافظُ مُحدِّث العراق : وكيع بن الجرَّاح بن مليح ، أبو سفيان الرُّؤاسي :

قال عنه الإمام أحمد بن حنبل : كان وكيع إمام المسلمين في زمانه .

---

(١) تهذيب الكمال .

(٢) قال رحمه الله : لم أجلس في سوق بيكند منذ أربعين سنةً .

(٣) سير أعلام النبلاء ١١/٦٢٩ .

اشتغل في الصِّغَر ، وكان من بحور العلم وأئمة الحفظ ، ولما مات سفيان الثوري جلس وكيع موضعه .

قال القعنبي : كنا عند حمَّاد بن زيد ، فلما خرج وكيع ؛ قالوا : هذا راوية سفيان ، قال حمّاد : إن شئتم قلتُ : أرجح من سفيان .

قال يحيى بن معين : وكيع في زمانه كالأوزاعي في زمانه .

وقال أحمد بن حنبل: ما رأيتُ أحدًا أوعى للعلم ولا أحفظَ من وكيع.

قال الذهبي : قلتُ : كان أحمد يُعظِّم وكيعًا ويُفخِّمه .

قال وكيع : مَنْ طلب الحديث كما جاء ؛ فهو صاحب سُنَّة ، ومَنَ طلبه ليُقوِّي به رأيه ؛ فهو صاحب بدعة .

قال وكيع : ما كتبتُ عن الثوري قطُّ ؛ كنتُ أتحفَّظُ ، فإذا رجعتُ إلى المنزل ، كتبتُها .

قال عنه الإمام أحمد : كان وكيع حافظًا حافظًا ، ما رأيتُ مثله .

وقال أيضًا : ما رأيتُ قطُّ مثل وكيع في العلم والحفظ والإتقان والإسناد والأبواب ، مع خشوع وورع .

قال الذهبي : قلتُ : يقول هذا أحمد ، مع تحرِّيه وورعه ، وقد شاهد الكبار مثل هشيم ، وابن عيينة ، ويحيى القطان ، وأبي يوسف القاضي ، وأمثالهم .

قال عبد الرزاق : رأيتُ الثوري وابن عيينة ومعمرًا ومالكًا ، ورأيتُ ورأيتُ ، فما رأتْ عيناي قطُّ مثل وكيع .

قال ابنه سفيان بن وكيع : كان أبي يجلس لأصحاب الحديث من بُكْرة إلى ارتفاع النهار، ثم ينصرف فيقيل، ثم يصلِّي الظهر، ويقصد الطريق إلى المشرعة[1] التي يصعد منها أصحاب الروايا[2]، فيُريحون نواضحهم ، فيُعَلِّمهم

(١) المشرعة : المواضع التي ينحدر إلى الماء منها .

(٢) الروايا : جمع راوية ، وهي المزادة التي فيها الماء، والدابة التي يُستقى عليها الماء .

من القرآن ما يؤدُّون به الفرض إلى حدود العصر ، ثم يرجع إلى مسجده ، فيُصلِّي العصر ، ثم يجلس يُدرِّس القرآن ويذكر الله إلى آخر النهار ، ثم يدخل منزله ، فيُقدَّم إليه إفطاره ، ثم يقوم فيُصلِّي ورْدَهُ من الليل ، ثم ينام .

قال علي بن خَشْرم : ما رأيتُ بيد وكيع كتابًا قطُّ ، إنما هو حفظٌ ، فسألتُه عن أدوية الحفظ ، فقال : إنْ علَّمتُك الدواءَ استعملتَه ؟ قلتُ : إي والله ، قال : تركُ المعاصي ؛ ما جرَّبتُ مثله للحفظ .

عن أبي زرعة الرازي قال : سمعتُ أبا جعفر الجمَّال يقول : أتينا وكيعًا ، فخرج بعد ساعة ، وصلَّى ، عليه ثيابٌ مغسولةٌ ، فلما بصرنا به ؛ فزعنا من النور الذي رأيناه يتلألأ من وجهه ، فقال رجل بجنبي : أهذا مَلَك ؟! فتعجَّبنا من ذلك النور !

قال وكيع : لا يكمُلُ الرجل حتى يكتب عمّن هو فوقه ، وعمَّن هو مثله ، وعمَّن هو دونه .

قال محمود بن آدم : تذاكر بشر بن السري ووكيع ليلةً ، وأنا أراهما من العشاء إلى الصبح ، فقلتُ لبشر : كيف رأيتَه ؟ قال : ما رأيتُ أحفظ منه[(١)] .

٦٧ - الإمام سيِّدُ الحفَّاظ عبد الرحمن بن مهدي بن حسَّان ، أبو سعيد العنبري اللؤلؤي :

طلب هذا الشأن ، وهو ابن بضع عشرة سنة .

قال الذهبي : حدَّث عن خلق يتعذَّرُ حصرُهم ، وكان إمامًا حُجَّةً ، قدوةً في العلم والعمل .

قال الشافعي : لا أعرف له نظيرًا في هذا الشأن .

قال أحمد بن حنبل : عبد الرحمن أفقه من يحيى القطان . قال : وإذا

---

(١) سير أعلام النبلاء ٩ /

اختلف عبد الرحمن ووكيع، فعبد الرحمن أثبت؛ لأنه أقرب عهدًا بالكتاب، واختلفا في نحو خمسين حديثًا للثوري . قال : فنظرنا ، فإذا عامَّة الصواب في يد عبد الرحمن .

قال عُبيد الله بن عمر القواريري : أملى علي عبد الرحمن عشرين ألف حديث حفظًا .

قال أبو داود السجستاني : التقى وكيع وعبد الرحمن في الحرم بعد العشاء ، فتوافقا ، حتى سمعا أذان الصبح .

وانظر أخي إلى شدَّة هيامه وولعه بالحديث :

قال أحمد العجلي : قيل لعبد الرحمن بن مهدي : أيما أحبُّ إليك ؛ يُغفر لك ذنبٌ أو تحفظ حديثًا ؟ قال : أحفظ حديثًا .

قال عليُّ بن المديني : كان علمُ عبد الرحمن في الحديث كالسِّحْر .

وقال علي : لو أُخذتُ فحُلِّفتُ بين الركن والمقام ؛ لحلفت بالله أني لم أرَ أحدًا قط أعلم بالحديث من عبد الرحمن بن مهدي .

قال نعيم بن حمّادٍ : قلت لعبد الرحمن بن مهدي : كيف تعرفُ الكذَّاب ؟ قال : كما يعرف الطبيب المجنون .

قال مهدي بن حسَّان : كان عبد الرحمن يكون عند سفيان عشرة أيام ، وخمسة عشر يومًا بالليل والنهار ، فإذا جاءنا ساعة ؛ جاء رسول سفيان في أثره يطلبُه ، فيدعنا ويذهب إليه[1] .

قال : لو استقبلتُ من عمري ما استدبرتُ ؛ لكتبتُ تفسير الحديث إلى جنبه .

قال ابن مهدي : لزمتُ مالكًا حتى ملّني ، فقلتُ يومًا : قد غبتُ عن أهلي هذه الغَيْبَة الطويلة ، وما أعلم ما حدث بهم بعدي . قال : يابُنيَّ ،

(١) مقدمة الجرح والتعديل ١ / ٢٥٦ .

وأنا بالقرب من أهلي ، ولا أدري ما حدث بهم منذ خرجت .

قال ابن حبان في صدر كتابه « الضعفاء » : إلا أنّ من أكثرهم تنقيرًا عن شأن المحدِّثين ، وأتركهم للضعفاء والمتروكين ، حتى يجعله لهذا الشأن صناعة لهم لم يتعَدَّوها ، مع لزوم الدين ، والورع الشديد ، والتفقُّه في السنن - رجلين : يحيى بن سعيد القطان ، وعبد الرحمن بن مهدي .

قال يزيد بن هارون : وقعتُ بين أَسَدَيْن : عبد الرحمن بن مهدي ، ويحيى القطَّان[1] .

٦٨ - الإمام الكبير ، أمير المؤمنين في الحديث أبو سعيد يحيي بن سعيد ابن فرُّوخ القطَّان :

قال عنه الذهبي في السير (٩ / ١٧٦) :

« عُني بهذا - أي الحديث - أتمَّ عناية ، ورحل فيه وساد الأقران ، وانتهى إليه الحفظ ، وتكلَّم في العلَل والرجال ، وتخرَّج به الحفَّاظ . وكان يقول : لزمتُ شعبة عشرين سَنةً .

قال محمد بن عبد الله بن عمار : روى ابن مهدي في تصانيفه ألفي حديث عن يحيى القطَّان ، فحدَّث بها ويحيى حيٌّ .

قال ابن مهدي : لما قدم الثوري البصرة ، قال : ياعبد الرحمن ، جئني بإنسان أُذاكره ، فأتيته بيحيى بن سعيد ، فذاكره ، فلمّا خرج ،قال : قلتُ لك : جئني بإنسان ، جئتني بشيطان !! يعني بَهَرَه حفظه .

قال الإمام أحمد : يحيى بن سعيد أثبت الناس .

قال عبد الرحمن بن مهدي : اختلفوا يومًا عند شعبة ، فقالوا له : اجعل بيننا وبينك حَكَمًا ، قال : قد رضيتُ الأحول - يعني القطَّان - فجاء ، فقضى على شعبة ، فقال شعبة : ومَنْ يُطيق نقْدك ياأحولَ ! » .

---

(١) سير أعلام النبلاء ٩ / ١٩٢ - ٢٠٦ .

قال ابن أبي حاتم في مقدمة « الجرح والتعديل » (٢٣٢) :
« هذه غاية المنزلة ، إذ اختاره شعبة ، ثم بلغ من دالته بنفسه ، وصلابته في دينه ، أن قضى على شعبة .

وقال النسائي : أُمناء الله على حديث رسول الله ﷺ : شعبة ومالك ويحيى القطان .

وقال أحمد بن حنبل : إلى يحيى القطان المنتهى في التثبت .

وقيل لابن المديني : مَنْ أنفع من رأيتَ للإسلام وأهله ؟ قال : يحيى ابن سعيد القطان .

قال محمد بن يحيى بن سعيد : قال أبي : كنتُ أخرج من البيت أطلب الحديث ، فلا أرجع إلا بعد العتمة » .

« قال يحيى القطّان : كنتُ إذا أخطأت ؛ قال لي سفيان : أخطأت يايحيى ، فحدَّث يومًا عن عُبيد الله عن نافع عن ابن عمر ، قال : قال رسول الله ﷺ : « الذي يشرب في آنية الذهب والفضة ، إنما يُجرجر في بطنه نار جهنم » ، فقلتُ : أخطأت ياأبا عبد الله ، قال : وكيف هو ؟ قلتُ : حدَّثنا عبيد الله ، عن نافع ، عن زيد بن عبد الله ، عن عبد الله بن عبد الرحمن ، عن أم سلمة ، عن النبي ﷺ . قال : « صدقتَ يايحيى ، اعرض علي كُتُبك ، قلتُ : تُريدُ أن ألقى منك ما لقِيَ زائدة ؟ قال : وما لقي ؟ أصلحتُ له كُتُبه ، وذكَّرته حديثه »[1] .

٦٩ - الإمام القدوة شيخ الإسلام أبو خالد يزيد بن هارون بن زادي :

قال عنه الذهبي : كان رأسًا في العلم والعمل ، كبيرَ الشأن .

قال علي بن المديني : ما رأيتُ أحفظ من يزيد بن هارون .

قال يزيد رحمه الله: أحفظُ أربعة وعشرين ألف حديث بالإسناد ولا فخر،

(١) سير أعلام النبلاء ٩ / ١٧٥ - ١٨٥ .

وأحفظُ للشاميين عشرين ألف حديث لا أسأل عنها[(١)] .

قال يحيى بن أبي طالب : سمعتُ من يزيد بن هارون ببغداد ، وكان يُقال : إن في مجلسه سبعين ألفًا[(٢)] .

قال يزيد : أحفظ عشرين ألفًا ، فمن شاء فليُدخل فيها حرفًا .

قال أبو نافع سبط يزيد بن هارون ، كنتُ عند أحمد بن حنبل وعنده رجلان - وأحسبه قال : شيخان - فقال أحدهما : ياأبا عبد الله ، رأيتُ يزيد بن هارون في المنام ، فقلتُ له : ياأبا خالد ، ما فعل الله بك ؟ قال : غفر لي وشفَّعني وعاتبني ، قال : قلتُ : غفر لك وشفَّعك قد عرفتُ ، ففيمَ عاتبك ؟ قال : قال لي : يايزيد ، أتُحدِّث عن جرير بن عثمان ؟ قال : قلت : يارب ، ما علمتُ إلَّا خيرًا ، قال : يايزيد ، إنه كان يبغض أبا حسن عليّ ابن أبي طالب . قال : وقال الآخر : أنا رأيتُ يزيد بن هارون في المنام ، فقلتُ له : هل أتاك مُنكرٌ ونكيرٌ ؟ قال : إي والله ، وسألاني : مَنْ ربُّك ؟ وما دينك ؟ ومَنْ نبيُّك ؟ قال : ألمثلي يُقال هذا ؟ وأنا كنتُ أعلمَ الناس بهذا في دار الدنيا ؟ فقالا لي: صدقتَ، فنمْ نومة العروس لا بؤس عليك[(٣)] .

وقيل في مدحه :

ياطالبَ العلمِ لا تعدلْ به أحدًا ... قد كنت في غفلة منه وفي دَدَنِ
بقية الناسِ مَنْ هذا يُعادلُهُ ... في سالفِ الدهر أو في غابرِ الزمنِ
يُلقى إليه رفاقُ الناسِ عامدةً ... على المحاملِ والأقتابِ والسُّفُنِ
من الجزيرة أرسالًا متابعة ... ومن خراسانَ أهلِ الريفِ والمدنِ
ومن حجاز هناك العيرُ قاصدةٌ ... ومن عراقٍ ومن شامٍ ومن يمنِ

---

(١) تاريخ بغداد ١٤ / ٣٣٩ - ٣٤٠ .
(٢) تاريخ بغداد ٣٤٦/١٤ .
(٣) تاريخ بغداد ٣٤٦/١٤، ٣٤٧ .

يأتون عنه غزيرَ العلم مُحتسبًا ترى الحديثَ لديه غيْرَ مُختَزَنِ
يزيدُ أصبحتَ فوق الناس كلِّهمُ شيئًا خُصصتَ به يا واسعَ العطنِ
إليك أصبحتُ من حرّان مغتديًا شوقًا إليك لعلَّ الله يَرحمني

٧٠ - إمام أهل السنة أحمد بن حنبل :

قال عبد الرزاق : ما رأيت أحدًا أفقه ولا أورعْ من أحمد بن حنبل .

قال الذهبي في السِّير (١١ / ١٩٥) : « قال هذا : وقد رأى مثل الثوري ومالك وابن جريج » .

وقال الشافعي : خرجتُ من بغداد ، فما خلَّفتُ بها رجلًا أفضل ، ولا أعلم ، ولا أفقه ، ولا أتقى من أحمد بن حنبل .

وقال إبراهيم الحربي : رأيتُ أبا عبد الله ، كأن الله جمع له علم الأوَّلين والآخرين .

قال أبو عُبيد: إني لأتديَّن بذكر أحمد، ما رأيتُ رجلًا أعلم بالسُّنة منه.

وقال إسحاق بن راهويه : أحمد حُجَّة بين الله وبين خلقه .

وقال ابن معين : أرادوا أن أكون مثل أحمد ، والله لا أكون مثله أبدًا .

وقال ابن المديني : أحمد عندي أفضل من سعيد بن جبير في زمانه ، لأن سعيدًا كان له نظراء وقال : قال لي سيِّدي أحمد بن حنبل ، لا تُحدِّث إلا من كتاب .

وقال ذو النون المصري للمروذي وهم بالعسكر : أي شيء حال .

وقال أبو داود : كانت مجالس أحمد مجالس الآخرة ، لا يُذكرُ فيها شيءٌ من أمر الدنيا ، ما رأيتُه ذكر الدنيا قطُّ .

قال محمد بن الحسين الأنماطي : كنا في مجلس فيه يحيى بن معين ، وأبو خيثمة ، فجعلوا يُثنون على أحمد بن حنبل ، فقال رجل : فبعْض هذا ، فقال يحيى : وكثرةُ الثناء على أحمد تُستنكر ! لو جلسنا مجلسنا بالثناء عليه ؛

ما ذكرنا فضائله بكمالها .

« قال صالح بن أحمد بن حنبل : رأى رجل مع أبي محبرةً ، فقال له : ياأبا عبد الله ، أنت قد بلغت هذا المبلغ ، وأنت إمام المسلمين[١] ! فقال : مع المحبرة إلى المقبرة .

وقال رحمه الله : أنا أطلبُ العلمَ إلى أن أدخل القبر »[٢] .

قناديلُ دينِ الله يسعى بحملِها رجالٌ بهم يحيا حديثُ مُحمدِ
هم حملوا الآثارَ عن كلِّ عالمٍ تقيٍّ ، صدوقٍ ، فاضلٍ مُتعبد
مَحَابِرُهُم زُهْر تُضيء كأنها قناديلُ حَبْرٍ ناسكٍ وسطَ مسجدِ
تُساقُ إلى مَنْ كان في الفقهِ عالمًا ومَنْ صنَّف الأحكامَ من كلِّ مُسنَدِ[٣]

« وقال أحمد بن منيع بن عبد الرحمن البغوي : سمعتُ جدِّي يقول : مرَّ أحمد بن حنبل جائيًا من الكوفة، وبيده خريطة[٤]، فأخذتُ بيده، فقلتُ : مرَّةً إلى الكوفة ! ومرةً إلى البصرة ! إذا كتب الرجل ثلاثين ألف حديث لم يكفه؟ فسكت، ثم قلتُ: ستين ألفًا؟ فسكت، فقلتُ: مائة ألف ؟ فقال : حينئذٍ يعرف شيئًا . قال أحمد بن منيع : فنظرنا ، فإذا أحمد كتب ثلاثمائة ألف ، عن بهز بن أسد وعفان ، وأظنه قال : وروح بن عبادة »[٥] .

« قال قتيبة بن سعيد : كان وكيع إذا صلَّى العتمة ينصرف معه أحمد بن حنبل، فيقف على الباب، فيُذاكره وكيع[٦]، فأخذ وكيع بعضادتي الباب، ثم

---

(١) يعني ، ومعك المحبرة تحملها .
(٢) مناقب الإمام أحمد صـ ٣١ .
(٣) في وصف المحبرة من كتاب « شرف أصحاب الحديث » صـ ٥٣ .
(٤) هي الكيس له خيط يُحيط بفمه يُشدُّ فيُغلَق .
(٥) مناقب الإمام صـ ٢٨ .
(٦) ووكيع من شيوخ أحمد .

قال : ياأبا عبد الله ، أُريد أن أُلقي عليك حديث سفيان ، قال : هاتِ ، قال : تحفظ عن سفيان ، عن سلمة بن كهيل كذا وكذا ؟ قال : نعم ، حدَّثنا يحيى ... ، فيقول - أي وكيع -: تحفظ عن سلمة كذا وكذا ؟ فيقول : حدَّثنا عبد الرحمن ، فيقول : عن سلمة كذا وكذا ؟ فيقول : أنت حدَّثتنا ، حتى يفرغ من سلمة ، ثم يقول أحمد : فتحفظ عن سلمة كذا وكذا ؟ فيقول وكيع : لا ، فلا يزال يُلقي عليه ، ويقول وكيع : لا ، ثم يأخذ في حديث شيخ شيخ . قال : فلم يزل قائمًا حتى جاءت الجارية ، فقالت : قد طلع الكوكب ، أو قالت : الزهرة »[1] .

قال أبو اليُمن العُليمي الحنبلي في « المنهج الأحمد » (١ / ٨): « طلب الإمام أحمد الحديث وهو ابن ست عشرة سنة ، وخرج إلى الكوفة سنة ثلاث وثمانين ومائة ، وهو أول سفر له ، وخرج إلى البصرة سنة ست وثمانين ، وخرج إلى سفيان بن عيينة إلى مكة سنة سبع وثمانين ، وهي أول سنة حجّ فيها الإمام أحمد ، وخرج إلى عبد الرزاق بصنعاء اليمن سنة سبع وتسعين ، ورافق يحيى بن معين في رحلته إليه » .

« قال أحمد : رحلتُ في طلب العلم والسُّنة إلى الثغور ، والشامات ، والسواحل ، والمغرب ، والجزائر ، ومكة ، والمدينة ، والحجاز ، واليمن ، والعراقين جميعًا ، وفارس ، وخراسان ، والجبال ، والأطراف ، ثم عدتُ إلى بغداد ، وخرجتُ إلى الكوفة ، فكنتُ في بيت تحت رأسي لبنة ! فَحُمِمتُ ! فرجعتُ إلى أمي رحمها الله ولم أكن استأذنتها ، ولو كان عندي تسعون درهمًا كنتُ رحلتُ إلى جرير بن عبد الحميد إلى الريّ، وخرج بعض أصحابنا

---

(١) مناقب الإمام أحمد ٦١ ، وتاريخ الإسلام - ترجمة أحمد بتحقيق شاكر صـ ٦٣ ، وطبقات الشافعية الكبرى للتاج السبكي ٢ / ٢٨ .

ولم يمكني الخروج ؛ لأنه لم يكن عندي شيءٌ ! »[(١)] .

« ما أقسى أن يُحرم ابن حنبل الرحلة إلى عبد الحميد بسبب دراهم معدودة ، لا يأبه بها الأغنياء .

وقال أحمد : حججتُ خمسَ حِجَجٍ ، منها ثلاث حِجَج راجلًا - وبلده بغداد - أنفقتُ في إحدى هذه الحِجَج ثلاثين درهمًا »[(٢)] .

وقال ابن الجوزي : « طاف أحمد بن حنبل الدنيا مرتين حتى جمع المسند »[(٣)] .

قال أبو اليُمن العليمي الحنبلي : « خرج الإمام أحمد إلى عبد الرزاق بصنعاء اليمن سنة سبع وتسعين ومائة ، ورافق يحيى بن معين . قال يحيى : لمّا خرجنا إلى عبد الرزاق إلى اليمن ، حججنا ، فبينا أنا بالطواف ؛ إذا بعبد الرزاق في الطواف ، فسلَّمتُ عليه ، وقلتُ له : هذا أحمد بن حنبل أخوك ، فقال : حيّاه الله وثبّته ، فإنه بلغني عنه كلُّ جميل ، فقلتُ لأحمد : قد قرَّب الله خطانا ، ووفَّر علينا النفقة ، وأراحنا من مسيرة شهر ، فقال أحمد : إني نَوَيْتُ ببغداد أن أسمع من عبد الرزاق بصنعاء ، والله لا غيَّرتُ نيّتي . قال يحيى : فلما خرجنا إلى صنعاء ، نَفِدت نفقة أحمد ، فعرض علينا عبد الرزاق دراهم كثيرة فلم يقبلها ، فقال له : اقبل على وجه القرض ، فأبى ، وعرضنا عليه - أي على أحمد - نفقاتنا ، فلم يقبل ، فاطلعنا عليه ، فإذا به يعمل التِّكك ويُفطِر على ثمنها »[(٤)] .

وقال العليمي : « لما كان أحمد باليمن رهن سطلًا عند بقّال بحضور

---

(١) مناقب الإمام أحمد ٢٥ ، ٢٦ .
(٢) تهذيب التهذيب ١ / ٧٣ .
(٣) صيد الخاطر صـ ٢٤٦ .
(٤) المنهج الأحمد ١ / ٨ .

سليمان بن داود الشاذكوني ، وأخذ منه ما يتقّوت به ، ثم جاءه بفكاكه ، فأخرج إليه سَطْلين ، فقال : أيهما سطلك فخذه ، فقال : قد اشتبه عليَّ ، أنت في حلٍّ من السطل وفكاكه، فقال الشاذكوني للبقَّال: أخرجتَ سطلين إلى رجل من أهل الورع ، والسطول تتشابه ، فقال : والله إنه لَسطلُهُ بعينه ، وإنما أردتُ امتحانه »[١] .

« ذكر عبد الرزاق الصنعاني أحمد بن حنبل ، فدمعت عيناه ، ثم قال : قدم علينا فأقام هاهنا سنتين إلا شيئًا . وبلغني أن نفقته نفدت ، فأخذتُ بيده ، فأقمته خلف الباب ، وأشار إلى بابه ، وما معي ومعه أحد ، فقلت : إنه لا يجتمع عندنا الدنانير ، وإذا بعنا الغلَّة شغلناها في شيء ، وقد وجدت عند النساء عشرة دنانير فخذها ، فأرجو أن لا تُنفقها حتى يتهيَّأ عندنا شيء . قال: فقال لي أحمد: ياأبا بكر، لو قبلتُ شيئًا من الناس قبلتُ منك»[٢].

قال إسحاق بن راهويه : « لما خرج أحمد إلى عبد الرزاق ؛ انقطعت به النفقة ، فأكرى نفسه من بعض الجمَّالين إلى أن وافى صنعاء ، وقد كان أصحابُه عرضوا عليه المواساة فلم يقبل من أحد شيئًا .

وقال أحمد بن سنان الواسطي : بلغني أن أحمد رهن نعْله عند خبَّاز على طعام أخذه منه ، عند خروجه من اليمن »[٣] .

وقال ابن كثير مُتحدِّثًا عن الشدائد التي لقيها إمام أهل السنة في خلال رحلته إلى اليمن ، وإقامته فيه لتحصيل العلم :

« سُرقت ثيابه وهو باليمن ، فجلس في بيته وردَّ عليه الباب ، وفقده

(١) المنهج الأحمد ١ / ١٤ ، طبقات الحنابلة لأبي يعلى ١/١٦٣ ، ومناقب الإمام أحمد صـ ٢٥٩ ، البداية والنهاية لابن كثير ١٠/٣٢٨ .
(٢) طبقات الحنابلة لأبي يعلى ١/٢٠٩، مناقب الإمام أحمد صـ ٢٢٦ .
(٣) مناقب الإمام أحمد صـ ٢٢٦ ، وحلية الأولياء ٨/١٧٤- ١٧٥ .

أصحابُه ، فجاءوا إليه فسألوه فأخبرهم ، فعرضوا عليه ذهبًا فلم يقبله ، ولم يأخذ منهم إلا دينارًا واحدًا ليكتب لهم به[١]، فكتب لهم بالأجر ، رحمه الله تعالى »[٢] .

ما ضرَّهم ... جبر الله لهم بالجنة كل مصيبة ... كلُّ مصيبةٍ وشِدَّةٍ تهون .. إذا خرجوا من الدنيا ياإلهي وأنت نصيبهم .. لولا الكري جمَّالًا ... ما صار إمامَ أهل السُّنَّة ... ولما تمنَّى المتوكِّل الخليفة أن يراه ... وطلب ، ولما رفض الإمام ؛ رضي المتوكِّل أن يراه من خلف طاقٍ ، بحيث لا يعلم الإمام أحمد .

« قال المروزي : سمعتُ أبا عبد الله يقول : مات هُشيم ولي عشرون سنة ، فخرجتُ أنا والأعرابي - رفيق كان لأبي عبد الله - قال : فخرجنا مُشاةً ، فوصلنا الكوفة ، يعني في سنة ثلاث وثمانين ، فأتينا أبا معاوية وعنده الخلق ، فأعطى الأعرابي حَجَّةً بستين درهمًا ، فخرج وتركني في بيت وحدي ، فاستوحشتُ ، وليس معي إلا جراب فيه كُتبي ، كنتُ أضعُه فوق لبنةٍ ، وأضع رأسي عليه ، وكنتُ أُذاكر وكيعًا بحديث الثوري ، وذكر مرةً شيئًا ، فقال : هذا عند هشيم ؟ فقلت : لا ، وكان ربما ذكر العشر أحاديث فأحفظها ، فإذا قام ؛ قالوا لي ، فأُمليها عليهم »[٣] .

وحدث هذا مع شيخه يزيد بن هارون :

قال الإمام أحمد: «كنا عند يزيد بن هارون، فوهم في شيء، فكلَّمتُه، فأخرج كتابه، فوجده كما قلتُ، فغيَّره، فكان إذا جلس؛ يقول: ياابن حنبل، أُدنُ، ياابن حنبل، أُدنُ هاهنا، ومرضتُ فعادني، فنطحه الباب».

---

(١) أخذ الدينار أجرة لما ينسخه لهم من الكتب .
(٢) البداية والنهاية ١٠ / ٣٢٩ .
(٣) سير أعلام النبلاء ١١ / ١٨٦ .

« وقال عبد الله بن أحمد : قال لي أبي : خذ أي كتاب شئتَ من كُتُب وكيع من المصنَّف ، فإنْ شئتَ أن تسألني عن الكلام حتى أُخبرك بالإسناد ، وإن شئتَ بالإسناد حتى أُخبرك أنا بالكلام »(١) .

ولقد شغل الإمامَ أحمدَ طلبُ العلم عن الزواج فأخَّره .

قال الإمام أحمد : ما تزوَّجت إلا بعد الأربعين .

وقال رحمه الله : نحن كتبنا الحديث من ستة وجوه وسبعة لم نضبطه ، فكيف يضبطه مَنْ كتبه من وجه واحد ؟!

« وقال عبد الله بن أحمد : قال لي أبو زرعة : أبوك يحفظ ألفَ ألفِ حديث، فقيل له: وما يُدريك ؟ قال: ذاكرتُه، فأخذتُ عليه الأبواب»(٢).

« قال الذهبي : فهذه حكاية صحيحة في سعة علم أبي عبد الله ، وكانوا يعدُّون في ذلك المُكرَّر ، والأثر ، وفتوى التابعي ، وما فُسِّر ، ونحو ذلك ، وإلا فالمُتون المرفوعة القويَّة لا تبلغ عُشر معشار ذلك »(٢) .

« قال سعيد بن عمرو : ياأبا زرعة ، أأنت أحفظ أم أحمد ؟ قال : كيف علمت ؟ قال: وجدتُ كُتُبهُ ليس في أوائل الأجزاء أسماء الذين حدَّثوه، فكان يحفظ كل جزء ممن سمعه ، وأنا لا أقدر على هذا .

وعن أبي زرعة قال : حُزرت كُتُبُ أحمد يوم مات ، فبلغت اثني عشرَ حِملًا وعِدلًا ، ما كان على ظهر كتاب منها : حديث فلان ، ولا في بطنه : حدَّثنا فلان ، كل ذلك كان يحفظه .

قال أبو زرعة : أخرج إليَّ أبو عبد الله أجزاء كلها سفيان سفيان ، ليس على حديث منها « حدَّثنا فلان » ، فظننتُها عن رجل واحد ، فانتخبتُ منها ، فلما قرأ ذلك علي ؛ جعل يقول : حدَّثنا وكيع ، ويحيى ، وحدَّثنا

---

(١) سير أعلام النبلاء ١١ / ١٨٦ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١١ / ١٨٧ .

فلان ، فعجبتُ ، ولم أقدر أنا على هذا .

قال ابن راهويه: كنتُ أُجالس أحمد وابن معين، ونتذاكر ما نقول: ما فقهه ؟ ما تفسيره ؟ فيسكتون إلا أحمد .

قال أبو بكر الخلّال : كان أحمد قد كَتَبَ كُتُبَ الرأي وحفظها ، ثم لم يلتفت إليها . وكان أصحاب الحديث يجتمعون عند يحيى بن آدم ، فيتشاغلون عن الحديث بمناظرة أحمد ويحيى بن آدم ، ويرتفع الصوت بينهما ، وكان يحيى بن آدم واحد أهل زمانه في الفقه .

قال ابن راهويه: سمعتُ يحيى بن آدم يقول: أحمد بن حنبل إمامُنا.

ويحكي الإمام أحمد أول لقاء له مع عبد الرزاق .

قال رحمه الله : قدمتُ صنعاء أنا ويحيى بن معين ، فمضيتُ إلى عبد الرزاق في قريته ، وتخلّف يحيى ، فلما ذهبتُ أدُقُّ الباب ؛ قال لي بقّالٌ تجاه داره : مهْ ، لا تدقّ ، فإن الشيخ يُهاب ، فجلستُ حتى إذا كان قبل المغرب ؛ خرج فوثبتُ إليه ، وفي يدي أحاديث انتقيتُها ، فسلّمتُ ، وقلتُ : حدِّثني بهذه رحمك الله ، فإني رجل غريب ، قال : ومَنْ أنت ؟ وزبرني، قلتُ: أنا أحمد بن حنبل، قال: فتقاصر، وضمّني إليه، وقال: بالله أنت أبو عبد الله ؟ ثم أخذ الأحاديث وجعل يقرؤها حتى أظلم ، فقال البقّال: هلّم المصباح حتى خرج وقت المغرب ، وكان عبد الرزاق يؤخرْ صلاة المغرب »[١] .

قال إسحاق بن راهويه: كنا عند عبد الرزّاق أنا وأحمد بن حنبل، فمضينا معه إلى المُصلّى يوم عيد، فلم يُكبِّر هو ولا أنا ولا أحمد ، فقال لنا : رأيتُ معمرًا والثوري في هذا اليوم كبَّرا ، وإني رأيتكما لَمْ تُكبِّرا فلم أُكبِّر فلِمَ لَمْ تُكبِّرا ؛ قلنا : نحن نرى التكبير ، ولكن شُغلنا بأي شيء نبتدىء من الكتب .

---

(١) سير أعلام النبلاء ١١ / ١٩٢ .

قال أبو إسحاق الجوزجاني : قال : كان أحمد بن حنبل يُصلّي بعبد الرزَّاق ، فسها ، فسأل عنه عبد الرزَّاق ، فأخبر أنه لم يأكل منذ ثلاثة أيام شيئًا .

قال أحمد : كنتُ في إزاري من اليمن إلى مكة ، فقال له المروزي : اكتريتَ نفسك من الجمَّالين ؟ قال : قد اكتريت لكتبي ولم يقل لا .

فرحم الله إمامَ أهل السُّنَّة ، وأعلى درجته في الآخرة .

٧١ - الإمام إسحاق بن راهَوَيْه شيخ المشرق ، سيد الحفَّاظ أبو يعقوب :

لقي الكبار، وكتب عن خلْق من أتباع التابعين، وهو شيخ البخاري.

قال يحيى بن معين لرجل : اسكُتْ ، إذا حدَّثك أبو يعقوب أمير المؤمنين فتشكُّ فيه ؟!

قال وهب بن جرير : جزى الله إسحاق بن راهويه ، وصدقةَ بن الفضل ، ويَعْمَرَ عن الإسلام خيرًا ، أحْيوا السُّنَّة بالمشرق .

وقال أحمد بن حنبل : لم يعبر الجسر إلى خراسان مثل إسحاق .

قال الدارميّ : ساد إسحاق أهل المشرق والمغرب بصدقه .

وقال ابن حنبل : لا أعرف لإسحاق في الدنيا نظيرًا .

بيَّض الله وجْهَهُ ووقـاهُ فَزَعًا يَومَ القمطرير وهَوْلَهُ
وأثابَ الفردوسَ مَنْ قال آميـ ـن وأعطاه يومَ يلقاه سؤلَهُ

وقال إمام الأئمة ابن خزيمة : والله لو كان إسحاق في التابعين لأقرُّوا له بحفظه وعلمه وفقهه .

كان يحيى بن آدم من شيوخ إسحاق وممن روى عن إسحاق . قال إسحاق : كتب عني يحيى بن آدم ألفيْ حديث .

عن ابن شُبْرمة ، عن الشعبي قال : ما كتبتُ سوداء في بيضاء إلى يومي هذا ، فحدَّثتُ بها إسحاق بن راهويه ، فقال : تعجبُ من هذا ؟

قلتُ : نعم ؟ قال : ما كنتُ أسمعُ شيئًا إلا حفظتُهُ ، وكأني أنظر إلى سبعين ألف حديث - أو قال : أكثر - في كتبي .

وقال إسحاق رحمه الله : لكأني أنظر إلى مائة ألف حديث في كُتُبي ، وثلاثين ألفًا أسردُها . قال : وأمْلى علينا إسحاق أحد عشر ألف حديث من حفظه ، ثم قرأها علينا ، فما زاد حرفًا ، ولا نقص حرفًا .

قال الذهبي : « هذه الحكاية رواها الحافظ ابن عدي ، عن يحيى ابن زكريا بن حيويه ، سمع أبا داود ، فذكرها . فهذا والله الحفظ » .

قال يحيى بن يحيى : لَيومٌ من إسحاق أَحَبُّ إليَّ من عمري .

قال إسحاق : ما سمعتُ شيئًا إلا وحفظتُه ، ولا حفظتُ شيئًا قطُّ فنسيتُه .

وقال : أحفظُ سبعين ألف حديث عن ظهر قلبي .

قال أبو حاتم الرازي : ذكرتُ لأبي زرعة حِفْظَ إسحاق بن راهويه ، فقال أبو زرعة : ما رُئي أحفظ من إسحاق .

ثم قال أبو حاتم : والعجب من إتقانه ، وسلامته من الغلط ، مع ما رُزق من الحفظ ، فقلتُ[1] لأبي حاتم : إنة أملى التفسير عن ظهر قلبه . قال : وهذا أعجب ، فإن ضبْط الأحاديث المُسنَدة أسهل وأهون من ضبْط أسانيد التفسير وألفاظها .

وقال إبراهيم بن أبي طالب الحافظ: فاتني عن إسحاق مجلسٌ من مسنده، وكان يُمليه حفظًا ، فتردَّدتُ إليه مرارًا ليُعيده ، فتعذَّر ، فقصدتُه يومًا لأسأله إعادته ، وقد حملتُ إليه حنطةً من الرُّستاق ، فقال لي : تقوم عندي وتكتب وزْنَ هذه الحنطة ، فإذا فرغت ؛ أعدتُ لك ، ففعلتُ ذلك ، فسألني عن أول حديث من المجلس ، فاتَّكأ على عضادة الباب ، فأعاد المجلس حفظًا ،

---

(١) القائل : هو أحمد بن سلمة .

وكان قد أملى « المسند » حفظًا .

قُربي إلى الله دعاني إلى ... حُبِّ أبي يعقوبَ إسحاقِ
يا حُجَّةَ الله على خلقِهِ ... في سُنَّة الماضين للباقي
أبوك إبراهيمُ مَحْضُ التُّقى ... سبَّاق مجدٍ وابنُ سبَّاقِ

قال أبو يحيى الشعراني : كنتُ إذا ذاكرتُ إسحاق العلم ؛ وجدتُه فيه بحرًا فردًا ، فإذا جئتُ إلى أمْر الدنيا ؛ رأيتُه لا رأي له .

قال الذهبي : قد كان مع حفظه إمامًا في التفسير ، رأسًا في الفقه ، من أئمة الاجتهاد .

وإن تعجَبْ فاعجب لقول إسحاق: أحفظ أربعة آلاف حديث مزوَّرة.

قال علي بن سلمة الكرابيسي – وهو من الصالحين –: رأيتُ ليلة مات إسحاق الحنظلي ، كأن قمرًا ارتفع من الأرض إلى السماء من سكة إسحاق ، ثم نزل فسقط في الموضع الذي دُفن فيه إسحاق . قال : ولم أشعر بموته ، فلما غدوتُ ؛ إذا بحفَّار يحفر قبر إسحاق في الموضع الذي وقع فيه[١] .

وكيف احتمالي للسحابِ صنيعه ... بإسقائه قبرًا وفي بطنه بحرُ

٧٢ – الإمام الحافظ أبو عُبيد ، القاسم بن سَلَّام بن عبد الله :

جمع صنوفًا من العلم ، وصنَّف الكتب في كل فنٍّ .

نقل الخطيب في « تاريخه » وغيره : إن طاهر بن الحسين حين سار إلى خراسان ؛ نزل بمرو ، فطلب رجلًا يُحدِّثه ليلة ، فقيل : ما هاهنا إلا رجلٌ

---

(١) ترجمة إسحاق في الجرح والتعديل ٢ / ٢٠٩ ، حلية الأولياء ٩ / ٢٣٤ ، تاريخ بغداد ٦ / ٣٤٥ ، ٣٥٥ ، طبقات الحنابلة ، سير أعلام النبلاء ٣٥٨/١١، ٣٨٣ .

مؤدِّب ، فأدخلوا عليه أبا عُبيد ، فوجده أعلمَ الناس بأيام الناس والنحو واللغة والفقه ، فقال له : من المظالِمِ تركُك أنت بهذه البلدة ، فأعطاه ألف دينار ، وقال له : أنا مُتوجِّه إلى حرب ، وليس أحِبُّ استصحابك شفقًا عليك، فأنفِقْ هذه إلى أن أعود إليك، فألَّف أبو عبيد «غريب المصنف»، وعاد طاهر بن الحسين من خراسان ، فحمل معه أبا عبيد إلى (سُرَّ مَنْ رأى) ، وكان أبو عبيد ثقةً ديِّنًا وَرِعًا كبيرَ الشأن .

قال ابن درستويه : « ولأبي عُبيد كُتُبٌ لم يروها ، قد رأيتُها في ميراث بعض الظاهرية تباع كثيرة ، في أصناف الفقه كله ، وبلغَنَا أنه كان إذا ألَّف كتابًا ؛ أهداه إلى ابن طاهر ، فيحمل إليه مالًا خطيرًا .. و « الغريب المصنف » من أجلِّ كُتُبِه في اللغة .. قال : ومنها كتابه في « الأمثال » أحسنَ تأليفَه ، وكتاب « غريب الحديث » ذكره بأسانيده ، فرغب فيه أهل الحديث ، وكذلك كتابه في « معاني القرآن » .

وله كتبٌ في الفقه ، فإنه عمد إلى مذهب مالك والشافعي ، فتقلَّد أكثر ذلك ، وأتى بشواهده ، وجمع من رواياته ، وحسَّنها باللغة والنحو ، وله في القراءات كتابٌ جيِّدٌ ، ليس لأحد من الكوفيين قبله مثله ، وكتابه في « الأموال » من أحسن ما صنَّف في الفقه وأجوده » .

قال أبو عُبيد : كنتُ في تصنيف هذا الكتاب[1] أربعين سنة ، وربما كنتُ أستفيدُ الفائدة من أفواه الرجال ، فأضعها في الكتاب ، فأبيتُ ساهرًا فرحًا مني بتلك الفائدة ، وأحدكم يجيئني ، فيُقيم عندي أربعة أشهر ، خمسة أشهر ، فيقول : قد أقمتُ الكثير[2] .

قال عبد الله بن أحمد : عرضتُ كتاب « غريب الحديث » لأبي عُبيد

---

(١) يُريد : « الغريب المصنف » .

(٢) تاريخ بغداد ١٢ / ٤٠٧ وطبقات الحنابلة ١/٢٦١ .

على أبي ، فاستحسنه ، وقال : جزاه الله خيرًا .

قال عبد الله : كتب أبي « غريب الحديث » الذي ألَّفه أبو عُبيد أوَّلًا .

قال أبو بكر بن الأنباري : كان أبو عُبيد رحمه الله يَقْسِم الليل أثلاثًا ؛ فيُصلِّي ثُلثُه ، وينام ثُلثَه ، ويُصنِّف الكتب ثُلثَه .

قال أبو حامد الصاغاني : سمعتُ أبا عبيد القاسم بن سلَّام يقول : فعلتُ بالبصرة فِعلتين أرجو بهما الجنَّة : أتيتُ يحيى القطان وهو يقول : أبو بكر وعمر ، فقلتُ : معي شاهدان من أهل بدر يشهدان أنَّ عثمان أفضلُ من عليٍّ ، قال : مَنْ ؟ قلتُ : أنتَ حدَّثتنا عن شعبة ، عن عبد الملك بن مَيْسرة ، عن النزّال بن سَبْرَة ، قال خطبنا ابن مسعود ، فقال : أمَّرْنا خير مَنْ بقي ، ولم نَأْلُ . قال : ومَنِ الآخر ؟ قلتُ : الزهري ، عن حُميد بن عبد الرحمن ، عن المِسور ، قال : سمعتُ عبد الرحمن بن عوف يقول : شاورتُ المهاجرين الأوّلين ، وأمراء الأجناد ، وأصحاب رسول الله ﷺ ؛ فلم أرَ أحدًا يعدل بعثمان . قال : فترك يحيى قوله ، وقال : أبو بكر وعمر وعثمان . قال : وأتيتُ عبد الله الخُريبي ، فإذا بيتُه بيت خمَّار ، فقلتُ : ما هذا ؟ قال : ما اختلف فيه أوَّلنا ولا آخرُنا ، قلتُ : اختلف فيه أوَّلُكم وآخرُكم . قال : مَنْ ؟ قلتُ : أيوب السختياني ، عن محمد ، عن عَبيدة ، قال : اختلف عليَّ في الأشربة ، فما لي شرابٌ منذ عشرين سنة إلا عسل أو لبن أو ماء . قال : ومَنْ آخرنا ؟ قلتُ : عبد الله بن إدريس . قال : فأخرج كلَّ ما في منزله فأهرقه[1] .

قال إسحاق بن إبراهيم الحنظلي : أبو عُبيد أوسعُنا علمًا ، وأكثرنا أدبًا ، وأجمعُنا جمعًا ، إنا نحتاج إليه ، ولا يحتاج إلينا .

---

(١) تاريخ بغداد ١٢ / ٤٠٩ .

وقال : الحقُّ يُحبُّه الله عز وجلَّ : أبو عبيد القاسم بن سلَّام أفقهُ مني وأعلم مني .

وقال : إنَّ الله لا يستحيي من الحق : أبو عبيد أعلمُ مني ، ومن ابن حنبل ، ومن الشافعي .

وقال ثعلب : لو كان أبو عُبيد في بني إسرائيل لكان عجبًا[1] .

قال إبراهيم الحربي : أدركتُ ثلاثة تعجز النساء أن يلدن مثلهم : رأيتُ أبا عُبيد ، ما مثَّلته إلا بجبل نُفخ فيه روحٌ ، ورأيت بشر بن الحارث ، ما شبَّهتُه إلا برجل عُجن من قرنه إلى قدمه عقلًا ، ورأيتُ أحمد بن حنبل ، فرأيتُ كأن الله قد جمع له علْمَ الأوَّلين ، فمن كل صنف يقول ما شاء ويُمسك ما شاء .

ليس لأبي عبيد كتاب كـ « غريب المصنف » .

قال يحيى بن معين : مثلي يُسأل عن أبي عُبيد ؟! أبو عُبيد يُسأل عن الناس ، لقد كنتُ يومًا عند الأصمعي ، فقال : أترْوْن هذا المُقبل ؟ قالوا : نعم ، قال : لن تضيع الدنيا أو الناس ما حَيِيَ هذا .

وقال عنه الإمام أحمد : أبو عبيد أستاذ .. أبو عُبيد ممن يزداد عندنا كل يوم خيرًا .

وقال الدارقطني : ثقة إمام جبل .

قال الزبيدي : عَددتُ حروف « غريب المصنف » فوجدتُه سبعة عشر ألفًا وتسعمائة وسبعين حرفًا .

قال الذهبي : يُريد بالحرف اللفظة العربية .

وفيه قيل :

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٠/٥٠٠ .

ياطالب العلمِ قد مات ابنُ سلَّام وكان فارسَ علمٍ غيرَ مِحْجام
مات الذي كَان فينا رُبع أربعةٍ لم يلقَ مثلهم أستاذُ أحكام[1]

٧٣ - الإمام علي بن المديني أمير المؤمنين في الحديث ، أبو الحسن علي ابن عبد الله :

أعلم المُحدِّثين بالعِلل . قال الخطيب فيه : « فيلسوفُ هذه الصنعة وطبيبُها ، ولسانُ طائفة أهل الحديث وخطيبُها » .

قال أبو حاتم الرازي: كان ابن المديني علمًا في الناس في معرفة الحديث والعِلل .

وكان ابن حنبل لا يُسمِّيه ، إنما يُكنِّيه ؛ تبجيلًا له ، ما سمعتُ أحمد سمَّاه قطُّ .

كان سفيان بن عيينة يُسمِّي عليّ بن المديني : حيَّة الوادي .

قال البخاري : ما استصغرتُ نفسي عند أحد إلا عند علي بن المديني .

وقيل للبخاري : ما تشتهي ؟ قال : أن أقدُمَ العراق ، وعلي بن المديني حيٌّ ، فأجالسه[2] .

قال أبو قدامة السرخسي : سمعتُ عليًّا يقول : رأيتُ كأن الثُّريَّا تدلَّت حتى تناولتُها .

قال أبو قدامة : صدَّق الله رؤياه ، بلغ في الحديث مبلغًا لم يبلغهُ أحدٌ .

وقال النسائي : كأنّ الله خلق عليّ بن المديني لهذا الشأن .

قال عباس العنبري : كان الناس يكتبون قيامه وقعوده ولباسه ، وكل شيء يقول أو يفعل ، أو نحو ذلك .

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٠ / ٥٠٦ .
(٢) سمعها أبو العباس السراج من البخاري .

قال محمد بن عبد الرحيم : كان عليّ إذا قدم بغداد ؛ تصدَّر في الحلقة، وجاء ابن معين، وأحمد بن حنبل، والمُعيْطي، والناس يتناظرون ، فإذا اختلفوا في شيء ؛ تكلَّم فيه عليٌّ .

قال عليٌّ رحمه الله : التفقُّه في معاني الحديث نصفُ العلم ، ومعرفةُ الرجال نصفُ العلم .

«قال الفسوي: قال عليٌّ: غبتُ عن البصرة في مخرجي إلى اليمن- أظنُّه ذكر ثلاث سنين - وأُمِّي حيَّةٌ ، فلما قدمتُ ؛ قالت : يابُنيَّ ، فلان لك صديق ، وفلان لك عدُوٌّ ، قلتُ : من أين علمتِ ياأُمَّهْ ؟ قالت : كان فلان وفلان ، فذكرت منهم يحيى بن سعيد يجيئون مُسلِّمين ، فيُعزُّوني ، ويقولون : اصبري ، فلو قدم عليك ، سرَّك الله بما ترين ، فعلمتُ أن هؤلاء أصدقاء ، وفلان وفلان إذا جاءوا ؛ يقولون لي : اكتبي إليه ،وضيِّقي عليه لِيقْدُمَ »[(١)] .

رضي الله عنك ياأمَّ عليّ ، ومثل هذه لا تكونُ إلا أمَّ عليٍّ ؟! هذه واحدة من أُمَّهات سادة الإسلام .. تعرف صديق ابنها الذي يُصبِّرُها على طول رحلة ابنها .. وعدُوَّه الذي يأمرها أن تكتب إليه ليقطع رحلته في سبيل العلم ..

قال عليُّ بن المديني : ربما أَذَّكَّرُ الحديثَ في الليل ، فآمر الجارية تُسرج السراج ، فأنظر فيه .

وقال رحمه الله : تركتُ من حديثي مائة ألف حديث ، منها ثلاثون ألفًا لعبّاد بن صهيب .

إذنْ ، فكم تحفظ ياإمام ؟!

قال ابن المديني : « حججتُ حجَّةً وليس لي هِمَّةٌ إلا أن أسمع .. ».

---

(١) سير أعلام النبلاء ١١ / ٤٩ .

٧٤ - الإمام محمد بن يحيى الذهلي ، أبو عبد الله :

جمع علْمَ الزهري، وصنَّفه وجوَّده، من أجل ذلك يُقال له: الزهري، ويُقال له : الذهلي . وانتهت إليه رياسة العلم والعظمة والسؤدد ببلده . كانت له جلالة عجيبة بنيسابور، من نوع جلالة الإمام أحمد ببغداد، ومالك بالمدينة.

قال عنه ابن أبي حاتم : هو إمام من أئمة المسلمين .

وقال الخطيب : « كان أحدَ الأئمة العارفين ، والحفَّاظ المُتقنين ، صنَّف حديث الزهري ، وجوَّده ، وكان أحمد بن حنبل يُثني عليه ، وينشر فضْله » .

«قال ابنه يحيى: دخلتُ على أبي في الصيف الصائف وقت القائلة ، وهو في بيت كُتُبه ، وبين يديه السِّراج ، وهو يُصنِّف ، فقلتُ : ياأبت ، هذا وقتُ الصلاة ، ودُخان هذا السِّراج بالنهار ، فلو نفَّستَ عن نفسك ، قال: يابُنيَّ، تقول هذا، وأنا مع رسول الله ﷺ وأصحابه والتابعين»[1].

رحمةُ الله على الذهلي .. ما أعظم أدبه ، وما أشدّ عشقه للعلم ، لا حرَّ يمنعُه منه ، ولا دخانَ يُبعِدهُ عنه ، ولا شيء يُحِبُّه إلا أن يخلو بحديث النبي ﷺ والصحابة والتابعين !!

مجالسهُم مثلُ الرياضِ أنيقةٌ   لقد طاب منها الريحُ واللونُ والطعمُ

قال فيه الإمام أحمد : « لو أنه عندنا ؛ لجعلناه إمامًا في الحديث » .

قال سعيد بن منصور : قلتُ ليحيى بن معين : لِمَ لا تجمع حديث الزهري ؟ فقال : كفانا محمد بن يحيى ذلك .

قال زنجويه بن محمد : كنتُ أسمع مشايخنا يقولون : الحديث الذي لا يعرفه محمد بن يحيى لا يُعبأ به .

---

(١) تاريخ بغداد ٤١٩/٣، سير أعلام النبلاء ١٢/٢٧٩- ٢٨٠ .

وقال ابن أبي داود : حدَّثنا محمد بن يحيى ، وكان أمير المؤمنين في الحديث ، وقال له علي بن المديني : أنت وارث الزهري[(١)] .

« قال الذهلي رحمه الله : ارتحلتُ ثلاث رحلات ، وأنفقتُ على العلم مائة وخمسين ألفًا ، ولمّا دخلتُ البصرة استقبلتني جنازة يحيى القطّان على باب البصرة »[(٢)] .

« قال الدارقطني : مَنْ أحبَّ أن ينظر ويعرف قصور علمه عن علم السلف ؛ فلينظر في « علل حديث الزهري » لمحمد بن يحيى »[(٣)] .

« قال إمام الأئمة ابن خزيمة : حدَّثنا محمد بن يحيى الذُّهلي إمامُ عصره ، أسكنه الله جنَّته مع مُحبِّيه ، قال محمد بن سهل بن عسكر : كنا عند أحمد بن حنبل ، فدخل محمد بن يحيى الذهلي ، فقام إليه أحمد ، وتعجَّب الناس منه ، وقال لأولاده وأصحابه : اذهبوا إلى أبي عبد الله - أي الذهلي - فاكتبوا عنه »[(٤)] .

« قال أحمد بن الخفاف : رأيتُ محمد بن يحيى بعد وفاته ، فقلتُ : ما فعل الله بك ؟ قال : غفر لي ، قلتُ : فما فعل بحديثك ؟ قال : كُتب بماء الذهب ، ورُفعت في علّيّين »[(٥)] .

---

(١) تاريخ بغداد ٤١٩/٣، وتهذيب التهذيب ٥١٥/٩؛ وسير أعلام النبلاء ٢٨٣/١٢ .
(٢) تاريخ بغداد ٤١٩/٣، تذكرة الحفاظ ٥٣١/٢، سير أعلام النبلاء ٢٨٣/١٢، وتهذيب التهذيب ٥١٥/٩ .
(٣) سير أعلام النبلاء ٢٨٤/١٢، تذكرة الحفاظ ٥٣١/٢، وتهذيب التهذيب ٥١٥/٩ .
(٤) تذكرة الحفاظ ٥٣١/٢ .
(٥) تاريخ بغداد ٤١٩/٣ ، وسير أعلام النبلاء ٢٧٨/١٢، وتهذيب التهذيب ٥١٥/٩ .

٧٥ - الإمام عبد الملك بن حبيب الأندلسي القرطبي :

« قال تلميذه أبو عمر يوسف بن يحيى المغامي : طرقتُ عبد الملك ابن حبيب يومًا بغَلَسٍ ؛ حرصًا على الاقتباس منه ، واستأذنتُ عليه ، فأذِنَ لي ودخلتُ ، فإذا به جالسٌ في مجلسه ، عاكفٌ على الكتب ، قد أحاطت به ينظر فيها ، والشمعة بين يديه تَقِدُ ، وطويلةٌ عليه[١] ، فسلَّمتُ ، فردَّ عليَّ ، وقال لي : يايوسف ، أَوَ قَدْ انسلخ الليل ؟ قلتُ : نعم ، وقد صلَّيْنا ، فقام إلى صلاة الصبح فصلَّاها ، ثم رجع إلى مقعده ، وقال : يايُوسف ، ما صلَّيْتُ هذه الصلاة إلا بوضوء العشاء الآخرة »[٢] .

٧٦ - الإمام الحافظ أبو يعقوب إسحاق بن منصور الكَوْسَجُ المَرْوزي :

« كان إسحاق بن منصور الكوسج - تلميذ أحمد بن حنبل - فقيهًا عالمًا ، وهو الذي دوَّن عن الإمام أحمد المسائل في الفقه . قال حسَّان بن محمد : سمعتُ مشايخنا يذكرون أن إسحاق بن منصور بلغه أن أحمد بن حنبل رجع عن تلك المسائل التي علَّقها عنه ، فجمع إسحاق بن منصور تلك المسائل في جراب ، وحملها على ظهره ، وخرج راجلًا إلى بغداد وهي على ظهره ، وعرض خطوط أحمد عليه في كل مسألة استفتاه فيها ، فأقرَّ له بها ثانيًا ، وأُعجب أحمد بذلك من شأنه »[٣] .

سبحان الله ! يخرج من نيسابور إلى بغداد ماشيًا ليتثبَّت مما عنده من مسائل .

(١) أي على رأسه قلنسوة طويلة .
(٢) « ترتيب المدارك » للقاضي عياض ٣ / ٤٤ .
(٣) طبقات الحنابلة لأبي يعلى ١/١١٤ ، وتذكرة الحفَّاظ للذهبي ٢/٥٢٤ .

٧٧ - يعقوب بن شيبة الحافظ[١] :

قال عنه الذهبي في « سير أعلام النبلاء » (١٢/٤٧٦- ٤٧٩) :

«الحافظ الكبير العلّامة الثقة أبو يوسف السدوسي البصري ثم البغدادي، صاحب «المسند» الكبير ، العديم النظير ، المُعلّل ، الذي تمَّ من مسانيده نحوٌ من ثلاثين مُجلَّدًا ، ولو كمُل لجاء في مائة مُجلّد ؛ يُخرِّج العالي والنازل ، ويذكر أوَّلًا سيرة الصحابي مستوفاةً، ثم يذكر مارواه، ويوضِّح عِلَلَ الأحاديث، ويتكلَّم على الرجال ، ويُجرِّح ويُعدِّل ، بكلام مُفيد عذب شافٍ ، بحيث إن الناظر في « مسنده » لا يملُّ منه ، ولكن قلَّ مَنْ روى عنه » .

«قال الدارقطني: لو كان كتاب يعقوب بن شيبة مسطورًا على حمَّام؛ لوجب أن يُكتبْ ، يعني : لا يفتقر الشخص فيه إلى سماع » .

«قال الخطيب: حدَّثني الأزهري، قال: بلغني أنه كان في منزل يعقوب ابن شيبة أربعون لحافًا ، أعدَّها لمن كان عنده من الورَّاقين الذين يُبيِّضون له « المسند » . قال : ولزمه على ما خرَّج منه عشرة آلاف دينار ، ثم قال : وقيل : إن نُسخةً بمسند أبي هريرة منه شوهدت بمصر ، فكانت في مائتي جزء . قال : والذي ظهر له مسند العشرة ، وابن مسعود ، وعمَّار ، والعباس ، وعتبة بن غزوان ، وبعض الموالي »[٢] .

قال الذهبي : « وبلغني أنه شوهد له « مسند علي » في خمسة أسفار » .

هذه هِمَّةُ أهل البدع .. فكيف بهمَّة أهل السنة والجماعة .. ولقد أوردتُ هذا لسوق الذهبي له ، والحكمة ضالَّةُ المؤمن .

---

(١) كان من الواقفة – أي ممن يقفون في القرآن – كشيخه أحمد بن المُعدَّل . قال عنه الإمام أحمد : مُبتدع صاحب هوى ، كما جاء في تاريخ بغداد ١٤/٣٥٠ . قال الخطيب : وصفه بذلك لأجل الوقف ، نسأل الله السلامة في الدين .

(٢) تاريخ بغداد ١٤/٢٨١، وتذكرة الحفاظ ٢/٥٧٧ ، وسير أعلام النبلاء ١٢/٤٧٨ .

٧٨ - الإمام الحافظ راوية الإسلام بُندار : محمد بن بشار :

« لُقِّب بذلك ؛ لأنه كان بُندار الحديث في عصره ببلده ، والبندار : الحافظ »[١] .

جمع حديث البصرة ، ولم يرحل ؛ برًّا بأمِّه ، ثم رحل بعدها .

« قال ابن خزيمة : سمعتُ بندارًا يقول : اختلفت إلى يحيى القطّان - ذكر أكثر من عشرين سنة - ولو عاش بعدُ ، لكنتُ أسمعُ منه شيئًا كثيرًا » .

قال أبو داود : كتبتُ عن بندار نحوًا من خمسين ألف حديث ، وكتبتُ عن أبي موسى شيئًا ، وهو أثبتُ من بندار ، ولولا سلامة في بندار « ترِك حديثه »[٢] .

« قال بندار : أردتُ الخروج - يعني : الرحلة - فمنعتني أُمِّي ، فأطعتُها ، فبورك لي فيه .

قال بندار : سألوني الحديث وأنا ابن ثمان عشرة سنة ، فاستحييتُ أن أُحدِّثهم في المدينة ، فأخرجتُهم إلى البستان ، وأطعمتهم الرُّطب ، وحدَّثتُهم »[٣] .

٧٩ - الحافظ النسَّابة الزبير بن بكَّار القرشي :

قاضي مكة وعالمها أبو عبد الله بن أبي بكر بكَّار .. من ولد عبد الله بن الزبير بن العوام .

ما قال « لا » إلا في تشهُّدِه ... ولا جرى لفظُه إلا على « نعم »
بين الحواريّ والصدِّيق نسبتُه ... وقد جرى ورسولُ الله في رَحِمِ

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٢/١٤٤-١٤٩ .

(٢) تاريخ بغداد ٢/١٠٢، سير أعلام النبلاء ١٢/١٤٥ « يعني أنه كانت فيه سلامة فكان إذا سها أو غلط يُحمل ذلك على أنه لم يتعمَّد » .

(٣) تاريخ بغداد ٢/١٠٢، والسير ١٢/١٤٥، ١٤٧ .

وهو مُصنِّفُ كتاب « نسب قريش » ، وهو كتاب كبير نفيس .

وقد ذكر ياقوت في معجمه (١١/١٦٤، ١٦٥) اثنين وثلاثين كتابًا للزبير .

انظر رحمك الله إلى نهمه للعلم من خلال مقولة زوجه عنه :

قال الزبير: «قالت بنت أختي لأهلنا: خالي خير رجل لأهله، لا يتخذ ضُرَّةً ولا سُرِّيَّة[1]. قال: تقول المرأة: والله هذه الكتب أشدُّ عليَّ من ثلاث ضرائر » . ولا تعليق .. !!

٨٠ - أمير المؤمنين في الحديث : محمد بن إسماعيل البخاري :

قال شيخه الإمام أبو إسحاق السُّرمَاري : مَنْ أراد أن ينظر إلى فقيهٍ بحقِّه وصدقِه ؛ فلينظر إلى محمد بن إسماعيل البخاري ، وأجْلَسَه على حجره .

قال نُعيم بن حمَّاد : محمد بن إسماعيل فقيه هذه الأمة .

قال إسحاق بن راهويه: اكتبوا عن هذا الشاب- يعني: البخاري- فلو كان في زمن الحسن؛ لاحتاج إليه الناس، لمعرفته بالحديث وفقهه.

وكان علي بن حُجْر يُسمِّيه بالكبش ، ويقول : لا أعلمُ مثلَهُ .

قال أبو بكر بن أبي شيبة ومحمد بن عبد الله بن نمير : ما رأينا مثل محمد بن إسماعيل .

وقال علي بن المديني : إن محمد بن إسماعيل لم يرَ مثل نفسه .

لما دخل البخاري البصرة قال بُندار : اليوم دخل سيِّد الفقهاء .

قال قتيبة بن سعيد: نظرتُ في الحديث، ونظرتُ في الرأي، وجالستُ الفقهاء والزُّهاد والعُبَّاد؛ ما رأيتُ منذ عقلتُ مثل محمد بن إسماعيل البخاري.

---

(١) في تاريخ بغداد ٨/٤٧١ ، و « وفيات الأعيان » : ضرة ، ولا يشتري جارية .

(٢) تاريخ بغداد ٨/٤٧١، و « وفيات الأعيان » ٢/٣١٢، والسير ١٢/٣١٣ .

وقال رجاء الحافظ : فَضْلُ محمد بن إسماعيل على العلماء كفضل الرجال على النساء ، فقال له رجل : ياأبا محمد ، كُلّ ذلك بمرّة ؟! فقال : هو آية من آيات الله يمشي على ظهر الأرض .

قال أحمد بن حنبل : انتهى الحفظ إلى أربعة من أهل خراسان : أبو زرعة الرازي، ومحمد بن إسماعيل البخاري، وعبد الله بن عبد الرحمن السمرقندي ، والحسن بن شجاع البلخي .

وقال إبراهيم بن محمد بن سلَّام: إن الرُّتُوتَ من أصحاب الحديث[1] كانوا يهابون محمد بن إسماعيل ، ويقضون له على أنفسهم في المعرفة والنظر .

قال علماء مكة : محمد بن إسماعيل إمامُنا وفقيهُنا وإمامُ خراسان .

وقال ابن خزيمة : ما رأيتُ تحت أديم السماء أعلمَ بحديث رسول الله ﷺ وأحفظَ له من محمد بن إسماعيل .

« لما دخل البخاري البصرة قال : صرتُ إلى مجلس بندار ، فلما وقع بصرُهُ عليَّ ، قال : من أين الفتى ؟ قلتُ : من أهل بُخارى ، فقال لي : كيف تركتَ أبا عبدالله ؟ فأمسكتُ ، فقالوا له : يرحمك الله ، هو أبو عبد الله، فقام وأخذ بيدي، وعانقني، وقال: مرحبًا بمن أفتخر به منذ سنين».

وقال يعقوب الحافظ : رأيتُ مسلم بن الحجَّاج بين يدي البخاري يسألُه سُؤالَ الصبي .

وأتى مسلم إلى البخاري ، فقبَّل يده ، وقبَّل بين عينيه ، وقال له : دعني حتى أقبِّلَ رجليك ياأستاذ الأستاذين، وسيِّد المُحدِّثين، وطبيب الحديث في علله[2] .

---

(١) أي الرؤساء .

(٢) تهذيب الأسماء واللغات ١/٧٠/١ ، وطبقات السبكي ٢/٢٢٠، ومقدمة الفتح (٥١٣) .

وكتب أهل بغداد إليه :

المسلمون بخير ما بقيت لهم   وليس بعدك خيرٌ حين تُفتقدُ

انظر ياأخي إلى عُلُوِّ هِمَّة البخاري ، فإليه والله المنتهى في عُلُوِّ الهمة في طلب العلم وبذْله ونشره والصبر عليه .. البخاري صاحب الصحيح ، الذي سمعه تسعون ألف رجل ، كما قال محمد بن يوسف الفربري راويه .

حفظ البخاري كُتُبَ ابن المبارك ووكيع ، وعرف كلام أصحاب الرأي لما طعن في ست عشرة سنة .

قال البخاري : دخلتُ بلخ ، فسألوني أن أُملي عليهم لكل من كتبتُ عنه حديثًا ، فأمليتُ ألفَ حديثٍ لألف رجُلٍ ممن كتبتُ عنهم .

قال ورَّاقه محمد بن أبي حاتم : سمعتُه قبل موته بشهر يقول : كتبتُ عن ألف وثمانين رجلًا ، ليس فيهم إلا صاحبُ حديث .

« قال الذهبي عن صحيح البخاري : لو رحل الرجل من مسيرة سنة لسماعه لما فرَّط » .

قال البخاري : « لما طعنتُ في ثمان عشرة ، جعلتُ أُصنِّفُ قضايا الصحابة والتابعين وأقاويلهم ، وصنّفتُ كتاب « التاريخ » إذ ذاك عند قبر رسول الله ﷺ في الليالي المُقمرة ، وقلَّ اسمٌ في التاريخ إلَّا وله قصَّةٌ ، إلا أني كرهتُ تطويل الكتاب »[(١)] .

ياسبحان الله !! والله هذا من أعجب العجب .. فالتاريخ الكبير يزيد عن عشر مُجلَّدات ، كلُّ مُجلَّد لا يقلُّ عن مائتي صفحة إن لم يزد .. يكتب هذا وهو ابن ثمان عشرة سنة .. كتابٌ تمنَّى رؤيته العلماء .

وروى الذهبي في سير أعلام النبلاء (١٢/٤٢٦) : عن أبي سهل محمود الشافعي قال : « سمعتُ أكثر من ثلاثين عالمًا من علماء مصر ،

---

(١) تاريخ بغداد ٢/٧، سير أعلام النبلاء ١٢/٤٠٠ .

يقولون : حاجتُنا من الدنيا النظر في « تاريخ » محمد بن إسماعيل » .

وقال : « دخلتُ على الحميدي ، وأنا ابن ثمان عشرة سنة ، وبينه وبين آخر اختلاف في حديث ، فلما بصر بي الحميدي - وهو شيخه - قال : قد جاء مَنْ يفصل بيننا ، فعرضا عليَّ ، فقضيتُ للحميدي على مَنْ يُخالفه » .

وقال أبو بكر الأعْيَن : كتبنا عن البخاري على باب محمد بن يوسف الفِريابي ، وما في وجهه شعرة ، فقلنا : ابن كَمْ أنت ؟ قال : ابن سبع عشرة سنة .

قال البخاري: «كنتُ عند إسحاق بن راهويه، فقال بعض أصحابنا: لو جمعتم كتابًا مُختصرًا لسنن النبي ﷺ ، فوقع ذلك في قلبي ، فأخذتُ في جمع هذا الكتاب»[1] .

قال البخاري : أخرجتُ هذا الكتاب من زهاء ستمائة ألف حديث .

وقال : ما وضعتُ في كتابي « الصحيح » حديثًا إلا اغتسلتُ قبل ذلك ، وصلَّيتُ ركعتين .

وقال له محمد بن أبي حاتم : تحفظُ جميعَ ما أدخلت في المصنَّف ؟ قال : لا يخفى عليَّ جميع ما فيه .

وقال : صنَّفتُ جميع كُتُبي ثلاث مرات .

وقال: لو نُشِر بعض أستاذي هؤلاء لم يفهموا كيف صنَّفتُ «التاريخ» ولا عرفوه ، ثم قال : صنَّفتُهُ ثلاث مرات .

وقال : أخذ إسحاق بن راهويه كتاب « التاريخ » الذي صنَّفتُ ، فأدخله على عبد الله بن طاهر ، فقال : أيها الأمير ، ألا أُريك سِحْرًا ؟ قال :

(١) تاريخ بغداد ٢/٩ ، تهذيب الكمال ، والسير ١٢/٤٠١ .

فنظر فيه عبد الله ، فتعجَّب منه ، وقال : لستُ أفهم تصنيفَه[١] .

قال محمد بن يوسف البخاري : كنتُ مع محمد بن إسماعيل بمنزله ذات ليلة ، فأحصيتُ عليه أنه قام وأسرج يستذكر أشياء يُعلِّقها في ليلةٍ ثمان عشرة مرة[٢] .

وقال محمد بن أبي حاتم الورَّاق : كان أبو عبد الله إذا كنتُ معه في سفرٍ ، يجمعنا بيتٌ واحدٌ إلا في القيظ أحيانًا ، فكنتُ أراه يقوم في ليلة واحدة خمس عشرة مرة إلى عشرين مرة ، في كلِّ ذلك يأخذ القدَّاحة ، فيوري نارًا ، ويُسرج ، ثم يخرج أحاديث ، فيُعلِّم عليها[٣] .

فقد حوَّل محمد بن إسماعيل تراجم جامعه بين قبر رسول الله ﷺ ومنبره ، وكان يُصلِّي لكل ترجمة ركعتين .

قال البخاري : صنَّفتُ « الصحيح » في ست عشرة سنة ، وجعلتُه حُجَّةً فيما بيني وبين الله تعالى .

قال هانىء بن النضر : كنا عند محمد بن يوسف - يعني الفريابي - بالشام ، وكنا نتنزَّه فِعل الشباب في أكْل الفِرصاد[٤] ونحوه ، وكان محمد ابن إسماعيل معنا ، وكان لا يُزاحمنا في شيء مما نحن فيه ، ويُكبُّ على العلم .

قال عبد الله بن عبد الرحمن السمرقندي : محمد بن إسماعيل أعلمُنا وأفقهُنا وأغوصُنا ، وأكثرُنا طلبًا .

وقال : لم يكن يُشبه طلبُ محمد للحديث طلبَنا ، كان إذا نظر في حديث رجل أنزفه .

---

(١) تاريخ بغداد ٢/٧، وسير أعلام النبلاء ١٢/٤٠٣ .

(٢) تهذيب الكمال (١١٧٠)، وطبقات السبكي ٢/٢٢٠ .

(٣) تاريخ بغداد ٢/١٣، وتهذيب الأسماء واللغات ١/٧٥/١، ومقدمة الفتح (٤٨٢) .

(٤) أي عجم الزبيب والعنب ، والفرصاد : التوت .

قال له شيخه إسماعيل بن أبي أويس : انظر في كُتُبي ، وما أملكُه لك ، وأنا شاكرٌ لك ما دمتُ حيًّا .

قال أحمد بن حمدون : رأيتُ محمد بن إسماعيل ، ومحمد بن يحيى الذهلي يسأله عن الأسامي والكنى والعلل ، ومحمد بن إسماعيل يمرُّ فيه مثل السهم ، كأنه يقرأ : ﴿ **قل هو الله أحد** ﴾ .

وانظر إلى زين هذه الأمة[1] البخاري ونشره للعلم .

قال صالح بن محمد جزرة : كان محمد بن إسماعيل يجلس ببغداد ، وكنتُ أستملي له ، ويجتمع في مجلسه أكثر من عشرين ألفًا .

قال الفربري : « أملى البخاري يومًا عليَّ حديثًا كثيرًا ، فخاف ملالي ، فقال : طِبْ نفسًا ، فإن أهل الملاهي في ملاهيهم ، وأهل الصناعات في صناعاتهم ، والتجار في تجاراتهم ، وأنت مع النبي ﷺ وأصحابه »[2] .

وانظر رحمك الله إلى أُمَّةٍ من الأُمَّة ؛ البخاريِّ ، وكيف يجوع ويعرى في طلب العلم والانشغال به .

قال عمر بن حفص الأشقر : « كنا مع البخاري بالبصرة نكتب ، ففقدناه أيامًا ، ثم وجدناه في بيت وهو عُريان ، وقد نفد ما عنده ، فجمعنا له الدراهم وكسوناه »[3] .

وقال محمد بن أبي حاتم: «سمعتُ البخاري يقول: خرجتُ إلى آدم بن أبي إياس، فتخلفتْ عني نفقتي، حتى جعلتُ أتناول الحشيش ، ولا أُخبر بذلك

---

(١) قال له عبد الله بن منير ، وكان من كبار الزُّهَّاد : جعلك الله زيْنَ هذه الأمة . قال الترمذي : استُجيب له فيه .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٢/٤٤٥ .

(٣) تاريخ بغداد ٢/١١، ١٢، ومقدمة الفتح (٤٨٠)، وسير أعلام النبلاء ١٢/٤٤٨ .

أحدًا ، فلما كان اليوم الثالث ، أتاني آتٍ لم أعرفه ، فناولني صُرَّةَ دنانير ، وقال : أنفقْ على نفسك »[١] .

وقال البخاري : كنتُ أستغِلُّ كل شهر خمسمائة درهم ، فأنفقتُ كلَّ ذلك في طلب العلم ، فقال محمد بن أبي حاتم : كم بَيْن من يُنفق على هذا الوجه ، وبيْن مَنْ كان خِلْوًا من المال ، فجمع وكسب بالعلم ، حتى اجتمع له، فقال أبو عبد الله : ﴿**وما عند الله خيرٌ وأبقى**﴾ [الشورى : ٣٦] .

قال الحافظ ابن عقدة : لو أن رجُلًا كتب ثلاثين ألف حديث ، لما استغنى عن تاريخ محمد بن إسماعيل البخاري .

وقال ابن حجر : « لو فتحت باب ثناء الأئمة عليه ممن تأخَّر عن عصره ؛ لفني القرطاس ، ونفدت الأنفاس ، فذاك بحرٌ لا ساحلَ له » .

وانظر رحمك الله إلى عُلُوِّ هِمَّتِهِ ، وجمع همِّه على العلم وحفظه :

قال رحمه الله : أحفظُ مائة ألف حديث صحيح ، وأحفظ مائتي ألف حديث غير صحيح .

وقال ورَّاقُه : سمعتُه يقول : ما نمتُ البارحة حتى عددتُ كم أدخلتُ في تصانيفي من الحديث ، فإذا نحو مائتي ألف حديث .

وقال أيضًا : « لو قيل لي : تمنَّ ؛ لما قمتُ حتى أروي عشرة آلاف حديث في الصلاة خاصة » .

هذه والله الرجولة .. وهذه والله أمانّي سيِّد الربَّانيِّين .. هذه والله الحياة الطيبة التي قال فيها الصالحون : « لو يعلم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه من سعادة لجالدونا عليها بالسيوف». ولا عجب أن يقول بعد ذلك قتيبة شيخ أحمد بن حنبل في البخاري: «لو كان محمد في الصحابة لكان آية»[٢].

---

(١) تاريخ بغداد ١٣/٢، وطبقات السبكي ٢١٧/٢، وسير أعلام النبلاء ٤٤٨/١٢ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٤٣١/١٢، ومقدمة الفتح (صـ ٤٨٣) .

قال رجل للبخاري : سمعتُ إسحاق بن راهويه يقول : كأني أنظر إلى سبعين ألف حديث من كتابي ، فقال له محمد بن إسماعيل : أو تعجب من هذا القول ، لعل في هذا الزمان مَنْ ينظر إلى مائتي ألف من كتابه ، وإنما عنى نفسه .

«قال أحمد بن عدي الحافظ: سمعتُ عدَّةً من مشايخ بغداد يقولون: إن محمد بن إسماعيل البخاري قدم بغداد ، فسمع به أصحاب الحديث ، فاجتمعوا وأرادوا امتحان حفظه ، فعمدوا إلى مائة حديث ، فقلبوا متونها وأسانيدها ، وجعلوا متن هذا الإسناد لإسناد آخر ، وإسناد هذا المتن لمتن آخر ، ودفعوها إلى عشرة أنفس ، لكل رجُل عشرة أحاديث ، وأمروهم إذا حضر المجلس ؛ أن يُلقوا ذلك على البخاري ، وأخذوا عليه الموعد للمجلس ، فحضروا وحضر جماعة من الغرباء من أهل خراسان وغيرهم ومن البغداديين ، فلما اطمأنَّ المجلس بأهله انتدب رجل من العشرة ، فسأله عن حديث من تلك الأحاديث ، فقال البخاري : لا أعرفه ، فما زال يُلقي عليه واحدًا بعد واحد ، حتى فرغ ، والبخاري يقول : لا أعرفه ، وكان العلماء ممن حضر المجلس يلتفتُ بعضُهم إلى بعض ، ويقولون : فهم الرجل ، ومَنْ كان لم يدرِ القصة يقضي على البخاري بالعجز والتقصير وقِلَّة الحفظ . ثم انتدب رجل من العشرة ، فسأله عن حديث من تلك الأحاديث المقلوبة ، فقال : لا أعرفه ، فسأله عن آخر ، فقال : لا أعرفه ، فلم يزل يُلقى عليه واحدًا واحدًا ،حتى فرغ من عشرته ، والبخاري يقول : لا أعرفه . ثم انتدب الثالث والرابع إلى تمام العشرة ، حتى فرغوا كلهم من إلقاء تلك الأحاديث المقلوبة ، والبخاري لا يزيدهم على : لا أعرفه ، فلما علم أنهم قد فرغوا ؛ التفت إلى الأول ، فقال : أمّا حديثك الأول ، فقلتَ كذا ، وصوابه كذا ، وحديثك الثاني كذا ، وصوابه كذا ، والثالث والرابع على الولاء ، حتى أتى على تمام العشرة ، فردَّ كل متنٍ إلى إسناده ،

وكلّ إسناد إلى متنه ، وفعل بالآخرين مثل ذلك ، فأقرَّ الناس له بالحفظ ، وأذعنوا له بالفضل »(١) .

قال ابن حجر : « العجب من حفظه للخطأ على ترتيب ما ألقوه عليه من مرة واحدة .

وقال أبو الأزهر : كان بسمرقند أربعمائة مُحدِّث ، فتجمَّعوا وأحبُّوا أن يُغالطوا محمد بن إسماعيل ، فأدخلوا إسناد الشام في إسناد العراق ، وإسناد العراق في إسناد الشام ، وإسناد الحرم في إسناد اليمن ، فما استطاعوا مع ذلك أن يتعلَّقوا عليه بسقطة .

ولما دخل البصرة عقد مجلسًا للإملاء حضره المُحدثون والحُفاظ والفقهاء والنظاوة ، حتى اجتمع قريب من كذا كذا ألف نفس ، فجلس أبو عبد الله للإملاء ، فقال قبل أن يأخذ في الإملاء : ياأهل البصرة ، أنا شاب ، وقد سألتموني أن أحدِّثكم وسأُحدِّثكم بأحاديث عن أهل بلدكم تستفيدونها ؛ يعني ليست عندكم . قال : فتعجَّب الناس من قولِهِ ، فأخذ في الإملاء ، فقال : حدَّثنا عبد الله بن عثمان بن جبلة بن أبي رواد العتكي ببلدكم ، قال : حدَّثني أبي عن شعبة عن منصور وغيره عن سالم بن أبي الجعد عن أنس بن مالك أن أعرابيًّا جاء إلى النبي ﷺ ، فقال : يارسول الله ، الرجل يُحبُّ القوم ... الحديث ، ثم قال : هذا ليس عندكم عن منصور إنما هو عندكم عن غير منصور . قال يوسف بن موسى : فأملى عليهم مجلسًا من هذا النسق ، يقول في كل حديث : روى فلان هذا الحديث عندكم كذا ، فأما من رواية فلان - يعني التي يسوقها - فليست عندكم »(٢) .

---

(١) في سير أعلام النبلاء ١٢/٤٠٩ : فكان ابن صاعد إذا ذكره يقول: الكبش النطَّاح. تاريخ بغداد ٢/٢٠، ٢١، ووفيات الأعيان ٤/١٩٠، ومقدمة الفتح (٥١٠-٥١١).

(٢) مقدمة الفتح صـ ٥١٠ - ٥١١ .

« قال البخاري : كتبتُ عن ألف شيخ وأكثر ، عن كلٍّ واحد منهم عشرة آلاف وأكثر ، ما عندي حديث إلا أذكر إسناده »[١] .

قال حاشد بن إسماعيل وآخر : كان أبو عبد الله البخاري يختلف معنا إلى مشايخ البصرة وهو غلام فلا يكتب ، حتى أتى على ذلك أيام ، فكنا نقول له : إنك تختلف معنا ولا تكتب ، فما تصنع؟ فقال لنا يومًا بعد ستة عشر يومًا : إنكما قد أكثرتما عليَّ وألححتما ، فاعرضا عليَّ ما كتبتما ، فأخرجنا إليه ما كان عندنا ، فزاد على خمسة عشر ألف حديث ، فقرأها كلها عن ظهر القلب ، حتى جعلنا نُحكم كُتُبنا من حفظه ، ثم قال : أترون أني أختلف هَدْرًا ، وَأُضَيِّع أيامي ؟! فعرفنا أنه لا يتقدَّمُه أحدٌ[٢] .

وقال رحمه الله : تفكّرت أصحاب أنس ، فحضرني في ساعة ثلاثمائة .

« وقال محمد بن أبي حاتم الورَّاق : قرأ علينا أبو عبد الله كتاب « الهبة » ، فقال : ليس في هبة وكيع إلا حديثان مُسندان أو ثلاثة . وفي كتاب عبد الله بن المبارك خمسة أو نحوه . وفي كتابي هذا خمسمائة حديث أو أكثر »[٣] .

وهذا يدل على سعة حفظه وعُلُوِّ كعبه في العلم !!

وقال رحمه الله : صنّفت كتاب « الاعتصام » في ليلة .

رحم الله البخاري جزاءَ ما قدَّم لأُمَّته ، وجزاء صبره على العلم ونشْره .

ولله دَرُّ من قال :

---

(١) « طبقات السبكي » ٢/٢٢٢، وسير أعلام النبلاء ١٢/٤٠٧ .
(٢) طبقات الحنابلة ١ / ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، وتاريخ بغداد ٢ / ١٤ ، ١٥ ، وطبقات السبكي ٢/٢١٧ .
(٣) سير أعلام النبلاء ١٢/٤١٠ – ٤١١ .

صحيحُ البخاري لو أنصفوهُ لما خُطَّ إلا بماء الذهبْ
هو الفرقُ بين الهدى والعمى هو السدُّ بين الفتى والعَطَبْ
أسانيدُ مثلُ نجومِ السماءِ أمامَ متون كمثل الشهُبْ
به قام ميزانُ دينِ الرسولِ ودان به العُجمُ بعدَ العربْ
حجابٌ من النار لاشكَّ فيه تميز بين الرضا والغضبْ
وسِترٌ رقيقٌ إلى المصطفى ونص مُبينٌ لكشفِ الرِّيَبْ
فيا عالمًا أجمع العالِمو ن على فضل رُتبته في الرُّتَبْ
سبقتَ الأئمة فيما جمعتَ وفُزتَ على رغمهم بالقصبْ
نفيتَ الضعيفَ من الناقلين ومَنْ كان مُتَّهمًا بالكذب
وأبرزتَ في حُسْنِ ترتيبهِ وتبويبه عجبًا للعجبْ
فأعطاك مولاك ما تشتهيه وأجزل حظَّكَ فيما وهبْ[١]

٨١ - المُزَنيُّ :

الإمام فقيه المِلَّة أبو إبراهيم ، إسماعيل بن يحيى المصريّ تلميذ الشافعي .

قال الشافعي : المزنيُّ ناصر مذهبي[٢] .

قال الذهبي في «السير» (٤٩٣/١٢): امتلأت البلاد بـ «مختصره» في الفقه ، وشرحه عدَّةٌ من الكبار ، بحيث يُقال : كانت البكْر يكون في جهازها نسخةٌ من « مختصر المزني » .

« قال أبو العباس ابن سريج : يخرج مختصر المزني من الدنيا عذراء لم تفتضَّ .

وقال أبو العباس في كتاب المزني :

(١) تاريخ ابن كثير ٢٧/١١، ٢٨ .
(٢) وفيات الأعيان ٢١٧/١ و « طبقات السبكي » ٢ / ٩٤ .

حليف فؤادي مذ ثلاثين حجَّةً ... وصَيقَل ذهني والمفرِّج عن همِّي
جَموعٌ لأنواع العلوم بأسْرها ... بمختصرٍ ليسَ تُفارقه كُمِّي
عزيزٌ على مثلي إضاعةُ علمِهِ ... لما فيه من نسجٍ بديعٍ ومن نظمِ

قال منصور بن إسماعيل الفقيه :

لم ترَ عيناي وتسمع أُذني ... أحسنَ نظمًا من كتاب المزني

وقال ابن سريج : ما نظرتُ فيه من مرّة إلا واستفدتُ فائدةً جديدة » .

قال البيهقي : « لا أعلم كتابًا صُنِّف في الإسلام أعظم نفعًا وأعمَّ بركةً وأكثر ثمرةً من كتابه ، وكيف لا يكون كذلك ، واعتقاده في دين الله تعالى ، ثم اجتهاده في عبادة الله تعالى ، ثم في جمع هذا الكتاب ، ثم اعتقاد الشافعي في تصنيفه للكتب »[(١)] .

قال المزني : « كنتُ في تأليف هذا الكتاب عشرين سنة ، وألفتُه ثلاث مرات ، وكنتُ كلما أردتُ تأليفه ؛ أصوم قبله ثلاثة أيام ، وأُصلِّي كذا كذا ركعة »[(٢)] .

وقال الذهبي : « بلغنا أن المزني كان إذا فرغ من تبييض مسألة ، وأودعها « مختصره » ؛ صلَّى ركعتين »[(٣)] .

قال الشافعي للمزني وقد أقبل يومًا: هذا لو ناظر الشيطانَ لقطعه[(٤)].

اعلم يا أخي أن المزني جمع في مختصره ما تفرَّق من كلام الشافعي ، واختصر ما بُسط من قوله ، وقرَّبه على مَنْ أراده ، وسهَّله على مَنْ قصده من أهل الشرق والغرب .

---

(١) مناقب الشافعي للبيهقي صـ ٣٤٨ .
(٢) مناقب الشافعي صـ ٣٤٩ .
(٣) سير أعلام النبلاء ١٢/٤٩٣ - ٤٩٤ .
(٤) طبقات الشافعية ٢/٩٣، مناقب الشافعي للبيهقي صـ ٣٥٦ .

٨٢ - أبو بكرة : بكَّار بن قتيبة الفقيه المُحدِّث قاضي القضاة بمصر :

« كان بكَّار تاليًا بكَّاءً صالحًا ديِّنًا . حبسه ابن طولون ، وكان يُحَدِّث من طاقة السجن ؛ لأن أصحاب الحديث طلبوا ذلك من أحمد ، فأذِنَ لهم على هذه الصورة »[(١)] .

لكم الله يارجال الحديث وفرسانه.. لا يمنعهم عن أن يُحدِّثوا السجن، فهم في وادٍ ، والناس في وادٍ آخر ..

وليس السجنُ حبسَ الجسمِ قهرًا فـذا أُنسٌ بـربِّ العالمينـا

٨٣ - الإمام الحافظ الأثرم أبو بكر ، أحمد بن محمد بن هاني مُصنِّف السنن وتلميذ الإمام أحمد :

قال الذهبي : « كان معه تيقُّظٌ عجيبٌ ، حتى نسبه يحيى بن معين ، ويحيى بن أيوب المقابري ، فقال : كان أحدُ أبوي الأثرم جنيًّا »[(٢)] .

« قال أبو بكر الخلَّال: كان الأثرم جليل القدرِ، حافظًا، وكان عاصمُ ابن علي لما قدم بغداد؛ طلب رجُلًا يُخرِّج له فوائد يُمليها ، فلم يجد في ذلك الوقت غير أبي بكر الأثرم ، فكأنه لما رآه لم يقع منه موقعًا ؛ لحداثة سنه، فقال له أبو بكر : أخرجْ كُتُبك ، فجعل يقول له : هذا الحديث خطأ ، وهذا غلط ، وهذا كذا . قال : فسُرَّ عاصم بن علي به ، وأملى قريبًا من خمسين مجلسًا ، وكان يعرف الحديث ويحفظ ، فلما صحب أحمدَ بنَ حنبل ترك ذلك ، وأقبل على مذهب أحمد .

قال الأثرم : كنتُ أحفظُ - يعني الفقه والاختلاف - فلما صحبتُ أحمدَ بن حنبل تركت ذلك كله .

---

(١) سير أعلام النبلاء ٦٠٣/١٢ .

(٢) طبقات الحنابلة ٧٣،٧٢/١، وتذكرة الحفاظ ٥٧١/٢، وسير أعلام النبلاء ٦٢٥/١٢.

قال أبو القاسم بن الخُتَّلِي : قام رجلٌ ، فقال : أُريد مَنْ يكتبُ لي من كتاب الصلاة ما ليس في كُتُب أبي بكر بن أبي شيبة ، فقلنا له : ليس لك إلا أبو بكر الأثرم. قال: فوجَّهوا إليه ورقًا، فكتب ستمائة ورقة من كتاب الصلاة. قال: فنظرنا، فإذا ليس في كتاب ابن أبي شيبة منه شيء»[(١)].

« قال الحسن بن علي بن عمر الفقيه : قدم شيخان من خراسان الحجَّ ، فحدَّثا ، فلما خرجا ، طلب قوم من أصحاب الحديث أحدهما . قال : فخرجا - يعني إلى الصحراء - فقعد هذا الشيخ ناحية ، معه خلقٌ ومُستملٍ ، وقعد الآخر ناحية كذلك ، وقعد أبو بكر الأثرم بينهما ، وكتب ما أملى هذا وما أملى هذا »[(٢)] .

قال إبراهيم بن الأصبهاني : « أبو بكر الأثرم أحفظُ من أبي زرعة الرازي وأتقنُ » .

٨٤ - الإمام الجوَّال الجُرجاني : أبو إسحاق إسماعيل بن زيد الحافظ :

حمل كُتُب الشافعي عن حرملة .

قال أبو أحمد بن عدي : كان إسماعيل هذا يكتب في الليلة تسعين ورقة بخطٍّ دقيقٍ .

قال الذهبي : هذا كان يُمكنه أن يكتب صحيح مسلم في أسبوع[(٣)]

٨٥ - أبو زرعة الرازي سيِّدُ الحُفَّاظ المُشَبَّهُ بأحمد بن حنبل :

الإمام سيِّدُ الحُفَّاظ ، عُبيد الله بن عبد الكريم بن يزيد مُحدِّث الريِّ .

---

(١) طبقات الحنابلة ٧٣/١، سير أعلام النبلاء ٦٢٥/١٢ .

(٢) طبقات الحنابلة ٧٣/١، وتذكرة الحفاظ ٥٧١/٢، وسير أعلام النبلاء ٦٢٦/١٢.

(٣) سير أعلام النبلاء ٥٤/١٣ .

قال يونس بن عبد الأعلى يومًا : حدَّثني أبو زرعة ، فقيل له : من هذا ؟ فقال : إن أبا زرعة أشهرُ في الدنيا من الدنيا .

وقال الربيع : إن أبا زرعة آية ، وإن الله إذا جعل إنسانًا آيةً ؛ أبانه من شكله ، حتى لا يكون له ثانٍ .

وقال محمد بن يحيى : لا يزال المسلمون بخير ما أبقى الله لهم مثل أبي زرعة ، يُعلمُ الناس ، وما كان الله ليترك الأرض إلَّا وفيها مثل أبي زرعة يُعلِّمُ الناسَ ما جهلوه .

وقال أحمد بن حنبل : ما جاوز الجسرَ أحدٌ أفقه من إسحاق بن راهويه ، ولا أحفظ من أبي زرعة .

وقال عبد الله بن أحمد : ذاكرتُ أبي ليلةً الحُفَّاظَ ، فقال : يابُنيَّ ، قد كان الحفظُ عندنا، ثم تحوَّل إلى خراسان، إلى هؤلاء الشباب الأربعة. قلتُ : منْ هم ؟ قال : أبو زرعة ، ذاك الرازي ، ومحمد بن إسماعيل ، ذاك البخاري ، وعبد الله بن عبد الرحمن ، ذاك السمرقندي ، والحسن بن شجاع، ذاك البلخي. قلتُ: ياأبهْ، فمَنْ أحفظُ هؤلاء ؟ قال: أما أبو زرعة؛ فأسردهم ، وأما البخاري ؛ فأعرفهم ، وأما عبد الله - يعني الدارمي - فأتقنهم ، وأما ابنُ شجاع ؛ فأجمعهم للأبواب(١) .

قال إسحاق بن راهويه : كل حديث لا يعرفه أبو زرعة الرازي ؛ فليس له أصلٌ(٢) .

يقول أبو زرعة رحمه الله : « لا أعلم صفا لي رباطُ يوم قطُّ ؛ أما بيروت ، فأردنا العباس بن الوليد بن مَزْيد ، وأما عسقلان ، فأردنا محمد

(١) تاريخ بغداد ١٠/٣٢٧ ، سير أعلام النبلاء ١٣/٧٨ .
(٢) تاريخ بغداد ١٠/٣٣٢ ، سير أعلام النبلاء ١٣/٧١ .

ابن أبي السَّرِي ، وأما قزوين ، فمحمد بن سعيد بن سابق »[١] .

يعني أنه حتى في أماكن الرباط كان يشغله العلم ولُقيا شيوخه في هذه الأماكن ، وهل العلم إلا أخصُّ الجهادين ؟!

قال عبد الله بن أحمد : لما ورد علينا أبو زرعة ؛ نزل عندنا ، فقال أبي : يابُنَيَّ ، قد اعتَضْتُ بنوافلي مُذاكرة هذا الشيخ[٢] .

« قال الحافظ ابن عدي : سمعتُ أبي يقول : كنتُ بالرِّي ، وأنا غلام في البزَّازين، فحلف رجل بطلاق امرأته: أن أبا زرعة يحفظ مائة ألف حديث، فذهب قوم – أنا فيهم – إلى أبي زرعة ، فسألناه ، فقال : ما حمله على الحلف بالطلاق ؟ قيل: قد جرى الآن منه ذلك، فقال أبو زرعة: لِيُمسكْ امرأته، فإنها لم تُطلَّقْ عليه ، أو كما قال »[٣] .

قال أبو زرعة : عجبتُ ممن يُفتي في مسائل الطلاق ، يحفظ أقلَّ من مائة ألف حديث .

وقال علي بن الحسين بن الجنيد : ما رأيتُ أحدًا أعلمَ بحديث مالك ابن أنس – مسندها ومنقطعها – من أبي زرعة ، وكذلك سائر العلوم .

قال أبو زرعة : أحفظُ في القراءات عشرة آلاف حديث[٤] .

« قال أبو العباس الثقفي : لما انصرف قتيبة بن سعيد إلى الرِّي ؛ سألوه أن يُحدِّثهم ، فامتنع ، فقال : أُحدِّثكم بعد أن حضر مجلسي أحمد ، وابن معين ، وابن المديني ، وأبو بكر بن أبي شيبة ، وأبو خثيمة ؟ قالوا له :

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٣/٦٧ ، وفي تاريخ ابن عساكر ١٠/٣٤٥ب : « لا أعلم أنه صحَّ لي » .
(٢) تاريخ بغداد ١٠/٣٢٧ ، سير أعلام النبلاء ١٣/٦٨ ، وتذكرة الحفاظ ٢/٥٥٧ .
(٣) تاريخ بغداد ١٠/٣٢٤– ٣٢٥ ، وسير أعلام النبلاء ١٣/٦٩ .
(٤) تاريخ بغداد ١٠/٣٢٨ ، سير أعلام النبلاء ١٣/٧١ .

فإن عندنا غلامًا يسرد كلَّ ما حدَّثتَ به ، مجلسًا مجلسًا ، قم ياأبا زرعة ، فقام ، فسرد كلَّ ما حدَّث به قتيبة ، فحدَّثهم قتيبة »[١] .

« قال أبو حاتم الرازي : حدَّثني أبو زرعة عبيد الله ، وما خلّف بعده مثله ، علمًا وفهمًا وصيانةً وحذقًا ، وهذا لا يُرتاب فيه ، ولا أعلم من المشرق والمغرب مَنْ كان يفهم هذا الشأن مثله ، ولقد كان من هذا الأمر بسبيل »[٢] .

قال رحمه الله : الحديث مثل الشمس ، إذا حُبس عن الشرق خمسة أيام لا يعرف السفر ، فهذا الشأن يحتاج أن تتعاهده أبدًا .

«ارتحل أبو زرعة من الريِّ وهو ابن ثلاث عشرة سنة، وغاب بالكوفة عشرة أشهر ، ثم رجع إلى الريِّ ، ثم خرج في رحلته الثانية ، وغاب عن موطنه أربع عشرة سنة، وجلس للتحديث وهو ابن اثنتين وثلاثين سنة»[٣] .

وقال رحمه الله : « خرجتُ من الريِّ المرة الثانية سنة سبع وعشرين ومائتين ورجعتُ سنة اثنتين وثلاثين ، فبدأتُ فحججتُ ، ثم خرجتُ إلى مصر ، فأقمتُ بمصر خمسة عشر شهرًا ، وكنت عزمت في بُدو قدومي إلى مصر أني أُقِلّ المقام بها ، فلما رأيتُ كثرة العلم بها وكثرة الاستفادة عزمتُ على المقام ، ولم أكن عزمتُ على سماع كُتُبِ الشافعي ، فلما عزمتُ على المقام وجِّهتُ إلى أعرف رجل بمصر بكُتُبِ الشافعي ، فقبَّلتها[٤] منه بثمانين درهمًا أن يكتبها كلَّها ، وأعطيتُه الكاغد[٥] ، وكنتُ حملتُ معي

(١) تاريخ بغداد ٣٣٢/١٠ .

(٢) تاريخ بغداد ٣٣٣/١٠ .

(٣) سير أعلام النبلاء ٧٨/١٣ .

(٤) قبّلهُ العمل : تعاقد معه عليه جملة بأجر مقطوع على إنجازه .

(٥) الورق .

ثوبين دَبْيَقِيّين لأقطعهما[١] ، فلما عزمتُ على كتابتها أمرتُ ببيعهما ، فبيعا بستين درهمًا ، واشتريتُ مائة ورقة كاغد بعشرة دراهم ، كتبتُ فيها كُتُب الشافعي ، ثم خرجتُ إلى الشام ، فأقمتُ بها ما أقمتُ ، ثم خرجتُ إلى الجزيرة ، وأقمتُ بها ما أقمتُ ، ثم رجعتُ إلى بغداد ، ورجعتُ إلى الكوفة ، وأقمتُ بها ما أقمتُ ، وقدمتُ البصرة ، فكتبتُ بها عن شيبان وعبد الأعلى ، وأقمتُ في خرجتي الثالثة بالشام والعراق ومصر أربع سنين وستة أشهر »[٢] .

حضر ابن وارة والمنذر بن شاذان وأبو حاتم عند وفاة أبي زرعة، وهُوَ في السَّوْق، فقالوا: كيف يُلقَّنُ مثل أبي زرعة ؟ وذكروا حديث التلقين «لقِّنوا موتاكم لا إله إلا الله »[٣] واستحيوا من أبي زرعة أن يُلقِّنوه ، فقالوا : تعالَوْا نذكر الحديث ، فقال ابن وارة : حدَّثنا أبو عاصم ، حدَّثنا عبد الحميد بن جعفر ، عن صالح ، وجعل يقول : ابن أبي ، ولم يُجاوزه . وقال أبو حاتم : حدَّثنا بندار ، حدَّثنا أبو عاصم ، عن عبد الحميد بن جعفر ، عن صالح ، ففتح عينيه ، وقال : حدَّثنا بندار ، حدَّثنا أبو عاصم ، أخبرنا عبد الحميد ، حدَّثنا صالح بن أبي غريب ، عن كثير بن مرَّة ، عن معاذ ، قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ كان آخر كلامه لا إله إلا الله »[٤] ، وخرج روحه معه . وفي رواية أخرى : « دخل الجنة »[٤] ، وتُوفِّي رحمه الله .

« قال ابن وارة : رأيتُ أبا زُرعة في النوم ، فقلتُ له : ما حالُك يأبا زرعة ؟ قال : أحمدُ الله على أحواله كلِّها ، إني حضرتُ ، فوقفتُ بين

---

(١) أي ليخيطهما في بلده .
(٢) مقدمة الجرح والتعديل لابن أبي حاتم الرازي صـ ٣٤٠ .
(٣) أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي عن أبي سعيد ، وأخرجه مسلم عن أبي هريرة والنسائي عن عائشة .
(٤) إسناده حسن ، وأخرجه أحمد وأبو داود والحاكم ، وقال : صحيح الإسناد ، ووافقه الذهبي .

يدي الله تعالى ، فقال : ياعُبيد الله ، لِمَ تذرَّعتَ القول في عبادي ؟ قلتُ : يارب ، إنهم حاولوا دينك ، قال : صدقت ، ثم أُتي بطاهر الخُلقاني ، فاستعديتُ عليه إلى ربي ، فضُرب الحدَّ مائة ، ثم أُمر به إلى الحبس ، ثم قال : ألحقوا عبيد الله بأصحابه : أبي عبد الله ، وأبي عبد الله ، وأبي عبد الله : سفيان الثوري ، ومالك بن أنس ، وأحمد بن حنبل » .

قال الذهبي في السير (١٣ / ٨٥) : إسنادها كالشمس .

٨٦ - شيخ الحفَّاظ الإمام أبو حاتم الرازي :

قال الذهبي في السير (١٣/٢٤٧): «كان من بحور العلم طوف البلاد، وبرع في المتن والإسناد، وجمع وصنَّف، وجرح وعدَّل، وصحَّح وعلَّل.

قال يونس بن عبد الأعلى : أبو زرعة وأبو حاتم إماما خراسان ، ودعا لهما ، وقال : بقاؤهما صلاحٌ للمسلمين .

قال أبو حاتم اللبَّان الحافظ: قد جمعتُ مَنْ روى عنه أبو حاتم الرازي، فبلغوا قريبًا من ثلاثة آلاف .

قال أبو حاتم الرازي : قال لي أبو زرعة : ما رأيتُ أحرص على طلب الحديث منك ، فقلتُ له : إن عبد الرحمن ابني لحريصٌ ، فقال : « مَنْ أشبه أباه فما ظلم » .

قال الرَّقام: فسألتُ عبد الرحمن عن اتِّفاق كثرة السماع له، وسؤالاته لأبيه ، فقال : ربما كان يأكل وأقرأ عليه ، ويمشي وأقرأ عليه ، ويدخل الخلاء وأقرأ عليه ، ويدخل البيت في طلب شيء وأقرأ عليه » .

أقول شبيهات بما قال عالمًا بهنَّ ومَنْ يُشبه أباه فما ظلمْ

« قال أبو حاتم : جرى بيني وبين أبي زرعة يومًا تمييزُ الحديث ومعرفته ، فجعل يذكر أحاديثَ وعللها ، وكذلك كنتُ أذكر أحاديث خطأ وعللها ، وخطأ الشيوخ ، فقال لي : ياأبا حاتم ، قلَّ مَنْ يفهم هذا ، ما

أعزَّ هذا ! إذا رفعتَ هذا من واحد واثنين ، فما أقلّ مَن تجد منْ يحسن هذا ! وربما أشكّ في شيء ، أو يتخالجني في حديث ، فإلى أن ألتقي معك لا أجد مَنْ يشفيني منه ، وكذلك كان أمري .

وقال رحمه الله : قلتُ على باب أبي الوليد الطيالسي : مَنْ أغرب عليَّ حديثًا [غريبًا مسندًا لم أسمع به] صحيحًا ؛ فله عليَّ درهم يتصدَّق به ، وكان ثَمَّ خَلْقٌ : أبو زرعة ، فمنْ دونه ، وإنما كان مرادي أن يُلقى عَلَيَّ ما لم أسمع به ، فيقولون : هو عند فلان ، فأذهب وأسمعه(١) ، فلم يتهيَّأ لأحد أن يُغرِب عليَّ حديثًا »(٢) .

هذا والله العزُّ والملك والسيادة !!

« وقال أبو حاتم رحمه الله : أول سنة خرجت في طلب الحديث ، أقمتُ سبع سنين ، أحصيتُ ما مشيتُ على قدميّ زيادة على ألف فرسخ .

قال الذهبي : مسافة ذلك نحو أربعة أشهر ، سير الجادة .

قال أبو حاتم : ثم تركتُ العدد بعد ذلك ، وخرجتُ من البحرين إلى مصر ماشيًا ، ثم إلى الرملة ماشيًا ، ثم إلى دمشق ، ثم أنطاكية وطرسوس ، ثم رجعتُ إلى حمص ، ثم إلى الرَّقَّة ، ثم ركبتُ إلى العراق ؛ كل هذا في سفري الأول وأنا ابن عشرين سنة ، خرجتُ من الريِّ ، فدخلتُ الكوفة في رمضان سنة ثلاث عشرة ، ورحلتُ ثانيًا سنة اثنتين وأربعين ، ثم رجعتُ إلى الريِّ سنة خمس وأربعين ، وحججتُ رابع حَجَّة في سنة خمس وخمسين » .

« وقال رحمه الله : بقيتُ في سنة أربع عشرة ثمانية أشهر بالبصرة ،

---

(١) زاد في « الجرح » هنا : « وكان مرادي أن أستخرج منهم ما ليس عندي » .
(٢) سير أعلام النبلاء ١٣/٢٥٥ .

وكان في نفسي أن أقيم سنة ، فانقطعت نفقتي ، فجعلتُ أبيع ثيابي حتى نفدت ، وبقيتُ بلا نفقة ، ومضيتُ أطوف مع صديق لي إلى المشيخة ، وأسمع إلى المساء ، فانصرف رفيقي ، ورجعتُ إلى بيتي ، فجعلتُ أشرب الماء من الجوع ، ثم أصبحتُ ، فغدا عليَّ رفيقي ، فجعلتُ أطوف معه [في سماع الحديث] على جوع شديد ، وانصرفتُ جائعًا ، فلما كان من الغد؛ غدا عليَّ، فقال: مُرَّ بنا إلى المشايخ، قلتُ: أنا ضعيف لا يُمكنني، قال : ما ضعفُك ؟ قلتُ : لا أكتُمك [أمري ، قد] مضى يومان ، ما طعمتُ فيهما شيئًا، فقال: قد بقي معي دينار، فنصفه لك، ونجعل النصف الآخر في الكراء، فخرجنا من البصرة، وأخذتُ منه النصف دينار»[1].

قال أبو حاتم : « خرجنا من المدينة من عند داود الجعفري ، وصرنا إلى الجار وركبنا البحر ، فكانت الريح في وجوهنا ، فبقينا في البحر ثلاثة أشهر ، وضاقت صدورنا ، وفَنِيَ ما كان معنا ، وخرجنا إلى البر نمشي أيامًا ، حتى فَنِيَ ما تبقَّى معنا من الزاد والماء ، فمشينا يومًا لم نأكل ولم نشرب ، ويوم الثاني كمثل ، ويوم الثالث ، فلما كان يكون المساء صلَّيْنا ، وكنا نُلقي بأنفسنا [حيث كنا] ، فلما أصبحنا في اليوم الثالث ؛ جعلنا نمشي على قدر طاقتنا ، وكنا ثلاثة أنفس : شيخ نيسابوري ، وأبو زهير المروذي ، فسقط الشيخ مغشيًّا عليه ، فجئنا نُحرِّكُه وهو لا يعقل ، فتركناه ، ومشينا قدْر فرسخ ، فضعُفتُ ، وسقطتُ مغشيًّا عليَّ ، ومضى صاحبي يمشي ، فبصر من بُعْد قومًا ، قرَّبوا سفينتهم من البرِّ ، ونزلوا على بئر موسى ، فلما عاينهم ؛ لوَّح بثوبه إليهم ، فجاءوه معهم ماء في إداوة[2] ، فسقوْه وأخذوا بيده ،

(١) سير أعلام النبلاء ١٣/٢٥٦- ٢٥٧، وما بين القوسين من الجرح والتعديل ١/٣٦٣- ٣٦٤ .

(٢) الإداوة : المطهرة ، وهي إناء صغير يُحمل فيه الماء .

فقال لهم : الحقوا رفيقيْن لي ، فما شعرتُ إلا برجل يصبُّ الماءَ على وجهي، ففتحتُ عينيَّ، فقلت: اسقني، فصبَّ من الماء في مَشْربة قليلًا، فشربتُ ، ورَجَعَتْ إليّ نفسي ، ثم سقاني قليلًا ، وأخذ بيدي ، فقلتُ : ورائي شيخ مُلْقىً ، فذهب جماعة إليه ، وأخذ بيدي ، وأنا أمشي وأجرُّ رِجليَّ ، حتى إذا بلغتُ إلى عند سفينتهم ، وأتوا بالشيخ وأحسنوا إلينا ؛ فبقينا أيامًا حتى رجعتْ إلينا أنفسُنا ، ثم كتبوا لنا كتابًا إلى مدينة يُقال لها : راية[1] ، إلى واليهم وزوَّدونا من الكعك والسَّويق والماء، فلم نزل نمشي حتى نَفِدَ ما كان معنا من الماء والقوت ، فجعلنا نمشي جياعًا على شطٍّ للبحر ، حتى دفعنا إلى سلحفاة مثل التُّرس ، فعمدنا إلى حجر كبير ، فضربنا على ظهرها ، فانفلق ، فإذا منها صُفرة البيض ، فتحسَّيْناه حتى سكن عنا الجوع ، ثم وصلنا إلى مدينة الراية ، وأوصلنا الكتاب إلى عاملها ، فأنزلنا في داره ، فكان يُقدِّم لنا كل يوم القرع ، ويقول لخادمه : هاتي لهم اليقطين المبارك ، فيقدِّمه مع الخبز أيّامًا ، فقال واحدٌ منّا : ألا تدعو باللَّحم المشئوم ؟! فسمع صاحب الدار، فقال: أنا أُحسن الفارسية، فإن جدَّتي كانت هَرَوية، وأتانا بعد ذلك باللحم ، ثم زوَّدنا إلى مصر »[2] .

قال أبو حاتم : كتبت الحديث سنة تسع ، وأنا ابن أربع عشرة سنة .

ألا تعجبوا خبر المرتضى أبي حاتم أعلم العالمينا

٨٧ - الحافظ عبد الرحمن بن أبي حاتم صاحب « الجرح والتعديل » :

قال أبو الحسن علي بن إبراهيم الرازي الخطيب : « كان رحمه الله قد كساه الله نورًا وبهاءً ، يُسَرُّ من نظر إليه » .

وقال الذهبي في السير (١٣/٢٦٤): « كان بحرًا لا تُكَدِّره الدِّلاءُ » .

---

(١) مكان عظيم بفسطاط مصر ، وهي المحلة التي في وسطها جامع عمرو بن العاص .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٣/٢٥٦- ٢٥٨؛ والجرح والتعديل ١/٣٦٤- ٣٦٦ .

قال أبو يعلى الخليلي : « أخذ أبو محمد علْمَ أبيه ، وأبي زرعة ، وكان بحرًا في العلوم ، ومعرفة الرجال .صنَّف في الفقه ، وفي اختلاف الصحابة والتابعين وعلماء الأمصار ، وكان زاهدًا يُعدُّ من الأبدال » .

وقال الذهبي: «له كتاب نفيس في «الجرح والتعديل» أربع مُجلَّدات[1]، وكتاب « الردُّ على الجهميَّة » مُجلَّد ضخم ، انتخبت منه ، وله « تفسير » كبير في عدة مجلدات ، عامّته آثار بأسانيده ، من أحسن التفاسير » .

قال ابن أبي حاتم : لم يدعني أبي أشتغل في الحديث حتى قرأتُ القرآن على الفضل بن شاذان الرازي ، ثم كتبتُ الحديث .

قال رحمه الله : « كنا بمصر سبعة أشهر ، لم نأكل فيها مرقة ، كلُّ نهارنا مُقسَّم لمجالس الشيوخ ، وبالليل : النسخ والمقابلة . قال : فأتينا يومًا أنا ورفيق لي شيخًا ، فقالوا : هو عليل ، فرأينا في طريقنا سمكةً أعجبتنا ، فاشتريناه ، فلما صرنا إلى البيت ، حضر وقت مجلس ، فلم يمكنا إصلاحه ، ومضينا إلى المجلس ، فلم نزل حتى أتى عليه ثلاثة أيام ، وكاد أن يتغيَّر ، فأكلناه نيِّئًا ، لم يكن لنا فراغٌ أن نُعطيه مَنْ يشويه ، ثم قال : لا يُستطاع العلم براحة الجسد »[2] .

ليس عندهم وقتٌ لقَلْي سمكة ، فأكلوها نيئة !!

٨٨ - شيخ الإسلام : إبراهيم الحربي :

قال الدارقطني عن إبراهيم الحربي : إبراهيم إمام بارع في كل علم . كان يُقاس بأحمد بن حنبل في زهده وعلمه وورعه .

وقال الخطيب : كان إمامًا في العلم ، رأسًا في الزهد عارفًا بالفقه ، بصيرًا بالأحكام، حافظًا للحديث، مُميِّزًا لعلله، قيِّمًا بالأدب، جَمَّاعة للُّغة .

---

(١) هو تسع مُجلَّدات في عصرنا هذا بخلاف المقدمة .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٣/٢٦٥- ٢٦٦، وتذكرة الحفاظ ٣/٨٣٠ .

دخل أبو إسحاق إبراهيم الحربي على إسماعيل القاضي عالم العراق، فقال: ما رأيتُ مثل إبراهيم. ولما دخل أبو إسحاق؛ بادر أبو عمر محمد ابن يوسف القاضي إلى نعله، فأخذها، فمسحها من الغبار.

قال أبو إسحاق: لا أعلم عصابة خيرًا من أصحاب الحديث، إنما يغدو أحدهم، ومعه محبرة، فيقول: كيف فعل النبي ﷺ، وكيف صلَّى، إياكم أن تجلسوا إلى أهل البدع، فإن الرجل إذا أقبل ببدعة ليس يُفلح.

قال ثعلب: ما فقدتُ إبراهيم الحربي في مجلس لغة ولا نحو، من خمسين سنة[1].

قال الحربي رحمه الله: ما أنشدتُ بيتًا قطُّ إلَّا قرأتُ بعده: ﴿ **قل هو الله أحد** ﴾ ثلاثًا[2].

قال الذهبي: يُروى أن إبراهيم لما صنَّف «غريب الحديث» وهو كتابٌ نفيسٌ كاملٌ في معناه.

قال ثعلب: ما لإبراهيم وغريب الحديث؟! رجل مُحدِّث، ثم حضر مجلسه، فلما حضر المجلس؛ سجد ثعلب، وقال: ما ظننتُ أن على وجه الأرض مثل هذا الرجل.

«قال أبو طاهر المُخَلِّص: سمعتُ أبي، سمعتُ إبراهيم الحربي، وكان وعدنا أن يُمِلَّ علينا مسألةً في الاسم والمُسمَّى، وكان يجتمع في مجلسه ثلاثون ألف محبرة، وكان إبراهيم مُقِلًّا، وكانت له غرفة، يصعد، فيُشرف منها على الناس، فيها كوَّةٌ إلى الشارع، فلما اجتمع الناس؛ أشرف عليها، فقال لهم: قد كنتُ وعدتكم أن أملي عليكم في الاسم والمُسمَّى، ثم نظرتُ، فإذا لم يتقدَّمْني في الكلام فيها إمامٌ يُقتدى به، فرأيتُ الكلام

---

(١) معجم الأدباء ١/١١٨.

(٢) تاريخ بغداد ٦/٣٢، وإنباه الرواة ١/١٥٧.

فيه بدعة ، فقام الناس وانصرفوا »[١] .

وقال رحمه الله – وقد سُئل عن الاسم والمسمّى –: لي مُذْ أجالس أهل العلم سبعون سنة ، ما سمعتُ أحدًا منهم يتكلّم في الاسم والمُسمّى .

قال الذهبي في السير (١٣/٣٦٢): « يظهر في تصانيف الحربي أنه ينزل في أحاديث ، ويُكثر منها ، وهذا يدلُّ على أنه لم يزل طَلَّابة للعلم » .

قال القفطي في «تاريخ النحاة» (١/١٥٥): «إبراهيم الحربي له في اللغة كتاب «غريب الحديث»، وهو من أنفس الكتب وأكبرها في هذا النوع».

قال إبراهيم الحربي : « أفنيتُ من عمري ثلاثين سنة برغيفين ، إن جاءتني بهما أُمِّي أو أختي ، وإلا بقيتُ جائعًا إلى الليلة الثانية ، وأفنيتُ ثلاثين سنة برغيف في اليوم والليلة ، إنْ جاءتني امرأتي أو بناتي به ، وإلا بقيتُ جائعًا عطشان ، والآن آكلُ نصف رغيف وأربع عشرة تمرة إن كان بُرْنيًّا ، أوْ نيِّفًا وعشرين إنْ كان دَقَلًا ، ومرضتْ ابنتي ، فمضتْ امرأتي فأقامت عندها شهرًا ، فقام إفطاري في هذا الشهر بدرهم ودانقين ونصف ! ودخلت الحمامَ ، واشتريتُ لهم صابونًا بدانقين ، فقامت نفقة شهر رمضان كله بدرهم وأربعة دوانق ونصف ! » .

وقال رحمه الله : ما كُنَّا نعرف من هذه الأطبخة شيئًا ، كنتُ أجيء من عشيٍّ إلى عشيٍّ ، وقد هيأت لي أُمي باذنجانة مشويَّة أو لَعْقة بُنٍّ[٢] ، أو باقة فجل[٣] .

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٣ / ٣٦٠ – ٣٦١ .

(٢) البنُّ بكسر الباء : الطبقة من الشحم ، وبضم الباء : إدام يُصنع من عَكَرِ المُرِّي : أي من رديء الإدام وأسوئه ، يتأدَّم به الغرباء لفقرهم .

(٣) الحزمة .

قال أبو علي الخيَّاط المعروف بالميِّت : « كنتُ يومًا جالسًا مع إبراهيم الحربي على باب داره ، فلما أن أصبحنا ؛ قال لي : ياأبا علي ، قُم إلى شغلك ، فإن عندي فجلة قد أكلتُ البارحة خضرِها ، أقوم أتغدَّى بجزرتها »[١] .

وروى الذهبي في السير: (٣٦٧/١٣) عن إبراهيم قال: «ما تروَّحتُ، ولا رُوِّحتُ قطُّ ، ولا أكلتُ من شيء في يوم مرتين » .

وانظر رحمك الله إلى قيمة الكتاب عند « الحربي » :

«قال أحمد بن سليمان القطيعي: قال: أضقتُ إضاقةً، فأتيتُ إبراهيم الحربي لأبُثَّه ، فقال لي : لا يضيق صدرُك ، فإن الله من وراء المعونة ، فإني أضقتُ مرةً ، حتى انتهى أمري إلى عدم عيالي قوتهم ، فقالت الزوجة : هبْ أنّي أنا وأنت نصبر ، فكيف بالصبيَّتين ؟ هاتِ شيئًا من كُتُبك نبيعه أو نرهنه، فضننتُ بذلك، وقلتُ: أقترضُ غدًا، فلمّا كان الليل، دُقَّ البابُ ، فقلتُ : مَنْ ذا ؟ قال : رجلٌ من الجيران ، [فقلتُ : ادخلْ ، فقال :] فأطفىء السِّراج حتى أدخل ، فكببتُ شيئًا على السراج ، فدخل ، وترك شيئًا ، وقام ، فإذا هو منديل فيه أنواع من المآكل ، وكاغد فيه خمسمائة درهم ، فأنبهْنا الصغارَ وأكلوا ، ولما كان الغد ، إذا جمَّال يقود جَمَلين عليهما حملان وَرَقًا خراسانيًّا ، وهو يسأل عن منزل إبراهيم الحربي ، فانتهى إليَّ، فقلت: أنا إبراهيم الحربي، فحطَّ الحملين، وقال: هذان الحملان أنفذَهما لك رجلٌ من أهل خراسان ، فقلتُ : مَنْ هو ؟ فقال : قد استحلفني أن لا أقول مَنْ هو ، فأخذتهما منه ، ودعوتُ الله لمرسلهما وللحامل »[٢].

---

(١) تاريخ بغداد ٣١/٦ ، طبقات الحنابلة ٨٦/١-٨٨، و « إنباه الرواة » للقفطي ١٩٠/١، وسير أعلام النبلاء ٣٦٧/١٣ .

(٢) تاريخ بغداد ٣١/٦- ٣٧، وسير أعلام النبلاء ٣٦٨/١٣، وقال الذهبي: إسنادها مرسل.

« قال رجل لإبراهيم الحربي : كيف قويتَ على جمع هذه الكتب ؟ فغضب إبراهيم الحربي ، وقال : قويتُ عليها بلحمي ودمي ! بلحمي ودمي ! »[١] .

بعد قول إبراهيم هذا ؛ لا يخطر بالبال أن يستجيب إبراهيم لزوجته ببيْع كتبه « فالعالم يبيع ثيابه ، ولا يبيع كتابه » ، وكما قال الزمخشري في كتابه « نوابغ الكَلِم » : « مجدُ التاجر في كيسه ، ومجدُ العالم في كراريسه » .

قال أبو القاسم بن الجبلي : « اعتلَّ إبراهيم الحربيُّ علة حتى أشرف على الموت ، فدخلتُ إليه يومًا ، فقال لي : ياأبا القاسم ، أنا في أمر عظيم مع ابنتي ، ثم قال لها : قومي اخرجي إلى عمِّك ، فخرجتْ وألقت على وجهها خمارها ، فقال لها إبراهيم : هذا عمُّك كلِّميه ، فقالت لي : ياعم ، نحن في أمر عظيم ! لا في الدنيا ولا في الآخرة ! الشهرَ والدهرَ ما لنا طعامٌ إلا كِسَرٌ يابسة وملح ، وربَّما عَدِمنا الملح ! وبالأمس قد وجَّه إليه المعتضد مع بدر بألف دينار فلم يأخذها ! [وقال له : رُدَّها إلى مَنْ أخذتَها منه وهو مُحتاجٌ إلى فلس] ووجَّه إليه فلان وفلان فلم يأخذ منهما شيئًا ! وهو عليل ! فالتفت إبراهيم إليها وتبسَّم ، فقال لها : يابُنيَّة ، إنما خفتِ الفقرَ ؟! فقالت : نعم ، فقال لها: انظري إلى تلك الزاوية، فنظرت، فإذا كتبٌ، فقال: هناك اثنا عشر ألف جزء لغة وغريب ، كتبتُها بخطِّي ، إذا متُّ فوجِّهي كل يوم بجزء تبيعينه بدرهم، فمن كان عنده اثنا عشر ألف درهم فليس هو بفقير! »[٢] .

٨٩ - الهيثم بن جميل البغدادي أبو سهل الحافظ :

نزيل أنطاكية .. ثقة ، صاحب سُنَّة ، يغلط على الثقات .

قال سفيان بن محمد المصيصي : « شهدتُ الهيثم بن جميل وهو يموت وقد سُجِّي نحو القبلة ، فقامت جاريته تغمز رجليه (أي لترى صحْوه)، فقال :

---

(١) مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي صـ ٥٠٨ ، وتاريخ بغداد .

(٢) تاريخ بغداد ، سير أعلام النبلاء ١٣/٣٦٩- ٣٧٠ .

اغمزيهما ، فالله يعلم أنه ما مشتا إلى حرام قط » .

رحل وتجوّل في طلب الحديث ، وتحمَّل الكثير . قال ابن سعد : سمعتُ موسى بن داود يقول : « أفلس الهيثم بن جميل في طلب الحديث مرتين »[(١)] .

وهذا ابن خراش عبد الرحمن بن يوسف الرافضي الحافظ يقول : « شربتُ بولي في هذا الشأن - يعني الحديث - خمس مرات »[(٢)].

فأين هِمَّة أهل السنة ، وهذا رافضيٌّ خبيثٌ يُشرف على الهلاك في طلب الحديث ، حتى يضطر إلى شرب بوله .. هذا الرافضيُّ الذي صنَّف جزأين في مثالب الشيخين ، فأجازه شيعيٌّ بألفي درهم ، بنى له حجرةً ببغداد ليُحدِّث فيها ، فمات حين فرغ منها .

قال الذهبي في السير (١٣/٥١٠).: « هذا معثر مخذولٌ ، كان علمُهُ وبالًا ، وسعيُه ضلالًا ، نعوذ بالله من الشقاء » .

٩٠ - الحافظ محمد بن سنجر أبو عبد الله :

قال رحمه الله : « رحلتُ ومعي إسحاق الكوسج - تلميذ الإمام أحمد - ومعي تسعة آلاف دينار ، فكان إسحاق يُورق لي - أي يكتب لي الحديث - ويتزوَّج في كل بلد ، وأنا أؤدِّي عنه المهر » .

قال الذهبي: ثم إن ابن سنجر سكن قرية قطاية، من أعمال مصر[(٣)].

٩١ - ابن رستم أبو جعفر المديني أحمد بن محمد :

المتوفَّى سنة (٢٧٢ هـ) .

---

(١) الرحلة في طلب الحديث- استدراك نور الدين عتر على كتاب الرحلة (صـ٢٠٥).
(٢) سير أعلام النبلاء ١٣/٥٠٩ .
(٣) تذكرة الحفاظ ٢/٥٧٨- ٥٧٩ .

كتب بالشام ومصر والعِرَاقَيْن ، وصنَّف المسند .

قال محمد بن يحيى بن منده : « لم يُحدِّث ببلدنا منذ أربعين سنة أوثق منه ، كان ظاهر الثروة ، صاحبَ ضياع ، لم يكن في أصبهان أكثر منه حديثًا ، صاحب الكتب والأصول الصِّحاح ، أنفق عليها نحوًا من ثلاثمائة ألف درهم ، لم يُعرف له فراش منذ أربعين سنة ، صاحب صلاة واجتهاد »(١) .

٩٢ - الحافظ أبو محمد حجَّاج بن يوسف بن حجَّاج الثقفي (حجَّاج ابن الشاعر) :

روى عنه مسلم ، وأبو داود ، وبقيُّ بن مخلد ، وأبو يعلى الموصلي ، وابن أبي حاتم .

« قال صالح جزرة : سمعتُ حجاج بن الشاعر يقول : جمعتْ لي أُمِّي مائة رغيف ، فجعلتُها في جراب ، وانحدرت إلى شَبابة بالمدائن ، فأقمتُ ببابه مائة يوم، أغمس الرغيف في دجلة وآكله، فلما نفدت خرجتُ»(٢) .

لك الله أيها الحافظ الأوحد الثقة المأمون .. يوم برغيف .. والطعام الماء مع الرغيف .. ولكنه العلم .. ولذة العلم تُنسي ألَمَ الجوع !!

٩٣ - الفَسَوي أبو يوسف ، يعقوب بن سفيان بن جُوان الفارسي :

الإمام الحافظ الحُجَّة ، الرحَّال ، مُحَدِّث إقليم فارس .

وله تاريخ كبير جمُّ الفوائد .

(١) أخبار أصبهان للحافظ أبي نعيم الأصبهاني ٨٥/١ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٣٠١/١٢-٣٠٢، تاريخ بغداد ٢٤٠/٨، وطبقات الحنابلة ١٤٨/١، وتذكرة الحفاظ ٥٥٠/٢ .

قال الحاكم : « فأما سماعه ورحلته وأفراد حديثه ، فأكثرُ من أن يُمكن ذكرها » .

قال الفسوي رحمه الله: «كتبتُ عن ألف شيخ وكسر، كلُّهم ثقات».

«قال الحافظ أبو إسحاق بن حمزة: سمعتُ أبي يقول: كنتُ رحلتُ إلى يعقوب بن سفيان ، فبقيتُ عنده ستة أشهر ، فقلتُ له : طال مقامي عندك ولي والدة ، فقال : رددت الباب على والدتي ثلاثين سنة »[(١)] .

قال أبو زرعة الدمشقي : « قدم علينا رجلان من نبلاء الرجال : أحدهما وأجلُّهما يعقوب بن سفيان أبو يوسف ، يعجز أهل العراق أن يروا مثله رجلًا ، وذكر الثاني : حرب بن إسماعيل الكرماني »[(٢)] .

قال يعقوب الفسوي : « [أقمتُ في الرحلة ثلاثين سنة] ، كنتُ في رحلتي في طلب الحديث، فدخلتُ إلى بعض المدن، فصادفت بها شيخًا، احتجتُ إلى الإقامة عليه للاستكثار عنه، وقلّت نفقتي، وبعُدتُ عن بلدي، فكنتُ أُدمنُ الكتابةَ ليلًا وأقرأ نهارًا ، فلما كان ذات ليلة ، كنتُ جالسًا أنسخ، وقدْ تَصرَّم الليل، فنزل الماء في عينيَّ، فلم أُبصر السِّراج ولا البيت، فبكيتُ على انقطاعي ، وعلى ما يفوتني من العلم ، فاشتدَّ بكائي حتى اتكأتُ على جَنْبي ، فنمتُ ، فرأيتُ النبي ﷺ في النوم ، فناداني : يايعقوب بن سفيان ، لِمَ أنت بكيت ؟ فقلتُ : يارسول الله ، ذهب بصري ، فتحسَّرتُ على ما فاتني من كَتْبِ سُنَّتك ، وعلى الانقطاع عن بلدي ، فقال : ادنُ مني ، فدنوتُ منه ، فأمرَّ يده على عينيَّ ، كأنه يقرأ عليهما . قال : ثم استيقظتُ فأبصرتُ ، وأخذتُ نسخي ، وقعدتُ في السراج أكتب »[(٣)] .

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٣/١٨١ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٣/١٨٢، وتهذيب التهذيب ١١/٣٨٧ .

(٣) سير أعلام النبلاء ١٣/١٨١-١٨٢، وتهذيب التهذيب ١١/٣٨٦-٣٨٧ .

نعم ، كنْ على الجادة ، فإن أمير القوم يدعو الله أن يرعى القافلة .. وهذه عناية الله بأهل الحديث وفرسانه .. وهذا الفسوي يعقوب ، له من سميِّه يعقوب عليه السلام صلةٌ ، ردَّ الله عليه بصره كما ردَّه على يعقوب .

هذا في حُبِّ يوسف يبكي حتى العمى، وهذا في حديث محمد ﷺ.

٩٤ - ابن الضُّرَيْس الحافظ أبو عبد الله محمد بن أيوب بن يحيى :

صاحب «فضائل القرآن». انتهى إليه عُلُوُّ الإسناد بالعجم مع الصدق والمعرفة . ثقة مُحدِّث ابن مُحدِّث ، وجدُّه يحيى بن الضريس من أصحاب سفيان الثوري .

قال ابن الضريس : « آخرُ قدْمةٍ قدمتُها البصرة أدَّيتُ أجرة الورَّاقين عشرة آلاف درهم »[(١)] .

« لمَّا سمع أبو بكر الإسماعيلي بموت ابن الضريس - وكان يودُّ أن يرحل إليه - صاح ، ولطم ، وقال لأهله : منعتموني من الرحلة إليه . قال : فرَقُّوا وسَفَّروني مع خالي إلى الحسن بن سفيان »[(٢)] .

٩٥ - ابن أبي عاصم ، أبو بكر : أحمد بن عمرو :

حافظ كبير ، إمامٌ بارعٌ مُتَّبِعٌ للآثار ، كثيرُ التصانيف .

قال أبو الشيخ : كان من الصيانة والعِفَّة بمحلٍّ عجيب .

قال أبو نعيم : كان فقيهًا ظاهري المذهب .

قال الذهبي : « وفي هذا نظرٌ ، فإنه صنَّف كتابًا على داود الظاهري أربعين خبرًا ثابتة مما نفى داود صحتها » .

---

(١) تذكرة الحفَّاظ ٢/٦٤٣ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٣/٤٥٠ .

صحب النُّساك .

قال رحمه الله : « خرجتُ إلى مكة من الكوفة ، فأكلتُ أكلةً بالكوفة ، والثانية بمكة » .

قال الذهبي في السير (١٣/٤٣١) : « إسنادها صحيح » .

قال ابن أبي عاصم: «لما كان من أمر العلوي [فتنة الزنج] بالبصرة ما كان، ذَهَبَتْ كُتُبي، فلم يبقَ منها شيء، فأعدتُ عن ظهر قلبي خمسين ألف حديث ، كنتُ أمرُّ إلى دكَّان البقال ، فكنتُ أكتب بضوء سراجه ، ثم تفكَّرتُ أني لم أستأذن صاحب السِّراج ، فذهبتُ إلى البحر فغسلته ، ثم أعدتُه ثانيًا » .

هذا والله العلم ، وهذه والله ثمرته : الورع !!

قال الذهبي في ذكر تصانيفه في السير (١٣/٤٣٦) :

«جُمع جزء فيها، فيه زيادة على ثلاثمائة مُصنَّف، رواها عنه أبو بكر القبَّاب، من ذلك: «المسند الكبير» نحو خمسين ألف حديث، و «الآحاد والمثاني » نحو عشرين ألف حديث في الأصناف ، و « المختصر من المسند » نيِّف وعشرون ألفًا ، فذكر نحوًا من هذا إلى أن عدَّ مائةً وأربعين ألفًا ونيِّفًا » .

وكان يحفظ لشقيق البلخي ألف مسألة .

وانظر ياأخي إلى حفظ الله لأهل الحديث :

قال الحكيمي : « ذكروا عند ليلى الديلمي أن أبا بكر بن أبي عاصم ناصبيٌّ ، فبعث غلامًا له ومخلاة وسيفًا ، وأمره أن يأتيه برأسه ، فجاء الغلام ، وأبو بكر يقرأ الحديث ، والكتاب في يده ، فقال : أمرني أن أحمل إليه رأسك ، فنام على قفاه ، ووضع الكتاب الذي كان في يده على وجهه ، وقال : افعل ما شئت ، فلحقه إنسان ، وقال : لا تفعل ، فإن الأمير قد نهاك ، فقام أبو بكر وأخذ الجزء ، ورجع إلى الحديث الذي

قطعه ، فتعجَّب الناس »[١] .

أموت إذا ذكرتُك ثم أحيا فكم أحيا عليك وكم أموتُ

أما حفظهم بعد موتهم ..

قال أبو الشيخ : « حضرت جنازة أبي بكر ، وشهدها مائتا ألف ؛ من بين راكب وراجل ، ما عدا رجلًا كان يتولَّى القضاء ، فحُرِم شهود جنازته ، وكان يرى رأي جهم »[٢] .

٩٦ - الدارمي : عثمان بن سعيد الإمام الحافظ أبو سعيد صاحب « المُسنَد » :

قال عنه الذهبي في « السير » ١٣/٣١٩ : « طوَّف الأقاليم في طلب الحديث » .

أخذ علْم الحديث وعِلَلَهُ عن علي ويحيى وأحمد ، وفاق أهل زمانه :

قال عنه أبو داود : منه تعلَّمْنا الحديث .

وقال عنه أبو زرعة الرازي : رُزق حُسْنَ التصنيف .

قال المُحدِّث يحيى بن أحمد الهروي ، صاحب ابن معين : رأيتُ في النوم كأن قائلًا يقول : إن عثمان - يعني الدارمي - لذو حظٍّ عظيم[٣] .

قال له رجل كبير يحسده : ماذا أنت لولا العلم ؟ فقال له : أردتَ شَيْنًا ، فصار زيْنًا .

كان الدارمي جِذعًا في أعين المبتدعة ، وهو الذي قام على محمد بن كرَّام وطرده عن هراة .

« قال الدارمي رحمه الله : مَنْ لم يجمع حديث شعبة وسفيان ومالك ،

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٣/٤٣٥ ، وتاريخ ابن عساكر ٢/٢٥ ب .
(٢) سير أعلام النبلاء ١٣/٤٣٥- ٤٣٦ .
(٣) سير أعلام النبلاء ١٣/٣٢٣- ٣٢٤ .

وحماد بن زيد ، وسفيان بن عيينة ؛ فهو مُفلس في الحديث ، يُريد أنه ما بلغ درجة الحُفَّاظ » .

قال الذهبي : « وبلا ريب ، أنَّ مَنْ جمع علْم هؤلاء الخمسة ، وأحاط بسائر حديثهم ، وكَتَبَه عاليًا ونازلًا ، وفَهِمَ عِلَلَهُ – فقد أحاط بشطر السُّنَّة النبوية ، بل أكثر من ذلك ، وقد عدم في زماننا مَنْ ينهض بهذا ، وببعضه ، فنسأل الله المغفرة ، وأيضًا فلو أراد أحدٌ أن يتتبَّعَ حديث الثوري وحده ، ويكتبه بأسانيد نفسه على طولها ، ويُبيِّن صحيحه من سقيمه ؛ لكان يجيء « مسنده » في عشر مُجلَّدات ، وإنما شأن المُحدِّث اليوم الاعتناء بالدواوين الستة، و «مسند» أحمد بن حنبل، و «سنن البيهقي»، وضبط متونها وأسانيدها ، ثم لا ينتفع بذلك حتى يتَّقي ربَّه ، ويدين بالحديث، فعَلى علْم الحديث وعلمائه لِيبكِ مَنْ كان باكيًا ، فقد عاد الإسلام المحضُ غريبًا كما بدأ ، فليسعَ امرؤ في فكاك رقبته من النار ، فلا حول ولا قوَّة إلا بالله . ثم العلم ليس هو بكثرة الرواية ، ولكنه نورٌ يقذفه الله في القلب ، وشرطُهُ الاتباع ، والفرار من الهوى والابتداع ، وفَّقنا الله وإياكم لطاعته »[(١)] .

٩٧ – أبو قلابة الإمام الحافظ القدوة العابد مُحدِّث البصرة عبد الملك ابن محمد الرقاشي :

« قال عنه محمد بن جرير الطبري : ما رأيتُ أحفظَ من أبي قلابة الرقاشي .

وقال أحمد بن كامل القاضي: حدَّث من حفظه بستين ألف حديث»[(٢)].

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٣/٣٢٣ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٣/١٧٧– ١٧٨ .

٩٨ - المَرُّوذي الإمام أبو بكر ، أحمد بن محمد صاحب الإمام أحمد :

حدَّث عن أحمد ، ولازمه ، وكان أجلَّ أصحابه .

قال الخلَّال : « المروذي أوَّلُ أصحاب أبي عبد الله ، وأورعُهم ، روى عن أبي عبد الله مسائل مُشبعة كثيرة ، وأغرب على أصحابه في دقاق المسائل وفي الورع ، وهو الذي غمَّض أبا عبد الله وغسَّله ، ولم يكن أبو عبد الله يُقدِّم عليه أحدًا » .

وكان إمامًا في السنة ، شديدَ الاتباع ، له جلالةٌ عجيبة ببغداد .

قال الخطيب في تاريخه (٤/٤٢٤) : « قال الخلال : كان أبو عبد الله يبعث بي في الحاجة ، فيقول : قلْ ما قلت ، فهو على لساني ، فأنا قلتُه » .

قال الخلَّال : خرج أبو بكر إلى الغزو فشيَّعوه إلى سامراء ، فجعل يردُّهم فلا يرجعون . قال : فحُزِروا فإذا هم بسامراء - سوى مَنْ رجع - نحو خمسين ألفًا ، فقيل له : ياأبا بكر ، احمدِ الله فهذا علمٌ قد نُشر لك ، فبكى ، وقال : ليس هذا العلم لي ، إنما هو لأبي عبد الله أحمد .

٩٩ - الإمام ، شيخ السُّنة ، مُقدّم الحفَّاظ ، أبو داود السِّجستاني مُحدِّث البصرة :

قال الحافظ موسى بن هارون : خُلق أبو داود في الدنيا للحديث ، وفي الآخرة للجنة .

وقال عَلّان بن عبد الصمد : سمعتُ أبا داود ، وكان من فرسان الحديث .

وقال إبراهيم الحربي : « لمّا صنّف أبو داود « السنن » أُلين لأبي داود الحديث ، كما أُلين لداود عليه السلام الحديد »[1] .

---

(١) تهذيب التهذيب ٤/١٧٢ .

وقال أحمد بن محمد بن ياسين : كان أبو داود أحد حُفَّاظ الإسلام لحديث رسول الله ﷺ وعلمه وعلله وسنده، في أعلى درجة النسك والعفاف، والصلاح والورع ، من فرسان الحديث .

وقال الخلَّال : أبو داود الإمام المُقدَّم في زمانه ، رجلٌ لم يسبقه إلى معرفته بتخريج العلوم وبصره بمواضعه أحدٌ في زمانه ، رجلٌ ورعٌ مُقدَّم .

وقال الحاكم : أبو داود إمام أهل الحديث في عصره بلا مُدافعة .

وقال محمد بن مخلد: كان أبو داود يفي بمذاكرة مائة ألف حديث، ولمّا صنَّف كتاب « السنن » وقرأه على الناس ؛ صار كتابه لأصحاب الحديث كالمصحف يتبعونه ، ولا يُخالفونه ، وأقرَّ له أهل زمانه بالحفظ والتقدم فيه .

قال أحمد بن محمد بن الليث القاضي : « جاء سهل بن عبد الله التُستَري إلى أبي داود السجستاني ، فقيل : ياأبا داود ، هذا سهل بن عبد الله التستري جاءك زائرا ، فرحَّب به ، وأجلسه ، فقال سهل : ياأبا داود ، لي إليك حاجة. قال: وما هي ؟ قال: حتى تقول: قد قضيتها مع الإمكان. قال : نعم . قال : أخرِجْ إليَّ لسانك الذي تُحدِّث به أحاديث رسول الله ﷺ حتى أُقبِّله ، فأخرجَ إليه لسانه فقبَّله »[1] .

قال الحافظ زكريا الساجي : كتاب الله أصلُ الإسلام ، وكتاب أبي داود عهدُ الإسلام .

قال الذهبي في السير (٢١٥/١٣) : « كان أبو داود – مع إمامته في الحديث وفنونه – من كبار الفقهاء ، فكتابه يدلُّ على ذلك ، وهو من نجباء أصحاب الإمام أحمد ، لازم مجلسه مُدَّة ، وسأله عن دقاق المسائل في الفروع

---

(١) وفيات الأعيان لابن خلّكان ٤٠٤/٢- ٤٠٥ ، سير أعلام النبلاء ٢١٣/١٣ .

والأصول ، وكان على مذهب السلف في اتِّباع السنة والتسليم لها ، وترك الخوض في مضائق الكلام » .

كان عبد الله بن مسعود يُشَبَّه بالنبي ﷺ في هَدْيه ودلِّه . وكان علقمة يُشَبَّه بابن مسعود في ذلك . وكان إبراهيم النخعي يُشبَّه بعلقمة في ذلك. وكان منصور يُشبَّه بإبراهيم. وكان سفيان الثوري يُشبَّه بمنصور. وكان وكيع يُشبَّه بسفيان . وكان أحمد يُشبَّه بوكيع . وكان أبو داود يُشبَّه بأحمد .

قال أبو داود : « كتبتُ عن رسول الله ﷺ خمسمائه ألف حديث ، انتخبتُ منها ما ضمَّنتُه هذا الكتاب - يعني كتاب السنن - جمعتُ فيه أربعة آلاف حديث ، وثمانمائة حديث » .

« جاء الأمير أبو أحمد الموفق وليّ العهد فدخل ، ثم أقبل عليه أبو داود ، فقال : ما جاء بالأمير في مثل هذا الوقت ؟ قال : خِلال ثلاث . قال : وما هي ؟ قال : تنتقل إلى البصرة فتتخذها وطنًا ؛ ليرحل إليك طلبة العلم ، فتعمر بك ، فإنها قد خربت ، وانقطع عنها الناس ؛ لما جرى عليها من محنة الزنج . فقال : هذه واحدة . قال : وتروي لأولادي « السنن » قال : نعم . قال : وتُفرد لهم مجلسًا ، فإن أولاد الخلفاء لا يقعدون مع العامَّة . قال : أما هذه فلا سبيل إليها ؛ لأن الناس في العلم سواء ، فكانوا يحضرون ويقعدون في كِمٍّ حِيري، عليه ستر، ويسمعون مع العامة»(١).

قال ابن داسة : « كان لأبي داود كمٌّ واسع وكُمٌّ ضيِّق ، فقيل له في ذلك ، فقال : الواسع للكتب ، والآخر لا يحتاج إليه » .

١٠٠ - الحافظ أبو بكر بن أبي داود عبد الله بن سليمان بن الأشعث شيخ بغداد :

قال الذهبي : « كان من بحور العلم » .

---

(١) طبقات السبكي ٢/٢٩٥- ٢٩٦؛ وسير أعلام النبلاء ١٣/٢١٦ .

قال رحمه الله : « دخلتُ الكوفة ومعي درهم واحد ، فأخذتُ به ثلاثين مُدًّا[١] باقِلّا ، فكنتُ آكل منه ، وأكتب عن أبي سعيد الأشجّ ، فما فرغ الباقلّا حتى كتبتُ عنه ثلاثين ألف حديث ، ما بين مقطوع ومرسل»[٢].

قال أبو بكر بن شاذان : « قدم أبو بكر بن أبي داود سجستان ، فسألوه أن يُحدِّثهم ، فقال : ما معي أصلٌ ، فقالوا : ابن أبي داود وأصل ! قال : فأثاروني ، فأمليتُ عليهم من حفظي ثلاثين ألف حديث ، فلما قدمتُ بغداد ؛ قال البغداديون : مضى إلى سجستان ولعب بهم ، ثم فيجوا فيجًا[٣] اكترَوْه بستة دنانير إلى سجستان ، ليكتب لهم النسخة ، فكتبت ، وجيء بها وعُرضت على الحفَّاظ ، فخطّؤوني في ستة أحاديث ؛ منها ثلاثة أحاديث حدَّثتُ كما حُدِّثت ، وثلاثة أخطأتُ فيها »[٤] .

وقال رحمه الله : « حدَّثتُ من حفظي بأصبهان بستة وثلاثين ألفًا ؛ ألزموني الوهم في سبعة أحاديث ، فلما انصرفتُ ؛ وجدتُ في كتابي خمسة منها على ما كنتُ حدَّثتهم به »[٥] .

قال الحافظ أبو محمد الخلّال : كان ابن أبي داود إمام أهل العراق ، ومَنْ نصب له السلطان المنبر .

قال أبو حفص بن شاهين : أملى علينا ابن أبي داود سنين ، وما رأيتُ بيده كتابًا ، إنما كان يُملي حفظًا ، فكان يقعد على المنبر بعد ما عَمِي ، ويقعد

---

(١) الباقلاء : الفول .
(٢) تاريخ بغداد ٩ / ٤٦٦ - ٤٦٧ .
(٣) الفيج : الجماعة من الناس .
(٤) تاريخ بغداد ٩ / ٤٦٦ .
(٥) تذكرة الحفاظ ٢/٧٦٩ .

دونه بدرجةٍ ابنُه أبو معمر - بيده كتاب - فيقول له : حديث كذا ، فيسرده من حفظه ، حتى يأتي على المجلس .

يقول أبو بكر بن أبي داود :

ودعْ عنك آراءَ الرجالِ وقولَهم فقولُ رسولِ الله أولى وأشرحُ
ولاتكُ من قوم تَلَهَّوْا بدينهم فتطعن في أهل الحديث وتقدحُ

١٠١ - ابن أبي الخناجر الإمام مُسنِد طرابلس أبو علي ، أحمد بن محمد ابن يزيد بن مسلم بن أبي الخناجر الأنصاري :

حدَّث عن يزيد بن هارون ... وروى عنه ابن أبي حاتم ، وخيثمة .

«قال ابن دحيم: وسمعه خيثمة يقول: وقف المأمون على مجلس يزيد- وكنتُ فيهم، وفي المجلس ألوف- فالتفت إلى أصحابه، وقال: هذا المُلكُ»(١).

١٠٢ - الإمام التِّرمذي أبو عيسى ، محمد بن عيسى بن سورة :

مات البخاري، ولم يُخلِّف بخراسان مثل أبي عيسى؛ في العلم والحفظ والورع والزهد ، بكى حتى عمي .

قال رحمه الله : « كنتُ في طريق مكة ، فكتبتُ جُزأين من حديث شيخ ، فوجدتُه ، فسألتُه ، وأنا أظنُّ أن الجزأين معي ، فسألتُه ، فأجابني ، فإذا معي جُزآن بياض ، فبقي يقرأ عليَّ من لفظه ، فنظر ، فرأى في يدي ورقًا بياضًا ، فقال : أما تستحي مني ؟ فأعلمتُه بأمري ، وقلتُ : أحفظه كله . قال : اقرأ ، فقرأتُه عليه ، فلم يُصدِّقني ، وقال : استظهرتَ قبل أن تجيء ؟ فقلتُ : حدِّثني بغيره . قال : فحدَّثني بأربعين حديثًا ، ثم قال : هاتِ ، فأعدتُها عليه ، ما أخطأتُ في حرفٍ »(٢) .

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٣/٢٤ .

(٢) تذكرة الحفاظ ٢ / ٦٣٥ ، وتهذيب التهذيب ٩ / ٣٨٨ - ٣٨٩ .

قال أبو عيسى: «صنَّفتُ هذا الكتاب، وعرضتُه على علماء الحجاز، والعراق، وخراسان، فرضوا به، ومَنْ كان هذا الكتاب- يعني «الجامع» - في بيته ؛ فكأنما في بيته نبيٌّ يتكلَّم »(١) .

قال الذهبي : « في « الجامع » علمٌ نافعٌ ، وفوائدُ غزيرةٌ ، ورؤوسُ المسائل ، وهو أحد أصول الإسلام ، لولا ما كدَّره بأحاديث واهية ؛ بعضها موضوع ، وكثير منها في الفضائل » .

وقال أيضًا : « « جامعه » قاضٍ له بإمامته وحفظه وفقهه ، ولكنه يترخَّص في قبول الأحاديث ، ولا يُشدّد ، ونَفَسُهُ في التضعيف رخوٌ » .

قال أبو إسماعيل شيخ الإسلام : « جامع الترمذي أنفعُ من كتاب البخاري ومسلم؛ لأنهما لا يقف على الفائدة منهما إلا المتبحِّرُ العالم، و «الجامع» يصل إلى فائدته كلُّ أحد »(٢) .

١٠٣ - شيخ الإسلام بقيُّ بن مَخْلَد، أبو عبد الرحمن الأندلسي القرطبي:

قال الذهبي في السير (٢٨٥/١٣): «صاحب «التفسير» و «المسند» اللذيْن لا نظير لهما ، عني بالحديث عناية لا مزيد عليها ، وأدخل جزيرة الأندلس علمًا جمًّا، وبه، وبمحمد بن وضَّاح صارت تلك الناحية دار حديث».

قال عنه أحمد بن أبي خيثمة : « ما كنا نُسمِّيه إلا المكْنسة ، وهل احتاج بلد فيه بقيٌّ إلى أن يرحل إلى هاهنا منه أحدٌ »(٣) .

قال أبو الوليد بن الفرضي في « تاريخه » : « ملأ بقيُّ بن مخلد الأندلس حديثًا، فأنكر عليه أصحابه الأندلسيون- أحمد بن خالد، ومحمد بن الحارث، وأبو زيد - ما أدخله من كُتب الاختلاف ، وغرائب الحديث ، فأغروْا به

(١) تذكرة الحفاظ ٢ / ٦٣٤ .
(٢) سير أعلام النبلاء ٢٧٧/١٣ .
(٣) تذكرة الحفاظ ٢ / ٦٣٠ .

السلطان وأخافوه به ، ثم إن الله أظهره عليهم ، وعصمه منهم ، فنشر حديثه وقرأ للناس روايته ، فمن يومئذٍ انتشر الحديث بالأندلس ، ثم تلاه ابن وضاح ، فصارت الأندلس دار حديث وإسناد » .

ومما انفرد به ، ولم يُدخله سواه « مُصنَّف أبي بكر بن أبي شيبة » بتمامه ، و « كتاب الفقه » للشافعي بكماله - يعني « الأم » - و « تاريخ » خليفة ، و « طبقات » خليفة ، وكتاب « سيرة عمر بن عبد العزيز » لأحمد ابن إبراهيم الدَّوْرقي ... وليس لأحد مثل « مسنده » .

قال ابن حزم: «أقطع أنه لم يُؤَلَّف في الإسلام مثل «تفسير بقيّ»، ولا « تفسير محمد بن جرير »، ولا غيره»[(١)] .

قال ابن حزم: «وكان محمد بن عبد الرحمن الأموي صاحب الأندلس مُحِبًّا للعلوم عارفًا ، فلما دخل بقيٌّ الأندلس « بمصنَّف أبي بكر بن أبي شيبة » ، وقُرِىء عليه ؛ أنكر جماعة من أهل الرأي ما فيه من الخلاف ، واستبشعوه ، ونشَّطوا العامّة عليه ، ومنعوه من قراءته ، فاستحضره صاحب الأندلس محمد وإياهم ، وتصفَّح الكتاب كلَّه جزءًا جزءًا ، حتى أتى على آخره ، ثم قال لخازن الكتب : هذا كتاب لا تستغني خزانتنا عنه ، فانظر في نسْخه لنا ، ثم قال لبقيٍّ : انشرْ علْمَك ، وارو ما عندك ، ونهاهم أن يتعرَّضوا له »[(٢)] .

قال ابن حزم: «و «مسند» بقيّ روى فيه عن ألف وثلاثمائة صاحب ونيِّفٍ ورتَّب حديث كل صاحب على أبواب الفقه ، فهو مُسنَدٌ ومُصنَّفٌ ، وما أعلم هذه الرتبة لأحد قبله ، مع ثقته وضبطه ، وإتقانه واحتفاله في الحديث . وله مُصنَّفٌ في فتاوى الصحابة والتابعين فمَنْ دونهم ، الذي قد

(١) معجم الأدباء ٧/٧٧-٧٨ ، وسير أعلام النبلاء ١٣/٢٨٨ .
(٢) سير أعلام النبلاء ١٣/٢٨٨ .

أربى فيه على «مُصنَّف» ابن أبي شيبة، وعلى «مُصنَّف» عبد الرزاق، وعلى «مُصنَّف» سعيد بن منصور، وقال: فصارت تصانيف هذا الإمام الفاضل قواعد الإسلام ، لا نظير لها ، وكان مُتخيِّرًا لا يُقلِّدُ أحدًا ، وكان ذا خاصَّة من أحمد بن حنبل ، وجاريًا في مضمار البخاري ومسلم والنسائي »[١] .

قال الدكتور أكرم ضياء العمري : « جملة أحاديث مسند بقي بن مخلد (٣٠٩٦٩) ، وجملة أحاديث مسند أحمد بن حنبل – سوى زيادات عبد الله وغيره – ثلاثون ألف حديث »[٢] .

قال بقيُّ بن مخلد عن نشْره للسنة بالأندلس : « لقد غرستُ لهم بالأندلس غرسًا لا يُقلَع إلا بخروج الدجَّال »[٣] .

قال حفيده عبد الرحمن بن أحمد : « سمعتُ أبي يقول : رحل أبي من مكة إلى بغداد ، وكان رجلًا ، بُغيتُه ملاقاةُ أحمد بن حنبل . قال : فلما قرُبْتُ بلغتني المحنة ، وأنه ممنوع ، فاغتممتُ غمًّا شديدًا ، فاحتللتُ بغداد ، واكتريتُ بيتًا في فندق ، ثم أتيتُ الجامع وأنا أُريد أن أجلس إلى الناس ، فدُفعت إلى حلقة نبيلة ، فإذا برجل يتكلَّم في الرجال ، فقيل لي : هذا يحيى ابن معين ، ففُرِجت لي فرجة ، فقمتُ إليه ، فقلتُ : ياأبا زكريا ، رحمك الله ، رجل غريب ناءٍ عن وطنه ، يُحِبُّ السؤال ، فلا تستجْفني ، فقال : قُلْ ، فسألتُ عن بعض مَنْ لقيتُه ، فبعضًا زكَّى ، وبعضًا جَرَح ، فسألتُه عن هشام بن عمَّار ، فقال لي : أبو الوليد صاحب صلاة دمشق ، ثقة ، وفوق الثقة ، لو كان تحت ردائه كِبْرٌ ، أوْ مُتقلِّدًا كِبْرًا ؛ ما ضرَّه شيئًا ، لخيره وفضله ، فصاح أصحاب الحلقة : يكفيك – رحمك الله – غيرُك له

(١) سير أعلام النبلاء ١٣/٢٩١ .
(٢) بقي بن مخلد القرطبي ومُقدِّمة مسنده للدكتور أكرم ضياء العمري صـ ٢٠ .
(٣) تذكرة الحفاظ ٢ / ٦٣٠ .

سؤال ، فقلتُ - وأنا واقف على قدم -: اكشفْ عن رجل واحد ؛ أحمد ابن حنبل ، فنظر إليّ كالمُتعجِّبْ ، فقال لي : ومثلنا نحن نكشف عن أحمد ؟! ذاك إمام المسلمين ، وخيرُهم وفاضلُهم ، فخرجتُ أستدلُّ على منزل أحمد بن حنبل ، فدُللتُ عليه ، فقرعتُ بابه ، فخرج إليَّ ، فقلتُ : ياأبا عبد الله ، رجل غريب ، نائي الدار ، هذا أوّلُ دخولي هذا البلد ، وأنا طالب حديث ومقيّد سُنَّة، ولم تكن رحلتي إلا إليك، فقال: ادخل الأصطوان، ولا يقع عليك عينٌ ، فدخلتُ ، فقال لي : وأين موضعُك ؟ قلتُ : المغرب الأقصى ، فقال : إفريقية ؟ قلتُ : أبعد من إفريقية ، أجوز من بلدي البحر إلى إفريقية ، بلدي الأندلس ، قال : إن موضعك لبعيدٌ ، وما كان شيء أحبّ إليَّ مَنْ أنْ أُحسِنَ عون مثلك ، غير أني مُمتحَنٌ بما لعلّه قد بلغك ، فقلتُ : بلى ، قدْ بلغني ، وهذا أوّلُ دخولي ، وأنا مجهول العين عندكم ، فإنْ أَذِنْتَ لي أن آتي كل يوم في زِيِّ السُّؤَّال ، فأقول عند الباب ما يقول السُّؤَّال ، فتخرج إلى هذا الموضع ، فلوْ لمْ تُحدِّثْني كل يوم إلا بحديث واحد ؛ لكان لي فيه كفاية ، فقال لي : نعمْ ، على شرط أن لا تَظْهر في الخلق ، ولا عند المُحدِّثين ، فقلتُ : لك شرطُك ؛ فكنتُ آخذ عصا بيدي ، وأَلُفُّ رأسي بخرقة مُدنَّسةٍ ، وأجعل كاغدي وأوراقي في كُمِّي ، وآتي بابَهُ، فأصيح : الأجر - رحمك الله - والسُّؤَّال هناك كذلك ، فيخرج إليَّ ، ويُغلق ، ويُحدِّثني بالحديثين والثلاثة والأكثر ، فالتزمتُ ذلك حتى مات المُمتحِنُ له ، وولي بعده مَنْ كان على مذهب السُّنة ، فظهر أحمد ، وعلتْ إمامته ، وكانت تُضرَب إليه آباط الإبل ، فكان يعرف لي حقَّ صبري ، فكنتُ إذا أتيتُ حلقته ؛ فسحَ لي ، ويقصُّ على أصحاب الحديث قِصَّتي معه ، فكان يُناولني الحديث مناولةً ، ويقرؤه عليَّ وأقرؤه عليه ، فاعتللتُ علَّةً أشفيتُ منها ، ففقدني من مجلسي ، فسأل عني ، فأُعلمَ بعِلَّتي ، فقام من فوره مُقبلًا إليَّ عائدًا لي بمن معه ، وأنا مُضطجِعٌ

في البيت الذي كنتُ اكتريتُ ، ولَبَدي تحتي ، وكسائي عليَّ ، وكُتُبي عند رأسي ، فسمعتُ الفندق قد ارتجّ بأهله ، وأنا أسمعهم : هو ذاك ، أبصروه ، هذا إمام المسلمين مُقبلًا ، فبدر إليَّ صاحب الفندق مُسرعًا ، فقال لي : ياأبا عبد الرحمن ، هذا أبو عبد الله أحمد بن حنبل إمام المسلمين مُقبلًا إليك ، عائدًا لك ، فدخل فجلس عند رأسي ، وقد احتشى البيت من أصحابه فلم يسعهم ، حتى صارت فرقةٌ منهم في الدار وقوفًا ، وأقلامهم بأيديهم ، فما زادني على هذه الكلمات ، فقال لي : ياأبا عبد الرحمن ، أبشرْ بثواب الله ، أيام الصحة لا سقم فيها ، وأيام السقم لا صحة فيها ، أعلاك الله إلى العافية ، ومسح عنك بيمينه الشافية ، فرأيت الأقلام تكتب لفظه ، ثم خرج عني ، فأتاني أهل الفندق يلطفون بي ، ويخدمونني ديانةً وحسبَةً ، فواحد يأتي بفراش ، وآخر بلحاف ، وبأطايب الأغذية ، وكانوا في تمريضي أكثر من تمريض أهلي لو كنت بين أظهرهم؛لعيادة الرجل الصالح »[(١)] .

« قام بقي بن مخلد القرطبي برحلتين ؛ إلى مصر والشام والحجاز وبغداد ، طلبًا للعلم ، امتدت الرحلة الأولى أربعة عشر عامًا ، والثانية عشرين عامًا »[(٢)] .

ولقد كان ارتحاله كله من الأندلس ، وعلى قدميه !! نعم ، والله على قدميه !!

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٣/٢٩٢- ٢٩٤، والمنهج الأحمد في تراجم أصحاب الإمام أحمد للعليمي (٢٥٩- ٢٦١) . وقد وصف الذهبي هذه الرواية بأنها رواية مُنكَرة ، وقد حقَّق الدكتور أكرم ضياء العمري في كتابه « بقي بن مخلد ومقدمة مسنده » (صـ ٣٩- ٤١) بأن سند الرواية صحيـح ، والمتن لا غبار عليه ، ولا مانع من اللقيا بين الإمام أحمد وبقي بن مخلد قبل وفاة المعتصم سنة ٢٢٧ هـ .

(٢) تاريخ التراث العربي لفؤاد سزكين ١ / ٢٣٨ .

قال رحمه الله : « كُلُّ مَنْ رحلتُ إليه فماشيًا على قدميَّ ، وكلّ مَنْ سمعتُ منه في البلدان ماشيًا على قدميَّ .

قال تلميذه أبو عبد الملك أحمد بن محمد القرطبي : كان بقيٌّ طُوَالًا ، قويًّا جَلْدًا على المشي ، لم يُرَ راكبًا دابةً قطُّ ، متواضعًا ، مُلازمًا لحضور الجنائز »[(١)] .

فلله دَرّه ، وصبرُه ، وشوقُه وعشقُه للعلم ، ولله وَقْفُ أنفاسه وحياته في تحصيله وجمعه !!

لولا عجائبُ صُنعِ الله ما نبتتْ   تلك الفضائلُ في لحمٍ ولا عَصَبِ

طوَّف بقي الشرق والغرب على قدميه !!

«قال أبو الوليد الفَرضي: كان بقيٌّ يقول: إني لأعرف رجلًا كانت تمضي عليه الأيام في وقت طلبه للعلم، ليس له عيشٌ إلا ورق الكرنب الذي يُرمى»[(٢)] .

« قال بقيٌّ يومًا لطلبته : أنتم تطلبون العلم ؟! وهكذا يُطلبُ العلم ؟! إنما أحدكم إذا لم يكن عليه شُغُلٌ يقول : أمضي أسمع العلم ! إني لأعرف رجلًا - يعني نفسه - تمضي عليه الأيام في وقت طلبه للعلم ، لا يكون له عيشٌ إلا من ورق الكرنب الذي يُلقيه الناس ! وإني لأعرفُ رجلًا باع سراويله غير مرة في شراء كاغد، حتى يسوق الله إليه مِنْ حيث يُخْلِفُها»[(٣)] .

١٠٤ - داود الظاهري وأبو يعقوب الشُريطي :

أما داود بن علي فهو رئيس أهل الظاهر ، الحافظ داود بن علي أبو

---

(١) تذكرة الحفاظ ٢/٦٣٠ ، والسير ١٣/٢٩١ .

(٢) تذكرة الحفاظ ٢ / ٦٣٠ ، سير أعلام النبلاء ١٣ / ٢٩٢ .

(٣) معجم الأدباء لياقوت الحموي ٧/٨٣ ، باع سراويله أي ويبقى عليه سروال هو لابسُهُ ، لا أنه بقي مكشوف العورة .

سليمان[١] ، ويُسمَّى بالأصبهاني .

« قال قاسم بن أصبغ الحافظ : ذاكرتُ ابن جرير الطبري ، وابن سريج في كتاب ابن قتيبة في الفقه ، فقالا : ليس بشيء ، فإذا أردت الفقه ، فكتبُ أصحاب الفقه كالشافعي وداود ، ونظرائهما »[٢].

قال الذهبي في السير (١٠٧/١٣) : « داود بن علي بصيرٌ بالفقه ، عالمٌ بالقرآن ، حافظٌ للأثر ، رأسٌ في معرفة الخلاف ، من أوعية العلم » .

كان في مجلسه أربعمائة صاحب طيلسان أخضر ، وقد كان الطيلسان من شارات الفقهاء الكبار ، وكان السلطان إذا أراد تعظيم فقيه وتكريمه طيلسه .

قال ابن حزم عن داود الظاهري : كان عراقيًّا ، كتب ثمانية عشر ألف ورقة .

« قال القاضي الحافظ أبو عبد الله المحاملي : صلَّيتُ صلاة الفطر في جامع المدينة ، وقلتُ : أدخل على دواد بن عليٍّ فأهنِّيه ، فجئتُه ، وإذا بين يديه طبقٌ فيه أوراق هِندباء[٣] ، وعصارة فيها نخالة ، وهو يأكل ، فهنَّأتُه ، وعجبتُ من حاله ! ورأيتُ أن جميع ما في الدنيا ليس بشيء ، فخرجتُ من عنده ، ودخلتُ على رجل من مُحِبِّي الصنيعة[٤] ، يُقال له : الجرجاني ، فخرج إليَّ حاسرَ الرأس، حافي القدمين، وقال لي: ما عنَّى القاضي ؟! قلتُ: مهم! قال: ما هو ؟ قلتُ: في جوارك داود بن علي، ومكانُه من العلم ما تعلمُه، وأنت كثير الصلة والرغبة في الخير، تغفل عنه ؟! وحدَّثته بما رأيت.

(١) عفا الله عنه ، كان ممن يقول بأن القرآن مُحدث .
(٢) سير أعلام النبلاء ١٠٢/١٣ .
(٣) نوع من البقول رخيص مبذول .
(٤) أي فعل الخير .

قال الجرجاني: داود شرسُ الخلق ! وجَّهتُ إليه البارحة بألف درهم ليستعين بها فردَّها عليَّ ، وقال للغلام : قل له : بأي عينٍ رأيتني ؟ وما الذي بلغك من حاجتي وخَلَّتي حتى بعثتَ لي بهذا ؟!

قال المحاملي : فعجبتُ ، وقلتُ للجرجاني : هاتِ الدراهم ، فإني أحملُها إليه ، فدفعها إليَّ ، وقال للغلام : ائتني بكيس آخر ، فوزن ألفًا أخرى ، وقال : تلك لنا ، وهذه لعناية القاضي ، فأخذتُ له الألفيْن ، وجئتُ إليه، فقرعتُ البابَ، ودخلتُ، وجلستُ ساعةً، ثم أخرجتُ الدراهمَ وجعلتُها بين يديه ، فقال : هذا جزاء مَنِ ائتمنك على سرِّه ؟ أنا بأمانة العلم أدخلتُك إليَّ ، ارجع فلا حاجة لي فيما معك .

قال المحاملي : فرجعتُ وقد صغُرت الدنيا في عيني ، وأخبرتُ الجرجاني، فقال : إني أخرجتُ هذه الدراهم لله تعالى فلا ترجعُ في مالي ، فليتولَّ القاضي إخراجها في أهلِ البرّ والعفاف » .

إذا سمتْ عينُ مَنْ تهواه عن ذهبٍ فالتِّبْرُ والتُّربُ في الدنيا لديك سوَا

« قال داود : حضَر مجلسي يومًا أبو يعقوب الشريطي ، وكان من أهل البصرة ، وعليه خِرْقتان ! فتصدَّر لنفسه من غير أن يرفعه أحد ، وجلس إلى جانبي ، وقال لي : سلْ يافتى عمّا بدا لك ، فكأني غضبتُ منه ! فقلتُ له مُستهزئًا : أسألك عن الحجامة ، فبرك أبو يعقوب ، ثم روى طريق حديث « أفطر الحاجم والمحجوم » ومَنْ أرسله ، ومَنْ أسنده ، ومَنْ وقفه ، ومَنْ ذهب إليه من الفقهاء ، وروى اختلاف طريق حديث احتجام النبي ﷺ ، وإعطاء الحجّام أجْرَهُ ، ولو كان حرامًا لم يُعطه ، ثم روى طرق حديث أنَّ النبي ﷺ احتجم بقرْن ، وذكر أحاديث صحيحة في الحجامة، ثم ذكر الأحاديث المتوسطة مثل «ما مررت بملأ من الملائكة...»، ومثل « شفاء أُمَّتي في ثلاث ... » ، وما أشبه ذلك ، وذكر الأحاديث الضعيفة- أي الموضوعة- مثل قوله ﷺ: «لا تحتجموا يوم كذا ولا ساعة

كذا » ، ثم ذكر ما ذهب إليه أهل الطب من الحجامة في كل زمان ، وما ذكروه فيها ، ثم ختم كلامه بأن قال : وأول ما خرجت الحجامة من أصبهان ! (بلد داود بن علي الظاهري) ، فقلتُ له : والله لاحَقَرتُ بعدك أحدًا أبدًا »[١] .

١٠٥ - موسى بن إسحاق الإمام المقرئ القاضي :

« وصَّى المعتضد وزيره بإسماعيل القاضي ، وبموسى بن إسحاق ، وقال : بهما يُدفع عن أهل الأرض »[٢] .

قال ولده أحمد: قال أبي: سمعتُ من أبي كريب ثلاثمائة ألف حديث.

وقال ابن المنادي : بلغني أنه أقرأ الناسَ القرآن وله ثماني عشرة سنة .

١٠٦ - ثعلب إمام النحو المُحدِّث الحافظ أبو العباس :

قال : ابتدأتُ بالنظر وأنا ابن ثماني عشرة سنة - أي النظر في العربية والشعر واللغة - ولمّا بلغتُ خمسًا وعشرين سنة ، ما بقي عليَّ مسألة للفرّاء ، وسمعتُ من القواريري مائة ألف حديث .

قال الخطيب : ثقة حُجَّة ، دَيِّنٌ صالح ، مشهور بالحفظ .

قال المبرد: أعلمُ الكوفيين ثعلب، فذكر له الفرَّاء، فقال: لا تَعْشُرُه.

قال ابن مجاهد شيخ القرَّاء : رأيت النبي ﷺ في المنام ، فقال لي : أَقْرِئْ أبا العباس السلام ، وقل له : إنك صاحبُ العلم المستطيل[٣] .

وكان يُزري على نفسه ولا يعدُّ نفسه .

(١) وفيات الأعيان ١/١٧٥ - ١٧٦ .

(٢) تذكرة الحفاظ ٢ / ٦٦٩ .

(٣) إنباه الرواة للقفطي ١ / ١٤٣ - ١٤٤ .

قال القفطي : كان مُكرِّر على كُتُبِ الكسائي والفرَّاء[(١)] .

١٠٧ - الفريابي الحافظ الثبت القاضي شيخ الوقت أبو بكر : جعفر بن محمد بن المستفاض :

« قال الخطيب : الفريابي قاضي الدِّينَور ، من أوعية العلم ، ثقة حُجَّة ، ومن أهل المعرفة والفهم ، طوَّف شرقًا وغربًا ، ولقي الأعلام .

عن أبي حفص الزَّيات قال : لما ورد الفريابي إلى بغداد استُقبل بالطيارات والزَّبازب[(٢)] ، ووعد له الناس إلى شارع المنار ليسمعوا منه . قال : فحضر مَنْ حُزروا ، فقيل : كانوا نحو ثلاثين ألفًا ، وكان المُسْتَملون ثلاثمائة وست عشرة نفسًا .

وقال أبو الفضل الزهري : لما سمعتُ من الفريابي كان في مجلسه من أصحاب المحابر مَنْ يكتب حدود عشرة آلاف إنسان ، ما بقي منهم غيري ، هذا سوى من لا يكتب ، ثم جعل يبكي .

وقال أبو أحمد بن عدي : كنا نشهد مجلس جعفر الفريابي ، وفيه عشرة آلاف أو أكثر .

وقال مرة أخرى : رأيتُ مجلس الفريابي يُحزر فيه خمسة عشر ألف محبرة، وكان الواحد يحتاج أن يبيت في المجلس؛ ليجد مع الغد موضعًا»[(٣)].

قد كان هذا زمان العلم .. زمان أصحاب الحديث .. زمان المحابر .

إذا ما المسكُ طيَّبَ ريحَ قومٍ ... كفانَي ذاك رائحة المدادِ
فما شيءٌ بأحسنَ من ثيابٍ ... على حافاتِها حممُ السواد

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٤ / ٥ - ٦ .

(٢) ضرب من السفن .

(٣) سير أعلام النبلاء ١٤ / ٩٨ - ١٠٠ .

١٠٨ - الإمام محمد بن أحمد بن نصر الشافعي، أبو جعفر الترمذي الزاهد:

كتب الحديث تسعًا وعشرين سنة، وتفقَّه بأصحاب الشافعي، وحدَّث عنه الرامهرمزي صاحب كتاب «المحدث الفاصل بين الراوي والواعي».

« قال الدارقطني : ثقة مأمون ناسك .

وقال أحمد بن كامل: لم يكن للشافعية بالعراق أرأس منه، ولا أورع، ولا أنقل ولا أكثر تقلُّلا في المطعم ، على حال عظيمة من الفقر والصبر على الفقر .

قال إبراهيم بن السري الزجَّاج : إنه كان يُجرى على أبي جعفر في الشهر أربعة دراهم يتقوَّت بها ، وكان لا يسأل أحدًا شيئًا .

وقال محمد بن موسى بن حمّاد البربري : أخبرني أنه تقوَّت في سبعة وعشرين يومًا بخمس حبَّات ، قلتُ له : وكيف عملتَ ؟ فقال : لم يكن عندي غيرها ، فاشتريتُ بها لِفْتًا ، وكنتُ آكل كل يوم واحدة ، وتُوفِّي عن (٩٤) سنة »[١] .

١٠٩ - الإمام النسائي :

الإمام الحافظ الثبت شيخ الإسلام أحمد بن شعيب ، أبو عبد الرحمن .

قال الذهبي في السير (١٢٧/١٤) :

« كان من بحور العلم ، مع الفهم والإتقان ، والبصر ، ونقد الرجال ، وحُسْن التأليف . جال في طلب العلم في خراسان ، والحجاز ، ومصر ، والعراق ، والجزيرة ، والشام ، والثغور ، ثم استوطن مصر ، ورحل الحفاظ إليه ، ولم يبقَ له نظير في هذا الشأن » .

وقال : «ولم يكن أحد في رأس الثلاثمائة أحفظ من النسائي ، هو

---

(١) تاريخ بغداد ٣٦٥/١، سير أعلام النبلاء ٥٤٥/١٣ .

أحذق بالحديث وعلله ورجاله من مسلم، ومن أبي داود، ومن أبي عيسى، وهو جارٍ في مضمار البخاري، وأبي زرعة ».

قال الحاكم: كلام النسائي على فقه الحديث كثير، ومن نظر في سننه تحيَّر في حُسْن كلامه.

قال النسائي: أقمتُ عند قتيبة بن سعيد سنة وشهرين - أي لأخذ الحديث منه -.

قال مأمون المصري المُحدِّث: خرجنا إلى طرسوس مع النسائي سنة الفداء، فاجتمع جماعة من الأئمة: عبد الله بن أحمد بن حنبل، ومحمد ابن إبراهيم بن مربع، وأبو الآذان، وكيلجة، فتشاوروا: مَنْ ينتقي لهم على الشيوخ، فأجمعوا على أبي عبد الرحمن النسائي، وكتبوا كلهم بانتخابه.

قال ابن الأثير في أول « جامع الأصول »: كان شافعيًّا، له مناسك على مذهب الشافعي، وكان وَرِعًا مُتحرِّيًا، قيل: إنه أتى الحارث بن مسكين في زيٍّ أنكره، عليه قلنسوة وقباءٍ، وكان الحارث خائفًا من أمور تتعلّق بالسلطان، فخاف أن يكون عينًا عليه، فمنعه، فكان يجيء فيقعد خلف الباب ويسمع، ولذلك ما قال: حدَّثنا الحارث، وإنما يقول: قال الحارث بن مسكين قراءةً عليه وأنا أسمع.

وقال أبو طالب أحمد بن نصر الحافظ: مَنْ يصبر على ما يصبر عليه النسائي؟! عنده حديث ابن لهيعة ترجمة ترجمة - يعني عن قتيبة، عن ابن لهيعة - قال: فما حدَّث بها.

وقال الدارقطني: أبو عبد الرحمن مُقدَّم على كل من يُذكر بهذا العلم من أهل عصره.

وقال أيضًا: كان أبو بكر بن الحدّاد الشافعي كثير الحديث، ولم يُحدِّث عن غير النسائي، وقال: رضيت به حُجَّة بيني وبين الله تعالى.

قال الدارقطني: «خرج حاجًّا فامتحن بدمشق، وأدرك الشهادة، فقال: احملوني إلى مكة ، فحُمِل وتوفِّي بها ، وهو مدفون بين الصفا والمروة، وكان أفقه مشايخ مصر في عصره، وأعلمهم بالحديث والرجال»[١].

١١٠ - الإمام مسلم بن الحجَّاج بن ورد القُشيري صاحب الصحيح :

قال أحمد بن سلمة : رأيتُ أبا زرعة وأبا حاتم يُقدِّمان مُسلمًا في معرفة الصحيح على مشايخ عصرهما .

ذكر إسحاق بن راهويه مسلمًا ، فقال بالفارسية كلامًا معناه : أيُّ رجل يكون هذا ؟! .

وقال محمد بن بشار يقول : حفَّاظ الدنيا أربعة : أبو زرعة بالريِّ ، ومسلم بنيسابور، وعبد الله الدارمي بسمرقند، ومحمد بن إسماعيل ببخارى.

وقال محمد الماسَرْجسِي : سمعتُ مُسلمًا يقول : صنَّفتُ هذا « المسند الصحيح » من ثلاثمائة ألف حديث مسموعة .

وقال أحمد بن سلمة : كنتُ مع مسلم في تأليف « صحيحه » خمس عشرة سنة[٢] . قال : وهو اثنا عشر ألف حديث .

قال مسلم: لو أن أهل الحديث يكتبون الحديث مائتي سنة؛ فمدارهم على هذا المسند[٣] .

قال الذهبي: «هو كتاب نفيس كامل، فلما رآه الحفاظ أُعجبوا به».

قال الحافظ أبو عمرو بن الصلاح عن الإمام مسلم : « وكان لموته سببٌ غريب ، نشأ من غمرة فكرية علمية ، فقرأت بنيسابور - حرسها الله وسائر ديار الإسلام وأهله- فيما انتخبته من «تاريخها» للحاكم النيسابوري

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٤/١٢٥- ١٣٧ .
(٢) في « مقدمة صحيح مسلم » : ست عشرة سنة .
(٣) مقدمة صحيح مسلم بشرح النووي صـ ١٥ .

على الشيخ الزكي أبي الفتح منصور بن عبد المنعم ...

قال أحمد بن سلمة - رفيق مسلم في الرحلة -: عُقد لأبي الحسين مسلم بن الحجاج مجلسٌ للمذاكرة ، فذكر له حديث لم يعرفه ، فانصرف إلى منزله ، وأوقد السراج ، وقال لمن في الدار : لا يدخلَنَّ أحدٌ منكم هذا البيت ، فقيل له : أُهديتْ لنا سلَّةٌ فيها تمرٌ ، فقال : قدِّموها إليَّ ، فقدَّموها إليه ، فكان يطلب الحديث ، ويأخذ تمرةً تمرةً يمضغها ، فأصبح وقد فني التَّمر ! ووجد الحديث .

قال الحاكم : زادني الثقة من أصحابنا أنه منها مرض ومات »[١] .

١١١ - الطحاوي الإمام الحافظ الكبير مُحدِّث الديار المصرية وفقيهها أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الأزدي :

قال الذهبي في السير (١٥/٣٠) : « مَنْ نظر في تواليف هذا الإمام علم محلَّه من العلم وسعة معارفة . برز في علم الحديث والفقه وجمع وصنَّف » .

قال مسلم بن القاسم في «الصلة» فيما نقله عنه ابن حجر في «اللسان» (١/٢٧٦) : « جليل القدر ، فقيه البدن ، عالمًا باختلاف العلماء ، بصيرًا بالتصنيف » .

وقالِ ابن عبد البر : « كان من أعلم الناس بسِيَرِ الكوفيين وأخبارهم وفقههم ، مع مشاركة في جميع مذاهب الفقهاء » .

وقال ابن كثير في البداية (١١/١٨٦): «الفقيه الحنفي صاحب التصانيف المفيدة ، والفوائد الغزيرة ، وهو أحد الثقات الأثبات ، والحفَّاظ الجهابذة » .

وقال البدر العيني في «نخب الأفكار»: «أمّا الطحاوي، فإنه مُجمَعٌ عليه

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٢/٥٦٤ ، و « صيانة صحيح مسلم من الإخلال والغلط وحمايته من الإسقاط والسقط » صـ ٦٤ .

في ثقته وديانته وأمانته وفضيلته التامة، ويده الطولى في الحديث وعلله وناسخه ومنسوخه، ولم يَخْلُفْه في ذلك أحدٌ، وقد أثنى عليه السلف والخلف».

نشأ الطحاوي في بيت علم وفضل ، وأُمُّه معدودة في أصحاب الشافعي الذين كانوا يحضرون مجلسه ، وخاله هو الإمام المزني صاحبُ الشافعي وناشرُ علمه .

حفظ القرآن على شيخه ابن عمروس ، وتفقَّه على خاله المزني ، وسمع منه مختصره ، ولقد عاصر الذهبي الأئمة الحفاظ أصحاب الكتاب الستة .

ولما بلغ سِنَّ العشرين ترك المذهب الشافعي ، وتحوَّل إلى المذهب الحنفي .

لما بنى أحمد بن طولون والي مصر البيمارستان ، وأراد أن يقف عليه ، وعلى المسجد العتيق – مسجد عمرو بن العاص – أحباسًا ، وأراد أن يكتب وثائق أحباسه ، فتولّى كتابة ذلك أبو خازم عبد الحميد بن عبد العزيز قاضي دمشق ، فلما جاءت الوثائق ؛ أحضر علماء الشروط لينظروا هل فيها شيء يُفْسِدها ، فنظروا ، فقالوا : ليس فيها شيء ، فنظر فيها أبو جعفر الطحاوي وهو يومئذ شابٌّ ، فقال : فيها غلطٌ ، فطلبوا منه بيانه ، فأبى ، فأحضره أحمد بن طولون ، فقال له : إنْ كنت لم تذكر الغلط لرسلي فاذكره لي ، فقال : ما أفعل . قال : ولِمَ ؟ قال : لأن أبا خازم رجل عالم ، وعسى أن يكون الصواب معه ، وقد خفي عليّ ، فأعجب ذلك ابن طولون ، وأجازه ، وقال له: تخرج إلى أبي خازم ، وتُوافقه على ما ينبغي . فخرج إليه ، فاعترف أبو خازم بالغلط ، فلما رجع الطحاوي إلى مصر ، وحضر مجلس ابن طولون ؛ سأله ، فقال : كان الصواب مع أبي خازم، ورجعتُ إلى قوله، وستر ما كان بينهما، فزاد في نفس ابن طولون، فقرَّبه وشرَّفه .

وقد انتهز الطحاوي فرصة وجوده في الشام ، فتنقل خلالها بين غزة وعسقلان وطبرية وبيت المقدس ودمشق ، فروى عن شيوخها وأفاد منهم ، وتفقَّه على القاضي أبي خازم ، وتفقَّه الطحاوي وتخرج على الإمام شيخ الحنفية ابن أبي عمران البغدادي الحافظ الفقيه ، ولازمه مدة عشرين سنة ، مكّنته من الإحاطة بمذهب الحنفية ، ومعرفة دقائقه ، واختلاف رواياته ، وكان ابن أبي عمران من بحور العلم .

وأخذ الطحاوي أيضًا العلم عن بكَّار بن قتيبة وسمع منه ، وتأثَّر بمنهجه ، وأكثر الرواية عنه ، وبه انتفع وتخرّج ، إلا أن انتفاعه به كان في الحديث أكثر منه في الفقه ، فإنه لم يكن يتخلَّف عن مجلسه في إملاء الحديث .

وأخذ أيضًا من القاضي أبي عبيد البغدادي ، وحدَّث عنه الطحاوي في « المُشكَل » ، وكان يُجالسه ويذاكره ، وأخذ عن النسائي وأكثر من الرواية عنه ، وأخذ عن يونس بن عبد الأعلى وكثير غيرهم .

والإمام الطحاوي إمام مجتهد كبير ، عارف بأحكام القرآن ومعانيه ، وبما أُثر عن الصحابة والتابعين ، من تفسير آيه ، وأسباب نزوله ، وله ثقافة ممتازة بعلم القراءات ، حافظ للحديث ، واسع المعرفة بطُرُقه ومتونه وعلله وأحوال رجاله ، ذو حظٍّ كبير من العلم بلسان العرب ومواقع كلامها وسعة لغتها ، واسع الاطلاع على مذاهب الصحابة والتابعين ، والأئمة الأربعة المتبوعين، وغيرهم من الأئمة المجتهدين، بارع في علم الشروط والوثائق.

صنّف التصانيف المتنوعة الفريدة في بابها ، المُقدَّمة في موضوعها ، المشحونة بالفوائد أكثر من غيرها .

« قال الطحاوي : كان لمحمد بن عبدة القاضي مجلسٌ للفقه عشيَّة الخميس، ويحضره الفقهاء وأصحاب الحديث، فإذا فرغ وصلَّى المغرب، انصرف الناس ولم يبق أحد إلا من تكون له حاجة فيجلس ، فلما كان

ليلة رأينا إلى جنب القاضي شيخًا عليه عمامةٌ طويلةٌ ، وله لحيةٌ حسنةٌ ، لا نعرفه ، فلما فرغ المجلس ، وصلَّى القاضي ؛ التفت ، فقال : يتأخَّر أبو سعيد - يعني الفريابي - وأبو جعفر ، وانصرف الناس ، ثم قام يركع ، فلما فرغ ؛ استند ، ونُصبت بين يديه الشموع ، ثم قال : خذوا في شيء ، فقال ذلك الشيخ : أيش روى أبو عبيدة بن عبد الله بن مسعود ، عن أُمِّه ، عن أبيه ؟ فلم يقل أبو سعيد الفريابي شيئًا ، فقلتُ أنا : حدَّثنا بكَّار بن قتيبة ، حدَّثنا أبو أحمد ، حدَّثنا سفيان ، عن عبد الأعلى الثعلبي ، عن أبي عبيدة بن عبد الله ، عن أُمِّه ، عن أبيه ، أن رسول الله ﷺ قال : « إنَّ الله ليغارُ للمؤمن فَليَغَرْ » . قال : فقال لي ذلك الشيخ : أتدري ما تتكلم به ؟ فقلتُ : أيش الخبر ؟ فقال : رأيتُك العشيَّة مع الفقهاء في ميدانهم ، ورأيتُك الساعة في أصحاب الحديث في ميدانهم ، وقلَّ مَنْ يجمع بين البابَين . فقلتُ : هذا من فضل الله وإنعامه . فأُعجب القاضي في وصفه لي ، ثم أخذنا في المذاكرة »[1] .

قال « اللكنوي » في « الفوائد البهية » صـ ٣١ : « إنّ الطحاوي له درجة عالية ، ورتبة شامخة ، قد خالف بها صاحب المذهب في كثير من الأصول والفروع . وَمَنْ طالع « شرح معاني الآثار » وغيره من مصنَّفاته ، يجده يختار خلاف ما اختاره صاحب المذهب كثيرًا ، إذا كان ما يدلُّ عليه قويًّا . فالحق أنه من المجتهدين المنتسبين الذين ينتسبون إلى إمام معين من المجتهدين ، لكن لا يُقلِّدونه لا في الفروع ولا في الأصول ؛ لكونهم مُتصفين بالاجتهاد ، وإنما انتسبوا إليه ؛ لسلوكهم طريقه في الاجتهاد ، إن انحطّ عن ذلك فهو من المجتهدين في المذهب ، القادرين على استخراج الأحكام من

---

(١) تذكرة الحفاظ ٣ / ٨٠٩ - ٨١٠ ، ولسان الميزان ١ / ٢٧٨ ، وسير أعلام النبلاء ١٥/ ٣٠ .

القواعد التي قرَّرها الإمام ، ولا تنحطُّ مرتبته عن هذه المرتبة أبدًا على رغم أنف مَنْ جعله مُنحطا » .

ولقد أحصى المؤرخون من تصانيفه ما يزيد على ثلاثين كتابًا ؛ منها :

١ - **العقيدة الطحاوية** : وقد حظيت هذه الرسالة بشهرة واسعة ، ونالت قبول أهل السنة وإعجابهم على اختلاف مذاهبهم ، فتناولوها بالشرح والبيان ، ومن أجود تلك الشروح شرح القاضي ابن أبي العز الدمشقي .

قال التاج السبكي في « مُعيد النِّعمَ ومُبيد النِّقَم » (٢٢- ٢٣) : « وهذه المذاهب الأربعة - ولله الحمد - في العقائد واحدة ، إلا مَنْ لحق منها بأهل الاعتزال أو التجسيم ، وإلا فجمهورها على الحق يُقرُّون عقيدة أبي جعفر الطحاوي التي تلقَّاها العلماء سلفًا وخلفًا بالقبول » .

٢ - **شرح معاني الآثار** : تناوله العلماء بالشرح ، وهو كتاب فريد في بابه ، يُدرِّب طالبَ العلم على التفقُّه ، ويُطلعُه على وجوه الخلاف ، ويُربِّي فيه ملكة الاستنباط ، وقد شرحه العلّامة العيني في « نُخَبِ الأفكار في شرح معاني الآثار » ، وهو في ثمانية مُجلَّدات بخطِّه .

٣ - **اختلاف الفقهاء** : في نحو مائة وثلاثين جزءًا حديثيًّا .

٤ - **مختصر الطحاوي** : في الفقه الحنفي على شاكلة مختصر المزني في مذهب الشافعي .

قال أبو الوفا الأفغاني عنه : « أول المختصرات في مذهبنا ، وأبدعُها ، وأحسنُها تهذيبًا ، وأصحُّها روايةً عن أصحابنا ، وأقواها درايةً ، وأرجحها فتوى ، ترى فيه المسائل على وجهها معزوةً إلى مَنْ رواها عن الأئمة - أئمة المذهب - كأبي يوسف ، ومحمد ، وزفر ، والحسن بن زياد ، فإنْ كان في المسألة أقوال ؛ تراه يُرجِّح بعضها على بعض ، ويختاره » .

ولهذا المختصر عدة شروح؛ أقدمُها وأهمُّها: شرح الجصَّاص صاحب « أحكام القرآن » . قال صاحب « الحاوي » : غاية في الإتقان روايةً ودرايةً .

٥ - **أحكام القرآن** : في نحو عشرين جزءًا . يقول القاضي عياض في الإكمال : « إنّ للطحاوي ألفَ ورقة في تفسير القرآن » . وكان له قصبُ السَّبق على غيره في تأليف «أحكام القرآن» بصورة فريدة، تفرَّد فيها بمنهج غير مألوف لدى مُفسِّري أحكام القرآن الكريم ؛ حيث تميَّز من حيث الترتيب والتبويب بجمع الآيات المتصلة بالموضوع ، ثم رتَّبها جميعًا ترتيبًا موضوعيًّا .

٦ - **شرح مُشكل الآثار** : « وهو من أعظم ما كتب الطحاوي ، ولو لم يكن له سواه لكفاه أن يضعه في عداد الأئمة الجهابذة ، وهو مما يضطر العلماء على اختلاف مشاربهم إليه ، والناس كلهم في هذا الباب من العلم عيالٌ عليه .

١١٢ - الحافظ الكبير ابن عدي صاحب كتاب « الكامل » في الضعفاء ، أبو أحمد الجرجاني عبد الله بن محمد بن عدي :

الإمام الحافظ الناقد الجوَّال ، « أحد الجهابذة الذين طافوا البلاد ، وهجروا الوساد، وواصلوا السُّهاد، وقطعوا المُعتاد، طالبين للعلم، لا يعتري هِمَّتَهم قصورٌ ، ولا يُثني عزمَهم عوارضُ الأمور ، ولا يدع سيرَهم في ليالي الرحلة مُدْلهمٌّ الديجور . وكتابُه « الكامل » طابقَ اسمُهُ معناه ، ووافقَ لفظهُ فحواه ، من عينه انتجع المُنتجعون ، وبشهادته حكم المُحكَّمون ، وإلى ما يقول رجع المُتقدِّمون والمتأخِّرون »[1] .

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى ٣ / ٣١٥ - ٣١٦ .

« قال حمزة بن يوسف السهمي : سألتُ الدارقطني أن يُصنِّف كتابًا في الضعفاء ، فقال : أليس عندك كتاب ابن عدي ؟ قلتُ: بلى . قال : فيه كفاية ، لا يُزاد عليه .

قال الخليلي : وسمعتُ أحمد بن أبي مسلم الحافظ يقول : لم أرَ أحدًا مثل أبي أحمد بن عديّ ، فكيف فوقه في الحفظ ؟! وكان أحمد هذا لقي الطبراني وأبا أحمد الحاكم ، وقال لي : كان حفظُ هؤلاء تكلّفًا ، وحفظ ابن عديٍّ طبعًا، زاد معجمه على ألف شيخ » .

قال الذهبي : « كان لا يعرف العربية مع عُجمة فيه ، وأما في العِلَلِ والرجال فحافظٌ لا يُجارى . جرَّح وعدَّل ، وصحَّح وعلَّل »(١) .

١١٣ - الإمام أبو بكر بن الأنباري محمد بن القاسم بن محمد النحوي ، المُفسِّر، الأديب ، الحَفّاظ ، بحر الحفظ ، البغدادي :

لم يكن له نسْلٌ ولا ذُريَّة من بعده سوى أكثر من ثلاثين مؤلفًا ، تزيد أوراقها على أكثر من خمسين ألف ورقة ! فللهِ دَرُّهُ ، ما أغلى العلم على قلبه ! فلقد امتنع هذا الإمام طول حياته من تناول الطيبات من الأطعمة ، وقد قُدِّمت إليه على موائد الملوك إبقاءً على حفْظه ، وزهد في اقتراب النساء تفرُّغًا لعلْمِهِ .

« صنَّف كُتُبًا كثيرة في علوم القرآن ، وغريب الحديث والمشكل والوقف والابتداء . وكان يحفظ ثلاثمائة ألف بيت من الشِّعْر شاهدة في القرآن ، وكان يُملي من حفْظه لا من كتاب .

ومرض مرّة ، فدخل عليه أصحابه يعودونه ، فرأوا من انزعاج أبيه وقلقه عليه أمرًا عظيمًا ، فطيِّبوا نفْسَهُ ، ورجَوْا له عافية أبي بكر ، فقال لهم : كيف لا أقلق وأنزعج من عِلّة مَنْ يحفظ جميع ما ترون ، وأشار لهم

(١) سير أعلام النبلاء ١٦/١٥٤- ١٥٦، وتذكرة الحفّاظ ٣ / ١٤٣ .

إلى حِيْرِيٍّ[١] مملوءٍ كتبًا .

حدَّث أنه يحفظ عشرين ومائة تفسير من تفاسير القرآن بأسانيدها .

وقال تلميذه أبو العباس بن يونس : كان أبو بكر الأنباري آيةً من آيات الله في الحفظ .

وقال تلميذه أبو علي القالي الإمام الأديب المشهور : كان أبو بكر الأنباري يحفظ ثلاثمائة ألف بيت شاهدة في القرآن .

سألتهُ جارية عن شيء من تفسير الرؤيا ، فقال لها : أنا حاقن[٢] ، ثم مضى ، فلما كان الغد عاد وقد صار مُعَبِّرًا للرؤيا ، وذاك أنه مضى من يومه ، فدرس كتاب الكرماني - في تعبير الرؤيا - وجاء .

وكان رحمه الله لا يشرب الماء المُزمَّل بالثلج ، فقيل له : ياأبا بكر ، لِمَ تفعل هذا بنفسك ؟ قال : أبقي على حِفْظي ، قلتُ : قد أكثر الناس في حفظك ، فكم تحفظ ؟ قال : أحفظ ثلاثة عشر صندوقًا . قال محمد بن جعفر التميمي النحوي : وهذا ما لا يُحفظ لأحد قبله ولا بعده .

وكان يأخذ الرُّطَبَ يشمُّه ويقول : أما إنك لطيِّبٌ ، ولكن أطيب منك حفظ ما وهب الله لي من العلم . ولمّا وقع في عِلَّة الموت أكل كلَّ شيء يشتهيه ، وقال : هي عِلَّة الموت !

ومضى يومًا إلى النَّخَّاسين[٣] ، ورأى جارية تُعَرَضُ ؛ حَسَنَةَ الصورة ، كاملةَ الوصف. قال: فوقعتْ في قلبي، ثم مضيتُ إلى دار أمير المؤمنين الراضي بالله، فقال لي: أين كنت إلى الساعة؟ فعرَّفته، فأمر بعضَ أسبابِه[٤] ، فمضى

(١) حُبٌّ حِيري : هو الجرة الكبيرة الضخمة .

(٢) أي يحتاج لبيت الخلاء للبول .

(٣) الذين يبيعون الرقيق من العبيد والإماء .

(٤) غلمانه .

فاشتراها وحملها إلى منزلي، فجئتُ فوجدتُها، فعلمتُ الأمر كيف جرى. فقلتُ لها : كُوني فوق إلى أن أستبرئَك[1]، وكنتُ أطلبُ مسألةً قد اختلَّتْ عليَّ، فاشتغل قلبي عن علمي ! فقلتُ للخادم: خذْها وامضِ بها إلى النخَّاسين، فليس قدرُها أنْ تشغل قلبي عن علمي ، فأخذها الغلام . فقالت : دعني أُكلِّمْه بحرفين ، فقالت : أنت رجل لك محلٌّ وعقلٌ فإذا أخرجتني ، ولم تُبيِّنْ ذنبي ؛ لم آمن أن يظنَّ الناسُ بي ظنًّا قبيحًا ، فعرِّفنيه قبل أن تُخرجني ، فقلتُ لها : مَالكِ عندي عيبٌ ، غير أنكِ شَغَلتيني عن علمي ، فقالت : هذا أسهل عندي . قال : فبلغ الراضي بالله أمرُهُ ، فقال : لا ينبغي أن يكون العلمُ في قلب أحدٍ أحلى منه في صدر هذا الرجل ! »[2] . رحمه الله تعالى .

١١٤ - الإمام الحافظ : الحسن بن سفيان النسوي صاحب المُسنَد :

ارتحل إلى الآفاق .

قال الحسن رحمه الله : إنما فاتني يحيى بن يحيى بالوالدة ، لم تدعني أخرج إليه ، فعوَّضني الله بأبي خالد الفرَّاء ، وكان أسند من يحيى بن يحيى .

قال الحاكم : كان الحسن بن سفيان - مُحدِّث خراسان في عصره - مُقدَّمًا في التثبُّت والكثرة والفهم والفقه والأدب .

وقال ابن حبان : كان الحسن ممن رحل وصنَّف وحدَّث على تيقُّظ ، مع صحة الديانة والصلابة في السُّنَّة .

وقال الحافظ أبو بكر أحمد بن علي الرازي : ليس للحسن في الدنيا نظير .

قال الحاكم : سمعتُ محمد بن داود بن سليمان يقول : كنا عند الحسن

---

(١) أي أتبيَّن براءة رحمك من الحمل ، وذلك بحلول الحيض لها .

(٢) تاريخ بغداد ٣ / ١٨١ - ١٨٦ ، و « إنباه الرواة على أنباه النحاة » للقفطي ٣ / ٢٠٢ - ٢٠٧ ، و« وفيات الأعيان » لابن خَلِّكان ١ / ٥٠٣ .

ابن سفيان، فدخل ابن خزيمة، وأبو عمرو الحِيري، وأحمد بن علي الرازي، وهم متوجِّهون إلى فُرَاوة ، فقال الرازي : كتبتُ هذا الطبَق من حديثك . قال : هاتِ . فقرأ عليه ، ثم أدخل إسنادًا في إسناد ، فردَّه الحسن ، ثم بعد قليل فعل ذلك ، فردَّه الحسن ، فلما كان في الثالثة قال له الحسن : ما هذا ؟ قد احتملتُك مرتين وأنا ابن تسعين سنة ، فاتقِ الله في المشايخ ، فربما استُجيبت فيك دعوة ، فقال له ابن خزيمة : مَهْ ! لا تؤذِ الشيخ . قال : إنما أردت أن تعلم أن أبا العباس يعرف حديثه .

قال أبو الحسن الصفَّار الفقيه : « كنا عند الحسن بن سفيان ، وقد اجتمع إليه طائفة من أهل الفضل ، ارتحلوا إليه ، فخرج يومًا ، فقال : اسمعوا ما أقول لكم قبل الإملاء : قد علمنا أنكم من أبناء النِّعَم ، هجرتم الوطن ، فلا يخطرنَّ ببالكم أنكم رضيتم بهذا التجشم للعلم حقًّا ، فإني أُحدِّثكم ببعض ما تحمَّلته في طلب العلم :

ارتحلتُ من موطني، فاتفق حصولي بمصر في تسعة من أصحابي طلبة العلم ، وكنا نختلف إلى شيخ أرفع أهل عصره في العلم منزلةً ، فكان يُملي علينا كلَّ يوم قليلًا ، حتى خَفَّت النفقةُ ، وبعنا أثاثنا ، فطوينا ثلاثًا ، وأصبحنا لا حراك بنا ، فأحوجت الضرورة إلى كشفِ قناع الحشمة ، وبذْل الوجه ، فلم تسمح أنفسنا ، فوقع الاختيار على قرعة ، فوقعت عليَّ ، فتحيَّرت ، وعدلتُ ، فصلَّيتُ ركعتين ، ودعوتُ ، فلم أفرغ حتى دخل المسجد شابٌّ معه خادم ، فقال : مَنْ منكم الحسن بن سفيان ؟ قلتُ : أنا ، قال : إن الأمير طولون يُقرئكم السلام ، ويعتذر من الغفلة عن تفقُّد أحوالكم ، وقد بعث بهذا،وهو زائركم غدًا . ووضع بين يدي كل واحد مائة دينار ، فتعجَّبنا وقلنا : ما القصة ؟.

قال : دخلتُ عليه بكرةً ، فقال : أُحِبُّ أن أخلو اليوم ، فانصرفنا ، فبعد ساعة طلبني ، فأتيتُ ، فإذا به يدُهُ على خاصرته لوجع مُمِضٍّ اعتراه ،

فقال لي : تعرف الحسن بن سفيان وأصحابه ؟ قلتُ : لا . قال : اقصدِ المسجد الفلانيّ ، واحمل هذه الصُّرَرَ إليهم ، فإنهم منذ ثلاثة أيام جياع ، ومهِّدْ عُذري لديهم . فسألتُه ، فقال : انفردت فنمتُ ، فرأيتُ فارسًا في الهواء ، في يده رمح ، فنزل إلى باب هذا البيت ، ووضع سافلة رُمْحِهِ على خاصرتي، وقال: قمْ فأدرك الحسنَ بنَ سفيان وأصحابه، قمْ فأدركْهم، فإنهم منذ ثلاث جياع في المسجد الفلاني . فقلتُ له : مَنْ أنت ؟ قال : أنا رضوان صاحب الجنة . فمنذ أصاب رُمحُه خَاصرتي ؛ أصابني وجعٌ شديد ، فعجِّلْ إيصال هذا المال إليهم ليزول هذا الوجعُ عني .

قال الحسن : فعجبنا وشكرنا الله ، وخرجنا تلك الليلة من مصر ؛ لئلا نشتهر ، وأصبح كل واحد منا واحدَ عصره ، وقريعَ دهره في العلم والفضل . قال : فلما أصبح الأمير طولون فأحسَّ بخروجنا ؛ أمر بابتياع تلك المحلَّة ، ووقفها على المسجد ، وعلى مَنْ ينزل من الغُرباء وأهل الفضل ، نفقةً لهم ؛ لئلا تختلَّ أمورُهم ، وذلك كلُّه من قوة الدين وصفاء العقيدة »[١] .

١١٥ - محمد بن نصر بن الحجّاج المَروزي الإمام ، شيخ الإسلام ، أبو عبد الله الحافظ :

قال الحاكم عنه : إمام عصره بلا مُدافعة في الحديث .

وقال الذهبي : أخذ عن أبي إسماعيل المزني كُتُبَ الشافعي ضبطًا وتفقُّهًا ، وكتب الكثير ، وبرع في علوم الإسلام ، وكان إمامًا مُجتهدًا علَّامة ، من أعلم أهل زمانه باختلاف الصحابة والتابعين ، قلَّ أن ترى العيون مثله .

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٤/١٦١- ١٦٢ .

«وقال الخطيب: كان من أعلم الناس باختلاف الصحابة ومن بعدهم في الأحكام .

قال الذهبي : قلتُ : يُقال : إنه كان أعلم الأمة باختلاف العلماء على الإطلاق »(١) .

قال محمد بن عبد الله بن عبد الحكم : كان محمد بن نصر بمصر إمامًا . فكيف بخراسان ؟!

قال محمد بن نصر رحمه الله : « بقيتُ بمصر كذا كذا سنةً ؛ قوتي ، وثيابي ، وكاغدي ، وحبري ، وجميع ما أُنفقه على نفسي في السنة عشرون درهمًا » .

وقال رحمه الله : « خرجتُ من مصر ومعي جارية ، فركبتُ البحَر أُريدُ مكة، فغرقتُ، فذهب مني ألفا جزءٍ، وصرتُ إلى جزيرة أنا وجاريتي، فما رأينا فيها أحدًا ، وأخذني العطش ، فلم أقدر على الماء ، فوضعتُ رأسي على فخذِ جاريتي مُستسلمًا للموت ، فإذا رجُلٌ قد جاءني ومعه كوزٌ ، فقال لي : هاه . فشربتُ وسقيتُها ، ثم مضى ، فما أدري مِنْ أين جاء ؟ ولا مِنْ أين راح ! »(٢) .

أمّا عن سبب خروجه لكتابة كتب الشافعي ، فيقول :

فقد« رُوي عنه - يعني محمد بن نصر - أنه قال : كتبتُ الحديث بضعًا وعشرين سنة(٣) ، وسمعتُ قولًا ومسائل ، ولم يكن لي حُسْنُ رأيٍ في الشافعي ، فبينا أنا قاعدٌ في مسجد رسول الله ﷺ بالمدينة إذ أغفيت إغفاءةً ، فرأيتُ النبيَّ ﷺ في المنام ، فقلتُ : يارسول الله ، أكتبُ رأي

---

(١) تاريخ بغداد ٣/٣١٥ ، وسير أعلام النبلاء ١٤/٣٤ .
(٢) سير أعلام النبلاء ١٤/٣٧- ٣٨ .
(٣) في طبقات الشيرازي (١٠٦- ١٠٧) « سبعًا وعشرين سنةً » .

أبي حنيفة ؟ فقال : لا، فقلتُ: رأي مالك ؟ فقال: اكتبْ ما وافق حديثي، فقلتُ : أكتبُ رأي الشافعي ؟ فطأطأ رأسه شبه الغضبان ، وقال : تقول : رأي ! ليس هو بالرأي ، هو ردٌّ على مَنْ خالف سُنَّتي . قال : فخرجتُ في إثر هذه الرؤيا إلى مصر ، فكتبتُ كُتُبَ الشافعي »[(١)] .

قال أبو بكر الصيرفي : « لو لم يُصنِّف إلا كتاب « القسامة » لكان من أفقه الناس ، فكيف وقد صنّف سواه ؟! » .

قال ابن حزم : « أعلمُ الناس مَنْ كان أجمعَهم للسُّنَنِ ، وأضبطَهم لها ، وأذكرهم لمعانيها ، وأدراهم بصحتها ، وبما أجمع الناسُ عليه مما اختلفوا فيه . قال : وما نعلم هذه الصفة - بعد الصحابة - أتمَّ منها في محمد بن نصر المروزي ، فلو قال قائل : ليس لرسول الله ﷺ حديث ولا لأصحابه إلا وهو عند محمد بن نصر ؛ لما أبعد عن الصدق .

قال الذهبي : قلتُ : هذه السِّعةُ والإحاطة ما ادَّعاها ابن حزم لابن نصر إلا بعد إمعان النظر في جماعة تصانيف لابن نصر ، ويُمكن ادِّعاء ذلك لأحمد بن حنبل ونظرائه ، والله أعلم »[(٢)].

١١٦ - شيخ المُفسِّرين الإمام محمد بن جرير الطبري :

الإمام العَلَم المجتهد ، عالم العصر ، أبو جعفر . أكثر الترحال ، ولقي نُبلاء الرجال ، وكان من أفراد الدهر علمًا وذكاءً وكثرةَ تصانيف . قلَّ أن ترى العيون مثله .

قال الخطيب: «محمد بن جرير كان أحد أئمة العلماء، يُحكم بقوله، ويُرْجَع إلى رأيه لمعرفته وفضله ، وكان قد جمع من العلوم ما لم يُشاركه

(١) طبقات الشافعية للسبكي ٢/٢٤٩ ، وسير أعلام النبلاء ١٤/٣٤، وطبقات الشيرازي ١٠٦-١٠٧ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٤ / ٤٠ .

فيه أحدٌ من أهل عصره ، فكان حافظًا لكتاب الله ، عارفًا بالقراءات ، بصيرًا بالمعاني ، فقيهًا في أحكام القرآن ، عالمًا بالسُّنَنِ وطُرُقها ؛ صحيحها وسقيمها ، وناسخها ومنسوخها ، عارفًا بأقوال الصحابة والتابعين ، عارفًا بأيام الناس وأخبارهم، وله الكتاب المشهور في «أخبار الأمم وتاريخهم»، وله كتاب « التفسير » لم يُصنّف مثله ، وكتاب سمَّاه « تهذيب الآثار » لم أرَ سواه في معناه ، لكن لم يُتمَّه ، وله في أصول الفقه وفروعه كُتُبٌ كثيرة ، واختيار من أقاويل الفقهاء ، وتفرَّد بمسائل حُفظت عنه »(١) .

قال الذهبي : « كان رأسًا في التفسير ، إمامًا في الفقه والإجماع والاختلاف ، علَّامة في التاريخ وأيَّام الناس ، عارفًا بالقراءات وباللغة » .

قال هارون بن عبد العزيز: «لما دخل أبو جعفر بغداد، وكانت معه بضاعة يتقوَّت منها، فسُرقت، فأفضى به الحال إلى بيع ثيابه وكُمَّيْ قميصه، فقال له بعض أصدقائه : تنشط لتأديب بعض ولد الوزير أبي الحسن عبيد الله بن يحيى ابن خلقان ؟ قال : نعم . فمضى الرجل ، فأحكم له أمْره ، وعاد فأوصله إلى الوزير ، بعد أن أعاره ما يلبسه ، فقرَّبه الوزير ورفع مجلسه ، وأجرى عليه عشرة دنانير في الشهر ، فاشترط عليه أوقات طلبه للعلم والصلوات والراحة، وسأل إسلافه رزْق شهرٍ ، ففعل ، وأُدخل في حجرة التأديب ، وخرج إليه الصبي - وهو أبو يحيى - فلما كتَّبه أخذ الخادم اللوح ، ودخلوا مُستبشرين ، فلم تبق جارية إلا أهدتْ إليه صينية فيها دراهم ودنانير ، فردَّ الجميع ، وقال : قد شُورِطت على شيء فلا آخذ سواه ، فدرى الوزير ذلك ، فأدخله إليه وسأله ، فقال : هؤلاء عبيد ، وهم لا يملكون . فعظم ذلك في نفسه » .

وعن علي بن عبيد الله اللغوي قال : « إن محمد بن جرير مكث أربعين سنة يكتب في كل يوم منها أربعين ورقة » .

قال أبو حامد الإسفراييني : لو سافر رجل إلى الصين حتى يُحصِّل

(١) تاريخ بغداد ٢ / ١٦٣ .

تفسير محمد بن جرير لم يكن كثيرًا .

قال أبـو بكـر بن بالُوية : « قال لي أبو بكر بن خزيمة : بلغني أنك كتبتَ التفسير عن محمد بن جرير ، قلتُ : بلى ، كتبتُه عنه إملاءً ، قال : كُلَّه ؟ قلتُ : نعم . قال : في أي سنة ؟ قلتُ : من سنة ثلاث وثمانين إلى سنة تسعين ومائتين . قال : فاستعاره منه أبو بكر ، ثم ردّه بعد سنين ، ثم قال : لقد نظرتُ فيه من أوَّلِهِ إلى آخره ، وما أعلم على أديم الأرض أعلم من محمد بن جرير » .

قال ابن جرير : « استخرتُ الله ، وسألتُه العونَ على ما نويتُه من تصنيف التفسير قبل أن أعمله ثلاث سنين ، فأعانني » .

وانظر إلى عُلُوِّ هِمَّة هذا الإمام :

« قال رحمه الله لأصحابه : هل تنشطون لتاريخ العالم من آدم إلى وقتنا ؟ قالوا : كم قَدْرُه ؟ فذكر نحو ثلاثين ألف ورقة . فقالوا : هذا مما تفنى الأعمار قبل تمامه . فقال : إنا لله ... ماتت الهِمَمُ . فاختصر ذلك في نحو ثلاثة آلاف ورقة . ولما أن أراد أن يُملي التفسير قال لهم نحوًا من ذلك ، ثم أملاه على نحو من قدر التاريخ »[(١)] .

ماتت الهِمَمُ .. هذا في زمان ابن جرير .. فكيف لو رأى عصرنا !!

لقد أظهر ابن جرير مذهب الشافعي واقتدى به ببغداد عشر سنين ، وتلقَّاه منه ابن بشار الأحول أستاذ ابن سُريج ، فلما اتسع علمُه ؛ أدَّاه اجتهاده وبحثُه إلى ما اختاره في كُتُبه .

قال أبو محمد الفرغاني : « تمَّ من كُتُب محمد بن جرير كتابُ التفسير ، الذي لو ادَّعى عالم أنْ يُصنِّف منه عشرة كُتُبٍ ، كلُّ كتابٍ منها يحتوي على علم مفرد مُستقصى - لفعل . وتمَّ من كُتُبه كتاب « التاريخ »

(١) سير أعلام النبلاء ١٤ / ٢٧٤ - ٢٧٥ .

إلى عصره . وتمَّ أيضًا كتاب تاريخ الرجال من الصحابة والتابعين ، وإلى شيوخه الذين لقيهم. وتمَّ له كتاب لطيف القول في أحكام شرائع الإسلام، وهو مذهبُه الذي اختاره وجوده واحتجَّ له ، وهو ثلاثة وثمانون كتابًا . وتمَّ له كتاب « القراءات والتنزيل والعدد » . وتمَّ له كتاب « اختلاف علماء الأمصار » . وتمَّ له كتاب « الخفيف في أحكام شرائع الإسلام » ، وهو مُختصر لطيف. وتمَّ له كتاب «التبصير»، وهو رسالة إلى أهل طبرستان، يشرح فيها ما تخلَّله من أصول الدين . وابتدأ بتصنيف كتاب « تهذيب الآثار » ، وهو من عجائب كُتُبه ؛ ابتدأ بما أسنده الصدِّيق مما صحَّ عنده سندُه ، وتكلَّم على كل حديث منه بعِلَلِهِ وطُرُقِه ، ثم فقهه ، واختلاف العلماء وحُجَجهم ، وما فيه من المعاني والغريب ، والردّ على المُلحدين ؛ فتمَّ منه مُسنَد العشرة وأهل البيت ، والموالي ، وبعض مُسنَد ابن عباس ، فمات قبل تمامه » .

قال الذهبي : « هذا لو تمَّ لكان يجيء في مائة مُجلَّد » .

قال : « وابتدأ بكتابه « البسيط » ، فخرَّج منه كتاب الطهارة ، فجاء في نحو من ألف وخمسمائة ورقة ، لأنه ذكر في كل باب منه اختلاف الصحابة والتابعين، وحجةَ كُلِّ قول، وخرَّج منه أيضًا أكثر كتاب الصلاة، وخرّج منه آداب الأحكام، وكتاب المحاضر والسجلَّات، وكتاب «ترتيب العلماء »، وهو من كُتُبه النفيسة ؛ ابتدأه بآداب النفوس ، وأقوال الصوفية ، ولم يُتمَّه ، وكتاب المناسك ، وكتاب شرح السنة ، وهو لطيف ؛ بيَّن فيه مذهبَه واعتقاده ، وكتابه « المسند المخرَّج » ؛ يأتي فيه على جميع ما رواه الصحابي ، من صحيح وسقيم ، ولم يُتمَّه .

ولما بلغه أن أبا بكر بن أبي داود تكلَّم في حديث غدير خُمٍّ ؛ عمل كتاب « الفضائل » ، فبدأ بفضل أبي بكر ثم عمر ، وتكلَّم على تصحيح غدير خُمٍّ ، واحتجَّ لتصحيحه ، ولم يُتمَّ الكتاب » .

قال الذهبي : « جمع طرق حديث غدير خُمٍّ في أربعة أجزاء ، رأيتُ شطره ، فبهرني سعة رواياته ، وجزمتُ بوقوع ذلك » .

قال رحمه الله : « أبطأتْ عني نفقة والدي ، واضطررتُ إلى أن فتقتُ كُمَّيْ قميصي فبعتُهما » .

قال تلميذه الفرغاني في كتابه المعروف بكتاب « الصلة » ، وهو كتاب وصل به « تاريخ ابن جرير »:« أن قومًا من تلاميذ ابن جرير حصَّلوا أيام حياته منذ بلغ الحلم إلى أن تُوفِّي وهو ابن ستٍّ وثمانين سنة ، ثم قسَّموا عليها أوراق مُصنفاته ، فصار منها على كل يوم أربع عشرة ورقة ، وهذا شيء لا يتهيَّأ لمخلوق إلا بحُسن عناية الخالق » .

قال ابن جرير الطبري : « كنا نكتب عن محمد بن حُميد الرازي ، فيخرج إلينا في الليل مرَّات ، ويسأل عمّا كتبناه ،ويقرؤه علينا ، وكنا نمضي إلى أحمد بن حماد الدولابي ، وكان في قرية من قرى الريّ ، بينها وبين الريِّ قطعة ، ثم نعدو كالمجانين حتى نصير إلى ابن حميد فنلحق مجلسه .

ويُقال : إنه كتب عن ابن حميد فوق مائة ألف حديث ، وصار في رحلته إلى الكوفة ، فكتب فيها عن عدد من المُحدِّثين ، ومنهم أبو كريب : محمد بن العلاء الهمداني ، وكان هذا شرِسَ الخُلُق ، ومن كبار أصحاب الحديث ... » .

قال أبو جعفر : حضرتُ باب داره مع أصحاب الحديث ، فاضطلع من باب خوخة[1] له ، وأصحاب الحديث يلتمسون الدخول ويضجُّون ، فقال : أيُّكم يحفظ ما كتب عني ؟ فالتفت بعضهم إلى بعض ، ثم نظروا إليَّ ، وقالوا : أنت تحفظ ما كتبتَ عنه ؟ قلتُ : نعم ، فقالوا : هذا ، فسلْه ، فقلتُ : حدَّثْتنا في يوم كذا بكذا ، وفي يوم كذا بكذا . قال : وأخذ

(١) الخوخة : الباب الصغير على الباب الكبير .

أبو كريب في مسألته إلى أن عظُم في نفسه ، فقال له : ادخل إليَّ ، فدخل إليه ، وعرف قدْره على حداثته ، ومكَّنه من حديثه ، وكان الناس يسمعون به - أي بسببه - فيُقال : إنه سمع من أبي كريب أكثر من مائة ألف حديث ، ثم عاد إلى مدينة السلام بغداد فكتب بها ، ولزم المقام بها مُدَّة ، وتفقَّه بها ، وأخذ في علوم القرآن ، وروى الشعر عن ثعلب .

قال أبو عمر محمد بن عبد الواحد الزاهد : سمعتُ ثعلبًا يقول : قرأ عليَّ أبو جعفر الطبري شِعْرَ الشعراء قبل أن يكثر الناس عندي بمُدَّة طويلة ، ثم غرّب فخرج إلى مصر ، وكتب في طريقه عن المشايخ بأجناد الشام والسواحل والثغور ، وأكثر منها ، ثم صار إلى الفسطاط في سنة ثلاث وخمسين ومائتين ، وكان بها بقية من الشيوخ وأهل العلم ، فأكثر الكتابة عنهم ؛ من علوم مالك والشافعي وابن وهب وغيرهم .

روى المُعافى بن زكريا عن بعض الثقات أنه كان بحضرة أبي جعفر الطبري رحمه الله تعالى قبل موته ، وتُوفِّي بعد ساعة أو أقلَّ منها ، فذكر له دعاءً عن جعفر بن محمد ، فاستدعى محبرةً وصحيفةً فكتبه ، فقيل له : أفي هذه الحال ؟ فقال : ينبغي للإنسان أن لا يَدع اقتباس العلم حتى الممات .

وطول ترجمتنا لمحمد بن جرير اقتضاه طولُ الثناء والفضل الذي اتصف به .

قال أبو الطيب :

وقد أطال ثنائي طول لابسه   إن الثناءَ عن التنبالِ تنبالُ

ورحم الله ابن دُريد في قوله في رثاء ابن جرير :

ودَّتْ بقاعُ بلادِ الله لو جُعِلتْ   قبرًا له لحباها جسمه طيبا
كانت حياتُك للدنيا وساكنِها   نورًا فأصبح عنها النورُ محجوبا
لو تعلمُ الأرضُ منْ وارت لقد خشعتْ   أقطارُها لك إجلالًا وترحيبا

إن يندبوك فقد ثُلَّتْ عروشُهُمُ وأصبح العلمُ مرثيًّا ومندوبا
ومن أعاجيب ما جاء الزمانُ بِهِ وقد يُبينُ لنا الدَّهْرُ الأعاجيبا
أنْ قد طوتْكَ غُموضُ الأرض في لُحُفٍ وكنتَ تملأُ منها السَّهل واللُّوبا

وقال ابن الأعرابي :

حَدثٌ مُقطِعٌ وخطبٌ جليلٌ دقَّ عن مثلِهِ اصطبارُ الصبورِ
قام ناعي العلوم أَجْمَع لمّا قام ناعي محمد بن جرير(١)

١١٧ - إمام الأئمة محمد بن إسحاق بن خزيمة : أبو بكر صاحب التصانيف:

قال الذهبي : عُني في حداثته بالحديث والفقه ، حتى صار يُضرب به المثل في سعة العلم والإتقان .

قال عنه السبكي في طبقات الشافعية (٣/١٠٩- ١١٠): المجتهد المُطلق، البحر العجَّاج ، والحَبْرُ الذي لا يُخَاير في الحجا ، ولايناظر في الحِجَاج ، جمع أشتات العلوم ، وارتفع مقداره ؛ فتقاصرت عنه طوالع النجوم ، وأقام بنيسابور إمامها حيث الضراغم مزدحمة ، وفردها الذي رفع العلمُ بين الأفراد عَلَمَه ، والوفود تفد على رَبْعِه ؛ لا يتجنَّبه منهم إلا الأشقى ، والفتاوى تحمل عنه برًّا وبحرًا ، وتشقُّ الأرضَ شقًّا ، وعلومُه تسير فتهدي في كل سوداء مُدْلهمَّة ، وتمضي عَلَمًا تأتمُّ الهداةُ به ، وكيف لا وهو إمام الأئمة !

كالبحر يقذف للقريب جواهرا كرمًا ويبعثُ للغريب سحائبا

قال شيخ الإسلام أبو عثمان الحيري : إن الله ليدفع البلاء عن أهل هذه المدينة ؛ لمكان أبي بكر محمد بن إسحاق .

قال ابن خزيمة : كنتُ إذا أردتُ أن أُصنِّف الشيء أدخلُ في الصلاة مُستخيرًا حتى يُفتح لي ، ثم أبتدأ التصنيف .

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٤/٢٨٢ .

« قال حفيده محمد بن الفضل بن محمد عنه : إنه لا يدَّخر شيئًا جهده ، بل يُنفقه على أهل العلم ، وكان لا يعرف سنجة الوزن ، ولا يُميز بين العشرة والعشرين ، ربما أخذنا منه العشرة فيتوهَّم أنها خَمسة »(١) .

رحم الله ابن خزيمة .. لا يعرف العشرة من العشرين من النقود ، لا يعرف من أمر الدنيا شيئًا ، فإذا كان أمرُ الآخرة فهو إمام الأئمة .

قال ابن خزيمة : « استأذنتُ أبي في الخروج إلى قتيبة ، فقال : اقرأ القرآن أوَّلًا حتى آذن لك ، فاستظهرتُ القرآن ، فقال لي : امكثْ حتى تُصلِّي بالختمة ، ففعلتُ ، فلما عيَّدنا أذن لي ، فخرجتُ إلى مروْ ، وسمعتُ بمرو الروذ من محمد بن هشام صاحب هُشيم ، فنعى إلينا قتيبة » .

قال أبو أحمد حسينك : سمعتُ إمام الأئمة أبا بكر يحكي عن علي ابن خشرم عن ابن راهويه أنه قال : أحفظ سبعين ألف حديث ، فقلت لابن خزيمة: كم يحفظ الشيخ؟ فضربني على رأسي، وقال: ما أكثر فضولك، ثم قال : يابُني ، ما كتبت سوادًا في بياض إلا وأنا أعرفه .

قال أبو علي الحافظ : كان ابن خزيمة يحفظ الفقهيات من حديثه كما يحفظ القارىء السورة .

قال أبو حاتم بن حبان التيمي : ما رأيتُ على وجه الأرض مَنْ يحفظُ صناعة السُّنن ، ويحفظ ألفاظها الصِّحاح وزياداتها ، حتى كأن السُّنن كلها بين عينيه ؛ إلا محمد بن إسحاق بن خزيمة فقط .

حكى أبو بشر القطان : رأى جارٌ لابن خزيمة - من أهل العلم - كأنَّ لوحًا عليه صورة نبينا ﷺ وابن خزيمة يصقله ، فقال المُعبِّر : هذا رجلٌ يُحيي سُنَّة رسول الله ﷺ .

قال الإمام أبو العبَّاس بن سُريج - وذُكر له ابن خزيمة - فقال :

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٤/٣٧٠ .

يستخرج النُّكَت من حديث رسول الله ﷺ بالمنقاش .

قال الحاكم : فضائل إمام الأئمة ابن خزيمة عندي مجموعة في أوراق كثيرة ، ومُصنَّفاته تزيد على مائة وأربعين كتابًا سوى المسائل ، والمسائل المُصنَّفة أكثر من مائة جزء . قال : وله فقه حديث بريرة في ثلاثة أجزاء .

قال ابن خزيمة حاضًّا الناسَ على الصبر على طلب العلم :

« قال مهدي - والد عبد الرحمن بن مهدي -: كان عبد الرحمن يكون عند سفيان عشرة أيام أو أكثر لا يجيء إلى البيت ، فإذا جاءنا ساعة ، جاء رسول سفيان ، فيذهب ويتركنا » .

عن إبراهيم بن محمد بن المضارب قال : رأيتُ ابن خزيمة في النوم ، فقلتُ : جزاك الله عن الإسلام خيرًا ، فقال : كذا قال لي جبريل في السماء .

١١٨ - محمد بن هارون الروياني الإمام الحافظ أبو بكر، صاحب المُسنَد المشهور :

« إنَّ المحامدَ جياعٌ » : قصَّةُ إملاق المُحَمَّدين بمصر :

قال أبو العبَّاس البكري : « جمعت الرحلة بين ابن جرير وابن خزيمة ومحمد بن نصر المروزي ومحمد بن هارون الروياني بمصر[١] ، فأرملوا ولم يبقَ عندهم ما يُقوِّتهم ، فأضرَّ بهم الجوع ، فاجتمعوا ليلة في منزل كانوا يأوون إليه ، فاتَّفق رأيُهم على أن يستهموا ويضربوا القرعة ، فمن خرجتْ عليه القرعة سأل لأصحابه الطعام ، فخرجت القرعة على ابن خزيمة ، فقال لأصحابه : أمهلوني حتى أُصلِّي صلاة الخِيرة[٢]، قال: فاندفع في الصلاة ،

---

(١) في حدود سنة (٢٥٦ هـ) .

(٢) صلاة الاستخارة .

فإذا هم بالشموع وخصيّ من قِبَل والي مصر(١) يدقُّ الباب ، ففتحوا ، فقال : أيُّكم محمد بن نصر ؟ فقيل : هو ذا ، فأخرج صُرَّةً فيها خمسون دينارًا ، فدفعها إليه ، ثم قال : وأيكم محمد بن جرير ؟ فأعطاه خمسين دينارًا، وكذلك للروياني، وابن خزيمة، ثم قال: إن الأمير كان قائلًا بالأمس، فرأى في المنام خيالًا أو طيفًا يقول له : إن المحامد جياع [طووا كشحهم جياعًا] ، فأنفذ إليكم هذه الصُّرر ، وأقسمُ عليكم إذا نفدت ، فابعثوا إليّ أحدكم ليزيدكم »(٢) .

١١٩ - الباغندي : محمد بن محمد بن سليمان ، الإمام الحافظ الكبير مُحدِّث العراق أبو بكر :

قال أبو بكر الخطيب : « رحل في الحديث إلى الأمصار البعيدة ، وعني به العناية العظيمة ، وأخذ عن الحفَّاظ والأئمة ، وكان حافظًا فَهِمًا عارفًا » .

« قال أبو بكر الأبهري : سمعتُ أبا بكر الباغندي يقول : أنا أُجيب في ثلاثمائة ألف مسألة من حديث رسول الله ﷺ ، فأخبرتُ ابن المظفر بقول الأبهري ، فقال : صدق ، سمعتُه منه .

قال الخطيب : وسمعتُ هبة اللَّالكائي يقول : إن الباغندي كان يسرد الحديث من حفْظه ويهذُّه مثل تلاوة القرآن السريع القراءة ، وكان يقول : حدَّثنا فلان، قال: حدَّثنا فلان، وحدَّثنا فلان وهو يُحرِّك رأسه حتى تسقط عمامته »(٣) .

قال أحمد بن محمد بن شجاع بالأهواز : « كُنَّا عند إبراهيم بن موسى

---

(١) أحمد بن طولون .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٤/٢٧٠- ٢٧١، تاريخ بغداد ٢/١٦٤- ١٦٥، طبقات الشافعية ٢/٢٥٠- ٢٥١، ومعجم الأدباء ١٨/٤٦ .

(٣) تاريخ بغداد ٣/٢٠٩- ٢١٠ .

الجوزي ببغداد، وكان عنده أبو بكر الباغندي ينتقي عليه، فقال له إبراهيم: هو ذا ، تُضجِّرني ، أنت أكثرُ حديثًا مني ، وأحفظ وأعرف ، فقال له : لقد حُبِّب إليَّ هذا الحديث .. حسبُك أني رأيتُ رسول الله ﷺ في النوم ، فلم أقلْ له : ادعُ لي ، وقلتُ : يارسول الله ، أيّما أثبتُ في الحديث ؛ منصور أو الأعمش ؟ فقال : منصور منصور »[(١)] .

هذه حياتهم ... هذه لذَّتهم ، وهذا نومُهم وسُباتُهم ، حتى في النوم شغل عن سؤال المغفرة والشفاعة بالجرح والتعديل .. أمَّا في يقظتهم فقد فَنَوْا عن أنفسهم !!

« قال عمر بن شاهين : قام أبو بكر الباغندي ليُصلّي ، فكبَّر ، ثم قال : أخبرنا محمد بن سليمان لُوَيْن ، فسبَّحنا به ، فقال : بسم الله الرحمن الرحيم . الحمدُ لله ربِّ العالمين »[(١)] .

١٢٠ - الإمام الحافظ السَّرَّاج ، محمد بن إسحاق مُحدِّث خراسان ، أبو العباس :

قال الصعلوكي : حدَّثنا أبو العباس السرَّاج الأوحد في فنِّه ، الأكمل في وزْنه .

وقال : كنا نقول : السرَّاج كالسِّراج .

قال أبو علي بن الأخرم : « استعان بي السراج في التخريج على صحيح مسلم ، فكنتُ أتحيَّر من كثرة الحديث الذي عنده ، وحُسْنِ أصوله » . كتب بخطه سبعين ألف مسألة لمالك .. فما ظنّك بما كتب من حديث قد أُولع به ، وكان مُنافرًا للفقهاء أصحاب الرأي .

«قيل للسرَّاج وهو يكتب في كهولته عن يحيى بن أبي طالب : إلى كم هذا ؟ فقال : أما علمتَ أن صاحب الحديث لا يصبر »[(٢)] .

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٤ / ٣٨٥ ، وتاريخ بغداد .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٤ / ٣٩٣ .

١٢١ - أبو جعفر أحمد بن عبد الرحمن القَصْرِي :

من القيروان ، تُوفي سنة (٣٢١ هـ) .

« كان فقيهًا صالحًا وَرِعًا ، سريعَ الدمعة ، له عنايةٌ بالعلم وتصحيح الكتب وجمعها ، وكان يقول : لي أربعون سنة ، ما جفَّ لي قلمٌ ؛ يعني من كثرة ما ينسخ بالليل والنهار ، وكان ربما باع بعض ثيابه واشترى بثمنه كتابًا أو رقوقًا لنسخ كتاب »[١] .

١٢٢ - أبو بكر محمد بن جعفر بن رُميس القصري البغدادي :

« قال الدارقطني : قال ابن رُميس : بعتُ صفّ الحدّادين ببغدادين بثلاثة آلاف دينار ، فأنفقتُها كلها على الحديث »[٢] .

١٢٣ - محمد بن إبراهيم بن عبدوس القيرواني ... الفقيه المالكي :

قال القاضي عياض في « ترتيب المدارك » (١٢٢/٣) ، و « الإلماع » (صـ ٢٣٥) : « ذكر أبو بكر محمد بن اللبَّاد أن محمد بن عبدوس صلَّى الصبح بوضوء العتمة ثلاثين سنة: خمس عشرة سنة من دراسة، وخمس عشرة سنة من عبادة » .

١٢٤ - الإمام الفقيه المالكي ابن عامر ، أبو زكريا يحيى بن عمر ، من كبار أصحاب سحنون :

«طلب العلمَ عند ابن حبيب، ورحل فسمع بإفريقية من سحنون وعون، وأبي زكريا الحفري، وسمع بمصر من ابن بُكير وابن رمح، وحرملة، وغيرهم من أصحاب ابن وهب وابن القاسم وأشهب، وسمع أيضًا بالحجاز وغيرها.

---

(١) معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان لأبي زيد الدبَّاغ ٣ / ١١ .

(٢) تاريخ بغداد ٢ / ١٣٩ .

قال الكانشي : أنفق يحيى في طلب العلم ستة آلاف دينار . وسمع منه الناس وتفقَّه عليه خلْق ، وإليه كانت الرحلة في وقته »[(١)] .

١٢٥ - الإمام الكبير عبدان بن محمد، أبو محمد المَرْوزي فقيه مرو الزاهد:

قال الخطيب : كان ثقة حافظًا ، صالحًا زاهدًا .

« تفقّه بأصحاب الشافعي ؛ الربيع وغيره ، وبرع في المذهب وبَعُدَ صيتُه ، وكان يُضرب المثل باسمه في الحفظ والزهد ، وهو الذي أظهر مذهب الشافعي بمرو بعد أحمد بن سيَّار ، فإن أحمد بن سيَّار حمل كُتُبَ الشافعي ، عن الربيع المرادي من مصر إلى مرو ، وأُعجب بها الناس ، فأراد عبدان أن ينسخها ، فمنعها أحمد بن سيَّار عنه ، فباع ضيعة له بجُنْوجرْد[(٢)] ، وخرج إلى مصر ، وأدرك الربيع وغيره من أصحاب الشافعي ، ونسخ كُتُبَه ، وأدرك من المشايخ والفقهاء ما لم يُدركْه غيره ، وحمل عنهم ، ورحل إلى الشام والعراق ، وكتب عن أهل مصر ، ورجع إلى مَرْو .

وكان أحمد بن سيَّار في الأحياء ، فدخل عليه مُسلِّمًا ومُهنئًا بالقدوم ، فاعتذر أحمد بن سيَّار منْ منع الكتب عنه ، فقال عبدان : لا تعتذرْ ، فإنَّ لك منَّةً عليَّ في ذلك ، وذلك أنك لو دفعت إليَّ الكُتُبَ ، كنت اقتصرتُ على ذلك ، وما كنتُ أخرج إلى مصر ، ولا كنتُ أُدرك أصحاب الشافعي ، ففرح بذلك أحمد بن سيَّار »[(٣)] .

١٢٦ - الحافظ الفضل بن محمد بن محمد الشعراني أبو محمد المُحدِّث الجوَّال المُكثِر مُحدِّث اليمن :

قال الحاكم : « كان عالمًا عابدًا ، كثير الرحلة في طلب الحديث ،

(١) ترتيب المدارك للقاضي عياض ٤ / ٣٥٧ .
(٢) قرية من قرى مرو .
(٣) طبقات الشافعية للسبكي ٢ / ٢٩٨ ، وسير أعلام النبلاء ١٤/١٣- ١٤ .

فهْمًا ، عارفًا بالرجال ، تفرَّد برواية كتب لم يروها أحدٌ بعده : « التاريخ الكبير » عن أحمد ، و « التفسير » عن سُنَيْد ، و « القراءات » عن خلف ، و « التنبيه » عن يحيى بن أكثم ، و « المغازي » عن إبراهيم الحِزَامي ، و « الفتن » عن نعيم بن حماد .

قال محمد بن المؤمّل : كنا نقول : ما بقي في الدنيا مدينة لم يدخلها الفضل في طلب الحديث ، إلا الأندلس »[(١)] .

١٢٧ - الحافظ الإمام الأرْغياني، أبو عبد الله محمد بن المسيّب النيسابوري العابد :

قال الذهبي : « صنَّف التصانيف الكبار ، وكان ممن برَّز في العلم والعمل .

قال الحاكم : كان من الجوَّالين في طلب الحديث على الصدق والورع ، وكان من العُبَّاد المجتهدين . سمعتُ أبا الحسين بن يعقوب الحافظ يقول : كان محمد بن المسيّب يقرأ علينا ، فإذا قال : قال رسول الله ﷺ ؛ بكى حتى نرحمه .

قال : وسمعتُ محمد بن علي الكلابي يقول : بكى محمد بن المسيّب الأرغياني حتى عَمِي » .

قال الأرغياني : « ما أعلم منبرًا من منابر الإسلام بَقِيَ عليَّ لم أدخله لسماع الحديث .

قال الذهبي : هذا على وجه المبالغة ، وإلا فهو لم يدخل الأندلس ولا المغرب ، ولا أظنُّ أنه عنى إلا المنابر التي بحضرتها رواية الحديث .

قال رحمه الله : كنتُ أمشي بمصر ، وفي كُمِّي مائة جزء ، في كل جزء ألف حديث .

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٣/٣١٧- ٣١٩؛ وتذكرة الحفاظ ٢/٦٢٦- ٦٢٧ .

قال الذهبي :هذا يدلُّ على دقَّة خطِّه .

قال الحاكم: وسمعتُ أبا علي الحافظ يقول: كان محمد بن المسيّب يمشي بمصر وفي كُمِّه مائة ألف حديث ، كانت أجزاؤه صغارًا بخطٍّ دقيق ، في الجزء ألف حديث معدودة ، وصار هذا كالمشهور من شأنه »[١] .

١٢٨ - أبو بكر محمد بن عبد الرحيم الأصبهاني شيخ القرَّاء في زمانه :

قال رحمه الله : « رحلتُ إلى مصر[٢] ، ومعي ثمانون ألفًا ، فأنفقتُها على ثمانين ختمة » ؛ يعني أنه ختم القرآن بقراءته على شيوخ القرآن ثمانين مرة ، وأنفق من أجل ذلك ثمانين ألف درهم ، ربح والله وما غبن .. إذ كان من أهل الله .. أهل القرآن .

١٢٩ - الحافظ العقيلي ، أبو جعفر ، محمد بن عمر مُصنِّف « كتاب الضعفاء » :

« قال مسلمة بن القاسم : كان العقيلي جليل القدر ، عظيم الخطرِ ، ما رأيتُ مثلَه ، وكان كثير التصانيف ، فكان مَنْ أتاه من المُحدِّثين ؛ قال : اقرأْ من كتابك ، ولا يُخرج أصْلَه . قال : فتكلَّمْنا في ذلك ، وقلنا : إما أن يكون من أحفظ الناس ، وإما أن يكون من أكذب الناس ، فاجتمعنا فاتفقنا على أن نكتب له أحاديث من روايته ، ونزيد فيها وننقص ، فأتيناه لنمتحنه ، فقال لي : اقرأْ ، فقرأتُها عليه ، فلما أتيتُ بالزيادة والنقص ؛ فَطِن لذلك ، فأخذ مني الكتاب ، وأخذ القلم ، فأصلحها من حفْظه ، فانصرفنا من عنده ، وقد طابت نفوسُنا ، وعلمنا أنه من أحفظ الناس »[٣] .

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٤ / ٤٢٢ - ٤٢٥ ، وتذكرة الحفاظ ٣ / ٧٨٩ - ٧٩١ .

(٢) أي من أصبهان .

(٣) تذكرة الحفاظ ٣/٨٣٣- ٨٣٤؛ وسير أعلام النبلاء ١٥/٢٣٦- ٢٣٧ .

١٣٠ - الأصمُّ الإمام المُحدِّث رحلة الوقت ، أبو العباس السِّناني المَعْقِلي أبو الفضل الورّاق :

ارتحل به والده إلى الآفاق ، وسمَّعه الكُتُبَ الكبارَ .

« وحدَّث بكتاب الأُمِّ للشافعي عن الربيع ، وطال عمره وبعُد صيتُه ، وتزاحم عليه الطلبة، وجميع ما حدَّث به إنما رواه من لفظه، فإنَّ الصَّمَمَ لحقه وهو شابٌّ له بضعٌ وعشرون سنة ، بعد رجوعه من الرحلة ، وقد حدَّث في الإسلام ستًّا وسبعين سنة »[١] ... فما أصبرهُ على تعليم الناس !!.

قال الحاكم عنه : بلغني أنه أذَّن سبعين سنة في مسجده .

« سمع منه الآباء والأبناء والأحفاد ، وكفاه شرفًا أن يُحدِّث طول تلك السنين ، ولا يجد أحد فيه مغمزًا بحُجَّةٍ ، وما رأينا الرحلة في بلاد من بلاد الإسلام أكثر منها إليه ، ولقد رأيتُ جماعة من أهل الأندلس ، وجماعة من أهل طراز ، واسبيجاب على بابه ، وكذا جماعة من أهل فارس ، وجماعة من أهل المشرق »[٢] .

« قال الحاكم : حضرتُ أبا العباس يومًا في مسجده ، فخرج ليُؤذِّن لصلاة العصر ، فوقف موضع المئذنة ، ثم قال بصوت عالٍ : أخبرنا الربيع ابن سليمان ، أخبرنا الشافعي ، ثم أذَّن »[٣] .

سبحان الله ! شغله العلم عن نفسه .

« قال الحاكم : سمعتُ الأصمَّ ، وقد خرج ونحن في مسجده ، وقد امتلأت السِّكَّةُ من الناس في ربيع الأول سنة أربع وأربعين وثلاثمائة . وكان يُملي عشيَّة كل يوم اثنين من أصوله . فلما نظر إلى كثرة الناس والغرباء ،

---

(١) « الأنساب » للسمعاني ١ / ٢٩٤ .
(٢) الأنساب ١ / ٢٩٥ .
(٣) سير أعلام النبلاء ١٥ / ٤٥٨ .

وقد قاموا يُطرِّقون[١] له، ويحملونه على عواتقهم من باب داره إلى مسجده، فجلس على جدار المسجد ، وبكى طويلًا ، ثم نظر إلى المُستملي ، فقال : اكتب : سمعتُ محمد بن إسحاق الصغاني يقول : سمعتُ الأشجَّ ، سمعتُ عبد الله بن إدريس يقول : أتيتُ يومًا باب الأعمش بعد موته ، فدققتُ الباب ، فأجابتني جارية عرفتني : هَاي هَاي تبكي ، ياعبد الله ، ما فعل جماهير العرب التي كانت تأتي هذا الباب ؟ ثم بكى الكثير ، ثم قال : كأني بهذه السِّكَّة لا يدخلها أحدٌ منكم ، فإني لا أسمع وقد ضعُف البصر ، وحان الرحيل ، وانقضى الأجل ، فما كان إلا بعد شهر أو أقلّ منه حتى كُفَّ بصرُهُ ، وانقطعت الرحلة ، وانصرف الغرباء » .

١٣١ - الإمام الحافظ القدوة أبو الحسن علي بن إبراهيم القزويني القطَّان:

قال الذهبي : جمع وصنَّف ، وتفنَّن في العلوم ، وثابر على القرب .

قال عنه جماعة من شيوخ قزوين : لم ير أبو الحسن رحمه الله مثل نفسه في الفضل والزهد . أدام الصيام ثلاثين سنة ، وكان يُفطر على الخبز والملح ، وفضائله أكثر من أن تُعَدَّ .

قال القطَّان رحمه الله: كنتُ حين رحلتُ أحفظ مائة ألف حديث[٢].

١٣٢ - الخُتُّلي : الإمام الحافظ أبو عبد الله عبد الرحمن بن أحمد البغدادي ابن الختلي :

قال الخطيب : كان يحفظ خمسين ألف حديث ، ويُملي من حفظه .

قال أبو القاسم التنوخي: «حدَّثني أبي، قال: دخل إلينا أبو عبد الله

(١) أي يُوسعون له الطريق .

(٢) وقال رحمه الله : أُصِبتُ ببصري ! وأظنّ أني عُوقبتُ بكثرة بكاء أمي أيام فُراقي لها في الرحلة في طلب الحديث والعلم .

الخُتُّلي إلى البصرة ، وهو صاحبُ حديثٍ ، جَلْدٌ ، مشهورٌ بالحفظ ، فجاء وليس معه شيء من كُتُبِه ، فحدَّث شهورًا إلى أن لحقتْه كتُبُه ، فسمعتُه يقول: حدَّثتُ بخمسين ألف حديث من حفظي إلى أن لحقتْني كُتُبي»(١).

١٣٣ - ابن زياد النيسابوري الإمام الحافظ أبو بكر ، عبد الله بن محمد ابن زياد الحافظ الشافعي :

قال الذهبي : تفقَّه بالمزني ، والربيع ، وابن عبد الحكم ، وسمع منهم ، ومن محمد بن يحيى الذُّهلي ، ويونس بن عبد الأعلى ، وخلق كثير ، وبرع في العِلْمَيْن : الحديث والفقه ، وفاق الأقران .

قال الحاكم : كان إمام الشافعيين في عصره بالعراق ، ومن أحفظ الناس للفقهيَّات ، واختلاف الصحابة .

قال الدارقطني : ما رأيتُ أحدًا أحفظ من أبي بكر النيسابوري .

وقال أيضًا عنه : لم نرَ مثله في مشايخنا ، لم نرَ أحفظَ منه للأسانيد والمتون ، وكان أفقه المشايخ ، وجالَسَ الربيع والمزني ، وكان يعرف زيادات الألفاظ في المتون . ولما قعد للتحديث ، قالوا : حدِّث ، قال : بلْ سَلُوا ، فسُئل عن أحاديث ، فأجاب فيها ، وأملاها ، ثم بعد ذلك ابتدأ فحدَّث .

قال أبو الفتح يوسف القوَّاس : « سمعتُ أبا بكر النيسابوريَّ يقول : تعرفُ مَنْ أقام أربعين سنة لم ينم الليل ، ويتقوَّت كلَّ يوم بخمس حبَّات ، ويُصلِّي صلاة الغداة على طهارة عشاء الآخرة ؟ ثم قال : أنا هو ، وهذا كلُّه قبل أن أعرف أُمَّ عبد الرحمن ، أيش أقول لمن زوَّجني ؟ ثم قال : ما أراد إلا الخير »(٢) .

(١) تاريخ بغداد ١٠/٢٩٠- ٢٩١ .

(٢) تايخ بغداد ١٠/١٢٢، وتذكرة الحفاظ ٣ / ٨١٩ .

قال أبو عبد الله بن بطة: «كنا نحضر في مجلس أبي بكر النيسابوري؛ لنسمع منه الزيادات ، وكان يُحرَزُ أن في المجلس ثلاثين ألف محبرة ، ومضى على هذا مُدَّة يسيرة ، ثم حضرنا مجلس أبي بكر النجَّاد ، وكان يُحرز أن في مجلسه عشرة آلاف محبرة، فتعجَّب الناس من ذلك، وقالوا: في هذه المُدَّة ذهب ثُلُثا الناس »[١] .

١٣٤ - الكَجِّي، الحافظ المُعمِّر، أبو مسلم، إبراهيم بن عبد الله الكَجِّي « صاحب السنن » :

قال الذهبي والخطيب : « قدم بغداد ، وازدحموا عليه ، فقال أحمد ابن جعفر الخُتُّلي : لما قدم علينا أبو مسلم الكَجِّي ؛ أملى علينا في رحبة غسّان ، وكان في مجلسه سبعة مُستملين ، يُبلِّغ كل واحد منهم صاحبه الذي يليه ، وكتب الناس عنه قيامًا ، ثم مُسِحت الرحبة ، وحُسِب من حضره بمحبرة ؛ فبلغ ذلك نيِّفًا وأربعين ألف محبرة سوى النظارة »[٢] .

قال الذهبي : « إسنادها صحيح .. يرحم الله العِلْمَ وأهْلَه .. قد كان في مجلس يزيد بن هارون شيخ أحمد سبعون ألفًا »[٣] .

« عن فاروق الخطابي ، قال : لما فرغنا من السُّنَن على الكَجِّي ؛ عَمِل لنا مأدبة ، أنفق عليها ألف دينار . وقيل : إنه لما حدَّث ، تصدَّق بعشرة آلاف درهم شكرًا لله »[٤] .

---

(١) ما كان بين وفاتيهما إلا (٢٤) سنة . المنتظم لابن الجوزي ٦/٢٨٦، وتذكرة الحفاظ ٣/٨١٩ .

(٢) تاريخ بغداد ٦/١٢١ - ١٢٢ ، وسير أعلام النبلاء ١٣/٤٢٤ .

(٣) تذكرة الحفاظ ترجمة يزيد بن هارون ١ / ٣١٨ .

(٤) سير أعلام النبلاء ١٣/٤٢٥ .

١٣٥ - محمد بن رافع النيسابوري ، الإمام أبو عبد الله القشيري :

سمع ما لا يُوصف كثرةً ، وجمع وصنَّف .

قال فيه الحاكم في «تاريخه»: شيخ عصره بخراسان في الصدق والرحلة. حدَّث عنه البخاري ومسلم . وعُنِي بالسُّنَن علمًا وعملًا وعُمِّر ، وارتحل الناس إليه .

قال جعفر بن أحمد بن نصر الحافظ : ما رأيتُ من المُحدِّثين أهيبَ من محمد بن رافع ، كان يستند إلى الشجرة الصّنوبر في داره ، فيجلس العلماء بين يديه على مراتبهم ، وأولاد الظاهرية ومعهم الخدم ، كأنَّ على رؤوسهم الطيرَ، فيأخذ الكتاب، ويقرأ بنفسه، ولا ينطق أحدٌ، ولا يتبسَّم؛ إجلالًا له ، وإذا تبسَّم واحد أو راطن صاحبه ؛ قال : وصلَّى الله على محمد ، ويأخذ الكتاب ، فلا يقدر أحد يُراجعه أو يُشير بيده .

« قال زكريا بن دَلُّوَيْه : بعث طاهر بن عبد الله إلى ابن رافع بخمسة آلاف درهم مع رسولٍ ، فدخل عليه بعد العصر ، وهو يأكل الخبز مع الفجل ، فوضع الكيس ، فقال : بعث الأمير إليك بهذا المال . فقال : خذْ خذْ ، لا أحتاج إليه ، فإنَّ الشمس قد بلغت رأْس الحيطان ، إنما تغرب بعد ساعة ، وقد جاوزت الثمانين ، إلى متى أعيش ؟ وردَّه . قال : فدخل ابنُه ، وقال: ياأبهْ، ليس لنا الليلة خُبْزٌ. قال: فبعث ببعض أصحابه خلْفَ الرسول ليَرُدَّ المال إلى طاهر ؛ فزعًا من ابنه أن يذهب خلفه ، فيأخذ المال .

قال زكريا : ربما كان يخرج إلينا محمد بن رافع في الشتاء وقد لبس لحافه »[١] .

١٣٦ - ابن الأخرم، مُقرىء دمشق، أبو الحسن، محمد بن النضر الدمشقي:

كانت له حلقة عظيمة بجامع دمشق ، يقرءون عليه من بعد الفجر

(١) الوافي بالوفيات ٦٨/٣، وسير أعلام النبلاء ٢١٦/١٢- ٢١٧ .

إلى الظهر .

« قال علي بن داود الداراني : قدم ابن الأخرم بغداد ، فأمر ابن مجاهد تلامذته أن يختلفوا إلى ابن الأخرم .

قال محمد بن علي السُّلَمي : قمتُ ليلة سَحَرًا لآخذ النوبة على ابن الأخرم ؛ فوجدتُ قد سبقني ثلاثون قارئًا ، وقال : لم تُدركْني النوبة إلى العصر »(١) .

١٣٧ - مُحدِّث الشام الإمام أبو الحسن ، خيثمة بن سليمان الأطرابلسي مُصنِّف « فضائل الصحابة » :

كان رحَّالًا جَوَّالًا ، صاحب حديث .

قال الخطيب : خيثمة ثقةٌ ثقةٌ ، قد جمع فضائل الصحابة .

قال رحمه الله مُبيِّنًا نَصَبَهُ في تحصيل العلم ، وعُلُوَّ هِمَّتِه ، وصبْرَهُ :

« ركبتُ البحر ، وقصدتُ جَبَلَة ؛ لأسمع من يوسف بن بحر ، ثم خرجتُ إلى أنطاكية ، فلقِيَنا مركبٌ - يعني للعدو - فقاتلناهم ، ثم سلّم مركَبَنا قومٌ من مقدّمه ، قال : فأخذوني ، ثم ضربوني ، وكتبوا أسماءنا ، فقالوا : ما اسمُك ؟ قلتُ : خيثمة ، فقالوا : اكتب : حمار بن حمار ، ولما ضُربت سَكِرتُ(٢) ونمتُ ، فرأيتُ كأني أنظر إلى الجنة ، وعلى بابها جماعةٌ من الحور العين ، فقالت إحداهن : ياشقيّ ، أيش فاتك ؟ فقالت أخرى : أيش فاته ؟ قالت : لو قُتِل لكان في الجنة مع الحور ؛ قالت لها : لَأَنْ يرزُقَه الله الشهادةَ في عزٍّ من الإسلام وذُلٍّ من الشرك خيرٌ له . ثم انتبهتُ ، قال : ورأيتُ كأن من يقول لي: اقرأ (براءة)، فقرأت إلى ﴿**فسيحوا في الأرض**

(١) غاية النهاية ٢/٢٧٠- ٢٧١، وسير أعلام النبلاء ١٥/٥٦٤- ٥٦٥ .
(٢) أي غشي عليه .

أربعة أشهر.. ﴾ الآية [التوبة : ٢] . قال : فعددتُ من ليلة الرؤيا أربعة أشهر ؛ ففكَّ الله أسْري »[١] .

كم تحمَّلوا من أجل العلم.. وقعوا في الأسر.. ويُقال لسيِّد من سادات المسلمين : أنت حمار بن حمار .. ما ضرَّهم ما أصابهم !!

«قال أبو عبد الله بن مَنْدَه: كتبتُ عن خيثمة بأطرابلس ألف جزء»[١].

١٣٨ - ابن الكوفي ، علي بن محمد الأسدي النحوي الكوفي ، من أصحاب ثعلب :

«راوية، جمَّاعة للكتب، صادقُ الرواية، مُنَقِّرٌ بحَّاثٌ، من أصحاب أبي العباس ثعلب . وكان أبوه من أهل ذوي اليسار من أهل الكوفة ، واشتغل وَلَدُه هذا بطلب العلم من يومه ، ولمّا مات أبوه خلف له زائدًا عن خمسين ألف دينارٍ، فصرفها كلَّها في طلب العلم، وتحصيل الكتب؛ اشتراءً واستنساخًا وكتابةً . وشغله طلبُهُ الفوائدَ عن التصنيف ، فلم يُرَ له إلا تصنيفٌ واحدٌ في معاني الشِّعْر واختلاف العلماء في ذلك »[٢] .

١٣٩ - العسَّال ، القاضي أبو أحمد ، محمد بن أحمد الأصبهاني الحافظ صاحب المؤلَّفات :

قال الحاكم : كان أحدَ أئمة الحديث .

قال أبو سعيد النَّقاش : أخبرنا أبو أحمد العسَّال ، و لم نرَ مثله في الحفظ والإتقان .

قال أبو أحمد رحمه الله : أحفظ في القرآن خمسين ألف حديث .

قال ابن منده: كتبتُ عن ألف شيخ؛ لم أرَ فيهم أتقنَ من أبي أحمد العسَّال.

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٥/٤١٣- ٤١٥، وتذكرة الحفاظ ٣/٨٥٨- ٨٥٩ .

(٢) « إنباه الرواة على أنباه النحاة » للقفطي ٢ / ٣٠٥ .

وقال ابن منده أيضًا : طُفتُ الدنيا مرتين ، فما رأيتُ مثل العسَّال .

« لما مات أبو أحمد العسَّال وجلس بنوه للتعزية ؛ فدخل رجلان في لباسِ سوادٍ ، وأخذا يولولان ويقولان : وإسْلاماه ، فَسُئِلا عن حالهما ، فقالا : إنا وردنا من أغمات من المغرب ؛ لنا سنة ونصف في الطريق في الرحلة إلى هذا الإمام لنسمع منه ، فوافق ورودُنا وفاته »[١] .

رحمة الله على الإمام أبي أحمد .. « روى في معجمه عن أربعمائة شيخ .. وسمع بأصبهان، وهمذان، وبغداد، والكوفة، والبصرة، والحرمين ، وواسط ، والريِّ ، وخوزستان »[٢] .

١٤٠ - الإمام الطبراني ، أبو القاسم ، سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي الشامي :

الحافظ، الرَّحَّالة الجوَّال ، مُحدِّث الإسلام، علم المُعمِّرين، صاحب المعاجم الثلاثة :

قال الذهبي في السير (١٦/١١٩ - ١٢٠) : « بقي في الارتحال ولُقيِّ الرجال ستة عشر علمًا ، وكتب عمَّن أقبل وأدبر ، وبرع في هذا الشأن ، وجمع وصنَّف، وعُمِّر دهرًا طويلًا، وازدحم عليه المُحدثون ورحلوا إليه من الأقطار .

سمع بالحرمين واليمن ، ومدائن الشام ، ومصر ، وبغداد ، والكوفة ، والبصرة ، وأصبهان ، وخوزستان ، وغير ذلك ، ثم استوطن أصبهان ، وأقام بها نحوًا من ستين سنةً ينشر العلم ويُؤلِّفُهُ » .

انظر رحمك الله إلى عُلُوِّ هِمَّة الطبراني .. بعد رحلاته الطويلة .. ينشر العلم ستين سنة !!

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٦/١٠- ١١ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٦/١٤ .

قال أبو بكر بن أبي علي : سأل أبي أبا القاسم الطبراني عن كثرة حديثه ، فقال : كنتُ أنام على البواري[1] ثلاثين سنة .

قال أبو نعيم : قدم الطبراني أصبهان سنة تسعين ومائتين ، ثم خرج ، ثم قَدِمها ، فأقام بها مُحدِّثًا ستين سنة .

قال أبو أحمد العسَّال القاضي : إذا سمعتُ من الطبراني عشرين ألف حديث ، وسمع منه أبو إسحاق ابن حمزة ثلاثين ألفًا ، وسمع منه أبو الشيخ أربعين ألفًا – كمُلنا .

قال الذهبي : هؤلاء كانوا شيوخ أصبهان مع الطبراني .

وانظر إلى لذَّة الطبراني : العلم .

قال أبو عبد الله بن حمدان وأبو الحسن المديني وغيرهما : سمعنا الطبراني يقول : هذا الكتاب روحي ، يعني « المعجم الأوسط » .

قال الأستاذ ابن العميد : ما كنتُ أظنُّ أنَّ في الدنيا حلاوةً ألذَّ من الرئاسة والوزارة التي أنا فيها ، حتى شاهدتُ مُذاكرة أبي القاسم الطبراني وأبي بكر الجعَابي بحضرتي ، فكان الطبراني يغلب أبا بكر بكثرة حفظه ، وكان أبو بكر يغلب بفطنته وذكائه ، حتى ارتفعتْ أصواتُهما ، ولا يكاد أحدهما يغلب صاحبه ، فقال الجعابي : عندي حديث ليس في الدنيا إلا عندي ، فقال : هاتِ ، فقال : حدَّثنا أبو خليفة الجُمَحي ، حدَّثنا سليمان بن أيوب ، وحَدَّث بحديثٍ ، فقال الطبراني : أخبرنا سليمان بن أيوب ، ومني سمعه أبو خليفة ، فاسْمعْ مني حتى يعلو فيه إسنادك ، فخجل الجعابي ، فوددتُ أن الوزارة لم تكن ، وكنت أنا الطبراني ، وفرحت كفرحه ، أو كما قال .

---

(١) البواري : الحصير المنسوج .

١٤١ - المُزَكِّي ، الإمام المُحدِّث القدوة ، أبو إسحاق ، إبراهيم بن محمد النيسابوري :

قال الحاكم: أملى عدة سنين، وكنا نعدُّ في مجلسه أربعة عشر مُحدِّثا؛ منهم أبو العباس الأصمَّ ، ومحمد بن يعقوب بن الأخرم .

« قال الخطيبُ : كان ثقةً ،ثبتًا ،مُكْثِرًا ، مواصلًا للحج . انتخب عليه ببغداد أبو الحسن الدارقطني ، وكتب عنه الناس بانتخابه علمًا كثيرًا . وروى ببغداد مُصنَّفات أبي العباس السَّراج ، مثل كتاب التاريخ ، وكتاب الإخوة والأخوات ، وغيرهما من كُتُبِه ، وروى أيضًا تاريخ البخاري الكبير ، وعدَّةً من كتب مسلم بن الحجاج » .

«قال المُزَكِّي: أنفقتُ على الحديث بدرًا من الدنانير، وقدمتُ بغداد في سنة ست عشرة لأسمع من ابن صاعد ومعي خمسون ألف درهم بضاعة، ورجعتُ إلى نيسابور ومعي أقلّ من ثلثها! أنفقتُ ما ذهب منها على أصحاب الحديث».

« قال محمد بن عبد الله الحافظ : كان إبراهيم بن محمد بن يحيى المُزَكِّي من العُبَّاد المجتهدين الحجَّاجين المُنفقين على العلماء والمستورين »[(١)] .

١٤٢ - غندر الإمام الحافظ ، أبو بكر محمد بن جعفر الورَّاق :

قال الحاكم : أقام سنين عندنا يُفيدنا ، ثم دخل إلى أرض الترك ، وكتب ما لا يُوصف كثرةً ، ثم استُدعي من مرو إلى الحضْرة ببخارى لِيُحدِّث بها ، فأدركه الأجل في المفازة .

١٤٣ - الإمام الرحَّال ، ابن حرارة ، أبو الحسن ، محمد بن أحمد بن أسد الأسدي البردعي :

قال الخليلي : « يُعرف أبوه بحرارة . قال : وقد روى من حفظه زيادةً على

---

(١) تاريخ بغداد ٦ / ١٦٨ - ١٦٩ .

ثلاثين ألف حديث بقزوين والريِّ ، وما كان معه ورقة ، وفي أماليه غرائب وكلام يُستفاد »[١] .

١٤٤ - أبو الشيخ، الإمام أبو محمد، عبد الله بن محمد بن جعفر مُحدِّث أصبهان :

« قال أبو نعيم : كان أحد الأعلام ، صنَّف الأحكام والتفسير ، وكان يُفيد عن الشيوخ ، ويُصنِّف لهم ستين سنة .

قال أبو موسى المديني : مع ما ذُكر من عبادته ؛ كان يكتب كل يوم دستجةَ كاغَد ؛ لأنه كان يُورِّق ويُصنِّف ، وعرض كتابَه « ثواب الأعمال » على الطبراني ، فاستحسنه . ويُروى عنه أنه قال : ما عملتُ فيه حديثًا إلا بعد أن استعملتُه .

قال الذهبي : قد كان أبو الشيخ من العلماء العاملين ، صاحب سنة واتِّباع »[٢] .

١٤٥ - الماسَرْجسي ، الحافظ الكبير الجوَّال أبو علي ، الحسين بن محمد ابن أحمد النيسابوري :

« كتب العالي والنازل ، وخرَّج على الصحيحين مُستخرجًا حافلًا ، وعمل « المسند الكبير » في نحو من وقر[٣] بعير .

قال أبو عبد الله الحاكم في « تاريخه » : صنَّف « المسند الكبير » في ألف جزء وثلاثمائة جزء ؛ يعني مهَذَّبًا مُعلَّلًا . قال : وجمع حديث الزهري جمعًا لم يسبقه إليه أحد ، فكان يحفظه مثل الماء ، وصنَّف المغازي والقبائل

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٦/٢٣٣ - ٢٣٤ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٦/٢٧٧- ٢٧٩ .

(٣) الوِقر : الحمل الثقيل .

والمشايخ والأبواب .

وقال الحاكم في موضع آخر : صنَّف أبو علي حديث الزهري ، فزاد على محمد بن يحيى الذُّهلي .

قال الحاكم : وعلى التخمين يكون مسنده بخطِّ الورَّاقين في أكثر من ثلاثة آلاف جزء .

قال الذهبي : قلتُ : يجيء في مائة وخمسين مُجلدًا .

قال : فعندي أنه لم يُصنَّف في الإسلام مسند أكبر منه ، وعقد أبو محمد ابن زياد مجلسًا عليه لقراءته. قال: وكان مُسند أبي بكر الصدِّيق بخطِّه في بضعة عشر جزءًا بِعلَلِه وشواهده، فكتبه النُّسَّاخ في نيِّفٍ وستين جزءًا»[1].

١٤٦ - الحافظ ابن المُقرِئ، مُسنِدُ الوقت، أبو بكر، محمد بن إبراهيم الأصبهاني صاحب « المعجم » والرحلة الواسعة :

« قال أبو نعيم : مُحدِّثٌ كبير ، ثقةٌ ، صاحب مسانيد ، سمع ما لا يُحصى كثرةً .

قال ابن المقرئ رحمه الله : طفتُ الشرق والغرب أربع مرات .

وقال : مشيتُ بسبب نسخة مفضَّل بن فضالة سبعين مرحلة ، ولو عُرضت على خبَّاز برغيف لم يقبلها .

وقال رحمه الله : دخلتُ بيتَ المقدس عشر مرات ، وحججتُ أربع حجَّات »[2] .

١٤٧ - الشيخ الإمام القدوة ، ابن خفيف ، شيخ الصوفية :

تفقَّه على أبي العباس بن سريج ، مُتمسِّكٌ بالكتاب والسنة .

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٦/٢٨٧- ٢٨٩ .

(٢) تذكرة الحفاظ ٣ / ٩٧٣ ، وسير أعلام النبلاء ١٦/٤٠٠ .

قال أبو العباس الفسوي : صنّف شيخنا ابن خفيف من الكتب ما لم يُصنِّفْه أحد ، وانتفع به جماعة صاروا أئمة يُقتدى بهم ، وعُمِّرَ حتى عمَّ نفعُهُ البلدان .

قال ابن خفيف رحمه الله : « اشتغِلوا بتعلُّم شيء ، ولا يغرنَّكم كلام الصوفية ، فإني كنتُ أُخبِّىء مِحْبرتي في جيب مَرْقعي ، والورق في حجزة سراويلي ، وأذهب في الخُفية إلى أهل العلم ، فإذا علموا بي ؛ خاصموني ، وقالوا : لا يُفلح ، ثم احتاجوا إليَّ »[(١)] .

قال الذهبي : « قد كان هذا الشيخ قد جمع بين العلم والعمل ، وعُلُوِّ السَّنَد ، والتمسُّك بالسُّنن ، ومُتِّع بطول العمر في الطاعة ، وانتقل إلى الله تعالى في ليلة الثالث من شهر رمضان ، وازدحم الخلق على سريره ، وكان أمرًا عجيبًا . وقيل : إنهم صلَّوا عليه نحوًا من مائة مرة »[(٢)] .

انظرْ وتعجَّبْ من سِيَرِ الصالحين وشغفهم بالعلم .. وهناك ما هو أعجب من قول ابن خفيف السابق ، فما كان يشغله شيء إلا أن يكتب العلم .

وقد كان من أولاد الأمراء .. فما شغلتْه الدنيا عن طلب العلم .. وهو الذي زهد في الدنيا .. وتفرَّغ للعلم والعمل .

قال ابن خفيف : « نُهبتُ في البادية ، وجعتُ حتى سقطتْ لي ثمانية أسنان ، وانتثر شَعْري ، ثمّ وقعت إلى فَيْد ، وأقمتُ بها حتى تماثلتُ ، وحججتُ ، ثم مضيتُ إلى بيت المقدس ، ودخلتُ الشام ، فنمتُ إلى جانب دكَّان صبّاغ ، وبات معي في المسجد رجلٌ به قيام ، فكان يخرج ويدخل ، فلمَّا أصبحْنا صَاحَ الناسُ ، وقالوا : نُقِبَ دكَّان الصَّبَّاغ وسُرقت ، فدخلوا المسجد ورأونا ، فقال المبطون : لا أدري ، غير أن هذا كان طول الليل يدخل ويخرج ، وما خرجتُ إلا مرَّةً تطهَّرتُ ،

---

(١) تبيين كذب المفتري لابن عساكر صـ ١٩١ ، وسير أعلام النبلاء ١٦ / ٣٤٦ .
(٢) سير أعلام النبلاء ٣٤٦/١٦ ، ٣٤٧ .

فجرُّوني وضربوني، وقالوا: تكلَّمْ، فاعتقدتُ التسليم، فاغتاظوا من سكوتي، فحملوني إلى دُكّان الصبَّاغ ، وكان أثرُ رِجْل اللِّص في الرماد ، فقالوا : ضعْ رِجْلَك فيه ، فكان على قدر رجلي ، فزادهم غيظًا ، وجاءَ الأمير ، ونُصبت القِدْرُ ، وفيها الزيتُ يُغلى ، وأُحضرت السكين ، ومَنْ يقطع ، فرجعت إلى نفسي ، وإذا هي ساكنةٌ ، فقلتُ : إنْ أرادوا قطع يدي سألتُهم أن يعفو عن يميني لأكتب بها ، وبقي الأمير يُهدِّدُني ويصول ، فنظرتُ إليه فعرفتُه ، كان مملوكًا لأبي ، فكلّمني بالعربية وكلَّمتُه بالفارسية ، فنظر إليَّ ، وقال : أبو الحسين ! وبها كنتُ أُكنى في صباي ، فضحكت ، فأخذ يلطم برأسه ووجهه ، واشتغل الناس به ، فإذا بضجَّة ، وأنَّ اللصوص قد أُخذوا ، فذهبتُ والناس ورائي وأنا مُلطَّخٌ بالدماء ، جائع لي أيام لم آكل ، فرأتني عجوز فقيرة ، فقالت : ادخلْ ، فدخلتُ ، ولم يرني الناس ، وغسلتُ وجهي ويدي ، فإذا الأمير قد أقبل يطلبُني ، فدخل ومعه جماعة ، وجرَّ من منطقته سكينًا ، وحلف بالله إنْ أمسكني أحدٌ لأقتلنَّ نفسي ، وضرب بيده رأسه ووجهه مائة صفعة ، حتى منعتُه أنا ، ثم اعتذر ، وجهد بي أن أقبل شيئًا ، فأبيْتُ ، وهربتُ ليومي »[١] .

فالشيء الذي كان يشغله فقط هو الخوف من قطع يمينه التي يكتب بها الحديث والعلم !!

١٤٨ - الحافظ المُجوِّد ، ابن المُظفَّر البغدادي :

تقدَّم في معرفة الرجال، وجمع وصنَّف، وعُمِّرَ دهرًا، وأكثرَ الحفَّاظُ عنه.

قال الخطيب: «كان ابن المُظفَّر فَهِمًا، حافظًا، صادقًا، مُكثرًا»[٢].

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٦/٣٤٣ - ٣٤٤ .

(٢) تاريخ بغداد ٣ / ٢٦٣ .

« قال ابن أبي الفوارس : سألتُ ابن المُظفَّر عن حديث عن الباغندي ، عن ابن زيد المنادي ، عن عمرو بن عاصم ، عن شعبة ، فقال : ليس هو عندي ، قلتُ : لعله عندك ؟ قال : لو كان عندي كنتُ أحفظُه ، وعندي عن الباغندي مائة ألف حديث ، ليس عندي هذا »[1] .

١٤٩ - الشيخ الصدوق شيخ العراق ، ابن شاهين ، صاحب التفسير الكبير :

قال عنه أبو الفتح بن أبي الفوارس : صنَّف ما لم يُصنِّفْه أحد .

قال عنه الذهبي : صنَّف ثلاثمائة مُصنَّف ؛ أحدها التفسير : ألف جزء ، والمُسنَد : ألف وثلاثمائة جزء ، و« التاريخ » : مائة وخمسين جزءًا ، و« الزهد » : مائة جزء .

« قال ابن شاهين رحمه الله : حسبتُ ما اشتريتُ به الحِبْرَ إلى هذا الوقت ، فكان سبعمائة درهم » .

« قال الداوودي: وكنا نشتري الحِبْرَ أربعة أرطال بدرهم . قال الداوودي : وكتب أبو حفص بعد ذلك زمانًا »[2] .

١٥٠ - الحافظ ابن حبَّان ، الإمام العلَّامة أبو حاتم ، محمد بن حبَّان البستي ، صاحب « صحيح ابن حبان » ، المُسمَّى « الأنواع والتقاسيم » :

ولي قضاء سمرقند ، وكان من فقهاء الدين وحفَّاظ الآثار ، وكان من عقلاء الرجال ، ومن أوعية العلم في الفقه والحديث واللغة والوعظ ، عاد من رحلته الطويلة إلى بلده « بست » سنة (٣٤٠ هـ) ، واستقرَّ فيها ، وصنَّف ما يُقارب ستين كتابًا ، وكانت الرحلة إليه لسماع كتبه .

« قال ابن حبَّان في أثناء كتابه « الأنواع » : لعلنا قد كتبنا عن أكثر

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٦ / ٤١٩ .

(٢) تاريخ بغداد ١١ / ٢٦٧ ، وسير أعلام النبلاء ١٦ / ٤٣٣ .

من ألفي شيخ » .

قلتُ - أي الذهبي -: « كذا فلتكن الهِمَم ، هذا مع ما كان عليه من الفقه والعربية والفضائل الباهرة وكثرة التصانيف »[1] .

سافر بين الشاش والإسكندرية، وأدرك الأئمة والعلماء والأسانيد العالية، وأخذ فقه الحديث والغوص على معانيه عن إمام الأئمة أبي بكر ابن خزيمة ولازمه وتلمذ له ، وصارت تصانيفه عُدَّةً لأصحاب الحديث .

وهكذا كان تحصيل العلم من راغبيه قديمًا ؛ طوافٌ في البلدان ، ونَصَبٌ للأبدان ، وكَسَبٌ للزمان ، لا راحة ولا استرخاء ، ولا تمنعهم الصعوبات من لقاء العلماء ، وأمانيهم في تحصيل العلم وخدمة الدين تحدوهم للمزيد ، وتُنسيهم كلَّ ما يلقونه من تعبٍ وعناء .

١٥١ - الحافظ جعفر بن دُرُسْتُويَه الفسوي :

تلميذ الإمام علي بن المديني البصري إمام المحدِّثين .

ساق هذا الحافظ خبرًا عجيبًا في التزاحم على العلم والتسابق إلى تحصيله؛ من أعجب الأخبار، ولكنه ليس فريدًا وحيدًا؛ بل له أمثال كثيرة:

« عن جعفر بن درستويه قال : كنا نأخذ المجلس في مجلس علي بن المديني وقت العصر اليوم لمجلس غدٍ ، فنقعد طوال الليل ؛ مخافةَ ألا نلحق من الغد موضعًا نسمع فيه ، فرأيتُ شيخًا في المجلس يبول في طيلسانَ ويُدرج الطيلسان ؛ مخافة أن يُؤخذ مكانه إن قام للبول »[2] .

يفعل هذا كبار العلماء ممن يلبس الطيلسان .. فأيُّ حرصٍ على العلم بعد هذا !! .

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٦ / ٩٤ .

(٢) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي ٢ / ١٣٨ ، الآداب الشرعية لابن مُفلح ٢ / ١٤٨ .

١٥٢ - شيخ القُرَّاء ، الإمام أبو الحسن الداراني القطَّان الدمشقي ، علي ابن داود :

إمام جامع دمشق ومُقرؤه والمُحدث فيه . قرأ بالروايات على طائفة من كبار القُرَّاء ، وتلقَّاها الناس عنه .

قال تلميذه رشأ بن لطيف المعرّي الدمشقي : لم ألق مثله حذقًا وإتقانًا في رواية ابن عامر .

قال الحافظ ابن عساكر: «سمعتُ ابن الأكفاني يحكي عن بعض مشايخه أن أبا الحسن بن داود كان إمامَ (داريّا) ، فمات إمامُ جامع دمشق ، فخرج أهل البلد إلى (داريّا) ليأتوا به ، فلبس أهل (داريّا) السلاح وقالوا : لا نُمكِّنُكم من أخذ إمامنا ، فقال أبو محمد عبد الرحمن بن نصر : ياأهل (داريّا) ، ألا ترضون أن يُسمع في البلاد أن أهل دمشق احتاجوا إليكم في إمام ؟ فقالوا: قد رضينا. فقُدِّمت له بغلة القاضي، فأبى، وركب حماره ، ودخل معهم ، فسكن في المنارة الشرقية - أي من جامع دمشق - وكان يُقرىء بشرقي الرواقي الأوسط ، ولا يأخذ على الإمامة رزقًا ، ولا يقبل ممن يقرأ عليه برًّا ، ويقتات من غلَّة أرض له بداريّا ، ويحمل ما يكفيه من الحنطة ، ويخرج بنفسه إلى الطاحون فيطحنه ، ثم يعجنه ويخبزه ، وانتهت إليه الرئاسة في قراءة الشاميين ، ومضى على سدادٍ،رحمه الله تعالى »[١] .

أولئك الناسُ إنْ عُدُّوا وإن ذُكِرُوا ... ومَنْ سواهم فلغوٌ غيرُ معدود

١٥٣ - الحافظ أبو نصر السِّجْزِي :

« هو الحافظ الإمام عَلَمُ السنة عُبيد الله بن سعيد بن حاتم أبو نصر السجزي، من أحفظِ أهل زمانه للحديث، طوَّف الآفاق في طلب الحديث.

---

(١) « معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار » للحافظ الذهبي ١ / ٢٩٤ .

قال الحافظ أبو إسحاق الحبَّال : كنتُ يومًا عند أبي نصر السجزي ؛ فدُقَّ الباب، فقمتُ ففتحتُه، فدخلت امرأة وأخرجتْ كيسًا فيه ألف دينار، فوضعته بين يدي الشيخ وقالت : أنفقْها كما ترى ، قال : ما المقصود ؟ قالت : تتزوَّجني ، ولا حاجة لي في الزواج ، ولكن لأخدمك ، فأمرها بأخذ الكيس وأن تنصرف ، فلما انصرفتْ ؛ قال : خرجتُ من سجستان بنيَّة طلب العلم ، ومتى تزوَّجتُ سقط عني هذا الاسم ، وما أُوثر على ثواب طلب العلم شيئًا »[1] .

١٥٤ ، ١٥٥ - أبو جندل القرطبي ، وأبو علي القالي :

جاء في ترجمة أبي جندل القرطبي : أبي نصر هارون بن موسى بن صالح بن جندل القيسي الأديب النحوي القرطبي :

« قال أبو نصر هارون بن موسى : كنا نختلف إلى أبي علي - القالي - البغدادي رحمه الله وقت إملائه النوادر بجامع الزهراء في قرطبة ونحن في فصل الربيع ، فبينما أنا ذات يوم في بعض الطريق إذْ أخذتني سحابة ، فما وصلتُ إلى مجلسه رحمه الله إلا وقد ابتلَّت ثيابي كلها ، وحوالَيْ أبي علي أعلامُ أهل قرطبة ، فأمرني بالدُّنُوِّ منه ، وقال لي : مهلًا ياأبا نصر ، لا تأسفْ على ما عرض لك ، فذا شيء يضمحلُّ عنك بسرعة بثياب غيرها تُبدلها . وقال أبو علي : قد عرض لي ما أبقى بجسمي ندوبًا تدخل معي القبر ، ثم قال : أنا كنتُ أختلف إلى ابن مجاهد رحمه الله ، فأدلجتُ إليه - أي ذهبتُ إليه من آخر الليل قبل الفجر - لأتقرَّب منه ، فلما انتهيتُ إلى الدرب الذي كنت أخرج منه إلى مجلسه ؛ ألفيتُه مُغلقًا ، وعسِر عليَّ فتْحُه ، فقلتُ : سبحان الله ! أُبكِّرُ هذا البكور وأُغْلبُ على القرب منه ، فنظرتُ إلى سربٍ حفر تحت الأرض ، بجنب الدار ، فاقتحمتُه ، فلما توسَّطتُه ضاق بي ، ولم أقدر

(١) تذكرة الحفاظ للذهبي ٣ / ١١١٩ .

على الخروج ولا على النهوض ، فاقتحمتُه أشدَّ اقتحام حتى نفدتُ ، بعد أن تخرَّقتْ ثيابي ، وأثَّر السربُ في لحمي حتى انكشف العظم ، ومَنَّ الله عليَّ بالخروج ، فوافيت مجلس الشيخ على هذه الحال ، فأين أنت مما عرض لي ، وأنشدنا :

دببتُ للمجدِ والساعون قد بلغوا ... جُهْدَ النفوس وألقَوْا دونه الأُزُرا
وكابدوا المجدَ حتى ملَّ أكثرُهم ... وعانق المجدَ مَنْ أوفى ومن صبرا
لا تحسب المجدَ تمرًا أنت آكله ... لن تبلغَ المجدَ حتى تلعقَ الصبرا»[1]

١٥٦ - الحافظ الجوزقي :

«الإمام الأوحد أبو بكر: محمد بن عبد الله بن زكريا الشيباني الجوزقي المُعدّل، مُحدِّث نيسابور، وصاحب «الصحيح المُخرَّج على صحيح مسلم».

قال رحمه الله : أنفقتُ في طلب الحديث مائة ألف درهم ، ما كسبتُ درهمًا »[2] .

١٥٧ - الإمام الدارقطني :

« الحافظ المُجوِّد شيخ الإسلام، عَلَمُ الجهابذة ، أبو الحسن علي بن عمر بن أحمد بن مهدي ، البغدادي ، المقرىء ، المُحدِّث ، من أهل محلّة دار القطن ببغداد . كان من بحور العلم، ومن أئمة الدنيا. انتهى إليه الحفظ ومعرفة علل الحديث ورجاله ، مع التقدُّم في القراءات وطرقها ، وقوة المشاركة في الفقه ، والاختلاف ، والمغازي ، وأيام الناس وغير ذلك » .

قال أبو عبد الله الحاكم في كتاب « مُزكّي الأخبار » : « أبو الحسن صار واحدَ عصره في الحفظ والفهم والورع ، وإمامًا في القرَّاء والنحويين. صنَّف التصانيف ، وصار ذكْره في الدنيا . وهو أوَّل مَنْ صنّف القراءات

---

(١) « إنباه الرواة على أنباه النحاة » للقفطي ٣ / ٣٦٢ .
(٢) تذكرة الحفاظ ٣ / ١٠١٣ .

وعقد لها أبوابًا قبل فروش الحروف .

قال الحاكم : حجَّ شيخنا أبو عبد الله ابن أبي ذهل ، فكان يصف حفْظه وتفرُّده بالتقدُّم في سنة ثلاث وخمسين ، حتى استنكرتُ وصْفه ، إلى أن حججتُ في سنة سبع وستين ، فجئتُ بغداد ، وأقمتُ بها أزيد من أربعة أشهر ، وكثُر اجتماعُنا بالليل والنهار ، فصادفتُه فوق ما وصفه ابن أبي ذهل ، وسألتُه عن العلل والشيوخ .

قال أبو بكر الخطيب : كان الدارقطني فريدَ عصْره ، وقريعَ دهْره ، ونسيجَ وحْده ، وإمامَ وقْته . انتهى إليه عُلُوُّ الأثر ، والمعرفة بعلل الحديث ، وأسماء الرجال ؛ مع الصدق والثقة ، وصحة الاعتقاد ، والاضطلاع من علوم سوى الحديث ؛ منها : القراءات ، فإنه له فيها كتاب مُختصر ؛ جمع الأصول في أبواب عقدها في أول الكتاب ، وسمعتُ بعض مَنْ يعتني بالقراءات يقول : لم يُسبَقْ أبو الحسن إلى طريقته في هذا ، وصار القُرَّاء بعده يسلكون ذلك. ومنها: المعرفة بمذاهب الفقهاء، فإن كتابه «السنن» يدلُّ على ذلك ، وبلغني أنه درس فقْه الشافعي على أبي سعيد الإصطخري ، وقيل : على غيره . ومنها : المعرفة بالأدب والشعر » .

قال رجاء بن محمد المعدّل : قلتُ للدارقطني : رأيتَ مثلَ نفْسَك ؟ فقال : قال الله : ﴿ **فلا تُزكُّوا أنفسكم** ﴾ ، فألححتُ عليه ، فقال : لم أرَ أحدًا جمع ما جمعتُ . رواه أبو ذر والصوري عن رجَاء المصري. وقال أبو ذر : قلتُ لأبي عبد الله الحاكم : هل رأيتَ مثل الدارقطني ؟ فقال : هوَ ما رأى مثل نفسه ، فكيف أنا ؟!

وكان الحافظ عبد الغني الأزدي إذا حكى عن الدارقطني ؛ يقول : قال أستاذي .

قال الأزهري : رأيتُ ابن أبي الفوارس سأل الدارقطني عن علَّة حديث أو اسم ، فأجاب ، ثم قال : ياأبا الفتح، ليس بين الشرق والغرب

مَنْ يعرف هذا غيري .

وقال أبو بكر البرقاني : كان الدارقطني يُملي عليَّ « العِلَل » من حفْظه.

قال الذهبي: «إنْ كان كتابُ «العلل» الموجود قد أملاه الدارقطني من حفظه - كما دلّت عليه هذه الحكاية - فهذا أمرٌ عظيمٌ يُقضى به للدارقطني أنه أحفظ أهل الدنيا ، وإنْ كان قد أملى بعضه من حفظه فهذا مُمكنٌ . وقد جمع قبله كتاب « العلل » علي بن المديني حافظ زمانه .

أهدى إليه رجُلٌ هدية ، فأملى عليه من حفْظه سبعة عشر حديثًا ؛ متونُ جميعها : « إذا أتاكم كريمُ قوم فأكرموه » .

قال أبو عبد الرحمن السُّلمي فيما نقله عنه الحاكم : شهدتُ بالله ، إن شيخنا الدارقطني لم يُخلّف على أديم الأرض مثله في معرفة حديث رسول الله ﷺ ، وكذلك الصحابة والتابعين وأتباعهم .

قال الخطيب في ترجمته: حدَّثنا أبو نصر علي بن هبة الله بن ماكولا، قال : رأيتُ كأني أسأل عن حال الدارقطني في الآخرة ، فقيل لي : ذلك يُدعى في الجنة الإمام .

قال الخطيب : سألتُ البرقاني : هل كان أبو الحسن يُملي عليك « العلل » من حفْظه ؟ قال : نعم ، أنا الذي جمعتُها ، وقرأها الناس من نسختي .

ولحمزة بن محمد بن طاهر في الدارقطني :

جعلناك فيما بيننا ورسولنا ... وسيطًا فلم تَظْلِمْ ولم تتحوَّب
فأنت الذي لولاك لم يعرف الورى ... ولوْ جهدوا ما صادقٌ من مُكذِّب»[1]

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٦ / ٤٤٩ - ٤٦٠ .

١٥٨ - الإمام الحافظ أحمد بن منصور بن ثابت :

« الحافظ الجوَّال ، أبو العباس الشيرازي ، تلميذ أبي القاسم الطبراني .

قال عنه الحاكم : جمع من الحديث ما لم يجمعه أحد ، وصار له القبول بشيراز ، بحيث يُضرب به المثل .

قال أحمد بن منصور الشيرازي: كتبتُ عن الطبراني ثلاثمائة ألف حديث.

قال الحسين بن أحمد الشيرازي : لما مات أحمد بن منصور الحافظ ؛ جاء إلى أبي رجُلٌ ، فقال : رأيته في النوم وهو في المحراب واقف بجامع شيراز ، وعليه حُلَّةٌ ، وعلى رأسه تاجٌ مكلَّل بالجوهر ، فقلتُ : ما فعلَ الله بك ؟ قال : غفر لي وأكرمني ، قلتُ : بماذا ؟ قال : بكثرة صلاتي على رسول الله ﷺ »[1] .

١٥٩ - الحافظ ابن بُكير :

الإمام مُفيد بغداد ، أبو عبد الله ، الحسين بن أحمد بن عبد الله بن بُكير الصيرفي .

قال عنه الأزهري : « كنتُ أحضر عنده وبين يديه أجزاء ، فأنظر فيها ، فيقول أيُّما أحبُّ إليك : تذكرُ لي متنًا حتى أُخبرك بإسناده ، أو تذكر إسنادًا حتى أُخبرك بمتنه ؟ فكنتُ أذكر له المتون ، فيُحدِّثني بأسانيدها كما هي حفظًا ، فعلتُ هذا معه مرارًا كثيرة ، وكان ثقةً ، لكنهم حسدوه ، وتكلَّموا فيه »[2] .

١٦٠ - عالم المغرب ابن أبي زيد « مالك الصغير » :

الإمام العلّامة القدوة الفقيه ، أبو محمد ، عبد الله بن أبي زيد ،

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٦ / ٤٧٢ - ٤٧٣ .

(٢) تاريخ بغداد ٨ / ١٣، ١٤ ، سير أعلام النبلاء ١٧ / ٩ .

القيرواني ، المالكي ، ويُقال له : « مالك الصغير » .

وكان أحد مَنْ بَرَّز في العلم والعمل .

قال القاضي عياض : « حاز رئاسة الدين والدنيا ، ورُحِل إليه من الأقطار، ونجُب أصحابه، وكثر الآخذون عنه، وهو الذي لخَّص المذهب وملأ البلاد من تواليفه ، تفقَّه بفقهاء القيروان .

صنَّف كتاب « النوادر والزيادات » في نحو المائة جزء ، واختصر «المدوَّنة»، وعلى هذين الكتابين المعوَّل في الفُتيا بالمغرب، وهذَّب كتاب «العتبية» على الأبواب، وكتاب «الاقتداء بمذهب مالك»، وكتاب «الرسالة»، وكتاب « الثقة بالله والتوكُّل على الله » ، وكتاب « المعرفة والتفسير » ، وكتاب « إعجاز القرآن » ، وكتاب « النهي عن الجدال » ، وصنع رسالته المشهورة وله سبع عشرة سنة .

وكان مع عظمته في العلم والعمل ذا برٍّ وإيثار وإنفاق على الطلبة وإحسان . وصل الفقيه يحيى بن عبد العزيز العُمري حين قدم القيروان بمائة وخمسين دينارًا ، وجُهِّزت بنت الشيخ أبي الحسن القابسي بأربعمائة دينار من مال ابن أبي زيد .

وقيل : إن كبير الزهَّاد مُحرزًا التونسي أُتي بابنة ابن أبي زيد وهي زَمِنة ، فدعا لها ، فقامت ، فعجبوا ، وسبَّحوا الله ، فقال : والله ما قلتُ إلَّا : بحُرمة والدها عندك ، اكشفْ ما بها ؛ فشفاها الله »(١) .

١٦١ - الإمام الحافظ الجوَّال ابن مَنده :

مُحدِّث الإسلام ، أبو عبد الله ، محمد بن إسحاق الأصبهاني ، صاحب التصانيف .

قال الذهبي في سير أعلام النبلاء (٣٠/١٧) : « ولم أعلم أحدًا كان

(١) سير أعلام النبلاء ١٧ / ١٠ - ١٢ .

أوسعَ رحلةً منه ، ولا أكثر حديثًا منه ، مع الحفظ والثقة ، فبلغنا أن عِدَّة شيوخه ألف وسبعمائة شيخ » .

وقال الذهبي في تذكرة الحفاظ (٣ / ١٠٣٢) :

« عِدَّة شيوخه الذين سمع منهم وأخذ عنهم : ألف وسبعمائة شيخ ، وكتب بيده عدَّة أحمال .

ولما رجع من الرحلة الطويلة ؛ كانت كُتُبُه عدة أحمال ، حتى قيل : إنها كانت أربعين حملًا ، وما بلغنا أن أحدًا من هذه الأُمَّة سمع ما سمع ، ولا جمع ما جمع ، وكان ختامَ الرحَّالين ، وفَرْدَ المُكثرين ، مع الحفظ والمعرفة والصدق وكثرة التصانيف .

قال جعفر المستغفري : سألتُه كم تكون سماعات الشيخ ؟ قال : تكون خمسة آلاف صَنٍّ[1]. قلتُ- أي الذهبي-: والصَّنُّ يجيء عشرة أجزاء كبار.

وأوّل ارتحاله كان قبل سنة (٣٣٠ هـ) إلى نيسابور .

قال الحاكم: التقينا ببخارى سنة (٣٦١هـ)، وقد زاد زيادة ظاهرة، ثم جاءنا إلى نيسابور سنة خمس وسبعين ذاهبًا إلى وطنه وهو ابن (٦٥) سنة ، ورُزق الأولاد ، وحدَّث بالكثير » .

وقال الذهبي في السير (١٧ / ٣٦) : بقي أبو عبد الله في الرحلة بضعًا وثلاثين سنة .

ياسبحان الله ! رحل وعُمرُه عشرون سنة، ورجع وعُمرُه خمس وستون سنة ، وكانت رحلته خمسًا وأربعين سنة .. أخذت من عمره خمسًا وأربعين

---

(١) الصَّنُّ : الصِّنُّ بكسر الصاد : السلة المطبقة . قال الصفدي : وجاء في القاموس : الصِّن : شبه السلة المطبقة ، يُجعل فيها الطعام والخبز . انتهى . قال شارحه الزبيدي : « ظاهر سياقه أنه بكسر الصاد ، والصواب بفتحها » . انتهى .

سنة !! لله ما أعلى هِمَّته في الصبر والتحمُّل ، وهكذا غلاء العلم على أهله وعلى قلوبهم، ركبوا في تحصيله الصعب والذَّلول، وقطعوا البراري والقفار، وامتطوا من أجله المخاطر والبحار ، ولقوا ما لقوا من الشدائد والأهوال ما الله به عليمٌ . ولكنها حلاوة التحصيل ولذَّته ، والانغمار في تحصيل العلم انغمارًا ، والاشتغال به ليلًا ونهارًا ، قطعوا علاقاتهم بسواه من الأهل والزوجة والولد والبلد ، فخرجوا أئمة أحبارًا ، وسادة أبرارًا، **﴿وجعلنا منهم أئمةً يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون﴾** [السجدة : ٢٤] .

قال أبو نعيم الحافظ عن ابن منده – وكانت بينهما وحشة شديدة –: كان جبلًا من الجبال .

قال البَاطِرقاني : حدثنا أبو عبد الله بن منده إمام الأئمة في الحديث ، لقَّاه الله رضوانه .

قال الحسين بن عبد الملك: كتب إليَّ عبد الرحمن بن أبي عبد الله، أن والده كتب عن أربعة مشايخ أربعة آلاف جزء، وهم أبو سعيد بن الأعرابي، وأبو العباس الأصمّ ، وخيثمة الأطرابلسي ، والهيثم الشاشي . قال : وسمعتُ أبي يقول : كتبتُ عن ألف وسبعمائة نفس .

قال أحمد بن جعفر الحافظ : كتبتُ عن أزيد من ألف شيخ ، ما فيهم أحفظ من ابن منده .

وقال شيخ هراة أبو إسماعيل الأنصاري : أبو عبد الله بن منده سيِّد أهل زمانه .

وعن علي بن الحسين الإسكاف قال : سمعتُ أبا عبد الله بن منده يقول : رأيتُ ثلاثين ألف شيخ ؛ فعشرة آلاف ممّن أروي عنهم وأقتدي بهم ، وعشرة آلاف أروي عنهم ، ولا أقتدي بهم ، وعشرة آلاف من نظرائي ، وليس من الكل واحد إلا وأحفظ عنه عشرة أحاديث أقلّها .

قال الذهبي : « قلتُ : قوله : إنه كتب عن ألف وسبعمائة شيخ أصحُّ ، وهو شيء يقبله العقل ، وناهيك به كثرة ، وقلَّ مَنْ يبلغ ما بلغه الطبراني ، وشيوخه نحو من ألف ، وكذا الحاكم ، وابن مَرْدويه ، فالله أعلم » .

قال الحافظ العراقي في «شرح ألفيته» (٢/٢٣٣): «وقد وُصف بالإكثار من الشيوخ : سفيان الثوري ، وأبو داود الطيالسي ، ويونس بن محمد المؤدّب ، ومحمد بن يونس الكُدَيْمي ، وأبو عبد الله بن منده ، والقاسم ابن داود البغدادي ، روينا عنه قال : كتبتُ عن ستة آلاف شيخ » .

قال ابن منده رحمه الله : طفتُ الشرق والغرب مرَّتين . وحكى أبو زكريا يحيى بن منده قال : « كنتُ مع عمِّي عبيد الله في طريق نيسابور ، فلما بلغنا بئرْ مَجَنَّة، قال عمِّي: كنتُ ها هنا مرةً، فعرض لي شيخ جمّال، فقال : كنتُ قافلًا من خراسان مع أبي ، فلما وصلنا إلى ها هنا إذا نحن بأربعين وقْرا من الأحمال ، فظننّا أنها منسوج الثياب ، وإذا خيمة صغيرة فيها شيخ ، فإذا هو والدك ، فسأله بعضنا عن تلك الأحمال ، فقال: هذا متاع قلَّ مَنْ يرغب فيه في هذا الزمان، هذا حديث رسول الله ﷺ.

قال يحيى بن منده : ثم ذكر لي عمِّي بعد ذلك ، فقال : قفلتُ من خراسان ومعي عشرون وقْرًا من الكتب ، فنزلتُ عند هذا البئر – بئر مجنة – فنزلتُ عنده اقتداءً بالوالد » .

يرحم الله بني منده .

قال أبو علي الحافظ شِيخ الحاكم : بنو منده أعلام الحفَّاظ في الدنيا قديمًا وحديثًا ، ألا ترون إلى قريحة أبي عبد الله .

وقال أبو نعيم الأصبهاني : ابن منده حافظ من أولاد المُحدثين .

نعم ، فهو الحافظ محمد بن المحدِّث أبي يعقوب إسحاق بن الحافظ أبي عبد الله محمد بن يحيى بن منده .

قال الذهبي : « ما علمتُ بيتًا في الرواة مثل بيت بني منده ؛ بقيت الرواية فيهم من خلافة المعتصم وإلى بعد الثلاثين وستمائة .

قال الباطرقاني : كنتُ مع أبي عبد الله في الليلة التي تُوفِّي فيها ، ففي آخر نفسِهِ قال واحد منا : لا إله إلا الله - يُريد تلقينه - فأشار بيده دفعتين ثلاثة ؛ أي : اسكت ، يُقال لي مثل هذا ؟! »[(١)] .

كلام نفيس في عُلُوِّ الهمَّة بالرحلة في طلب الحديث :

قال أبو عبد الله الحاكم النيسابوري في « معرفة علوم الحديث » عن أصحاب الحديث : « هم قوم سلكوا محجّة الصالحين ، واتبعوا آثار السلف من الماضين ، ودمغوا أهل البدع والمخالفين ، بسنن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله أجمعين .

آثروا قطْع المفاوز والقفار ، على التنعُّم في الدِّمَن والأوطار ، وتنعَّموا بالبؤس في الأسفار ، مع مساكنة أهل العلم والأخبار ، وقَنِعوا عند جمْع الحديث والآثار بوجود الكِسَر والأطمار .

جعلوا المساجد بيوتهم، وأساطينها تكاياهم[(٢)]، وبواريها[(٣)] فُرشَهم، نبذوا الدنيا بأسرها وراءهم، وجعلوا غذاءهم الكتابة، وسمَرَهم المُعارضة[(٤)] واسترواحهم المذاكرة ، وخلوقهم المداد ، ونومهم السُّهاد ، واصطلاءهم الضياء ، وتوسُّدَهم الحصى .

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٧ / ٣٠ - ٣٨ ، تذكرة الحفاظ ٣ / ١٠٣١ - ١٠٣٥ .

(٢) الأساطين : جمع أسطوانة ، وهي سارية المسجد التي يرتكز عليها سقفُه ، وتكاياهم : يقصد بها متكآتهم التي يسندون ظهورهم وجنوبهم عليها .

(٣) البواري : جمع بورية وبارية ، وهي الحصيرة المنسوجة التي تُبسط ويُجلس عليها .

(٤) هي مقابلة الكتاب الذي كتبوه بالكتاب الذي سمعوه أو نقلوه منه .

فالشدائد مع وجود الأسانيد العالية عندهم رخاء ، ووجود الرخاء مع فقْد ما طلبوه عندهم بؤس ! فعقولهم بلذاذة السُّنَّة غامرة ، وقلوبهم بالرضاء في الأحوال عامرة، تعلُّمُ السُّنَنِ سرورُهم، ومجالسُ العلمِ حبورُهم، وأهلُ السُّنَّةِ قاطبةً إخوانُهم ، وأهلُ الإلحادِ والبدِع بأسرها أعداؤهم »[1] .

قال منصور بن عمَّار في وصْفه لأصحاب الحديث وعُلوِّ هممهم في جمْعه وتحصيله : « ووكّل بالآثار المفسرة للقرآن ، والسُّنَن القويَّة الأركان ، عصابة مُنتخَبة ، وفقهم لِطلابها وكتابها ، وقوَّاهم على رعايتها وحراستها ، وحبَّب إليهم قراءتها ودراستها، وهوَّن عليهم الدأب والكلال، والحَلَّ والترحال، وبذْل النفس مع الأموال ، وركوب المخاوف من الأهوال .

فهم يرحلون من بلاد إلى بلاد ، خائضين في العلم كلَّ وادٍ ، شُعْثَ الرؤوس خُلقانَ الثيابِ ، خمْصَ البطونِ ، ذُبْلَ الشفاهِ ، شُحْبَ الألوانِ ، نُحَّلَ الأبدانِ ، قد جعلوا لهم همًّا واحدًا ، ورضوا بالعلم دليلًا ورائدًا ، لا يقطعهم عنه جوعٌ ولا ظماءٌ ، ولا يُملّهم منه صيفٌ ولا شتاءٌ ، مائزين الأثر ؛ صحيحَه من سقيمه ، وقويَّه من ضعيفه ؛ بألباب حازمة ، وآراءٍ ثاقبة ، وقلوب للحقِّ واعية ؛ فأمِنَتْ تمويه المموِّهين ، واختراعَ المُلحدين ، وافتراءَ الكاذبين .

فلو رأيتهم في ليلهم ، وقد انتصبوا لِنَسْخ ما سمعوا ، وتصحيح ما جمعوا، هاجرين الفرشَ الوطيَّ، والمضجعَ الشهيَّ، غشيهم النعاسُ فأنامهم، وتساقطتْ من أكُفِّهم أقلامُهم، فانتبهوا مذعورين ! قد أوجع الكدُّ أصلابَهم، وتيَّه السهرُ ألبابهم ، فتمطَّوْا لِيُريحوا الأبدان ، وتحوَّلوا ليفقدوا النوم من مكان إلى مكان ، ودلكوا بأيديهم عيونهم ، ثم عادوا إلى الكتابة حرصًا عليها ، وميلًا بأهوائهم إليها - لعلمتَ أنهم حُرَّاس الإسلام ، وخُزَّان الملك العلَّام .

---

(١) معرفة علوم الحديث للحاكم (صـ ٢ - ٣) .

فإذا قضوا من بعض ما راموا أوطارهم ؛ انصرفوا قاصدين ديارهم ، فلزموا المساجد ، وعمَّروا المشاهد ، لابسين ثوبَ الخضوع ، مُسالمين ومُسَلَّمين ، يمشون على الأرض هونًا ، لا يُؤذون جارًا ، ولا يقترفون عارًا ، حتى إذا زاغ زائغٌ ، أو مرق في الدين مارقٌ ؛ خرجوا خروج الأُسْدِ من الآجام ، يُناضلون عن معالم الإسلام »[1] .

١٦٢ - العَلَوِيُّ :

الإمام السيِّد ، المُحدِّث ، مُسنِد خراسان ، أبو الحسن ، محمد بن الحُسين بن داود الحسني النيسابوري ، رئيس السادة ، وهو شيخ الحاكم .

قال عنه الحاكم : « هو ذو الهِمّة العالية ، والعبادة الظاهرة ، وكان يُسأل أن يُحدِّث فلا يُحدِّث ، ثم في الآخر عقدت له مجلس الإملاء ، وانتقيتُ له ألف حديث ، وكان يُعدُّ في مجلسه ألف محبرة ، فحدَّث وأملى ثلاث سنين »[2] .

١٦٣ - الحاكم النيسابوري :

الإمام الحافظ شيخ المُحدِّثين ، أبو عبد الله بن البَيِّع الضبيِّ .

قال الذهبي في سير أعلام النبلاء (١٧ / ١٦٣) : « طلب هذا الشأن في صِغَرِه بعناية والده وخاله ، وقد استملى على أبي حاتم بن حبَّان وهو ابن ثلاث عشرة سنة . ولحق بالأسانيد العالية بخراسان والعراق وما وراء النهر ، وسَمِع من نحو ألفي شيخ ، ينقصون أو يزيدون ، فإنه سمع بنيسابور وحدها من ألف نفسٍ ، وارتحل إلى العراق وهو ابن عشرين سنة . صنَّف وخرَّج ، وجرح وعدَّل ، وصحَّح وعلَّل ، وكان من بحور العلم على

---

(١) المحدِّث الفاصل بين الراوي والواعي للرامهرمزي (صـ ٢٢٠ - ٢٢١) .
(٢) سير أعلام النبلاء ١٧ / ٩٨ .

تشيُّع قليل فيه . بلغت تصانيفه قريبًا من خمسمائة جزء .

قال عنه عبد الغفَّار بن إسماعيل : الحاكم أبو عبد الله هو إمام أهل الحديث في عصره ، العارف به حقَّ معرفته . تصانيفُه المشهورة تطفح بذكر شيوخه، وقرأ بخراسان على قُرَّاء وقته، وتفقَّه على أبي الوليد والأستاذ أبي سهل ، واختصَّ بصحبة الإمام أبي بكر الصبغي ، وكان الإمام يُراجعه في السؤال والجرح والتعديل ، وأوصى إليه في أمور مدرسته دار السُّنَّة ، وفوَّض إليه تولية أوقافه في ذلك ، واتفق له من التصانيف ما لعله يبلغ قريبًا من ألف جزء من تخريج «الصحيحين» والعلل والتراجم والأبواب والشيوخ، ثم المجموعات مثل «معرفة علوم الحديث»، و «المستدرك»؛ و «تاريخ النيسابوريين»، وكتاب «مزكّي الأخبار»، و «المدخل إلى علم الحديث»، وكتاب «الإكليل»، و «فضائل الشافعي»، وغير ذلك. ولقد سمعتُ مشايخنا يذكرون أيامه، ويحكون أنّ مُقدّمي عصره مثل أبي سهل الصعلوكي والإمام ابن فورك وسائر الأئمة يقدمونه على أنفسهم ، ويُراعون حقَّ فضْله ، ويعرفون له الحُرمة الأكيدة، ثم أطنب عبد الغفَّار في نحو ذلك من تعظيمه، وقال : هذه جُمَلٌ يسيرةٌ هي غيضٌ من فيض سِيَرِه وأحواله ، ومَنْ تأمَّل كلامه في تصانيفه ، وتصرُّفه في أماليه ، ونظرَهُ في طُرُقِ الحديث ؛ أذعن بفضله ، واعترف له بالمزيَّة على مَنْ تقدَّمه ، وإتعابه مَنْ بعْده ، وتعجيزه اللاحقين عن بلوغ شأوه ، وعاش حميدًا ، ولم يُخلّف في وقته مثله .

قال الحاكم رحمه الله : شَربتُ ماء زمزم ، وسألتُ الله أن يرزقني حُسْنَ التصنيف »[1] .

« قال أبو نصر الوائلي : لما ورد أبو الفضل الهمذاني نيسابور ، تعصَّبوا له ، ولقّبوه : بديع الزمان ، فأعجب بنفسه إذ كان يحفظ المائة بيت إذا

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٧ / ١٦٢ - ١٧٣ .

أُنشدت مرّةً ، ويُنشدها من آخرها إلى أوَّلها مقلوبة ، فأنكر على الناس قولهم : فلان الحافظ في الحديث، ثم قال : وحِفْظُ الحديث مما يُذكر ؟! فسمع به الحاكم ابن البيِّع ، فوجَّه إليه بجزء ، وأجَّل له جمعة في حفظه ، فردَّ إليه الجزء بعد الجمعة ، وقال : مَنْ يحفظ هذا ؟ محمد بن فلان ، وجعفر بن فلان ، عن فلان ؟ أسامي مختلفة ، وألفاظ مُتباينة ؟ فقال له الحاكم: فاعرِفْ نفسك، واعلم أن هذا الحفظ أصعب مما أنت فيه»[1].

١٦٤ - ابن الباقلاني :

الإمام القاضي أبو بكر محمد بن الطيِّب الباقلاني .

صنَّف في الردِّ على الرافضة والمعتزلة والخوارج والجهمية والكرَّامية .

قال عنه القاضي عياض في « طبقات المالكية » : « هو المُلقَّب بسيف السُّنة ولسان الأمَّة ، المُتكلِّم على لسان أهل الحديث وطريق أبي الحسن ، وإليه انتهت رئاسة المالكية في وقته »[2] .

قال أبو بكر الخطيب : « كان وِرْدُهُ في كل ليلة عشرين ترويحة في الحضَرِ والسَّفَرِ ، فإذا فرغ منها كتب خمسًا وثلاثين ورقة من تصنيفه. سمعت علي بن محمد الحربي يقول ذلك . وسمعتُ علي بن محمد الحربي يقول : جميع ما كان يذكر أبو بكر بن الباقلّاني من الخلاف بين الناس صنَّفه من حفْظه ، وما صنَّف أحد خلافًا إلا احتاج أن يُطالع كُتُبَ المخالفين؛ سوى ابن الباقلاني.

قال الخطيب : سمعتُ أبا بكر الخوارزمي يقول : كلُّ مُصنِّف ببغداد إنما ينقل من كُتُبِ الناس ، سوى القاضي أبي بكر ، فإنما صدْرُهُ يحوي علْمَه

---

(١) « طبقات الشافعية » للسبكي ٤ / ١٦٠ .

(٢) ترتيب المدارك ٤ / ٥٨٥ ، ٥٨٦ .

وعلَّمَ الناس »[١] .

« لما مات قال فيه أحدهم :

انظرْ إلى جبلٍ تمشي الرجالُ به ... وانظرْ إلى القبرِ ما يحوي من الصَّلَفِ
وانظرْ إلى صارمِ الإسلام مُنغمدًا ... وانظرْ إلى دُرَّةِ الإسلام في الصدفِ

مات رحمه الله وغالب قواعده على السُّنَّة ، وكان سيفًا على المعتزلة والرافضة والمشبِّهة ، وقد أمر شيخ الحنابلة أبو الفضل التميمي مناديًا يقول بين يدي جنازته : هذا ناصر السنة والدين ، والذابُّ عن الشريعة ، هذا الذي صنَّف سبعين ألف ورقة »[٢] .

١٦٥ - أبو حامد الإسفراييني :

قال عنه السبكي في « طبقات الشافعية » :

« حافظ المذهب وإمامه ، جبلٌ من جبال العلم منيعٌ ، وحَبْرٌ من أحبار الأمة رفيعٌ .

قال الشيخ أبو إسحاق الشيرازي : انتهت إليه رئاسة الدين والدنيا ببغداد ، وطبّق الأرض بالأصحاب ، وجمع مجلسه ثلاثمائة مُتفقِّهٍ ، واتفق الموافق والمُخالف على تفضيله وتقديمه ؛ في جودة الفقه ، وحُسْن النظر ، ونظافة العلم .

وقال الخطيب : سمعتُ مَنْ يذكر أنه يحضر في مجلسه سبعمائة مُتفقِّهٍ ، وكان الناس يقولون : لو رآه الشافعي لفرح به .

وقع من الخليفة أمير المؤمنين ما أوجب أن كتب له الشيخ أبو حامد : اعلمْ أنك لَستَ بقادر على عزلي عن ولايتي التي ولَّانيها الله تعالى ، وأنا أقدر

---

(١) تاريخ بغداد ٥ / ٣٨٠ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٧ / ١٩٢ - ١٩٣ .

أن أكتب رقعة إلى خراسان بكلمتين أو ثلاث أعزلك عن خلافتك .

قال النووي : تعليقة الشيخ أبي حامد - على شرح المزني - في نحو من خمسين مُجلَّدًا .

وروى عن سُليم الرازي قال : كان أبو حامد في أول أمْره يحرس في دربٍ ، وكان يُطالع على زيت الحرس ، وإنه أفتى وهو ابن سبع عشرة سنة ، وأقام يُفتي (٤٥) سنة إلى أن مات ، ولما قَرُبتْ وفاته ؛ قال : لما تفقّهنا متنا »[١] .

١٦٦ - شمس الإسلام ، شيخ الشافعية بخراسان ، الإمام أبو الطيِّب سهل الصعلوكي :

قال الحاكم : هو أنظر مَنْ رأينا ، تخرَّج به جماعة وحدَّث وأملى . مُفتي نيسابور وابن مُفتيها .

وقال أبو إسحاق الشيرازي : كان أبو الطيِّب فقيهًا أديبًا ، جمع رئاسة الدنيا والدين ، وأخذ عنه فقهاء نيسابور .

وقال الحاكم: بلغني عنه أنه كان في مجلسه أكثر من خمسمائة محبرة[٢].

وقال الحاكم : كان أبوه يُجلّه ، ويقول : سهلٌ والدٌ[٣] .

لله ما أحلى العلم وأشرفه ، حتى يقول والد عن ولده ما كتبنا !!

قال رحمه الله : مَنْ تصدَّر قبل أوانه ، فقد تصدَّى لهوانه .

قال الحاكم : قد كان بعض مشايخنا يقول : مَنْ أراد أن يعلم النجيب ابن النجيب يكون بمشيئة الله تعالى ، فلينظرْ إلى سهل بن أبي سهل .

قال الحاكم : دخلتُ على الأستاذ - أبي سهل - في ابتداء مرضه ،

---

(١) طبقات الشافعية ٤ / ٦١ ، ٦٥ ، وسير أعلام النبلاء ١٧/١٩٣ - ١٩٦ .
(٢) تهذيب الأسماء واللغات للنووي ١ / ٢٣٨ .
(٣) طبقات الشافعية ٤ / ٣٩٤ .

وسهل غائب في بعض ضياعه ، وكان الأستاذ يشكو ما هو فيه ، فقال : غيبةُ سهْلٍ أشدُّ عليَّ من هذا الذي أنا فيه .

فرحمةُ الله على الإمام الصعلوكي ، إلا أنه الغني ، الذي لا يُسأل إلا ويُجيب ، ما أمَّه الطالب إلا وجده سهلًا ، ولا أمَّله الراغب إلا وتلقاه بالبشْر وقال له : أهلًا .

١٦٧ - الحافظ أبو عبد الرحمن السُّلَمي ، شيخ الصوفية :

قال الخطيب : محلّه كبير ، وكان مع ذلك صاحب حديث ، مُجَوّدًا ، جمع شيوخًا وتراجمَ وأبوابًا . حدَّث أكثر من أربعين سنة قراءةً وإملاءً .

قال الذهبي: «وللسُّلَمي سؤالات للدارقطني عن أحوال المشايخ الرواة سؤال عارفٍ .

وفي الجمْلة ، ففي تصانيفه أحاديث وحكايات موضوعة .

وقال الذهبي : بلغت تآليف السُّلَمي ألف جزءٍ .

وقال أيضًا عنه : كان - يعني السلمي - وافر الجلالة ، وتصانيفه ؛ يُقال : إنها ألف جزء ، وله كتاب سمَّاه « حقائق التفسير » ليته لم يُصنِّفْه ؛ فإنه تحريفٌ وقرمطةٌ ، فدونك الكتاب ، فسترى العجب »[(١)] . اهـ .

وقال عنه في السير (١٧ / ٢٤٧) : « وتصانيفه مقبولة » .

قال غالب بن علي الرازي : لما قرأنا كتاب « تاريخ الصوفية » في شهور سنة أربع وثمانين وثلاثمائة بالريِّ ، قُتل صبيٌّ في الزحام ، وزعق رجل في المجلس زعقة ، ومات ، ولما خرجنا من همذان ؛ تبعنا الناس لطلب الإجازة مرحلة .

---

(١) طبقات الشافعية ٤ / ١٤٦ - ١٤٧ .

١٦٨ - الحافظ مُحدِّث أصبهان ابن مَرْدَويه ، أبو بكر أحمد بن موسى :

«صاحب «التفسير الكبير» و «التاريخ» والأمالي الثلاث مائة مجلس.

كان من فرسان الحديث ، فهِمًا يَقِظًا مُتقنًا ، كثير الحديث جدًّا ، ومَنْ نظر في تواليفه ؛ عرف محلَّه من الحفظ .

من تصانيفه كتاب « المُستخرج على صحيح البخاري » بعُلوٍّ في كثير من أحاديث الكتاب ، حتى كأنه لقي البخاري .

قال عنه حفيده أحمد بن محمد بن أحمد : « رأيتُ من أحوال جدِّي من الديانة في الرواية ما قضيتُ منه العجب في تثبُّته وإتقانه، وأهدى له كبيره حلاوةً ، فقال : إن قبلتُها ؛ فلا آذنُ لك بعدُ في دخول داري ، وإنْ ترجعْ به ، تَزِدْ عليَّ كرامةً .

قال الإمام إسماعيل : لو كان ابن مردويه خُراسانيًّا ؛ كان صيتُه أكثر من صيت الحاكم »[1] .

١٦٩ - الحافظ العَبْدُويي أبو حازم، عمر بن أحمد بن عَبْدُويه النيسابوري:

قال عنه أبو بكر الخطيب : لم أرَ أحدًا أُطلق عليه اسم الحفظ غير رجلين ؛ أبو نُعيم ، وأبو حازم العبدويي .

وقال الذهبي عنه : « كتب العالي والنازل ، وجمع وخرَّج ، وتميَّز في علم الحديث .

قال الحافظ أبو صالح المؤذِّن: سمعتُ أبا حازم الحافظ يقول: كتبتُ بخطِّي عن عشرة من شيوخي عشرة آلاف جزء؛ عن كل واحد ألف جزء»[2].

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٧ / ٣٠٨ - ٣١٠ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٧/٣٣٣- ٣٣٥، وتذكرة الحفاظ ٣/١٠٧٢، وطبقات الشافعية ٥ / ٣٠١ .

١٧٠ - شيخ الشافعية الإمام أبو بكر القفَّال، عبد الله بن أحمد الخراساني:

قال عنه السبكي في « طبقات الشافعية » (٥/٥٣-٥٥) : « الإمام الزاهد الجليل البحر أحد أئمة الدنيا ، يُعرف بالقفَّال الصغير .

كان من أعظم محاسن خراسان ، إمامًا كبيرًا ، وبحرًا عميقًا ، غوَّاصًا على المعاني الدقيقة ، نقيَّ القريحة ، عظيم المحلِّ ، كبيرَ الشأنِ ، عديمَ النظير .

ذكره الإمام السمعاني في « أماليه » ، فقال : كان وحيدَ زمانه فقهًا وحفظًا وورعًا وزهدًا ، وله في فقه الشافعي وغيره من الآثار ما ليس لغيره من أهل عصره . قال : وطريقته المهديَّة في مذهب الشافعي التي حملها عنه فقهاء أصحابه من أهل البلاد أمتنُ طريقةٍ ، وأوضحُها تهذيبًا ، وأكثرُها تحقيقًا . رُحِل إليه من البلاد للتفقُّه عليه ، فظهرت بركتُه على مختلفيه ، حتى تخرَّج به جماعة كثيرة ، صاروا أئمة في البلاد ؛ نشروا علمَه ، ودرسوا قولَه » .

والقفَّال رضي الله عنه أزيد مما وُصف ، وأبلغ مما ذُكر . وقد صار مُعتَمدَ المذهب على طريقة العراقَ وحامل لوائها أبو حامد الإسفراييني ، وطريقة خراسان والقائم بأعبائها القفَّال المروزي ؛ هما رحمهما الله شيخا الطريقتين ، إليهما المرجع ، وعليهما المعوَّل .

قال ناصر العمري : لم يكن في زمان أبي بكر القفَّال أفقه منه ، ولا يكون بعده مثله ؛ وكنا نقول : إنه مَلَكٌ في صورة إنسان .

قال عنه الذهبي في السير (١٧/٤٠٧): « ابتدأ بطلب العلم وقد صار ابن ثلاثين سنة ، فترك صنعته - صناعة الأقفال - وأقبل على العلم .

هذه والله الهِمَّة العليَّة العالية ! يطلب العلم بعد الثلاثين ، ثم يصير بعد ذلك إمامَ الدنيا في عصره في الفقه !!

قال القفَّال رحمه الله : « ابتدأتُ التعلُّم وأنا لا أُفرِّق بين اختصرتُ واختصرت ؛ يعني لم يكن يدري من اللسان العربي ما يُفرق به بين ضمٍّ

تاء الضمير وفتحها »[١] .

« قال ناصر العمري : إن بعض الفقهاء المختلفين إلى القفّال احتسب على بعض أتباع متولي مرو ، فرُفع ذلك إلى السلطان محمود ، فقال : أيأخذ القفّال شيئًا من ديواننا ؟ قال : لا . قال : فهل يتلبَّس بشيءٍ من الأوقاف ؟ قال : لا . قال : فإن الاحتساب لهم سائغ ، دعْهم .

حكى القاضي حسين عن القفّال أستاذه أنه كان في كثير من الأوقات يقع عليه البكاء حالة الدرس ، ثم يرفع رأسه ، ويقول : ما أغفلَنا عما يُراد بنا »[٢] .

١٧١ - الحافظ المجوّد أبو بكر الإسفراييني، محمد بن أحمد بن عبد الوهّاب الحديثي الرحّال:

قال عنه الحاكـم : « أشهد على أبي بكر الإسفراييني أنه يحفظ من حديث مالك وشعبة ومسعر والثوري أكثر من عشرين ألف حديث » .

قال الذهبي : « لم تبلغْنا أخبار هذا الحافظ مُفصَّلة »[٣] .

١٧٢- أبو نُعَيم الأصبهاني، صاحب «حلية الأولياء»، الحافظ أحمد بن عبد الله ابن أحمد :

شيخ الإسلام أبو نعيم . مُصنَّفاته كثيرةٌ جدًّا .

قال عنه الذهبي : « كان حافظًا مُبرّزًا عالي الإسناد ، تفرَّد في الدنيا بشيءٍ كثير من العوالي ، وهاجر إلى لُقيِّهِ الحُفَّاظ » .

قال عنه أبو بكر الخطيب : لم أرَ أحدًا أُطلق عليه اسم الحفظ غير رجلين ؛ أبو نُعيم الأصبهاني ، وأبو حازم العَبْدُويي .

---

(١) طبقات الشافعية ٥ / ٥٤ .
(٢) سير أعلام النبلاء ١٧ / ٤٠٧ .
(٣) سير أعلام النبلاء ١٧ / ٢٤٥ - ٢٤٦ .

« قال أحمد بن أحمد بن مردويه : كان أبو نُعيم في وقته مرحولًا إليه ، ولم يكن في أُفُقٍ من الآفاق أسندَ ولا أحفظَ منه ، كان حُفَّاظ الدنيا قد اجتمعوا عنده ، فكان كلَّ يوم نوبة واحد منهم يقرأ ما يُريده إلى قريب الظهر ، فإذا قام إلى داره ، ربما كان يُقرأ عليه في الطريق جزء ، وكان لا يضجر ، لم يكن له غداء سوى التصنيف والتسميع .

قال حمزة بن العبَّاس العلويّ : كان أصحاب الحديث يقولون : بقي أبو نعيم أربع عشرة سنة بلا نظير ، لا يوجد شرقًا ولا غربًا أعلى منه إسنادًا ، ولا أحفظ منه . وكانوا يقولون: لما صنَّف كتاب « الحلية » حُمِل الكتاب إلى نيسابور حال حياته ، فاشتروْه بأربعمائة دينار »[(١)] .

١٧٣ - البرقاني :

الإمام الفقيه ، الحافظ ، شيخ الفقهاء والمُحدِّثين ، أبو بكر ، أحمد ابن محمد بن أحمد الخوارزمي ، ثم البرقاني ، الشافعي ، صاحب التصانيف .

قال الخطيب : « كان البرقاني ثقةً وَرِعًا ثبتًا فَهِمًا ، لم نَرَ في شيوخنا أثبتَ منه ، عارفًا بالفقه ، له حظٌّ من علم العربية ، كثير الحديث ، صنَّف « مُسندًا » ، ضمَّنه ما اشتمل عليه صحيح البخاري ومسلم ، وجمع حديث سفيان الثوري، وأيوب وشعبة، وعُبيد الله بن عمر، وعبد الملك بن عمير، وبيان بن بشر، ومطر الورَّاق، وغيرهم، ولم يقطع التصنيف إلى حين وفاته، ومات وهو يجمع حديث مسعر ، وكان حريصًا على العلم ، مُنصرِفَ الهِمّة إليه ، سمعتُه يقول يومًا لرجل من الفقهاء معروفًا بالصلاح : ادعُ الله تعالى أن ينزع شهوة الحديث من قلبي ، فإنَّ حُبَّهُ قد غلب علي ، فليس لي اهتمامٌ إلا به » .

« قال أبو قاسم الأزهري : البرقاني إمام ، إذا مات ذهب هذا الشأن .

---

(١) تذكرة الحفاظ ٣ / ١٠٩٤ ، وسير أعلام النبلاء ١٧ / ٤٥٩ .

قال الخطيب : سمعتُ محمد بن يحيى الكرماني الفقيه يقول : ما رأيتُ في أصحاب الحديث أكثر عبادةً من البرقاني . وسألتُ الأزهري : هل رأيتَ شيخًا أتقن من البرقاني ؟ قال : لا ، وذكره أبو محمد الحسن ابن محمد الخلّال ، فقال : هو نسيجُ وحده .

قال الخطيب : أنا ما رأيتُ شيخًا أثبتَ منه »[(١)] .

« قال البرقاني : دخلتُ إسفراين ومعي ثلاثة دنانير ودرهم ، فضاعت الدنانير وبقي الدرهم ، فدفعته إلى خبَّاز ، وكنت آخذ منه كل يوم رغيفين ، وآخذ من بشر بن أحمد الإسفراييني جزءًا فأكتبه ، وأُفرّغه بالعشيِّ ، فكتبتُ ثلاثين جزءًا ، ونفد ما عند الخبَّاز ، فسافرتُ »[(٢)] .

قال أبو بكر الخطيب : حدَّثني أحمد بن غانم ، وكان صالحًا ، قال : نقلتُ البرقاني من بيتي ، وكان معه ثلاثة وستون سفطًا وصندوقان ، كلُّ ذلك مملوءٌ كُتُبًا .

قلتُ – أي الذهبي –: إنه سمع من تلميذه أبي بكر الخطيب ، وحدَّث عنه في حياته .

قال الخطيب : كنتُ أُذاكره الأحاديث ، فيكتبها عني ، ويُضمِّنُها جموعه .

١٧٤ – الحيري :

« العلّامة المفسِّر : أبو عبد الرحمن ، إسماعيل بن أحمد النيسابوري الحيري ، الضرير ، الزاهد ، أحد الأعلام .

له التصانيف في القرآن والقراءات والحديث والوعظ ونفْع الخلق .

قال الخطيب : قدم علينا ، ونِعْمَ الشيخ كان ، له تفسير مشهور ،

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٧ / ٤٦٦ – ٤٦٧ .
(٢) تاريخ بغداد ٤ / ٣٧٥ .

قرأتُ عليه صحيح البخاري في ثلاثة مجالس ؛ ميعادان في ليلتين ، وقرأتُ الثالث من ضحوة إلى الليل ، ثم إلى طلوع الفجر »[١] .

١٧٥ – عبد الله بن حمُّود الزبيدي الأندلسي :

صاحبُ أبي علي الفارسي، المُتوفّى غريقًا في طريق عودته إلى الأندلس.

« كان عبد الله هذا قد صحب أبا علي القالي بالأندلس ، وأخذ عنه ، ثم رحل إلى المشرق ، فصحب أبا سعيد السيرافي إلى أن مات ، وصحب أبا علي الفارسي في مقامه وسفره إلى فارس وغيرها ، وأخذ عنه ، وأكثر ، وبرع .

ومن خبره مع أبي علي الفارسي : أن أبا علي غلّس يومًا إلى الصلاة في المسجد ، فقام إليه عبد الله بن حمّود هذا من مزود[٢] ، وكان لدابَّة أبي علي خارج داره ، وكان عبد الله قد بات فيه ؛ ليُدلج إليه قبل الطلبة طالبًا للسبق والأخذ عنه ، فارتاع منه أبو علي ، وقال له : ويحك ، مَنْ تكون ؟ قال : أنا عبد الله الأندلسي . فقال : إلى كم تتبعني ؟ والله إنْ[٣] على وجه الأرض أنحى منك! زاد أحمد بن مكتوم: حدَّثني شيخنا أبو حيَّان الأندلسي– أبقاه الله – أنَّ عبد الله هذا رحل إلى الأندلس ، وحين بقي بينه وبين بلده مسافة يوم أو يومين ؛ غرقت المركب ، وهلك كلُّ مَنْ فيها ، ومن جملتهم عبد الله المذكور ، وذهب معه عِلْمٌ كثير كان قد جلبه من العراق ، رحمةُ الله تعالى عليه »[٤] .

---

(١) تاريخ بغداد ٦/٣١٤ ، وسير أعلام النبلاء ١٧/٥٣٩– ٥٤٠ .

(٢) بيت العلف .

(٣) أي (ما) .

(٤) « إنباه الرواة على أنباه النحاة » للقفطي ٢ / ١١٩ .

١٧٦ - ابن المَكْوي القرطبي :

أبو عمر، أحمد بن عبد الملك الإشبيلي، شيخ فقهاء الأندلس في وقته.

« كان قد حُبِّب إليه الدرس مُدّة عمره ، لا يفتر عنه ليله ونهاره ، وجُعلت فيه لذَّته .

ذُكر أنَّ صديقًا له قصده في عيد زائرًا له، فأصابه داخل داره ودربُه مفتوح ، فجلس ينتظره وأبطأ عليه ، فأوصى إليه ، فخرج وهو ينظر في كتاب ، فلم يشعر بصديقه ، حتى عثر فيه ؛ لاشتغال باله بالكتاب ، فتنبَّه حينئذٍ له ، وسلَّم عليه ، واعتذر له من احتباسه بشغله بمسألة عويصة لم يُمكنه تركُها حتى فتحها الله عليه ، فقال له الرجل : في أيام عيد ، ووقت راحة مسنونة ؟ فقال : إذا علتْ هذه النفسُ انصبَّت إلى هذه المعرفة ، والله ما لي راحةٌ ولا لذَّةٌ في غير النظر والقراءة .

قال ابن عفيف : إليه انتهت رئاسة العلم بالأندلس حتى صار بمثابة يحيى بن يحيى الليثي في زمانه ، واعتلى على جميع الفقهاء ، ونُفِّذت الأحكام برأيه ، فحكم على الحاكم ، وبعُد صيتُه بالأندلس ، وحاز رئاسةً أحاديثها مشهورةٌ »[١] .

١٧٧ - شيخ الإسلام وشيخ الشافعية محمد بن محمد الطوسي :

الإمام الحافظ أبو النضر :

« قال الحاكم تلميذه : سمعتُ أحمد بن منصور يقول : أبو النضر يُفتي الناسَ من سبعين سنة أو نحوها ، ما أُخذ عليه في فتوى قطٌّ .

قال الحاكم : رحلتُ إليه مرتين ، وسألتُه متى يفرغ للتصنيف مع هذه الفتاوى؟ فقال: جزَّأتُ الليل؛ فثُلُثه أُصنِّف، وثُلُثُهُ أقرأ القرآن، وثُلُثُهُ للنوم.

---

(١) ترتيب المدارك للقاضي عياض ٤ / ٦٣٦ .

قال الحاكم : وكان إمامًا عابدًا بارعَ الأدب ، وما رأيتُ في مشايخنا أحسنَ صلاةً منه ، وكان يصوم الدهر ، ويقوم الليل ، ويتصدَّق بما فضُل من قوته ، ويأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر »[1] .

١٧٨ - السمَّان الحافظ شيخ المعتزلة :

أبو سعد ، إسماعيل بن علي السمَّان عفا الله عنه :

قال فيه ابن عساكر : « قدم دمشق طالبَ علم ، وكان من المُكثرين الجوَّالين ، سمع من نحو أربعة آلاف شيخٍ .

وقال الحافظ عبد العزيز الكتاني : كان أبو سعد من الحفَّاظ الكبار ، زاهدًا وَرِعًا ، وكان يذهب إلى الاعتزال » .

قال أبو سعد السمَّان : « مَنْ لم يكتب الحديث لم يتغرغر بحلاوة الإسلام » .

ولله ما أحلاها من كلمة وأصدقها !!

ومع هذا فقد كان شيخ العدلية - المعتزلة - وعالمَهم وفقيهَهُم ، وكان إمامًا بلا مُدافعة في القراءات والحديث والرجال والفرائض والشروط ، عالمًا بفقه أبي حنيفة ، وبالخلاف بين أبي حنيفة والشافعي ، وفقه الزيدية .

وكان على مذهب أبي هاشم الجُبَّائيِّ المعتزلي ، وكان يُقال في مدحه : هو تاريخ الزمان وشيخ الزمان !!

قال الذهبي: «وأنّى يوصف من قد اعتزل وابتدع، وبالكتاب والسنة فقلَّ ما انتفع ، فهذا عبرةٌ ، والتوفيق فمن الله وحده .

هتف الذكاءُ وقال لستُ بنافعٍ   إلا بتوفيق من الوهَّـابِ

وأمّا أبو هاشم الجُبَّائي وأبوه أبو علي فمن رؤوس المعتزلة ومن الجهلة

---

(١) تذكرة الحفاظ ٣ / ٨٩٣ .

بآثار النبوة . برعوا في الفلسفة والكلام ، وما شمُّوا رائحة الإسلام ، ولو تغرغر أبو سعد بحلاوة الإسلام لانتفع بالحديث ، فنسأل الله تعالى أن يحفظ علينا إيماننا وتوحيدنا »[١] .

١٧٩ - الإمام أبو منصور محمد بن الحسين الأيوبي النيسابوري :

«صاحب البيان والحُجَّة والبرهان، واللسان الفصيح والنظر الصحيح، أنظرُ مَنْ كان في عصره ، ومن تقدَّمه ، ومَنْ بعده .

تَلْمَذ للأستاذ أبي بكر بن فورك في صباه ، وتخرَّج به ولزم طريقته ، وجدَّ واجتهد في فقرٍ وقلَّةٍ من ذات اليد ، حتى كان يُعلِّق دروسه ويُطالعها في القمر لضيق يده عن تحصيل دهن السِّراج ، وهو مع ذلك يُقابل الفقر ، ويُلازم الورع ، ولا يأخذ من مال الشبهة شيئًا »[٢] .

١٨٠ - الوَخْشي :

« الشيخ الإمام الحَافظ المُحدِّث الزاهد : أبو علي ، الحسن بن علي ابن محمد البلخي الوخشي .

قال أبو سعد السمعاني : كان حافظًا فاضلًا ، ثقةً ، حَسَنَ القراءة . رحل إلى العراق والجبال والشام والثغور ومصر ، وذاكر الحفَّاظ ، وسمع ببلخ من أبي القاسم علي بن أحمد الخزاعي .

قال الوخشي: جُعتُ بعسقلان أيامًا وعجزتُ عن الكتابة، ثم فتح الله.

قال عمر السرخسي : ورد نظام الملك علينا ، فقيل له : إنَّ بقرية وخشٍ ذا رحلةٍ ومعرفةٍ ، فاستدعاه ، وقرءوا عليه سنن أبي داود .

قال الوخشي يومًا : رحلتُ وقاسيتُ الذُّلَّ والمشاقَّ ، ورجعتُ إلى

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٨ / ٥٦ - ٦٠ .

(٢) « تبيين كذب المُفتري » لابن عساكر صـ ٢٤٩ .

وخش، وما عرف أحدٌ قدْري، فقلتُ: أموتُ ولا ينتشر ذكْري، ولا يترحَّم أحدٌ عليَّ ، فسهَّل الله ووفَّق نظام الملك ، حتى بنى هذه المدرسة ، وأجلسني فيها أُحدِّث ، لقد كنتُ بعسقلان أسمع من ابن مُصحّحٍ ، وبقيتُ أيَّامًا بلا أكْلٍ ، وقعدتُ بقُرْبِ خبَّاز لأَشُمَّ رائحة الخبز وأتقوَّى بها »[1] .

١٨١ - القاضي أبو علي الهاشمي محمد بن أحمد الحنبلي :

« ذكر أبو علي بن شوكة قال : اجتمعنا جماعة من الفقهاء ، فدخلنا على القاضي أبي علي الهاشمي ، فذكرنا له فقرنا وشدَّةَ ضرّنا ، فقال لنا : اصبروا ، فإنَّ الله سيرزقكم ويُوسِّع عليكم ، وأُحدِّثكم في مثل هذا بما تطيب به قلوبكم :

أذكر سنةً من السنين وقد ضاق بي الأمر شيئًا عظيمًا ، حتى بعتُ رحْلَ داري ، ونفد جميعُه ، ونقضتُ الطبقة الوسطى من داري ، وبعتُ أخشابها وتقوَّتُ بثمنها ، وقعدتُ في البيت فلم أخرج ، وبقيتُ سنة ، فلمَّا كان بعد سنة ؛ قالت لي المرأة : البابُ يدقُّ ، فقلتُ لها : افتحي الباب ، ففعلتْ ، فدخل رجلٌ فسلَّم عليَّ ، فلما رأى حالي لم يجلس حتى أنشدني وهو قائم :

ليس من شِدَّةٍ تُصيبُك إلا ... سوف تمضي وسوف تُكْشفُ كَشْفا
لا يضقْ ذرعُك الرحيبُ فإنَّ الـنّـــار يعلـو لهيبها ثم تُطفـا
قد رأينا منْ كان أشفى على الهلـ ... ـك فوافتْ نجاته حين أشفى

ثم خرج عني و لم يقعد ، فتفاءلتُ بقوله ، فلم يخرج اليوم عني ، حتى

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٨/٣٦٥- ٣٦٧ ، ولسان الميزان ٢/٢٤١ ، وتذكرة الحفاظ ٣/١١٧٣ .

جاءني رسول القادر بالله ، ومعه ثياب ودنانير وبغلة مِمركب ، ثم قال لي : أجبْ أمير المؤمنين ، وسلَّم إليَّ الدنانير والثياب والبغلة ، فغيَّرتُ عن حالي ودخلتُ الحمَّام ، وصرتُ إلى القادر بالله ، فردَّ إليَّ قضاء الكوفة وأعمالها وأثرى حالي »[١] .

١٨٢ - الحافظ الحَرَمي :

«الإمام القدوة، أبو سعد محمد بن الحسين بن محمد المزكي الحَرَمي، نزيل هراة .

كان زاهدًا ، عابدًا ربانيًّا .

قال أبو جعفر محمد بن أبي علي : كان أبو سعد الحَرَمي من الأوتاد، لم أرَ بعيني أحفظَ منه .

وقال الواعظ أبو حامد الخيَّاط : إنْ كان لله بهراة أحدٌ من الأولياء ؛ فهو هذا ، وأشار إلى الحَرَمي .

قال الحرمي رحمه الله : لا يصبر على الخَلِّ إلا دودُه ؛ يعني لا يصبر على الحديث إلا أهله »[٢] .

١٨٣ - القاضي عبد الوهاب بن علي بن نصر المالكي، البغدادي الفقيه:

قال ابن بسَّام : « كان بقيةَ الناس ، ولسانَ أصحاب القياس ، وقد وجدتُ له شِعْرًا ؛ معانيه أجلى من الصبح ، وألفاظه أحلى من الظَّفر بالنُّجح ، ونَبَتْ به بغداد كعادة البلاد بذوي فضلها على حكم الأيام بمحسني أهلها ، فخلع أهلها وودَّع ماءها وظلَّها، وحُدِّثتُ أنه شيَّعه يوم فُصل عنها من أكابرها وأصحاب محابرها ؛ جملة موفورة ، وطوائف كثيرة ، وأنه قال لهم : لو

(١) طبقات الحنابلة لأبي يعلى ٢ / ١٨٥ .
(٢) سير أعلام النبلاء ١٩ / ٢٠٢ - ٢٠٣ .

وجدتُ بين ظهرانيكم رغيفين كل غداةٍ وعشيَّةٍ ؛ ما عدلتُ عن بلدكم لبلوغ أمنية ، وفي ذلك يقول :

سلامٌ على بغدادَ في كلِّ موطنٍ ... وحقَّ لها مني سلامٌ مُضاعفُ
فواللهِ ما فارقتها عن قِلًى لها ... وإني بشطَّي جانبيها لَعارفُ
ولكنها ضاقتْ عليَّ بأسرها ... ولم تكن الأرزاقُ فيها تُساعفُ
وكانت كخِلٍّ كنتُ أهوى دُنُوَّهُ ... وأخلاقُه تنأى به وتُخالِفُ

ويقول في ذلك أيضًا :

بغدادُ دارٌ لأهلِ المالِ طيِّبةٌ ... وللمفاليسِ دارُ الضَّنْكِ والضيِّقِ
ظللتُ حيران أمشي في أزقَّتها ... كأني مُصحفٌ في بيتِ زنديق

واجتاز في طريقه من بغداد إلى مصر بمعرَّة النعمان ، وبالمعرَّة يومئذٍ أبو العلاء المعرِّي ، فأضافه ، وأُعجب بعلمه وفقهه وأدبه وشِعْره ، وفي ذلك يقول أبو العلاء من جملة أبيات :

والمالكي ابنُ نصرٍ زار في سفرٍ ... بلادَنا فحمِدْنا النأْيَ والسَّفرا
إذا تفقَّه أحيا مالكًا جدلًا ... وينشرُ الملك الضِّلِّيل[(١)] إنْ شَعَرا

ثم توجّه إلى مصر فحمل لواءها ، وملأ بالعلم أرضها وسماءها ، واستتبع سادتها وكبراءها ، وتناهت إليه الغرائب ، وانثالت في يده الرغائب ، فمات لأول ما وصلها ، من أكْلة اشتهاها فأكلها ، وزعموا أنه قال في مرضه - وهو يتقلَّب ، ونَفَسُهُ يتصعَّد ويتصوَّب -: لا إله إلا الله ، إذا عشنا متنا .

وهو الذي يقول :

متى يصل العِطاشُ إلى ارتواءٍ ... إذا استقتِ البحارُ من الرَّكايا
ومَنْ يُثنِ الأصاغرَ عن مرادٍ ... وقد جلس الأكابرُ في الزوايا
وإنَّ ترفُّعَ الوُضَعاءِ يومًا ... على الرُّفعاءِ من إحدى الرزايا
إذا استوتِ الأسافلُ والأعالي ... فقدْ طابت مُنادمةُ المنايا »[(٢)]

---

(١) امرؤ القيس .
(٢) الذخيرة لابن بسَّام .

١٨٤ - البغوي ، الشيخ الإمام ، محيي السُّنَّة وركن الدين ، أبو محمد الحسين بن مسعود :

قال عنه الذهبي في السير (١٩/٤٤١) : « كان البغوي يُلقَّب بمُحيي السُّنَّة وبرُكْنِ الدينِ ، وكان سيِّدًا وإمامًا عالمًا علَّامة ، بُورِك له في تصانيفه ، ورزق فيها القبول التامَّ ؛ لحُسْنِ قصْدِه ، وصدْق نيَّته وتنافُسِ العلماء في تحصيلها ، وكان لا يُلقي الدرس إلا على طهارة ، على منهاج السلف حالًا وعقدًا ، وله القدم الراسخ في التفسير ، والباع المديد في الفقه » .

وهو أحد العلماء الذين خدموا الكتاب العزيز والسنة النبوية؛ بالعكوف على دراستهما ، والتأليف فيهما ، وإحياء ما درس من معالمهما ، وكشف كنوزهما ودفائنهما .

كان يدعو إلى الاعتصام بالكتاب والسنة اللَّذيْن هما أصْل الدين ومِلَاكُه ، ويُؤلِّف في نشر علومهما ، وبثِّ معارفهما التآليفَ النافعة الماتعةَ ، حتى استحقَّ لقب « مُحيي السنة » من أهل عصره ، وممّن جاء بعده .

وقد دفعه حُبُّه للعلم وشغفُهُ بالسنة أن يرحل إلى مرو الروذ ؛ ليلتقي بإمام عصره غير مُدافع الحسين بن محمد المروزي القاضي ، فتتلمذ له ؛ وتفقَّه عليه ، وروى عنه ، ونهل من علمه ، فكان من أخصِّ تلامذته ، ولم تقف هِمَّتُه عندَ ذلك ؛ بل طاف خراسان ، وسمع خلقًا كثيرًا من علمائها ، وروى عنهم الصِّحاح والسُّنن والمسانيد ، ودرس مذاهب الأئمة المشهورة وأحاط بها ، وخاصَّة مذهب الإمام الشافعي .

« قال السبكي : اعلم أن صاحب « التهذيب » - يعني البغوي - قلَّ أنْ رأيناه يختار شيئًا إلّا وإذا بُحث عنه وُجد أقوى من غيره . وهو يدلُّ على نُبْلٍ كبيرٍ ، وهو حريٌّ بذلك ، فإنه جامعٌ لعلوم القرآن والسّنة والفقه .

رحمه الله ، ورحمنا به إذا صرنا إلى ما صار إليه »[(١)] .

ألقى عصا التِّسيار في مروالروذ وطنه الثاني يُؤلِّف الكتب ، ويُفيد الطلبة من علمه الجمِّ ، وأفكاره النيِّرة ، وتعاليمه القيِّمة .

ومن كُتُبِه :

١ - « التهذيب » في فقه الإمام الشافعي . وهو مشهور عند الشافعية يفيدون منه ، وينقلون عنه ، ويعتمدونه في كثير من المسائل ، والإمام النووي رحمه الله يُكثر النقل عنه في « الروضة » .

٢ - وله في التفسير « معالم التنزيل » . « سُئل شيخ الإسلام ابن تيمية عن أي التفسير أقرب إلى الكتاب والسنة : الزمخشري ، أم القرطبي ، أم البغوي ، أم غير هؤلاء ؟ فقال : وأما التفاسير الثلاثة المسئول عنها ، فأسلمُها من البدعة والأحاديث الضعيفة البغوي »[(٢)] .

٣ - « مصابيح السنة » . وهو كتاب مشهور مُتداوَل ، عني به العلماء قراءةً وتعليقًا وشرحًا ، وقد اعتمده الخطيب التبريزي ، وزاد عليه ، وهذَّبه في كتابه « مشكاة المصابيح » ، وقد طُبع أكثر من مرة في بلاد تركستان والهند ، وحقَّقه الشيخ الألباني .

٤ - « شرح السُّنَّة » . وهو من أجلِّ كُتُبِ السُّنَّة التي انتهت إلينا من تراث السلف ترتيبًا وتنقيحًا ، وتوثّقًا وإحكامًا ، وإحاطةً بجوانب ما أُلِّف فيه . وجاء هذا الشرح مُشتملًا على فوائد شتى من : حَلِّ مُشكَلٍ ، وتفسير غريب ، وبيان حُكْمٍ ، وما إلى ذلك مما يَمُتُّ إلى فقه الحديث .

وهو في هذا الكتاب ينحو منحى المُحدِّثين ومنْ نهج نهْجَهم من الفقهاء في التعويل على الحديث الصحيح .

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى ٧ / ٧٦ .
(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ٢ / ١٩٣ .

«وإنَّ كتابًا كهذا جمع إلى جلالة القدر، وعِظَمِ الفائدة؛ حُسْنَ الانتقاء، وإحكامَ الرصف، ودقّة التحرير، لا يُستغرَب انتشارُ ذكْره بين طوائف الفقهاء والمحدِّثين، وتدارسُ العلماء له على مرِّ الأجيال، والاقتباس منه، والنقل عنه، والإشادة بمؤلفه، والتنويه بعلمه وفضله»[(١)] .

ولو لمْ يكن للبغوي إلَّا هذا الكتاب خدمةً للسُّنَّة والعلم ونشْرًا للعلم؛ لكفاه أن يُشار إليه بالبنان، ويُقال: هذا في زمانه أوحد أهل الزمان.

١٨٥ - أبو الغنائم، محمد بن علي الدجاجي البغدادي:

« قال هبة الله بن المبارك السقطي: كان مُسنِدُ بغداد أبو الغنائم محمد ابن علي الدجاجي ذا وجاهةٍ وتقدُّم، وحالٍ واسعةٍ، وعهدي به وقد أخنى عليه الزمان بصروفه.

وقد قصدتُه في جماعة مُثرين لنسمع منه الحديث وهو مريض، فدخلنا عليه وهو على باريّة[(٢)]، وعليه جُبَّةٌ قد أكلتِ النارُ أكثرَها، وليس عنده ما يُساوي درهمًا، فحمل على نفسه حتى قرأنا عليه بحسب شرهنا، ثم قمنا، وقد تحمَّل المشقَّة في إكرامنا، فلما خرجنا؛ قلتُ: هل مع سادتنا ما نصرفه إلى الشيخ؟ فمالوا إلى ذلك، فاجتمع له نحو خمسة مثاقيل من ذهب، فدعوتُ ابنته وأعطيتُها، ووقفتُ لأرى تسليمها إليه، فلمّا دخلتْ وأعطتْهُ؛ لطَمَ وجْهَهُ، ونادى: وافضيحتاه، آآخذ على حديث رسول الله ﷺ عِوَضًا: « لا والله، ونهض حافيًا، فنادى: بحرمة ما بيننا إلا رجعت، فعدُتُ إليه، فبكى وقال: تفضحني مع أصحاب الحديث، الموتُ أهونُ

(١) شرح السنة للبغوي، مقدمة للشيخ شُعيب الأرناؤوط وزهير الشاويش من ١ - ٩، طبع المكتب الإسلامي.

(٢) حصيرة.

من ذلك ، فأعدتُ الذهب إلى الجماعة ، فلم يقبلوه وتصدَّقوا به »[(١)] .

١٨٦ - البَرْيَلِي وعبد الحق بن محمد بن هارون السهمي القرشي الصقلي :

جاء في « الديباج المذهب » للقاضي ابن فرحون المالكي (١/٣٥٢) في ترجمة «أبي القاسم خلف مولى يوسف بن هلول البلنسي الأندلسي المالكي المعروف بالبرالي، ويُقال: البَرْيَلي»: إنه لما ألَّف في شرح المدوَّنة واختصارها كتابًا سمَّاه « التقريب » استعمله الطلبة في المناظرة ، وانتفعوا به ، عوَّل فيه على نقْل ابن أبي زَمْنين في لفظ المدوَّنة ، ولما أكمل هذا الكتاب تأْليفًا؛ دخلتْ نسخة منه مدينة صقلية ، وكان عبد الحق بن محمد بن هارون السهمي القرشي الصقلي فقيه صقلية وعالمها لم يكن قد رحل من صقلية بعدُ ، فلما قرأه ونظر فيه إلى أقواله ، وما أدخله فيه من كتابه ؛ استحسنه وأراد شراءه ، فلم يتيسر له ثمنُه، فباع حوائج من داره واشتراه، فغلا الكتاب وتنافس فيه الناس عند ذلك .

وكان أبو الوليد بن هشام الفقيه يقول : « من أراد أن يكون فقيهًا من ليلة فعليه بكتاب البريلي » .

١٨٧ - ابن حزم :

الإمام الأوحـد ، البحر ، ذو الفنون والمعارف ، أبو محمد علي بن أحمد ابن حزم ، الفقيه الحافظ ، صاحب التصانيف ، رأسٌ في علوم الإسلام ، مُتبحِّرٌ في النقل، عديم النظير علي يُبْسٍ فيه، وفرط ظاهرية في الفروع لا الأصول، زهد في الرياسة ، ولزم منزله مُكبًّا على العلم .

قال الإمام أبو القاسم صاعد بن أحمد: كان ابن حزم أجمعَ أهل الأندلس قاطبةً لعلوم الإسلام ، وأوسعهم معرفةً مع توسُّعه في علم اللسان، ووفور حظِّه

---

(١) « فتح المغيث بشرح ألفية الحديث » للسخاوي ١ / ٣٤٧ .

من البلاغة والشعر ، والمعرفة بالسير والأخبار . أخبرني ابنه الفضل أنه اجتمع عنده بخطٍ أبيه أبي محمد من تواليفه أربعمائة مُجلَّد ، تشتمل على قريب من ثمانين ألف ورقة .

قال أبو عبد الله الحميدي : كان ابن حزم حافظًا للحديث ، وفقيهًا ، مُستنبطًا للأحكام من الكتاب والسنة ، مُتفننًا في علوم جمَّة ، عاملًا بعلمه ، ما رأينا مثله فيما اجتمع له من الذكاء وسرعة الحفظ وكرم النفس والتديُّن ، وكان له في الأدب والشعر نَفَسٌ واسعٌ وباعٌ طويلٌ ، وما رأيتُ من يقول الشِّعْر على البديه أسرع منه ، وشِعْرُهُ كثيرٌ ؛ جمعتُه على حروف المعجم .

قال الذهبي في السير (١٨/١٩٠) : « لم يُنصف القاضي أبو بكر ابن العربي رحمه الله شيخ أبيه في العلم ، ولا تكلَّم فيه بالقسط ، وبالغ في الاستخفاف به ، وأبو بكر فعلَى عظمتِه في العلم ، لا يبلغ رتبة أبي محمد ولا يكاد ، رحمهما الله وغفر لهما » .

قال اليسع بن حزم الغافقي ، وذكر أبا محمد ، فقال : أما محفوظه فبحرٌ عَجَّاج، وماءٌ ثجَّاج، يخرج من بحره مرجان الحكم، وينبت بثجَّاجه ألفاف النعم في رياض الهِمَم ، لقد حفظ علوم المسلمين ، وأربى على كل أهل دين ، وألَّف الملل والنِّحل .

قال الشيخ عز الدين بن عبد السلام – وكان أحد المجتهدين –: ما رأيتُ في كتُبِ الإسلام في العلم مثل « المُحلَّى » لابن حزم ، وكتاب « المُغني » للشيخ موفق الدين .

قال الذهبي : قلتُ : لقد صدق الشيخ عز الدين ، وثالثهما : « السُّنَن الكبير » للبيهقي ، ورابعهما : « التمهيد » لابن عبد البر ، فمنْ حصَّل هذه الدواوين ، وكان من أذكياء المُفتين ، وأدمن المُطالعة فيها ؛ فهو العالم حقًّا .

ولابن حزم مُصنَّفات جليلة؛ أكبرُها كتاب «الإيصال إلى فهم كتاب

الخصال » خمس عشرة ألف ورقة .

قال الإمام أبو محمد عبد الله بن محمد والد القاضي أبي بكر بن العربي : أخبرني أبو محمد ابن حزم أنَّ سببَ تعلُّمِه الفقه أنه شهد جنازة ، فدخل المسجد، فجلس ولم يركع، فقال له رجل: قمْ فصلِّ تحيةَ المسجد، وكان قد بلغ سِتًّا وعشرين سنة . قال : فقمتُ وركعتُ ، فلما رجعنا من الصلاة على الجنازة دخلتُ المسجد، فبادرتُ بالركوع، فقيل لي: اجلسْ، اجلسْ ، ليس ذا وقت صلاة ، وكان بعد العصر . قال : فانصرفتُ وقد حزنتُ ، وقلتُ للأستاذ الذي ربَّاني : دُلَّني على دار الفقيه أبي عبد الله ابن دحُّون . قال : فقصدتُه ، فأعلمتُه بما جرى ، فدلَّني على موطأ مالك ، فبدأتُ به عليه ، وتتابعتْ قراءتي عليه وعلى غيره نحوًا من ثلاثة أعوام ، وبدأتُ بالمناظرة .

ثم قال ابن العربي: صحبتُ ابن حزم سبعة أعوام، وسمعتُ منه جميع مُصنفاته سوى المُجلَّد الأخير من كتاب «الفِصَل»، وهو ستُّ مُجلَّدات.

لله ما أعلى هذه الهمة ! يبدأ في تعلُّم الفقه وهو ابن ستٍّ وعشرين سنة، فما يموت حتى يكتب المُحلَّى الذي يحتاج إليه المجتهد المطلق!!.

قال ياقوت الحموي في معجم الأدباء (٢٣٩/١٢) :

« ذُكر أن ابن حزم اجتمع يومًا مع الفقيه أبي الوليد سليمان بن خلف الباجي صاحب التواليف الكثيرة، وجرت بينهما مُناظرة في سنة (٤٤٠هـ)، فلما انقضت قال الفقيه أبو الوليد الباجي لابن حزم : تعذرني ، فإن أكثر مطالعاتي كانت على سرج الحرَّاس . قال ابن حزم : وتعذرني أيضًا ، فإنَّ أكثر مطالعاتي كانت على منائر الذهب والفضة[1] .

---

(١) أي على المصابيح المصنوعة من الذهب والفضة ، فلقد نشأ وترعرع في الثراء ، وكان وزيرًا .

قال ياقوت الحموي : أراد ابن حزم أن الغنى أضيعُ لطلب العلم من الفقر » .

لله ما أعلى هِمَّة الباجي ! وما أطيب قول ابن حزم الظاهري !

« قال ابن حزم لما أحرق المعتضد بن عبَّاد من الكتب :

فإن تحرقوا القرطاس لا تحرقوا الذي ... تضمَّنه القرطاسُ بل هو في صدري
يسيرُ معي حيثُ استقلَّت ركائبي ... وينزلُ إنْ أنزِلْ ويُدفنُ في قبري
دعونيَ من إحراقِ رقٍّ وكاغدٍ ... وقولوا بعلم كَيْ يرى الناسُ مَنْ يدري
وإلَّا فعودوا في المكاتبِ بدأةً ... فكم دون ما تبغونَ لله من سِترِ
كذاك النصارى يحرقون إذا علتْ ... أكفُّهم القرآن في مدنِ الثغرِ

وقال ابن حزم :

قالوا : تَحَفَّظْ فإنَّ الناسَ قد كثُرتْ ... أقوالُهم وأقاويلُ الورى محَنُ
فقلتُ هل عيبُهم لي غير أني لا ... أقولُ بالرأي إذْ في رأيهم فِتَنُ
وأنني مُولعٌ بالنصِّ لستُ إلى ... سواه أنحو ولا في نصره أهِنُ
يابردَ ذا القول في قلبي وفي كبدي ... ويا سروري به لو أنهم فطنوا
دعهم يعضُّوا على صمِّ الحصى كمدًا ... مَنْ مات من قوله عندي له كفنُ

وقال رحمه الله :

أنا الشمسُ في جوِّ العلوم مُنيرة ... ولكنَّ عيبي أنَّ مطلعَي الغَرْبُ
ولو أنني من جانبِ الشرقِ طالعٌ ... لجَدَّ على ما ضاع من ذكري النهْبُ
ولي نحو أكناف العراقِ صبابةٌ ... ولا غرْوَ أن يستوحش الكَلِفُ الصبُّ
فإن يُنزل الرحمنُ رحْلي بينهم ... فحينئذٍ يبدو التأسُّفُ والكربُ
هُنالك يُدرَى أنَّ للبُعدِ قصةً ... وأن كسادَ العلم آفتُهُ القُرْبُ

ولله دَرُّهُ حين يقول :

مُنايَ من الدنيا علومٌ أبُثُّها ... وأنشرُها في كلِّ بادٍ وحاضرِ
دعاءٌ إلى القرآنِ والسُّنَنِ التي ... تناسى رجالٌ ذِكْرَها في المحاضر

وألزَمُ أطرافَ الثغورِ مُجاهـدًا إذا هَيْعَةٌ ثـارتْ فـأوَّلُ نافـرِ
لِألقى حِمامِي مقبلًا غير مُدبرٍ بسُمْـر العوالـي والرقـاقِ البـواتـرِ
كفاحًا مع الكفَّارِ في حومة الوغى وأكرمُ موتٍ للفتى قتْلُ كافرِ
فيا ربّ لا تجعلْ حمامي بغيرها ولا تجعلَنّي من قطينِ المقابر»[1]

قال ابن حزم رحمه الله :

مَنْ لم يَرَ العلمَ أغلى من كلِّ شيءٍ يُصابُ
فليس يُفلحُ حتـى يُحثى عليه الترابُ

١٨٨ - أبو مروان الطُّبْني :

العالم المُحدِّث اللغوي الإمام ، عبد الملك بن زيادة التميمي القرطبي ، تلميذ ابن حزم .

روى بقرطُبة عن أبي محمد بن حزم ، وكانت له رحلتان إلى المشرق ؛ كتب فيهما عن جماعة كثيرة من أهل العلم بمكة ومصر والقيروان ، ولما رجع إلى قرطبة أملى الحديث ، فاجتمع إليه في مجلس الإملاء خلقٌ كثيرٌ ، فلما رأى كثرتهم ، أنشد :

إني إذا احْتَوَشَتْني ألفُ مَحْبَرَةٍ يكتُبْن : حدَّثني طورًا وأخبرني
نادتْ بحضرتي الأقلامُ مُعْلِنَةً هذي المفاخرُ لا قعبان من لبنِ

١٨٩ - شيخ الشافعية ، الإمام أبو إسحاق الشيرازي :

الشيخ القدوة المجتهد شيخ الإسلام ، إبراهيم بن علي الفيروز آبادي الشيرازي الشافعي ، نزيل بغداد .

قال السمعاني: هو إمام الشافعية، ومُدرِّس النِّظامية، وشيخ العصر. رحل الناس إليه من البلاد وقصدوه ، وتفرَّد بالعلم الوافر مع السيرة الجميلة

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٨ / ١٨٤ - ٢١٢ .

والطريقة المرضيَّة . جاءته الدنيا صاغرة ، فأباها واقتصر على خشونة العيش أيام حياته . صنَّف في الأصول والفروع والخلاف والمذهب ، وكان زاهدًا وَرِعًا مُتواضعًا ، ظريفًا كريمًا ، جوادًا ، طلْقَ الوجه دائمَ البِشرِ ، مليحَ المحاورةِ .

« حُكي عنه قال : كنتُ نائمًا ببغداد ، فرأيتُ النبي ﷺ ومعه أبو بكر وعمر ، فقلتُ : يارسول الله ، بلَغني عنك أحاديث كثيرة عن ناقلي الأخبار ، فأُريد أن أسمع منك حديثًا أتشرَّفُ به في الدنيا ، وأجعله ذُخْرًا للآخرة ، فقال لي : ياشيخ - وسمَّاني شيخًا ، وخاطبني به . وكان يفرح بهذا - قلْ عني : مَنْ أراد السلامة فليطلبْها في سلامة غيره »[1] .

وعنه : أنه اشتهى ثريدًا بماء باقلّاء ، قال : فما صَحَّ لي أكْله ؛ لاشتغالي بالدرس، وأخذي النوبَة[2] .

قال السمعاني : قال أصحابنا ببغداد : كان الشيخ أبو إسحاق إذا بقي مُدَّةً لا يأكل شيئًا ؛ صَعِد إلى النصرية وله بها صديق ، فكان يثرد له رغيفًا ، ويشربه بماء الباقلاء ، فربما صعد إليه وقد فرغ ، فيقول أبو إسحاق : ﴿ **تلك إذًا كرَّةٌ خاسرة** ﴾ [النازعات : ١٢] .

قال أبو بكر الشاشي : أبو إسحاق حُجَّة الله على أئمة العصر .

وقال الموفق الحنفي : أبو إسحاق أمير المؤمنين في الفقهاء .

« وقال القاضي محمد بن محمد الماهاني : إمامان ما اتفق لهما الحج ، أبو إسحاق، وقاضي القضاة الدامغاني. أما أبو إسحاق فكان فقيرًا، ولو أراده لحملوه على الأعناق. والآخر لو أراده لأمكنه على السندس والإستبرق»[3].

---

(١) صفة الصفوة ٤ / ٦٦ ، تهذيب الأسماء واللغات للنووي ٢ / ١٧٣ .
(٢) صفة الصفوة لابن الجوزي ٤ / ٦٧ ، والمجموع للنووي ١ / ٢٥ .
(٣) تهذيب الأسماء واللغات ٢ / ١٧٤ ، وطبقات السبكي ٤ / ٢٢٧ .

قال الشيخ أبو إسحاق : كنتُ أُعيد كل قياس ألف مرّة ، فإذا فرغتُ أخذتُ قياسًا آخر على هذا ، وكنتُ أُعيد كل درس ألف مرة ، فإذا كان في المسألة بيت يُستشهد به حفظتُ القصيدة التي فيها البيت .

قال أبو العباس الجرجاني القاضي : كان أبو إسحاق لا يملك شيئًا ، بلغ به الفقر ، حتى كان لا يجد قوتًا ولا ملبسًا ، كنا نأتيه وهو ساكن في القطيعة ، فيقوم لنا نصف قومة ؛ كي لا يظهر منه شيء في العرْي ، وكنتُ أمشي معه ، فتعلّق به باقلاني ، وقال : ياشيخ ، كسرتني وأفقرتني ! فقلنا : وكم لك عنده ؟ قال : حبّتان من ذهب أو حبتان ونصف .

قال أبو بكر بن الخاضبة: سمعتُ بعض أصحاب أبي إسحاق يقول: رأيتُ الشيخ كان يُصلي عند فراغ كل فصل من « المُهذَّب »[(١)] .

قال الذهبي: «درس الشيخ بالنظاميّة بعد تمنُّع، ولم يتناول جامكية[(٢)] أصلًا ، وكان يقتصر على عمامة صغيرة وثوب قُطني ، ويقنع بالقوت ، وكان الفقيه رافعُ الحمَّال رفيقهِ في الاشتغال ، فيحمل شطرَ نهارِه بالأجرة ، ويُنفق على نفسه وعلى أبي إسحاق ، ثم إنَّ رافعًا حجَّ وجاور ، وصار فقيه الحرم في حدود الأربعين وأربعمائة .

ومات أبو إسحاق، ولم يُخلِّف درهمًا، ولا عليه درهم. وكذا فليكن الزهد ، وما تزوَّج فيما أعلم . وبحسن نيَّته في العلم اشتهرت تصانيفه في الدنيا، «كالمهذّب»، و «التنبيه»، و «اللمع في أصول الفقه»، و«شرح اللمع».

قال السمعاني : « لما قدم أبو إسحاق نيسابور رسولًا ؛ تَلَقَّوْه ، وحمل إمام الحرمين غاشيته ، ومشى بين يديه ، وقال : أفتخر بهذا . وكان عامَّة المدرسين بالعراق والجبال تلامذته وأتباعه ، وكفاهم بذلك فخرًا .

---

(١) طبقات السبكي ٤ / ٢١٧ .

(٢) رواتب خُدَّام الدولة .

وعن أبي إسحاق قال : خرجتُ إلى خراسان ، فما دخلتُ بلدة إلا كان قاضيها أو خطيبها أو مُفتيها من أصحابي » .

إنْ قيلَ ماتَ فلم يَمُتْ مَنْ ذِكْرُه حيٌّ على مَرِّ الليالي باقي »

١٩٠ - المُقرىء المغربي ، أبو القاسم الهُذَلي :

« الأستاذ الكبير الرحَّال ، والعَلَمُ الشهير المقرىء الجوَّال ، أحد مَنْ طوَّف الدنيا في طلب القراءات . واسمه : يوسف بن علي بن جُبَارَة المغربي البَسكريّ ، و (بسكرة) : بُليدة بالمغرب .

رحل من أقصى المغرب إلى بلاد الترك، وكانت رحلته في سنة (٤٢٥) وبعدها، فقرأ بحرَّان على أبي القاسم الزيدي صاحب النقَّاش ، وهو أكبر شيوخه ، وعلى الأهوازي بدمشق ، وعلى إسماعيل بن عمرو بن راشد الحدَّاد وجماعة بمصر ، وعلى مهدي بن طرارة ... »[(١)]

وقال ابن الجزري : « طاف البلاد في طلب القراءات ، فلا أعلم أحدًا في هذه الأمة رحل في القراءات رحلته ، ولا لقي من الشيوخ مثله . قال في كتابه «الكامل في القراءات»: فجملة منْ لقيتُ في هذا العلم ثلاثمائة وخمسة وستون شيخًا من آخر المغرب إلى باب فَرْغانة يمينًا وشمالًا وجبلًا وبحرًا، ولو علمتُ أحدًا يُقَدَّم عليَّ في هذه الطريقة في جميع بلاد الإسلام؛ لقصدته.

قال الأمير ابن ماكولا: كان يدرس علم النحو، ويفهم الكلام والفقه، وكان قد قرَّره الوزير نظام الملك في مدرسته بنيسابور ، فقعد سنين وأفاد ، وكان مُقدَّمًا في النحو والصرف وعِلَل القراءات ، وكان يحضر مجلس أبي القاسم القشيري ويأخذ من الأصول ، وكان القشيري يُراجعه في مسائل النحو والقراءات ويستفيد منه »[(٢)] .

---

(١) معرفة القراء الكبار للذهبي ١ / ٤٢٩ - ٤٣٣ .

(٢) غاية النهاية في طبقات القرَّاء ٢ / ٣٩٧ - ٤٠١ .

١٩١ - الإمام الخيَّاط :

القدوة المقرىء ، شيخ الإسلام ، أبو منصور ، محمد بن أحمد بن علي البغدادي الخيَّاط .

جلس لتعليم كتاب الله دهرًا ، وتلا عليه أُممٌ .

قال السمعاني : صالح ثقة ، عابد مُلقِّن ، له ورد بين العشاءين بسُبع[١] .

وقال آخر : كان إمام مسجد ابن جَرْدة بحريم دار الخلافة ، لقَّن العُميان دهرًا لله ، وكان يسأل لهم ، ويُنفق عليهم ؛ بحيث إنّ ابن النجار نقل في « تاريخه » أن أبا منصور الخيَّاط بلغ عدد مَنْ أقرأهم من العميان سبعين ألفًا ، ثم قال : هكذا رأيتُ بخطٍّ أبي نصر اليُونارتي الحافظ .

قال الذهبي: «هذا مُستحيل، والظاهر أنه أراد أن يكتب (نَفْسًا)، فسبقه القلم فخطّ (ألفًا) ، ومَنْ لقّن القرآن لسبعين ضريرًا ؛ فقد عمل خيرًا كثيرًا .

ونقل السِّلَفي عن علي بن الأيسر العُكْبري ، قال : لم أرَ أكثر خلقًا من جنازة أبي منصور ، رآها يهودي ، فاهتال[٢] لها وأسلم »[٣] .

١٩٢ - الرَّوَّاسي أبو الفتيان :

الشيخ الإمام ، الحافظ المُكثر الجوَّال ، أبو الفتيان ، عمر بن عبد الكريم بن سعدويه الدِّهسْتاني ، الرواسي .

قال الذهبي « طوَّف في هذا الشأن خراسان والحرمين والعراق ومصر والشام والسواحل ، وكان بصيرًا بهذا الشأن مُحققًا » .

---

(١) أي كان يقرأ سبعًا كاملًا من القرآن بين العشاءين .

(٢) ففزع .

(٣) سير أعلام النبلاء ١٩/٢٢٢ - ٢٢٣ .

وقال السمعاني في «الأنساب» (١٧٩/٦): «أحد حُفَّاظ عصره ، وكان ممن رحل وجمع وكتب بخراسان والعراق والشام والحجاز ومصر والجزيرة . وقيل له : الرَّوَّاسي ؛ لأن والده كان يبيع الرؤوس بدهستان ، فاتفق دخول أبي مسعود أحمد بن محمد بن عبد الله البجلي الرازي دهستان، واشترى من والده أبي الحسن رأسًا ليأكله ، فقال له أبو الحسن : أراك رجلًا من أهل العلم ، ويقبح أن تجلس في دُكّاني ، فادخل المسجد حتى يجيئك الرأس . فلما قعد في المجلس نفَّذ إليه رأسًا حسنًا مشويًّا ، مع الخبز النظيف والخلِّ والبقل ، على يد ابنه عمر ، وكان صبيًّا صغيرًا ، فنظر أبو مسعود إلى تلك الحالة ، فاستحسن من الروَّاس ذلك ، فلما فرغ من الأكل شكر الرَّوَّاس ، وقال : أحسنتَ إليَّ ، وليس معي شيء أُكافئك ! فهل لك في أن تُسلم ابنك إليَّ حتى أُسمعه حديث رسول الله ﷺ ؟ ففرح أبوه بذلك، وحمل أبو مسعود عمر معه إلى شيوخ دهستان، وسمَّعه الحديث، وأسمعه من نفسه أيضًا شيئًا ، وانفتح عليه ، وطابت له هذه الصنعة ، ورحل بنفسه بعد ذلك ، وأكثر من الحديث ، حتى سمع ما لم يسمع أقرانه » .

« قال أبو جعفر بن أبي علي الحافظ : ما رأيتُ في تلك الديار أحفظ منه ، لا بل في الدنيا كلها ، كان كتابًا جوَّالًا ، دار الدنيا لطلب الحديث ، لقيتُه بمكة ، ورأيتُ الشيوخ يُثنون عليه ، ويُحسنون القول فيه ، ثم لقيتُه بجرجان ، وصار من إخواننا .

قال ابن نقطة : سمعتُ غير واحد يقولون : إنَّ أبا الفتيان سمع من ثلاثة آلاف وستمائة شيخ .

قال خزيمة بن علي المروزي : سقطتْ أصابع عمر الرواسي في الرحلة من البرد »[1] .

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٩ / ٣١٨ .

لله دَرُّهُ ! أَلِفَ الارتحال والاغتراب ، حتى صارت الغُربة له وطنًا ، والنُّقلة له مسكنًا .

ومُشَتَّتِ العزماتِ لا يأوي إلى سكنٍ ولا أهلٍ ولا جيران
أَلِفَ النَّوى حتى كأنَّ رحيلَهُ للبين رحلتُهُ إلى الأوطان

لله دَرُّهُ ! كم تحمَّل ، وكم تجشَّم ، وكم صبر ! تسقط أصابعه من البرد في تحصيل العلم ، فالعلم عنده أغلى مما فقد !! لله هِمَّتُه العليَّة ، وشوقه الجارف للعلم !!

حدَّث عنه شيخه أبو بكر الخطيب وشيخه ابن ماكولا . وهذا يدلُّ على رفعته في المعرفة وشرف مقامه، حتى احتاج إلى علمه شيوخه الفحول.

قال ابن ماكولا : كتب عني الرواسي وكتبتُ عنه ، ووجدتُه ذكيًّا .

قال السمعاني: سمعتُ أبا الفضل أحمد بن محمد السرخسي يقول: لما قدم عمر بن أبي الحسن علينا ؛ أملى ، فحضر عدَّة ، فقال : أنا أكتب أسماء الجماعة على الأصل ، وسألهم وأثبت ، ففي المجلس الثاني أخذ القلم ، وكتبهم كلهم على ظهر قلب ، وما سألهم ، فقيل : كانوا سبعين نَفْسًا .

قال عبد الغافر بن إسماعيل: عمر الرواسي شيخ مشهور عارف بالطرق ، كتب الكثير ، وجمع الأبواب وصنَّف ، وكان سريع الكتابة ، وكان على سيرة السلف ؛ مُعيلًا مُقِلًّا ، خرج من نيسابور إلى طوس ، فأنزله أبو حامد الغزالي عنده وألزمه ، وقرأ عليه الصحيح ، ثم شرحه .

وقال الذهبي أيضًا : قدم طوس في آخر عمره ، فصحَّح عليه الغزالي « الصحيحين »[1] .

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٩ / ٣١٨ ، ٣١٩ .

كلام طيِّبٌ للرامهرمزي :

قال الرامهرمزي في كتابه « المُحدِّث الفاصل » حول الرحلة في طلب العلم : « لو عرف الطاعن على أهل الرحلة مقدار لذة الراحل في رحلته ، ونشاطه عند فصوله من وطنه ، واستلذاذ جميع جوارحه عند تصرُّف لحظاته في المناهل والمنازل، والبُطنان والظواهر، والنظر إلى دساكر الأقطار وغياضها، وحدائقها ورياضها ، وتصفح الوجوه ، واستماع النغم ، ومشاهدة ما لم يرَ من عجائب البلدان ، واختلاف الألسنة والألوان ، والاستراحة في أفياء الحيطان ، وظِلال الغيطان ، والأكل في المساجد ، والشرب من الأودية ، والنوم حيث يُدركه الليل ، واستصحاب مَنْ يُحِبُّ في ذات الله بسقوط الحشمة ، وترْك التصنُّع ، وكُنهِ ما يصل إلى قلبه من السرور عن ظفره ببُغيته ، ووصوله إلى مقصده ، وهجومه على المجلس الذي شمَّر له ، وقطع الشُّقَّة إليه - لَعَلِمَ أن لذَّات الدنيا مجموعةٌ في محاسن تلك المشاهد ، وحلاوة تلك المناظر، واقتناص تلك الفوائد؛ التي هي عند أهلها أبهى من زهر الربيع، وأحلى من صوت المزامير ، وأنفس من ذخائر العقيان ، من حيث حُرمها الطاعن وأشباهه .. » انتهى .

١٩٣ - الغزالي :

الشيخ الإمام البحر ، حُجَّة الإسلام ، أُعجوبة الزمان ، زين الدين أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الطَوسي الغزّالي ، صاحب التصانيف .

قال الذهبي : « تفقَّه ببلده أوَّلًا ، ثم تحوَّل إلى نيسابور في مرافقة جماعة من الطلبة ، فلازم إمام الحرمين ، فبرع في الفقه في مُدَّة قريبة ، ومهر في الكلام والجدل ، حتى صار عين المناظرين ، وأعـاد للطلبة ، وشرع في التصنيف ، فما أعجب ذلك شيخه أبا المعالي ، ولكنه مُظْهِرٌ للتبجح به ، ثم سار أبو حامد إلى المخيم السلطاني ، فأقبل عليه نظام الملك الوزير ، وسُرَّ

بوجوده ، وناظر الكبار بحضرته ، فانبهر له وشاع أمْره ، فولّاه النظام تدريس نظامية بغداد وسِنُّهُ نحو الثلاثين ، وأخذ في تأليف الأصول والفقه والكلام والحكمة، وأدخله سيلانُ ذهنه في مضايق الكلام، ومزالِّ الأقدام، ولله سرٌّ في خلقه »(١) .

قال فيه إمام الحرمين : « الغزالي بحر مُغرِق ، وإلْكيا أسدٌ مطرق ، والخوافي(٢) نارٌ تحرق » .

صنف الغزالي « الإحياء » ، وفيه من الأحاديث الباطلة جُملة ، وفيه خير كثير، لولا ما فيه من آداب ورسوم وزهد من طرائق الحكماء، ومُنحرفي الصوفية ، نسأل الله علمًا نافعًا .

الغزالي إمام كبير ، وما من شرط العالم أنه لا يُخطىء .

قال الذهبي: رحم الله الإمام أبا حامد، فأين مثله في علومه وفضائله! ولكن لا ندَّعي عصمته من الغلط والخطأ ، ولا تقليدَ في الأصول .

قال أبو بكر بن العربي : شيخنا أبو حامد بَلع الفلاسفة وأراد أن يتقيَّأهم ؛ فما استطاع .

قال ابن النجار : أبو حامد إمام الفقهاء على الإطلاق ، وربَّانيُّ الأمة بالاتفاق، ومجتهدُ زمانه، وعينُ أوانه. برع في المذهب والأصول والخلاف، حتى قيل : إنه ألَّف « المنخول » ، فرآه أبو المعالي ، فقال : دفنتني وأنا حيٌّ ، فهلَّا صبرتَ الآن(٣) ، كتابُك غطَّى على كتابي ..

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٩ / ٣٢٢ - ٣٢٣ .

(٢) أحمد بن محمد بن المظفر الخوافي الشافعي ، وكان مشهورًا بين العلماء بحسن المناظرة .

(٣) أي فهلَّا صبرت حتى أموت ، كما جاء في المنتظم ٩ / ١٦٩ .

قال الشيخ عبد الغافر في « السياق » :

« كانت خاتمة أمر الشيخ أبي حامد إقبالَهُ على طلب الحديث ، ومجالسة أهله ، ومُطالعة الصحيحين ، ولو عاش لسبق الكلَّ في ذلك الفنِّ بيسير من الأيام »(١) .

« قال الإمام أسعد المِيهني : سمعتُ الغزالي يقول : قُطِعت علينا الطريق ، وأخذ العيّارون جميع ما معي ومَضَوْا ، فتبعتُهم ، فالتفتَ إليَّ مُقدّمُهم ، وقال : ارجع ويحك ، وإلا هلكت ، فقلتُ له : أسألك بالذي ترجو السلامة منه إن تَرُدَّ عليَّ تعليقتي فقط ، فما هي بشيءٍ تنتفعون به . فقال لي : وما هي تعليقتُك ؟ فقلتُ : كُتُبٌ في تلك المِخلاة ، هاجرتُ لسماعها وكتابتها ومعرفة علمها ، فضحك وقال : كيف تدَّعي أنك عرفتَ علمها ، وقد أخذناها منك فتجرَّدت من معرفتها وبقيتَ بلا علم ؟! ثم أمر بعض أصحابه ، فسلَّم إليَّ المخلاة .

قال الغزالي : هذا مُستنطق ؛ أنطقه الله ليُرشدني به في أمري ، فلما وافيتُ طُوس أقبلتُ على الاشتغال ثلاث سنين ، حتى حفظتُ جميع ما علَّقتُه وصرتُ بحيث لو قطع عليَّ الطريق لم أتجرَّد من علمي »(٢) .

١٩٤ - الحافظ محمد بن طاهر المقدسي :

الحافظ الجوَّال ، أبو الفضل الأثري الظاهري . سمع بالقدس ومصر ، والحرمين والشام، والجزيرة والعراق، وأصبهان والجبال، وفارس وخراسان، وكتب ما لا يُوصف كثرةً بخطِّه ، وصنَّف وجمع ، وبرع في هذا الشأن ، وعُني به أشدَّ عناية .

---

(١) انظر موقف العلماء من الغزالي وما انتقدوه عليه في جمعنا « عبق النسرين في ذكر المُجدِّدين » .

(٢) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي ٣ / ١٠٣ .

قال يحيى بن منده : كان ابن طاهر أحد الحفَّاظ ، عالمًا بالصحيح والسقيم ، كثير التصانيف ، لازمًا للأثر .

وقال السلفي: سمعتُ محمد بن طاهر يقول: كتبتُ «الصحيحين»، و «سنن أبي داود» سبع مرات بالأجرة ، وكتبتُ « سنن ابن ماجه » عشر مرات بالريِّ .

قال ابن طاهر : بُلْتُ الدمَ في طلب الحديث مرتين ؛ مرة ببغداد ، وأخرى بمكة ، كنتُ أمشي حافيًا في الحرِّ ، فلحقني ذلك ، وما ركبتُ دابةً قطُّ في طلب الحديث ، وكنتُ أحمل كُتُبي على ظهري ، وما سألتُ في حال الطلب أحدًا ، كنتُ أعيش على ما يأتي من غير سؤال .

وكان ابن طاهر يمشي في ليلة واحدة قريبًا من سبعة عشر فرسخًا .

قال عبد الله بن محمد الأنصاري الهروي : ينبغي لصاحب الحديث أن يكون سريع القراءة ، سريعَ النسخ ، سريع المشي ، وقد جمع الله هذه الخصال في هذا الشابِّ ، وأشار إلى ابن طاهر ، وكان بين يديه .

قال ابن طاهر : رحلتُ من طوس إلى أصبهان لأجل حديث أبي زرعة الذي أخرجه مسلم عنه(١)، ذاكرني بعض الرحَّالة بالليل، فلما أصبحتُ؛ سرتُ إلى أصبهان ، ولم أحلُل عني حتى دخلتُ على الشيخ أبي عمرو ، فقرأتُه عليه ، عن أبيه ، عن القطان ، عن أبي زرعة ، ودفع إليَّ ثلاثة أرغفة وكُمثراتين ، فما كان لي قوتٌ تلك الليلة غيره ، ثم لزمتُه إلى أن حصَّلتُ ما أُريد ، ثم خرجتُ إلى بغداد .

قال ابن طاهر : « كنتُ يومًا أقرأ على أبي إسحاق الحبَّال جزءًا ،

---

(١) وهو حديث عبد الله بن عمر ، قال : كان من دعاء رسول الله ﷺ : « اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك ، وتحوُّل عافيتك ، وفجاءة نقمتك ، وجميع سخطك » .

فجاءني رجُلٌ من أهل بلدي ، وأسرَّ إليَّ كلامًا قال فيه : إنَّ أخاك قد وصل من الشام، وذلك بعد دخول الترك بيت المقدس، وقتْل الناس بها، فأخذتُ في القراءة ، فاختلطتْ عليَّ السطور ، ولم يُمكني أقرأ ، فقال أبو إسحاق : ما لك ؟ قلتُ : خير ، قال : لا بُدَّ أن تُخبرني ، فأخبرتُه ، فقال : وكم لك لم ترَ أخاك ؟ قلتُ : سنين ، قال : ولِمَ لا تذهب إليه ؟ قلتُ : حتى أُتمَّ الجزء ، قال : ما أعظم حرصكم ياأهل الحديث ، قد تمَّ المجلس ، وصلى الله على محمد ، وانصرف .

وأقمتُ بتنِّيس مُدَّةً على أبي محمد بن الحدَّاد ونُظرائه ، فضاق بي ، فلم يبق معي غير درهم ، وكنتُ أحتاج إلى حبر وكاغد ، فتردَّدتُ في صرفه في الحبْر أو الكاغد أو الخبز ، ومضى على هذا ثلاثة أيام لم أطعم فيها ، فلما كان بكرة اليوم الرابع ؛ قلتُ في نفسي لو كان لي اليوم كاغد ، لم يُمكنني أن أكتب من الجوع، فجعلتُ الدرهم في فمي، وخرجتُ لأشتري خبزًا ، فبلعتُه ، ووقع علي الضحك ، فلقيني صديقٌ وأنا أضحك ، فقال : ما أضحكك ؟ قلتُ : خير ، فألحَّ عليَّ ، وأبيْتُ أن أخبره ، فحلف بالطلاق لتصدقني فأخبرتُه ، فأدخلني منزله ، وتكلَّف أطعمة ، فلما خرجنا لصلاة الظهر ؛ اجتمع به بعض وكلاء عامل تنيس ابن قادوس ، فسأل عني ، فقال : هو هذا ، قال : إنّ صاحبي منذ شهر أمر بي أن أُوصل إليه كل يوم عشرة دراهم قيمتها رُبْع دينار، وسهوتُ عنه، فأخذ منه ثلاثمائة، وجاء بها»[1] .

« سمع ابن طاهر ببلده ، وبمكة ، وبغداد ، ومصر ، والإسكندرية ، وتنِّيس، ودمشق، وحلب، والجزيرة، والرحبة، وصور، وأصبهان، ونيسابور ، وجرجان ، وآمد ، واستراباذ ، وبوشنج ، والبصرة ، والدِّينور ، والريِّ ، وسرخس ، وشيراز ، وقزوين ، والكوفة ، والموصل ، ومرو ، وكرمان ،

(١) سير أعلام النبلاء ١٩ / ٣٦١ - ٣٦٧ .

ومروالروذ ، ونهاوند ، وهمذان ، والحديثة ، وواسط ، وساوة ، وأسد آباد، والأنبار، وإسفرايين، وبآمل طبرستان، والأهواز، وبسطام، ويزدجرد.

فهذه أربعون مدينة قد سمع فيها الحديث، وسمع في بلدان أخرى».

١٩٥ - الإمام الفقيه ابن فُطَيْمَة :

المُسنِد القاضي، أبو عبد الله، الحسين بن أحمد بن علي الخُسْرَوْجِرْدي الشافعي ، قاضي بيهق .

قال السمعاني : « كثيرُ السماع ، حَسَنُ السيرة ، مليحُ المجالسة ، ما رأيتُ أخفَّ روحًا منه مع السخاء والبذل ، سمعتُ منه الكثير ، وكتب لي أجزاءً، ومن العجب أنه قُطعت أصابعه بكرمان من عِلَّة، فكان يأخذ القلم، ويترك الورق تحت رجله، ويُمسك القلم بكفَّيْه، فيكتب خطًّا مليحًا سريعًا، يكتب في اليوم خمس طاقات خطًّا واسعًا . تفقّه بمرو على جدَّيْ أبي المظفّر ، وحجَّ ، خرجتُ نحو أصبهان ، فتركتُ القافلة ، ومضيتُ إلى (خُسْرَوْجِرْد) مع رفيق لي رَاجِلَيْن ، فدخلنا داره ، وسلَّمنا على أصحابه ، فما التفتوا علينا ، ثم خرج الشيخ ، فاستقبلناه ، فأقبل علينا ، وقال : لِمَ جئتم ؟ قلنا : لنقرأ عليك جزأين من « معرفة الآثار » للبيهقي . فقال : لعلكم سمعتم الكتاب من الشيخ عبد الجبَّار ، وفاتكم هذا القدر ؟ قلنا : بلى ، وكان الجزآن فوتًا لعبد الجبار ، فقال : تكونون عندي الليلة ، فإنَّ لي مُهمًّا ، أُريد أن أخرج إلى (سَتْرَوار) ، فإنَّ ابني كتب إلَيَّ أن ابن أُستاذي جاء في هذه القافلة ، فأُريد أن أُسلِّم عليه ، وأسأله أن يُقيم عندي أيامًا ، وسمَّاني ، فتبسَّمتُ ، فقال لي : تعرفه ؟ قلتُ : هو بين يديك ، فقام ونزل وبكى ، وكاد أن يُقبِّل رِجلَيَّ ، ثم أخرج الكتب والأجزاء ، ووهبني بعض أصوله ، فكنتُ عنده ثلاثة أيام »[١] .

(١) سير أعلام النبلاء ٢٠ / ٦٠ - ٦٢ .

١٩٦ - أبو الوقت :

الشيخ الإمام الزاهد الخيِّر مُسنِد الآفاق ، عبد الأول بن عيسى بن شعيب السجزي. حدَّث بخراسان وأصبهان وكرمان وهمذان وبغداد، وتكاثر عليه الطلبة ، واشتهر حديثه ، وبعُد صيتُه ، وانتهى إليه عُلُوُّ الإسناد .

قال السمعاني : « استسعد بصحبة الإمام عبد الله الأنصاري ، وخدمه مُدَّةً ، وسافر إلى العراق وخوزستان والبصرة ، نزل بغداد برباط البسطامي فيما حكاه لي ، وسمعتُ منه بهَراة ومالين ، وكان صبورًا على القراءة ، مُحِبًّا للرواية ؛ حدَّث بالصحيح ومُسنَد عبد والدارمي عدَّة نُوَب ، وسمعتُ أن أباه سمَّاه محمدًا، فسمَّاه عبد الله الأنصاري عبد الأول، وكنَّاه بأبي الوقت ، ثم قال : الصوفيّ ابن وقته .

وقال زكي الدين البرزالي : طاف أبو الوقت العراق وخوزستان ، وحدَّث بهراة ومالين ، وبُوشنج وكرمان وَيزْد وأصبهان ، والكرج وفارس ، وهمذان ، وقعد بين يديه الحفَّاظ والوزراء ، وكان عنده كُتُبٌ وأجزاء ، سمع عليه مَنْ لا يُحصى ولا يُحصر .

وقال ابن الجوزي : كان صبورًا على القراءة ، وكان صالحًا ، كثير الذِّكْر والتهجُّد والبكاء ، على سمْت السلف »[١] .

١٩٧ - الحافظ أبو مروان الباجي ، محمد بن أحمد :

رحل من سبتة في البحر ، في المُحرَّم في يوم الأربعاء السابع منه من عام (٦٣٤ هـ) ، ووصل مَرْسى عكا في عَشِيِّ يوم الجمعة الثاني عشر من شعبان من العام المذكور – أي بقي في رحلته هذه إلى الشرق أكثر من سبعة أشهر في البحر – وتوجَّه منها إلى دمشق ، فوافاها في سابع شهر رمضان

(١) سير أعلام النبلاء ٢٠ / ٣٠٣ – ٣٠٧ .

من العام المذكور، فسمع بها على أبي عمرو بن الصلاح كتاب علوم الحديث، وعلى غيره ، وسُمِع عليه بها وبغيرها من بلاد الشرق ، وأجَلَّه أهلها ، وبالغوا في مبرَّته وإكرامه .

١٩٨ - الحافظ أبو الوليد الباجي، سليمان بن خلف الأندلسي القرطبي :

« كان أصلُه من بطليوس ، ثم انتقل إلى باجة الأندلس ، وكان أول وروده الأَنْدلس مُقلًا من دنياه ، حتى احتاج في سفره إلى القصد بشعره ! وآجر نفسه مُدَّة مقامه ببغداد لحراسة درب ، فكان يستعين بإجارته على نفقته ، وبضوئه على مطالعته .

ثم ورد الأندلس ، وحاله ضيِّقة ، فكان يتولَّى ضرْب ورق الذهب للغزل والإنزال ، ويعقد الوثائق ، فلقد حدَّثني ثقة من أصحابه أنه كان حينئذٍ يخرج إلينا للقراءة عليه ، وفي يديه أثرُ المطرقة وصدأ العمل ، إلى أن فشا علمُه وعُرف ، ونوَّهت الدنيا به ، وشُهِرت تواليفه ، فعُرف حقُّه ، وجاءته الدنيا، وعظُم جاهه، وأُجزلت صلاته، فاتَّسعتْ حالُه، وتوفَّر كسْبُه»[١] .

١٩٩ - إمام الحرمين، أبو المعالي الجُوَيني، عبد الملك بن عبد الله النيسابوري الشافعي الفقيه، شيخ الإمام الغزالي :

« قال الحافظ المُحدِّث الأديب عبد الغافر بن إسماعيل الفارسي تلميذه في كتابه « السياق » في تاريخ نيسابور : إمام الأئمة على الإطلاق ، حَبْرُ الشريعة ، المُجمَعُ على إمامته شرقًا وغربًا ، المُقِرُّ بفضله السراةُ والحداةُ عجمًا وعربًا ، مَنْ لم ترَ العيون مثله قبله ولا ترى بعده .

لما توفي أبوه الإمام أبو محمد الجويني ؛ كانت سِنُّه دون العشرين أو قريبًا منه ، فأقعد مكانه للتدريس ، فكان يُقيم الرسم في درسه ، ويقوم منه

(١) ترتيب المدارك للقاضي عياض ٤ / ٨٠٤ .

ويخرج إلى مدرسة البيهقي، حتى حصَّل الأصول وأصول الفقه على الأستاذ أبي القاسم الإسكافِ الإسفراييني، وكان يُواظب على مجلسه. وقد سمعتُه يقول في أثناء كلامه : كنتُ علقتُ عليه في الأصول أجزاء معدودة، وطالعتُ في نفسي مائة مُجلَّدة .

وكان يصل الليل بالنهار في التحصيل حتى فرغ منه ، ويُبكِّر كلَّ يوم قبل الاشتغال بدرس نفسه إلى مجلس الأستاذ أبي عبد الله الخبَّازي يقرأ عليه القرآن ، ويقتبس من كل نوع من العلوم ما يُمكنه ، مع مواظبته على التدريس .

ولما عاد من إقامته ومجاورته بمكة المكرمة أربع سنين يُدرِّس فيها ويُفتي ؛ بُنيت له المدرسة النظامية في نيسابور ، وأُقعد للتدريس فيها ، وبقي على ذلك قريبًا من ثلاثين سنة ، غير مُزاحم ولا مُدافَع ، مُسَلَّم له المحراب والمنبر والخطابة والتدريس ومجلس التذكير يوم الجمعة والمناظرة وهُجرت له المجالس ، وحضر درسه الأكابرُ والجمُّ العظيم من الطلبة ، وكان يقعد بين يديه كل يوم نحو من ثلاثمائة رجل من الأئمة ومن الطلبة .

وسمعتُه في أثناء كلام يقول : أنا لا أنام ولا آكل عادة ، وإنما أنام إذا غلبني النوم ، ليلًا كان أو نهارًا ، وآكل الطعام إذا اشتهيتُ الطعام أيّ وقتٍ كان ، وكان لذَّتُه ولهْوُه ونُزهتُه في مذاكرة العلم وطلب الفائدة من أي نوع كان .

وقدم إلى نيسابور الشيخ أبو الحسن علي بن فضَّال المجاشعي النحوي، فقابله إمام الحرمين بالإكرام ، وأخذ في قراءة النحو عليه والتلمذة له - وقد بلغت سِنُّ إمام الحرمين آنذاك نحو الخمسين سنة ، وغدا إمام وقته وعصره - وكان يحمله كل يوم إلى داره ، ويقرأ عليه « إكسير الذهب في صناعة الأدب» من تصنيفه، فكان أبو الحسن المجاشعي يحكي ويقول : ما رأيتُ عاشقًا للعلم مثل هذا الإمام ، فإنه يطلب العلم للعلم ، وكان

كذلك »[١] .

٢٠٠ - الحافظ الحميدي ، محمد بن فتوح الأندلسي ثم البغدادي :

تلميذ الإمام ابن حزم ، وتلميذ الخطيب البغدادي .

قال الأمير ابن ماكولا : لم أرَ مثل صديقنا الحميدي في نزاهته وعفَّته وورعه وتشاغله بالعلم ، صنَّف « تاريخ الأندلس » .

وقال إبراهيم السَّلَماسي : لم تر عيناي مثل الحميدي في فضله ونُبْله وغزارة علمه وحرصه على نشر العلم .

وقال يحيى بن البنَّاء : كان الحميدي من اجتهاده ؛ ينسخ بالليل في الحرِّ ، فكان يجلس في إجَّانة ماء[٢] ! يتبرَّد به !.

لايمنعه شيءٌ عن طلب العلم والظفر به ، فالحرُّ والبرد لا وجود لهما إذا ظفر بالعلم !!

٢٠١ - الخطيب التبريزي :

« إمام اللغة ، أبو زكريا ، يحيى بن علي بن محمد ، أحد الأعلام . ارتحل ، وأخذ الأدب عن أبي العلاء المعري ، وعُبيد الله بن علي الرقِّي ، وسمع بصُور من الفقيه سُلَيم ، وأبي بكر الخطيب ، وأقام بدمشق مُدَّةً ، ثم ببغداد ، وكثُرت تلامذته ، وأقرأ علم اللسان . أخذ عنه ابن ناصر ، والسلفي .

قال ابن نقطة : ثقة في علمه ، مُخلِّط في دينه »[٣] .

« كان سبب توجُّهه إلى أبي العلاء المعري - من تبريز إلى المعرَّة - أنه حصلت له نسخة من كتاب « التهذيب » في اللغة ، تأليف أبي منصور

---

(١) « تبيين كذب المفتري فيما نُسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري » لابن عساكر ٢٧٨ / ٢٨٣ ، طبقات الشافعية للسبكي ٥ / ١٧٤ - ١٨٠ .

(٢) هي إناء يغسل فيه الثياب .

(٣) سير أعلام النبلاء ١٩ / ٢٦٩ .

الأزهري ، في عدَّة مُجلَّدات لِطافٍ ، وأراد تحقيق ما فيها وأخْذَها عن رجل عالم باللغة ، فدُلَّ على المعرِّي ، فجعل الكتاب في مِخلاة ، وحملها على كتفه من تبريز إلى المعرَّة ، ولم يكن له ما يستأجر به مركوبًا ! فنفذ العَرَق من ظهره إليها ؛ فأثَّر فيها البَلَل ، وهي ببعض المكتبات الموقوفة ببغداد ، وإذا رآها مَنْ لا يعرف صورة الحال فيها ؛ ظنَّ أنها غريقة ، وليس بها سوى عَرق الخطيب التبريزي رحمه الله ، ورَعَى له اجتهاده في طلب العلم »[١] .

٢٠٢ - قاضي المارستان ، أبو بكر محمد بن عبد الباقي البزّاز ، الحافظ البغدادي :

قال تلميذه ابن السمعاني: «عارفٌ بالعلوم، مُتفنِّنٌ، حَسَنُ الكلام ، حُلْوُ المنطق ، مليحُ المحاورة ، ما رأيتُ أجمع للفنون منه ، نظر في كل علم ، وكان سريع النسخ ، حَسَنَ القراءة للحديث . سمعتُه يقول : ما ضيَّعتُ ساعة من عمري في لهوٍ أو لعبٍ . وسمعتُه يقول : أسرتني الروم[٢] ، وبقيتُ في الأسر سنةً ونصفًا ، وكان خمسة أشهر الغُلُّ في عنقي ، والسلاسل على يديَّ ورجليَّ ، وكانوا يقولون لي : قل : المسيح ابن الله ، حتى نفعل ونصنع في حقك ، فامتنعتُ ، وما قلتُ ، ووقتَ أنْ حُبستُ كان ثمَّ مُعلِّمٌ يُعلِّم الصبيان الخطّ بالروميَّة ، فتعلَّمت في الحبس الخطَّ الرومي »[٣] .

سبحان الله ! ما أعلى هذه الهِمَم ، لا يصرفه صارف عن العلم ولو كان القيد في عُنُقه ورجليه ويديه !

(١) « إنباه الرواة » للقفطي ٢/٢٣٣، « وفيات الأعيان » لابن خلِّكان ٢/٢٣٣ ، « معجم الأدباء » لياقوت الحموي ٢٠/٢٥ .
(٢) وكان في سفر .
(٣) ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب ١ / ١٩٣ .

٢٠٣ - المُفسِّر المُحدِّث أبو المظفر ابن السمعاني ، منصور بن محمد :

« جَدُّ أبي سعد السمعاني صاحب كتاب الأنساب » .

قال فيه السبكي : « أحدُ مَنْ طبَّق الدنيا ذِكْرُهُ ، وعَبَّق الكونَ نشْرُهُ .

خرج من مَرْو ، ودخل بغداد سنة (٤٦١ هـ) ، وناظر الفقهاء ، ثم خرج منها إلى الحجاز على غير الطريق المعتاد ، فإن الطريق كان قد انقطع بسبب استيلاء العرب ، فقُطِعَ عليه وعلى رفيقه الطريق وأُسِر ، واستمرَّ أبو المظفر مأسورًا في أيدي عرب البادية ، صابرًا إلى أن خلّصه الله تعالى ، فحكى أنه لما دخل البادية وأخذته العرب؛ كان يخرج مع جِمالِهم إلى الرعي ، قال : و لم أقل لهم أني أعرف شيئًا من العلم ، فاتفق أن مُقدَّم العرب أراد أن يتزوّج ، فقال : نخرج إلى بعض البلاد ، ليعقد هذا العقد بعضُ الفقهاء ، فقال أحد الأسرى : هذا الرجل الذي يخرج مع جِمالكم إلى الصحراء فقيه خراسان ، فاستدعوني وسألوني عن أشياء فأجبتُهم ، وكلَّمتُهم بالعربية ، فخجلوا واعتذروا ، وعقدتُ لهم العقد ، ففرحوا ، وسألوني أن أقبل منهم شيئًا ، فامتنعتُ ، وسألتُهم ، فحملوني إلى مكة في وسط السنة ، وبقيتُ بها مُجاورًا ، وصحبتُ في تلك المدة سعدًا الزنجاني .

قال الحسن بن أحمد المَرْوَزي الصوفي ، رفيق أبي المظفر إلى الحج : اكترينا حمارًا ركبه الإمام أبو المظفر من مَرْوَ إلى خَرَق ، وهي على ثلاثة فراسخ من مرو ، ، فنزلنا بها ، وقلتُ : ما معنا إلا إبريق من خزف ، فلو اشترينا آخر ، فأخرج من جيبه خمسة دراهم ، وقال : ياحسن ، ليس معي إلا هذه ، خذْ واشترِ ما شئتَ ، ولا تطلب مني بعد هذا شيئًا . قال : فخرجنا على التجريد ، وفتح الله لنا ، فكلما دخلنا بلدةً نزل على الصوفية ، وطلب الحديث من المشيخة ، فلما دخلنا مكة نزل على أحمد بن علي بن أسد الكرخي ، ودخل في صحبة سعدٍ الزنجاني ، ولم يزل معه حتّى صار

ببركته من أصحاب الحديث »[١] .

هذا والله العجب العجاب .. شيخ خراسان في طلبه للعلم والحديث والحج يقع أسيرًا ويرعى الجِمال للأعراب .. شدَّ ما قاسوا ! ما ضرَّهم ما أصابهم .. جبر الله لهم بالعلم كلَّ مصيبة !!

٢٠٤ - الحافظ اليُونارتي والباغْبَاني :

« الشيخ الإمام ، أبو نصر ، الحسن بن محمد بن إبراهيم الأصبهاني .

قال يحيى بن منده: كان حافظًا لأحاديث رسول الله ﷺ، ولأطراف من الأدب والنحو »[٢] .

«قال السمعاني: سألتُ إسماعيل الحافظ- قوَّام السُّنَّة- عن اليُونارتي ؟ فقال : رحل إلى ابن خلف الشيرازي ، وكان آخر من رحل إليه ، ثم رحل بعده عبد الرحمن بن أحمد الباغْباني مع أبيه ، فقال : دخلتُ نيْسابور وأنا أعدو إلى بيت أحمد بن خلف! فلقيتُ اليونارتي، فعاتبني وقال: تعال أُطعمك أوَّلًا ، فقدَّم طعامًا ، وأكلنا ، وأخرج مسموعاته من ابن خلف ، وقال : مات ودفنتُه ! قال عبد الرحمن : فكادت مرارتي تنشَقُّ !!»[٣] .

حسراتٌ صاحَبَتْهُم إلى قبورهم حُزنًا على فوات الشيوخ !!.

ولم يَتَّفِقْ حتى مضى لسبيلِهِ وكم حسراتٍ في بطونِ المقابر

٢٠٥ - الشيخ الإمام عبد القادر الجيلاني :

شيخ بغداد ، أبو محمد ، عبد القادر بن أبي صالح عبد الله الجيلي ، إمام الحنابلة وشيخهم في عصره .

---

(١) طبقات الشافعية ٤ / ٢١ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٩ / ٦٢١ - ٦٢٢ .

(٣) تذكرة الحفاظ للذهبي ٤ / ١٢٨٧ .

قال شيخ الحنابلة موفق الدين بن قدامة ، وسُئل عن الشيخ عبد القادر ، فقال : أدركناه في آخر عمره ، فأسكننا في مدرسته ، وكان يُعنَى بنا ، وربما أرسل إلينا ابنه يحيى ، فيُسرج لنا السراج ، وربما يُرسل إلينا طعامًا من منزله ، وكان يُصلِّي الفريضة بنا إمامًا ، وكنتُ أقرأ عليه من حفظي من كتاب الخرقي غُدْوة ، ويقرأ عليه الحافظ عبد الغني من كتاب « الهداية » في الكتاب ، وما كان أحد يقرأ عليه في ذلك الوقت سوانا ، فأقمنا عنده شهرًا وتسعة أيام ، ثم مات وصلَّيْنا عليه ليلًا في مدرسته ، ولم أسمع عن أحد يحكى عنه من الكرامات أكثر مما يُحكى عنه ، ولا رأيتُ أحدًا يُعظِّمُه الناس للدين أكثر منه ، وسمعنا عليه أجزاء يسيرة .

قال ابن النجّار في « تاريخه » : « دخل الشيخ عبد القادر بغداد في سنة ثمان وثمانين وأربعمائة، فتفقَّه على ابن عقيل، وأبي الخطاب؛ والمخرِّمي، وأبي الحسين ابن الفرَّاء ، حتى أحكم الأصول والفروع والخلاف ، وسمع الحديث ، وقرأ الأدب على أبي زكريا التبريزي ، واشتغل بالوعظ إلى أنْ برَّز فيه ، ثم لازم الخلوة والرياضة والمجاهدة والسياحة والمقام في الخراب والصحراء ، وصحب الدَّبَّاس ، ثم إن الله أظهره للخلق ، وأوقع له القبول العظيم ، فعقد مجلس الوعظ في سنة إحدى وعشرين ، وأظهر الله الحكمة على لسانه ، ثم درَّس ، وأفتى ، وصار يُقصد بالزيارة ، وصنَّف في الأصول والفروع ، وله كلام على لسان أهل الطريقة عالٍ . وكتب إليَّ عبد الله ابن أبي الحسن الجُبَّائي : قال لي الشيخ عبد القادر : طالبتني نفسي يومًا بشهوة ، فكنتُ أُضاجرها ، وأدخل في درب ، وأخرج من آخر ، أطلب الصحراء ، فرأيتُ رقعة مُلقاةً ، فإذا فيها : ما للأقوياء والشهوات ، وإنما خُلِقتِ الشهوات للضعفاء . فخرجتِ الشهوة من قلبي .

قال: وكنتُ أقتات بخرّوب الشوك وورق الخسّ من جانب النهر»[1].

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٠ / ٤٤٤ .

قال ابن رجب الحنبلي في «ذيل طبقات الحنابلة» (١/٢٩٨): «قال الشيخ عبد القادر : وكنتُ أقتات بخُرْنوب الشوك ، وقمامة البقل ، وورق الخسّ من جانب النهر والشطّ ، وبلغت الضائقة في غلاء نزل ببغداد إلى أن بقيتُ أيامًا لم آكل فيها طعامًا ، بل كنتُ أتتبَّع المنبوذات أطعمها ، فخرجتُ يومًا من شدَّة الجوع إلى الشط ، لعلي أجد ورق الخسٍّ أو البقل ، أو غير ذلك ، فأتقوَّت به ، فما ذهبتُ إلى موضع إلَّا وغيري قد سبقني إليه ، وإنْ وجدتُ أجدُ الفقراء يتزاحمون عليه فأتركه حبًّا ، فرجعتُ أمشي وسط البلد ، فما أُدرك منبوذًا إلَّا وقد سُبِقتُ إليه ، حتى وصلتُ إلى مسجد ياسين بسوق الرياحين ببغداد، وقد أجهدني الضعفُ، وعجزتُ عن التماسك، فدخلتُ إليه ، وقعدتُ في جانب منه ، وقد كدتُ أُصافحُ الموتَ ؛ إذ دخل شابٌّ أعجميٌّ ومعه خبزٌ صافٍ وشواء، وجلس يأكل ، فكنتُ أكاد كلما رفع يده باللقمة أفتح فمي من شدة الجوع ،حتى أنكرتُ ذلك على نفسي، فقلتُ : ما هذا ؟ وقلتُ : ما هاهنا إلا الله أو ما قضاه من الموت ؛ إذ التفتَ إليَّ الأعجميُّ فرآني ، فقال : بسم الله ياأخي ، فأبيْتُ ، فأقسمَ عليَّ ، فبادرتُ نفسي فخالفتُها ، فأقسمَ أيضًا ، فأجبتُه ، فأكلتُ مُتقاصرًا ، فأخذ يسألني : ما شغلك ؟ ومنْ أين أنت ؟ وبمن تعرف ؟ فقلت : أنا مُتفقِّهٌ من جيلانَ . فقال : وأنا من جيلان ، فهل تعرف شابًّا جيلانيًّا يُسمى عبدَ القادر ، يُعرف بسبط أبي عبد الله الصومعي الزاهد ؟ فقلتُ : أنا هـو ، فاضطرب وتغيَّر وجهُه ، وقال : والله لقد وصلتُ إلى بغداد ومعي بقية نفقة لي ، فسألتُ عنك ، فلم يُرشدني أحدٌ ، ونفدت نفقتي ، ولي ثلاثة أيام لا أجد ثمن قوتي إلا ما كان لك معي ، وقد حَلتْ لي الميتةُ ، وأخذتُ من وديعتك هذا الخبز والشواء ، فكُلْ طيِّبًا ، فإنما هو لك ، وإنما أنا ضيفُك الآن بعد أن كنت ضيفي ، فقلتُ له : وما ذاك ؟ فقال : أمُّك وجَّهت لك معي ثمانية دنانير، فاشتريتُ منها للاضطرار ؛ فأنا مُعتِذرٌ إليك ،

فسكَّنْتُه ، وطيَّبتُ نفسه ، ودفعتُ إليه باقي الطعام وشيئًا من الذهب رسم النفقة ، فقَبِلَه وانصرف » .

قال الذهبي في سير أعلام النبلاء (٢٠/٤٤٥- ٤٤٧) :

« قال ابن النجَّار : كتب إليّ عبد الله بن أبي الحسن الجبَّائي قال : قال لي الشيخ عبد القادر : كنتُ في الصحراء أُكرِّر في الفقه وأنا في فاقة ، فقال لي قائل لم أرَ شخصه : اقترضْ ما تستعين به على طلب الفقه ، فقلتُ : كيف أقترض وأنا فقير ولا وفاءَ لي ؟ قال : اقترض وعلينا الوفاء ، فأتيتُ بقَّالًا، فقلتُ: تعاملني بشرط إذا سهَّل الله أعطيتُك، وإنْ متُّ تجعلني في حلٍّ ، تُعطيني كل يوم رغيفًا ورشادًا ، فبكى وقال : أنا بحكمك ، فأخذتُ منه مُدَّةً ، فضاق صدري ، فأظنّ أنه قال : فقيل لي : امض إلى موضع كذا ، فأيّ شيءٍ رأيتَهُ على الدَّكة ؛ فخذْهُ وادفعْه إلى البقال ، فلما جئت رأيتُ قطعة ذهبٍ كبيرة ، فأعطيتُها البقلي ، ولحقني الجنون مرّةً ، وحملتُ إلى المارستان، فطرقتني الأحوال، حتى حسبوا أني متُّ ، وجاءوا بالكفن ، وجعلوني على المغتسل ، ثم سرِّي عني وقمتُ ، ثم وقع في نفسي أن أخرج من بغداد لكثرة الفتن ، فخرجتُ إلى باب الحلبة ، فقال لي قائل : إلى أين تمشي ؟ ودفعني دفعة خررتُ منها ، وقال : ارجع ، فإن للناس فيك منفعة . قلتُ : أُريد سلامة ديني ، قال : لك ذاك ، ولم أرَ شخصه ، ثم بعد ذلك طرقتني الأحوال ، فكنتُ أتمنَّى مَنْ يكشفها لي، فاجتزتُ بالظفرية[1]، ففتح رجل داره، وقال: ياعبد القادر، أيش طلبتَ البارحة ؟ فنسيتُ ، فسكتُّ ، فاغتاظ ودفع الباب في وجهي دفعةً عظيمة ، فلمَّا مشيتُ ذكرتُ ، فرجعتُ أطلب الباب فلم أجده . قال : وكان حمّادا الدّباس ، ثم عرفتُه بعدُ ، وكشف لي جميع ما كان يشكل عليَّ ، وكنتُ

---

(١) محلة بشرقي بغداد كبيرة .

إذا غبتُ عنه لطلب العلم وجئتُ ، يقول : أيش جاء بك إلينا ، أنت فقيه ، مُرَّ إلى الفقهاء ، وأنا أسكتُ . فلما كان يوم جمعة ، خرجتُ مع الجماعة في شِدَّة البرد ، فدفعني ؛ ألقاني في الماء ، فقلتُ : غُسْلُ الجمعة بسم الله ، وكان عليَّ جُبَّة صوفٍ ، وفي كُمِّي أجزاء ، فرفعتُ كُمِّي ؛ لئلا تهلك الأجزاء ، وخلّوْني ومشوْا ، فعصرت الجُبَّة وتبعتُهم ، وتأذَّيْتُ بالبرد كثيرًا ، وكان الشيخ يُؤذيني ويضربني ، وإذا جئتُ ؛ يقول : جاءني اليوم الخبز الكثير والفالوذج ، وأكلْنا ، وما خبَّأنا لك ؛ وحشة عليك ، فطمع فيَّ أصحابه ، وقالوا : أنت فقيه ، أيش تعمل معنا ، فلمّا رآهم يؤذونني غار لي ، وقال : ياكلاب ، لِمَ تؤذونه ؟ والله ما فيكم مثله ، وإنما أوذيه لأمتحنه ، فأراه جبلًا لا يتحرَّك ، ثم بعد مدة قَدِمَ رجل من همذان يُقال له: يوسف الهمذاني، وكان يُقال: إنه القطب! ونزل في رباط، فمشيتُ إليه فلم أره ، وقيل لي : هو في السرداب ، فنزلتُ إليه ، فلما رآني ؛ قام وأجلسني ، ففرشني وذكر لي جميع أحوالي ، وحلَّ لي المشكل عليَّ ، ثم قال لي : تكلمْ على الناس ؟ فقلتُ : ياسيدي ، أنا رجل أعجميٌّ قُحٌّ أخرس، أتكلم على فصحاء بغداد؟! فقال لي: أنت حفظت الفقه وأصوله، والخلاف ، والنحو واللغة ، وتفسير القرآن ، لا يصلح لك أن تتكلم ؟!! اصعدْ على الكرسي وتكلَّم ، فإني أرى فيك عذقًا سيصير نخلة .

قال الجبّائي : وقال لي الشيخ عبد القادر : كنتُ أُومر وأُنهى في النوم واليقظة ، وكان يغلب عليَّ الكلام ، ويزدحم على قلبي إنْ لم أتكلَّم به ، حتى أكاد أختنق ، ولا أقدر أسكت ، وكان يجلس عندي رجلان وثلاثة، ثم تسامع الناس بي، وازدحم عليَّ الخلقُ حتى صار يحضر مجلسي نحو من سبعين ألفًا .

وقال لي : أتمنَّى أن أكون في الصحاري والبراري كما كنتُ في الأوَّل ، لا أرى الخلق ولا يروني ، ثم قال : أراد الله مني منفعة الخلق ،

فقد أسلم علي يديَّ أكثر من خمسمائة، وتاب على يديَّ أكثر من مائة ألف».

٢٠٦ - الإمام الحافظ الكبير ، مُحدِّث خراسان ، أبو سعد السمعاني :

عبد الكريم بن محمد بن منصور السمعاني الخراساني .

طوَّف البلدان والآفاق ، ودوَّخ الدنيا في طلب العلم وهو مُشتاق ، أبو سعد وأبو سعيد النبيل الأصيل، سليل بيت العلم والعلماء، وتاج أسرته، حَفَظَةُ الكتاب والسنة ، وشيوخ الفقهاء ، قد بلغ من التطواف والارتحال ما لا يخطر على بال ، فكانت أخبار ارتحاله من الأساطير ولكنها أصدقُ من الصبح المنير ، نهض برحلات قاربت عشرين سنة ، لا يعرف المَلَلَ ولا الكَلَلَ ، ولا يشبع من النَّهَم والعلل ، ولا يرتاح إلا بتوسيع الطواف ، واقتناص الفوائد ، والازدياد من الشيوخ ، واكتساب الفرائد ، حتى صار عَلمًا فريدًا ، وتاريخًا جديدًا .

قال عنه السبكي في طبقات الشافعية (١٨٠/٧) : « تاج الإسلام بن تاج الإسلام ، مُحدث المشرق ، وصاحب التصانيف المُفيدة المُمتعة ، والرياسة والسؤدد والأصالة .

حمله والده الإمام أبو بكر إلى نيسابور سنة تسع وخمسمائة ، وأحضره السماع - وهو في السنة الرابعة - على عبد الغفَّار الشيرويّ ، وأبي العلاء عُبيد بن محمد القشيري ، وجماعة ، وكان قد أحضره بمرو على أبي منصور محمد بن علي القراعي وغيره ، ثم مات أبوه سنة عشر ، وأوصى به إلى الإمام إبراهيم المروزي صاحب التعليقة ، فتفقَّه أبو سعد عليه ، وتهذَّب بأخلاقه ، وتربَّى بين أعمامه وأهله، فلما راهق أقبل على القرآن والفقه، وعُنِي بالحديث والسماع ، واتَّسعتْ رحلتُه ، فعمَّت بلاد خراسان وأصبهان وما وراء النهر والعراق والحجاز والشام وطبرستان، وزار بيت المقدس وهو بأيدي النصارى، وحجَّ مرَّتين .

سمع بنفسه من الفراوي ، وزاهر الشحَّامي ، وهبة الله السيِّدي ، وتميم

الجرجاني، وعبد الجبار الخواري، وإسماعيل بن محمد بن الفضل الحافظ، وعبد المنعم بن القشيري ، وأبي بكر محمد بن عبد الباقي الأنصاري ، وخلائق يطول سردهم .

قال ابن النجّار: سمعتُ مَنْ يذكر أنّ عدد شيوخه سبعة آلاف شيخ. وهذا شيء لم يبلغه أحدٌ .

وألَّف معجم البلدان التي سمع بها ، وعاد إلى وطنه بمرو سنة ثمان وثلاثين ، فتزوَّج ، ووُلِد له أبو المظفر عبد الرحيم ، فرحل به إلى نيسابور ونواحيها، وهراة ونواحيها، وبلخ وسمرقند، وبخارى، وخرَّج له مُعجمًا، ثم عاد به إلى مرو .

وألقى عصا السفر بعدما شقَّ الأرض شقًّا ، وأقبل على التصنيف والإملاء والوعظ والتدريس . سمع منه جماعة من مشايخه وأقرانه . وروى عنه الحافظ الأكبر أبو القاسم بن عساكر وابنه القاسم بن عساكر ، وأبو أحمد بن سكينة ، وعبد العزيز بن منينا .

عاد بعدما دوَّخ الأرض سفرًا إلى بلده مرو ، وأقام مُشتغلًا بالجمع والتصنيف ، والتحديث والتدريس بالمدرسة العميدية ، ونشر العلم ، إلى أن تُوفِّي إمامًا من أئمة المسلمين في كثير من العلوم ، أمسُّها به الحديث على اختلاف فنونه .

وذكره صاحبه ورفيقه الحافظ الكبير أبو القاسم بن عساكر ، وأثنى عليه ، وقال : هو الآن شيخ خراسان غير مُدافَع ، عن صدْق ومعرفةٍ وكثرة سماع للأجزاء ، وكُتُبٍ مُصنَّفة ، والله يُبقيه لنشرِ السُّنَّة ، ويُوفِّقه لأعمال أهل الجنة » .

قالت الأستاذة منيرة ناجي سالم من العراق في مُقدِّمتها لكتابه «التحبير في المعجم الكبير » : « اعتنى به والده عنايةً كبيرةً ، فبكر بإسماعه من أجلّة مشايخ مرو ، ثم رحل به إلى نيسابور بلد الحديث والمُحدِّثين في

سنة (٥٠٩ هـ) ، وكانت سِنُّه آنذاك بلغت الثالثة والنصف من العمر ، فكان والده في مرو وفي نيسابور يُحضره مجالس المُحدِّثين ، ويكتب له ما أملوه أو ما قرىء عليهم في تلك المجالس ، وهو حاضر ، ويُثبت ذلك ويُصحِّحه ؛ ليكون أصلًا يرجع إليه ولده ، ويروي منه إذا كبر ، وكان يأخذ له الإجازات منهم، وبهذا حصل لولده عُلُوُّ الإسناد من مشايخ عصره، وكانت هذه الإجازات والسماعات والمقروءات أساس مادَّته العلمية الأولى . وقد تطلَّب لقاؤه العددَ الكبير من العلماء جهدًا كبيرًا ، واستطاع أبو سعد أن يتحمَّل المشاقَّ المُضنيةَ ، ويُذلِّل العقبات التي كانت تُواجهه في لقاء المشايخ، ولم يكتف بلقاء مشايخ المدينة التي كان يرحل إليها؛ بل كان يلقى مشايخ القرى والمحالِّ ، وينتقل من قرية إلى أخرى ومن محلَّة إلى أخرى، وكذلك كان يتنقَّل في الدروب والسكك والأبواب والدكاكين ، وحتى في طريق الرحلة كان يسمع ويُذاكر العلماء .

وقد رحل أبو سعد إلى أكثر من مائة مدينة ، وكان له رحلاتٌ كثيرةٌ ؛ أهمُّها ثلاث رِحَلٍ :

الرحلة الأولى: وكانت مُدَّتُها نحو عشر سنوات، وكانت من خراسان شرقًا إلى الشام غربًا ، ومن العراق شمالًا إلى الحجاز جنوبًا .

قال الشيخ عبد الرحمن المعلمي اليماني عن الرحلة الأولى : « ألحَّ أبو سعد - بعد أن قارب العشرين من عمره وصار يسمع بنفسه - على وصيِّه وعَمَّيْهِ أن يأذنوا له بالرحلة إلى نيسابور ؛ ليسمع صحيح مسلم من المُتفرِّد به المُعمِّر الثقة الفاضل أبي عبد الله محمد بن الفضل الفراوي ، الذي طال عمرُهُ ، وأصبح يتوقَّع كل يوم موته ، وكان من جلالته في العلم قد تفرَّد بصحيح مسلم بسند عالٍ جليل ، ولم يكن بينه وبين مسلم إلا ثلاثة ، مع أن بين وفاتيهما نحو مائتين وسبعين سنة ، وإذا مات ولم يسمع منه أبو سعد ؛ كانت حسرة في قلبه لا تندمل ، فلم يأذنوا له حتى جاوز عمره الثانية والعشرين

من السنين ، ولم يسمحوا له بالسفر وحده ، بل سافر معه عمُّه أبو القاسم أحمد بن منصور السمعاني ، وضاق صدْرُ أبي سعد بتلك العناية الحبيبة الكريهة ، فلما أتمَّ سماع صحيح مسلم في نيسابور على الفراوي ؛ أراد عمُّه أن يرجع به إلى وطنه ، فلم يَسعْ أبا سعد إلا أن يختبىء ؛ أملًا أن يملَّ عمُّه الانتظار ، فيذهب ويدعه يطوف في مراكز العلم كما يُحبُّ ، لكن العمّ كان أصبرَ منه ؛ لزم نيسابور حتى ملَّ أبو سعد الاختباء ، فظهر ، وطاوع عمَّه في الرجوع معه ، وكأنه بقي يحاج عمَّه ، ويُوضِّح له أنه مُضطرٌّ إلى الرحلة ، وأنه لا داعي لمنْعه من الغربة وحده ، ويُمكن أن يكون كَاتبَ عمَّه الآخر والوصيَّ ، فعاد جوابُهما بالإذن له .. نَعَمْ ، أَذِنَ له عمُّه وهُما بطوس ، فرجع أبو سعد إلى نيسابور وقام بها سنة ؛ ثم ذهب يطوف في مراكز العلم في الدنيا عدَّة سنوات ، واتَّسعتْ رحلتُه ، ومات عمَّاه والوصيُّ عليه بمرو وهو في الرحلة » . انتهى كلام المعلمي .

الرحلة الثانية : وكانت مُدَّتُها ستَّ سنوات من سنة (٥٤٠ - ٥٤٦ هـ) ، وقد اقتصر فيها على زيارته أغلب مدن خراسان ؛ كنيسابور وسرخس ومروالروذ وهراة وبلخ ونسا . واصطحب معه في رحلته هذه أبا المظفر عبد الرحيم المولود بنيسابور ، وكان له من العمر نحو ثلاث سنوات ، فطاف به بلاد خراسان وما وراء النهر، وأحضره مجالس سماع الحديث هناك، وحصَّل له النُّسَخ من الكتب والأجزاء التي أُحضر مجالس سماعها ، وجمع له مُعجمًا لمشايخه في ثمانية عشر جزءًا ، وعوالي من الأحاديث التي أُسمعها في مُجلَّدين ضخمين .

الرحلة الثالثة: كانت مُدَّتُها أربع سنوات من سنة (٥٤٩- ٥٥٢هـ) إلى بلاد ما وراء النهر ، فزار فيها سمرقند وبخارى ونسا وغيرها . وفي طريق عودته إلى مرو زار مدينة خوارزم ، ثم استقرَّ في وطنه إلى آخر حياته .

فكانت مُدَّة رحلاته الثلاث نحو عشرين سنة » .

ولقد ذكرتِ الأستاذة مُنيرة ناجي في مُقدِّمتها للمعجم أسماء القرى والمدن التي رحل إليها السمعاني مُرتَّبةً على حروف المُعجم ؛ فبلغت مائة واثنتين وستين مدينة وقرية .

أما مؤلَّفاته النفيسة والغالية– وهي في علوم الحديث والرجال والتاريخ والأنساب والفقه والأصول والخلاف والتفسير والأخلاق وغيرها – فقد بلغت (٦٨) مُصنفًا كما ذكرت ذلك العالمة منيرة ناجي سالم في مُقدِّمتها لكتاب « التحبير في المعجم الكبير » .

وقد ألَّفها جميعها في مدة لا تتجاوز عشر سنوات ، بعد عودته من الرحلة الأخيرة واستقراره في بلده مرو من سنة (٥٥٢ إلى ٥٦٢ هـ) التي توفِّي فيها رحمه الله تعالى .

هذه البلاد التي طوَّف بها على قدميه أو على الدابة ، والشيوخ الذين لقيهم وأخذ عنهم سبعة آلاف شيخ ؛ ألَّف هو فيهم خاصَّةً كُتُبًا كبارًا بلغت المُجلَّدات .

فأيُّ شوق للعلم كان في قلب هذا الحافظ الذي طاف تلك البلاد ، ولقي أولئك الأقوام على وسائل ضعيفة مُضنية إن تيسَّرتْ ، وألَّف هذه الكتب التي يهولُك سماعُ أسمائها وتعدُّدُ أجزائها ؛ كتبها وحده بقلمه ، وجمع مادَّتَها بنفسه ، وألَّفها وحقَّقها ، فلله درُّه !

وما أعلى هِمَّته .. وجزاه الله عن الإسلام خيرًا !!

« قال السمعاني : كنتُ أنسخ بجامع بروجرد ، فدخل شيخ رثُّ الهيئة ، ثم قال : أيش تكتبَ ؟ فكرهتُ جوابه ، وقلتُ : الحديث . فقال : كأنك طالبُ حديث ؟ قلتُ بلى ، قال : من أين أنت ؟ قلتُ : من مرو . قال : عمَّن يروي البخاري من أهلها ؟ قلتُ : عن عبدان ، وصدقة بن الفضل ، وعليّ بن حجر ، فقال : ما اسم عبدان ، فقلتُ : عبد الله بن عثمان ، فقال : ولِمَ قيل له عبدان ؟ فتوقَّفتُ ، فتبسَّم ، ونظرتُ إليه بعين

أخرى ، وقلتُ : يذكر الشيخ ، فقال : كُنيتُه أبـو عبد الرحمن ، فاجتمع في اسمه وفي كنيته العبدان، فقيل: عبدان، فقلتُ: عمَّن ؟ قال : سمعتُ ابن طاهر يقوله ، وإذا هو الحافظ أبو الفضل محمد بن هبة الله ابن العلاء البوروجردي ، فروى لنا عن أبي محمد الدوني وطائفة »[١] .

رحمة الله على السمعاني !

قال القاضي ابن خلّكان في الوفيات (٣٠١/١) في ترجمة أبي سعد السمعاني : « وقال في بعض « أماليه » : ودَّعني عبد الله بن محمد بن غالب أبو محمد الجيلي الفقيه نزيل الأنبار ، وبكى وأنشدني :

ولمّـا برزنـا لتوديعهـم ... بَكَوْا لؤلؤًا وبكينا عقيقا
أداروا علينا كؤوسَ الفراقِ ... وهيهاتَ من سُكرِها أن نُفِيقا
تَوَلَّـوْا فأتبعتُهـم أدمعـي ... فصاحوا الغريقَ وصحتُ الحريقا

٢٠٧ - الحافظ الدقَّاق ، محمد بن عبد الواحد الأصبهاني :

قال الحافظ الذهبي في تذكرة الحفَّاظ (١٢٥٦/٤) :

« كان الدقَّاق صالحًا فقيرًا مُتعففًا ، صاحب سُنَّة واتِّباع ، وكان يقول : أوَّل ما أمليتُ بسرخس في سنة (٤٧٤ هـ) ، ودخلتُ لطلب الحديث طوس وهراة وبلخ ومرو وسمرقند وكرمان وجرجان ونيسابور . ثم قال الذهبي: فما زال يعدُّ حتَّى سمَّى مائة وعشرين مكانًا، ثم قال: فأما الذين كتبتُ عنهم بأصبهان فأكثر من ألف إن شاء الله ، والذين في الرحلة فأكثر من ألف أخرى » . انتهى .

٢٠٨ - الإمام الحافظ ، شيخ الإسلام ، السِّلَفي ، أبو طاهر ، أحمد بن محمد ابن أحمد الأصبهاني ، الجرواني ، ثم الإسكندري :

« نشأ هذا الإمام من صباه فذًّا في الذكاء والنباهة والحفظ وتحصيل

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٠ / ٤٦٤ - ٤٦٥ .

العلم وجمعه ثم تعليمه ونشره. حدَّث عن نفسه، فقال: كتبوا عني بأصبهان في أول سنة (٤٩٢ هـ) وأنا ابن سبع عشرة سنة أو نحوها وليس في وجهي شَعْر ، ثم غادر أصبهان بعد أن أخذ عن شيوخ بلده ، ورحل إلى بغداد سنة (٤٩٣هـ)، ثم إلى غيرها من بلدان الإسلام، فطلب الحديث، وكتب الأجزاء ، وقرأ القرآن بالروايات ، وأخذ الفقه واللغة والأدب عن أركان العلم في عصره، وغدا إمامًا وأقرانه ما يزالون في الطلب والتحصيل، فسمع الحديث في بغداد من الحافظ أبي الخطَّاب نصر بن أحمد بن البَطِر ، وكان يخشى أن يموت قبل أن يُدركه ، فأدركه وسمع منه وفرح بلقائه .

قال حمَّاد بن هبة الله : سمعتُ السِّلَفي يقول : دخلتُ بغداد في شوال سنة (٤٩٣هـ)، فساعة دخولي لم يكن لي هَمٌّ إلا ابن البَطِر، فذهبتُ إليه ، وكان شيخًا عَسِرًا[1]، فقلتُ له : قد جئتُ من أصبهان لأجلك ، فقال : اقرأ ، فقرأتُ عليه وأنا مُتَّكيء من دمامل بي ، فقال : أبصر ذا الكلب ، فاعتذرتُ له بالدمامل ، وبكيتُ من قوله ، وقرأتُ عليه سبعة عشر حديثًا وخرجتُ ، ثم قرأتُ عليه نحوًا من خمسة وعشرين جزءًا .

وسمع في بغداد أيضًا من أبي بكر الطوسي والحسين بن علّي بن البسري وطبقتهم ، واشتغل على إلكيا أبي الحسن الهراس في الفقه ، وعلى الخطيب التبريزي اللغوي في اللغة .

قال ابن ناصر : كان السّلفي ببغداد كأنه شعلةُ نارٍ في التحصيل ، وسمع في الكوفة من أبي البقاء الحبَّال ، وبمكة من الحسين بن علي الطبري ، وبالمدينة من أبي الفرج القزويني ، وبالبصرة من محمد بن جعفر العسكري ، وبزنجان من أبي بكر أحمد بن محمد بن زنجويه ، وبهمذان من أبي غالب أحمد ابن محمد العدل ، وبالريِّ من صاحب البحر أبي المحاسن عبد الواحد بن

(١) أي شرس الخلق .

إسماعيل الشافعي ، وبقزوين من إسماعيل بن عبد الجبَّار المالكي ، وبمراغة من سعد بن علي المصري ، وبدمشق من أبي طاهر الحنَّائي ، وبنهاوند من أبي منصور محمد بن عبد الرحمن بن غزو ، وبأبهر من أبي سعيد عبد الرحمن بن ملكان الشافعي ، وبواسط من أبي نعيم بن زيزب ، وبسلماس من محمد بن سعادة الهلالي ، وبالحلية من محمد بن الحسن الكوفي ، وبشهرستان من أبي الفتح أحمد بن محمد بن رشيد الأذمي ، وبالإسكندرية من أبي القاسم بن الفحّام الصقلي ، وسمع بالدينور وساوة ونهاوند ، وطاف بلاد أذربيجان إلى دربند، وسمع بخلاط ونصيبين والرحبة وغيرها، وبقي في الرحلة ثماني عشرة سنة، وسمع ما لا يُوصف كثرةً، ونسخ بخطِّه الصحيح السريع ، وكان مُتقنًا مُتثبِّتًا ، ديِّنًا خيِّرًا ، حافظًا ناقدًا ، مجموع الفضائل ، انتهى إليه عُلُوُّ الإسناد ، وروى الحفّاظ الكبار عنه في حياته ، وله ثلاثة معاجم دوَّن فيها تراجم شيوخه الذين أخذ عنهم العلم في بلده وفي رحلاته ، فله معجم مشيخة أصبهان في مُجلَّد ، ويكونون أزيد من ستمائة شيخ ، ومُعجم مشيخة بغداد وهو كبير ، ومعجم السفر لشيوخه في باقي البلاد ، وله تصانيف كثيرة ، وركب البحر من صور في لبنان إلى الإسكندرية في سنة (٥١١ هـ) ، فاستوطنها خمسة وستين سنة إلى أن مات ، ما خرج منها سوى خرْجته إلى القاهرة سنة (٥١٧ هـ) للسماع من أبي الصادق مرشد بن يحيى المديني وطبقته .

قال الأوقي: سمعتُه يقول: لي ستون سنةً ما رأيتُ منارة الإسكندرية إلا من هذه الطاقة[1] .

قال الحافظ عبد القادر الرهاوي : بلغني أنه في مُدَّة مقامه بالإسكندرية ما خرج إلى بستان ولا فرجة غير مرَّة واحدة ، بل كان عامَّة دهره مُلازمًا

(١) يعني طاقة حجرته في المدرسة .

مدرسته ؛ وما كنا ندخل عليه إلا نراه مُطالعًا في شيء .

وقال الحافظ عبد العظيم المنذري: كان السِّلفي مُغرى بجمع الكتب، وما حصل له من المال يُخرجه في ثمنها ، وكان عنده خزائن كُتُبٍ لا يتفرَّغ للنظر فيها .

وأخذ عنه من الأئمة والعلماء والأدباء وغيرهم - في الحديث والفقه والتفسير والقراءات والتاريخ والأدب واللغة والشعر - خلائق لا يُحصون ، نظرًا إلى طول عمره المديد وارتفاع أسانيده ، وسُمُوِّ مقامه في العلم والإتقان ، وسعة الاطلاع ، وكثرة الشيوخ ، وطواف البلدان ، وتفنُّنه في العلوم ، فكان مقصد الطالبين ، ومحجَّةَ العلماء العارفين من مشارق الأرض ومغاربها ، واستجازه مَنْ لم يستطع الوصول إليه تشرُّفًا بعُلوِّ سنده ورفيع قدْره في العلم .

قال العماد الأصبهاني في الخريدة وغيره : طوّف السِّلفي البلاد ، وشُدَّت إليه الرحال ، وتبرَّك به الملوك والأقيال . وكان آمرًا بالمعروف ناهيًا عن المنكر ، أزال من جواره مُنكراتٍ كثيرةً ، وكان له عند ملوك مصر العبيديين الجاه والكلمة النافذة مع مُخالفته لهم في المذهب ، وبنى له العادل علي بن إسحاق بن السلار أمير مصر - وكان سُنِّيًّا - مدرسته بثغر الإسكندرية ، ووقف عليها أوقافًا .

قال الرهاوي : بلغني أن سلطان مصر حضر عنده لسماع الحديث ، فجعل يتحدَّث مع أخيه ، فزجرهما الشيخ ، وقال : أيش هذا ، نحن نقرأ الحديث وأنتما تتحدَّثان .

ولم يكن في آخر عمره في عصره مثله .

قال الحافظ الذهبي : لا أعلم أحدًا في الدنيا حدَّث نيِّفًا وثمانين سنةً سوى الحافظ السِّلفي .

كان حليمًا مُتحمِّلًا كفاء الغرباء، وكان تزوَّج بالإسكندرية امرأة ذات

يسار، وحصلت له ثروةٌ بعد فقرٍ، وكان لا تبدو منه جفوةٌ لأحد، ويجلس للحديث وإسماعه ؛ فلا يشرب ماءً ، ولا يبصق ، ولا يتورَّك ، ولا تبدو منه قدمٌ ، وقد جاوز المائة »[1] .

قال الذهبي في السير : « كان ينسخ الجزء الضخم في ليلة .

وقد خرَّج « الأربعين البلدية » التي لم يُسبق إلى تخريجها ، وقلَّ أن يتهيأ ذلك إلا لحافظ عُرف باتِّساع الرحلة ، وله كتاب « السفينة الأصبهانية » في جزء ضخم ، و « السفينة البغدادية » في جزأين كبيرين ، ومقدمة « معالم السنن»؛ و «الوجيز في المجاز والمجيز»، وجزء «شرط القراءة على الشيوخ » ، و « مجلسان في فضل عاشوراء» ، وانتخب على جماعة من كبار المشايخ ؛ كجعفر بن أحمد السَّراج ، وأبي الحسين ابن الطيوري ، وأبي الحسن بن الفراء الموصلي ، وكان مُكِبًّا على الكتابة والاشتغال والرواية ، لا راحة له غالبًا إلا في ذلك .

قال الحافظ المنذري : سمعتُ الحافظ ابن المفضَّل يقول : عِدَّةُ شيوخ الحافظ السِّلفي بأصبهان تزيد على ستمائة نفس ، ومشيخته البغدادية خمسة وثلاثون جزءًا ، وكل مَنْ سمع من أبي صادق المديني ومحمد بن أحمد الرازي والمعدّل من المصريين ؛ فأكثره بإفادته » .

قال الذهبي : « قال السِّلفي : متى لم يكن الأصل بخطِّي لم أفرح به .

كان جيِّد الضبط ، كثير البحث عما يشكل عليه . وكان أوحدَ زمانه في علم الحديث ، وأعرفهم بقوانين الرواية والتحديث ، جمع بين عُلُوِّ الإسناد وعُلُوِّ الانتقاد . وبذلك كان ينفرد عن أبناء جنسه » .

قال السِّلفي :

---

(١) النقل بتصرُّف من تذكرة الحفاظ ٤ / ١٢٩٨ - ١٣٠٤ ، وطبقات الشافعية الكبرى ٦ / ٣٢ - ٤١ ، وسير أعلام النبلاء ٢١ / ٥ .

دَعُوني عَنْ أَسَانيدِ الضَّلَالِ وَهَاتُوا مِنْ أَسَانيدٍ عَوَالي
رِخَاصٍ عِنْدَ أَهْلِ الجَهْلِ طُرًّا وَعِنْدَ العَارفينَ بِهَا غَوَالي
عَنَ اشْيَاخِ الحديثِ وما رَوَاهُ إمَامٌ في العُلُومِ عَلَى الكَمَالِ
كمالِكٍ اوْ كمَعْمَرٍ المُزَكَّى وَشُعْبَةَ أو كسُفْيَانَ الهلالي
وَسُفْيَانَ العِرَاقِ وَلَيْثِ مِصْرٍ فَقِدْمًا كان مَعْدُومَ المِثَالِ
والاوزَاعِيِّ[١] فَهْوَ لَهُ بِشَرْعِ النَّـــبِيِّ المُصْطَفى أَوْفَى اتِّصَالِ
ومِسْعَرٍ[٢] الَّذي في كُلِّ عِلْمٍ يُشَارُ كَذَا إلَيْهِ كَالهِلَالِ
وزائدةٍ[٣] وَزِدْ أيضًا جَرِيرًا[٤] فَكُلٌّ مِنْهُمَا رَجُلُ النِّضَالِ
وكابْنِ مُبَارِكٍ[٥] أَوْ كَابْنِ وَهْبٍ[٦] وَكَالْقَطَّانِ[٧] ذي شَرَفٍ وَحَالِ
وَحَمَّادٍ[٨] وَحَمَّادٍ[٩] جَمِيعًا وكابْنِ الدَّسْتُوائيِّ[١٠] الجَمَالِ

---

(١) الإمام المشهور أبو عمرو عبد الرحمن بن عمرو ، المُتوفَّى سنة (١٥٧ هـ) .
(٢) يعني مِسْعَر بن كدام الهلالي الكوفي الثبت الثقة، المتوفى سنة (١٥٣ أو سنة ١٥٥هـ).
(٣) هو أبو الصلت زائدة بن قدامة الثقفي الكوفي ، المُتوفَّى سنة (١٦٠هـ) .
(٤) جرير بن عبد الحميد بن قُرْط الضبيُّ الكوفيُّ ، نزيل الريِّ ، المُتوفَّى سنة (١٨٨هـ).
(٥) يعني عبد الله بن المبارك الإمام المشهور، المُتوفَّى سنة (١٨١هـ).
(٦) عبد الله بن وهب بن مسلم القرشي ، مولاهم ، أبو محمد المصري الفقيه ، المُتوفَّى سنة (١٩٧هـ).
(٧) يحيى بن سعيد بن فرُّوخ التميمي ، أبو سعيد القطان المصري ، المتوفى سنة (١٩٨هـ).
(٨) حمَّاد بن زيد بن درهم الأزدي الجهضمي البصري ، المُتوفَّى سنة (١٧٩هـ).
(٩) حمَّاد بن أسامة القرشي الكوفي ، المُتوفَّى سنة (٢٠١هـ) .
(١٠) أبو بكر هشام بن أبي عبد الله الدستوائي البصري البكري ، المتوفَّى سنة (١٥٣ أو سنة ١٥٤هـ) .

وَبعْدَهُمُ وَكِيعٌ[١] وابْنُ مَهْـــدِيٍّ[٢] المهدِيُّ في كُلِّ الخِلالِ
ومكـيٌّ[٣] وَوَهْبٍ[٤] والحُمَـــيْديِّ عَبْدِ اللهِ[٥] لَيْثٍ ذِي صِيَالِ
وَضَحَّاكٍ[٦] عقيب يزيدَ[٧] أعني ابْـ ـنَ هارونَ المُحقَّق في الخِصَالِ
كَذَاكَ طَيَالسِيَّا البَصْرَةِ[٨] اذْكُرْ فَمَا رَوَيَاهُ مِنْ أثَرٍ لَآلِـي
وَعَفَّانٌ[٩] نَعَمْ وَأَبُو نُعَيْـمٍ[١٠] حَمِيدَا الحَالِ مَرْضِيًّا الفِعَالِ
وَيَحْيَى[١١] شيخُ نَيْسَابورَ ثُمَّ الْـ إمَامُ الشَّافِعِيُّ المُقْتَـدَى لي

---

(١) وكيع بن الجراح الرؤاسي ، أبو سفيان ، الكوفي المتوفَّى سنة (١٩٦هـ).
(٢) عبد الرحمن بن مهدي بن حسّان العنبري ، مولاهم ، أبو سعيد البصري الثقة الثبت ، المتوفَّى سنة (١٩٨هـ).
(٣) أبو السكن ، مكي بن إبراهيم بن بشير التميمي البلخي ، المتوفَّى سنة (٢١٥هـ) .
(٤) وهب بن جرير بن حازم بن زيد، أبو عبد الله الأزدي البصري، المتوفَّى سنة (٢٠٦هـ).
(٥) عبد الله بن الزبير بن عيسى الحميدي القرشي صاحب الشافعي، المتوفَّى سنة (٢١٩هـ).
(٦) لا ريب أنه يُريد الضحاك بن مخلد بن الضحاك بن مسلم الشيباني ، وهو أبو عاصم النبيل ، المتوفَّى سنة (٢١٢هـ) .
(٧) يزيد بن هارون بن زاذان السلمي ، مولاهم ، أبو خالد الواسطي ، المتوفَّى سنة (٢٠٦هـ).
(٨) طيالسيَّا البصرة هما : أبو داود سليمان بن داود بن الجارود الطيالسي الفارسي الأصل ، البصري، المُتوفَّى سنة (٢٠٣هـ)، وأبو الوليد هشام بن عبد الملك الطيالسي ، مولى باهلة ، المُتوفَّى سنة (٢٢٧هـ) .
(٩) عفَّان بن مسلم بن عبد الله الباهلي ، أبو عثمان الصفَّار البصري ، المتوفَّى سنة (٢١٩هـ) .
(١٠) الفضل بن دُكَيْن الكوفي الأحول، أبو نُعيم المُلائي، المتوفَّى سنة (٢١٨ أو سنة ٢١٩هـ).
(١١) نظنُّهُ يُريد أبا زكريا يحيى بن بُكير بن عبد الرحمن التميمي النيسابوري ، الإمام الثقة الثبت ، المتوفى سنة (٢٢٦هـ) .

كذاكُم ابنُ خالدٍ[١] المُكَنَّى أبا ثَوْرٍ وَكَانَ حَوَى المَعَالي
وأيضًا فالصَّدُوقُ أبو عُبَيْدٍ[٢] فَأَعْلامٌ مِنَ ارْبَابِ المَقَالِ
كَيَحْيى[٣] وَابْنِ حَنْبَلٍ المُعَلَّى بِمَعْرِفَةِ المُتُونِ وَبالرِّجَالِ
وإسْحاقَ التَّقِيْ وَفَتَى نُجَيْحٍ وَعَبْدِ اللهِ ذِيْ مدحٍ طُوَالِ

إسحاقُ : هو ابنُ راهُويه[٤] ، وفتى نُجَيْحٍ : ابنُ المديني[٥] ، وعبد الله : ابن أبي شَيْبَة[٦] .

وَعُثْمَانَ[٧] الرَّضِيَّ أَخِيهِ أَيْضًا وَكَالطُّوسِيِّ[٨] رُكْنِ الابْتِهَالِ
وكالنَّسَوِيِّ[٩] أَعْنِيهِ زُهَيْرًا وَيُعْرَفُ بابْنِ حَرْبٍ في المَجَالِ

---

(١) إبراهيم بن خالد بن أبي اليمان الكلبي ، أبو ثور الفقيه صاحب الشافعي ، ثقة ، مات سنة (٢٤٠هـ) .

(٢) من المؤكَّد أنه يقصد القاسم بن سلَّام البغدادي الإمام المشهور ، المُتوفَّى سنة (٢٢٤هـ) .

(٣) هو يحيى بن مَعين ، أبو زكريا البغدادي ، الثقة الحافظ المشهور ، إمام الجرح والتعديل، مات سنة (٢٣٦هـ) .

(٤) إسحاق بن إبراهيم بن مخلد الحنظلي ، أبو محمد بن راهويه المروزي ، قرين أحمد ابن حنبل ، مات سنة (٢٣٨هـ) .

(٥) يعني علي بن المديني الناقد المُحدِّث المشهور ، المتوفى سنة (٢٣٤هـ) .

(٦) عبد الله بن محمد بن أبي شيبة ، إبراهيم بن عثمان الواسطي الأصل ، الكوفي صاحب التصانيف ، المتوفَّى سنة (٢٣٥هـ) .

(٧) هو أخو عبد الله المُقدَّم ذكْره ، تُوفِّي سنة (٢٣٩هـ) .

(٨) أبو هاشم زياد بن أيوب بن زياد البغدادي ، أبو هاشم الطوسي الذي لقبهُ الإمام أحمد بشعبة الصغير ، تُوفِّي سنة (٢٥٢هـ) .

(٩) زهير بن حرب بن شدَّاد ، أبو خيثمة النسائي ، نزيل بغداد ، المُتوفَّى سنة (٢٣٤هـ) .

وَكَالذُّهْلِيِّ[١] شَمْسِ الشَّرْقِ عَدْلٍ ... يُعَدِّلُـهُ المُعَـادِي والمُوَالِـي
وَأَصْحَابِ الصِّحَاحِ الخَمْسَةِ اعْلَمْ ... رِجَالٍ في الشَّرِيعَةِ كالجِبَـالِ
وَكَابْنِ شُجَاعٍ البَلْخِيِّ[٢] ثُمَّ الْـ ... سَمَرْقَنْدِيِّ[٣] مَنْ هُوَ رَأْسُ مالي
وبُوشَنْجِيِّهِمْ[٤] ثُمَّ ابْنِ نَصْرٍ[٥] ... بِمَـرْوٍ مُقَـدَّمٍ فيهم ثِمَـالِ
وَبِالرَّيِّ ابْنُ وارَةَ[٦] ذو افْتِنَانٍ ... وَتِرْباهُ كَذَاكَ عَلَى التَّـوالي

تِرْبَاهُ هما : أبو زُرْعَةَ[٧] وأبو حَاتِمٍ[٨] .

كَذَاكَ ابْنُ الفُرَاتِ[٩] وكانَ سَيْفًا ... على البِدْعِيِّ يَطْعُـنُ كالأَلَالِ
كَذا الحَرْبِيُّ[١٠] أَحْرِ بِهِ وحَرْبُ ابْـ ... ـنُ إسماعيلَ خَيِّرٌ ذو منالِ

---

(١) محمد بن يحيى الذهلي النيسابوري الثقة الحافظ ، المُتوفَّى سنة (٢٥٨هـ) على الصحيح.

(٢) الحسن بن شجاع ، أبو علي البلخي، المُتوفَّى سنة (٢٤٤هـ) .

(٣) الحافظ العَلَمُ ، أبو محمد رجاء بن مُرجّى السمرقندي مُفيد بغداد ، تُوفِّي سنة (٢٤٩هـ) .

(٤) ما نظنُّهُ قصد غير محمد بن إبراهيم بن سعيد البوشنجي ، المتوفَّى سنة (٢٩٠هـ) ، فهو وإن تأخَّرتْ وفاتُه فقد روى عنه البخاري ، وعاش بضعًا وثمانين سنة ، وكان حافظًا فقيهًا ثقةً .

(٥) الإمام الحافظ أبو عبد الله أحمد بن نصر القرشي النيسابوري ، المُتوفَّى سنة (٢٤٥هـ) .

(٦) أبو عبد الله محمد بن مسلم بن عثمان بن وارة الرازي ، الحافظ الثبت ، المتوفَّى سنة (٢٧٠هـ) .

(٧) أبو زرعة عبيد الله بن عبد الكريم الرازي الناقد المشهور، المتوفَّى سنة (٢٦٤هـ).

(٨) أبو حاتم محمد بن إدريس الرازي ، المتوفَّى سنة (٢٧٧هـ) .

(٩) أحمد بن الفرات ، الحافظ الحُجَّة ، أبو مسعود الرازي صاحب التصانيف ، المتوفَّى سنة (٢٥٨هـ) .

(١٠) أبو إسحاق إبراهيم بن إسحاق البغدادي الحربي ، المتوفَّى سنة (٢٨٥هـ) .

وَيَعْقُوب وَيَعْقُوبَان[١] أَيْضًا ... سِوَاهُ وابْنُ سنجرٍ[٢] الثِّمَالِ

يعقوب بن شيبة[٣]، ويعقوب[٤] بن إبراهيم الدَّوْرَقِيّ، ويعقوبُ[٥] الفَسَوِيّ.

وَصَالِحٌ الرِّضَا وَأُخوهُ مِنْهُمْ ... كَذَاكَ الدَّارِمِيُّ[٦] أُخو المَعَالي

وَصَالِحٌ المُلَقَّبُ[٧] وابنُ عَمْرٍو ... دِمَشْقِيٌّ[٨] حَلِيمٌ ذو احْتِمَالِ

وَنَجلُ جريرٍ[٩] اذْ تُوفي وتُرْبي ... مَنَاقِبُهُ على عَدَدِ الرِّمَالِ

كذا ابْنُ خُزَيْمَةَ[١٠] السُّلَمِيُّ ثُمَّ ابْـ ... ـنُ مَنْدَة[١١] مُقْتَدَى مُدُنِ الجِبَالِ

---

(١) في الأصل : ويعقوبين .

(٢) الحافظ الكبير محمد بن سنجر ، المتوفَّى سنة (٢٥٨هـ)، وكان في الأصل من أهل جرجان ، ثم سكن مصر .

(٣) مات سنة (٢٦٢هـ) .

(٤) مات سنة (٢٥٢هـ) .

(٥) صاحب التاريخ المشهور ، وهو يعقوب بن سفيان ، تُوفِّي سنة (٢٧٧هـ) .

(٦) أبو سعيد عثمان بن سعيد الدارمي المتوفَّى سنة (٢٨٠هـ) .

(٧) في الأصل : « وصالح المُلقب جزرة ، ولا يستقيم البيت بها ، وكأن « جزرة »، وهو لقب صالح بن محمد بن عمر البغدادي ، المتوفَّى سنة (٢٩٣هـ) ، قد أُضيف إلى النص للتوضيح، ولم يكن من الأصل، والسِّلَفي إنما أراد القول بـ«المُلقَّب»: جزرة ؛ لأنه مشهور بذلك .

(٨) لم نجد دمشقيًّا عُرف بابن عمر ، من طبقة صالح جزرة ، ولكن يُحتمل أنه قصد الحافظ العلَّامة أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البصري المعروف بالبزار، صاحب المسند المشهور ، المتوفَّى سنة (٢٩٢هـ) ، والبزار قد سكن الشام آخر عمره ، وتُوفِّي بالرملة .

(٩) يعني محمد بن جرير الطبري صاحب «التاريخ» و «التفسير»، المتوفَّى سنة (٣١٠هـ).

(١٠) إمام الأئمة أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة السُّلَمي النيسابوري، المتوفَّى سنة (٣١١هـ).

(١١) آل منده العبديون الأصبهانيون من بيوتات العلم المشهورة التي خرَّجت العديد من العلماء، والذي أشار السِّلفي إليه هنا هو أبو عبد الله محمد بن يحيى بن منده ، المتوفى سنة (٣٠١هـ).

وَخَلْقٌ تَقْصُرُ الأَوْصَافُ عَنْهُمْ وَعَنْ أَحْوَالِهِمْ حالَ السُّؤَالِ
سَمَوا بالعِلْمِ حِينَ سَمَا سِوَاهُمْ لَدَى الجُهَّالِ بالرِّمَمِ البَوَالي
وَمَعْ هذا المَحَلِّ وَمَا حَوَوْهُ فآلُهُمُ كَذلِكَ خَيْرُ آلِ
مَضَوْا والذِّكْرُ مِنْ كُلِّ جَميلٍ عَلَى المَعْهُودِ في الحُقُبِ الخَوَالي
أطَابَ اللهُ مَثْوَاهُمْ فقِدْمًا تَعَنَّوْا في طِلَابِهِمُ العَوَالي
وَبَعْدَ حُصُولِهَا لَهُمُ تَصَدَّوْا كذلك للرِّوَايَةِ والأمَالي
وتُلْفِي الكُلَّ منهمْ حين يُلْقَى مِنَ آثارِ العِبادَةِ كالخِلالِ
وَهَا أنا شَارِعٌ في شَرْحِ دِيني وَوَصْفِ عَقِيدَتي وَخَفِيِّ حَالي
وأجهدُ في البَيَانِ بقَدْرِ وُسعي وَتَخْلِيص العُقولِ مِنَ العِقَالِ
بشِعْرٍ لا كَشِعْرٍ بل كسِحْرٍ ولفظٍ كالشَّمُول بل الشِّمَالِ
فَلَسْتُ الدَّهْرَ إمَّعَة وَمَا إنْ أزِلُّ وَلَا أزولُ لِذي النِّزَالِ
فَلَا تَصْحَبْ سِوَى السُّنِّي دِينًا لِتَحْمَدَ ما نَصَحْتُكَ في المَآلِ
وَجَانِبْ كُلَّ مُبْتَدِعٍ تَرَاهُ فَمَا إنْ عِنْدَهُمْ غَيْرُ المُحَالِ
وَدَعْ آراءَ أهْلِ الزَّيْغِ رَأْسًا وَلَا تَغْرُرْكَ حَذْلَقَةُ الرُّذَالِ
فَلَيْسَ يَدُومُ للبِدْعِيِّ رأيٌ وَمِنْ أَيْنَ المَقَرُّ لِذِي ارْتِحَالِ
يُوافَى حَائِرًا في كُلِّ حَالٍ وَقَدْ خلى طَرِيقَ الإعْتِدَالِ
وَيَتْرُكُ دَائِبًا رَأْيًا لِرَأْيٍ وَمِنْهُ كذا سَرِيعُ الإنْتِقَالِ
وَعُمْدَةُ مَا يَدِينُ بِهِ سَفَاهًا فَأَحْدَاثٌ مِنَ أبْوابِ الجِدَالِ
وَقَوْلُ أئِمةِ الزَّيْغِ الذي لا يُشَابِهُهُ سِوَى الدَّاءِ العُضَالِ
كَمَعْبَدٍ[1] المضلِّلِ في هَوَاهُ وَوَاصِلٍ[2] او كغيْلانَ[3] المِحَالِ

---

(١) معبد بن عبد الله الجُهني البصري، أوَّلُ من قال بالقدر في البصرة، قُتل سنة (٨٠هـ).

(٢) واصل بن عطاء الغزال، رأس المعتزلة والمتكلمين ، وتُنسب إليه طائفة « الواصلية » من المعتزلة . مات سنة (١٣١هـ) .

(٣) غيلان الدمشقي ، رأس القدرية، قتله الخليفة هشام بن عبد الملك .

وَجَعْدٍ[(١)] ثُمَّ جَهْمٍ[(٢)] وابن حَرْبٍ[(٣)] حَمِيرٌ يَسْتَحِقُّونَ المَخَالي
وَثَوْرٍ[(٤)] كاسمِهِ أوِ شئْتَ فَاقْلِبْ وَحَفْصٍ[(٥)] الفَرْدِ[(٦)] قِرْدٍ ذي افْتِعَالِ
وَبِشْرٍ[(٧)] لا رأى بُشْرَى فَمِنْهُ تَوَلَّدَ كُلُّ شَرٍّ واخْتِلَالِ
وَأَتْبَاعُ ابْنِ كُلَّابٍ[(٨)] كِلَابٌ عَلَى التَّحْقِيقِ هُمْ مِنْ شَرِّ آلِ
كَذَاكَ أبو الهُذَيلِ[(٩)] وكانَ مولًى لعَبْدِ القَيْسِ قَدْ شَانَ الموالي
وَلَا تَنْسَ ابنَ أشْرَسٍ المُكَنَّى أَبا مَعنٍ ثُمامَةَ[(١٠)] فَهْوَ غَالي
ولا ابنَ الحارِثِ البَصْرِيَّ ذَاكَ الْـ مُضِلَّ على اجْتِهَادٍ واحْتِفَالِ
ولا الكوفي أعْنِيه ضِرَارَ بْـ ـنَ عمروٍ فَهْوَ للبَصْرِيِّ تالي

---

(١) الجعد بن درهم الذي كان مُؤَدِّبًا لمروان بن محمد آخر الأُمويين، وكان من القائلين بخلق القرآن ، قتلهُ خالد القسري .

(٢) جهم بن صفوان ، وهو مشهور بآرائه التي أثرت في تكوين آراء المعتزلة ، ومات سنة (١٢٨هـ) .

(٣) جعفر بن حرب الهَمْداني ، من أئمة معتزلة بغداد ، مات سنة (٢٣٦هـ) .

(٤) ثور بن يزيد الكلاعي ، أبو خالد الحمصي ، وكان قَدَرِيًّا، مات سنة (١٥٣هـ) .

(٥) أحد المبتدعة كما في « ميزان » الذهبي ١/٥٦٤ .

(٦) في الميزان : «القرد» بالقاف، ولعل الذي ورد هنا هو الصحيح، وانظر الفهرست لابن النديم : (٢٥٥) .

(٧) لدينا اثنان يُعرفان بهذا الاسم من كبار المعتزلة: الأول: بشر بن المعتمر البغدادي، المُتوفَّى سنة (٢١٠هـ)، وإليه تُنسب الطائفة «البشرية»، والثاني هو بشر بن غياث ابن عبد الرحمن المريسي، المتوفَّى سنة (٢١٨هـ)، وإليه تُنسب الطائفة «المريسية»، ولعله هو المقصود هنا .

(٨) عبد الله بن سعيد بن كُلَّاب - بضم الكاف وتشديد اللام - البصري المُتكلِّم ، رئيس الطائفة المعروفة بالكُلَّابِيَّة ، وضبطه الذهبي في « المشتبه » : (٥٥٥) .

(٩) أبو الهُذَيل العلَّاف ، شيخ المعتزلة البصريين ، المتوفَّى (٢٢٦هـ) .

(١٠) كان ثمامة بن أشرس من كبار المعتزلة ، ومات سنة (٢١٣هـ) .

كذاكَ ابْنُ الأصمِّ[١] ومَنْ قفاهُ ... مِنَ اوْبَاشِ البَهَاشِمِةِ[٢] النِّغَالِ
وَعَمْرو هكذا أَعْني ابْنَ بَحْرٍ[٣] ... وَغَيْرُهُمُ مِنَ اصحاب الشِّمالِ
فَرَأْيُ أُولَاءِ لَيْسَ يُفِيدُ شَيْئًا ... سِوى الهَذَيَانِ مِنْ قِيلٍ وَقَالِ
وَكُلُّ هَوى وَمُحْدَثَةٍ ضَلَالٌ ... ضَعِيفٌ في الحَقِيقَةِ كالخَيَالِ
فَهذَا مَا أَدِينُ بهِ إلٰهِي ... تَعَالَى عَنْ شَبِيهٍ أَوْ مِثَالِ
وَمَا نَافَاهُ مِنْ خُدَعٍ وَزُورٍ ... وَمِن بِدَعٍ فَلَمْ يَخْطُرْ بِبَالِي

قال الذهبي في السير (٢١ / ٣٦) : « صدق الناظم رحمه الله ، وأجاد ، فَلَأَنْ يعيشَ المسلمُ أخرسَ أبكمَ خيرٌ له من أن يمتلىء باطنُه كلامًا وفلسفةً .

ولله دَرُّ السِّلَفي حين يقول :

إنَّ عِلْمَ الحديثِ عِلْمُ رجالٍ ... تركوا الابتداعَ للاتباعِ
فإذا جنَّ ليلُهُم كتبوهُ ... وإذا أصبحوا غدَوْا للسماعِ

يقول السِّلفي :

ليس على الأرضِ في زماني ... مَنْ شأنُهُ في الحديث شاني
نظْمًا وضبْطًا بلى عُلُوًّا ... فيه على رغمِ كُلِّ شاني

وقال رحمه الله :

لَيْسَ حُسْنُ الحديثِ قُرْبَ رجالٍ ... عِنْدَ أَرْبَابِ علمه النُّقَّادِ
بل عُلُوُّ الحديث عِنْدَ أولي الإتْـ ... ـقانِ والحفظِ صِحَّةُ الإسْنادِ
فَإذَا ما تَجمَّعَا في حَدِيثٍ ... فاغْتَنِمْهُ فَذَاكَ أَقْصىٰ المُرَادِ »

---

(١) البصري وضرار بن عمرو القاضي وابن الأصمّ من كبار المعتزلة .
(٢) نسبةً إلى أبي هاشم عبد السلام بن أبي علي الجبائيّ ، رئيس معتزلة البصرة بعد أبيه ، والمُتوفَّى (٣٢١هـ) ، وتُسمَّى فرقته « البهشمية » وأتباعها : البهاشمة .
(٣) يعني الجاحظ المشهور ، وكان مُعتزليًّا .

٢٠٩ - أبو العلاء الهمذاني، الإمام الحافظ المُقرىء العلّامة، شيخ الإسلام، أبو العلاء ، الحسن بن أحمد بن الحسن بن أحمد الهمذاني ، العطّار ، شيخ همذان بلا مدافعة :

« سمع ببغداد وبأصبهان ، وارتحل إلى خراسان ، فسمع من محمد بن الفضل الفراوي صحيح مسلم ، وما زال يسمع ويرحل ، ويُسمِع أولاده ، وآخر قدماته إلى بغداد وكان بعد الأربعين ، فقرأ لأولاده على أبي الفضل الأرموي وابن ناصر وابن الزاغوني ، فحَدَّث إذ ذاك بها وأقرأ ، فتلا عليه بالعشرة أبو أحمد عبد الوهاب بن سُكينة .

قال الحافظ عبد القادر : شيخنا أشهرُ من أن يعَرَّف ، تعذّر وجودُ مثله من أعصار كثيرة على ما بلغنا من سير العلماء والمشايخ ، أربى على أهل زمانه في كثرة السماعات ، مع تحصيل أصول ما سمع ، وجودة النسخ ، وإتقان ما كتبه بخطِّهِ ، فإنه ما كانَ يكتب شيئًا إلا منقوطًا مُعربًا ، وأوّلُ سماعه من الدوني سنة (٤٩٥هـ) ، وبرع على حفّاظ عصره في حفْظ ما يتعلق بالحديث من الأنساب والتواريخ والأسماء والكُنى والقصص والسير .

ولقد كان يومًا في مجلسه وجاءته فتوى في أمْر عثمان رضي الله عنه ، فأخذها وكتب فيها من حفظه - ونحن جلوس - درجًا طويلًا ، ذكر فيها نَسَبَهُ ومولده ووفاته وأولاده وما قيل فيه ، إلى غير ذلك .

وله التصانيف في الحديث ، وفي الزهد والرقائق . وقد صنَّف كتاب « زاد المسافر » في خمسين مُجلَّدًا ، وكان إمامًا في الحديث وعلومه ، وحصَّل من القراءات ما إنه صنَّف فيها العشرة والمفردات، وصنَّف في الوقف والابتداء، وفي التجويد ، وكتابًا في ماءات القرآن ، وفي العدد ، وكتابًا في معرفة القُرَّاء في نحو من عشرين مُجلَّدًا ، استُحسنت تصانيفه وكُتبت ونُقلت إلى خوارزم وإلى الشام ، وبرع عنده جماعة كثيرة في القراءات ، وكان إذا جرى ذكْر

القُرّاء ؛ يقول : فلان مات عام كذا وكذا ، ومات فلان في سنة كذا وكذا ، وفلان يعلو إسناده على فلان بكذا .

وكان عَلَمًا إمامًا في النحو واللغة ، سمعتُ أنَّ من جملة ما حفظ كتاب « الجمهرة » ، وخرّج له تلامذة في العربية أئمة يُقرئون بهمذان .

وبعض أصحابه رأيته ، فكان من محفوظاته كتاب « الغريبين » لأبي عبيد الهروي وكان مُهينًا للمال ؛ باع جميع ما ورثه ، وكان من أبناء التجار ، فأنفقه في طلب العلم ، حتى سافر إلى بغداد وإلى أصفهان مراتٍ ماشيًا يحمل كُتُبَهُ على ظهره. سمعتُه يقول: كنتُ أبِيتُ ببغداد في المساجد، وآكل خُبْزَ الدخن . قال : وسمعتُ أبا الفضل بن بنيامان الأديب يقول : رأيتُ أبا العلاء العطَّار في مسجد من مساجد بغداد يكتب وهو قائم ؛ لأن السِّراج كان عاليًا إلى أن قال : فعظُم شأنه في القلوب حتى إنْ كان ليمرُّ في همذان ، فلا يبقى أحد رآه إلا قام ، ودعا له ، حتى الصبيان واليهود ، وربما كان يمضي إلى بلدة (مشكان) يُصلِّي بها الجمعة ، فيتلقَّاه أهلها خارج البلد ؛ المسلمون على حِدةٍ ، واليهود على حِدَةٍ ، يدعون له إلى أن يدخل البلد . وكان يُفتَحُ عليه من الدنيا جُمَلٌ فلا يدَّخِرها ؛ بل يُنفقها على تلامذته ، وكان على رسوم لأقوام ، وما كان يبرح عليه ألف دينار همذانية أو أكثر من الدَّيْن ، مع كثرة ما كان يُفتح عليه . وكان يطلب لأصحابه من الناس ويعزّ أصحابه ومَنْ يلوذ به ، ولا يحضر دعوة حتى يحضر جماعة أصحابه ، وكان لا يأكل من أموال الظلمة ، ولا قَبِلَ منهم مدرسةً قطُّ ولا رباطًا ، وإنما كان يُقرىء في داره ، ونحن في مسجده سكَّان، وكان يُقرىء نصف نهاره الحديث، ونصفه القرآن والعلم، ولا يخشى السلاطين ، ولا تأخذه في الله لومةُ لائم ، ولا يُمكّن أحدًا في محلَّته أن يفعل مُنكرًا ولا سماعًا ، وكانت السُّنَّة شِعارَهُ ودثارَهُ اعتقادًا وفعْلًا ، بحيث إنه كان إذا دخل مجلسَهُ رجل فقدَّم رِجله اليسرى ؛ كلَّفه أنْ يرجع ويُقدِّمَ

اليمنى ، ولا يمسّ الأجزاء إلا على وضوء.إلى أن قال : سمعتُ مَنْ أثقُ به عن عبد الغافر بن إسماعيل الفارسي أنه قال في الحافظ أبي العلاء لمّا دخل نيسابور : ما دخل نيسابورَ مثلك . وسمعتُ الحافظ أبا القاسم علي ابن الحسن يقول - وذكر رجُلًا من أصحابه رحل -: إنْ رجع ولم يلق الحافظ أبا العلاء ؛ ضاعت رحلتُه » .

قال الذهبي : « كان أبو العلاء الحافظ في القراءات أكبر منه في الحديث ، مع كونه من أعيان أئمة الحديث »[1] .

٢١٠ - الفقيه الشافعي، المُقرىء المُحدِّث، المُتعبِّد الزاهد، أبو الحسن، علي بن أحمد بن مَحْمُويه اليزدِي :

« كان عاملًا بعلمه، كثير المحفوظ، من الفقهاء المُتعبِّدين، وصنَّف الكثير، وزادت مُصنَّفاته على خمسين مُصنَّفًا في أنواع العلوم؛ حديثًا وفقهًا وزُهْدًا.

قال السمعاني : وكان له عمامة وقميص بينه وبين أخيه ؛ إذا خرج هذا قعد ذاك في البيت ، وإذا خرج ذاك قعد هذا في البيت . سمعتُه يقول وقد دخلتُ عليه داره مع علي بن الحسين الغزنوي الواعظ مُسلِّمًا عليه ، فوجدناه عُريانًا مُتئزِّرًا بمئزر ، فاعتذر من العُري ، وقال : نحن إذا غسلنا ثيابنا نكون كما قال القاضي أبو الطيِّب الطبري :

قوم إذا غسلوا ثيابَ جمالِهِمْ لبسوا البيوتَ إلى فراغ الغاسل »[2]

٢١١ - الإمام الزبيدي اليمني ، القدوة العابد الواعظ ، أبو عبد الله محمد ابن يحيى بن علي القرشي الزبيدي :

« قدم دمشق فوعظ بها ، وأخذ يأمر بالمعروف ، فلم يتحمَّل له الملك

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢١/٤٠- ٤٤ .

(٢) ذيل تاريخ بغداد لابن النجار ٣/٤٩، وطبقات الشافعية ٧ / ٢١١ .

طُغْتكين ، وكان يقول الحقَّ وإنْ كان مُرًّا ، لا تأخذه في الله لومةُ لائم ، وكان نحويًّا فقيرًا قانعًا مُتألِّها حنفيًّا سلفيًّا .

قال الوزير يحيى بن هبيرة : جلستُ معه من بكرة إلى قريب الظهر وهو يلوك شيئًا ، فسألتُه ، فقال : نواة أتعلَّل بها ، لم أجد شيئًا .

قال ابن شافع: كان له في علم العربية والأصول حفظٌ وافرٌ، وصنَّف في فنون العلم نحوًا من مائة مُصنَّف، ولم يُضيِّعْ شيئًا من عمره»[1].

٢١٢ - الفيروزآبادي ، صاحب القاموس :

« الإمام الهمام قاضي القضاة مجد الدين ، أبو طاهر محمد بن يعقوب ابن محمد الشيرازي ، اللُّغوي ، المُحدِّث ، المُفسِّر ، المؤرِّخ ، الأديب ، قاضي اليمن . حفظ القرآن وهو ابن سبع سنين ، وكان سريع الحفظ ، وكان يقول : لا أنام حتى أحفظ مائتي سطر . وانتقل إلى شيراز وهو ابن ثماني سنين ، وأخذ عن والده ، وعن القوام عبد الله بن محمود وغيرهما من علماء شيراز . وانتقل إلى العراق ، فدخل واسط وبغداد ، وجال في البلاد الشرقية والشامية ، ودخل بلاد الروم والهند ومصر ، وأخذ من علمائها ، ولقي الجمَّاءَ الغَفيرَ من أعيان الفضلاء، وأخذ عنهم شيئًا كثيرًا بيَّنه في «فهرسته»، وبرع في الفنون العلمية ، وجوَّد الخطَّ ، وفاق الأقران ، واعتنى بالحديث جدًّا ، وتوسَّع في الحديث والتفسير ، وجدَّ واجتهد في علم اللغة ، فمهر فيه إلى أن بهر ، وفاق مَنْ حضر ومَنْ غبر ، وكان لا يُسافر إلا وصحبَتْهُ عدَّة أحمال كثيرة من الكتب ، ويُخرجها في كل منزلة لينظر فيها ، وحصَّل كُتُبًا نفيسة ، لكنه كان كثير التبذير ، فلا يُبقي ولا يذر ، وإذا أملق باع

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٠/٣١٦ .

كُتُبَه »[١] .

٢١٣ - الإمام أبو الفتح ابن برهان ، أحمد بن علي البغدادي الأصولي :

« كان حنبليَّ المذهب أوَّلًا ، ثم انتقل إلى المذهب الشافعي ، وتفقَّه على الشاشي، والغزالي، وإلكيا الهراسي، كان حاذق الذهن، عجيب الفطرة، لا يكاد يسمع شيئًا إلا حفظه وتعلَّق بذهنه . و لم يزل مواظبًا على العلم حتى ضُرب المثل باسمه ، وكانت الرحلة قد انتهت إليه ، وتزاحمتْ الطَّلَّابُ على بابه حتى انتهى حاله إلى أن صار جميعَ نهاره وقطعةً من ليله مُستوعبًا في الاشتغال ، يجلس من وقت السَّحَرِ إلى وقت العشاء الآخرة ، ويتأخَّر أيضًا بعدها .

حكى أنَّ جماعةً سألوه أن يذكر لهم درسًا من كتاب « الإحياء » للغزالي؛ فقال: لا أجد لكم وقتًا، فكانوا يعيِّنون الوقت، فيقول: في هذا الوقت أذكر الدرس الفلاني ، إلى أن قرروا معه أن يذكر لهم درسًا من « الإحياء » نصف الليل »[٢] .

٢١٤ - ابن الخشَّاب :

« أبو محمد ، عبد الله بن أحمد بن الخشَّاب ، الحنبلي البغدادي الإمام ، النحوي اللغوي ، المُفسِّر المقرىء ، المُحدِّث الأديب .

ذكر ابن النجَّار أنه لم يَمُتْ أحدٌ مِن أهل العلم وأصحاب الحديث إلا وكان يشتري كُتُبَهُ كُلَّها ، فحصلت أصول المشايخ عنده ، وكان لا يخلو كُمُّهُ من كُتُبِ العلم .

وذُكر عنه أنه اشترى يومًا كُتُبًا بخمسمائة دينار و لم يكن عنده شيء ،

---

(١) مُقدمة تاج العروس للمرتضى الزبيدي ١ / ١٣ .

(٢) طبقات الشافعية ٦/٣٠ .

فاستمهلهم ثلاثة أيام ، ثم مضى ونادى على داره ، فبلغت خمسمائة دينار ، فنقد صاحب الكتب وباعه بخمسمائة دينار ، ووُفِّي ثمنَ الكتب ، وبقيتْ لصاحب الكتب الدار ، ولمّا مرض أشهد عليه بوقف كُتُبه »[1] .

٢١٥ - الإمام القدوة ابن الخاضبة ، أبو بكر ، محمد بن أحمد البغدادي :

« قال محمد بن طاهر المقدسي : سمعتُ ابن الخاضبة يقول : لما كانت سنة الغرق سنة (٤٦٦هـ) في بغداد ، لم يكن لي شيءٌ ! وكانت عندي عائلة : الوالدة والزوجة والبنات ، فكنتُ أنسخ وأُنفق عليهن ، فأعرف أني كتبتُ صحيح مسلم في تلك السنة سبع مرَّات ، فلما كانت ليلة من الليالي رأيتُ في النوم كأن القيامة قامت ومنادٍ يُنادي : أين ابن الخاضبة ، فأُحضرتُ ، فقيل لي : ادخل الجنة ، فلما دخلتُ الباب وصرتُ من الداخل استلقيتُ على قفاي ، ووضعت إحدى رجليَّ على الأخرى ، وقلتُ : استرحتُ والله من النسخ »[2] .

٢١٦ - حُجَّة الدين ابن ظفر الصقلِّي المكي الحموي ، أبو عبد الله ، محمد بن عبد الله بن ظفر :

« النحوي ، اللُّغوي ، الرحَّالة .

وُلد في صقلية، ونشأ بمكة المكرمة، وتنقَّل في البلاد، فدخل المغرب ، وأجال في الأندلس ، وانتقل إلى صقلية ، ثم إلى مصر ، ثم قدم حلب ، وأقام بمدرسة بقُرب قلعة حلب ، وصنَّف فيها تفسيرًا كبيرًا جميلًا في مُصنَّف « الينبوع » ، ولما نهبت حلب قصد مدينة حماة واستوطنها ، ولسان حاله يقول :

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة ١ / ١٨٥ .

(٢) تذكرة الحفاظ ٤ / ١٢٢٦ .

تقاذفُ الأهوالُ بي كأنني وُلِّيتُ أمرَ مساحةِ الآفاقِ

زوَّج ابنته من الحاجة والضرورة بغير كفء ! فرحل بها الزوج عن حماة ، وباعها في البلاد !!! ولقي هو قبولًا في حماة ، فاستقرَّ بها ، وأفاد الطلبة ، وأُجري له راتب دون الكفاف ، ولم يزل يُكابد الفقر إلى أنْ مات رحمه الله تعالى. صنَّف الكتب الجميلة في أنواع الأدب، وترك من التآليف نحو ثلاثين كتابًا ؛ فيها الفريد والعجيب ، وله شِعْر ؛ منه قوله :

على قدْر فضل المرءِ تأتي خطوبهُ ويُعرفُ عندَ الصبر فيما يُصيبهُ

ومَنْ قلَّ فيما يتَّقيه اصطبارُهُ فقد قلَّ فيما يرتجيه نصيبُهُ »[١]

٢١٧ - الكمال الأنباري :

« الإمام القدوة ، شيخ النحو ، كمال الدين أبو البركات ، عبد الرحمن ابن محمد بن عبيد الله الأنباري .

تفقَّه بالنظامية في بغداد على أبي منصور الرزّاز وغيره ، وبرع في مذهب الشافعي ، وقرأ الخلاف ، وسمع الحديث بالأنبار من أبيه وخليفة بن محفوظ ، وببغداد من أبي منصور بن خيرون وعبد الوهاب الأنماطي والقاضي أبي بكر محمد بن القاسم الشهرزوري وعدَّةٍ، وحدَّث وأعاد بالنظامية ووعظ.

ثم إنه تأدَّب بابن الجواليقي وأبي السعادات ابن الشجري ، وشرح عدَّة دواوين ، وتصدَّر ، وصار شيخ العراق في الأدب غير مُدافَع ، وأخذ عنه أئمة ، وكان إمامًا كبيرًا في النحو ، ثقةً ، عفيفًا ، مُناظرًا ، غزيرَ العلم ، وَرِعًا ، زاهدًا ، عابدًا ، تقيًّا ، لا يقبل من أحد شيئًا ، وكان خشنَ العيش ، جَشْبَ المأكل والملبس ، لم يتلبَّس من الدنيا بشيء ، مضى على أَسَدِّ طريقة ، وسرد له ابن النجار تصانيف جمَّة ، وإليه كانت الرحلة من سائر الأقطار .

(١) « إنباه الرواة » للقفطي ٣ / ٧٤ ، الوفيات لابن خلّكان ١ / ٥٢٢ ، وبغية الوعاة للسيوطي (صـ ٥٩) بتصرف .

قال الموفّق بن عبد اللطيف البغدادي تلميذه : الكمال شيخنا ، لم أرَ في العُبَّاد المنقطعين أقوى منه في طريقه ، ولا أصدق منه في أسلوبه ، جدٌّ محضٌ ، لا يعتريه تصنُّعٌ ، ولا يعرف الشرور ، ولا أحوال العالم ، كان له من أبيه دارٌ يسكنها وحانوت ؛ مقدارُ أجرتهما نصف دينار في الشهر، يقنع به، ويشتري منه ورَقًا، وسيَّر له الخليفة المُستضيء خمسمائة دينار ، فردَّها ، فقالوا له : اجعلها لولدك ، قال : إن كنت خلقتُه فأنا أرزقُه. وكان لا يُوقِد عليه ضوءًا، وتحته حصير قَصَب، وعليه ثوبٌ وعمامة من قُطن يلبسهما يوم الجمعة ، وكان لا يخرج إلا للجمعة ، ويلبس في بيته ثوبًا خِلقًا. وله مائة وثلاثون مُصنَّفًا، رحمه الله تعالى»[1] ومنها كتابه المشهور : « نزهة الألبَّاء في طبقات الأدباء » .

٢١٨ - الإمام الشاطبي ، شيخ القرَّاء :

« الشيخ العامل القدوة ، سيِّد القرَّاء ، أبو محمد وأبو القاسم ، القاسم ابن فِيرُّه ابن خلف الرُّعَيْني الأندلسي ، الشاطبي ، الضرير .

ناظمُ « الشاطبية » و « الرائية » اللتين في القراءات والرسم ، حَفظهما خلْقٌ لا يُحصَون ، وخضع لهما فحول الشعراء ، وكبار البُلغاء ، وحُذَّاق القُرَّاء ، فلقد أبدع وأوجز وسَهَّل الصعبَ .

تلا ببلده بالسبع على أبي عبد الله بن أبي العاص النَّفْري ، ورحل إلى «بَلَنْسِيَة»، فقرأ القراءات على أبي الحسن بن هُذَيل، وعرض عليه «التيسير» لأبي عمرو الداني من حفظه ، وسمع منه الكتب ، وسمع من آخرين ... وارتحل للحج ، فسمع من أبي طاهر السلفي وغيره .

وكان يتوقَّدُ ذكاءً ، له الباع الأطول في فنِّ القراءات والرسم والنحو والفقه والحديث ، وله النظم الرائق ، مع الورع والتقوى والتألُّه والوقار .

(١) سير أعلام النبلاء ٢١ / ١١٣ ، وطبقات الشافعية للسبكي ٧ / ١٥٥ .

استوطن مصر وتصدَّر ، وشاع ذكْرُهُ ، وعظُمَ شأنُهُ ، وبعُد صيتُه ، انتهت إليه رياسة الإقراء ، وقصده الطلبة من النواحي .

قال أبو شامة : أخبرنا السخاوي أن سبب انتقال الشاطبي من بلده ؛ أنه أُريدَ على أن يليَ الخطابة ، فاحتجَّ بالحجِّ ، وترك بلده ولم يَعُدْ إليه ؛ تورُّعًا مما كانوا يُلزمون به الخطباء ؛ من ذكرهم الأمراء بأوصاف لم يرها سائغة ، وصبر على فقر شديد »[1] .

٢١٩ - الإمام الجُزُولي ، إمام النحو ، أبو موسى عيسى بن عبد العزيز الجزولي البَربري المراكشي :

« كان إمامًا في النحو ، كثيرَ الاطلاع على دقائقه وغريبه وشاذِّهِ .

حجَّ ولازم عبد الله بن بري بمصر ، وأتقن عنه العربية واللغة ، وسمع « صحيح البخاري » من أبي محمد بن عُبيد الله ، ثم رجع إلى بلاد المغرب ، وأقام بمدينة (بجاية) مُدَّة ، وتصدَّر بالمَرِيّة وغيرها ، وتخرَّج به أئمةٌ وخلْقٌ كثير ، وكان إمامًا لا يُجارى ، وعلَّامة لا يُشَقُّ غُبارُه في النحو ، مع جودة التفهيم وحُسْن العبارة .

قال الذهبي : وقرأتُ بخطِّ محمد بن عبد الجليل المُوقاني أن الجُزولي قاسى بمدة مقامه بمصر كثيرًا من الفقر ، ولم يدخل مدرسة ، وكان يخرج إلى الضياع يؤمُّ بقوم ، فيُحصِّل ما يُنفقه في غاية الصبر .

ورجع إلى المغرب فقيرًا مُدْقعاً ، فلما وصل إلى المَرِيَّة أو نحوها ؛ رهن كتاب ابن السرَّاج الذي قرأه على ابن بَرّي وعليه خطّه ! فأنهى المُرتهِنُ أمْرَهُ إلى الشيخ أبي العباس المغربي أحد الزُّهَّاد بالمغرب ، وكان يُصاحب بني عبد المؤمن، فأنهى أبو العباس ذلك إلى السلطان ، فأمر بإحضاره ، وقدَّمه وأحسن إليه »[2] .

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٦١/٢١ ، و « معرفة القُرَّاء الكبار » ٢ / ٥٧٣ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٤٩٧/٢١، و « وفيات الأعيان » لابن خلكان ٤٨٨/٣ .

٢٢٠ - الفقيه المالكي ، أبو محمد عبد العزيز بن محمد القروي :

« قال ابن الخطيب القُسنطيني في « رحلته » : قال لي بعض الفقهاء : دخلتُ على عبد العزيز وهو مُحتزِمٌ في كسائه ، وكُتُبُ الفقه مبسوطةٌ بين يديه ، وأعراقه تقطر عليه ، وماؤه في غاية ما يكون من الوسخ ! فقلتُ له : ارفقْ بنفسك ، واغسلْ كساءك ، فقال : لي ستة أشهر نروم غسْلَها وما وجدتُ سبيلًا لذلك ، من أجل هذا الشغل - أي الانهماك في العلم - فتعجَّبتُ منه وانصرفتُ »[1] .

٢٢١ - الإمام أبي علي الفارسي ، الحسن بن أحمد الفسوي :

أوحد زمانه في علم العربية .

« قال عثمان بن جنِّي : حدَّثني شيخنا أبو علي أنه وقع حريق بمدينة السلام ، فذهب به علمُ البصريين .

قال : وكنتُ كتبتُ ذلك كلَّه بخطِّي ، وقرأتُه على أصحابنا ، فلم أجد من الصندوق الذي احترق شيئًا ألبتة ، إلا نصف كتاب الطلاق عن محمد بن الحسن . وسألتُه عن سلوته وعزائه ، فنظر إليَّ عاجبًا ، ثم قال : بقيتُ شهرين لا أُكلِّم أحدًا حزنًا وهمًّا ! وانحدرتُ إلى البصرة لغلبة الفكر عليَّ ، وأقمتُ مُدَّةً ذاهلًا مُتحيِّرًا ! »[2] .

وفقْدُ الكتابِ كفقدِ الصواب   فيا هول مَنْ قد أضاع الكُتُبْ

٢٢٢ - أبو الحسن القالي ، علي بن أحمد بن سَلَّك القالي ، المُحدِّث الأديب الشاعر :

« حكى الخطيب التبريزي أنَّ أبا الحسن علي بن أحمد القالي كانت

(١) نيل الابتهاج بتطريز الديباج لأحمد بابا التنبكتي (صـ ١٧٩) .
(٢) معجم الأدباء ٧ / ٢٥٧ .

له نسخة من كتاب « الجمهرة » لابن دُريد في غاية الجودة ، فدعتْهُ الحاجة إلى بيْعها ، فاشتراها الشريف المرتضى أبو القاسم بستين دينارًا ، وتصفَّحها فوجد بها أبياتًا بخط بائعها أبي الحسن القالي المذكور ، وهي :

أَنِسْتُ بِها عشرين حَوْلًا وبِعتُها ... لقد طال وَجْدي بعدها وحَنيني
وما كان ظَنِّي أنني سأبيعُها ... ولو خلَّدتني في السجونِ دُيوني
ولَكِنْ لضعْفٍ وافتقارٍ وصبيةٍ ... صِغارٍ عليهم تَستَهلُّ شُؤوني
فقلتُ ولم أَمْلِكْ سوابقَ عَبْرتي ... مقالةَ مَكويٍّ الفؤادِ حزينِ
وقد تُخرِجُ الحاجاتُ يا أُمَّ مالكٍ ... كرائم من رَبٍّ بهنَّ ضَنينِ

فأرجع النسخة إليه ، وترك له الدنانير رحمه الله تعالى »[١] .

قال القالي في غربة العلماء وذهاب العلم وأهله :

لما تبـدَّلتِ المجالسُ أوجُهًـا ... غيرَ الذين عهدتُ من علمائِها
ورأيتُها محفوفةً بِسِوى الأُلَى ... كانوا وُلاةَ صُدورِها وفِنائها
أنشدتُ بيتًا سائرًا مُتقدِّمًـا ... والعينُ قد شَرِقَتْ بجاري مائِها
« أمَّا الخيامُ فإنها كخيامِهم ... وأرى نساءَ الحيِّ غير نسائها »

ومن شِعْره :

تصدَّرَ للتدريس كلُّ مُهوَّسٍ ... بليدٍ تَسمَّى بالفقيهِ المُدَرِّسِ
فَحُقَّ لأهل العلم أن يتمثَّلُوا ... ببيتٍ قديمٍ شاعَ في كُلِّ مجلسِ
لقد هُزِلَتْ حتى بدا من هُزَالِها ... كُلاها وحتى سامَهَا كلُّ مُفْلِسِ

٢٢٣ - الشيخ الحدَّاد المهدوي ، أبو الحسن ، علي بن محمد بن ثابت الخولاني :

باع كُتُبهُ اضطرارًا وفقرًا ، فتسأله زوجته - وهي تعرف حُبَّه لكُتُبه ،

(١) وفيات الأعيان في أبناء الزمان ١ / ٣٣٧ .

وشِدَّة تعلّقِه بها -: كيف بعت الكتب وهي أعزُّ شيء لديك ؟! فيقول لها :

قالتْ وأبدتْ صفحةً كالشمسِ من تحتِ القِناعْ
بِعْتَ الدفاترَ وهي آ خِرُ ما يُبَاعُ مِن المَتَاعْ
فأجبتُها ويدي على كَبِدي وهَمَّتْ بانصداعْ
لا تَعْجَبي مما رَأيـ ـتِ فنحنُ في زمنِ الضَّيَاعْ(١)

٢٢٤- الإمام ابن هشام النحوي المصري، أبو محمد، جمال الدين عبد الله ابن يوسف :

صاحب كتاب « القطر » و « المغني » .

قال :

ومَنْ يصطبرْ للعلمِ يظفرْ بنيلِهِ ومَنْ يَخْطُب الحسناءَ يصبرْ على البذلِ
ومَنْ لم يُذِلَّ النفسَ في طلبِ العُلا يسيرًا يَعِشْ دهرًا طويلًا أخا ذُلِّ

٢٢٥ - الإمام يونس بن حبيب البصري ، أبو عبد الرحمن :

« أخذ الأدب عن أبي عمرو بن العلاء وحمَّاد بن سلمة ، وكان النحو أغلب عليه ، وسمع من العرب .

وروى عنه سيبويه كثيرًا ، وسمع منه الكسائيُ والفرَّاء ، وله قياس في النحو ، ومذاهب ينفرد بها ، وكان من الطبقة الخامسة ، وكانت حَلْقتُهُ بالبصرة ينتابها الأدباء وفُصَحاء العرب وأهل البادية .

قال مَعْمر بن المُثنى : اختلفتُ إلى يونس أربعين سنة ، أملأ كلَّ يومٍ ألواحي من حفظه .

وقال أبو زيد الأنصاري النحوي : جلستُ إلى يونس بن حبيب عشر سنين ، وجلس إليه قبلي خلف الأحمر عشرين سنة .

(١) معجم البلدان لياقوت الحموي ٨ / ٢٠٨ .

وقال إسحاق بن إبراهيم الموصلي : عاش يونس بن حبيب (٨٨) سنة ، لم يتزوَّجْ ولم يتسرَّ ، ولم تكن له هِمَّة إلا طلب العلم ومحادثة الرجال ، وله من الكتب : معاني القرآن الكريم ، وكتابُ اللغات ، وكتاب الأمثال ، وكتاب النوادر الصغير ، وكتاب النوادر الكبير ، ومعاني الشعر ؛ رحمه الله تعالى »[١] .

٢٢٦ - الإمام معمر بن المثنى ، أبو عبيدة البصري النحوي :

الإمام في العلم ، الذي صحب شيخه يونس بن حبيب أربعين سنة .

قال عنه الجاحظ : لم يكن في الأرض خارجي ولا جماعي أعلم بجميع العلوم منه .

ترك من المؤلَّفات نحو (٢٠٠) كتاب .

٢٢٧ - أبو زيد الأنصاري النحوي ، سعيد بن يونس ، شيخ الأصمعي :

قال أبو عثمان المازني : كنا عند أبي زيد ، فجاء الأصمعي إلى حلقة أبي زيد ، فأكبَّ على رأسه ، فقبَّله وجلس بين يديه ، وقال : أنت رئيسُنا وسيِّدُنا ومُعلِّمُنا عشرين سنة . ولفظُ ابن خلِّكَان : خمسين سنة .

رحمة الله على العلماء !!

قال مالك : كان الرجل يختلف إلى الرجل ثلاثين سنةً يتعلم منه .

وهذا عبد الله بن نافع تلميذ مالك يقول : جالستُ مالكًا خمسًا وثلاثين سنة .

وهذا الإمام أحمد بن حنبل بعد أن لزم هُشيمًا أربع سنوات يقول : لزمنا إسماعيل بن عُليَّة بعدما مات هُشيم عشر سنين كُلَّ يومٍ ، لا نُخِلُّ إلا أن تكون الحاجة .

---

(١) وفيات الأعيان ٢ / ٤١٦ .

٢٢٨ - الحافظ المؤرِّخ الرحَّال ابن النجَّار :

الإمام البغدادي ، محمد بن محمود مُحبّ الدين ، أبو عبد الله ، مُفيد العراق .

« أوَّلُ شيءٍ سمع وله عشر سنين ، وأول عنايته بالطلب وهو ابن خمس عشرة سنة ، وتلا بالروايات الكثيرة على أحمد بن أبي سُكينة وغيره .

سمع بأصبهان وبنيسابور وبهراة وبدمشق وبمصر ... وجمع فأوعى ، وكتب العالي والنازل ، وخرّج لغير واحد ، وجمع تاريخ مدينة السلام ، وذَيَّل به ، واستدرك على الخطيب ، وهو ثلاثمائة جزء . وكان من أعيان الحُفَّاظ الثقات ، مع الدِّين والصيانة والنُّسُك والفهم وسعة الرواية .

قال ابن الساعي - تلميذه -: كانت رحلة ابن النجار سبعًا وعشرين سنة ، واشتملت مشيختُه على ثلاثة آلاف شيخ . ألَّف :

١ - كتاب القمر المُنير في المُسنَد الكبير . ذكر كل صحابيٍّ وما له من الحديث .

٢ - وكتاب كنز الإمام في السُّنَن والأحكام .

٣ - وكتاب المؤتلف والمختلف . ذيَّل به على ابن ماكولا .

٤ - وكتاب المتفق والمفترق .

٥ - وكتاب أنساب المُحدِّثين إلى الآباء والبلدان .

٦ - وكتاب العوالي .

٧ - وكتاب المعجم .

٨ - وكتاب جُنَّة الناظرين في معرفة التابعين .

٩ - وكتاب العقد الثقفي .

١٠ - وكتاب الكمال في الرجال .

١١ - وذيل التاريخ في ستة عشر مُجلَّدًا .

١٢ - وكتاب الدُّرَر الثمينة في أخبار المدينة .

١٣ - وكتاب روضة الأولياء في مسجد إيلياء .

١٤ - وكتاب نزهة الورى في ذكر أُمِّ القرى .

١٥ - وكتاب الأزهار في أنواع الأشعار .

١٦ - وكتاب عيون الفوائد ستة أسفار .

١٧ - وكتاب مناقب الشافعي .

وأوصى إليَّ ، ووقف كُتُبَهُ بالنظامية ، وكان رحمه الله تعالى من محاسن الدنيا »[1] .

نفسي فداؤك من ميْتٍ ومن بدنٍ ... ما أَطْيَبَ الذِّكْرَ والأخلاقَ والجسدا

٢٢٩ - المُسنِد ابن عبد الدائم المقدسي ، زين الدين أبو العباس ، أحمد ابن عبد الدائم ت (٦٦٨هـ) :

رحل إلى بغداد ، وتلقَّى عن مشايخ عصره ، وقرأ بنفسه ، وتفرَّد بالإسناد والرواية عن جملة من شيوخه ، وغدا مُسنِدَ الوقت في زمنه ، وانتهى إليه عُلُوّ الإسناد ، وكانت الرحلة إليه من أقطار البلاد .

روى عنه الأئمة الكبار والحفاظ المتقدمون؛ كالضياء المقدسي، والبرزالي، وابن الحاجب ، وغيرهم ، والمتأخرون ؛ كالنووي ، وابن دقيق العيد ، وابن تيمية ، والدمياطي ، وخلائق كثيرون .

كان مُحدِّثًا مُسنِدًا ، ونسَّاخًا عجبًا ، كتب بخطِّه السريع المليح ما لا يدخل تحت الحصر ، لنفسه وبالأجرة ، وكان يكتب بسرعة ، حتى كان يكتب في اليوم تسع كراريس أو أكثر إذا تفرَّغ، ويكتب الكراسَيْن والثلاثة– مع اشتغاله – في يوم وليلة ، وكتب « مختصر الخرقي » في ليلة واحدة ، وقد كتب « تاريخ دمشق » لابن عساكر مرتين . ولازم النسخ خمسين سنة ،

---

(١) تذكرة الحفّاظ ٤ / ١٤٢٨ .

وكتب بيده ألفي مُجلَّدة، وأُضِرَّ بآخر عمره أربع سنين، وكتب «المغني» لشيخه الموفق ابن قُدامة المقدسي مرّات ، وروى الحديث ستين سنة .

ومن شِعْرِه - وقد أدركتْهُ الشيخوخة ، وغلبه الضعفُ ، فوقف عن الاشتغال والكتابة - قوله :

عَجَزْتُ عن حَمْلِ قِرْطاسٍ وعن قَلَمٍ ... مِنْ بعدِ إلْفِيَ بالقرطاسِ والقَلَمِ
كتبتُ ألفًا وألفًا من مُجلَّدةٍ ... فيها علومُ الورى من غيرِ ما ألمِ
ما العلمُ فخْرُ امرىءٍ إلا لعامِلِهِ ... إنْ لم يكنْ عَمَلٌ فالعلمُ كالعدمِ
العلمُ زينٌ وتشريفٌ لصاحبِهِ ... فاعملْ به فهو للطُّلّاب كالعَلَمِ
ما زلتُ أطلُبُهُ دهري وأكتُبُهُ ... حتى ابتُليتُ بضعف الجسم والهَرَمِ[1]

٢٣٠ - أبو الريحان البيروني ، محمد بن أحمد الخوارزمي ، المؤرخ اللغوي الأديب :

« كان أبو الريحان مع الفسحة في التعمير - فقد عاش (٧٨) سنة - وجلالة الحال في عامَّة الأمور ؛ مُكبًّا على تحصيل العلوم ، مُنصبًّا إلى تصنيف الكتب ، يفتح أبوابها ، ويُحيط بشواكلها وأقرابها ، ولا يكاد يُفارق يده القلم ، وعينه النظر ، وقلبه الفكر ، إلا فيما تمسُّ إليه الحاجة في المعاش ؛ من بلغة الطعام وعُلْقة الرِّياش .

ثم هِجِّيراه[2] في سائر الأيام من السَّنَةِ علْمٌ يسفر عن وجهه قناع الإشكال، ويحسر عن ذراعيه كِمام الإغلاق .

حدَّث الفقيه أبو الحسن علي بن عيسى الوَلْوَالِجي ، قال : دخلتُ على

(١) العِبَر للذهبي ٥/٢٨٨، و « البداية والنهاية » لابن كثير ١٣/٢٥٧، فوات الوفيات لابن شاكر ١/٤٦ .

(٢) أي ديدنه ودوام حاله .

أبي الريحان وهو يجود بنفسه ، قد حشرج نَفَسُهُ ! وضاق به صدرُهُ ! فقال لي في تلك الحال : كيف قلتَ لي يومًا : حساب الجَدَّات الفاسدة[1] . فقلتُ له إشفاقًا عليه : أفي هذه الحالة ؟! قال لي :يا هذا ، أُودِّع الدنيا وأنا عالم بهذه المسألة ، ألا يكون خيرًا من أن أُخلِّيها وأنا جاهل بها ؟! فأعدتُ ذلك عليه ، وحَفِظ وعَلَّمَني ما وعد ، وخرجتُ من عنده وأنا في الطريق ، فسمعتُ الصراخ ! »[2] .

لله ما أغلى العلم على قلوبهم ! وما أشغل خواطرهم وعقولهم به ؟! حتى في ساعة النزع لم يتذكروا فيها زوجة أو ولدًا أو قريبًا عزيزًا ، وإنما تذكروا العلم !

وإنَّ سيادَةَ الأقوام فاعلمْ لهَا صَعْداءُ مطلعُها طويلُ

٢٣١ - شيخ الإسلام ، أبو الفرج ابن الجوزي :

الشيخ الإمام العلَّامة ، الحافظ المفسِّر ، مفخر العراق ، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد القرشي .

وُلد سنة تسع أو عشر وخمسمائة. وأوَّلُ شيء سمع في سنة ست عشرة.

قال الذهبي في « سير أعلام النبلاء » (٢١ / ٣٦٧) : « كان رأسًا في التذكير بلا مُدافعة ، يقول النظم الرائق والنثر الفائق بديهًا ، ويُسهب ويُعجب ، ويُطرب ويُطنِب ، لم يأت قبله ولا بعده مثلُه ، فهو حامل لواء الوعظ ، والقيم بفنونه ، مع الشكل الحسن ، والصوت الطيِّب ، والوقع في النفوس ، وحُسن السيرة ، وكان بحرًا في التفسير ، علَّامة في السِّيَر والتاريخ ، عليمًا بالإجماع والاختلاف ، ما عرفتُ أحدًا صنَّف ما صنَّف ، وكان ذا حظٍّ عظيم وصيتٍ بعيد في الوعظ ، يحضر مجالسه الملوكُ والوزراءُ

---

(١) أي في الميراث ، وهي التي تكون من قِبَل الأم .

(٢) معجم الأدباء لياقوت الحموي ١٧ / ١٨١ - ١٨٢ .

وبعضُ الخلفاء والأئمة والكُبَراء ، لا يكاد المجلس ينقص عن ألوف كثيرة .

قال سبطه أبو المظفر : سمعتُ جدِّي على المنبر يقول : بأصبعيَّ هاتين كتبتُ ألفيْ مُجلَّدة ، وتاب على يديَّ مائة ألف ، وأسلم على يديَّ عشرون ألفًا ، وكان يختم في الأسبوع »(١) .

وُجد بخطِّه قبل موته أنَّ تواليفه بلغت مائتين وخمسين تأليفًا .

قال رحمه الله - يصف انهماكه في طلب العلم ، وإنفاق شبابه في تحصيله ، ويذكر مَلاذَّ ذلك الانهماك والإنفاق في زمن الاكتهال والاكتمال -: « مَنْ أنفق عصر الشباب في العلم ؛ فإنه في زمن الشيخوخة يحمد جَنْي ما غرس ، ويلتذُّ بتصنيف ما جمع ، ولا يرى ما يفقد من لذَّات البدن شيئًا بالإضافة إلى ما يناله من لذَّات العلم ، هذا مع وجود لذَّاته في الطلب الذي كان تأمَّل به إدراك المطلوب ، وربما كانت تلك الأعمال أطيبَ مما نيل منها ، كما قال الشاعر :

أهتزُّ عند تمنِّي وصْلِها طربًا ... وُربَّ أمنيةٍ أحلى من الظَّفَرِ

ولقد تأمَّلتُ نفسي بالإضافة إلى عشيرتي الذين أنفقوا أعمارهم في اكتساب الدنيا ، وأنفقتُ زمن الصبوة والشباب في طلب العلم ، فرأيتني لم يفُتني مما نالوه إلا ما لوْ حصل لي ندمتُ عليه ، ثُمَّ تأمَّلتُ حالي فإذا عيشي في الدنيا أجود من عيشهم ، وجاهي بين الناس أعلى من جاههم ، وما نلتُه من معرفة العلم لا يُقَوَّم . فقال لي إبليس : ونسيتَ تعبَك وسهَرَك ؟! فقلتُ له : أيها الجاهل ، تقطيعُ الأيدي لا وَقْع له عند رؤية يوسف ، وما طالتْ طريق أدَّتْ إلى صديق :

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢١ / ٣٧٠ .

جزى الله المسير إليه خيرًا وإن تــرك المطايا كالمزادِ »[١]

أين هِمَّةُ ابن الجوزي في شبابه ولذّته في تحصيل العلم .. من شباب قال فيهم أبو عبد الله المراغي الفقيه الشافعي :

إذا رأيتَ شبابَ الحيِّ قد نشئوا لا يَنقُلُون قِلال الحِبْرِ والوَرقَا
ولا تراهم لدى الأشياخ في حِلَقٍ يَعُونَ من صالحِ الأخبارِ ما اتَّسقا
فَذَرْهُمُ عنك واعلمْ أنَّهم هَمَجٌ قد بدَّلُوا بعُلوِّ الهِمَّةِ الحُمُقَا[٢]

يقول ابن الجوزي مُتحدِّثًا عن الشدائد التي نالته في بدء طلبه للعلم ، وعن محامد صبره على تلك الشدائد : « ولقد كنتُ في حلاوة طلبي للعلم ألقى من الشدائد ما هو عندي أحْلى من العسل ؛ لأجل ما كنتُ أطلب وأرجو .

ومنْ تكنِ العلياءُ هِمَّةَ نَفْسِهِ فكُلُّ الذي يَلْقَاهُ فيها مُحَبَّبُ

كُنتُ في زمن الصِّبا آخذ معي أرغفة يابسة ، فأخرج في طلب الحديث ، وأقعد على نهر عيسى في بغداد ، فلا أقدر على أكْلها إلا عند الماء ، فكلما أكلتُ لقمة شربتُ عليها ، وعينُ هِمَّتي لا ترى إلا لذَّة تحصيل العلم ، فأثمر ذلك عندي أني عُرفتُ بكثرة سماعي لحديث الرسول ﷺ وأحواله وآدابه ، وأحوال أصحابه وتابعيهم »[٣] .

وقال رحمه الله : « ولم أقنعْ بفنٍّ واحدٍ ، بل كنتُ أسمعُ الفقه والحديث ، وأتْبعُ الزّهّاد ، ثم قرأتُ اللغة ، ولم أترك أحدًا ممن يروي ويعظ ،

---

(١) صيد الخاطر ٢ / ٣٢٩ والمطايا : المراد هنا النوق التي أضناهن السير ، حتى تركها جلدًا على عظم ، والمزاد : جمع مزادة ، وهي القربة من جلد إذا كانت خالية من الماء ، فإنها تكون لا قوة فيها .
(٢) الأنساب للسمعاني ٨ / ٩٧ .
(٣) صيد الخاطر ٢ / ٣٣٠ .

ولا غريبًا يقدُمُ ؛ إلا وأحضرُه وأتخيَّر الفضائل .

ولقد كنتُ أدور على المشايخ لسماع الحديث ، فينقطع نَفَسي من العَدْو لئلا أُسبَق ، وكنتُ أُصبح وليس لي مأكل ! وأُمسي وليس لي مأكل ! ما أذلَّني الله لمخلوق قطُّ ، ولو شرحت أحوالي لطال الشرحُ .

قال رحمه الله :

اللهَ أسألُ أن يُطوِّلَ مُدَّتي ... لأنـالَ بالإنعامِ ما في نِيَّتي
لي هِمَّةٌ في العلم ما إنْ مِثْلُها ... وهي التي جَنَتِ النُّحولَ هي التي
خُلقتْ من العِلْقِ العظِيمِ إلى المُنى ... دُعِيت إلى نيلِ الكمالِ فَلَبَّتِ
كمْ كان لي من مجلسٍ لو شُبِّهَتْ ... حالاتُـه لتشبَّـهتْ بالجَنَّـةِ
أشتاقُهُ لَمَّا مَضَتْ أيامُـهُ ... عُطْلًا وتُعْذَرُ ناقةٌ إنْ حَنَّتِ
يا هَلْ لِليلاتٍ بجمْعٍ عَـوْدَةٌ ... أمْ هلْ على وادي منًى من نَظْرَةِ
قدْ كان أحلى من تصاريفِ الصَّبَا ... ومن الحمامِ مُغنِّيًا في الأيكةِ
فيهِ البديهاتُ التي ما نَالَها ... خَلْقٌ بغيرِ مُخمَّـرٍ ومُبَـيَّتِ

٢٣٢ - الإمام ابن قدامة ، القدوة العلّامة المجتهد ، شيخ الإسلام ، موفق الدين أبو محمد ، عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي الجمَّاعيلي ، ثم الدمشقي الحنبلي صاحب « المغني » :

« ولد بجمَّاعيل من عمل نابلس سنة (٥٤١ هـ). حفظ القرآن ، ولزم الاشتغال من صِغَرِه ، وكان من بحور العلم وعالم أهل الشام في زمانه .

قال ابن النجَّار : كان إمامَ الحنابلة بجامع دمشق ، وكان ثقةً ، حُجَّةً ، نبيلًا ، غزير الفضل ، نَزِهًا ، وَرِعًا ، عابدًا ، على قانون السلف ، عليه النور والوقار ، ينتفع الرجل برؤيته قبل أن يسمع كلامه .

وقال عمر بن الحاجب : هو إمام الأئمة ، ومفتي الأُمَّة ، خصَّه الله بالفضل الوافر ، والخاطر الماطر ، والعلم الكامل ، طنَّتْ بذكْره الأمصار ،

وضنَّت بمثله الأعصار ... إلى أن قال : وله المؤلَّفات الغزيرة ، وما أظنُّ الزمان يسمح بمثله ، مجلسُهُ معمور بالفقهاء والمُحدِّثين .

رحل هو وابن خاله الحافظ عبد الغني المقدسي في أول سنة (٥٦١هـ) في طلب العلم إلى بغداد ، فأدرَكَا نحو أربعين يومًا من جنازة الشيخ عبد القادر ، فنزلا عنده بالمدرسة ، واشتغلا عليه تلك الأيام ، وسمعا منه .

وأقام هو والحافظ عبد الغني ببغداد أربع سنين ، فأتقنَا الفقه والحديث والخلاف ، وأقاما عند ابن الجوزي ، ثم انتقلا إلى رباط النعال ، واشتغلا على ابن المَنِّي ، ثم سافر في سنة (٥٦٧هـ) ومعه الشيخ العماد ، وأقاما سنة .

صنَّف «المغني» عشر مُجلَّدات، و «الكافي» أربعة، «والمقنع» مُجلَّد، و «العمدة» ، و « القُنعة » في الغريب ، مجيليد ، و « الروضة » مُجلَّد ، و « الرقة » مُجلَّد ، و « التوابين » مُجلَّد ، و « نسب قريش » ، مجيليد ، و « نسب الأنصار » مُجلَّد ، و « مختصر الهداية » مُجيليد ، و « القدر » جزء ، و « مسألة العُلُوِّ » جزء ، و « المتحابين » جزء ، و « الاعتقاد » جزء، و « البرهان » جزء، و «ذمّ التأويل» جزء، و «فضائل الصحابة» مجيليد، و « فضل العشر » جزء ، و « عاشوراء » أجزاء، و « مشيخته » جزآن ، و « وصيِّته » جزء ، و « مختصر العلل للخلَّال » مُجلَّد ، وأشياء .

قال الحافظ الضياء : رأيتُ أحمد بن حنبل في النوم ، فألقى عليّ مسألة ، فقلتُ : هذه في الخرقي . فقال : ما قصّر صاحبكم الموفق في شرح الخرقي .

قال الضياء: كان رحمه الله إمامًا في التفسير، وفي الحديث ومشكلاته، إمامًا في الفقه ؛ بل أوحدَ زمانه فيه ، إمامًا في علم الخلاف ، أوحدَ في الفرائض ، إمامًا في أصول الفقه ، إمامًا في النحو والحساب .

وسمعتُ داود بن صالح المقرىء ، سمعتُ ابن المنِّي يقول – وعنده الإمام الموفق –: إذا خرج هذا الفتى من بغداد احتاجت إليه .

قال الحافظ أبو عبد الله اليُونينيُّ : أمَّا ما علمتُه من أحوال شيخنا وسيِّدنا موفق الدين ؛ فإنني إلى الآن ما أعتقد أن شخصًا ممن رأيتُه حصل له من الكمال في العلوم والصفات الحميدة التي يحصل بها الكمال سواه ؛ فإنه كان كاملًا في صورته ومعناه ، من حيث الحسن والإحسان والحلم والسؤدد والعلوم المختلفة والأخلاق الحميدة ، رأيتُ منه ما يعجز عنه كبار الأولياء ، فإن رسول الله ﷺ قال : « ما أنْعَمَ الله على عبدٍ نعمةً أفضل من أن يُلهمه ذِكْرَهُ » فقلتُ بهذا : إن إلهام الذِّكْر أفضل من الكرامات ، وأفضل الذِّكْر ما يتعدَّى إلى العباد ، وهو تعليم العلم والسُّنَّة ، وأعظمُ من ذلك وأحسن ما كان جِبِلَّةً وطبعًا ؛ كالحلم والكرم والعقل والحياء ، وكان الله قد جبله على خُلُقٍ شريف ، وأفرغ عليه المكارم إفراغًا ، وأسبغ عليه النِّعم ، ولطف به في كل حال .

وبقي الموفق يجلس زمانًا بعد الجمعة للمناظرة، ويجتمع إليه الفقهاء، وكان يُشغل – يُدَرِّس – إلى ارتفاع النهار ، ومن بعد الظهر إلى المغرب ، ولا يضجر ، ويسمعون عليه ، وكان يُقرِىء في النحو ، وكان لا يكاد يراه أحد إلا أحبَّه ، إلى أن قال الضياء : وما علمتُ أنه أوجع قلْب طالبٍ ، وكانت له جاريةٌ تُؤذيه بخُلُقِها فما يقول لها شيئًا ، وأولاده يتضاربون وهو لا يتكلَّم ، وسمعتُ البهاء يقول : ما رأيتُ أكثر احتمالًا منه .

قال أبو شامة : كان إمامًا في العلم والعمل »[1] .

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٢/١٦٥ – ١٧٢ .

٢٣٣ - العماد المقدسي ، الشيخ الإمام العالم الزاهد ، أبو إسحاق ، إبراهيم بن عبد الواحد بن علي المقدسي ، أخو الحافظ عبد الغني :

« سافر إلى بغداد مرَّتين ، وحفظ القرآن ، و « غريب » الغريري فيما قيل، وحفظ الخرقي، وألقى الدرس من «التفسير» ومن « الهداية » ، واشتغل في الخلاف ، شاهدتُه يُناظر غير مرَّةٍ ، وكان عالمًا بالقراءات والنحو والفرائض؛ قرأ بالروايات على أبي الحسن ابن عساكر البطائحي ، وأقرأ بها ، وصنَّف « الفروق في المسائل الفقهية » ، وصنَّف كتابًا في الأحكام لم يُتمَّهُ ، ولا كان يتفرَّغ للتصنيف من كثرة اشتغاله وإشغاله . أقام بحرَّان مدَّة ، فانتفعوا به ، وكان يُشغل - أي يُدَرِّسُ - بالجبل إذا كان الشيخ الموفق بالمدينة، فإذا صعد الموفق؛ نزل هو وأشغل، فسمعتُ الشيخ الموفق يقول : ما نقدر نعمل مثل العماد ، كان يتألَّف الناس ، وربّما كرَّر على الطالب من سَحرٍ إلى الفجر .

قال الضياء : وكان يجلس في جامع البلد من الفجر إلى العشاء ، لا يخرج إلَّا لحاجة ، يُقرىء القرآن والعلْم ، فإذا فرغوا اشتغل بالصلاة ، فسألتُ الشيخ موفق الدين عنه ؛ فقال : كان من خيار أصحابنا وأعظمهم نفعًا ، وأشدّهم وَرَعًا ، وأكثرهم صبرًا على التعليم ، وكان داعيةً إلى السُّنَّة ، أقام بدمشق مُدَّة يعلِّم الفقراء ويُقرِئهم ، ويُطعمهم ويتواضع لهم ، كان من أكثر الناس تواضُعًا واحتقارًا لنفسه ، وخوفًا من الله .

وقال الضياء : أعرف وأنا صغير أنَّ جميع مَنْ كان في الجبل يتعلَّم القرآن ؛ كان يقرأ على العماد ، وختم عليه جماعة ، وكان يبعث بالنفقة إلى الناس ، ويأخذ بقلب الطالب ، وله بِشْرٌ دائم .

قال الضياء : وسمعتُ الإمام محاسن بن عبد الملك التنوخي يقول :

كان الشيخ العماد جوهرة العصر »[1] .

٢٣٤ - الإمام ابن عبد البر شيخ الإسلام أبو عمر ، يوسف بن عبد الله ابن محمد النمري ، صاحب التصانيف الفائقة :

قال عنه الذهبي في السير : « طلب العلمَ ، وأدرك الكبارَ ، وطال عمرُهُ، وعلا سندهُ، وتكاثر عليه الطلبة، وجمع وصنَّف، ووثَّق وضعَّف، وسارت بتصانيفه الركبان ، وخضع لعلمه علماء الزمان .

قال الحميدي: أبو عمر فقيه حافظ مُكثِر، عالم بالقراءات وبالخلاف، وبعلوم الحديث والرجال . ثم قال: «كان إمامًا دَيِّنًا، ثقةً، مُتقنًا، مُتبحِّرًا، صاحبَ سُنَّةٍ واتِّباع ، وكان أوَّلًا أثريًّا ظاهريًّا فيما قيل ، ثم تحوَّل مالكيًّا ، مع ميْلٍ بيِّن إلى فقه الشافعي في مسائل ، ولا يُنكر له ذلك ، فإنه ممن بلغ رتبة الأئمة المجتهدين ، ومَنْ نظر في مُصنَّفاته ؛ بان له منزلته في سعة العلم ، وقوة الفهم ، وسيلان الذهن » .

قال أبو الوليد الباجي : لم يكن بالأندلس مثل أَبي عمر بن عبد البر في الحديث ، وهو أحفظ أهل المغرب .

وقال أبو علي الغسَّاني : أَلَّف أبو عمر في « الموطَّأ » كُتُبًا مُفيدة ؛ منها : كتاب « التمهيد لما في الموطَّأ من المعاني والأسانيد » فرتَّبه على شيوخ مالك على حروف المعجم ، وهو كتاب لم يتقدَّمْه أحدٌ إلى مثله ، وهو سبعون جزءًا .

قلتُ : هي أجزاء ضخمة جدًّا .

قال ابن حزم : لا أعلم في الكلام على فقه الحديث مثله ، فكيف أحسن منه !.

ثم صنع كتاب « الاستذكار لمذهب علماء الأمصار فيما تضمَّنه الموطَّأ

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٢ / ٤٧ - ٥٠ .

من معاني الرأي والآثار » ؛ شرح فيه الموطأ على وجهه ، وجمع كتابًا جليلًا مُفيدًا ، وهو « الاستيعاب في أسماء الصحابة » ، وله كتاب « جامع بيان العلم وفضله » ، وغير ذلك . وكان موفَّقًا في التأليف ، مُعانًا عليه ، ونفع الله بتواليفه ، وكان مع تقدُّمه في علم الأثر وبصره بالفقه ومعاني الحديث ؛ له بسطةٌ كبيرةٌ في علم النسب والخبر »[1] .

قضى ابن عبد البر في تأليف كتاب « التمهيد » أكثر من ثلاثين سنة كما يفيده قوله :

«سميرُ فؤادي مُذْ ثلاثون حِجَّةً ... وصَيْقَلُ ذِهني والمُفَرِّجُ عن هَمِّي
بسطتُ لكم فيه كلامَ نَبِيِّكُمْ ... بما في معانيه من الفِقهِ والعلم
وفيه من الآثارِ ما يُقْتَدى بهِ ... إلى البرِّ والتقوى ويَنْهَى عن الظلْمِ»[2]

٢٣٥ - الإمام البيهقي ، أبو بكر ، أحمد بن الحسين بن علي :

« سمع وهو ابن خمس عِشرة سنة من أبي الحسن محمد بن الحسين العلوي وهو أقدم شيخ عنده ، وسمع من الحاكم أبي عبد الله الحافظ ، فأكثر جدًّا وتخرَّج به ، وسمع من عشرين شيخًا من أصحاب الأصمّ ، وبورك له في علمه ، وصنَّف التصانيف النافعة ، ولم يكن عنده « سنن النسائي » ، ولا « سنن ابن ماجه » ، ولا « جامع أبي عيسى » ، بلى عنده عند الحاكم وِقْرُ بعير أو نحو ذلك ، وعنده « سنن أبي داود » عاليًا ، وتفقَّه على ناصر العمري وغيره .

وانقطع بقريته مُقبلًا على الجمع والتأليف ، فعمل « السنن الكبير » في عشر مُجلّدات ، وليس لأحد مثله .

وألّف كتاب « السنن والآثار » في أربع مُجلَّدات .

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٨ / ١٥٣ - ١٦٢ .
(٢) سير أعلام النبلاء ١٨ / ١٦٣ .

وأما « المبسوط » في نصوص الشافعي ، فقد قال فيه السبكي : ما صُنِّف في نوعه مثله . وقال في « كشف الظنون » ٢ / ١٥٨٢ : « وهو من أعظم كُتُبِه قدْرًا ، وأبسطها علمًا ، يكون في عشرين مُجلَّدًا » .

وكتاب « شعب الإيمان » ، وكتاب « مناقب الشافعي » ، وكتاب « الدعوات الكبير » ، وفيهم قال السبكي : فأُقسم ما لواحد منها نظير .

وأما كتاب « الخلافيَّات » فلم يُسبَقْ إلى نوعه ، ولم يصنَّف مثلُه ، وهو طريقة مُستقلَّة حديثية ، لا يقدر عليها إلا مُبرِّزٌ في الفقه والحديث ، قيِّمٌ بالنصوص . قاله السبكي .

قال السبكي : شيوخه أكثر من مائة شيخ .

اشتغل بالتصنيف بعد أن صار أوحدَ زمانه ، وفارسَ ميدانه ، وأحذَق المحدِّثين وأحدَّهم ذهْنًا، وأسرعَهم فهمًا، وأجودَهم قريحةً، وبلغت تصانيفه ألف جزء ، ولم يتهيَّأ لأحد مثلها .

أما « السنن الكبير » فما صُنِّف في علم الحديث مثله ؛ تهذيبًا ، وترتيبًا ، وجودةً .

وأما المعرفة «معرفة السنن والآثار» فلا يستغني عنه فقيهٌ شافعي، وسمعتُ الشيخ الإمام رحمه الله يقول: مُراده معرفة الشافعي بالسنن والآثار»[1].

قال الذهبي في سير أعلام النبلاء (١٨ / ١٦٧ - ١٦٩) : « قال الحافظ عبد الغافر بن إسماعيل في « تاريخه » : هو أبو بكر الفقيه ، الحافظ الأصولي ، الدِّيِّنُ الوَرِع ، واحدُ زمانه في الحفظ ، وفَرْدُ أقرانه في الإتقان والضبط ، من كبار أصحاب الحاكم ، ويزيد على الحاكم بأنواعٍ من العلوم ، كتب الحديث ، وحفظه من صباه ، وتفقَّه وبَرع ، وأخذ فنَّ الأصول ،

(١) طبقات الشافعية ٤ / ٩ .

وارتحل إلى العراق والجبال والحجاز ، ثم صنَّف ، وتواليفه تُقارب ألف جزء مما لم يسبقه إليه أحد ، جمع بين علم الحديث والفقه ، وبيان علل الحديث ، ووجْه الجمع بين الأحاديث ، طلب منه الأئمة الانتقال من بيْهق إلى نيسابور ، لسماع الكتب ، فأتى في سنة إحدى وأربعين وأربعمائة ، وعقدوا له المجلس لسماع كتاب « المعرفة » ، وحضره الأئمة .

قال شيخ القضاة أبو علي إسماعيل بن البيهقي : حدَّثنا أبي قال : حين ابتدأتُ بتصنيف هذا الكتاب- يعني كتاب المعرفة في السنن والآثار- وفرغتُ من تهذيب أجزاء منه ، سمعتُ الفقيه محمد بن أحمد – وهو من صالحي أصحابي ، وأكثرهم تلاوة ، وأصدقهم لهجة – يقول : رأيتُ الشافعي – رحمه الله – في النوم ، وبيده أجزاء من هذا الكتاب ، وهو يقول : قد كتبتُ اليوم من كتاب الفقيه أحمد سبعة أجزاء ، أو قال : قرأتها . ورآه يَعْتَدُّ بذلك . قال : وفي صباح ذلك اليوم رأى فقيهٌ آخرُ من إخواني الشافعيَّ قاعدًا في الجامع على سرير ، وهو يقول : قد استفدتُ اليوم من كتاب الفقيه حديث كذا وكذا .

وأخبرنا أبي قال: سمعتُ الفقيه أبا محمد الحسن بن أحمد السمرقندي الحافظ يقول : سمعتُ الفقيه محمد بن عبد العزيز المروزي يقول : رأيتُ في المنام كأنَّ تابوتًا علا في السماء يعلوه نورٌ ، فقلتُ : ما هذا ؟ قال : هذه تصنيفات أحمد البيهقي . ثم قال شيخ القضاة : سمعتُ الحكايات الثلاث من الثلاثة المذكورين .

قلتُ : هذه رؤيا حقٍّ ، فتصانيف البيهقي عظيمة القدْر ، غزيرة الفوائد ، قلَّ مَنْ جوَّد تواليفه مثل الإمام أبي بكر ، فينبغي للعالم أن يعتني بهؤلاء سيما « سننه الكبير » ، وقد قدِم قبل موته بسنة أو أكثر إلى نيسابور ، وتكاثر عليه الطلبة ، وسمعوا منه كُتُبه ، وجُلبت إلى العراق والشام والنواحي .

وبلغنا عن إمام الحرمين أبي المعالي الجويني قال : ما من فقيه شافعي إلا وللشافعي عليه مِنَّة إلا أبا بكر البيهقي ، فإن المنَّةَ له على الشافعي ؛ لتصانيفه في نُصرة مذهبه .

قلتُ : أصاب أبو المعالي ، هكذا هو ، ولو شاء البيهقي أن يعمل لنفسه مذهبًا يجتهد فيه ؛ لكان قادرًا على ذلك ، لسعة علومه ، ومعرفته بالاختلاف ، ولهذا تراه يُلوِّح بنصر مسائل مما صحَّ فيها الحديث » .

رحمه الله ، وأجزل له المثوبة .

٢٣٦ - الإمام الحافظ ابن المنذر ، أبو بكر ، محمد بن إبراهيم بن المنذر النيسابوري :

« صاحب التصانيف كـ « الإشراف في اختلاف العلماء » ، وكتاب « الإجماع » ، وكتاب « المبسوط » ، وغير ذلك .

قال الشيخ محيي الدين النواوي : « له من التحقيق في كتبه ما لا يُقاربه فيه أحد ، وهي في نهاية من التمكُّن في علم الحديث ، وله اختيار ، فلا يتقيَّد في الاختيار بمذهب بعينه ، بل يدور مع ظهور الدليل » .

وهذا الإمام من حَمَلَة الحُجَّة ، جارٍ في مضمار ابن جرير ، وابن سريج ، وتلك الحلبة ، رحمهم الله .

« وصنَّف في اختلاف العلماء كُتُبًا لم يُصنِّف أحدٌ مثلها ، واحتاج إلى كُتُبِه الموافق والمُخالفُ » . قاله الإمام أبو إسحاق الشيرازي .

ولابن المنذر «تفسير» كبير في بضعة عشر مُجلَّدًا، يقضي له بالإمامة في علم التأويل أيضًا »[1] .

نعته الذهبي في تذكرة الحفاظ (٣/٤) بأنه « الفقيه الأوحد » .

ولقد قال السيوطي صاحب « الدُّر المنثور في التفسير بالمأثور » : إنه

(١) سير أعلام النبلاء ١٤/٤٩٠ - ٤٩٢ .

وقف على تفسير ابن المنذر ، واستفاد منه كثيرًا .

واعتمد علماء الطوائف كلها في نقل المذاهب ومعرفتها على كُتُبه .

قال النووي في مقدمة المجموع (١ / ١٩) : « وأكثر ما أنقلُه من مذاهب العلماء من كتاب « الإشراق والإجماع » لابن المنذر القدوة في هذا الفنِّ » .

قال ابن حجر في لسان الميزان (٥/٢٧): «وكتابه «الإشراف» في الاختلاف ؛ من أحسن المُصنَّفات في فنِّه » .

٢٣٧ - الحافظ الإمام ابن عساكر، أبو القاسم، علي بن الحسن بن هبة الله:

الشيخ الإمام ، الحافظ الكبير المجوّد ، مُحدِّث الشام ، صاحب « تاريخ دمشق » .

« محطُّ رحال الطالبين ، وموئل ذوي الهِمَم من الراغبين ، البحر الذي لا ساحل له ، والحَبْرُ الذي حمل أعباء السُّنَّة على كاهله .

قطع الليل والنهار دائبين في دأبه ، وجمع نَفْسَهُ على أشتات العلوم ، لا يتخذ غير العلم والعمل صاحبيْن ، وهما منتهى أَرَبِه .

له « تاريخ الشام » . ومَنْ طالع هذا الكتاب ؛ عرف إلى أي مرتبةٍ وصل هذا الإمام ، واستقلَّ الثُّريَّا ، وما رضي ببدر التمام . له « الأطراف » وعِدَّة تصانيف وتخاريج وفوائد ، ما الحفاظ إليها إلا محاويج »[1] .

وُلد في المُحرَّم سنة (٤٩٩هـ) وسمَّعه أخوه صائن الدين هبة الله في سنة (٥٠٥هـ) وما بعدها .

« سمع بالأنبار ، والرافقة ، والرحبة ، وماردين ، وماكسين ، وغيرها من البلاد الكثيرة ، والمدن الشاسعة ، والأقاليم المتفرقة ، لا ينفكُّ نائي

---

(١) طبقات الشافعية ٧ / ٢١٥ - ٢١٦ .

الديار ، يُعمل مَطيَّه في أقاصي القفار ، وحيدًا لا يصحبه إلا تُقًى اتَّخذه أنيسَهُ ، وعَزْم لا يرى غير بلوغ المآرب درجةً نفيسةً ، ولا يُظِلُّه إلا سَمُرَة في رباعٍ قفراء ، ولا يَرِدُ غير إداوة لعلَّه يرتشف منها الماء .

وسمع منه جماعة من الحفاظ ؛ كأبي العلاء الهمذاني ، وأبي سعد السمعاني ، وروى عنه الجمُّ الغفير ، والعدد الكثير ، ورُويت عنه مُصنَّفاتُه وهو حيّ بالإجازة ؛ في مدن خراسان وغيرها ، وانتشر اسمُهُ في الأرض ، ذات الطول والعرض .

وأقام في بدء رحلته ببغداد خمسة أعوام يُحصِّل العلم .

سمع بمكة ، والمدينة ، وأصبهان ، ونيسابور ، ومرو ، وهراة ، والكوفة ، وهمذان ، وتبريز والموصل ، وميهنة ، وبيهق ، وخسروجرد ، وبسطام ، ودامغان ، والريِّ ، وزنجان ، وغيرها من البلدان ، وعمل أربعين حديثًا بلدانية »[1] .

« وعدَّةُ شيوخه الذي في « معجمه » ألف وثلاثمائة شيخ بالسماع ، وستة وأربعون شيخًا أنشدوا ، وعن مائتين وتسعين شيخًا بالإجازة ، الكُلُّ في « معجمه » ، وبضع وثمانون امرأة لهن «معجم» صغير سمعناه »[2] . هذا قول الذهبي .

ثم قال الحافظ الذهبي : « صنَّف الكثير ، وكان فَهِمًا ، حافظًا ، ذكيًّا ، بصيرًا بهذا الشأن ، لا يُلْحَق شأوه ، ولا يُشَقُّ غُبارُه ، ولا كان له نظيرٌ في زمانه .

تفقَّه في حداثته على جمال الإسلام أبي الحسن السُّلمي وغيره ، وانتفع بصحبة جدِّه لأُمِّه القاضي أبي الفضل عيسى بن علي القرشي في النحو ، وعلَّق مسائل من الخلاف عن أبي سعد بن أبي صالح الكرماني ببغداد ، ولازم

---

(١) الطبقات ٧ / ٢١٦ - ٢١٧ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٥٥٦/٢٠ .

الدرس والتفقُّه بالنظامية ببغداد، وصنَّف وجمع وأحسن. فمن ذلك «تاريخه» في ثمانمائة جزء ؛ الجزء عشرون ورقة ، فيكون ست عشرة ألف ورقة ، وجمع «الموافقات» في اثنين وسبعين جزءًا، و «عوالي مالك»، و «الذيل» عليه خمسين جزءًا ، و « غرائب مالك » عشرة أجزاء ، و « المعجم » في اثني عشر جزءًا ، و « مناقب الشبَّان » خمسة عشر جزءًا ، و « فضائل أصحاب الحديث» أحد عشر جزءًا ، و «فضل الجمعة» مُجلَّد ، و « تبيين كذب المفتري فيما نُسب إلى الأشعري» مُجلَّد ، و «المسلْسلات» مُجلَّد ، و « السباعيَّات » سبعة أجزاء ، و « مَنْ وافقتْ كُنيتُه كنية زوجته » أربعة أجزاء ، و « في إنشاء دار السُّنَّة » ثلاثة أجزاء ، و « في يوم المزيد » ثلاثة أجزاء ، و « الزهادة في الشهادة » مُجلَّد ، و « طرق قبض العلم » ، و «حديث الأطيط»، و «حديث الهبوط وصحته»، و «عوالي الأوزاعي وحاله» جزءان » .

ومن تواليف ابن عساكر اللطيفة ثمانية وخمسون مؤلَّفًا غير التي ذكرناها ؛ سردها الذهبي بأسمائها في سير أعلام النبلاء (٢٠ / ٥٦٠ - ٥٦٢) .

وقال الذهبي : « وأملى أربعمائة مجلس وثمانية » .

قال ابنه القاسم : قال لي : لما حملتْ بي أُمِّي ؛ رأتْ في منامها قائلًا يقول : تلدين غلامًا يكون له شأن ، وصدَّقت اليقظة منامها . وحدثني أنّ أباه رأى رؤيا ؛ معناه : يُولد لك ولدٌ يُحيي الله به السُّنة ، ولما عزم على الرحلة ؛ قال له شيخه أبو الحسن بن قُبيس : أرجو أن يُحيي الله بك هذا الشأن . فكان كما قال ، وعُدَّتَ كرامةً للشيخ ، وبشارةً للحافظ . .

ولما دخل بغداد أُعجب به العراقيون ، وقالوا : ما رأينا مثله ، وكذلك قال مشايخه الخراسانيون .

وقال الحافظ أبو العلاء الهمذاني لبعض تلامذته وقد استأذنه أن يُسافر ، فقال : إنْ عرفتَ أستاذًا أعلم مني ، أو في الفضل مثلي ؛ فحينئذ آذن إليك أن تُسافر إليه ، اللهم إلا أن تسافر إلى الحافظ ابن عساكر ، فإنه حافظ كما يجب .

قال السبكي : « نبَّهه السعد ، فأسهره الليالي في طلب العلم ، وغيره سهرها في الشهوات أو نامها ، وكان له الشأن العظيم والشأن الذي يجلُّ عن التعظيم .

قال الحافظ أبو العلاء : أنا أعلم أنه لا يُساجل الحافظ أبا القاسم في شأنه أحدٌ ، فلو خالق الناس ومازجهم كما أصنع ؛ إذًا لاجتمع عليه الموافقُ والمخالفُ .

وقال أبو العلاء يومًا : أيُّ شيء فُتح له ، وكيف ترى الناس له ؟ فقال محمد بن عبد الرحمن المسعودي لأبي العلاء : هو بعيد من هذا كله ، لم يشتغل منذ أربعين سنة إلا بالجمع والتصنيف والتسميع ، حتى في نزهته وخلواته . فقال : الحمد لله ، هذا ثمرة العلم ، ألا إنا قد حصل لنا هذه الدار والكتب والمسجد ، هذا يدلُّ على قِلَّة حظوظ أهل العلم في بلادكم.ثم قال لي : ما كان يُسمَّى أبو القاسم ببغداد إلا شعلة من نار ؛ من توقُّده وذكائه وحُسْن إدراكه .

وروى زين الأمناء ، حدَّثنا ابن القزويني عن والده مُدرِّس النظامية ، قال : حكى لنا الفَراوي قال : قدِمَ علينا ابن عساكر ، فقرأ عليَّ في ثلاثة أيام فأكثر ، فأضجرني ، وآليتُ أن أُغلق بابي ، وأمتنع ، جرى هذا الخاطر لي بالليل ، فقدم من الغد شخص ، فقال : أنا رسولُ رسولِ الله ﷺ إليك ، رأيتُه في النوم ، فقال : امضِ إلى الفراوي ، وقل له : إنْ قَدِمَ بلدكم رجل من أهل الشام أسمر ، يطلب حديثي ؛ فلا يأخذك منه ضجرٌ ولا مَلَلٌ . قال :

فما كان الفراوي يقوم حتى يقوم الحافظ أوّلًا »[1] .

قال أبو الواهب : قال لي ابن عساكر : لمّا عزمتُ على التحديث ، والله المُطَّلِعُ أنه ما حملني على ذلك حُبُّ الرئاسة والتقدّم ؛ بل قلتُ : متى أروي كلَّ ما قد سمعتُه ، وأيّ فائدة في كوني أُخلِّفه في صحائف ؟ فاستخرتُ الله ، واستأذنت أعيان شيوخي ورؤساء البلد ، وطُفتُ عليهم ، فكلٌّ قال : ومنْ أحقُّ بهذا منك ؟ فشرعتُ في ذلك سنة ثلاث وثلاثين .

قال أبو محمد القاسم : وكان أبي - أي ابن عساكر - رحمه الله قد سمع أشياء لم يُحصِّل منها نُسخًا ؛ اعتمادًا على نُسخ رفيقه الحافظ أبي علي ابن الوزير ، وكان ما حصَّله ابن الوزير لا يُحصِّله أبي ، وما حصَّله أبي لا يُحصِّله ابن الوزير ، فسمعتُ أبي ليلةً يتحدَّث مع صاحبٍ له في الجامع ، فقال: رحلتُ، وما كأني رحلتُ، كنتُ أحسبُ أن ابن الوزير يقدمُ بالكتب مثل « الصحيحين » وكُتُبِ « البيهقي » والأجزاء . فاتفق سكناه بمرو ، وكنتُ أُؤمِّل وصول رفيق آخر يُقال له : يوسف بن فارُّوا الجيَّاني ، ووصول رفيقنا أبي الحسن المرادي ، وما أرى أحدًا منهم جاء ، فلا بُدَّ من الرحلة ثالثة وتحصيل الكتب والمُهمَّات . قال : فلم يمضِ إلا أيام يسيرة حتى قدم أبو الحسن المرادي، فأنزله أبي في منزلنا، وقدم بأربعة أسفاط كُتُبٍ مسموعة، ففرح أبي بذلك شديدًا ، وكفاه الله مُؤنة السفر ، وأقبل على تلك الكتب ، فنسخ واستنسخ وقابل ، وبقي من مسموعاته أجزاء نحو الثلاثمائة ، فأعانه عليها أبو سعد السمعاني ، فنقل إليه منها جملة حتى لم يبقَ عليه أكثر من عشرين جزءًا ، وكان كلما حصل له جزء منها ؛ كأنه قد حصل على ملك الدنيا .

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٠/٥٦٤- ٥٦٥، تذكرة الحفاظ ٤/١٣٣٠، و «طبقات السبكي ٧ / ٢١٩ .

سأل معمر بن الفاخر ابن عساكر عند وصوله إلى أصبهان عن سرِّ تأخُّره عن الرحلة إلى أصبهان ، فقال : استأذنتُ أُمِّي في الرحلة إليها ، فما أذنتْ .

قال السمعاني : أبو القاسم كثير العلم ، جمع ما لم يجمعه غيره ، وأربى على أقرانه ، دخل نيسابور قبلي بشهر ، سمعتُ منه ، وسمع مني .

قال الذهبي : وبلغَنا أنّ الحافظ عبد الغني المقدسي بعد موت ابن عساكر نَفَّذ مَنِ استعار لهُ شيئًا من « تاريخ دمشق » ، فلما طالعه ، انبهر لسعة حفظ ابن عساكر ، ويقال : ندم على تفويت السماع منه . فقد كان بين ابن عساكر وبين المقادسة واقع ، رحم الله الجميع .

قال السبكي في الطبقات (٧/٢١٩): «قال فيه الشيخ محيي الدين النووي ، ومن خطِّه نقلتُ : هو حافظ الشام ، بل هو حافظ الدنيا ، الإمام مطلقًا ، الثقة الثبت .

قال ابن النجار : هو إمام المُحدِّثين في وقته ، ومَنِ انتهت إليه الرياسة في الحفظ والإتقان، والمعرفة التامَّة بعلوم الحديث، والثقة والنبل، وحُسْن التصنيف والتجويد ، وبه خُتم هذا الشأن .

قال :وسمعتُ شيخنا عبد الوهاب بن الأمين يقول : كنتُ يومًا مع الحافظ أبي القاسم ابن عساكر ، وأبي سعد بن السمعاني ، نمشي في طلب الحديث ولقاء الشيوخ ، فلقينا شيخًا ، فاستوقفه ابن السمعاني ليقرأ عليه شيئًا ، وطاف على الجزء الذي هو سماعه في خريطته فلم يجده ، وضاق صدرُه ، فقال له ابن عساكر : ما الجزء الذي هو سماعه ؟ فقال : « كتاب البعث والنشور » لابن أبي داود ، سمعه من أبي نصر الزينبي ، فقال له : لا تحزنْ ، وقرأه عليه من حفظه أو بعضه .

قال ابن النجار : الشكُّ من شيخنا .

وكان الملك العادل محمود بن زنكي قد بنى له دار الحديث النورية،

فدرّس بها إلى حين وفاته ، غير مُلتفتٍ إلى غيرها ، ولا مُتطلّعٍ إلى زخرف الدنيا ، ولا ناظرٍ إلى محاسن دمشق ونُزَهِها ، بل لم يزل مواظبًا على خدمة السُّنَّة والتعبُّد باختلاف أنواعه ؛ صلاةً ، وصيامًا ، واعتكافًا ، وصدقةً ، ونشرَ عَلْمٍ ، وتشييعَ جنائز ، وصِلات رَحم ، إلى حين قُبض ، رحمه الله تعالى ورضي عنه »[1] .

قال ابن عساكر رحمه الله :

ألا إنَّ الحديثَ أجَلُّ عِلْمٍ ... وأشرفُه الأحاديثُ العوالي
وأنفعُ كلِّ نوعٍ منه عندي ... وأحسنُه الفوائدُ والأمالي
فإنك لن ترى للعلم شيئًا ... تُحقِّقُهُ كأفواهِ الرجالِ
فكنْ ياصاحِ ذا حرصٍ عليهِ ... وخُذْهُ عن الشيوخِ بلامَلَالِ
ولا تأْخُذْهُ من صُحُفٍ فتُرمى ... من التصحيف بالداءِ العُضَالِ[2]

٢٣٨ - شيخ الحنفية ، الإمام الفقيه شمس الأئمة السرخسي ، صاحب « المبسوط » في فقه الحنفية :

لعلّ من أعجب ما قرأتُ أنَّ السرخسي حُبس في جُبٍّ ، فأملى كتاب « المبسوط » على تلامذته الذين كانوا يجلسون أعلى الجُبِّ من حفظه .

٢٣٩ - الإمام الحافظ الكبير القدوة الأثري ، أبو محمد ، عبد الغني بن عبد الواحد بن علي المقدسي :

صاحب « الأحكام الكبرى » و « الصغرى » .

سمع الكثير بدمشق، والإسكندرية، وبيت المقدس، ومصر، وبغداد ، وحَرَّان ، والموصل ، وأصبهان ، وهمذان ، وكتب الكثير .

---

(١) طبقات الشافعية ٧ / ٢٢١ - ٢٢٣ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٢٠/٥٦٩ .

سمع عِدَّة ببغداد ، والحافظ أبا طاهر السِّلَفي ، فكتب عنه نحوًا من ألف جزء، ولم يزل يطلب ويسمع ويكتب، ويسهر ويدأب، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويتقي الله ويتعبَّد ، ويصوم ويتهجَّد ، وينشر العلم ، إلى أن مات . رحل إلى بغداد مرَّتين ، وإلى مصر مرتين ؛ سافر إلى بغداد هو وابن خاله الشيخ الموفق في أول سنة إحدى وستين ، فكانا يخرجان معًا، ويذهب أحدهما في صحبة رفيقه إلى درسه وسماعه، كانا شابَّيْن مُختطَّيْن[١]، وخوَّفهما الناس من أهل بغداد ، وكان الحافظ ميلُه إلى الحديث ، والموفق يُريد الفقه ، فتفقَّه الحافظ ، وسمع الموفق معه الكثير ، فلما رآهما العقلاء على التصوُّنِ وقِلَّةِ المُخالطة ؛ أحبُّوهما ، وأحسنوا إليهما ، وحصَّلا علمًا جمًّا ، فأقاما ببغداد نحو أربع سنين ، ونزلا أوَّلًا عند الشيخ عبد القادر فأحسن إليهما ، ثم مات بعد قدومهما بخمسين ليلة ، ثم اشتغلا بالفقه والخلاف على ابن المَنِّي . ورحل الحافظ إلى السِّلَفي في سنة ستٍّ وستين ، فأقام مُدَّةً ، ثم رحل أيضًا إلى السِّلفي سنة سبعين ، ثم سافر سنة نيِّفٍ وسبعين إلى أصبهان ، فأقام بها مُدَّةً وحصَّل الكتب الجيِّدة .

قال الضياء : كان عظيمَ الخلق ، تامَّ القامة ، كأن النور يخرج من وجهه ، وكان قد ضعُف بصرُهُ من البكاء والنسخ والمطالعة .

تصانيفه :

الحافظ عبد الغني هو أوَّلُ مَنْ جمع رجال الكتب الستة في مُصنَّف واحد ، وهو « الكمال في معرفة رجال الكتب الستة » في أربعة أسفار ، يروي فيه بأسانيده .

وله « تبيين الإصابة لأوهام حصلت لأبي نُعيم في معرفة الصحابة » جزآن؛ تدلُّ على براعته وحفظه. وله «الأحكام الكبرى» مُجلَّد، و «الصغرى»

---

(١) يعني أول ظهور الشَّعْرِ في وجههما .

مُجيليد ، وكتاب « السيرة » جزء كبير ، وكتاب « المصباح في عيون الأحاديث الصحاح » مُشتمل على أحاديث الصحيحين ، فهو مُستخرج عليهما بأسانيده في ثمانية وأربعين جزءًا(١) . وله أيضًا «نهاية المراد من كلام خير العباد » في السُّنَن ، نحو مائتي جزء ، لم يُبيضْهُ ، وكتاب « اليواقيت » مُجلد ، وكتاب « تحفة الطالبين في الجهاد والمجاهدين » مُجلَّد ، وكتاب « فضائل خير البرية » أربعة أجزاء ، وكتاب « الروضة » مُجلَّد ، وكتاب « التهجُّد » جزءان ، وكتاب « الفرج » جزءان ، وغيرهما .

أما عن حفظه :

فقد قال ضياء الدين : كان شيخنا الحافظ لا يكاد يُسأل عن حديث إلا ذكره وبيَّنه ، وذكر صحَّتَهُ أو سقمهُ ، ولا يُسأل عن رجل إلا قال : هو فلان بن فلان الفلانيّ ويذكر نَسَبَهُ ، فكان أميرَ المؤمنين في الحديث ، سمعتُه يقول : كنتُ عند الحافظ أبي موسى المديني ، فجرى بيني وبين رجل منازعة في حديث ، فقال : هو في صحيح البخاري . فقلتُ : ليس هو فيه . قال: فكتَبَه في رقعة، ورفعها إلى أبي موسى يسأله، فناولني أبو موسى الرُّقعة، وقال : ما تقول ؟ فقلتُ : ما هو في البخاري . فخجل الرجل .

قال الضياء : رأيتُ في النوم بمَرْو كأن البخاريَّ بين يدي الحافظ عبد الغني يقرأ عليه من جزء ، وكان الحافظ يردُّ عليه ، أو ما هذا معناه .

وسمعتُ إسماعيل بن ظفر يقول : قال رجل للحافظ عبد الغني : رجل حلف بالطلاق أنك تحفظ مائة ألف حديث . فقال : لو قال أكثر لَصَدَق !.

ورأيتُ الحافظ عبد الغني على المنبر غير مرَّة يقولون له : اقرأ لنا من غير كتاب ، فيقرأ أحاديث بأسانيده من حفظه .

وسمعتُ ابنه عبد الرحمن يقول : سمعتُ بعض أهلنا يقول : إن الحافظ

(١) المراد بالجزء هنا هو الجزء الحديثي ، و هو بحدود عشرين ورقة .

سُئل: لِمَ لا تقرأ من غير كتاب ؟ قال : أخاف العُجْبَ .

وسمعتُ خالي أبا عمر أو والدي ، قال : كان الملك نور الدين ابن زنكي يأتي إلينا، وكنا نسمع الحديث، فإذا أشكل شيء على القارئ؛ قاله الحافظ عبد الغني ، ثم ارتحل إلى السِّلَفيِّ ، فكان نور الدين يأتي بعد ذلك ، فقال : أين ذاك الشابُّ ؟ فقلنا : سافر .

وقال التاج الكندي : لم يكن بعد الدارقطني مثل الحافظ عبد الغني .

وكتب أبو موسى على كتاب « تبيين الإصابة » الذي أملاه عبد الغني : قلَّ مَنْ قَدِمَ علينا يفهم هذا الشأن كفهم الإمام ضياء الدين أبي محمد عبد الغني المقدسي ، وقد وُفِّق لتبيين هذه الغلطات ، ولو كان الدارقطني وأمثاله في الأحياء لصوَّبوا فعْلَه ، وقلَّ مَنْ يفهم في زماننا ما فهم ، زاده الله عِلمًا وتوفيقًا .

في إفادته وتدريسه :

قال الضياء : كان رحمه الله مُجتهدًا على الطلب ، يكرم الطلبة ، ويُحسن إليهم ، وإذا صار عنده طالب يفهم أَمَرَه بالرحلة ، ويفرح لهم بسماع ما يُحصِّلونه ، وبسببه سمع أصحابنا الكثير .

قال أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الحافظ : ما رأيتُ الحديث في الشام كله إلا ببركة الحافظ عبد الغني ، فإنني كلُّ مَنْ سألتُه يقول : أولُ ما سمعتُ على الحافظ عبد الغني ، وهو الذي حرَّضني .

وسمعتُ أبا موسى بن الحافظ يقول عند موته : لا تُضيِّعوا هذا العلم الذي قد تعبنا عليه .

قال الذهبي : قلتُ : هو رحَّل ابن خليل إلى أصبهان ، ورحَّل ابنيْهِ العِزَّ مُحمدًا وعبدَ الله إلى أصبهان ، وكان عبد الله صغيرًا ، وسفَّر ابن أخته محمد بن عمر بن أبي بكر وابن عمِّه علي بن أبي بكر .

قال الضياء : وحرَّضني على السفر إلى مصر ، وسافر معنا ابنه أبو سليمان عبد الرحمن بن عشر ، فبعث معنا « المعجم الكبير » للطبراني ، وكتاب « البخاري » ، و « السيرة » ، وكتب إلى زين الدين علي بن نجا يُوصيه بنا ، وسفَّر ابن ظفر إلى أصبهان ، وزوَّده ، ولم يزل على هذا .

قال الضياء : لما دخلنا أصبهان في سفرتي الثانية كُنَّا سبعة؛أحدنا الفقيه أحمد بن محمد بن الحافظ ، وكان طفلًا ، فسمعنا على المشايخ ، وكان المؤيَّد ابن الإخوة عنده جملة من المسموعات ، وكان يتشدَّد علينا ، ثم تُوفِّي ، فحزنتُ كثيرًا ، وأكثر ما ضاق صدري لثلاثة كُتُبٍ . « مُسند العَدَني » ، و « معجم ابن المقرىء » ، و « مُسند أبي يعلى » ، وقد كنتُ سمعتُ عليه في النوبة الأولى « مسند العَدَنيّ » ، لكن لأجل رفقتي ، فرأيتُ في النوم كأنَّ الحافظ عبد الغني قد أمسك رجلًا ، وهو يقول لي : أُمَّ هذا ، أُمَّ هذا ، وهذا الرجل هو ابن عائشة بنت معمر ، فلمّا استيقظتُ ؛ قلتُ : ما هذا إلا لأجل شيء . فوقع في قلبي أنه يُريد الحديث ، فمضيتُ إلى دار بني مَعْمر ، وفتَّشتُ الكتب ، فوجدتُ « مُسند العَدَني » سماع عائشة مثل ابن الإخوة ، فلما سمعناه عليها ؛ قال لي بعض الحاضرين : إنها سمعتْ « معجم ابن المقرىء » ، فأخذْنا النسخة من خبَّاز وسمعناه ، وبعد أيام ناولني بعض الإخوان « مسند أبي يعلى » سماعها ، فسمعناه .

لله دَرُّكم آل المقدسي .. في نومكم ويقظتكم لا شُغْلَ لكم إلا الحديث والعلم .. ولله دَرُّك عبد الغني .. تُعلِّم وتُدرِّس وتحثُّ - حتى في المنام - على التعلُّم !!.

كان الحافظ عبد الغني رحمه الله يقرأ الحديث يوم الجمعة بجامع دمشق وليلة الخميس ، ويجتمع خلْقٌ ، وكان يقرأ ويبكي ويُبَكِّي الناس كثيرًا ، حتى إنَّ من حضره مرَّةً لا يكاد يتركه ، وكان إذا فرغ دعا دُعاءً كثيرًا .

سمعتُ شيخنا ابن نجا الواعظ بالقرافة يقول على المنبر : قد جاء الإمام الحافظ ، وهو يُريد أن يقرأ الحديث ، فأشتهي أن تحضروا مجلسه ثلاث مرَّات ، وبعدها أنتم تعرفونه وتحصل لكم الرغبة ، فجلس أول يوم ، وحضرتُ ، فقرأ أحاديث بأسانيدها حفظًا ، وقرأ جزءًا ، ففرح الناس به ، فسمعتُ ابن نجا يقول : حصل الذي كنتُ أُريده في أول مجلس .

وسمعتُ بعض مَنْ حضر يقول: بكى الناس حتى غُشِي على بعضهم.

وكان يجلس بمصر بأماكن .

قال الفقيه نجم بن عبد الوهَّاب الحنبلي- وقد حضر مجلس الحافظ-: يا تقيَّ الدين ، والله لقد حملتَ الإسلام ، ولو أمكنني ما فارقتُ مجلسك .

قال الموفق : كان الحافظ عبد الغني جامعًا للعلم والعمل ، وكان رفيقي في الصبا ، وفي طلب العلم ، وما كنا نستبق إلى خير إلا سبقني إليه إلا القليل ، وكَمَّل الله فضيلته بابتلائه بأذى أهل البدعة وعداوتهم ، ورُزِق العلم وتحصيل الكتب الكثيرة ، إلَّا أنه لم يُعمَّر .

قال أبو موسى بن الحافظ: حدَّثني صَنيعة الملك هبة الله بن حيدرة، قال : لما خرجتُ للصلاة على الحافظ لقيني هذا المغربي - وكان رجُلًا مغربيًّا معه ، فهو يُشير إليه - فقال : أنا غريب ، رأيتُ البارحة كأني في أرض بها قوم عليهم ثيابٌ بيضٌ ، فقلتُ : ماهؤلاء ؟ قيل : ملائكة السماء نزلوا لموت الحافظ عبد الغني . فقلتُ : وأين هو ؟ فقيل لي : اقعدْ عند الجامع حتى يخرج صنيعة الملك فامضِ معه . قال : فلقيتُه واقفًا عند الجامع .

سمعتُ الفقيه أحمد بن محمد بن عبد الغني سنة اثنتي عشرة يقول : رأيتُ البارحة أخاك الكمال عبد الرحيم - وكان توفِّي تلك السنة - في النوم ، فقلتُ : يافلان ، أين أنت ؟ قال : في جنة عدن . فقلتُ : أيُّما أفضل ؛ الحافظ أو الشيخ أبو عمر ؟ فقال : ما أدري ، وأمّا الحافظ فكلَّ

ليلة جمعة يُنصب له كرسيٌّ تحت العرش ، ويقرأ عليه الحديث ، ويُنثر عليه الدُّرُّ والجوهر ، وهذا نصيبي منه ، وكان في كُمِّه شيءٌ [(١)] .

أموتُ وما ماتتْ إليك صبابتي وما شبعت من حب ذاتك أوطاري

٢٤٠ - أبو عمرو ابن الصلاح ، الإمام الحافظ العلّامة شيخ الإسلام تقي الدين، عثمان بن عبد الرحمن بن عثمان الشهرزوري، صاحب علوم الحديث « مُقدِّمة ابن الصلاح » :

« كان إمامًا كبيرًا ، فقيهًا مُحدثًا ، مُفيدًا مُعلمًا ، يُعيد زمان السالفين ورعا ، ويزيد بهجة دمشق علم جنى كل طالب جناها ورعا ، فما منهم إلَّا من اغترف من بحره ، واعترف بدُرِّه ، وحفظ جانب مِثله ورعًا .

سمع الحديث بالموصل من ابن السمين وهو أقدم شيخ له، وسمع ببغداد من ابن سكينة ، وسمع بنيسابور ، وبمرو ، وبدمشق من الشيخ الموفق ابن قدامة وغيره. جال بلاد خراسان واستفاد من مشايخها، وعلَّق التعاليق المُفيدة، وورد دمشق ، ودرَّس بالمدرسة الصَّلاحية بالقدس ، ثم عاد إلى البلاد ، ثم ورد دمشق مُقيمًا مُستوطنًا ، وولي تدريس الرّواحية والشامية الجوَّانية ، ومشيخة دار الحديث الأشرفية » [(٢)] .

قال الذهبي : « أشغل ، وأفتى ، وتخرّج به الأصحاب ، وكان من كبار الأئمة » .

قال ابن خلِّكان : « كان أحد فضلاء عصره في التفسير والحديث والفقه ، وله مُشاركةٌ في فنون عدَّة » .

« قال القاضي شمس الدين ابن خلِّكان : بلغني أنه كرَّر على جميع « المُهذَّب » قبل أن يَطِرَّ شاربُه ، وكانت فتاويه مُسدَّدة ، وهو أحد شيوخي

(١) سير أعلام النبلاء ٢١ / ٤٤٣ - ٤٧٠ .
(٢) طبقات الشافعية الكبرى ٧ / ٣٢٧ .

الذين انتفعتُ بهم ، أقمتُ عنده للاشتغال ، ولازمته سنةً ، وله إشكالات على « الوسيط » ، وذكره عمر بن الحاجب في « معجمه » ، فقال : إمامٌ وَرِعٌ ، وافرُ العقل ، مُتَبَحِّرٌ في الأصول والفروع ، بالغٌ في الطلب حتى صار يُضرَب به المثل ، وأجهد نفسه في الطاعة والعبادة .

قال الذهبي : كان مع تبحُّره في الفقه مجوِّدًا لما ينقله ، قويَّ المادة من اللغة العربية ، مُتفنِّنًا في الحديث مُتصوِّنًا ، مُكِبًّا على العلم ، عديمَ النظير في زمانه .

ومن فتاويه أنه سُئِل عمن يشتغل بالمنطق والفلسفة ، فأجاب : الفلسفة أُسُّ السَّفَهِ والانحلال، ومادة الحيرة والضلال، ومثار الزيغ والزندقة، ومَنْ تفلسف ؛ عميتْ بصيرته عن محاسن الشريعة المؤيَّدة بالبراهين ، ومن تلبَّس بها قارنه الخذلان والحرمان ، واستحوذ عليه الشيطان ، وأظلم قلبُه عن نبُوَّة محمد ﷺ ، إلى أن قال : واستعمال الاصطلاحات المنطقية في مباحث الأحكام الشرعية من المُنكرات المُستبشعة، والرقاعات المُستحدثة، وليس بالأحكام الشرعية - ولله الحمد - افتقار إلى المنطق أصلًا ، هو قعاقع قد أغنى الله عنها كُلَّ صحيح الذهن ، فالواجب على السلطان أعزَّه الله أن يدفع عن المسلمين شرَّ هؤلاء المشائيم ، ويُخرجهم من المدارس ويُبعدهم »[١] .

٢٤١ - الحافظ شيخ الإسلام، الإمام المنذري، زكيُّ الدين، أبو محمد، عبد العظيم بن عبد القوي بن عبد الله بن سلامة المنذري :

وليُّ الله ، والمُحدِّث عن رسول الله ﷺ .

« كان رحمه الله قد أُوتي المكيال الأوفى من الورع والتقوى ، والنصيبَ الوافر من الفقه ، وأما الحديث فلا مراء في أنه كان أحفظَ أهلِ زمانه ،

(١) سير أعلام النبلاء ٢٣ / ١٤٢ - ١٤٣ .

وفارسَ أقرانه ، له القدم الراسخ في معرفة صحيح الحديث من سقيمه ، وحفظِ أسماء الرجال حفظَ مُفرطِ الذكاءِ عظيمِه ، والخبرة بأحكامه ، والدراية بغريبه وإعرابه واختلاف كلامه . سمَّع بحرَّان والرُّها والإسكندرية وغيرها . وتفقَّه ، وصنَّف « شرحًا على التنبيه » ، وله « مختصر سنن أبي داود وحواشيه » كتابٌ مُفيد ، و « مختصر صحيح مسلم » ، وخرّج لنفسه مُعجمًا كبيرًا مُفيدًا ، وانتقى ، وخرَّج كثيرًا ، وأفاد الناس . وبه تخرَّج الحافظ أبو محمد الدمياطي ، وإمام المتأخِّرين تقي الدين ابن دقيق العيد ، والشريف عز الدين ، وطائفة ، وعمَّتْ عليهم بَرَكَتُه »[١] .

قال الذهبي في « السِّيَر » (٢٣ / ٣٢١ - ٣٢٢) : « قرأ القراءات على أبي الثناء حامد بن أحمد الأرتاحيِّ ، وتفقَّه على الإمام أبي القاسم عبد الرحمن بن محمد القرشي الشافعي ، وأخذ العربية عن أبي الحسين يحيى بن عبد الله الأنصاري .

قال الحافظ عز الدين الحُسينيُّ : درَّس شيخنا بالجامع الظافريِّ ، ثم ولي مشيخة الدار الكاملية ، وانقطع بها عاكفًا على العلم ، وكان عديمَ النظير في علم الحديث على اختلاف فنونه ، ثبتًا حُجَّةً ، وَرِعًا مُتحرِّيًا .

قال شيخنا الدمياطي : هو شيخي ومُخَرِّجي ، أتيتُه مُبتدئًا ، وفارقتُه معيدًا له في الحديث .

وقال الشريف عز الدين : كان شيخنا زكي الدين عالمًا بصحيح الحديث وسقيمه، ومعلوله وطرقه، مُتبحرًا في معرفة أحكامه ومعانيه ومُشكَلِهِ، قيّمًا بمعرفة غريبه وإعرابه واختلاف ألفاظه ، إمامًا حُجَّةً » .

قال السبكي في الطبقات (٨/ ٢٦٠ - ٢٦١) : « قال الذهبي : وما كان في زمانه أحفظ منه .

---

(١) طبقات الشافعية للسبكي ٨ / ٢٥٩ - ٢٦٠ .

وسمعتُ أبي رضي الله عنه أيضًا يحكي أن شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام كان يُسمع الحديث بدمشق ، فلما دخل القاهرة بطَّل ذلك ، وصار يحضر مجلس الشيخ زكيّ الدين ، ويسمع عليه في جملة مَنْ يَسْمع ولا يُسْمِع ، وأن الشيخ زكي الدين أيضًا ترك الفُتيا ، وقال : حيث دخل الشيخ عز الدين لا حاجة بالناس إليَّ » .

وحدَّث الإمام النووي عن شيخه ضياء الدين إبراهيم بن عيسى المراد يصف حال شيخه المنذري ، قال : « لم أرَ ولم أسمع أحدًا أكثر اجتهادًا منه في الاشتغال ، كان دائم الاشتغال في الليل والنهار . قال : وجاورتُه في المدرسة ، يعني بالقاهرة ، بيتي فوق بيته اثنتي عشرة سنة ، فلم أستيقظ في ليلة من الليالي ، ساعة من ساعات الليل ، إلَّا وجدتُ ضوء السِّراج في بيته وهو مشتغل بالعلم ، وحتى كان في حال الأكل والكتاب والكتب عنده يشتغل فيها. وكان لا يخرج من المدرسة لا لعزاء، ولا لهناء، ولا لفرجة، ولا لغير ذلك ، إلا لصلاة الجمعة ، بل يستغرق كل الأوقات في العلم ، رضي الله تعالى عنه وعن والديْنا والمسلمين »[(١)] .

٢٤٢ - الضياء المقدسي ، أبو عبد الله ، محمد بن عبد الواحد بن أحمد المقدسي :

« الشيخ الإمام الحافظ القدوة المُحقِّق المجوِّد بقية السلف ، صاحب التصانيف والرحلة الواسعة ، أجاز له الحافظ السِّلَفي ، وشهدة الكاتبة . سمع بدمشق، وبمصر، وبأصبهان، ونيسابور، ومرو، وحلب، وحرَّان ، والموصل ، وهمذان ، وغير ذلك . وبقي في الرحلة المشرقية مدة سنين . وتخرَّج بالحافظ عبد الغني ، وبرع في هذا الشأن ، وكتب عن أقرانه ومَنْ هو دونه ، وحصَّل الأصول الكثيرة ، وجرَّح وعدَّل ، وصحَّح وعلَّل ، وقيَّد وأهمل ، مع الديانة

---

(١) بستان العارفين (صـ ١٩١) الطبعة الثالثة بدمشق .

والأمانة والتقوى والصيانة والورع والتواضع والصدق والإخلاص وصحة النقل . وله التصانيف المشهورة ؛ منها الأحاديث المختارة . ولم يزل مُلازمًا للعلم والرواية والتأليف إلى أن مات ، وتصانيفه نافعة مُهذَّبة ، أنشأ مدرسةً إلى جانب الجامع المظفري، وكان يبني فيها بيده، ويتقنَّع باليسير، ويجتهد في فعْل الخير ونشر السُّنَّة ، وفيه تعبُّدٌ وانجماعٌ عن الناس .

قال ابن الحاجب فيما قرأتُ بخطِّهِ : سألتُ زكيَّ الدين البرزالي عن شيخنا الضياء ، فقال : حافظٌ ، ثقةٌ ، جَبَلٌ ، دِيِّنٌ ، خيِّرٌ .

وقال الشيخ عز الدين عبد الرحمن بن العز : ما جاء بعد الدارقطني مثل شيخنا الضياء ، أو كما قال .

وقال الحافظ شرف الدين يوسف بن بدر : رحم الله شيخنا ابن عبد الواحد ، كان عظيم الشأن في الحفظ ومعرفة الرجال ، هو كان المشارَ إليه في علم صحيح الحديث وسقيمه،ما رأتْ عيناي مثله .

وقال عمر بن الحاجب: شيخُنا الضياء شيخُ وقته، ونسيجُ وحْده؛ علمًا وحفظًا وثقةً ودينًا، من العلماء الربَّانيِّين، وهو أكبر من أن يدلَّ عليه مثلي.

قال الحافظ محبُّ الدين ابن النجار في تاريخه : كتب أبو عبد الله بخطِّهِ الأصول ، وسمعنا منه وبقراءته كثيرًا ... إلى أن قال : وأقام بهراة ومرو مُدَّةً ، وكتب الكتب الكبار بخطِّه ، وحصَّل النُّسَخ ببعضها بهِمَّة عالية ، وجدٍّ واجتهادٍ ، وتحقيقٍ وإتقانٍ ، كتبتُ عنه ببغداد ونيسابور ودمشق ، وهو حافظ مُتقِنٌ ، ثبتٌ صدوقٌ ، نبيلٌ حُجَّةٌ ، عالمٌ بالحديث وأحوال الرجال، له مجموعات وتخريجات، وهو ورِعٌ تقيٌّ، زاهدٌ عابدٌ، مُحتاطٌ في أكْل الحلال ، مُجاهد في سبيل الله ، ولعمري ما رأتْ عيناي مثله في نزاهته وعِفّته وحُسْن طريقته في طلب العلم »[١] .

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٣ / ١٢٦ - ١٣٠ .

٢٤٣ - الشيخ الإمام شيخ الإسلام، أبو الفتح، تقي الدين، مجد الدين، ابن دقيق العيد ، محمد بن علي بن وهب القشيري :

« الجامع بين العلم والدين ، والسالك سبيل السادة الأقدمين ، أكمل المتأخِّرين ، بحرُ العلم الذي لا تُكدِّرُه الدِّلاء ، ومَعدنُ الفضل الذي لقاصده منه ما يشاء ، إمامُ المتأخِّرين ؛ كلمة لا يجحدونها ، وشهادة على أنفسهم يؤدُّونها . كان للعلوم جامعًا ، وفي فنونها بارعًا ، مُقدَّمًا في معرفة علل الحديث على أقرانه ، مُنفردًا بهذا الفنِّ النفيس في زمانه ، بصيرًا بذلك ، سديدَ النظر في تلك المسالك .

إذا قالَ لم يتركْ مقالًا لقائلٍ ... مصيب ولم يثنِ اللسانَ على هُجْرِ

وكان حَسَنَ الاستنباط للأحكام والمعاني ؛ من السنَّة والكتاب ، بلُبٍّ يسحر الألباب ، وفكرٍ يستفتح له ما يستغلق على غيره من الأبواب .

وكان من العلومِ بحيثُ يُقضَى ... له من كلِّ علمٍ بالجميع

نشأ الشيخ بقوص على أزكى قدَمٍ من العفاف والمواظبة على الاشتغال. تفقَّه بقوص على والده ، وكان والده مالكيَّ المذهب ، ثم تفقَّه على شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام ، فحقَّقَ المذهبين ، ولذلك يقول فيه الإمام العلَّامة ابن القَوْبَع :

صَبَا للعلمِ صَبًّا في صباهُ ... فأَعْلِ بِهمَّةِ الصَّبِّ الصَّبِّي

وأَتْقَنَ والشبابُ له لِباسٌ ... أدِلَّـةَ مـالكٍ والشافعـيِّ

وأما دأبه في الليل علمًا وعبادةً ، فأمرٌ عُجابٌ ، ربما استوعب الليلة ، فطالع فيها المُجلَّد أو المُجلَّدين ، وربما تلا آيةً واحدةً ، فكرَّرها إلى مطلع الفجر ، استمع له بعض أصحابه ليلةً وهو يقرأ ، فوصل إلى قوله : ﴿ **فإذا نُفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذٍ ولا يتساءلون** ﴾ [المؤمنون : ١٠١] . قال : فما زال يُكرِّرها إلى طلوع الفجر »(١) .

(١) طبقات الشافعية ٩ / ٢٠٧ - ٢١١ .

قال الحافظ ابن كثير (١٤ / ٢٩) : « سمع الكثير ، ورحَل في طلب الحديث ، وخرَّج وصنَّف فيه - إسنادًا ومتنًا - مُصنَّفاتٍ عديدةً ، فريدةً مُفيدةً ، وانتهت إليه رياسة العلم في زمانه ، وفاق أقرانه ، ورحل إليه الطلبة، ودرَّس في أماكن كثيرة، ثم ولي قضاء الديار المصرية ومشيخة دار الحديث الكاملية .

قال رحمه الله :

أهلُ المناصِبِ في الدنيا ورِفعَتِها ... أهلُ الفضائِلِ مرذُولون بينَهُم
قد أنزلونا لِأنَّا غيْرُ جِنْسِهِم ... منازلَ الوحشِ في الإهمالِ عندهُمُ
فما لَهُم في تَوَقِّي ضُرِّنا نَظَرٌ ... ولا لهم في تَرَقِّي قَدْرِنَا هِمَمُ
فليتنا لو قَدَرْنا أن نُعَرِّفهم ... مقدارَهم عندنا أو لو دروهُ هُمُ
لهم مُرِيحان من جَهْلٍ وفرطِ غنًى ... وعندنا المتُعِبانِ العِلمُ والعدمُ

وقد ناقضه الفتح البَقَقِيُّ المنسوب إلى الزندقة ، فقال وأجاد :

أين المراتِبُ والدنيا ورفعَتُها ... عند الذي حازَ علمًا ليس عندهمُ
لاشكَّ أنَّ لنا قدْرًا رَأَوْهُ وَمَا ... لِقَدْرِهم عندنا قَدْرٌ ولا لَهُمُ
هُمُ الوحوشُ ونحنُ الإنس حكمتُنا ... تَقُودهُمْ حيثُ ما شِئْنا وهم نَعَمُ
وليس شيءٌ سوى الإهمال يقْطَعُنَا ... عنهم لأنهُمُ وجدانُهُم عَدَمُ
لنا المُريحانِ من عِلْمٍ ومن عَدَمٍ ... وفيهمُ المُتْعِبَانِ الجهلُ والحَشَمُ

وله رحمه الله :

لله دَرُّ الفِئَـةِ الأمجـادِ ... السالكيـنَ مسالكَ الأفـرادِ
عَرَفُوا وهم بالغَوْرِ من وادي الغَضا ... أنْ رُحِّلوا لمبارِك العُبّـادِ
فسرَوْا لنجدٍ لا يَملُّون السُّرى ... أو يَظفَروا منها بكُلِّ مرادِ
لا يقطعون من المناهِلِ مَعْلَمًا ... إلَّا ولاحَ سِواهُ بالمـرصادِ

لَمْ يَثْنِهِم طولُ الطريقِ لَهمُ ولا ... عَدَمُ الرفيق ولا نفادُ الزَّادِ
سَقَتْهُمُ مَسَّ النُّعاسِ جُفونُهُمْ ... كأسًا تُميلُهُمُ على الأعوادِ
وتكادُ أنفسُهُم تفيظُ(١) وَتحْتَبي ... بنسيمِ نجدٍ أو غناءِ الحادي
نَادَتْهُمُ النُّجبُ الركائبُ عندما ... أَطَّتْ بِوَقْعِ السَّوْطِ والإجهادِ
طيبُ الحياةِ بِنَجْدَ إلَّا أَنَّهُ ... مِن دونِ ذاكَ تَفَتُّتُ الأكبادِ
فأجابها صِدْقُ العزيمةِ إنَّمـا ... نحنُ المعالي أنفسُ الأجْـوادِ
لله دَرُّهُمُ فقد وصلوا إلى ... ظِلِّ النعيم وبرْدِ حَرِّ الصادي
ولَقَدْ يَعِزُّ عليَّ أَنَّهُمُ غدَوْا ... والدارُ قَفْرًا منهُمُ بِبعادِ
فَلأَنهضَنَّ إلى الحمى متوجِّهًا ... بين اعتراضِ عواتقٍ وغوادي
ولأَقْطَعَنَّ عليه كُلَّ مَفَـازَةٍ ... تُدْني الهلاكَ وَلَوْ عُدِمتُ الهادي

٢٤٤ - شيخ الإسلام ، الإمام مُحيي الدين ، أبو زكريا ، يحيى بن شرف ابن مِرَى النووي :

أستاذ المتأخرين ، وحُجَّةُ الله على اللاحقين ، والداعي إلى سبيل السالفين .

كان يحيى رحمه الله سيِّدًا وحصورًا ، وليْثًا على النفس هصورًا ، وزاهدًا لا يبالي بخراب الدنيا إذا صَيَّر دينه رَبْعًا معمورًا ، له الزهد والقناعة ، والمصابرة على أنواع الخير ، لا يصرف ساعة في غير طاعة ، هذا مع التفنُّن في أصناف العلوم ؛ فقهًا ، ومتونَ أحاديثٍ ، وأسماءَ رجال ، ولغةً .

كان السبكي - لما سكن دار الحديث الأشرفية بعد موت النووي - يخرج في الليل إلى إيوانها ؛ ليتهجَّد ، ويُمرِّغ وجهه على البساط الذي كان النووي يجلس عليه وقت الدرس ، فقال :

(١) تفيظ : تموت .

وفي دار الحديث لطيفُ معنًى ... على بُسُط لها أصبو وآوي
عسى أني أمسُّ بحُرِّ وجهي ... مكانًا مَسَّهُ قَدَمُ النَّــواوي

رحم الله سفيان بن عيينة إذ يقول : « عند ذكْر الصالحين تتنزّل الرحمة » .

وقال محمد بن يونس: «ما رأيتُ للقلب أنفع من ذكْر الصالحين»(١).

أما مبدأ أمْر واشتغال النووي وصباه ، فنذكره في عُلُوِّ هِمَّة الصبيان .

قال النووي لتلميذه ابن العطار : « لما كان عُمُري تسع عشرة سنةً ، قدم بي والدي إلى دمشق في سنْة تسع وأربعين ، فسكنتُ المدرسة الرَّواحية ، وبقيتُ نحو سنتين لم أضعْ جنبي إلى الأرض ، وكان قوتي فيها جراية المدرسة لا غير » .

قال : « وحفظتُ كتاب « التنبيه » في نحو أربعة أشهر ونصف ، وحفظتُ رُبُعَ العبادات من « المهذب » في باقي السَّنة » .

رحم الله النووي ، ورحم الله الشيرازي الذي ألَّف « المهذب » في أربعة عشر عامًا ، وحفظ رُبُعَ العبادات منه النووي في سبعة أشهر ونصف .

قال النووي : « وجعلتُ أشرح وأُصحّح على شيخنا الإمام العالم ، الزاهد الوَرِع ، ذي الفضائل والمعارف ، أبي إبراهيم إسحاق بن أحمد بن عثمان المغربي الشافعي رحمه الله ، ولازمتُه » . قال : « فأُعجب بي لما رأى من اشتغالي ومُلازمتي وعدم اختلاطي بالناس، وأحبَّني محبَّةً شديدة، وجعلني أُعيد الدروس في حلقته لأكثر الجماعة » .

قال الذهبي عن النووي : « وضُرب به المثل في إكبابه على طلب العلم ليلًا ونهارًا ، وهجرة النوم إلا عن غلبة ، وضبطِ أوقاته بلزم الدرس ، أو الكتابة ، أو المطالعة ، أو التردُّد على الشيوخ » .

---

(١) طبقات الشافعية للسبكي ٧ / ٢١٥ ، ٢٢١ .

وحكى البدر بن جماعة أنه سأله عن نومه ، فقال : « إذا غلبني النوم ؛ استندت إلى الكتب لحظةً ثم أنتبه »[١] .

وفي ترجمة النووي للسخاوي قال البدر : « كنتُ إذا أتيتُه أزوره ؛ يضع الكتب على بعض ليُوسِّع لي مكانًا أجلس فيه » .

لما رجع من الحج قال عنه والده : « فلما قضينا المناسك ، ووصلنا إلى (نوى) ، ونزلنا إلى دمشق ؛ صبَّ الله عليه العلم صبًّا ، ولم يزل يشتغل بالعلم ، ويقتفي آثار شيخه المذكور في العبادة ؛ من الصلاة وصيام الدهر ، والزهد والورع ، وعدم إضاعة شيء من أوقاته ، إلى أن تُوفِّي رحمه الله » .

فلما توفِّي شيخه المذكور ؛ ازداد اشتغاله بالعلم والعمل .

قال ابن العطاء - تلميذه - في ترجمته : « وذكر لي الشيخ قدَّس الله روحه ، قال : كنتُ أقرأ كل يوم اثني عشر درسًا على المشايخ ؛ شرحًا وتصحيحًا : درسين في « الوسيط » ، ودرسًا في « المُهذَّب » ، ودرسًا في «الجمع بين الصحيحين»، ودرسًا في «صحيح مسلم»، ودرسًا في «اللُّمع» لابن جنِّي في النحو ، ودرسًا في « إصلاح المنطق » لابن السِّكِّيت في اللغة ، ودرسًا في التصريف، ودرسًا في أصول الفقه؛ تارةً في « اللُّمع » لأبي إسحاق، وتارةً في « المنتخب » لفخر الدين الرازي ، ودرسًا في أسماء الرجال ، ودرسًا في أصول الدين » .

قال : « وكنتُ أُعلِّق جميع ما يتعلَّق بها ؛ من شرح مُشْكل ، ووضوح عبارة ، وضبطِ لغة ، وبارك الله لي في وقتي ، واشتغالي ، وأعانني عليه » .

قال الشيخ عبد الغني الدقر في كتابه « الإمام النووي » (٣٤) : « اثنا عشر درسًا يقرؤها على المشايخ كل يوم ؛ شرحًا وتصحيحًا ، ويُعلِّق

---

(١) ترجمة الإمام النووي للسخاوي (صـ ٣٦) .

ما يتعلّق بها من شرح مُشكل ، وإيضاح عبارة ، وضبط لغة ، تحتاج كل يوم إلى اثنتي عشرة ساعة على أقل تقدير ، وتحتاج إلى مراجعة ما يجب أن يُراجع ، وحفظِ ما يجب أن يُحفظ بأدنى التقدير إلى اثنتي عشرة ساعة ، فهذه أربع وعشرون ساعة، فمتى ينام؟! ومتى يأكل؟! ومتى يقوم بعبادته ؟! ومتى يتهجَّد في ليله ؟! ومعروف أنه سبَّاقٌ إلى الطاعات والعبادات ... متى يكون هذا كله وهو مُحتاج إلى دراسته ومُراجعته إلى أربع وعشرين ساعة في اليوم والليلة ؟!

هنا يبدو إكرامُ الله إياه ، وتفضُّلُه عليه ، وذلك بأنْ بارك الله له في وقته ، فمنحه القدرة على أن يُنتج في يوم ما يُنتج غيره في يومين ، وفي سنة ما يُنتج غيره في سنتين ، وبهذا نُفسِّر هذه الوثبة الهائلة التي جعلتْ منه في نحو عشر سنوات عالمًا في درجة كبار علماء عصره ، ثم جعلتْ منه إمامَ عصره ، كما نُفسِّر هذه الكثرة الهائلة من مؤلَّفاته المتقنة الرائعة في فترة لا تتجاوز خمسًا وعشرين سنة ، هي كلُّ عُمُره في العلم ، تعلُّمًا وتعليمًا وتأليفًا » . انتهى .

قال النووي : « أخذتُ الفقه ؛ قراءةً وتصحيحًا وسماعًا وشرحًا وتعليقًا عن جماعات :

أوَّلُهم : شيخي الإمام المُتَّفَق على علمه ، وزهده ، وورعه ، وكثرة عباداته ، وعِظَم فضله ، وتميُّزِه في ذلك على أشكاله : أبو إبراهيم إسحاق ابن أحمد بن عثمان المغربي ، ثم المقدسي رضي الله عنه وأرضاه .

ثم شيخنا ، العارف الزاهد العابد ، مُفتي دمشق في وقته : أبو محمد عبد الرحمن بن نوح بن محمد المقدسي .

ثم شيخنا : أبو حفص ، عمر بن أسعد الرَّبعي الأربلي الإمام المُتقِن المُفتي » .

رحم الله يحيى بن معاذ الرازي القائل : « العلماء أرأف بأُمَّة محمد

ﷺ من آبائهم وأُمَّهاتهم ؛ لأنهم يحفظونهم من نار الآخرة وأهوالها ، وآباؤهم وأمهاتهم يحفظونهم من الدنيا وآفاتها » .

« سمع النووي « صحيح البخاري » و « صحيح مسلم » ، و « سُنَنَ أبي داود» و «سُنَنَ الترمذي»، وسمع «سُنَنَ النسائي» بقراءته، « وموطَّأ مالك » ، و « مُسنَد الشافعي »، و « مُسنَد أحمد بن حنبل » و « سُنَنَ الدارمي»، و «مُسنَد أبي عوانة الإسفرائيني»، و «مسند أبي يعلى الموصلي»، و «سُنَنَ ابن ماجه» و «سُنَنَ الدارقطني»، و « سُنَنَ البيهقي » ، و « شرح السنة » للبغوي ، و « معالم التنزيل » في التفسير له ، وكتاب « الأنساب » للزبير بن بكَّار ، و « الخطب النباتية » ، و « عمل اليوم والليلة » لابن السُّنِّي ، وكتاب « آداب السامع والراوي » للخطيب ، وأجزاء كثيرةً غير ذلك .

وقُرىء عليه «البخاري» و «مسلم» بدار الحديث الأشرفية ؛ سماعًا وبحثًا .

وقرىء عليه « الرسالة » للقشيري ، و « صفة الصفوة » ، وكتاب « الحُجَّة على تارك المحجَّة » لنصر المقدسي ؛ بحثًا وسماعًا .

وسمع من النووي خلْق كثير من العلماء والحفَّاظ والصدور والرؤساء ، وتخرَّج به خلق كثير من الفقهاء ، وسار علمُه وفتاويه في الآفاق ، ووقع على دينه وعِلمه وزهده وورعه ومعرفته وكرامته : الوِفَاق ، وانتفع الناس في سائر البلاد الإسلامية بتصانيفه ، وأكبُّوا على تحصيل تواليفه .

وذكر لي رحمه الله أنه كان لا يُضيِّع له وقتًا في ليل ولا نهار ، إلا في وظيفة من الاشتغال بالعلم ، حتى في ذهابه في الطرق ومجيئه يشتغل في تكرار محفوظه ، أو مُطالعة ، وأنه بقي على التحصيل على هذا الوجه نحو ست سنين .

ثم إنه اشتغل بالتصنيف، والإشغال، والإفادة، والمُناصحة للمُسلمين

وولاتهم ، مع ما هو عليه من المجاهدة لنفسه ، والعمل بدقائق الفقه ، والاجتهاد ، والخروج على خلاف العلماء وإن كان بعيدًا .

وكان مُحققًا في علومه وفنونه ، مُدققًا في علمه وكل شئونه ، حافظًا لحديث رسول الله ﷺ ، عارفًا بأنواعه كلها ؛ من صحيحه وسقيمه ، وغريب ألفاظه وصحيح معانيه واستنباط فقهه ، حافظًا لمذهب الشافعي وقواعده وأصوله وفروعه ، ومذاهب الصحابة والتابعين ، واختلاف العلماء ووفاقهم وإجماعهم ، وما اشتهر من ذلك جميعه وما هُجر ، سالكًا في كلِّها ذكْر طريقة السلف ، قد صرف أوقاته كلها في أنواع العلم والعمل ؛ فبعضها للتصنيف ، وبعضها للتعليم ، وبعضها للصلاة ، وبعضها للتلاوة ، وبعضها للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر »[١] .

صنَّف رحمه الله كُتُبًا في الحديث والفقه ، عمَّ النفعُ بها ، وانتشر في أقطار الأرض ذكْرُها ؛ منها : « المنهاج في شرح صحيح مسلم » . قال عنه السخاوي : هو عظيمُ البركة . ومنها : « الإشارات إلى بيان الأسماء المُبهمات » ، و «رياض الصالحين». قال السخاوي: «إنه جليلٌ لا يُستغنى عنه»، و « الأذكار » ، وكتاب « الأربعين » ، و « التيسير في مختصر الإرشاد في علوم الحديث » . ومنها : « الإرشاد » ، و « التحرير في ألفاظ التنبيه » ، و « العمدة في تصحيح التنبيه » ، و « الإيضاح في المناسك » ، و « الإيجاز في المناسك » ، و « التبيان في آداب حَمَلَةِ القرآن » . قال عنه السخاوي : « نفيسٌ لا يُستغنى عنه ، خصوصًا القارىء والمُقرىء » . ومنها : « مسألة الغنيمة » . ومنها : « القيام » . ومنها : « كتاب الفتاوى » . رتَّبها ابن العطَّار . ومنها : « الروضة في مختصر الروضة » . قال السخاوي عنها :

---

(١) تحفة الطالبين في ترجمة الإمام محيي الدين . لابن العطار . تحقيق : مشهور حسن سلمان من (٤٣ - ٦٨) .

« هي كاسمها فيما قاله ابن المُلقّن » . قال الإسنوي في « المُهمّات » : « وكانت أنفسَ ما تأثَّر من تصانيفه ؛ لبركات نَفَسِهِ ، وتأتي من ثمرات غراسه » . ومنها : « المجموعُ في شرحِ المُهذَّب إلى أثناء باب الرباء » . قال الإسنوي : « وهذا الشرح من أجلِّ كُتُبه وأنفسها » . إلى غير ذلك .

أمر تلميذه ابن العطار بغسل نحو ألف كرَّاس بخطِّه ، فكم كتب وأبقى لنفسه !!

قال المُحدِّث أبو العباس أحمد بن فرح الإشبيلي رحمه الله ، وكان له ميعاد على الشيخ في الثلاثاء والسبت؛ يوم يشرح في «صحيح البخاري»، ويوم يشرح في « صحيح مسلم » . قال : « كان الشيخ مُحيي الدين قد صار إليه ثلاث مراتب ، كلُّ مرتبةٍ منها لو كانت لشخص ؛ شُدَّت إليه آباط الإبل من أقطار الأرض :

المرتبة الأُوْلى : العلم والقيام بوظائفه .

الثانية : الزهد في الدنيا وجميع أنواعها .

الثالثة : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

ولله دَرُّ القائل في رثاء النووي :

وكنتَ في سنةِ المختارِ مُجتهدًا ... وأنت باليُمنِ والتوفيقِ مُشتمِلُ
عزفتَ عن شهواتٍ ما لعزم فتى ... بها سواك إذا عَنَّتْ لهُ قِبَلُ
أسهرتَ في العلم عينًا لم تَذُقْ سِنَةً ... إلَّا وأنت به في الحلم مُشتَغِلُ
يا لهْفَ حفلٍ عظيمٍ كنتَ بهجتَهُ ... وحَلْيَهُ فعراهُ بعدكَ العَطَلُ
وطالبُ العلمِ من دانٍ ومغتربٍ ... نالوا بيُمْنِك منه فوقَ ما أَمِلُوا
وكم تواضعتَ عن فضل وعن شرفٍ ... وهِمَّةٍ هامةَ الجوزاءِ تنتعلُ

ويرحم الله مَنْ قال في النووي :

قد كنتَ كاسمِك مُحيي الدين مجتهدًا ... ومن دُعائك نال النصرَ فُرسانُ[1]

---

(١) تحفة الطالبين في ترجمة الإمام مُحيي الدين . لابن العطَّار .

٢٤٥ - الإمام شيخ الإسلام تقي الدين ، أبو العباس ، أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحرَّاني :

الرَّباني .. مُفتي الأمة ، وبحر العلوم ، وسيِّدُ الحفَّاظ ، وفارس المعاني والألفاظ ، فريدُ العصر ، وقريعُ الدهر ، بركةُ الأنام ، وعلَّامةُ الزمان ، وترجمان القرآن، عَلَمُ الزُّهَّاد، وأوحدُ العُبَّاد، قامعُ المبتدعين، وشيخُ المجتهدين.

شيوخه الذين سمع منهم أكثر من مائتي شيخ .

قال الحافظ عمر البزّار في « الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية » (١٧- ١٨) :« لم يزل منذ إبَّان صِغَرِه مُستغرق الأوقات في الجدِّ والاجتهاد، وختم القرآن صغيرًا ، ثم اشتغل بحفظ الحديث والفقه والعربية ، حتى برع في ذلك ، مع ملازمة مجالس الذِّكْر وسماع الأحاديث والآثار ، ولقد سمع غير كتاب على غير شيخ من ذوي الروايات الصحيحة العالية، أما دواوين الإسلام الكبار ، كمُسند أحمد ،وصحيح البخاري ، ومسلم ، وجامع الترمذي ، وسنن أبي داود ، والنسائي ، وابن ماجه ، والدارقطني ؛ فإنه - رحمه الله ، ورضي عنهم وعنه - سمع كل واحد منها عدَّة مرَّات . وأوَّلُ كتاب حفظه في الحديث « الجمع بين الصحيحين » للإمام الحميدي ، وقلَّ كتاب من فنون العلم إلَّا وقف عليه ، وكان الله قد خصَّه بسرعة الحفظ وإبطاء النسيان ، لم يكن يقف على شيء ، أو يستمع لشيء غالبًا إلا ويبقى على خاطره ؛ إمَّا بلفظه أو معناه. وكان العلم كأنه قد اختلط بلحمه ودمه وسائره ، فإنه لم يكن له مُستعارًا ، بل كان له شِعارًا ودِثارًا » .

قال الحافظ الذهبي في شيخ الإسلام ابن تيمية : « كان يحضر المدارس والمحافل في صِغَره ، ويُناظر ويُفحم الكبار ، ويأتي بما يتحيَّر منه أعيان البلد في العلم ، فأفتى وله تسع عشرة سنة ؛ بل أقلّ ، وشرع في الجمع والتأليف من ذلك الوقت ، وأكَبَّ على الاشتغال » .

قال بعض قدماء أصحاب الشيخ ابن تيمية : « لاتكاد نفْسُهُ تشبع

من العلم ، فلا تروى من المطالعة ، ولا تملُّ من الاشتغال ، ولا تكلّ من البحث ، وقلَّ أنْ يدخل في علم من العلوم من باب من أبوابه إلا ويُفتح له من ذلك الباب أبواب ، ويستدرك مُستدركاتٍ في ذلك العلم على حُذَّاق أهله . مقصوده الكتاب والسُّنَّة ، ولقد سمعتُه في مبادىء أمره يقول : إنه ليَقفُ خاطري في المسألة والشيء أو الحالة التي تُشكل عليَّ ، فأستغفر الله تعالى ألف مرَّةٍ ، أو أكثر أو أقلَّ ، حتى ينشرح الصدر وينحلَّ إشكال ما أُشكل ، قال : وأكون إذ ذاك في السوق أو المسجدْ أو الدرب أو المدرسة، لا يمنعني ذلك من الذِّكْر والاستغفار، إلى أن أنال مطلوبي»[1].

قال الحافظ ابن عبد الهادي : « لم يبرح شيخنا في ازدياد من العلوم ، وملازمة الاشتغال والإشغال ، وبثِّ العلم ونشْره، والاجتهاد في سبل الخير، حتى انتهتْ إليه الإمامة في العلم والعمل » .

• قال ابن عبد الهادي : « قال شيخنا الحافظ أبو الحجاج - المِزِّي -: ما رأيتُ مثله ، ولا رأى هو مثل نفسه ، وما رأيتُ أحدًا أعلم منه .

وقال ابن الزِّملكاني : كان إذا سُئل عن فنٍّ من العلم ظنَّ الرائي والسامع أنه لا يعرف غير ذلك الفنِّ ، وحكم أن أحدًا لا يعرف مثله . وكان الفقهاء من سائر الطوائف إذا جلسوا معه استفادوا في مذاهبهم منه ما لم يكونوا عرفوه قبل ذلك ، ولا يُعرف أنه ناظر أحدًا فانقطع معه،وكانت له اليد الطولى في حُسْن التصنيف وجودة العبارة والترتيب والتقسيم والتبيين. ووقعتْ مسألة فرعية في قسمة جرى فيها اختلاف بين المُفتين في العصر ؛ فكتب فيها مُجلَّدة كبيرة ، وكذلك وقعت مسألة في حدٍّ من الحدود ؛ فكتب فيها مُجلَّدة كبيرة ، ولم يخرج في كل واحدة عن المسألة ، ولا طوَّل

---

(١) العقود الدُّرِّية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية لابن عبد الهادي (صـ ٥، ٦) . طبع دار الكتب العلمية .

بتخليط الكلام والدخول في شيء والخروج من شيء ، وأتى في كل واحدة بما لم يكن يجري في الأوهام والخواطر ، واجتمعت فيه شروط الاجتهاد على وجهها » .

وقال فيه البرزالي : « قرأ الفقه وبرع فيه والعربية والأصول ، ومهر في علميْ التفسير والحديث ، وكان إمامًا لا يُلحق غُبارُهُ في كل شيء ، وكان إذا ذكر التفسير ؛ بُهت الناس من كثرة محفوظه وحُسْن إيراده وإعطائه كلَّ قول ما يستحقُّه من الترجيح والتضعيف والإبطال ، وخوضه في كل علم . كان الحاضرون يقضون منه العجب ، هذا مع انقطاعه إلى الزهد والعبادة والاشتغال بالله تعالى والتجرُّد من أسباب الدنيا ، ودعاء الخلق إلى الله تعالى . وكان يجلس في صبيحة كل جمعة على الناس يُفسِّر القرآن العظيم ، فانتفع بمجلسه ، وبركة دعائه ، وطهارة أنفاسه ، وصدْق نيَّته ، وصفاء ظاهره وباطنه ، وموافقة قوله لعمله ، وأناب إلى الله - خَلْقٌ كثيرٌ » .

قال عنه الذهبي : « برع في العلم والتفسير ، وأفتى ودرَّس وله نحو العشرين سنة . وصنَّف التصانيف ، وصار من كبار العلماء في حياة شيوخه، وله من المُصنَّفات الكبار التي سارت بها الركبان، ولعلَّ تصانيفه في هذا الوقت تكون أربعة آلاف كرَّاس وأكثر . وفسَّر كتاب الله تعالى مُدَّة سنين من صدره أيام الجمع ، وكان يتوقَّد ذكاءً . وسماعاته من الحديث كثيرة ، وشيوخه أكثر من مائتي شيخ . ومعرفته بالتفسير إليها المُنتهى . وحفْظُه للحديث ورجاله وصِحَّتِه وسقَمِه ، فما يُلحق فيه . وأمَّا نقْله للفقه ومذاهب الصحابة والتابعين - فضلًا عن المذاهب الأربعة - فليس له فيه نظير . وأمَّا معرفتُه بالمِلَلِ والنِّحَلِ والأصول والكلام ؛ فلا أعلم له فيه نظيرًا . ويدري جملةً صالحةً من اللغة ، وعربيته قويَّةٌ جدًّا . ومعرفته بالتاريخ والسِّير فعجبٌ عجيبٌ » .

وقال الذهبي في موضع آخر - وقد ذكر الشيخ رحمه الله -: « كان آيةً في الذكاء وسرعة الإدراك ، رأسًا في معرفة الكتاب والسُّنَّة والاختلاف، بحرًا في النقليَّات، هو في زمانه فريدَ عصره علمًا وزهدًا، وشجاعة وسخاءً، وأمرًا بالمعروف ونهيًا عن المنكر ، وكثرة تصانيف . وقرأ وحصَّل ، وبرع في الحديث والفقه ، وتأهَّل للتدريس والفتوى ، وهو ابن سبع عشرة سنة . وتقدَّم في علم التفسير والأصول، وجميع علوم الإسلام؛ أصولها وفروعها، ودِقِّها وجُلِّها ، سوى علم القراءات . فإنْ ذُكِرَ التفسير فهو حامل لوائه . وإنْ عُدَّ الفقهاء فهو مجتهدهم المُطلق. وإنْ حضر الحُفَّاظ نطق وخرسوا، وسرد وأُبلسوا ، واستغنى وأفلسوا . وإن سُمِّي المُتكلِّمون فهو فردهم ، وإليه مرجعهم . وإن لاح ابن سينا يقْدم الفلاسفة فَلَّهم وتيَّسهم ، وهتك أستارهم، وكشف عوارهم. وله يدٌ طولى في معرفة العربية والصرف واللغة، وهو أعظم من أن يصفه كَلِمي ، أو يُنبِّه على شأوه قلمي . فإن سيرته وعلومه ومعارفَه ، ومحَنَهُ وتنقُّلاته ؛ تحتمل أن تُرصَّع في مُجلَّدتين ، وهو بشرٌ من البشر ؛ له ذنـوبٌ ، فالله تعالى يغفر له ويُسكنه أعلى جنته ؛ فإنه كان ربَّانيَّ الأُمَّة ، وفريدَ الزمان ، وحامل لواء الشريعة ، وصاحب حلِّ مُعضلات المسلمين ، وكان رأسًا في العلم .

وقال في مكان آخر - ذكر فيه ترجمة طويلة للشيخ قبل وفاة الشيخ بدهر طويل-: قلتُ: وله خبرة تامَّة بالرجال وجرحِهم وتعديلهم وطبقاتهم، ومعرفة بفنون الحديث ، وبالعالي والنازل ، وبالصحيح والسقيم ، مع حفظه لمتونه الذي انفرد به ؛ فلا يبلغ أحدٌ في العصر رُتبته ، ولا يُقاربه ، وهو عجبٌ في استحضاره ، واستخراج الحُجج منه ، وإليه المنتهى في عزوه إلى الكتب الستة والمسند ، بحيث يصدُقُ عليه أن يُقال : « كلّ حديث لا يعرفه ابن تيمية فليس بحديث » ، ولكن الإحاطة لله ، غير أنه يغترف من بحر ، وغيره من الأئمة يغترفون من السواقي . وأما التفسير فمُسلَّمٌ

إليه . وله في استحضار الآيات من القرآن - وقت إقامة الدليل بها على المسألة - قوةٌ عجيبة . وإذا رآه المقرىء تحيَّر فيه . ولفرط إمامته في التفسير وعظمة اطلاعه يُبيِّن خطأ كثير من أقوال المفسرين ، ويُوهِّي أقوالًا عديدة ، وينصر قولًا واحدًا موافقًا لما دلَّ عليه القرآن والحديث . ويكتب في اليوم والليلة من التفسير ، أو من الفقه ، أو من الأصلين ، أو من الردِّ على الفلاسفة والأوائل نحوًا من أربعة كراريس أو أزيد . وما أُبعد أن تصانيفه إلى الآن تبلُغ خمسمائة مُجلَّدة . وله في غير المسألة مُصنَّف مُفرد في مُجلد .

وللشيخ رحمه الله من المصنَّفات والفتاوى والقواعد والأجوبة والرسائل وغير ذلك من الفوائد ما لا ينضبط ، وما أعلم أحدًا من مُتقدمي الأُمَّة ولا متأخِّريها جمع مثل ما جمع ، ولا صنَّف نحو ما صنَّف ، ولا قريبًا من ذلك ، مع أن أكثر تصانيفه إنما أملاها من حفظه . وكثير منها صنَّفه في الحبس ، وليس عنده ما يحتاج إليه من الكتب » .

. وقال الذهبي في موضع آخر عنه : « هو أكبر من أنْ يُنبِّه مثلي على نعوته ، فلو حلفتُ بين الركن والمقام لحلفتُ أني ما رأيتُ بعيني مثله ، ولا والله ما رأى هو مثل نفسه في العلم » .

قال تلميذه الحافظ عمر البزار : « ومن أعجب الأشياء في ذلك ؛ أنه في محنته الأولى بمصر ، لمّا أُخِذ وسُجِن ، وحيل بينه وبين كُتُبه ؛ صنَّف عدَّة كُتُب صغارًا وكبارًا، وذكر فيها ما احتاج إلى ذكْره من الأحاديث والآثار ، وأقوال العلماء ، وأسماء المُحدِّثين والمؤلفين ومؤلَّفاتهم ، وعزا كلَّ شيء من ذلك إلى ناقليه وقائليه بأسمائهم ، وذكر أسماء الكتب التي ذكر فيها ، وأيَّ موضع هو منها ؛ كلُّ ذلك بديهة من حفظه ؛ لأنه لم يكن عنده حينئذ كتاب يُطالعه . ونُقِّبت[1] واختُبِرت واعتُبِرت ؛ فلم يوجد

(١) يقصد بذلك التفتيش على أصولها .

فيها بحمد الله خَلَلٌ ولا تغيُّر ، ومن جملتها كتاب « الصارم المسلول على شاتم الرسول »[١] . وهذا من الفضل الذي خصَّه الله تعالى به .

وأمَّا مؤلَّفاته ومُصنَّفاته ، فإنها أكثر من أن أقدر على إحصائها ، أو يحضرني جملة أسمائها ، بل هذا لا يقدر عليه غالبًا أحدٌ ؛ لأنها كثيرة جدًّا ، كبارًا وصغارًا ، وهي منشورة في البلدان . فقلَّ بلد نزلته إلَّا ورأيت فيه من تصانيفه .

وأما فتاويه ونصوصه وأجوبته على المسائل ، فهي أكثر من أن أقدر على إحصائها ، لكن دُوِّن بمصر منها على أبواب الفقه سبعة عشر مُجلّدًا ، وهذا ظاهر مشهور . وجمع أصحابه أكثر من أربعين ألف مسألة . وقلَّ أن وقعتْ واقعة وسُئل عنها ، إلّا وأجاب فيها بديهة بما بهَر واشتهر ، وصار ذلك الجواب كالمُصنَّف الذي يحتاج فيه غيره إلى زمن طويل ومطالعة كتب ، وقد لا يقدر مع ذلك على إبراز مثله .

أخبرني الشيخ الصالح تاج الدين محمد المعروف بابن الدوري ، أنه حضر مجلس الشيخ رضي الله عنه ، وقد سأله يهودي[٢] عن مسألة في القَدَر ، قد نظمها شِعْرًا في ثمانية أبيات ، فلمّا وقف عليها ؛ فكَّر لحظة يسيرة، وأنشأ يكتب جوابها، وجعل يكتب، ونحن نظنُّ أنه يكتب نثرًا، فلما فرغ ؛ تأمَّله مَنْ حضر من أصحابه ، وإذا هو نظم في بحرٍ أبياتَ السؤال وقافيتها ، تقرب من مائة وأربعة وثمانين بيتًا ، وقد أبرز فيها من العلوم ، ما لو شُرِح بشرح لجاء شرحُه في مُجلَّدَيْن كبيرين . هذا من جملة بواهره .

---

(١) المعروف أن هذا الكتاب ألَّفه سنة (٦٩٣هـ) بدمشق كما قال ابن كثير في « البداية والنهاية » ١٣/٣٣٥ .

(٢) قائل هذه الأبيات هو محمد بن أبي بكر بن السكاكيني عملها على لسان ذِمِّيٍّ ليمتحن بها علماء زمانه .

وكم من جواب فتوى لم يُسبَقْ إلى مثله .

دروسه :

وأمَّا ذكْرُ دروسه ، فقد كنتُ في حال إقامتي بدمشق لا أُفوِّتها ، وكان لا يُهيِّىء شيئًا من العلم ليُلقيه ويُورده ، بل يجلس بعد أن يُصلِّي ركعتين ، فيحمد الله ويُثني عليه ، ويُصلِّي على رسوله ﷺ ، على صفةٍ مُستحسنةٍ مُستعذبةٍ لم أسمعها من غيره ، ثم يشرع ، فيفتح الله عليه من إيراد علوم، وغوامض، ولطائف، ودقائق، وفنون، ونقول، واستدلالات بآيات وأحاديث، وأقوال العلماء ، ونصْر بعضها ببعض ، وتبيين صحَّته ، أو تزييف بعضها، وإيضاح حُجَّته، واستشهاد بأشعار العرب، وربما ذكر اسم ناظمها، وهو مع ذلك يجري كما يجري السيل ، ويفيض كما يفيض البحر ، ويصير منذ أن يتكلم إلى أن يفرغ ، كالغائب عن الحاضرين ، مُغمضًا عينيه ، وذلك كلُّه مع عدم فكْر فيه أو رويَّة ، من غير تعجرفٍ ، ولا توقُّفٍ ، ولا لحنٍ ، بل فيض إلهي، حتى يبهر كل سامع وناظر، فلا يزال كذلك إلى أن يصمت، وكنتُ أراه حينئذٍ كأنه قد صار بحضرة مَنْ يشغلُه عن غيره ، ويقع عليه إذ ذاك من المهابة ما يُرعد القلوبَ ويُحيِّر الأبصار والعقول .

وكان لا يذكر رسول الله ﷺ قطُّ إلا ويُصلِّي ويُسلِّم عليه ، ولا والله ما رأيتُ أحدًا أشدَّ تعظيمًا لرسول الله ﷺ ، ولا أحرصَ على اتباعه ونصْر ما جاء به منه .

وكان إذا فرغ من درسه يفتح عينيه ، ويُقبل على الناس بوجهٍ طلْق بشيشٍ وخُلُقٍ دَمِثٍ ، كأنه قد لقيهم حينئذٍ ، وربما اعتذر إلى بعضهم من التقصير في المقال مع ذلك الحال ، ولقد كان درسُه الذي يُورده حيئذٍ قدْر عدَّة كراريس ، وهذا الذي ذكرتُه من أحوال درْسه أمْرٌ مشهورٌ ، يُوافقني عليه كلُّ حاضرٍ بها ، وهم بحمد الله خلْقٌ كثير، لم يُحصر عددهم؛ علماء، ورؤساء، وفضلاء، من القرَّاء والمحدِّثين والفقهاء، والأدباء، وغيرهم من عوامٍّ

المسلمين »[١].

تأليفه في العقيدة والأصول :

قال الحافظ البزار : « وأمَّا ما خصَّه الله تعالى به في معارضة أهل البدع في بدعتهم ، وأهل الأهواء في أهوائهم ، وما ألَّفه في ذلك من دحْض أقوالهم ، وتزييف أمثالهم وأشكالهم ، وإظهار عوارهم وانتحالهم ، وتبديد شملهم ، وقطْع أوصالهم، وأجوبته عن شبههم الشيطانية، ومعارضتهم النفسانية للشريعة الحنيفية المُحمديَّة ، بما منحه الله تعالى به من البصائر الرحمانية ، والدلائل النقلية ، والتوضيحات العقلية ، حتى ينكشف قناع الحقّ ، وبان - بما جمعه في ذلك وألَّفه - الكذب من الصدق ، حتى لو أنَّ أصحابها أحياء ، ووفِّقوا لغير الشقاء ؛ لأذعنوا له بالتصديق ، ودخلوا في الدين العتيق .

ولقد وجب على كلِّ مَنْ وقف عليها ، وفهم ما لديها ؛ أن يحمد الله تعالى على حُسْن توفيقه هذا الإمام لنصر الحق بالبراهين الواضحة العظام .

ولقد أكثر رضي الله عنه التصنيف في الأصول فضلًا عن غيره من بقية العلوم ، فسألتُه عن سبب ذلك ، والتمستُ منه تأليف نصٍّ في الفقه يجمع اختياراته وترجيحاته ؛ ليكون عمدةً في الإفتاء . فقال لي ما معناه : الفروع أمْرها قريب ، ومَنْ قلَّد - المسلمُ - فيها أحدَ العلماء المُقلَّدين ؛ جاز له العمل بقوله ، ما لم يتيقَّن خطأه ، وأما الأصول : فإني رأيتُ أهل البدع والضلالات والأهواء ، كالمتفلسفة ، والباطنية ، والملاحدة ، والقائلين بوحدة الوجود ، والدهرية ، والقدرية ، والنُّصيرية ، والجهمية ، والحلولية ، والمُعطّلة ، والمُجسِّمة ، والمُشبِّهة ، والراوندية ، والكُلَّابية ، والسُّليمية ، وغيرهم من أهل البدع - قد تجاذبوا فيها بأزمَّة الضلال ، وبان لي أن كثيرًا منهم إنما قصد إبطال الشريعة المُقدَّسة المحمدية، الظاهرة العليَّة على كل دين،

(١) الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية (٢٠ - ٢٩) .

وأن جمهورهم أوقع الناس في التشكيك في أصول دينهم ، ولهذا قلَّ أنْ سمعتُ أو رأيتُ مُعرضًا عن الكتاب والسُّنة مُقبِلًا على مقالاتهم ؛ إلا وقد تزندق أو صار على غير يقين في دينه واعتقاده . فلما رأيت الأمر على ذلك ؛ بان لي أنَّه يجب على كلِّ مَنْ يقدر على دفْع شُبَهِهِم وأباطيلهم ، وقطْع حُجَّتهم وأضاليلهم؛ أن يبذل جهده ليكشف رذائلهم، ويُزيِّف دلائلهم؛ ذبًّا عن المِلَّة الحنيفية ، والسُّنَّة الصحيحة الجليَّة .

ولا والله ما رأيتُ فيهم أحدًا ممن صنَّف في هذا الشأن ، وادَّعى عُلُوَّ المقام ، إلا وقد ساعد بمضمون كلامه في هدم قواعد دين الإسلام. وسببُ ذلك : إعراضه عن الحق الواضح المبين ، وعمَّا جاءت به الرسل الكرام عن ربِّ العالمين ، واتِّباعه طُرُقَ الفلسفة في الاصطلاحات التي سمَّوْها بزعمهم حِكَميَّات وعقليات ، وإنما هي جهالات وضلالات ، وكونه التزمها مُعرضًا عن غيرها أصلًا ورأسًا ، فغلبت عليه حتى غطَّت على عقله السليم ، فتخبَّط حتى خبط فيها عشوًا ، ولم يُفرِّقْ بين الحق والباطل ، وإلا فالله أعظم لطفًا بعباده أن لا يجعل لهم عقلًا يقبل الحق ويُثبته ، ويُبطل الباطل وينفيه ، لكن عدم التوفيق ، وغلبة الهوى ، أوقع مَنْ أوقع في الضلال ، وقد جعل الله تعالى العقل السليم من الشوائب ميزانًا يزِنُ به العبد الواردات ، فيُفرِّق بين ما هو من قبيل الحق ، وما هو من قبيل الباطل ، ولم يبعث الله الرسل إلَّا إلى ذوي العقل ، ولم يقع التكليف إلا مع وجوده ، فكيف يقال : إنه مُخالف لبعض ما جاءت به الرسل الكرام عن الله تعالى ، هذا باطل قطعًا ، يشهد له كل عقل سليم ، لكن ﴿**ومن لم يجعل الله له نورًا فما له من نور**﴾ [النور : ٤٠] .

قال الشيخ الإمام قدَّس الله روحه : فهذا ونحوه هو الذي أوجب أنِّي صرفتُ جُلَّ همِّي إلى الأصـول ، وألزمني أن أوردت مقالاتهم وأجبتُ عنها بما أنعم الله تعالى به من الأجوبة النقلية والعقلية .

قلتُ - البزار -: وقد أبان - بحمد الله تعالى فيما ألَّف فيها - لكلّ بصير الحقَّ من الباطل، وأعانه بتوفيقه حتى ردَّ عليهم بدَعَهم وآراءهم، وخِدَعَهم وأهواءهم ، مع الدلائل النقلية بالطريقة العقلية ، حتى يُجيب عن كل شبهة من شبههم بعدة أجوبة جليَّة واضحة يعقلها كل ذي عقل صحيح ، ويشهد لصحتها كلُّ عاقل رجيح ، فالحمد لله الذي منَّ علينا برؤيته وصُحبته ، فلقد جعله الله حُجَّةً على أهل هذا العصر ، المُعرِض غالب أهله عن قليله وكثيره ؛ لاشتغالهم بفاني الدنيا عما يحصل به باقي الآخرة ، فلا حول ولا قوة إلا بالله »[١] .

قال العلّامة شيخ الشافعية ابن الزملكاني في شيخ الإسلام ابن تيمية :

ماذا يقولُ الواصفون له ... وصفاتُهُ جلَّتْ عن الحصرِ
هو حُجَّةٌ لله قاهـرةٌ ... هو بيننا أُعْجُوبةُ الدهرِ
هو آيةٌ للخلقِ ظاهرةٌ ... أنوارُها أربتْ على الفجرِ

ولقد كان نصيب شيخ الإسلام في تفسير القرآن القدح المُعلَّى . ولقد جمع في تفسير القرآن العظيم ما يشهد له بالإمامة المطلقة في هذا العلم . وما جمعه في تفسير القرآن العظيم ، وما جمعه من أقوال مُفسِّري السلف الذين يذكرون الأسانيد في كتبهم ، وذلك في أكثر من ثلاثين مُجلَّدًا . وقد بيَّض أصحابه بعض ذلك ، وكثير منه لم يكتبوه بعد .

• وكان رحمه الله يقول: ربما طالعتُ على الآية الواحدة نحو مائةَ تفسير، ثم أسأل الله الفهم، وأقول: يامُعلِّمَ آدم وإبراهيم علِّمْني، وكنتُ أذهب إلى المساجد المهجورة ، ونحوها ، وأُمرِّغ وجهي في التراب ، وأسأل الله تعالى وأقول : يامُعلِّم إبراهيم فهِّمْني ، ويذكر قصة معاذ بن جبل وقوله لمالك بن

---

(١) الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية (٣٠ - ٣٥) .

يخامر لما بكى عند موته وقال : إني لا أبكي على دنيا كنتُ أصيبها منك ، ولكن أبكي على العلم والإيمان الذي كنتُ أتعلَّمُه منك فقال : إن العلم والإيمان مكانهما ، مَن ابتغاهما وجدهما ، فاطلب العلم عند أربعة ، فإنْ أعياك العلم عند هؤلاء ، فليس هو في الأرض ، فاطلبْه من مُعلِّم إبراهيم .

قال الشيخ أبو عبد الله ابن رشيق – وكان من أخصِّ أصحاب شيخنا وأكثرهم كتابةً لكلامه وحرصًا على جمعه -: « كتب الشيخ رحمه الله نُقولَ السلف مُجرَّدة عن الاستدلال على جميع القرآن ، وكتب في أوله قطعة كبيرة بالاستدلال ، ورأيتُ له سُورًا وآياتٍ يُفسِّرُها ويقول في بعضها : كتبتُه للتذكُّر ونحو ذلك . ثم لمّا حُبس في آخر عمره ؛ كتبتُ له أن يكتب على جميع القرآن تفسيرًا مُرتَّبًا على السُّوَر ، فكتب يقول : إنَّ القرآن فيه ما هو بيِّنٌ بنفسه ، وفيه ما قد بيَّنه المفسرون في غير كتاب، ولكن بعض الآيات أُشكل تفسيرها على جماعة من العلماء، فرُبَّما يُطالع الإنسان عليها عدَّة كُتُبٍ ولا يتبيَّنُ له تفسيرها ، وربما كتب المُصنَّف الواحد في آية تفسيرًا ، ويُفسِّر غيرها بنظيره ، فقصدتُ تفسيرَ تلك الآيات بالدليل ؛ لأنه أهمُّ من غيره ، وإذا تبيَّن معنى آية ؛ تبيَّن معاني نظائرها . وقال : قد فتح الله عليَّ في هذه المرَّة من معاني القرآن ومن أصول العلم بأشياء ، كان كثير من العلماء يتمنَّوْنها ، وندمتُ على تضييع أكثر أوقاتي في غير معاني القرآن ، أو نحو هذا »[١] .

يقول الذهبي في رثاء شيخ الإسلام ابن تيمية :

---

(١) العقود الدريَّة لابن عبد الهادي (٢٦ – ٢٨) .

يا موتُ خُذْ مَنْ أردتَ أو فدعِ ... محوتَ رسمَ العلومِ والورعِ
أخذتَ شيخَ الإسلام وانفصمتْ ... عُرى التُّقى واشتفى أولو البدعِ
غيَّبتَ بحرًا مُفسرًا جَبَلًا ... حَبْرًا تقيًّا مُجانبَ الشِّبَعِ
فإنْ يُحَدِّثْ فمسلمٌ ثقةٌ ... وإنْ يُناظرْ فصاحبُ اللُّمَعِ
وإنْ يَخُضْ نحو سيبويه يَفُهْ ... بكلِّ معنى في الفنِّ مُخترَعِ
وصار عاليَ الإسنادِ حافظةً ... كشعبة أو سعيدٍ الضَّبَعي
الفقهُ فيه فكان مُجْتهدًا ... وذا جهادٍ عارٍ من الجَزَعِ
وجودُهُ الحاتميُّ مُشتهرٌ ... وزهدي القادريُّ في الطَّبعِ
أسكنَهُ اللهُ في الجنان وَلا ... زال علينا في أجمل الخِلَعِ
مع مالكٍ والإمام أحمد والنُّعمانَ والشافعيِّ والنَّخَعي
مضى ابنُ تيميةٍ وموعدُهُ ... مع خصمِهِ يومَ نفخةِ الفزَعِ

وللمتيم عبد الله بن خضر الرومي يرثي ابن تيمية :

واليومَ أصبحتُ أبكي بعد بُعدِهم ... لما تَناءَوا نأتْ عني مسرَّاتي
وغاب مُذْ غاب عن عيني جمالُهُمو ... راحي وروحي وريحاني وراحاتي
ولا صفا بعدهم عيشي بمنهلةٍ ... ومُذْ تولَّوْا تولَّى طيبُ لذاتي
ياسادةً ملكوا قلبي بلُطْفِهمو ... ما ضرَّهم لو أعادوا لي أُويقاتي
هُمْ مُرادي وهُمْ سُؤلي وهُمْ أملي ... وهُمْ نهاية مقصودي وغاياتي
وهُمْ سروري وهم سمعي وهم بصري ... وهم نعيمي وروضاتي وجنَّاتي
وهم حياتي وهم أُنسي وهم شَرَفي ... وذِكْرُهُمْ لم يزلْ في القلبِ جلواتي
لهفي على زمنٍ ولَّى وما ظَفِرتْ ... روحي بما ترتجي يومَ الأثيلاتِ
لما سرَوْا وفؤادي في هوادجهم ... ناديتُ من حرقي ياعِظَمَ لوعاتي
ما كنتُ أعلمُ قُربي في محبَّتِهِم ... حتى رمتني إلى الأبعاد راياتي
فاندُبْ على ما مضى من عيشنا وصفا ... وابك على ما قد جرى ياقلبيَ العاتي
واذكر مصارعَ قومٍ كيف قد شربوا ... بعدَ الزُّلالِ بكاساتِ المنيَّاتِ

فأصبحوا في الثرى تبلى وجوهُهُم تحتَ الترابِ فيا عِظمَ المُصيباتِ
أقولُ ما قاله العبدُ المُنيبُ(١) وقد أودى به السجنُ في بِرٍّ وطاعاتِ
أنا الذليلُ أنا المسكينُ ذو شَجَنٍ أنا الفقيرُ إلى ربِّ السمواتِ
أنا الكسيرُ أنا المُحتاجُ يا أملي جُدْ لي بفضلِك واعفُ عن خطيئاتي
أنا الغريبُ فلا أهلٌ ولا وطنٌ أنا الوحيدُ فكنْ لي في مُلمَّاتي
أنا العُبيْد الذي ما زلتُ مُفتقِرًا إليك ياسيِّدي في كل حالاتي
ما لي سواك وما لي عنك مُنصرَفٌ ذكراك في القلب قرآني وآياتي
أنت القديرُ على جبري بوصلِكَ لي أنت العليمُ بأسراري الخفيَّاتِ
أدعوك ياسيِّدي يا مُشتكَى حُزني يا جابري يا مُغيثي في مُهمَّاتي
فانظرْ إلى عَبْرتي وارحمْ صبا جسدي يا راحم الخير يا باري البريَّاتِ
ما زال مُفتقرًا في باب سيِّدِهِ مازال مُبتليًا بالامتحاناتِ
ما زال يتبعُ آثارَ الرسول على النَّهجِ القويمِ بأعلامِ الدلالاتِ
يهدي لِسُنَّته يُفتِي بِشِرْعَتِهِ يرعَى لِحُرْمتِهِ في كلِّ ساعاتِ
قطبُ الزمانِ وتاجُ الناس كُلِّهِمُ روحُ المعاني حوى كلَّ العباداتِ
حَبْرُ الوجودِ فريدٌ في معارفِهِ أفنى بسيفِ الهدى أهلَ الضلالاتِ
حوى من المصطفى علمًا ومعرفةً وجاءه منه إمدادُ النوالاتِ
ما جاءه سائلٌ إلا ويمنحُه إمَّا بجودٍ وإمَّا بالمداراةِ
ماذا أقولُ وقولي فيه مُنحسرٌ في وصْفِ أخلاقه كلَّتْ عباراتي
في علمِهِ ما علِمْنا مَنْ يُناسبُهُ إلا أئمتَنا أهلَ العناياتِ
تلوحُ شمسُ المعالي في شمائلِهِ وفي صفا وجهه نورُ الهداياتِ
بحرُ المعارفِ تاهوا في بدايتِهِ أهلُ المعاني وأربابُ النهاياتِ
قطبُ الحقائقِ حاروا في فضائِلِهِ أهلُ التصوُّفِ أصحابُ الرياضاتِ

---

(١) يعني شيخ الإسلام ابن تيمية في قصيدته « أنا الفقير » .

أُعجوبةُ الدهرِ فردٌ في فضائلِهِ ... علَّامةُ الوقتِ في الماضي وفي الآتِي
والهْفَ قلبي على مَنْ كان يجمعُنا ... على فنونِ المعاني والإشاراتِ
فارقتُ مَن كان يرويني برؤْيتِهِ ... إذا تبدَّى بدَا سِرُّ العبـادات
يروي الأحاديث عن سكانِ كاظمةٍ ... فيطربُ الكونُ من طيبِ الرواياتِ
ويُطنبُ الذكْرَ في إحسانِ حُسْنِهِمُ ... فيرقصُ القلبُ شوقًا نحو ساداتِ[1]

٢٤٦ - شيخ الحفَّاظ جمال الدين ، أبو الحجاج ، يوسف بن عبد الرحمن ابن يوسف المِزِّيُّ :

« القدوة ، حافظ الزمان ، حامل راية السُّنة والجماعة ، والقائم بأعباء هذه الصناعة، والمُتدرّع جلباب الطاعة، إمام الحفَّاظ، كلمةٌ لا يجحدونها، وشهادةٌ على أنفسهم يُؤدُّونها ، ورُتبةٌ لو نُشر أكابر الأعداء لكانوا يودُّونها ، واحدُ عصره بالإجماع ، وشيخُ زمانه الذي تُصغي لما يقول الأسماع »[2] .

لم توجِّهْه عائلته إلى طلب الحديث منذ فترة مُبكِّرة كما فعلتْ عائلة رفيقه وتلميذه الذهبي ، فلم يكن له إلا أن يطلبه هو بنفسه حينما بلغ الحادية والعشرين من عمره .

قال ابن حجر في الدُّرر (٥ / ٢٣٣) : « ولو كان له مَنْ يُسمِّعُه صغيرًا ؛ لسَمِع من ابن عبد الدائم والكرمانيّ وغيرهما ، ولكنه طلب بنفسه في أول سنةِ خمسٍ وسبعين » .

وكان أول سماعه الحديث على الشيخ أبي العباس أحمد بن أبي الخير سلامة الحدَّاد ، فسمع أول ما سمع كتاب « الحلية » لأبي نُعيم ثم أكثر عنه .

ومنذ ذلك الحين اتجهتْ هِمَّةُ المزيِّ إلى سماع الحديث ، فسمع من الجمِّ الغفير ، سمع عليهم الكتب الكبار الأُمَّهات مثل : الكتب الستة ، ومُسند الإمام أحمد، والمعجم الكبير للطبراني، وتاريخ بغداد للخطيب، وكتاب النسب

(١) العقود الدريَّة (٤٧٣ - ٤٧٥) .
(٢) طبقات الشافعية ١٠ / ٣٩٥ - ٣٩٦ .

للزبير بن بكار، والسيرة لابن هشام، وموطأ الإمام مالك، والسُّنَن الكبير، ودلائل النبوة للبيهقي ، بحيث قال تلميذه الصلاح الصفدي : وأشياء يطول ذكْرُها، ومن الأجزاء ألوفًا. وذكر ابن حجر في الدُّرر (٥/٢٣٣) أنَّ مشيخته نحو الألف شيخ .

وتجوَّل المزيُّ في المدن الشامية ، فسمع بالقدس الشريف ، وحمص ، وحماة ، وبعلبَك ، وحجَّ وسمع بالحرمين الشريفين ، ورحل إلى البلاد المصرية ، فسمع بالقاهرة والإسكندرية وبلبيس .

عُني المزيُّ بدراسة العربية ، فأتقنها لغةً وتصريفًا ، ففاق أقرانه في ذلك ، بحيث قال الصلاح الصفدي فيه : ولم أر في أشياخي بعد شيخنا أثير الدين في العربية مثله ، خصوصًا في التصريف واللغة ، وقد عرف أبو حيَّان نفسه قدْرَ المزيِّ ، فأغدق الثناء عليه وعلى علمه الجمِّ .

قال الذهبي عنه : تَرافَق هو وابن تيمية كثيرًا في سماع الحديث ، وفي النظر في العلم ، وكان يُقرِّر طريقة السلف في السُّنَّة ، وما وراء ذلك بحمد الله إلا حُسْنُ إسلام وحسبةٌ لله .

وكان ابن تيمية كثير الاعتماد على المزيِّ وعلمه ومعرفته ، فحينما خرج من سجنه بمصر سنة (٧٠٩هـ) بعد عودة السلطان محمد بن قلاوون، وجلس في القاهرة ينشر علْمه ؛ احتاج إلى بعض كُتُبِه التي بالشام ، فكتب إلى أهله كتابًا يطلب جملةً من كتب العلم التي له ، وطلب منهم أن يستعينوا على ذلك بجمال الدين المزي ؛ فإنه يدري كيف يستخرج له ما يُريده من الكتب التي أشار إليها . وحينما ولي المزيُّ أكبر دار حديث بدمشق - وهي دار الحديث الأشرفية - سنة (٧١٨ هـ) ؛ فرح ابن تيمية فرحًا عظيمًا بذلك ، وقال : « لم يلِ هذه المدرسة من حين بنائها إلى الآن أحقُّ بشرط الواقف منه » . وقد وليها عظماء العلماء المُحدِّثين ، منهم تقي الدين ابن الصلاح، وابن الحرستاني، وأبو شامة، ومحيي الدين النووي، وغيرهم ،

فقد اعتمد ابن تيمية قول الواقف : « إنِ اجتمع مَنْ فيه الرواية ومَنْ فيه الدراية ؛ قُدِّم مَنْ فيه الرواية » ؛ فِفضَّله ابن تيمية بذلك على جميع المتقدِّمين في الرواية .

ولقد احتلَّ المزيُّ مكانةً عظيمةً بيْنَ علماء القرن الثامن الهجري في الحديث وعلومه ، وقامت شُهرتُه على أعظم كتابيْن ألَّفهما في فنِّهما ، هما : « تحفة الأشراف » ، و « تهذيب الكمال » .

ويُعدُّ كتاب « تحفة الأشراف بمعرفة الأطراف » من أعظم الكتب المؤلَّفة في أطراف الكتب الستة وبعض لواحقها . وهو عملٌ هائل تعجز عنه العُصبة .

قال ابن حجر في النُّكت الظِّرافِ بهامش تحفة الأشراف (٤١١): «قد حصل الانتفاع بهذا الكتاب شرقًا وغربًا ، وتنافس العلماء في تحصيله بُعْدًا وقُرْبًا . ونظرا لهذه المنزلة الَّتي احتلَّها في هذا الفنِّ ؛ فقد تناوله العلماء بالاستدراك والتلخيص والتعليق؛ لأنه صار الكتاب المُعتمد في هذا الفنِّ».

أمَّا كتاب المزيِّ الثاني ، فهو « تهذيب الكمال » ، وهو كتابنا هذا ، فإنه يُعَدُّ أعظمَ كتابٍ أُلِّف في فنِّه غير مُدافَع ، أربى فيه على مَنْ تَقدَّمه وكسف مؤلَّفاتهم ، ولم يستطع أحدٌ بعده حتى اليوم أن يبلغ شأوه ، بله أن يأتي بأحسن منه .

وكتاب «تهذيب الكمال» ليس اختصارًا لكتاب «الكمال» للحافظ عبد الغني المقدسي ، فقد نقَّى كتاب « الكمال » وأصلح ما فيه من خَلَل ، وزاد عليه ، فصار التهذيب ثلاثة أضعاف « الكمال » ، وأصبح يتكون من مائتين وخمسين جزءًا حديثيًّا ؛ يعني في عشرة آلاف صفحة ، في كل صفحة (٢١) سطرًا ، فضلًا عما كتبه من تحقيقات في حواشي نسخته .

قال الصلاح الصفدي : « وصنَّف كتاب « تهذيب الكمال » في أربعة عشر مُجلَّدًا ؛ كسف به الكُتُبَ المتقدِّمة في هذا الشأن ، وسارت

به الركبان ، واشتهر في حياته » .

وقال تاج الدين السبكي : « وصنَّف « تهذيب الكمال » المُجْمع على أنه لم يُصنَّف مثله » .

وقال ابن تغري بردي : « هو في غاية الحُسن في معناه » .

وقال حاجي خليفة : « هو كتاب كبير لم يُؤلَّف مثله ، ولا يُظنُّ أن يُستطاع » .

وقال العلَّامة علاء الدين مُغلطاي الحنفي: «إنه كتاب عظيمُ الفوائد، جمُّ الفرائد ، لم يُصنَّف في نوعه مثله ؛ لأنَّ مُؤلِّفَه أبدع فيما وضع » .

وقال أيضًا : وقد صار كتاب التهذيب حكمًا بين طائفتي المُحدِّثين والفقهاء ، إذا اختلفوا قالوا : بيننا وبينكم كتاب المزيِّ » .

وقال الذهبي : « أتى فيه بكل نفيس ، وبالغ ولم يأل في استيفاء شيوخ الشخص ورواته ، وغرائبه وموافقاته ، وعدالته وجرحاته ، ومناقبه وهناته ، وعمره ووفاته ، فبقي حسرةً على مَنْ لم يُحصِّله من الفُضَلاء ، ولهفةً على مَنْ أعوزه الإمكان » .

أصبح المزيُّ حافظَ عصره غير مُدافَع ، وفضَّله الإمام الذهبي في الحفظ على جميع مَنْ لقي من الحفَّاظ طيلة حياته ، وأتاحت له معرفتُه الفذَّة في علم الرجال منزلةً مُتميِّزة بين أساتيذ العصر ، فأَمَّهُ طلبةُ العلم من كل حَدَبٍ وصوبٍ ، وكانت دار الحديث الأشرفية من أعظم الأماكن التي بثَّ منها المزيُّ عِلْمَهُ ، وحدَّث زيادةً على خمسين سنة .

قال الذهبي فيما نقله عنه ابن حجر في الدرر (٥/٢٣٤) : « وغالب المُحدِّثين من دمشق وغيرها قد تلمذوا له ، واستفادوا منه ، وسألوه عن المُعضلات ، فاعترفوا بفضيلته ، وعُلُوِّ ذكْره .

وقد حدَّث بكتبه مرَّات عديدة ، وحدَّث بصحيح البخاري مرات ، وبالمسند للإمام أحمد ، وبالمعجم الكبير للإمام الطبراني ، وبدلائل النبوة

للبيهقي ، وبكتب كثيرة جدًّا ، كما حدَّث بسائر أجزائه العالية .

ويكفيه فخرًا وفضلًا أنَّ عظماء العلماء من أساتيذه ورفاقه وتلامذته النُّجب قد أخذوا عنه .

فسمع منه الأعلام العلماء : شيخ الإسلام ابن تيمية ، وابن سيِّد الناس ، والذهبي أخذ عنه صحيح البخاري غير مرَّة ، والإمام تقي الدين السبكي، وبه تخرَّج أعاظم الرواة والمُحدِّثين: البرزالي، وابن عبد الهادي، وصلاح الدين العلائي، وعلاء الدين مغلطاي، وابن رافع السلامي، وصهره الشيخ عماد الدين ابن كثير، وخلْقٌ يطول ذكْرُهم .

قال عنه ابن سيِّد الناس : « وجدتُ بدمشق من أهل العلم الإمامَ المُقدَّم ، والحافظ الذي فاق مَنْ تأخَّر من أقرانه ومَنْ تقدَّم ، أبا الحجَّاج المزيَّ ، بحر هذا العلم الزاخر وحَبْرَه ، القائل مَنْ رآه : كمْ ترك الأوائل للأواخر، أحفظُ الناسْ للتراجم، وأعلمُ الناس بالرواة من أعارب وأعاجم».

وقال عنه الذهبي : « طلب هذا الشأن فما ونى ولا فتر ، ولا لَهَا ولا قصَّر ، وعُني بهذا الشأن أتمَّ عناية ، وقرأ العربية وأفاد ، وأكثر من اللغة والتصريف ، وصنَّف وأفاد ... » .

قال الذهبي عنه في « تذكرة الحفاظ » : شيخنا الإمام العالم الحبر الحافظ الأوحد... أما معرفة الرجال، فهو حامل لوائها، والقائم بأعبائها، لم ترَ العيونُ مثله ... وأوضحَ مُشكلاتٍ ومُعضلاتٍ ما سُبق إليها في علم الحديث ورجاله ... وكان يُطالع وينقل الطباق إذا حدَّث ، وهو في ذلك لا يكاد يخفى عليه شيءٌ مما يقرأ ، بل يردُّ في المتن والإسناد ردًّا مُفيدًا يتعجَّبُ منه فُضَلاء الجماعة » .

قال عنه الذهبي فيما نقل عنه الصفدي في « أعيان العصر » : « ولو كان لي رأيٌ للازمتُهُ أضعاف ما جالستُه ، فإنني أخذتُ عنه هذا الشيء بحسبي لا بحسبه ، وكان لا يكاد يعرف قدْرَهُ إلا مَنْ أكثر مُجالستَهُ » .

وقال عنه أيضًا فيما أورده عنه التاج السبكي والصفدي : « ما رأيتُ أحدًا في هذا الشأن أحفظ من الإمام أبي الحجّاج المزّي ، وسمعتُه يقول في شيخنا أبي محمد الدمياطي : إنه ما رأى أحفظ منه ، وكان الدمياطي يقول : إنه ما رأى شيخًا أحفظ من زكيِّ الدين عبد العظيم » .

وقال عنه الصلاح الصفدي : « العلّامة الحافظ الفريد الرحلة ، إمامُ المُحدِّثين، خاتمةُ الحفاظ، ناقدُ الأسانيد والألفاظ، لو عاصره ابن ماكولا؛ كان له مشروبًا ومأكولًا ، وجعل هذا الأمر إليه موكولًا » .

وقال الصلاح الصفدي أيضًا في حفظه : « وسمعتُ صحيحَ مسلم على البَنْدَنِيجيِّ وهو حاضر بقراءة ابن طُغريل ، وعدَّة نسخ صحيحة حاضرة يُقابل بها ، فيردُّ الشيخ جمال الدين رحمه الله على ابن طُغريل اللفظَ ، فيقول ابن طُغريل : ما في النسخة إلّا ما قرأه ، فيقول مَنْ بيده بعض تلك النُّسَخ الصحيحة : هو عندي كما قال الشيخ ... أو في الحاشية تصحيح ذلك ، ولما تكرَّر ذلك ؛ قلتُ أنا له : ما النسخة الصحيحة إلا أنت » .

وقال عنه التاج عبد الوهاب السبكي مع مُخالفة المزيِّ له في العقائد: « شيخنا وأستاذنا وقدوتنا ... كان شيخنا المزيُّ أُعجوبةَ زمانِهِ ، يقرأ عليه القارىء نهارًا كاملًا، والطُّرُق تضطربُ، والأسانيدُ تختلفُ، وضبطُ الأسماء يُشكِل ، وهو لا يسهو ولا يغفُل ، يُبيِّن وجْه الاختلاف ، ويُوضِّحُ ضبْط المُشكِل ، ويُعيِّنُ المُبهَمَ ، يَقِظٌ لا يغفل عند الاحتياج إليه ، ولقد شاهَدَتْهُ الطلبة ينعَسُ فإذا أخطأ القارىء؛ ردَّ عليه كأنَّ شخصًا أيقظه ، وقال له : قال هذا القارىء كَيْتَ وكَيْتَ ، هل هو صحيح ؟ وهذا من عجائب الأمور . وكان قد انتهت إليه رئاسة المُحدِّثين في الدنيا »[١] .

ونتيجةً لما بلغه المزيُّ من منزلة مرموقةٍ بين علماء عصره ؛ ولي دار

(١) طبقات الشافعية ١٠ / ٣٩٧ .

الأشرفية سنة (٧١٨ هـ) ، وليها على الرغم من مُعارضة الكثيرين بسبب صُحبته لابن تيمية وتأييده لآرائه ، ولكن علمه وفضله لا يستطيع أن يُنكره الأشاعرة ولا غيرهم ، جعلهم يضطرون إلى توليته هذه الدار التي كانت تُعدُّ من أكبر دور الحديث بدمشق ، وأبان الأشاعرة عن سخطهم ، فلم يحضروا حفل الافتتاح .

قال ابن كثير : « مع أنه لم يتولَّها أحدٌ قبله أحقُّ بها منه ، وما عليه منهم إذا لم يحضروا ؟! فإنه لا يوحشه إلا حضورهم عنده ، وبُعْدُهُم أُنْسٌ ، والله أعلم »[١] .

واستمرَّتْ تُحاك المكائد ضده حتى وهو في آخر شيخوخته ؛ ففي سنة (٧٣٩ هـ) ولي تقي الدين السبكي قضاء الشافعية بدمشق ، وما إن وصل دمشق حضر عنده صدر الدين سليمان بن عبد الحكيم المالكي ، وكان أشعريًّا جلْدًا ، فقال للسبكي عن المزيِّ : ينبغي لك عزلُه من مشيخة دار الحديث الأشرفية. قال تقيُّ الدين السبكي: «فاقشعرَّ جلدي وغاب فكري، وقلتُ في نفسي : هذا إمامُ المُحدِّثين ، والله لو عاش الدارقطني ؛ استحيا أن يُدرس مكانه » .

ثم قال السبكي لابنه بعد ذلك : « مَنْ ذا الذي يتجاسر أن يقول : المزيُّ ما يصلح لدار الحديث ، والله رُكني ما يحمل هذا الكلام »[٢] .

وقد استمر المزيُّ متوليًّا لهذه الدار طيلة حياته ، وكانت مسكنَهُ ، فكانت ولايتُهُ لها قُرابة أربعة وعشرين عامًا ، ومنها نشر علْمَهُ الجمَّ ، وفيها حدَّث بكتابه العظيم « تهذيب الكمال » وغيره ، وسمعها عليه الجِلّة من شيوخ العصر .

وكان المزيُّ– إضافةً إلى ذلك– شيخًا لدار الحديث الحمصية المعروفة

(١) البداية والنهاية ١٤ / ٨٩ .
(٢) طبقات الشافعية ١٠ / ٣٩٧ – ٣٩٨ .

بحلقة صاحب حمص .

وتولّى أيضًا أقدمَ دار حديث بدمشق وأعرقَها - وهي دار الحديث النورية - إلى حين وفاته .

هذي المفاخرُ لا قعبان من لبنٍ شيبت بماء فعادت بعدُ أبوالا

٢٤٧ - الحافظ شرف الدين الدمياطي ، أبو محمد وأبو أحمد ، عبد المؤمن ابن خلف التوني :

« حافظ زمانه ، وأستاذ الأستاذين في معرفة الأنساب ، وإمام أهل الحديث المُجمَع على جلالته ، الجامع بين الدِّراية والرواية بالسند العالي ، للقدر الكثير »[(١)] .

سمع من الجمِّ الغفير والعدد الكثير بالإسكندرية ودمشق وحلب ، ولازم بها الحافظ يوسف بن خليل ، وسمع بمكة والمدينة وبغداد وماردين وحماة وغيرها .

وخرَّج ببغداد « أربعين حديثًا » لأمير المؤمنين المُستعصم .

روى عنه من الأئمة تلاميذه : الحافظ المزيُّ ، والحافظ الذهبيُّ ، والحافظ ابن سيد الناس ، وتقي الدين السبكي .

ودرَّس بالقاهرة لطائفة المُحدِّثين بالمدرسة المنصورية ، وهو أوَّلُ مَنْ درَّس فيها لهم[(٢)] .

قال عنه الذهبي : « شيخنا الإمام العلّامة ، الحافظ الفقيه النَّسَّابة ، شيخ المُحدِّثين. تفقَّه بدمياط، وبرع، ثم طلب الحديث، فارتحل إلى الإسكندرية، فسمع بها وبمصر وببغداد وبحلب ، وحمل عن ابن خليل جِمْلَ دابَّة كُتبًا

(١) طبقات الشافعية ١٠/١٠٢ - ١٠٣ .

(٢) طبقات الشافعية ١٠ / ١٠٣ - ١٠٤ .

وأجزاءً ، وسمع بحماة ، وبماردين ، وبحرَّان ، وكتب العالي والنازل ، وجمع فأوعى ، وسكن دمشق ، فأكثر بها عن ابن مسلمة وغيره ، ومُعجم شيوخه يبلغون ألفًا وثلاثمائة إنسانًا ، وكان صادقًا حافظًا ، مُتقنًا ، جيِّدَ العربية ، غزير اللغة ، واسع الفقه ، رأسًا في علم النسب .

سمعتُ أبا الحجَّاج الحافظ - وما رأيتُ أحفظَ منه لهذا الشأن - يقول : ما رأيتُ في الحديث أحفظ من الدمياطي .

روى عنه أبو حيان الأندلسي والبرزالي وفخر الدين النويري »[(١)] .

وكفى بشهادة المزيِّ له شهادة !!

٢٤٨- شيخ الإسلام ابن قيم الجوزية، حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح، أبو عبد الله ، محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي الحنبلي :

يقول الشيخ الفاضل بقية السلف بكر بن عبد الله أبو زيد في كتابه « ابن قيم الجوزية حياته وآثاره » : « إن الناظر في ترجمة ابن القيم رحمه الله يلمس منه : الرغبة الصادقة في الطلب ، والجَلَدَ العظيم في البحث والنظر ، والحريَّة في التلقِّي عن الشيوخ من الحنابلة وغيرهم ، والتفاني في سبيل العلم ، وامتزاج ذلك بلحمه ودمه منذ نعومة أظافره . وانبرى للطلب في سِنٍّ مُبَكِّرٍ ، وعلى وجه التحديد في السابعة من عمره . ويظهر ذلك بالمقارنة بين تاريخ ولادته سنة (٦٩١ هـ) وتاريخ وفيات جملة من شيوخه الذين أخذ عنهم .

فمن شيوخه الشهاب العابر المُتوفَّى سنة (٦٩٧ هـ) ، فيكون على هذا بدأ بالسماع وهو في السابعة من عمره ، وقد أثنى ابن القيم على شيخه الشهاب ، وذكر طرفًا من تعبيره للرؤيا في كتابه « زاد المعاد » ، ثم قال : وسمعتُ عليه عِدَّة أجزاء ، ولم يتفقْ لي قراءة هذا العلم عليه لِصِغَرِ السِّنِّ ،

(١) تذكرة الحفاظ ٤ / ١٤٧٧ - ١٤٧٨ .

واخترام المنية له . رحمه الله » .

قال الشيخ بكر أبو زيد : « وقد منَّ الله تعالى – وهو المانُّ بفضله – فتتبَّعْتُ أسماء مؤلَّفاته أيضًا من ثنايا كُتُبه ومن غيرها ؛ فتحصَّل لي جملة منها بلغت (١٩) كتابًا ، فصار مجموع ما جرى الوقوف عليه حسب التتبُّع والاستقراء هو (٩٦) كتابًا » .

وأما علومه التي تلقَّاها وبرع فيها فهي تكاد تعمُّ علوم الشريعة وعلوم الآلة ، فقد درس التوحيد ، وعلم الكلام ، والتفسير ، والحديث ، والفقه وأصوله، والفرائض، واللغة، والنحو، وغيرها، على علماء عصره المتفنِّنين في علوم الإسلام ، وبرع هو فيها ، وعلا كعبُه ، وفاق الأقران ، ويكفي في الدلالة على عُلُوِّ منزلته ؛ أن يكون هو وشيخه شيخ الإسلام ابن تيمية كفرسيْ رهان .

وهذه الجامعيَّة المُدهشة في البراعة والطلب نجدها محلَّ اتِّفاق مُسجَّل لدى تلاميذه الكبار ومَنْ بعدهم من ثقات النَّقَلَةِ الأبرار .

يقول تلميذه ابن رجب : « تفقَّه في المذهب ، وبرع وأفتى ، ولازم الشيخ تقي الدين ابن تيمية ، وتفنَّن في علوم الإسلام ، وكان عارفًا في التفسير لا يُجارى فيه، وبأصول الدين وإليه فيها المنتهى، والحديث ومعانيه وفقهه ودقائق الاستنباط منه ، لا يُلحق في ذلك، وبالفقه وأصوله، وبالعربية وله فيها اليدُ الطولى، والنحو، وكان عالمًا بعلم السلوك وكلام أهل التصوف وإشاراتهم ودقائقهم. له في كلِّ فنٍّ من هذه الفنون اليدُ الطولى»[1].

ويقول تلميذه ابن كثير : « سمع الحديث ، واشتغل بالعلم ، وبرع في علوم متعدِّدة ، لاسيما علم التفسير والحديث والأصلين ، ولما عاد شيخ الإسلام ابن تيمية من الديار المصرية في سنة (٧١٢ هـ) ؛ لازمه إلى أن

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة ٢ / ٤٤٨ .

مات الشيخ، فأخذ عنه علمًا جمًّا مع ما سلف له من الاشتغال، فصار فريدًا في بابه في فنون كثيرة، مع كثرة الطلب ليلًا ونهارًا وكثرة الابتهال»[١].

وقال عنه ابن حجر في الدُّرر الكامنة (٤ / ٢١) : « كان واسعَ العلم ، عارفًا بالخلاف ومذاهب السلف » .

وقال ابن تغري بردي : « كان بارعًا في عدة علوم ما بين تفسير وفقه وعربية ونحو وحديث ، وأصول وفروع ، ولزم شيخ الإسلام ابن تيمية بعد عودته من القاهرة سنة (٧١٢ هـ) ، وأخذ عنه علمًا كثيرًا حتى صار أحدَ أفراد زمانه ، وانتفع به الناس قاطبة »[٢] .

وقال الشوكاني في «البدر الطالع» (١/١٤٣): «برع في شتى العلوم، وفاق الأقران ، واشتهر في الآفاق ، وتبحَّر في معرفة مذاهب السلف » .

وقال البيطار الدمشقي : « هو إمام في لغة القرآن وأسلوبه ، وفقهه وتشريعه ، وإيجازه وإعجازه ، وحقيقته ومجازه » .

وابن القيم يُزاحم بالرُّكَب في شتى الحِلَق على أعداد مُتكاثرة من الشيوخ بروح مُتعطشة ، ونفس مُتألِّقة ، ليشفيَ غِلَّتَهُ ، ويروي نهمتَه ، فينهل من كل عالم مُتخصِّص ، حتى تفنَّن في علوم الإسلام ، وصارت له اليدُ الطولى في فنون شتى .

لم يشتهر أمْرُ الرحلة عن ابن القيم – وإن أتى إلى مصر – فقد عاش في عصر دُوِّنت فيه العلوم الإسلامية وانتشرت وخاصة في دمشق ، وقد عاش في كنف والده ، وهو يُمثِّل الصدارة في بلده لعلماء الحنابلة ، فيكون قيِّمًا على المدرسة الجوزية. وكيف يرتحل عن دمشق وحال العلم في دمشق وأساتذتها الكبار ومكتباتها العامرة يجعلها موئلَ العلماء ومحطَّ رحالهم ، لاسيما وقد وفد

---

(١) البداية والنهاية ١٤ / ٢٠٢ .

(٢) النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة ١٠ / ٢٤٩ .

إليها شيخ الإسلام والبحر الذي لا ينزف : أبو العباس أحمد بن تيمية وخيركم مَنْ يأتيه رزقه عند عتبة بابه ، ولنتمثَّل بما كان يلهج به في بعض مؤلفاته متمثِّلًا : « وليس وراء عبادان قرية » .

وحجَّ مرَّات كثيرة، وجاور بمكة، وألَّف كتابه «مفتاح دار السعادة» مُدَّة مقامه بمكة . يقول في آخر مُقدِّمته : « وكان هذا من بعض النزول والتحف التي فتح الله بها عليَّ حين انقطاعي إليه عند بيته ، وإلقائي نفسي ببابه مسكينًا ذليلًا ، وتعرُّضي لنفحاته في بيته وحوله بكرةً وأصيلًا ، فما خاب مَنْ أنزل به حوائجه ، وعلَّق به آماله ، وأصبح ببابه مُقيمًا ، وبحماه نزيلًا .

لقد أفنى ابن القيم حياته مُتقلبًا في أعطاف العلم ، في حِلّه وترحاله ، في سفره وإقامته ، وإن شدَّه الرحالَ لحجِّه والمجاورة بمكة - حرسها الله تعالى - كانت أسفارًا مشحونة بالعلم ، وتدوينه ، وصدْق التعبُّد ، واللَّهج بذكر الله والتعلُّق به .

إن السفرَ والبُعدَ عن الوطن ؛ لم يشغلْه شيءٌ من ذلك عن التأليف والنظر . فابن القيم وإنْ سافر لا يحمل إلا زادًا ومزادةً ، فمكتبتُه في صدره ، ويكفي في هذا أنه ألَّف جملةً من كُتُبه في حال سفره عن وطنه وبُعْدِه عن مكتبته ، وهي :

١ - مفتاح دار السعادة . ٢ - روضة المحبين .

٣ - زاد المعاد . ٤ - بدائع الفوائد .

٥ - تهذيب سُنَنِ أبي داود .

ولقد كان غرامُهُ بالكتب أكبر دليلٍ على المحبَّة الصادقة والرغبة المُتناهية للعلم ، بحثًا ومُطالعةً وقراءةً وإقراءً وتأليفًا . وابن القيم رحمه الله تعالى شديدُ المحبة للعلم وكتابته ، فلا عجب إذا رأينا مُترجميه يخصُّون بالذكْر في ترجمته اقتناءه للكتب ، ولهفَه على ذلك ، وأنه اقتنى ما لا يُحصى ، وما لم يحصُل لغيره .

وآثارُهُ العلميةُ تُكسبُنا الدليلَ المادي على ذلك ، فإنَّ مَنْ يقرأ واحدًا من مُصنَّفات ابن القيم رحمه الله ، يرى فيه الاطلاع المذهل على طائفة كبيرة من كُتُب المكتبة الإسلامية على اختلاف فنونها .

ففي كتابه « الجيوش الإسلامية » يذكر في مسألة استواء الله على عرشه أقوال السلف من أكثر من مائة كتاب . وكتاب « أحكام الذِّمَّة » ذكر فيه نحوًا من ثلاثين كتابًا . وكتابه « الروح » ذكر فيه نحوًا من ثلاثين كتابًا .

وهل غزارة المادة في مؤلفاته ، والقدرة العجيبة على حشْد الأدلة ، وذكْر الخلاف والقائل به؛ إلا نتيجة الاطلاع المُدهش، والقراءة المتتابعة!!

يقول ابن قيم الجوزية في معرض كلامه عن الإمام أحمد بن حنبل في كتابه « أعلام الموقعين » : « وكان الإمام أحمد رضي الله عنه شديد الكراهة لتصنيف الكتب ، وكان يُحبُّ تجريدَ الحديث ، ويكره أن يكتب كلامه ، ويشتدُّ عليه جدًّا ، فعلم الله حُسْنَ نيَّته وقصْده ، فكتب من كلامه وفتواه أكثر من ثلاثين سِفْرًا ؛ منَّ الله سبحانه علينا بأكثرها ، فلم يفُتنا منها إلا القليل ، وجمع الخلَّال نصوصه في « الجامع الكبير » فبلغ نحو عشرين سفرًا أو أكثر .

وقد منَّ الله عليه أيضًا بكتب شيخ الإسلام رحمه الله ، فقد قرأ عليه أكثرها .

قال ابن رجب تلميذه : « كان شديدَ المحبة للعلم وكتابته ومطالعته وتصنيف واقتناء الكتب ، واقتنى من الكتب ما لا يحصل لغيره » .

وقال ابن كثير في «البداية والنهاية» (١٤/٢٠٢): «واقتنى من الكتب ما لا يتهيَّأ لغيره تحصيل عُشْر معشاره من كتب السلف والخلف » .

وقال ابن حجر في الدُّرر (٢٢/٤) : « وكان مُغرى بجمع الكتب ، فحصَّل منها ما لا يُحصى » .

وتولَّى ابن القيم :

١ - الإمامة بالجوزية : « فهو إمام الجوزية وابن قيِّمها » كما يقول ابن كثير في البداية (٢٠٢/١٤) .

٢ - ودرس بالصدرية وغيرها . وأخذ عنه العلم جمعٌ غفيرٌ من كبار الحفاظ ؛ كابن رجب ، والذهبي ، وابن كثير ، وابن عبد الهادي .

٣ - وتصدَّى للفتوى .

٤ - أما التأليف فهو موطنُ الجمال والجلال والجاذبية الغريبة في حياة ابن القيم العلمية اللامعة المُتألق نجمها على مدى سبعة قرون ، يتجاذبها الناس بالدرس والفحص والقراءة والإقراء ، ويكفي أنها بالجملة محلَّ إعجاب من أنصاره وخصومه على حدٍّ سواء .

وفي ذلك يقول الحافظ ابن حجر في الدُّرر الكامنة (٤ / ٢٢) : « وكلُّ تصانيفه مرغوبٌ فيها بين الطوائف » .

وكيف لا يرغب فيها المسلم ، وفيها تيسير الوحيين ، وتحرير الأحكام وإخراجها للناس عذبةً نقيَّةً من زيغ العقائد ، وتعصُّب المذاهب ، والانتصار للطوائف ، ولو لم يكن من مؤلَّفاته إلا كتابه « زاد المعاد في هدي خير العباد » ، ذلك الكتاب النافع المعطار ، وكتابه الجامع لأُمَّهات الأحكام ، وحقائق الفقه وأصول التشريع وحكمته وأسراره، المُسمَّى «أعلام الموقعين»، لو لم يكن منها إلا هذان الكتابان لكفى ، فكيف وقد ملأ المكتبة الإسلامية بالعديد من المؤلَّفات الطُّوَل والمختصرة في فنون شتى من العلم !!

وتمتاز مؤلَّفاته رحمه الله بالسَّعة والشمول ، ويكفي مثالًا على ذلك : مبحث التحسين والتقبيح العقليين ، أو مبحث المجاز وردّه .

وتمتاز أيضًا بالاستطراد التناسبي ، وليس كل عالم يستطيعه ، ولا كلُّ مؤلَّف يُطيقه ، فهو لا يتأتَّى إلا من أكابر الحفاظ وأوعية العلم الذين تموج قرائحهم وأذهانهم بشتى العلوم والمعارف . وهذا من الجود بالعلم - فكيف

تُعاب كُتبُه من الجهال بهذا .

لقبوه حامضٌ وهو خَلٌّ مثلُ مَنْ لم يصلْ إلى العنقود

وتمتاز كُتُبُه ومُؤلَّفاته بتفهُّم محاسن الشريعة ؛ فإن مَنْ يقرأ في مباحثه العقائدية والفقهية على حَدٍّ سواء ، يلمس منه نَفْسًا شفَّافَةً ، لها بصرٌ وعنايةٌ بتفهُّم مقاصد الشريعة ومحاسنها ، وحكمة الأحكام وأسرارها ، بما يشفي ويكفي ، ويجعل النفس في راحة وانشراح ؛ لما يُبيِّنُه ويُقرِّرُه وأن هذا هو ما تقتضيه أصول الشريعة المحمدية .

وهذا من أعظم الأسرار في تفوُّقِ مؤلَّفاته على غيره ، ومن أبرز خصائصه في التأليف بين معاصريه فمن بعدهم .

ومما تمتاز به كُتُبُ شيخ الإسلام ابن قيم الجوزية : الحيوية والمشاعر الفياضة بأحاسيس مجتمعة . وهذه من أروع الخصائص والمُميزات التي اتسمتْ بها كتابات ابن القيم ، فلم يكن مُجرَّدَ آلة تكتب ؛ بل يربط بين العلم وبين أجزاء الحياة بقلبٍ واعٍ ، وفكْرٍ حسَّاسٍ ، وروح تفيض حيوية ونبوغًا . فلا عجب إذًا إذا رأينا كُتُبَه ومُؤلَّفاته تعيش على مدى سبعة قرون ، وهي محلُّ إعجاب وروعة وتأثير عميق من كافَّة طبقات الناس .

وتتصف مُؤلفاته بعذوبة لفظها ، وسِحْر بيانها ، وأَخْذها بمجامع القلوب .

يقول الشوكاني : « وله من حُسْن التصرف مع العذوبة الزائدة وحُسْن السياق ما لا يقدر عليه غالب المُصنِّفين ؛ بحيث تعشق الأفهامُ كلامه ، وتميل إليه الأذهان ، وتُحِبُّه القلوب » .

ويقول خصمه التقيُّ السبكيُّ : « إن ابن القيم رجل أُعطي فضل كلام » .

ولله ما أجمل تواضُعَ ابن القيم العالم الحافظ العابد العامل وتضرُّعَهُ

وابتهالَه ... وسبْره لأغوار القلوب ... ولله دَرُّه وهو يصف منازل السائرين وأحوال القلوب ، وعيش الصالحين !! .

ونختم بذكر كتابين من كُتُبه :

قال أبو الحسن الندوي في كتابه « رجال الفكر والدعوة في الإسلام » ٢/٣١٩ - وهو يتكلَّم عن « زاد المعاد » لابن القيم -: « يُعتبر من أهمِّ كُتُب الإسلام الذي يقوم مقام مكتبة بأسرها ، وإنَّ وجوده كوجود عالِمٍ كثير الفنون مُتبحِّر ومُحَقِّقٍ في العلوم ، نال به آلافٌ مُؤلَّفةٌ من طُلَّاب الحق ومُتَّبعي السُّنة هدايةً دينيةً ، وغذاءً روحيًّا ، وصلاةً إيمانيةً . ومن المدهش أنَّ هذا الكتاب أملاه مُؤلِّفه وهو في حال سفره ، وغيبةٍ عن داره ومكتبته ... فقال في فاتحة الكتاب : « وهذه كلماتٌ يسيرة ، لا يستغني عن معرفتها مَنْ له أدنى نعمة إلى معرفة نبيِّه ﷺ وسيرته وهديه ؛ اقتضاها الخاطر المكدود على عُجَرِهِ وبُجَرِهِ ، مع البضاعة المزجاة ... مع تعليقها في حال السفر لا الإقامة ، والقلبُ بكل وادٍ منه شُعبة ، والهمَّة قد تفرَّقتْ شذَرَ مذرَ » .

وكتاب « الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية » : وهي منظومة رائعة من البحر الكامل ، وقصيدة عظيمة في عقيدة أهل السُّنّة والجماعة ونصْرها . وقد تناولها بالشرح والاختصار جهابذة العلماء . وعددُ أبياتها (٥٩٤٩) بيتًا ؛ أي ستة آلاف إلا واحدًا وخمسين بيتًا .

فأسكن الله حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ابن قيم الجوزية أعلى علِّيِّين ، ورزقه جوار النبيين ؛ بما هزهز الأرواحَ ورطّب القلوبَ وأدماها ، وألان العَبراتِ وأجراها ... بِرقَّة كلامه ؛ وسلسبيل ونمير بيانه » .

٢٤٩ - الإمام الحافظ الذهبي ، أبو عبد الله ، محمد بن أحمد بن عثمان ابن قايماز التركماني :

قال عنه تقي الدين السبكيُّ : « اشتمل عصرنا على أربعة من الحفّاظ ،

بينهم عموم وخصوص : المزِّيّ والبرزالي والذهبي والشيخ الإمام الوالد ، لا خامس لهؤلاء في عصرهم .

وأما أستاذنا أبو عبد الله فبصر لا نظير له ، وكنز هو الملجأ إن نزلتِ المعضلة ، إمامُ الوجود حفظًا ، وذهبُ العصر معنًى ولفظًا ، وشيخ الجرح والتعديل ، ورجل الرجال في كل سبيل ، كأنما جُمعت الأمة في صعيد واحد فنظرها ثم أخذ يُخبر عنها إخبارَ مَنْ حضرها ، وكان محَطّ رحال تغيَّبتْ ، ومنتهى رغبات من تَغَيَّبت .

تعمل المَطِيّ إلى جواره ، وتضرب البُزْلُ المهَاريُّ أكبادها فلا تبرح أو تُنْبَلَ[١] نحْوَ داره ، وهو الذي خرَّجنا في هذه الصناعة ، وأدخلنا في عداد الجماعة ، جزاه الله عنَّا أفضل الجزاء ، وجعل حظَّهُ من غُرُقات الجنان مُوَفَّر الأجزاء ، وسَعْدَه بدرًا طالعًا في سماء العلوم ، يُذعن له الكبير والصغير من الكتب ، والعالي والنازل من الأجزاء »[٢] .

ثم قال : « ما زال يخدم هذا الفنَّ إلى أن رسختْ فيه قدمُهُ ، وتعِبَ الليلَ والنهارَ ، وما تعب لسانُه وقلمُه ، وضُربتْ باسمه الأمثال ، وسار اسمُهُ مسيرَ الشمس ، إلا أنه لا يتقلَّص إلا نزل المطر ، ولا يغيب عند إقبال الليال .

أقام بدمشق يُرحَل إليه من سائر البلاد ، وتُناديه السؤالاتُ من كل نادٍ ، وهو بين أكنافها كَنَفٌ لأهليها ، وشرفٌ تفتخر وتُزهَى به الدنيا وما فيها ، طورًا تراها ضاحكة عن تبسُّم أزهارها وقهقهة غدرانها ، وتارة تلبس ثوبَ الوقار والفخار بما اشتملت عليه من إمامها المعدود في سُكَّانها »[٣] .

(١) نبل الإبل : أي ساقها .
(٢) طبقات الشافعية ٩/١٠٠ - ١٠١ .
(٣) طبقات الشافعية ٩/١٠٣ .

وُلد الذهبي سنة (٦٧٣هـ) ، وعاش طفولته بين أكناف عائلة علميَّة متينة ، فكانت مُرضعتُه وعمَّتُه ستُّ الأهل بنت عثمان الحاجة أمُّ محمد قد حصلت على الإجازة من ابن أبي اليسر ، وجمال الدين بن مالك ، وزهير بن عمر الزرعي ، وجماعة آخرين ، وسمعتْ من عمر بن القوَّاس وغيره ، وروى الذهبي عنها .

ويُسرع أخوه من الرضاعة علاء الدين علي بن إبراهيم بن العطَّار ويستجيز للذهبي جملةً من مشايخ عصره في سنة مولده من دمشق وحلب ومكة والمدينة .

قال ابن حجر في ترجمة ابن العطَّار : « وهو الذي استجاز للذهبي سنة مولده ، فانتفع الذهبي بعد ذلك بهذه الإجازة انتفاعًا شديدًا »[1].

ويمضي الذهبي إلى المؤدِّب علي بن محمد المعروف بالبصبص ، فأقام في مكتبه أربعة أعوام ، ثم اتجه الذهبي بعد ذلك إلى شيخه مسعود بن عبد الله الصالحي ، فلقَّنه جميع القرآن ، ثم قرأ عليه نحوًا من أربعين ختمة .

وبدأ الذهبي يعتني بطلب العلم حينما بلغ الثامنة عشرة من عمره ، وتوجَّهت عنايتُه إلى القراءات والحديث .

وتميز في دراسة القراءات وبرع فيها براعةً جعلت شيخه شمس الدين محمد بن العزيز الدمياطي يتنازل له عن حلقته بالجامع الأموي في أواخر سنة (٦٩٢هـ) ، حينما أصابه المرض الذي تُوفِّي فيه .

وفي الوقت نفسه كان الذهبي وهو في الثامنة عشرة من عمره قد مال إلى سماع الحديث واعتنى به عنايةً فائقة ، وطغى هذا العلم على كلِّ تفكيره ، واستغرق كلَّ حياته بعد ذلك ، فسمع ما لا يُحصى كثرةً من الكتب ،

---

(١) الدرر (٧٣/٣) .

ولقي كثيرًا من الشيوخ والشيخات ، وترك الذهبي لنا ثلاثة معجمات لشيوخه : المعجم الصغير ، والأوسط ، والمعجم الكبير ، وحوى هذا الأخير نحوًا من ألف وثلاثمائة ترجمة (١٢٧٨) . وأُصيب الذهبي بالشَّرَهِ في سماع الحديث وقراءته ، ورافقه ذلك طيلةَ حياته ، حتى كان يسمع من أُناس قد لا يرضى عنهم ، كما أخبر هو بذلك في ترجمة علي بن مظفر الإسكندراني ، فقال عنه : « لم يكن عليه ضوءٌ في دينه ، حملني الشَّرَهُ على السماع من مثله » .

وكان الذهبي رحمه الله يتحسَّر على الرحلة إلى البلدان الأخرى ؛ لما في ذلك من أهمية بالغة في تحصيل عُلُوِّ الإسناد وقدم السماع ، إلّا أنَّ والده لم يُشجِّعْه على الرحلة ، بل منعه في بعض الأحيان ، وسمح له بالرحلة حينما بلغ العشرين من عمره ، على أنه سمح له برحلات قصيرة لا يُقيم في كلٍّ منها أكثر من أربعة أشهر في الأغلب ، ويُرافقه فيها بعضُ مَنْ يعتمد عليهم .

رحل الذهبي داخل بلاد الشام إلى بعلبك وحلب وحمص وحماة وطرابلس والكرك والمعرة وبصرى ونابلس والرملة والقدس وتبوك . ورحل إلى البلاد المصرية وأخذ عن شيوخها ، ومنهم ابن دقيق العيد .

« لما دخل إلى شيخ الإسلام ابن دقيق العيد – وكان شديدَ التحرِّي في الإسماع – قال له : من أين جئتَ ؟ قال : من الشام . قال : بِمَ تُعرفُ ؟ قال : بالذهبي . قال : مَنْ أبو طاهر الذهبي ؟ فقال له : المخلص . فقال : أحسنتَ . فقال : مَنْ أبو محمد الهلالي ؟ قال : سفيان ابن عيينة . قال : أحسنتَ ؛ اقرأ ، ومكَّنه من القراءة عليه حينئذٍ ؛ إذ رآه عارفًا بالأسماء »[1] .

(١) طبقات الشافعية ٩/١٠٢ .

وانظر إلى عُلُوِّ هِمَّة الذهبي في طلب العلم : قرأ على عبد الرحمن ابن عبد الحليم الدَّكالي بالإسكندرية ، فختم عليه بقراءتَيْ ورش وحفص في أحد عشر يومًا .

وكان الذهبي يُجهد نفسه في قراءة أكبر كميَّة مُمكنة على شيوخ تلك البلاد ؛ فقد ذكر مثلًا أنه قرأ جميع سيرة ابن هشام على شيخه أبي المعالي الأبرقوهي في ستة أيام فقط . ورحل إلى مكة وسمع بها .

لم ينقطع الذهبي طيلة حياته عن الدراسة والسماع ، لا يشغله عنهما شاغل . وكانت دراسته وسماعاته مُتنوِّعة ، فقد عُني بدراسة النحو ، ودرس على شيخ العربية وإمام أهل الأدب في مصر ابن النحاس ، واهتمَّ بالكتب التاريخية ، فسمع عددًا كبيرًا منها على شيوخه ، إلا أنَّ عنايته الرئيسية في السماع كانت مُنصبَّةً على الحديث ، فقد سمع الذهبي مئات الكتب والأجزاء الحديثية طيلة حياته في طلب العلم ، وهناك العدد الهائل من الأحاديث النبوية ، وربما سمع الجزء أو الكتاب على أكثر من شيخ ، فقد سمع «جزء الحسن بن عرفة»- وهو من الأجزاء الحديثية المشهورة- أكثر من أربعين مرَّة على أكثر من أربعين شيخًا .

وتولَّى الذهبي سنة (٧١٨هـ) مشيخة دار الحديث بتربة أم الصالحات وهي من كبريات دور الحديث بدمشق . وفي (٧٢٩هـ) تولَّى دار الحديث بالظاهرية . وفي سنة (٧٣٩هـ) تولَّى تدريس الحديث بالمدرسة النفيسية ، ودار الحديث والقرآن التنكزية . ومن دور الحديث التي تولَّاها الذهبي دار الحديث الفاضلية .

وهكذا تولَّى الذهبي كبريات دور الحديث بدمشق في أيامه . وحينما تُوفِّي في سنة (٧٤٨هـ) كان يتولَّى مشيخة الحديث في خمسة أماكن هي : (١) مشهد عروة ، أَوْ دار الحديث العروية . (٢) دار الحديث

النفيسية . (٣) دار الحديث التنكزية . (٤) دار الحديث الفاضلية . (٥) تربة أُمِّ الصالح .

واختصر الذهبي عددًا ضخمًا من الكتب تُربي على خمسين كتابًا ؛ معظمها من الكتب الكبيرة ، وأضاف إليها إضافاتٍ كثيرةً ، وتعليقاتٍ نفيسةً ، واستدراكاتٍ بارعةً ، وتصحيحاتٍ وتصويباتٍ لمؤلّف الأصل ، إذا شعر بوهمه أو غلطه .

فاختصر مثلًا كتاب « أُسْد الغابة » ، وزاده عدَّة تواريخ ؛ منها « تاريخ الصحابة الذين نزلوا حمص » .

واختصر «تاريخ بغداد» للخطيب، والذيول عليه، و « تاريخ دمشق » لابن عساكر ، و « تاريخ نيسابور » للحاكم ، و « تاريخ خوارزم » لابن أرسلان .

واختصر من كتب الوفيات : « التكملة لوفيات النقلة » للمنذري ، ومن كتب الأنساب : كتاب « الأنساب » للسمعاني ، ومن كتب الرجال : « تهذيب الكمال » للمزِّي ، و « المعجم المُشتمل على أسماء شيوخ الأئمة النُّبَّل » لابن عساكر .

وأنتجت هذه المعرفة الرجالية الواسعة مؤلَّفاتٍ كثيرةً ، لعلَّ من أهمها كتابه العظيم « تاريخ الإسلام » .

ومعرفة الذهبي الواسعة في الرجال جعلته شيخ الجرح والتعديل ورجُلَ الرجال . واعتبره السخاوي هو والمزيّ مؤرِّخا القرن الثامن اللَّذين لا يُنافسهما أحدٌ .

وذهب السيوطي في « طبقات الحفاظ » أن المُحدِّثين في عصره عيالٌ في الرجال وغيرها من فنون الحديث على أربعة ؛ أحدهم الذهبي .

وللذهبي الإمامة في النقد وأصوله ؛ أبرزها كتابه العظيم « ميزان الاعتدال في نقد الرجال » ، الذي اعتبره ابن حجر من أحسن كُتُبِهِ وأجلِّها . قال السخاوي : عوَّل عليه مَنْ جاء بعده .

ولم يقتصر نقدُ الذهبي على الرجال فحسب ؛ بل تعدَّى ذلك إلى نقْد الموارد التي يُطالعها أو يختصرها أو يأخذ منها ، وهو ما يُعرف اليوم بنقد المصادر ؛ من ذلك مثلًا نقدُه لكتاب « الضعفاء » لابن الجوزي ، الذي اختصره وذيَّل عليه . وانتقد كتاب « الضعفاء » للعقيلي .

قال ابن ناصر الدين عن الذهبي : « ناقد المُحدِّثين ، وإمام المُعدِّلين والمُجرِّحين ... كان آيةً في نقْد الرجال ، عمدةً في الجرح والتعديل » .

واختصر الذهبي عددًا من الكتب المهمَّة في العقائد ؛ منها مثلًا : كتاب « البعث والنشور » ، وكتاب « القدر » للبيهقي ، وكتاب « الفاروق في الصفات » لشيخ الإسلام الأنصاري ، وكتاب « منهاج الاعتدال في نقض كلام أهل الرفض والاعتزال » لابن تيمية .

وخلَّف الذهبي عددًا من الآثار في هذا العلم ؛ منها : « كتاب الكبائر وبيان المحارم » ، وكتاب « الأربعين في صفات ربِّ العالمين » ، وكتاب « العرش » ، وكتاب « مسألة الوعيد » ، وغيرها . ولعل من أشهر كُتُبِهِ في هذا المجال وأهمّها كتاب «العُلو». وللإمام الذهبي القدح المُعلَّى في نصْر العقيدة السلفية .

واختصر الذهبي في الفقه كتاب « المُحلَّى » لابن حزم ، وألَّف عددًا من الكتب والأجزاء التي تناولت موضوعاتٍ فقهيةً .

وتداول العلماء كُتُبَ الذهبي في عصره والعصور التالية له ، واعتُبرت من أعظم الموارد التي استقى منها العلماء الذين جاءوا بعده .

قال ابن حجر : « ورغب الناس في تواليفة ، ورحلوا إليه بسببها

وتداولوها : قراءةً ونسخًا وسماعًا » .

وقال تلميذه الحسيني : « وقد سار بجملة منها الركبان في أقطار البلدان » .

كان الإمام الذهبي مدرسةً قائمةً بذاتها ، خرَّجت العديد من الحفَّاظ والعلماء ، وأمَّه طلبة العلم من كل حَدَبٍ وصوبٍ ، ودرس عليه عددٌ كبيرٌ من الطلبة يفوق الحصر .

قال تلميذه الحسيني : « وحمل عنه الكتابَ والسُّنَّةَ خلائقُ »[1] .

وقال ابن قاضي شهبة : « سمع منه السبكي ، والبرزالي ، والعلائي ، وابن كثير ، وابن رافع ، وابن رجب ، وخلائق من مشايخه ونظرائه ... وتخرَّج به حُفَّاظ » ، وإنّ كُتُبَ القرن الثامن لتزخر بمئات من تلاميذ الذهبي النُّجُب .

قال تلميذه الصفدي : « الشيخ الإمام العلَّامة الحافظ شمس الدين أبو عبد الله الذهبي ؛ حافظٌ لا يُجارى ولافظٌ لا يُبارى ، أتقن الحديث ورجاله ، ونظر عِلَلَهُ وأحواله ، وعرَّف تراجم الناس ، وأزال الإبهام في تواريخهم والإلباس ، أكثر من التصنيف ، ووفَّر بالاختصار مؤونة التطويل في التأليف » .

ووصفه تلميذه ابن كثير بأنه « الشيخ الحافظ الكبير مُؤرِّخ الإسلام وشيخ المُحدِّثين » .

قال عنه تلميذه محمد بن محمد بن عبد الكريم الموصلي :

ما زلتُ بالسمعِ أهواكمْ وما ذكرت ... أخبارُكم قطُّ إلَّا ملتُ عن طربِ
وليس من عجبٍ أنْ ملتُ نحوكُمُ ... فالناسُ بالطبع قد مالوا إلى الذهبِ

(١) ذيل تذكرة الحفاظ ص٣٦ .

قال سبط ابن حجر : « حافظ الوقت الذي صار هذا اللقبُ عَلَمًا عليه ... فلله دَرُّهُ من إمام مُحدِّث .. فكم دخل في جميع الفنون وخرج ، وصحَّح وعدَّل وجرَّح ، وأتقن هذه الصناعة ... فهو الإمام سيِّدُ الحفَّاظ ، إمام المُحدِّثين ، قدوة الناقدين » .

وقال أيضًا : « عُني لهذا الفنِّ أعظمَ عناية ، وبرع فيه ، وخدمه الليل والنهار » .

أمّا آثاره التي تُريك عجائبه وأخباره وأنواره وأزهاره ؛ ففوق الحصر :

أولًا : في القراءات :

(١) التلويحات في علم القراءات .

ثانيًا : الحديث :

له كُتبٌ :

(٢) الأربعون البلدانية .

(٣) الثلاثون البلدانية .

(٤) طُرُق حديث : « مَنْ كنتُ مولاه فعليٌّ مولاه » .

(٥) الكلام على حديث الطير .

(٦) المُستدرك على مُستدرك الحاكم.

ثالثًا : مصطلح الحديث وآدابه :

(٧) كتاب الزيادة المضطربة .

(٨) طُرق أحاديث النزول .

(٩) العذب المُسلسل في الحديث المُسلسل .

(١٠) مُنية الطالب لأعزِّ المطالب .

(١١) الموقظة في علم الحديث .

رابعًا : العقائد :

(١٢) أحاديث الصفات .

(١٣) الأربعين في صفات ربِّ العالمين.

(١٤) جزء في الشفاعة .

(١٥) جزءان في صفة النار .

(١٦) الرسالة الذهبية إلى ابن تيمية . وذهب البعض إلى القول بأنها مُزوَّرة ، ومنها نسخة في دار الكتب المصرية بخطِّ ابن قاضي شهبة .

(١٧) الروع والأوجال في نبأ المسيح الدجَّال .

(١٨) كتاب رؤية الباري .

(١٩) كتاب العرش .

(٢٠) العُلُوّ للعليِّ الغفَّار .
(٢١) كتاب الكبائر .
(٢٢) كتاب ما بعد الموت .
(٢٣) كتاب مسألة دوام النار .
(٢٤) كتاب مسألة الغيبة .
(٢٥) كتاب مسألة الوعيد .

خامسًا : أصول الفقه :

(٢٦) كتاب « مسألة الاجتهاد ».
(٢٧) كتاب «مسألة خبر الواحد».

سادسًا : الفقه :

(٢٨) تحريم أدبار النساء .
(٢٩) تشبيه الخسيس بأهل الخميس.
(٣٠) جزء في الخضاب .
(٣١) جزء في صلاة التسبيح .
(٣٢) جزء في القهقهة .
(٣٣) حقوق الجار .
(٣٤) كتاب فضائل الحج وأفعاله.
(٣٥) كتاب اللِّباس .
(٣٦) كتاب مسألة السماع .
(٣٧) كتاب الوتر .

سابعًا : الرقائق :

(٣٨) جزء في محبة الصالحين .
(٣٩) كتاب دعاء المكروب .
(٤٠) كتاب ذكْر الولدان .
(٤١) التعزية الحسنة بالأعزة .
(٤٢) كشْف الكربة عند فقْد الأحبَّة .

ثامنًا : التاريخ والتراجم :

(٤٣) أخبار السَّدِّ ؛ أي الذي بناه ذو القرنين .
(٤٤) أخبار قضاة دمشق .
(٤٥) أسماء مَنْ عاش ثمانين سنة بعد شيخ أو بعد تاريخ سماع .
(٤٦) الإشارة إلى وفيات الأعيان والمنتقى من تاريخ الإسلام .
(٤٧) الإعلام بوفيات الأعلام .
(٤٨) الأمصار ذوات الآثار .
(٤٩) أهل المائة فصاعدًا .
(٥٠) البيان عن اسم ابن فلان .
(٥١) تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام . وهو أعظم كُتُبه وأوسعها ، جعله في واحد وعشرين مُجلَّدًا .
(٥٢) التاريخ المُمتع .
(٥٣) تذكرة الحفاظ .

(٥٤) تراجم رجال روى عنهم محمد ابن إسحاق .

(٥٥) تسمية رجال صحيح مسلم الذين انفرد بهم عن البخاري .

(٥٦) تقييد المهمل .

(٥٧) التلويح بمن سبق ولحق .

(٥٨) جزء أربعة تعاصروا .

(٥٩) دول الإسلام .

(٦٠) ديوان الضعفاء والمتروكين .

(٦١) ذكْر مَنِ اشتهر بكُنيته من الأعيان .

(٦٢) ذكْر مَن يُؤتمن قولُه في الجرح والتعديل .

(٦٣) ذيْل الإشارة إلى وفيات الأعيان.

(٦٤) ذيل دول الإسلام .

(٦٥) ذيل سير أعلام النبلاء .

(٦٦) ذيْل ديوان الضعفاء والمتروكين.

(٦٧) ذيْل كتاب الضعفاء لابن الجوزي.

(٦٨) الذيل على ذيل الضعفاء لابن الجوزي.

(٦٩) ذيْل العِبَر في خبر مَنْ غبر .

(٧٠) الردّ على ابن القطان .

(٧١) كتاب الزلازل .

(٧٢) سير أعلام النبلاء . في خمسة وعشرين مُجلَّدًا ، ولو لم يكن له إلا هذا السِّفر العظيم لكفاه عُلُوّ همَّة في نشْر العلم .

(٧٣) طبقات الشيوخ .

(٧٤) العُباب في التاريخ .

(٧٥) العِبَر في خبر مَنْ غبر .

(٧٦) عنوان السير في ذكْر الصحابة.

(٧٧) القبان في أصحاب التقيِّ ابن تيمية.

(٧٨) المُجرَّد في أسماء رجال كتب سنن الإمام أبي عبد الله بن ماجه، سوى مَنْ أخرج له منهم في أحد الصحيحين.

(٧٩) المرتجل في الكُنى .

(٨٠) المُشتبه في الرجال ؛ أسمائهم وأنسابهم .

(٨١) مُعجم الشيوخ الكبير .

(٨٢) مُعجم الشيوخ الأوسط .

(٨٣) المُعجم الصغير « اللَّطيف » .

(٨٤) المعجم المختص بمُحدِّثي العصر.

(٨٥) كتاب معرفة آل منده .

(٨٦) معرفة القرَّاء الكبار على الطبقات والأعصار .
(٨٧) المعين في طبقات المُحدِّثين.
(٨٨) المغني في الضعفاء .
(٨٩) المُقدِّمة ذات النقاط في الألقاب.
(٩٠) مَنْ تُكلِّم فيه وهو مُوثَّق؛
(٩١) ميزان الاعتدال في نقْد الرجال.
(٩٢) هالة البدر في عدد أهل بدر .

تاسعًا : السير والتراجم المفردة :

(٩٣) أخبار أبي مسلم الخراساني.
(٩٤) أخبار أُمِّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها .
(٩٥) التبيان في مناقب عثمان رضي الله عنه .
(٩٦) ترجمة ابن عقدة الكوفي .
(٩٧) ترجمة أبي حنيفة .
(٩٨) ترجمة أبي يوسف القاضي.
(٩٩) ترجمة أحمد بن حنبل .
(١٠٠) ترجمة الخضر .
(١٠١) ترجمة السِّلَفي .
(١٠٢) ترجمة الشافعي .
(١٠٣) ترجمة الشيخ الموفَّق .
(١٠٤) ترجمة مالك بن أنس .
(١٠٥) ترجمة محمد بن الحسن الشيباني.
(١٠٦) توقيف أهل التوفيق على مناقب الصِّدِّيق .
(١٠٧) الدُّرَّة اليتيمية في السيرة التيمية.
(١٠٨) سيرة الحَلَّاج .
(١٠٩) سيرة أبي القاسم الطبراني .
(١١٠) سيرة سعيد بن المسيب .
(١١١) سيرة عمر بن عبد العزيز.
(١١٢) السيرة النبوية .
(١١٣) فتح المطالب في مناقب علي بن أبي طالب .
(١١٤) قضّ نهارك بأخبار ابن المبارك.
(١١٥) مناقب البخاري .
(١١٦) نعم السمر في سيرة عمر رضي الله عنه .
(١١٧) نفض الجُعْبة في أخبار شعبة .
(١١٨) سيرة لنفسه .

عاشرًا : المنوَّعات :

(١١٩) بيان زغل العلم والطلب .
(١٢٠) التمسُّك بالسُّنَن .
(١٢١) جزء في فضل آية الكرسي .
(١٢٢) الطب النبوي .

(١٢٣) كسْر وثن رتن .

(١٢٤) مفاخرة المشمش والتوت.

أحد عشر: المُختصرات والمُنتقَيات:

(١٢٥) أحاديث مختارة من الموضوعات من الأباطيل للجوزقاني .

(١٢٦) بلبل الروض .

(١٢٧) تجريد أسماء الصحابة .

(١٢٨) تذهيب تهذيب الكمال في معرفة الرجال .

(١٢٩) ترتيب الموضوعات لابن الجوزي.

(١٣٠) تلخيص العِلَل المتناهية .

(١٣١) تنقيح كتاب التحقيق في أحاديث التعليق لابن الجوزي .

(١٣٢) تهذيب تاريخ علم الدين البرزالي .

(١٣٣) كتاب الجهر بالبسملة مختصرًا.

(١٣٤) الرخصة في الغناء والطرب بشرطه .

(١٣٥) الكاشف في معرفة مَنْ له رواية في الكتب السِّتة .

(١٣٦) المُجرَّد من تهذيب الكمال .

(١٣٧) مُختصر إنباه الرواة على أنباه النحاة لابن القفطي .

(١٣٨) مختصر الأنساب لأبي سعد السمعاني .

(١٣٩) مختصر كتاب البعث والنشور للبيهقي .

(١٤٠) مختصر تاريخ بغداد للخطيب البغدادي .

(١٤١) مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر.

(١٤٢) مختصر تاريخ مصر لابن يونس.

(١٤٣) مختصر تاريخ نيسابور للحاكم.

(١٤٤) مختصر تحفة الأشراف للمزِّيِّ.

(١٤٥) مختصر تقويم البلدان لأبي الفدا.

(١٤٦) مختصر التكملة لكتاب الصلة لابن الأبَّار .

(١٤٧) مختصر التكملة لوفيات النقَلَة للمنذري .

(١٤٨) مختصر جامع بيان العلم وفضله .

(١٤٩) مختصر كتاب الجهاد لبهاء الدين ابن عساكر .

(١٥٠) مختصر ذيل تاريخ بغداد لابن السمعاني .

(١٥١) مختصر الردِّ على ابن طاهر لابن المجد .
(١٥٢) مختصر كتاب الروضتين وذيله لأبي شامة .
(١٥٣) مختصر كتاب الزهد للبيهقي.
(١٥٤) مختصر كتاب سلاح المؤمن لابن الإمام .
(١٥٥) مختصر صلة التكملة لوفيات النقَلَة للحسيني .
(١٥٦) مختصر الضعفاء لابن الجوزي.
(١٥٧) مختصر كتاب الفاروق في الصفات لشيخ الإسلام الأنصاري.
(١٥٨) مختصر كتاب القدر للبيهقي.
(١٥٩) المختصر المحتاج إليه من تاريخ الحافظ ابن الدبيثي .
(١٦٠) مختصر المدخل إلى كتاب السنن للبيهقي .
(١٦١) مختصر كتاب المستدرك على الصحيحين .
(١٦٢) مختصر كتاب المعجب في تلخيص أخبار المغرب للمراكشي .
(١٦٣) مختصر مناقب سفيان الثوري لابن الجوزي .
(١٦٤) مختصر وفيات الأعيان لابن خلِّكان .
(١٦٥) مختصر كتاب الوهم والإيهام الواقعيْن في كتاب الأحكام لابن القطان.
(١٦٦) المستحلى في اختصار المُحلَّى لابن حزم .
(١٦٧) معرفة التابعين من الثقات لابن حبان .
(١٦٨) المُقتضَب من تهذيب الكمال للمزيِّ .
(١٦٩) المُقتنى في سرد الكُنى .
(١٧٠) المُنتخب من تاريخ ابن النجار.
(١٧١) مُنتقى الاستيعاب في معرفة الأصحاب .
(١٧٢) المنتقى من تاريخ أبي الفدا.
(١٧٣) المُنتقى من تاريخ خوارزم .
(١٧٤) المُنتقى من مُسند أبي عوانة.
(١٧٥) المُنتقى من مُسنَد عبد بن حُميد .
(١٧٦) المُنتقى من مُعجم يوسف بن خليل الدمشقي .
(١٧٧) المُنتقى من معجمي الطبراني الأوسط والكبير ومن مسند المُقلِّين

لدعلج .

(١٧٨) المُنتقى من معرفة الصحابة لابن منده .

(١٧٩) المُنتقى من منهاج الاعتدال.

(١٨٠) مُهذَّب السنن الكبرى للبيهقي.

(١٨١) نُبذة من فوائد تاريخ ابن الجزري .

(١٨٢) النبلاء في شيوخ السُّنَّة .

اثنا عشر : التخاريج :

ا - مُعجمات الشيوخ :

(١٨٣) مُعجم شيوخ ابن البالسي .

(١٨٤) مُعجم شيوخ ابن حبيب .

(١٨٥) مُعجم شيوخ ابن العطَّار .

(١٨٦) المعجم العلي للقاضي الحنبلي.

ب - المشيخات :

(١٨٧) مشيخة التَّلِّي .

(١٨٨) مشيخة الجعبري .

(١٨٩) مشيخة ابن الزراد الحريري.

(١٩٠) مشيخة عز الدين المقدسي.

(١٩١) مشيخة ابن القوَّاس .

(١٩٢) مشيخة الكمال .

جـ - الأربعينيات :

(١٩٣) أربعون حديثًا بلدانية من المعجم الصغير للطبراني .

(١٩٤) أربعون حديثًا بلدانية من مُعجم ابن جُميع الصيداوي .

(١٩٥) أربعون حديثًا بلدانية من مُعجم شيوخ أبي بكرٍ المقدسي .

(١٩٦) أربعون حديثًا بلدانية من مُعجم شيوخ ابن المُقرىء .

(١٩٧) أربعون حديثًا للأبرقوهي .

(١٩٨) أربعون حديثًا لابنه أبي هريرة عبد الرحمن .

د - كُتُبُ الثلاثينيات :

(١٩٩) ثلاثون حديثًا من المعجم الصغير للطبراني .

هـ - الأحاديث العوالي :

(٢٠٠) عوالي الشمس ابن الواسطي.

(٢٠١) عوالي الطاووسي .

(٢٠٢) عوالي أبي عبد الله ابن اليونيني.

(٢٠٣) العوالي من حديث مالك .

(٢٠٤) العوالي المنتقاة من حديث الذهبي .

و - الأجـزاء :

(٢٠٥) الجزء المُلقَّب بالدينار من

حديث المشايخ الكبار .
(٢٠٦) جزء للقزويني .
(٢٠٧) جزء لأبي بكر المرسي .
(٢٠٨) جزء لابن المُحبّ المقدسي.
(٢٠٩) جزء لابن الكويك .
(٢١٠) جزء لأمين الدين الواني .
(٢١١) جزء على ابن جماعة الكناني.
(٢١٢) أحاديث مختصر ابن الحاجب.
(٢١٣) ثُلاثيّات ابن ماجه .
(٢١٤) المُنتقى من حديث تقيّ الدين ابن الشيخ شمس الدين ابن المجد البعلي ... وغيرها »[1].

وبعد ، أفلا نقول بعد هذا المختصر النيِّر بعُلُوِّ هِمَّة الذهبي في طلب العلم ونشْره ، ما قاله السُّبكي :

مَنْ للحديثِ وللسارينَ في الطلبِ ... من بعد موتِ الإمام الحافظ الذهبي
مَنْ للروايةِ للأخبارِ ينشرُها ... بين البريَّة من عُجْمٍ ومن عَرَبِ
مَنْ للدرايةِ والآثارِ يحفظُها ... بالنقدِ من وضْعِ أهل الغيِّ والكذبِ
مَنْ للصناعةِ يدري حَلَّ مُعْضِلِها ... حتى يُريكَ جلاءَ الشكِّ والرِّيَبِ
مَنْ للجماعةِ أهلِ العلمِ تُلبِسُهُمْ ... أعلامُه الغُرُّ من أبرادِها القُشُبِ
مَنْ للتخاريج يُبديها ويدخلُ في ... أبوابِها فاتحًا للمُقْفَلِ الأشِبِ
مَنْ في القراءاتِ بين الناس نافِعُهم ... وعاصِمٌ رُكْنَها في الجَحْفَلِ اللَّجِبِ
مَنْ للخطابةِ لمّا لاحَ يَرْفُلُ في ... ثوبِ السَّوادِ كبدرٍ لاحَ في سُحُبِ
هو الإمامُ الذي رَوَّتْ روايتُهُ ... وَطبَّقَ الأرضَ مِنْ طُلّابهِ النُّجُبِ
مُهذَّبُ القولِ لا عِيٌّ ولجْلَجَةٌ ... مُثبَّتُ النَّقْلِ سامي القصد والحسَبِ
ثبتٌ صدوقٌ خبيرٌ حافظٌ يَقِظٌ ... في النقلِ أصدقُ أنباءً من الكُتُبِ
كالزُّهْرِ في حَسَبٍ والزَّهْرِ في نَسَبِ ... والنَّهْرِ في حَدَبٍ والدَّهْرِ في رُتَبِ[2]

(١) مختصر من كتاب « الذهبي ومنهجه في كتابه تاريخ الإسلام » لبشّار عواد معروف .
(٢) طبقات الشافعية الكبرى للتاج السبكي ٩/١٠٩ - ١١١ .

(٢٥٠) الحافظ عَلَم الدين ، أبو محمد ، القاسم بن محمد بن يوسف البِرْزالي :

قال عنه السبكي : « الحافظ الكبير ، أحد الأربعة الذين لا خامس لهم في هذه الصناعة .

ذكره الشيخ شهاب الدين بن فضل الله في « المسالك » ، فقال : « ممَّن ولدتْه دمشق ، والفَحْلُ فَحْلٌ مُعْرِق ، وأوجدته الأيام فسطَع ضوؤها المُشرِق ، وتمخَّضتْ منه الليالي عن واحدها واحد أهل المشرق ، ومشى فيها على طريق واحد ، ما تغيَّر عن سلوكها ولا تقهقر في سلوكها » .

مولده سنة خمس وستين وستمائة . وسمع سنة ثلاث وسبعين وستمائة ، فجمع « مُعجمُه » العدد الكثير والجمَّ الغفير . وكان مُفيد جماعة المُحدِّثين على الحقيقة »[1] .

وقد كان عَلَمُ الدين البرزالي رفيق الذهبي في الطلب وشيخه ، « وهو الذي حبَّب إلى الذهبي العناية بالحديث النبوي الشريف ؛ فقال الذهبي في معجم شيوخه الكبير : « الإمام الحافظ ، المُتقن الصادق ، الحُجَّة ؛ مُفيدنا ومُعلِّمنا ورفيقُنا ، مُحدِّث الشام ، مُؤرِّخ العصر » . وقال في موضع آخر : « وهو الذي حبَّب إليَّ طلب الحديث ، فإنه رأى خطِّي ، فقال : خطُّك يُشبه خطَّ المُحدِّثين ! فأثَّر قولُه فيَّ ، وسمعتُ منه ، وتخرَّجتُ به في أشياء » ، وكان على غاية من الإعجاب بعلمه ، ولا سيما معجم شيوخه الذي خرَّجه لنفسه ، وفيه ثلاثة آلاف شيخ ؛ منهم ألفان بالسماع وألفٌ بالإجازة . ونظم الذهبي في هذا المعجم بيتين من الشعر ، وقال :

إنْ رُمْتَ تفتيشَ الخزائنِ كلِّها ... وظهورَ أجزاء حَوَتْ وعوالي

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى . ١٠/٣٨١ - ٣٨٢ .

ونعوتَ أشياخِ الوجودِ وما رَوَوْا طالِعْ أو اسمعْ مُعجمَ البرزالي»[١].

قال عنه الحافظ أبو المحاسن الحسيني في « ذيل تذكرة الحفاظ » :

« الشيخ الإمام الحافظ العمدة ، مُحدِّث الشام ومُؤرِّخه ومُفيده ... كتب الكثير من الكتب المُطوَّلة والأجزاء العالية المفيدة ، وخرَّج لخلقٍ من شيوخه وأقرانه ، وسمع منه طوائف ، وحدَّث عنه خلقٌ في حياته وبعد وفاته ، وحجَّ مرَّات حتى مات ، ووقف كُتُبَه وأجزاءه ، أحسن الله جزاءه »[٢].

رثاه القاضي شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله بقصيدة ؛ منها :

قد كان في قاسمٍ من غيرهِ عوضٌ فاليومَ لا قاسِمٌ فينا ولا قَسَمُ
من لو أتى مكَّة مالتْ أباطِحُها به سرورًا وجادتْ أُفقها الدِّيمُ
أقسمتُ منذُ زمانٍ ما رأى أحدٌ لقاسِمٍ شبهًا في الأرضِ لو قُسِمُوا
هذا الذي يشكرُ المختارُ هجرتَهُ « والبيتُ يعرفُهُ والحِلُّ والحَرَمُ »
ما كان يُنْكِرهُ رمِيُ الحطيمِ بِهِ لو أخَّرَ العُمرَ حتى جاء يَستَلِمُ
له إليه وفاداتٌ تُقِرُّ بها جِبالُ مكةَ والبطحاءُ والأكَمُ
مُحدِّثُ الشامِ صِدْقًا بَلْ مُؤرِّخُه جرى بهذا وذا فيما مضى القَلَمُ
يا طالبَ العِلْمِ في الفنَّينِ مجْتهِدًا في ذا وهذا يُنادي المُفردُ العَلَمُ

ومنها :

وحَقَّقَ النَّقْدَ حتى بانَ بَهْرَجُهُ وصَحَّحَ النقلَ حتى ما به سَقَمُ
وعرَّف الناسَ كيف الطُّرْقُ أجمَعُها إلى النَّبيِّ فما حاروا ولا وَهَمُوا
وعَلَّمَ الخلق في التاريخ ما جَهِلوا وبعضُ ما جَهِلُوا أضعافُ ما علموا
يُريك « تاريخَهُ » مهما أردتَ به كأنَّ تاريخَه الآفاقُ والأُممُ[٣]

(١) الذهبي ومنهجه في كتابه تاريخ الإسلام ص١٠٠ .
(٢) ذيل تذكرة الحفاظ ص١٨ .
(٣) ابن قيم الجوزية ؛ حياته وآثاره . لبكر بن عبد الله أبو زيد ص١٠٩ .

(٢٥١) الحافظ ابن عبد الهادي ، شمس الدين أبو عبد الله ، محمد بن أحمد ابن عبد الهادي المقدسي :

قال عنه ابن رجب في « ذيل طبقات الحنابلة » (٢/ ٤٣٦ - ٤٣٩) : المُقرىء الفقيه المُحدِّث ، الحافظ الناقد ، النحوي المُتفنِّن .

قرأ بالروايات ، وسمع الكثير .... وعُني بالحديث وفنونه ومعرفة الرجال والعلل ، وبرع في ذلك . وتفقَّه في المذهب وأفتى ، وقرأ الأصلين والعربية ، وبرع فيها ، ولازم الشيخ تقيَّ الدين ابن تيمية مُدَّة ، وقرأ عليه قطعةً من الأربعين في أصول الدين للرازي .

قرأ الفقه على الشيخ مجد الدين الحرَّاني ، ولازم أبا الحجَّاج المزِّيَّ الحافظ ، حتى برع عليه في الرجال ، وأخذ عن الذهبي وغيره .

وقد ذكره الذهبي في طبقات الحفاظ ، قال : اعتنى بالرجال والعِلَل ، وبرع وجمع ، وتصدَّى للإفادة والاشتغال في القراءة والحديث والفقه والأصلين والنحو ، وله توسُّعٌ في العلوم وذهنٌ سيَّال .

وذكره في معجمه المختص ، وقال : « عُني بفنون الحديث ومعرفة رجاله ، وذهنُه مليح ، وله عدَّة محفوظات وتآليف وتعاليق مفيدة ، كتب عني ، واستفدتُ منه » .

صنَّف تصانيف كثيرة ؛ بعضُها كملت ، وبعضُها لم يُكملْه ؛ لهجوم المنية عليه في سِنِّ الأربعين ! وعدَّ ابن رجب ثمانية وخمسين مُصنَّفًا له . وله الكتاب القيِّم « الصارمُ المُنكي في الردِّ على السُّبكي » . وقال الدكتور بكر أبو زيد : « ذكر له ابن رجب ما يزيد عن سبعين مُصنَّفًا ، يبلغ بعضها مائة مُجلَّد »[١] .

(١) ابن قيم الجوزية ؛ حياته وآثاره . لبكر بن عبد الله أبو زيد ص١٠٩ .

قال ابن كثير في « البداية والنهاية » (١٤/ ٢٢١ - ٢٢٢) :
« صاحبنا الشيخ الإمام ، العالِم العلّامة الناقد ، البارع في فنون العلوم ... تُوفي قبل أذان العصر ، فأخبرني والده أنَّ آخر كلامه أنْ قال : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله ، اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين ... وكانت جنازته حافلةٌ مليحةٌ ، عليها ضوْءٌ ، ونورٌ ... لم يبلغْ الأربعين ، وحصّل من العلوم ما لا يبلغُه الشيوخ الكبار ، وتفنّن في الحديث والنحو والتصريف والفقه والتفسير والأصليْن والتاريخ والقراءات ، وله مجاميعُ وتعاليقُ مفيدة كثيرةٌ ، وكان حافظًا جيدًا لأسماء الرجال ، وطرق الحديث ، عارفًا بالجَرْح والتعديل ، بصيرًا بعلل الحديث ، حسَنَ الفهم له ، جيِّدَ المذاكرة ، صحيح الذِّهن ، مستقيمًا على طريقة السلف ، واتباع الكتاب والسنة ، مثابرًا على فعْل الخيرات » .

٢٥٢ - الحافظ ابن كثير : أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي :

شيخ المُفَسّرين في عصره ، ولو لم يكن له إلّا « تفسير ابن كثير » الذي سارت به الركبان ، وطاف ذكره في البلدان لكفاه علوّ همة في تحصيل العلم ونشْره ، وكم لقي هذا التفسير مِنَ القبول عند جهابذة العلماء وعامّة المسلمين .

تأثر وتتلمذ على يد شيخ الإسلام ابن تيمية والحافظ المِزِّي صِهْره ، وسمع عليه أكثر تصانيفه ، وتقرّب منه حتى أحسن إليه ، وتزوَّج من ابنته زيْنب ، وأفاد منه كثيرًا في الحديث ورجاله .

ومِن شيوخه نَجم الدين بن العسقلاني ، سمِع عليه صحيح مسلم في تسعةِ مجالسٍ بقراءة الوزير العالم أبي القاسم محمد بن محمد بن سَهل الأزدي الغرناطي الأندلسي .

ومن شيوخه شهابُ الدين الحجار المعروف بابن الشّحنة ، سمع عليه

بدار الحديث الأشرفية في أيام الشتويات نحوًا من خمسمائة جزءٍ بالإجازات والسماع .

ومن شيوخه أيضًا الحافظ الذهبي .

قال عنه أحدُ تلاميذه ابن حجي : كان أحفظَ مَن أدركناه لمتون الأحاديث ، وأعرفَهم بتخريجها ورجالها وصحيحها وسقيمها ، وكان أقرانُه وشيوخه يعترفون له بذلك .

وقال عنه الداوي في طبقات المفسرين (٣٢٧) : كان قدوة العلماء والحفاظ ، وعمدةَ أهل المعاني والألفاظ .

قال عنه الذهبي : خرّج وناظر ، وصنف ، وفسر ، وتقدم . وقال عنه: الإمام المفتي، المحدِّث البارع، فقيهٌ مُتَفنِّنٌ، محدِّثٌ، متقِنٌ، مفسِّرٌ نقّالٌ.

ووصفه السيوطي بقوله : له التفسير الذي لم يُؤَلَّفْ على نمطٍ مثله .

له كتاب « البداية والنهاية » ، وله كتاب « التكميل في معرفة الثقات والضعفاء والمجاهيل » جمع فيه بين كتاب « التهذيب » و « الميزان » ، وهو خمس مجلداتٍ ، وله كتاب « الهدى والسُّنن في أحاديث المسانيد والسنن » وهو المعروف بـ « جامع المسانيد » ، رتَّبه على الأبواب ، جمع فيه بين مُسْنَد الإمام أحمد والبزّار وأبي يعلى وابن أبي شيبة إلى الكتب الستة ، وهو من أنفع كتبه .

تولّى مشيخة أمِّ الصالح والتنكزية بعد الذهبي ، وبعد موت السبكي تولّى مشيخة الحديث الأشرفية مدةً يسيرة.

وله « اختصار علوم الحديث » وهي رسالة طيبة في المصطلح ، شرَحَها محدِّثُ الديار المصرية الشيخُ أحمد محمد شاكر بعنوان « الباعث الحثيث إلى معرفة علوم الحديث » .

قال ابن حجر عنه : « اشتغل بالحديث مطالعةً في متونه ورجاله ،

وجمع التفسير ، وشرَع في كتاب كبير في الأحكام لم يُكمل ، وجمع التاريخ الذي سمّاه « البداية والنهاية » ، وعمل طبقات الشافعية ، وشرع في شرح البخاري ، وصارت تصانيفه في البلاد في حياته ، وانتفع بها الناس بعد وفاته ، ولم يكن على طريق المحدِّثين في تحصيل العوالي ، وتمييز العالي من النازل ونحو ذلك مِن فنونهم ، وإنما هو مِن محدِّثي الفقهاء ، وقد اختصر مع ذلك كتاب ابن الصلاح ، وله فيه فوائد »[١] .

قال ابن حبيب فيه : « زعيمُ أرباب التأويل ، سمِع وجمَع وصنّف ، وأطرب الأسمَاع بالفتوى وشنّف ، وحدّث وأفاد ، وطارت أوراق فتاويه في البلاد ، واشتهر بالضبْط والتحرير ، وانتهت إليه رياسة العلم في التاريخ والحديث والتفسير »[٢] .

« وتفسيره مِن أشهر ما دوّن في التفسير المأثور ، ويعتبر في هذه الناحية الكتاب الثاني بعد كتاب ابن جرير . وهو شديد العناية بهذا النوع من التفسير الذي يسمونه تفسير القرآن بالقرآن ، وهذا الكتاب أكثر ما عُرِف مِن كتب التفسير سردًا للآيات المتناسبة في المعنى الواحد »[٣].

٢٥٣ - شيخ الإسلام أبو عبد الله محمد بن مُفلح بن محمد الراسني الحنبلي صاحب كتاب « الفروع » :

الإمام العالم وحيد دهره ، وفريد عصره .

تفقّه في المذهب الحنبلي حتى برع فيه ، وكان بارعًا متفنّنًا ، ولا سيما علم الفروع ، وكان غايةً في نقل مذهب الإمام أحمد رضي الله عنه .

وقال عنه أبو البقاء السُّبكي : ما رأت عينايَ أحدًا أفقه منه . ولم

---

(١) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ١/٣٧٣ - ٣٧٤ .
(٢) التفسير والمفسرون للذهبي ١/٢٣٥ .
(٣) التفسير والمفسرون ١/٢٣٦ .

يُر في زمانه في المذاهب الأربعة مَن له محفوظات أكثر منه[(١)] فمن محفوظاته : « المنتقى في الأحكام » قرأه وعرضه في قريب أربعة أشهر .

وقال ابن القيـم لقاضي القضاة موفَّق الدين الحجاوي سنة إحدى وثلاثين وسبعمائة : ما تحت قبةِ الفلك أعلم بمذهبِ الإمام أحمد من ابنِ مُفلح .

وحضر عند الشيخ تقي الدين ابن تيمية ، ونقل عنه كثيرًا ، وكان يقول له : ما أنت ابن مفلحٍ ، بل أنت مُفلحٌ . وكان أخبرَ الناس بمسائله واختياراته ، حتى كان ابن القيم الذي نشر علمَ شيخ الإسلام يراجعه فيها .

وكان يتردد على المزي والذهبي ، ونقل عنهما كثيرًا ، وكانا يعظِّمانه ، وكان الشيخ تقي الدين السبكي يُثني عليه كثيرًا .

قال ابن كثير : وجمع مصنفات ، منها : على « المُقْنِع » نحو ثلاثين مجلـدًا ، كما أخبرني عنه قاضي القضاة جمال الدين ، وعلى « المُنتقَـى » مجلّدَيْن .

وله من المصنفات : « الآداب الشرعية الكبرى » و « الوسطى » و « الصغرى » .

ومنها - وهو غُرَّتُها -: كتابُ « الفروع » وهو من أجَلِّ الكتب وأنفعها وأجمعها للفوائد .

قال الحافظ ابن حجر عن كتاب « الفروع » في « الدرر » : « أورد فيه من الفروع الغريبة ما بَهَر العلماءَ ، وكان يسمَّى : مكنسة الذهب » . ولقد اعتنى علماء الحنابلة بالفروع وشرْحِه والكتابة عليه ، وصحَّحه علَّامة المذهب ومُحرِّرهُ المرداوي .

---

(١) صاحبُ هذا القول هو قاضي القضاة جمال الدين المرداوي الذي زوَّج ابن مفلح ابنته .

وله كتابٌ في أصول الفقه ، وهو كتابٌ جليلٌ حذا فيه حذْوَ ابن الحاجب في مختصره ، لكن فيه من النقول والفوايد ما لا يوجد في غيره ، وليس للحنابلة أحسن منه .

٢٥٤ - الحافظ العراقي أبو الفضل عبد الرَّحيم بن الحُسين بن عبد الرَّحمن المصري :

شيخ الحديث بمصر ، وإمام الحفاظ في عصره .

« حفظ القرآن وهو ابن ثمان ، و « التنبيه » وأكثر « الحاوي » ، وكان رام حفظ جميعه في شهرٍ ، فملّ بعد اثني عشر يومًا ، وكذا حفظ « الإلمام » لابن دقيق العيد ، وكان ربما حفظ منه في اليوم أربعمائةِ سطرٍ ، إلى غير ذلك من المحافيظ . ولازم الشيوخ في الدراية فكان أول شيءٍ اشتغل به القراءاتُ ، وأكمل القراءات السبعة ، ونظر في الفقه وأصولِه ، وكان الأسنوي يُثني على فهْمه ، ويستحسن كلامه في الأصول ويُصغي لمباحثه فيه ، ويقول : إن ذهنه صحيح لا يقبل الخطأ . وفي أثناء ذلك أقبل على علم الحديث بإشارة العزّ بن جماعة ؛ فإنه قال له - وقد رآه مُتوغِّلًا في القراءات -: إنه علمٌ كثيرُ التعب قليلُ الجدوَى ، وأنت متوقدُ الذِّهن ، فاصرفْ همتك إلى الحديث . فأخذه بالقاهرة عن العلاء التّركماني الحنفي ، وبه تخرّج وعليه انتفع ، وببيت المقدس وبمكة عن العلائي ، وبالشام عن التَّقي السُّبكي ، وزاد تفنُّنًا باجتماعه بهما ، ورحل إلى المدينة والإسكندرية وبعلبك وحماة وحمص وصفْد وطرابلس وغزَّة ونابْلس .

قال شيخنا في معجمه : اشتغل بالعلوم وأحب الحديث ، لكن لم يكن له مَن يخرجه على طريقة أهل الإسناد ، وكان قد لهج بتخريج أحاديث الإحياء وله من العمر نحو العشرين ، وذكر في شرحه للألفية أن المحدث أبا محمود المقدسي سمع منه شيئًا في تلك السنة (٧٤٥هـ) ، ثم نبّهه العز بن جماعة

لما رأى مِنْ حرْصه على الحديث وجمعه على طريقة أهله ، فحبّب الله له ذلك ؛ ولازمه وأكبّ عليه من سنة اثنتين وخمسين ، حتى غلب عليه وتوغل فيه ؛ بحيث صار لا يُعرَف إلا به ، وانصرفتْ أوْقاتُه فيه ، وتقدّم فيه بحيث كان شيوخ عصره يبالغون في الثناء عليه بالمعرفة ، كالسبكي ، والعلائي ، وابن جماعة ، وابن كثير ، وغيرهم - يعني كالإسنائي - فإنه وصفه بـ « صاحبنا حافظ الوقت »[1]. ونقل عنه في المهمات وغيرها ، وترجمه في طبقات الشافعية ، ولم يذكر فيها من الأحياء سواه .

وكذا صرّح ابن كثير باستفادته منه تخريج شَيْءٍ وقف على المحدِّثين ، وقرأ عليه شيئًا .

بل امتنع السبكي حين قدومه القاهرة - سنةَ وفاتِهِ - من التحديث إلا بحضْرته .

وقال العز بن جماعة : كلّ منْ يدّعي الحديث بالديار المصرية سواه فهو مدّعٍ .

وتصدّى للتخريج والتصنيف والتدريس والإفادة .

فكان من تخاريجه : فِهْرسْت مرويات البياني ، ومشيخة التونسي وابن القاري ، وذيل مشيخة القلانسي ، وتُسَاعِيَّاتٍ للميدومي ، وعُشارياتٍ لنفسه ، وتخريج للإحياء في كبيرٍ ومتوسطٍ وصغيرٍ وهو المتداول ، سمَّاه : « المغني عن حمْل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياءِ مِنَ الأخبار » .

ومن تصانيفه : « الألفية في علوم الحديث » ، و « في السيرة النبوية » ، و « في غريب القرآن » ، وشرح الأُولى وكَتَب على أصلها ابنُ الصلاح نكتًا ، وكذا « نظْمُ الاقتراح » لابن دقيق العيد ، وعمل في المراسِيل كتابًا ،

---

(١) مع كوْنه من تلامذته ، قال السخاوي : وهذا وأمثاله مما يُعد من مفاخر كلّ من الناقل والمنقول عنه .

وهو من أواخر ما جمعه ، و « تقريب الأسانيد وترتيب المسانيد » في الأحكام ، واختصره ، وكذا أكْمَل « شرح الترمذي » لابن سيد الناس ، فكتب منه تِسْعَ مجلداتٍ ، ولم يكمل أيضًا .

وفي الفقه : « الاستعاذة بالواحد من إقامة جُمْعَتَيْن في مكانٍ واحد » ، و « تاريخ تحريم الربا » و « تكمِلَة شرْح المهذَّب » للنووي ، بني على كتابة شيخه السُّبكي ، فكتب أماكن واستدراك على المهمات للأسنوي ، وسماه « تتمَّات المهمَّات » .

وفي الأصول : نظم « مِنهاج البيضاوي » .

وولي التدريس للمحدِّثين بأماكن ، منها : دار الحديث الكاملية ، والظاهرية القديمة والقراسنقورية ، وجامع ابن طولون ، وللفقهاء : بالفاضلية وغيرها ، وولي قضـاء المدينة النبوية وخطابتها وإمامتها سنة ٧٨٨ ، وشرع في الإملاء بالقاهرة من سنة خمس وتسعين ، فأملى أربعمائة مجلسٍ وستةَ عَشـر مجلسًا ، فأوّلًا أشياء نثرياتٍ ، ثم تخريج أربعين النووي ، ثم مستخرجًا على « مستدرك الحاكم » كتب منه قدرَ مُجيْلدةٍ إلى أثناء كتاب الصلاة ، في نحو ثلثمائة مجلس ، أولها السادسَ عشرَ بعد المائة .

قال شيخنا في معجمه : وكان يمليها من حفْظِه متقنة مهـذبة محررةً ، كثيرة الفوائد الحديثية ، وحكى رفيقه الحافظ الهيثمي أنه رأى النبي ﷺ في النوم ، وعيسى عليه السلام عن يمينه ، وصاحب الترجمة عن يساره .

قال ابن حجر : « وقد لازمتُه مدةً فلم أرَه تَركَ قيامَ الليل ، بل صار له كالمألوف ، وإذا صلى الصبح استمر - غالبًا - في مجلسه مُستقبِلَ القبلة ، تاليًا ذاكرًا ، إلى أن تطلع الشمسُ » .

وقال في صدر أسئلةٍ له : سألتُ سيدنَا وقدوتَنا ومعلِّمنا ومفيدنا ومخرجنا شيخ الإسلام أوحد الأعلام ، حسنةَ الأيام ، حافظَ الوقت .. وفي أنبائه أنه صار المنظورَ إليه في هذا الفن من زمن الأسنائي ، وهُلمَّ جَرًّا . قال : ولم نر في هذا الفن أتقنَ منه ، وعليه تخرّج غالِبُ أهلِ عصره ، ومِن أخصِّهم به : شيخُنا - صِهْرُه - الهيثمي ، وهو الذي درّبه ، وعلّمه كيفية التخريج والتصنيف ، بل كان هو الذي يعمل له خُطَب كُتُبه ويسمِّيها له ، وصار الهيثمي لشدَّةِ ممارسته أكثر استحضارًا للمتون من شيخه ، حتى يظنّ من لا خبرة لهُ أنه أحفظ منه ، وليس كذلك ؛ لأن الحفظ المعرفة .

قال ابن حجر : وقد لازمتُه عشر سنين ، سوى ما تخلَّلها من الرحلات ، وكذا لازمَه البرهان الحلبي نحوًا من عشر سنين .

وقال أيضًا : لم أرَ أعلم بصناعة الحديث منه ، وبه تخرّجت ؛ وقد أخبرني أنه عمل تخريج أحاديث البيضاوي بين الظهر والعصر ، وكان كثيرَ الحياء والعلم والتوافر ، وافرَ الجلالة والمهابة ، على طريق السلف ، وغالبُ أوْقاته في تصنيفٍ أوْ إسماعٍ ، مع الدِّين والأوْراد ، وإدامة الصوم وقيام الليل ، كريم الأخلاق ، ظاهر الوضاء كأنَّ وجهه مصباح ، ومَن رآه عرف أنه رجلٌ صالح . قال : وكان عالمًا بالنحو واللغة والغريب ، والقراءات والحديث والفقه وأصوله ، غير أنّه غلَب عليه فنُّ الحديث فاشتُهر به وانفرد بالمعرفة فيه مع العلو . قال : وذهنُه في غايةِ الصحةِ ، ونقله نقْرٌ في حَجَر . قال : وكان كثير الكتب والأجزاء ؛ لم أر عند أحدٍ بالقاهرة أكثر مَن كُتُبه وأجزائه .

ثم قال : وقد قلتُ لما بلغتني وفاتُه :

رحمةُ اللهِ للعراقِيِّ تَتْرَى　　　حافظِ الأرض حَبْرِها باتِّفاقِ
إننـي مُقْسِـمٌ أَلِيَّةَ صِـدقٍ　　　لَمْ يكنْ في البلادِ مِثلُ العراقي

وقال التَّقي الفاسي في «ذيل التقييد»: « كان حافظًا متقنًا ، عارفًا بفنون الحديث والفقه والعربية وغير ذلك ، كثيرَ الفضائل والمحاسن ، ومسموعاته وشيوخه في غاية الكثرة ، وأخذ عنه علماءُ الديار المصرية وغيرهم ، وأثنَوْا على فضائله ، وأخذتُ عنه الكثير بقراءتي وسماعًا ، بعد انصرافه من المدينة أقام بالقاهرة مشتغِلًا بالتصنيف والإفادة والإسماع ، حتى مضى لسبيله محمودًا .

وقال المقريزي في « السلوك » : شيخ الحديث ، انتهتْ إليه رياستُه .

ولم يكن العراقي يحدّث إلا على طهارةٍ ؛ فكان إذا أحدث قطع القارىء القراءةَ حتى يتوضأ »[1].

قرأ العراقي على ابن الخباز محمد بن إسماعيل صحيحَ مسلمٍ في ستةِ مجالسٍ مُتواليةٍ ، قرأ في آخرِ مجلسٍ منها أكثر من ثُلُثِ الكتاب ، وذلك بحضورِ الحافظ زيْن الدين ابن رجب ، وهو معارض بنُسختِه .

له المؤلفات المفيدة المشهورة في علم الحديث ، والتخاريج الحسنة ، ودرس بعدّةِ أماكن ، وأفتى وحدّث كثيرًا بالحرميْن ومصر والشام ، وأفاد ، وتكلّم على العلل والإسناد ، ومعاني الفنون وفقهها فأجاد ، وقُصد من مشارق الأرض ومغاربها فرحَل إليه - للأخْذ عنه والسماع - الجمُّ الغفير ، الكبير منهم والصغير ، فلازموه وانتفعوا به ، وكتب عنه جميعُ الأئمةِ من العلماء الأعلام ، والحفاظ ذوي الفضْل والانتقاد .

ورثاه تلميذُه ابن حجر بمرثيةٍ قافيَّةٍ ، أوردها في « إنباء الغُمر بأنباء العُمر » (١٧٣/٥ - ١٧٦) ، وهي :

مُصَابٌ لم يُنفَّسْ للخِنَاقِ ... أصارَ الدمعَ جارًا للمآقِي

---

(١) « الضوْء اللامع لأهل القرْن التاسع » للسخاوي ١٧١/٢ - ١٧٧ - طبع دار الجيل ببيروت .

فَرَوْضُ العلمِ بعدَ الزَّهْو ذاوٍ ورُوحُ الفضل قد بَلَغَ التَّراقي
وبحرُ الدَّمْعِ يجري في اندفاقٍ وبذْرُ الصبرِ يَسْري في المَحَاقِ
وللأحزانِ بالقلبِ اجتماعٌ يُنادِي الصبرَ حَيِّ على الفِراقِ
فأطفأَتِ المنونُ سِراجَ علمٍ ونوَّر ناره لأُولي النِّفاقِ
فيَا أهلَ الشآم ومصرَ فابْكُوا على عبدِ الرَّحيمِ ابنِ العِراقي
على الحَبْرِ الذي شهدتْ قُرومٌ لهُ بالإنفرادِ على اتِّفاقِ
على حَاوي علوم الشّرعِ جَمْعًا بحفظٍ لا يخافُ منَ الإباقِ
ومنْ فُتحتْ لَهُ قدَمًا علومٌ غدَتْ عنْ غيره ذاتَ انغلاقِ
وجارَى في الحديثِ قديمَ عهدٍ فأحرَزَ دُونهُ خصلَ السِّباقِ
وبالسبعِ القراءاتِ العوالي رَقَى قدمًا إلى السَّبْعِ الطِّبَاقِ
فسَلْ إحْيَا علومِ الدينِ عنهُ أمَا وافاهُ مَعْ ضِيقِ النِّطاقِ
فصيّر ذكْرَه يسمُو وينمو بتخريج الأحاديثِ الرِّقاقِ
وشرْحُ الترمذي لقدْ ترقَّى به قدمًا إلى أعلَى المَرَاقي
ونظْمُ ابن الصلاحِ لهُ صلاحٌ وهذا شرْحُه في الأُفْقِ راقِ
وفي نظْمِ الأُصولِ لهُ وصولٌ إلى مِنهاجِ حقٍّ باشْتياقِ
ونظْمُ السيرةِ الغرَّا يُجازَى عليها الأجرَ مِنْ راقي البراقِ
دعاهُ بحافظِ العصرِ الإمامُ الْـ ـكبيرُ الأسْنَويُّ لدَى الطّباقِ
وعلّا قدْرَه السُّبكيُّ وابنُ الْـ ـعلايِي والأئمةُ باتِّفاقِ
ومنْ سِتِّينَ عامًا لمْ يُجارِ ولا طمع المجاري في اللِّحاقِ
يُقضّي اليومَ في تصنيف علمٍ وطُول تهجُّدٍ في الليل واقي
فبالصُّحفِ الكريمةِ في اصْطباحٍ وبالتُّحَفِ الكريمة في اغْتِباقِ
فما فتنتْهُ كأْسٌ بالْتِثامٍ ولا أَلْهَاهُ ظَبْيٌ باعْتناقِ
فتَى كرمٍ يزيدُ وشيخُ علمٍ لَدَى الطُّلّابِ مَعْ حمْلِ المشاقِ
فيَقْرِي طالبي عِلْمٍ ويُقري قِرًى وقراءةً ذاتَ اتِّساقِ

فيا أسفا عليه لحُسْنِ خلُقٍ   أرَقَّ مِن النسيمات الرِّقاقِ
ويا أسفا عليه لحفظِ ودٍّ   إذا نُسيتْ مودَّاتُ الرفاقِ
ويا أسفا لتقْييداتِ علْمٍ   تولّتْ بعدَهُ ذاتَ انطلاقِ
عليه سلامُ ربِّي كل حينٍ   يُلاقيه الرِّضا فيما يُلاقي
وأسْقَتْ لحْدَهُ سُحُبُ الغَوادِي   إذا انْهَمَلَتْ هَمَتْ ذاتَ انطبَاقِ
وذاقتْ رُوحُهُ في كلِّ يومٍ   تحيّاتٍ إلى يوم التَّلاقِ

قال السيوطيّ في « التدريب » : كان الإملاءُ دَرَسَ بعد موْت ابن الصلاح إلى أواخر أيام الحافظ العراقي فافتتحه سنة ٧٩٦هـ ، فأملى أربعمائة مجلسٍ وبضعةَ عشر مجلسًا إلى سنة موْتِه سنة ٨٠٦هـ .

وقال السخاوي في « فتح المغيث » : كان الإملاء انقطع قبل العراقي دهرًا وحاوله التاجُ السُّبكي ثم ولّدَهُ الوليُّ العراقي على إحيائه فكان يتعلل برغبة الناس عنه وعدم موقعه منهم ، وقلة الاعتناء به ، إلى أن شرح الله صدره لذلك ، واتفق شروعه فيه بالمدينة المنورة وبعدة أماكن في القاهرة .

ويرحم الله السيوطيَّ القائل :

عابَ الإملَا للحديث رجالٌ   قد سَعَوْا في الضلالِ سعيًا حثيثًا
إنما يُنكرُ الأمَاليَ قومٌ   لا يكادونَ يفقهُونَ حدِيثًا

٢٥٥ - أستاذ الأستاذِين وحافظ الدنيا الإمَام ابن حجر العسقلاني ؛ أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني :

قال تلميذُه السخاوي في ترجمته في « الضوء اللامع » (٢/٣٦ - ٤٠) : « شيخي الأستاذ إمام الأئمة الشهاب أبو الفضل الكناني العسقلاني المصري ثم القاهري الشافعي ، ويُعرف بابن حجر . حفظ القرآن وهو ابن تسعٍ عند الصَّدر السقطي شارح مختصر التبريزي ، وحفظ العمدة وألفيّة ابن العراقي والحاوي الصغير ومختصر ابن الحاجب الأصلي والملحة وغيرها ،

وبَحَثَ في صغَره - وهو بمكة - العمدة على الجَمَال بن ظهيرة ، ثم قرأ على الصدر الأبشيطي بالقاهرة شيئًا من العلم ، وبعد بلوغه لازم أحد أوصيائه الشمس بن القطّان في الفقه والعربية والحساب وغيرها ، وقرأ عليه جانبًا كبيرًا من الحاوي ، وكذا لازم في الفقه والعربية النور الآدمي ، وتفقّه بالأبناسي ، بَحَثَ عليه في المنهاج وغيره ، وأكثر من ملازمته أيضًا لاختصاصه بأبيه ، وبالبُلقيني لازمه مدةً وحضر دروسه الفقهية ، وقرأ عليه الكثير من الروضة ومن كلامه على حواشيها ، وسمع عليه بقراءة الشمس البرماوي في مختصر المُزَني ، وبابن الملقِّن قرأ عليه قطعة كبيرة من شرحه على المنهاج ، ولازم العز بن جماعة في غالب العلوم التي كان يُقرئها دهرًا ، وممّا أخذه عنه في شرح المنهاج الأصلي ، وفي جمع الجوامع وشرحه للعز ، وحضر دروس الهُمام الخوارزمي ، ومن قبله دروس قنبر العجمي ، وأخذ أيضًا عن البدر بن الطنبدي وابن الصاحب والشهاب أحمد بن عبد الله البوصيري ، وعن الجمال المارداني الموقت الحاسب ، واللغة عن المجد صاحب القاموس ، والعربية عن الغماري والمحبّ بن هشام ، والأدب والعروض ونحوها عن البدر البشتكي ، والقراءات عن التّنّوخي . وجدّ في الفنون حتى بلغ الغاية ، وحبّب الله إليه الحديث ، وأقبل عليه بكليته ، وطلبه من سنة ثلاث وتسعين وهلمّ جرا ، لكنه لم يلزم الطلب إلا من سنة ست وتسعين ، فعكف على الزّين العراقي وتخرّج به وانتفع بملازمته ، وقرأ عليه ألفيتَهُ وشرْحها ، ونُكَتَهُ على ابن الصلاح درايةً وتحقيقًا ، والكثير من الكتب الكبار والأجزاء القصار ، وحمل عنه من أماليه جملةً واستملى عليه بعضَها ، وتحوّل إلى القاهرة فسكنها قُبيل القرن ، وارتحل إلى البلاد الشامية والمصرية والحجازية ، وأكثر جدًّا من المسموع والشيوخ ، فسمع العالي والنازل ، وأخذ عن الشيوخ والأقران فمن دونهم ، واجتمع له من

الشيوخ المشار إليهم والمعوّل في المشكلات عليهم ، ما لم يجتمع لأحدٍ من أهل عصره ، لأن كل واحدٍ منهم كان متبحِّرًا في علمه ، ورأسًا في فنِّه الذي اشتهر به لا يُلحق فيه ، فالتنوخي في معرفة القراءات وعلو سنده فيها ، والعراقي في معرفة علوم الحديث ومتعلّقاته ، والهيثمي في حفظ المتون واستحضارها ، والبلقيني في سعة الحفظ وكثرة الاطّلاع ، وابن الملقّن في كثرة التصانيف ، والمجد الفيروزآبادي في حفظ اللغة واطّلاعه عليها ، والغماري في معرفة العربية ومتعلّقاتها ، والعز بن جماعة في تفنُّنه في علوم كثيرةٍ بحيث إنه كان يقول : أنا أُقرىء في خمسة عشر علمًا لا يعرف علماءُ عصري أسماءَها ، وأذن له جلُّهم أو جميعهم كالبُلقيني والعراقي في الإفتاء والتدريس ، وتصدّى لنشْر الحديث ، وقَصَرَ نفسه عليه مطالعةً وقراءةً وإقراءً ، وشهد له أعيانُ شهوده بالحفظ ، وزادت تصانيفه – التي معظمها في فنون الحديث ، وفيها من فنون الأدب والفقه والأصلين وغير ذلك – على مائة وخمسين تصنيفًا ، ورزق فيها من السعد والقبول ، خصوصًا فتح الباري بشرح البخاري الذي لم يسبق نظيره أمرًا عَجَبًا ، بحيث استدعى طلبه ملوكُ الأطراف بسؤال علمائهم له في طلبه ، وبيع بنحو ثلثمائة دينار ، وانتشر في الآفاق ، ولمَّا تمَّ لم يتخلّف عن وليمة ختْمِه في التاج والسبع وجوهٌ من سائر الناس إلّا النادر ، وكان مصروف ذلك إليهم نحو خمسمائة دينار ، واعتنى بتحصيل تصانيفه كثيرٌ من شيوخه وأقرانه فَمَنْ دونهم ، وكَتَبَها الأكابرُ ، وانتشرت في حياته ، وأقرأ الكثير منها ، وحفظ غير واحدٍ من الأبناء عدّةً منها ، وعرضوها على جاري العادة على مشائخ العصر .

ودرّس في أماكن ؛ كالتفسير بالحسنيّة والمنصوريّة ، والحديث بالبيبرسيّة والجمَّاليّة المستجدة والحسنية والزّينيَّة والشَّيْخُونيَّة وجامع طولون والقُبّة المنصورية ، والإسماع بالمحمودية ، والفقه بالحزوبيّة البدريّة بمصر

والشريفية الفخريّة ، والشيخونيّة والصَّالحيَّة النّجميّة والصَّلاحيّة المجاورة للشافعي والمؤيّديّة . وولي مشيخة البيبرسية فنظرها ، والإفتاء بدار العدل ، والخطابة بجامع الأزهر ثم بجامع عمرو ، وخزن الكتب بالمحمودية ، وأشياء غير ذلك مما لم يجتمع له في آن واحد .

وأملى ما ينيِّف على ألف مجلسٍ من حفْظه ، واشتهر ذكْره وبعُد صِيتُه ، وارتحل الأئمة إليه ، وتبجَّح الأعيان بالوفود عليه ، وكثرت طلبتُه ، حتى كان رؤوس العلماء من كل مذهبٍ من تلامذته ، وأخذ الناس عنه طبقةً بعد أُخرى ، وألحق الأبناء بالآباء والأحفاد ، بل وأبناءهم بالأجداد .

وامتدحه الكبار ، وتبجّح فحول الشعراء بمطارحته ، وطارت فتواه التي لا يمكن دخولها تحت الحصر في الآفاق ، وحدّث بأكثر مروياته خصوصًا المطوّلات منها .

وقد شهد له القدماء بالحفظ والثقة ، والأمانة والمعرفة التّامّة ، والذّهن الوقّاد والذكاء المفرط ، وسعة العلم في فنونٍ شتى ، وشهد له شيخه العراقي بأنه أعلم أصحابه بالحديث . وقال كلٌّ من التّقي الفاسي والبرهان الحلبي : ما رأينا مثله . وسأله الفاضل تغري برمش الفقيه : أرأيت مثل نفسك ؟ فقال : قال الله تعالى : ﴿ **فلا تُزكُّوا أنفسكم** ﴾ [النجم : ٣٢] وجملة محاسنه جمّةٌ ، وما عسى أن أقول في هذا المختصر أو مَنْ أنا حتى يُعرِّف بمثْله » .

قال ابن حجر في « إنباء الغمر » في ترجمة شيخه العراقي (١٧٢/٥) : « وشهد(١) لي بالحفظ في كثير من المواطن ، وكتب لي خطَّه بذلك مرارًا ، وسُئل عند موته عمّن بقي من الحُفّاظ فبدأ بي وثنّى بولده وثلّث بالشيخ

(١) أي العراقي .

نور الدين[١]، وكان السائل للشيخ عن ذلك القاضي كمال الدين بن العديم ، ثم سأله الشيخ نور الدين الرشيدي - على ما أخبرني بذلك بعد ذلك - فقال : في فلان كفايةٌ . وذَكَر أنه عناني ، وصرَّح بذلك » .

أقاضي قضاةِ الدِّين حقًّا بليغهم ... ومنْ هُوَ في أوْجِ المعاني كلامهُ
شروح البخاري مُذْ سُقينا رحيقَها ... أتى شرحُك الوافي ومسكٌ ختامُهُ

وفيه قال الشيخ شهاب الدين أحمد بن أبي السعود المنوفي :

حَبْرَ الهُدى حافِظ الإسلامِ أحمد مَن ... له مِن الفتحِ ذكرى فتحِ خير نبي
يا عالمًا شَرَحَ اللهُ الصُّدورَ به ... وباسِطَ العلمِ والآمالِ للطَّلَبِ
شرحتَ صَدْرَ البخاري مِثْل جامعِهِ ... فراح يُنشد هذا مُنتهى الطَّلَبِ
هذا المنار الذي للعِلْم مرتفعٌ ... اللهُ أكبرُ كُلَّ الفضلِ في العَرَبِ
فحبّذا جامعٌ بالشَّرحِ صار له ... وقْفًا كبحرٍ جرى باقٍ مَدَى الحِقَبِ
أضاء فيه مصابيحٌ مسلسلةٌ ... من الأحاديث أو من لفظك الضَّربِ
شرحٌ حكى الشمسَ فالدنيا به امتلأتْ ... تغيبُ زهرُ الدّراري وهْو لم يغبِ

ثم قال في مدح ابن حجر :

يُغنيك عن طَلَبِ الأسفارِ مقولُه ... والسيفُ أصدقُ أنباءً من الكتبِ
وإنْ رقى شرفَ الإملاء تحسبُهُ ... مع التَّواضُعِ بحرًا سَحّ من حَبَبِ
وكم له من تصانيفٍ حَلَتْ وعَلَتْ ... كالنَّجم يُكثر من قطْرِ الحيا السّربِ
يا منْ يقول لقيتُ الناسَ في رجُلٍ ... دعْ مَنْ أردتَ ويمِّمْ نَعْتَهُ تُصِبِ
ذو همَّةٍ في النَّدَى والعلْم إن رفلتْ ... في بُرْدِهِ سحبتْ ذيلًا على السُّحُبِ
وسيف حلمٍ بأيدي الصَّفْح تجذبُهُ ... دقّتْ لديه رقابُ الحقدِ والغضبِ
ترنحتْ قُضُبُ الأقلامِ في يده ... فأثمرتْ زهرات العلمِ والنّشبِ
تُنْشي فتُنسي شفاه الكأس باسمة ... يا حُسنَ جمْعٍ خلال الرّاحِ والقصبِ

(١) أي الهيثمي صاحب مجمع الزوائد وصهر العراقي .

واعْجَبْ لمحبرةٍ كم شَيَّبتْ غَسَقًا ... سُهدًا ومَفرِقُها المُسْوَدُّ لم يَشبِ
نعمْ وأعجبُ من ذا دَمْعُ مرملةٍ ... بوَجْنَةِ الطِّرْسِ ألْفَتْ حُسنَ مُنقَلَب
وأوقدتْ رملها في نهرِهِ وشَدَتْ ... جلّ المؤلَّف بين الماءِ واللَّهب
يا مُهجةَ الفضل يا عينَ العلوم ويا ... رُوحَ العُلا وحياة المجدِ والحَسَبِ
بقيتَ يا سيِّد الدنيا صحيحَ عُلًا ... وعشتَ يا بحرَ علْمٍ غيرَ مضطرب
ولا برحتَ مدى الأيام تُكسبها ... حُسنَ الختامِ وترقى أشرف الرُّتَبِ

ويقول برهان الدين البقاعي في « فتح الباري » ومؤلفه ابن حجر :

شرْح البخاري الذي في ضِمْنِهِ ... نُظِمتْ علومُ الشَّرعِ مِثْل بحارِ
في كلِّ طرسٍ منه رَوْضٌ مزهِرٌ ... وبكلِّ سطرٍ منه نهرٌ جاري
وبه زوائدُ من فوائد جمَّةٍ ... وفرائدٌ أعْيَتْ على النُّظَّارِ
شَرَحَ الحديثَ به فكم من مُشْكِلٍ ... فيه انْجَلَى للعينِ بالآثارِ
يأتي إلى طُرُقِ الحديثِ يضمُّها ... إن العِيان مصدّقُ الأخبارِ
وتزاحمتْ أفْدِيهِ في تحصيله ... زُمَرُ الملوكِ فسل من السَّفَّارِ
إن قُلْت نَهْرٌ فهو للحَجَرِ انتمى ... ومن الحجارةِ منبعُ الأنهارِ
أو قلت بحرٌ عسقلانٌ أصلُهُ ... فالناس عالةُ بحْرِها الزَّخَّارِ
كمْ قد رحلتَ وكم جمعتَ مصنَّفًا ... فالدِّين قد أحييتَ بالأسفارِ
وسكنتَ في العَلْيا تُقًى وفضائلًا ... أنت الشِّهابُ بك اهتداءُ السَّاري
رحلتْ إليك الطّالِبون ليقتَدُوا ... وتتابعوا سبْقًا من الأقطارِ
فارقتُ في أرض البقاع عشائري ... أطوي إليك فَيَافِيًا وصَحَاري
فمصنَّفاتُك سهَّلتْ وتنزَّهتْ ... من طاعنٍ يرجو قذًى أو عارِ
تربو على مائةٍ ونصفٍ أُودِعَتْ ... دُرَرًا تُضيءُ الليلَ وقتَ سرارِ
وتَضُوع بالمسكِ الذَّكِيّ لناشِق ... حُسنًا فيخجل أن يضُوعَ الدّاري
ماذا أقول ولو أطلتُ مدائحي ... وجعلتُ أهلَ الأرض من أنصاري
لم تبلُغِ المقصودَ من أوصافكمْ ... كلَّا ولم تقرب من المعشارِ

فاسْلَمْ على كرِّ الليالي راقيًا ... رُتَب العُلا تَهْنأْ بفتح الباري

وقال الشيخ محب الدين البكري في تصانيف الحافظ ابن حجر وأماليه :

أبو الفضل بل قاضي القضاة وخيرُهم ... ترى السُّنَّة الغَرَّاءَ من حِفْظه تُرْوَى
أماليه تأتي عَسْجَدًا وجواهرًا ... عَلَتْ وغَلَتْ خُذْها بإسناده الأقوى
أيا شيخ إسلامٍ عليه مهابةٌ ... ومَجْدٌ له يعلو على الغاية القُصْوى
تصانيفه لا حَصر في ذِكْرِ عَدِّها ... ففي كلِّ فنٍّ في العلوم له الجَدْوَى
فكم سهرتْ عيناه والنّاسُ نوَّمٌ ... وكم كتبتْ يُمناه من خبرٍ يُروى
وكَمْ من شروحٍ للبخاريّ عِدَّةٍ ... طواها بفتح الباريء اعْجَبْ لما يُطوى
كساه جمالًا من عُذُوبة لَفْظِهِ ... ففازتْ به الدنيا وسلَّمت الدَّعْوَى
وتوّجه الأسماء من كلِّ مبهمٍ ... خفيٍّ على النّقّاد يا ويحَ مَنْ سَوَّى
ولا غَرْوَ أن الشافعيَّ إمامَنا ... يُباهي بك الأصحابَ بالنَّقْل والفَتْوَى
إذا فاح نشْرُ المسكِ كنتَ ختامَهُ ... فكم حِكَمٍ أظهرتَ فاحتْ لها الشَّذْوَى

وفي ابن حجرٍ قال الدجوي في مجلس ختم فتح الباري :

وحسبُك عالمًا قُطْبُ الأماني ... وحسبك قدوةً للمُقتدينا
تُسائله الصحيحَ وعنه يُنبي ... فتَلْقَى عنده الخبرَ اليقينا
فكم داعٍ أتى وله سؤالٌ ... أجاب سؤالَهُ في السائلينا
وعند لُقيِّه تلقَى مليئًا ... مُفيدَ المبتدِي والمُنتهينا
وكم قطرٍ بعيدٍ منه جاءوا ... إلى أسماعه متوجِّهينا
إذا السَّنَدُ اكتسى ثوبَ اضطرابٍ ... أتوْا عن حالِهِ يتنسَّمُونا
وكم من سُنَّةٍ أنباك عنها ... بإسنادٍ علا في المُسْنِدِينا
ومن يدري الحديث ومُسْنِدِيه ... ويُمليه الكرام الكاتبينا
سما بسماعه سَطْحَ الثُّرَيَّا ... إليه بوَصْلِه يتوصَّلُونا

وكَمْ صَادَ الشَّرِيدَ مِن المعاني ... وذلَّلَهُ على من يألفونا
وحَسْبُك والمحابر حين تُملَى ... ترى أقلامها في السَّاجدينا
ومهَّد في الحديثِ مصنَّفاتٍ ... شريفاتٍ فنِعْمَ الماهِدُونا
علا سَنَدًا ترى الأشياخ فيه ... إلى عليائِهِ يترجَّلونا
وما في العسقلاني من كلامٍ ... كفاه اللهُ شرَّ الحاسِدِينا
سوى حفظٍ فشا شرقًا وغربًا ... وأعلى ذِكْرَه في الحافِظِينا
نراك الشافعيّ تكون علمًا ... وأحمدَ في الرِّواية أن تكونا

وفيه يقول الشيخ الطنوبيُّ :

إليك انتهتْ يا حافظَ العصرِ رحْلة الـ ... ـحديث مع الإملاء حقًّا بلا مَيْنِ
وأنت الذي أحييتَ سُنَّةَ أحمدٍ ... وأبرزتَ من أسرارها كلَّ مَكْنُونِ
وأنت الذي صنَّفتَ كهلًا ويافعًا ... وأفتيتَ في فرضٍ علينا ومَسْنُونِ
وبيَّنتَ في التفسير حُكْم مسائلِ الـ ... ـخِلافِ بما أظهرتَ من كنزٍ مدفونِ
كرَأْيِ ابن عباسٍ ورأي مجاهدٍ ... ورأي عطاءٍ ثم رأي ابن سيرينِ
وقرَّرتَ للقُرّاء ما كان نافعًا ... أتى عن أبي عمرٍو وورشٍ وقالُونِ
وحقَّقْتَ حُكْمَ الرّوم فيه وغُنَّةً ... مَدٍّ مع الإشمامِ والوَصْلِ واللِّينِ
وأعْرَبْتَهُ عن سيبويه وشيخه ... وأبديتَ فرْقًا بين نونٍ وتنوينِ
ولا عجبٌ فاليَمُّ من حَجَر بدا ... عيونًا لموسى حين قرَّ على الطِّينِ
فعشر عيونٍ منه عشرُ أصابعٍ ... تفيضُ ومنشأُ جُورِها الدَّهْرَ يُغنيني
سما بتآليف علتْ في حياته ... نعم وعَلَتْ فوق السِّمَاكِ وتنّينِ
تُناهِزُ عُشْرَ الألِف عَدًّ وكم سعى ... لِبَابِ عُلاها وافدٌ من سلاطينِ
وزادُوا اشتياقًا بالسّماع ورُبَّما ... تعشقُ قبل العينِ سمْعُك في الحينِ
إلى الغرب سارتْ ثم للتّبّكِ سافرتْ ... وفي يَمَنٍ حلّتْ وصارتْ إلى الصِّينِ (١)

(١) انظر فتح الباري آخر الجزء (١٣) .

لطيفـــة :

قال الشيخ جمال الدين القاسمي في كتابه القيّم « قواعد التَّحْدِيث من فنون مصطلح الحديث » ص٢٦٢ - ٢٦٣ تحت عنوان « ذكْر أرباب الهمَّة الجليلة ، في قراءتهم كُتُب الحديث في أيامٍ قليلة » : « ذُكر في ترجمة المجد الفيروزآبادي صاحب القاموس ، أنه قرأ صحيح مسلم في ثلاثة أيامٍ بدمشق ، وأنشد :

قرأتُ بحمدِ اللهِ جامعَ 'مسلمٍ ... بجوفِ دِمَشْقِ الشّامِ جوفٍ لإسلامِ
على ناصر الدِّين الإمامِ ابنِ جَهْبَلٍ ... بحَضْرَةِ حُفَّاظٍ مشاهيرَ أعلامِ
وتمَّ بتوفيقِ الإلـهِ وفَضْلِـهِ ... قراءةُ ضبطٍ في ثلاثةِ أيّامِ

وقرأ الحافظ أبو الفضل العراقي صحيح مسلم على محمد بن إسماعيل الخبّاز بدمشق ، في ستة مجالس متوالية ، قرأ في آخر مجلسٍ منها أكثر من ثلث الكتاب ، وذلك بحضور الحافظ زين الدين ابن رجب وهو يُعارِض بنسخته .

وفي تاريخ الذهبي - في ترجمة « إسماعيل بن أحمد الحيري النّيسابوري الضرير » - ما نَصُّه : « وقد سمع عليه الخطيبُ البغدادي - بمكة - صحيح البخاري بسماعه من الكشميهني في ثلاثة مجالس : اثنان منها في ليلتين ؛ كان يبتدىء بالقراءة وقت المغرب ، ويختم عند صلاة الفجر ، والثالث من ضحوة النهار إلى طلوع الفجر .

قال الذهبي: « وهذا شيءٌ لا أعلم أحدًا في زماننا يستطيعه ». انتهى.

وقال الحافظ السخاوي : وقع لشيخنا الحافظ ابن حجر أجَلّ مما وقع لشيخه المجد اللُّغوي ، فإنه قرأ صحيح البخاري في أربعين ساعة رَمْليَّة ، وقرأ صحيح مسلم في أربعة مجالس سوى مجلس الختْم في يومين وشيء ، وقرأ سنن ابن ماجة في أربع مجالس ؛ وقرأ كتاب النسائي الكبير في عشر مجالس ،

كل مجلس منها نحو أربع ساعات ، وقرأ صحيح البخاري في عشر مجالس كل مجلس منها أربع ساعات .

ثم قال السخاوي : وأسرع شيء وقع له - أي لابن حجر - أنه قرأ في رحلته الشاميّة معجم الطبراني الصغير في مجلس واحد بين صلاتَي الظهر والعصر . قال : وهذا الكتاب في مجلد يشتمل على نحو ألف حديث وخمسمائة حديث » . انتهى .

والعبد الضعيف جامع هذا الكتاب ، قد منّ الله عليه بفضله فأسمع صحيح مسلمٍ - روايةً ودرايةً - في مجالس من أربعين يومًا، آخِرها في ٢٨ من شهر صفر الخير سنة ١٣١٦هـ ، وأسمع أيضًا سنن ابن ماجة كذلك في مجالس من إحدى وعشرين يومًا ، آخِرها في ٢٢ من شهر ربيع الأول سنة ١٣١٦هـ ، وأسمع أيضًا الموطّأ كذلك مجالس من تسعة عشر يومًا ، آخرها في ١٥ من شهر ربيع الآخر سنة ١٣١٦هـ ، وطالعتُ بنفسي لنفسي تقريب التهذيب للحافظ ابن حجر ، مع تصحيح سهْو القلم فيه وضبطه وتَحْشِيَتِهِ من نسخةٍ مصحّحة جيّدًا ، في مجالس من عشرة أيامٍ ، آخِرها في ١٨ من شهر ذي الحجة سنة ١٣١٥هـ .

أقول : وهذه الكتب قرأتُها بإثر بعضها ، فأجهدت نفسي وبصري ، حتى رَمِدْتُ بأثَرْ ذلك ، وشفاني الله بفضله ، وأشفقتُ من العوْد إلى مثل ذلك .

٢٥٦ - الحافظ الهيثمي نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان ، أبو الحسن الهيثمي :

صاحب مجمع الزوائد ، صحب الشيخ زين الدين العراقي وهو صغير ، فسمع معه في ابتداء طلبه على أبي الفتح الميدومي وابن الملوك وابن القطرواني ، وغيرهم من المصريين ، ومن ابن الخبّاز وابن الحموي وابن قيِّم

الضِّيائيَّة ، وغيرهم من الشاميين ، ثم رحل معه جميع رحلاته وحجّ معه جميع حجّاته ، ولم يكن يُفارقه حضرًا ولا سفرًا ، وتزوّج ابنته وتخرّج به في الحديث ، وقرأ عليه أكثر تصانيفه ، وكتب عنه جميع مجالس إملائه ، وخرّج زوائد الكتبِ الستة مسندِ أحمد والبزّارِ وأبي يعلى ومعاجمِ الطبراني الثلاثةِ مفرداتٍ ، ثم جَمَعَها في كتابٍ واحد محذوفِ الأسانيد ، وجمعَ ثقات ابن حبان فرتّبها على حروف المعجم ، وكذا ثقات العجلي ، ورتّب الحلية على الأبواب ، وصار كثير الاستحضار للمتون جدًّا لكثرة الممارسة . وكان هيِّنًا ليِّنًا لا يسأم ولا يضجر من خدمة الشيخ وكتابة الحديث ، وكان كثير الخير ، كثير الاحتمال للأذى ، خصوصًا من جماعة الشيخ . قرأتُ عليه الكثيرَ قرينًا للشيخ ، ومما قرأتُ عليه بانفراده : نحو النصف من « مجمع الزوائد » له ، ونحو الرُّبع من زوائد مسند أحمد ومسند جابر من مسند أحمد ، وغير ذلك ، وكان يودني كثيرًا ويشهد لي بالتَّقدُّم في الفنّ ، جزاه الله عني خيرًا[1].

وقال السخاوي في « الضوء اللامع » في ترجمة الهيثمي : « قرأ القرآن ثم صحب الزين العراقي وهو بالغ ، ولم يفارقه سفرًا وحضرًا حتى مات ، بحيث حجّ معه جميع حجّاته ، ورحل معه سائر رحلاته ، ورفقه في جميع مسموعه بمصر والقاهرة والحرمين وبيت المقدس ودمشق وبعلبك وحلب وحماة وطرابلس وغيرها ، وربما سمع الزين بقراءته . ولم ينفرد عنه الزين بغير ابن البابا والتقيّ السُّبكي وابن شاهد الجيش ، كما أن صاحب الترجمة لم ينفرد عنه بغير صحيح مسلم على ابن عبد الهادي ... وهو مُكثِرٌ سماعًا وشيوخًا ، ولم يكن الزين يعتمد في شيء من أموره إلا عليه ، حتى أنه أرسله مع ولده الولي لما ارتحل بنفسه إلى دمشق ، وزوّجه ابنته خديجة ورُزق منها عدّة

(١) إنباء الغمر ٥/٢٥٦ - ٢٥٧ .

أولاد . وعادت بركة الزَّيْن عليه ، كما أن الزين اسْتَرْوَحَ بعدُ بما عمله ، سيّما المجمع .

وكان عَجَبًا في الدين والتقوى والزهد ، والإقبال على العلم والعبادة والأوراد ، وخدمة الشيخ وعدم مخالطة الناس في شيء من الأمور ، والمحبّة في الحديث وأهله . وحدّث بالكثير رفقًا للزّين ، بل قلّ أن حدّث الزين بشيءٍ إلا وهو معه ، وكذلك قلّ أن حدّث هو بمفرده ، لكنّهم بعد وفاة الشيخ أكثروا عنه ، ومع ذلك ، فلم يغيّر حاله ولا تصدَّر ولا تَمَشْيَخ ، وكان - مع كونه شريكًا للشيخ - يكتب عنه الأمالي بحيث كتب عنه جميعها ، وربما استملى عليه ، ويحدِّث بذلك عن الشيخ لا عن نفسه ، إلّا لمن ضايقه .

قال شيخنا في معجمه : كان كثير الاحتمال لشيخنا ولأولاده ، محبًّا في الحديث وأهله . وقد عاشرتهما مدّةً فلم أرهما يتركان قيام الليل ، ورأيتُ مِن خدمته لشيخنا وتأدُّبه معه ، من غير تكلُّفٍ لذلك ، ما لم أره لغيره ، ولا أظنّ أحدًا يَقْوَى عليه .

وقال البرهان الحلبي : إنه كان من محاسن القاهرة ومن أهل الخير ، غالب نهاره في اشتغالٍ وكتابةٍ ، مع ملازمة خدمة الشيخ في أمر وضوئه وثيابه ، ولا يُخاطبه إلَّا بـ « سَيِّدي » حتى كان في أمر خدمته كالعبد ، مع محبَّته للطلبة والغرباء وأهل الخير ، وكثرة الاستحضار جدًّا .

وقال التّقيّ الفاسي : كان كثير الحفظ للمتون والآثار صالحًا خيِّرًا .

والثناء على دينه وزهده وورعه ونحو ذلك كثيرٌ جدًّا ، بل هو في ذلك كلمة اتِّفاق »[1].

---

(١) الضوء اللامع للسخاوي ٥/٢٠٠ .

٢٥٧ - الكاساني صاحب « بدائع الصنائع » العلَّامة الحنفي :

تلميذ محمد بن أحمد أبو بكر علاء الدين السّمرقندي ، المتوفَّى سنة ٥٣٩ ، صاحب كتاب « تحفة الفقهاء » في الفقه الحنفي .

كان لهذا العالم الجليل - محمد بن أحمد السمرقندي - بنت تُسمّى فاطمة ، ربّاها فأحسن تربيتها ، وعلّمها فأحسن تعليمها ، يقول صاحب كتاب « الفوائد البهية »[1]: « كانت ابنته فاطمة الفقيهة العلّامة زوجة علاء الدين الكاساني ، وكانت تفقّهتْ على أبيها ، وحفظت تُحفته ، وكان زوجها يخطىء ، فتردّه إلى الصواب ، وكانت الفتوى تأتي فتخرج وعليها خطُّها وخطُّ أبيها ، فلمّا تزّوجت بصاحب الصنائع ، كانت تخرج وعليها خطها وخطّ أبيها وخطّ زوجها » .

وقد تسامع الملوك بفاطمة فخطبوها من أبيها ، فامتنع والدها من تزويجها ، وكان من طلبة الشيخ تلميذ يُسمّى علاء الدين أبا بكر بن مسعود الكاساني ، لازم شيخه ، واشتغل بالعلم عليه ، وبرع في علم أصول الفقه والفقه ، وصنّف كتاب « بدائع الصنائع » في الفقه ، وهو في الحقيقة شرحٌ لكتاب شيخه « تحفة الفقهاء » ، وعَرَضَ الكتاب على شيخه ، ففرح به فرحًا شديدًا ، وزوّجه ابنته ، وجعل مهرها منه ذلك الكتاب الذي ألّفه ، فقال الفقهاء في عصره : « شَرَحَ تُحفتَهُ ، وزوّجَهُ ابنتَهُ » .

لله درُّهم من أهل بيت ... كان العلم دِثارهم ، شيخٌ وابنتُهُ وزوجُ ابنته .

٢٥٨ - العلامة المرداوي صاحب كتاب « الإنصاف » الحنبلي ؛ الشيخ الإمام العلّامة شيخ الحنابلة علي بن سليمان بن أحمد المرداوي السّعدي :

قال عنه « العليمي » في « طبقات الحنابلة » : « شيخ الإسلام على

---

(١) الفوائد البهيّة للكنوي ص١٥٨ .

الإطلاق ، ومحرِّر العلوم بالاتّفاق ، فقيه عصرنا وعُمدته : علاء الدين أبو الحسن ، ذو الدين الشامخ والعلم الراسخ ، صاحب التصانيف الفائقة .

خرج من بلده « مردا » ، وأقام بالخليل بزاوية الشيخ عمر المجرد ، وقرأ بها القرآن ، ثم قدم إلى دمشق ونزل بمدرسة شيخ الإسلام أبي عمر بالصالحية ، واشتغل بالعلم فلاحظتْه العناية الرَّبّانيَّة ، واجتمع بالمشايخ ، وجدّ في الاشتغال ، وتفقّه على الشيخ تقي الدين بن قندس البعلي شيخ الإسلام في وقته ، فبرع وفضل في فنونٍ من العلوم ، وانتهت إليه رئاسة المذهب ، ثم فُتح عليه في التصنيف ، فصنّف كتبًا كثيرة في أنواع العلوم جليلة مفيدة ، أعظمها « الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف » أربعة مجلدات ، جعَلَهُ على المُقنع ، وهو من كتب الإسلام ؛ فإنه سلك فيه مسلكًا لم يُسبق إليه ، بيّن فيه الصحيح من المذهب وأطال فيه الكلام ، وذكَر في كل مسألة ما نقل فيها من الكتب وكلام الأصحاب ، فهو دليل على تبحُّر مصنِّفه ، وسعة علمه وقوة فهمه ، وكثرة اطّلاعه ، ولما فرغ من تصنيفه سنة ٨٦٧ توجّه به إلى القاهرة في أيام قاضي القضاة عز الدين الكناني وعرضه عليه ، فأثنى عليه ، وأمر جماعة الحنابلة بمصر بكتابته ونشْره في الديار المصرية .

وله تصحيح كتاب الفروع للعلّامة ابن مفلح ، وشرح الآداب ، وغير ذلك من الكتب المفيدة ، وانتفع الناس بمصنفاته ، وانتشرت في حياته ، وبعد وفاته بحُسن نيته وإخلاصه ، وقصْده الجميل ، وصار قوله حجة في المذهب ، يُعمل به ويُعوّل عليه في الفتوى والأحكام في جميع مملكة الإسلام ... ومحاسنه أكثر من أن تُحصر ، وأشهر من أن تُذكر ، وهو أعظم من أن ينبّه مثلي على فضله » .

٢٥٩ - أبو القاسم العبدوسي ، حافِظ المغرب في وقته :

قال الشيخ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن مرزوق التلمساني المالكي ،

الشهير بالخطيب ، الإمام الفقيه المسند الرّحّال المتوفى بالقاهرة سنة ٧٨١ رحمه الله تعالى يقول : « إن الله أجرى سُنّته في علماء الإسلام أن يُبارك لأحدهم في قراءته ، والآخر في إلقائه وتفهيمه ، والآخر في نسخه وجمْعه – أي للكتب – والآخر في عبادته ، وسيدي أبو القاسم العبدوسي حافظ المغرب في وقته وإمام الدنيا – الفاسي نزيل تونس – ممّن جمع اللهُ له ذلك كلَّه ، وبارك له في قراءته ، وإلقائه ، ونسخه ، وجمْعه ، وعبادته .

قرأ أبو القاسم صحيح البخاري في نهارِ يومٍ واحد ، وإنه ممن فُتح عليه في حفظ البخاري والقيام عليه نسخًا وفهمًا وقراءةً ، وإنه نسخ منه ثماني نُسَخٍ أو أكثر ، أكثرها في سِفْر واحد ، ونسخ من صحيح مسلم ؛ تسْع نسخٍ ، ونَسَخَ غيرَهما من كتب الحديث والفقه ما لا يأتي عليه العدُّ »[1] .

لله درّ القائل :

لَمَحْبرةٌ تُجالسني نهاري ... أحبُّ إليَّ من أُنسِ الصَّدِيق
ورِزْمَةُ كاغَدٍ في البيتِ عندي ... أحبُّ إليّ من عِدْلِ الدَّقيقِ
ولطمةُ عالمٍ في الخَدِّ مني ... ألَذُّ لَدَيَّ من شُربِ الرَّحيقِ

والقائل :

واعلمْ بأن العلْمَ أرفعُ رُتْبَةٍ ... وأجلُّ مُكْتَسَبٍ وأسْنَى مفخرِ
فاسلُكْ سبيلَ المُقتنين له تَسُدْ ... إن السِّيادةَ تُقْتنى بالدَّفترِ
والعالمُ المدعوُّ حَبْرًا إنما ... سمّاه باسم الحبرِ حَمْلُ المحبرِ
وبضُمَّرِ الأقلامِ يبلُغ أهلُها ... ما ليس يُبْلغ بالجِيَاد الضُّمَّرِ[2]

(١) « فهرس الفهارس والأثبات » للشيخ عبد الحي الكتاني ٢/١٠٤٤ .
(٢) جامع بيان العلم وفضله ٢/٢٠٤ دار الكتب العلمية .

٢٦٠ - ابن سيدَه صاحب كتاب « المُخصَّص » في اللغة :

ألّف ابنُ سيده المخصص وهو ضرير ، سلبتْه الأيام أكرم حواسّه ، وأنْفَس ما يحتاج إليه العلماء الباحثون ، ولم يمنعْه العمى القهّار أن يُخرج للناس كتبًا جليلة ، منها المخصّص في سبعة عشر جزءًا ، في كل جزءٍ قرابة ثلاثمائة صفحة ، بها من أصول اللغة وخصائصها ، ونواحي اتصالها بالحياة ، ما جعله قِبلةَ اللُّغويين ومفزعهم .

أفبعد هذا علوّ همّةٍ وشرف مقصدٍ لمعارجِ قمّةٍ !

٢٦١ - الإمام الشوكاني ، القاضي محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني صاحب نيل الأوطار :

« كان والده قاضي صنعاء فربّاه على عينه . نشأ بصنعاء ، فقرأ القرآن ، وجوّده على جماعة من مشايخ القُرّاء بصنعاء ، وفي أثناء ذلك حفظ عدة مختصرات : في الفقه ، والنحو والعروض ، وآداب البحث وعلوم اللغة ، وطالع عدّة كتبٍ من كتب التاريخ والأدب ، ثم شرع في طلب العلم ، فدرس على والده وعلى البارزين من العلماء في عصره في مختلف العلوم ؛ الدينية واللسانية والعقلية والرياضية والفَلَكِيّة ، وظلّ - كما يقول - يأخذ عن شيوخه ، حتى استوفى كلَّ ما عندهم من كتب ، بل زاد في قراءاته الخاصّة على ما ليس عندهم . وكان طلبه للعلم في صنعاء نفسها ، لم يرحل عنها على عادة طلاب العلم ؛ لعدم إذن أبويْه له في الرحلة ، فكان عند إذنهما .

وكان في أثناء دراسته يُلقي ما يأخذه عن مشايخه إلى تلاميذه الذين اجتمعوا عليه ، وهو لا يزال في دور الطَّلَب الأوّل ، ولذلك كانت دروسه تبلُغ في اليوم والليلة ثلاثة عشر درسًا ، منها ما يأخذه عن أساتذته ، ومنها ما يُلقيه على تلاميذه .

ثم تفرّغ لإفادة طُلّاب العلم ، فكانوا يأخذون عنه في كل يوم زيادةً على عشرة دروس – كما قال – في فنونٍ متعدّدة ؛ كالتفسير والحديث والأصول والمعاني والبيان والمنطق ، وتقدّم للإفتاء وهو في نحو العشرين من عمره ، وكانت ترد عليه الفتاوى من خارج صنعاء ، وشيوخه إذ ذاك أحياء ، وكاد الإفتاء يدور عليه وحده ، وهو في هذه السن .

وفي الجملة فقد درس دراسة واسعة ، واطلع اطّلاعا يندُر أن يُحيط به غيره ، فليس من المستطاع سرْد ما درسه من كتب ، أو استجازَهُ من مَراجع ، ومن يرجع إلى كتابه مثلًا (إتحاف الأكابر بإمساك الدفاتر) يُدرك ما كان عليه الرجل من تنوُّع في الثقافة واتِّساعٍ فيها . وقد برع في كل ذلك تقريبًا ، وصنّف ودرس فيه »[1] .

ولقد سرد الدكتور إبراهيم إبراهيم هلال من كتب الشوكاني المخطوطة والمطبوعة مائة وواحدًا وخمسين كتابًا . ولو لم يكن له إلّا « السَّيل الجرّار المتدفِّق على حدائق الأزهار » و « نيل الأوطار » ، لكفاه فخرًا وعلوّ مكانةٍ وبُعْدَ همّةٍ .

لله درّ القائل : « قلوب المغرمين بالمعرفة بالحقائق منابر الملائكة ، وقلوب المؤثرين للشهوات مقاعد للشياطين » .

يقول الشوكاني : « ينبغي لمن كان صادق الرغبة ، قويّ الفهم ثاقب النظر ، عزيز النفس شهْم الطّبْع ، عالي الهمَّة سامي الغريزة ، أن لا يرضى لنفسه بالدُّون ، ولا يقنع بما دون الغاية ، ولا يقعُد عن الجدِّ والاجتهاد ، المبلّغيْن له إلى أعلى ما يُراد ، وأرفع ما يُستفاد ، فإن النفوس الأبيّة ، والهمم

(١) من كلام الدكتور إبراهيم إبراهيم هلال في مقدمة كتابه « قطر الولي على حديث الولي » للشوكاني ص١٥ – ١٧ طبع دار الكتب الحديثة .

العليّة ، لا ترضى بدون الغاية في المطالب الدنيوية ؛ من جاهٍ أو مالٍ أو رئاسةٍ أو صناعةٍ أو حِرفةٍ ، حتى قال قائلهم :

إذا غامرتَ في شرفٍ مَرُوم فلا تقنعْ بما دُونَ النُّجومِ
فَطَعْمُ الموتِ في أمرٍ حقيرٍ كطعمِ الموتِ في أمرٍ عظيمِ

وقال آخر مشيرًا إلى هذا المعنى :

إذا لم تكُن مَلِكًا مُطاعًا فكن عبدًا لخالقه مُطِيعَا
وإن لم تملِكِ الدنيا جميعًا كما تَهواه فاتركْها جميعَا
هما شيئان من مُلْكٍ ونُسْكٍ يُنيلانِ الفتى شرفًا رفيعًا

وقال آخر :

فإمّا مكانًا يضربُ النَّجمُ دُونَهُ سُرادِقَهُ أو باكيًا لِحِمامِ

وقد ورد هذا المعنى كثيرًا في النظم والنثر ، وهو المطْلب الذي تنشط إليه الهمم الشريفة ، وتقبله النفوس العليّة . وإذا كان هذا شأنهم في الأمور الدنيوية التي هي سريعة الزوال قريبة الاضمحلال ، فكيف لا يكون ذلك من مطالب المتوجّهين إلى ما هو أشرف مطلبًا وأعلى مكسبًا ، وأرفع مرادًا ، وأجلّ خطرًا وأعظم قدْرًا ، وأعْوَد نفعًا وأتمُّ فائدةً !! وهي المطالب الدينية ، مع كوْن العلم أعلاها وأولاها بكلِّ فضيلةٍ ، وأجلّها وأكملها في حصول المقصود . فأكْرِمْ بنفسٍ تطلب غاية المطالب ، في أشرف المكاسب ، وأحْبِبْ برجُلٍ أراد من الفضائل ما لا تُدانيه فضيلة ، ولا تُساميه مَنْقَبَةٌ ، ولا تُقاربه مَكْرَمَة .

ولما كانت المطالب في هذا الشأن متفاوتة ، وتتباين المقاصد بتفاوت هِمَم الطالبين وأغراض القاصدين ، فقد ترتفع همَّة البعض من طلبة العلم ، فيقصد البلوغ إلى مرتبةٍ في الطَّلَب لعلم الشرع يكون مقدّمًا لها ، ويكون عند تحصيلها إمامًا مرجوعًا إليه ، مُستفادًا منه ، مأخوذًا بقوله ،

مدرسًا مُفيتًا مصنِّفًا ، فليس بعد ما يتصوّره أهل هذه الطبقة الأولى مُتصوَّر ، فإن نالوه على الوجه الذي تصوّروه ، فقد ظفروا من خير العاجلة والآجلة ، وشرف الدنيا والآخرة ، بما لا يظفر به إلّا من صنع صنيعهم ونال نيْلهم ، وبلغ مبالغهم ، وإن اخترمهم دونه مُخترِم ، وحال بينهم وبينه حائل ، فقد أعذروا ، وليس على من طَلَبَ جسيمًا ورام أمرًا عظيمًا - إنْ منعتْه عنه الموانع وصرفتْه عنه الصَّوارِف - مِن بأسٍ . وما أحسن ما قاله الشريف الرّضيّ الموسوي :

لا بُدّ أن أركبَها صعبةً ... وقّاحَةً تحت غُلامٍ وَقَّاحْ
أُجهدها أو تنثني بالرَّدَى ... دون الذي أمَّلتُ أو بالنَّجاحْ
إمّا فتًى نال المُنى فاشتفَى ... أو بطلٌ ذاق الرَّدَى فاستراحْ

وكنت في أيام الطّلب وعصر الشباب ، قد نظمتُ قصيدةً في هذا المعنى على هذا النّمط ، أذكُر منها الآن أبياتًا وهي :

قد أتعبَ السَّيْرُ رِحالي وقد ... آن لها بعدَ الوَحَى[1] أن تُراحْ
فما يهابُ العتبَ مَنْ فاز مِن ... غايـةِ أُمنيّته بالنَّجـاحْ
سعَى فلمَّا ظفِرتْ بالمُنى ... يمينُهُ ألقَى العصا واستراحْ

فيا أيها العالِم الصّعلوك ، قد ظفرتَ برتبةٍ أرفع من رُتَب الملوك ، ونلتَ من المعالي أعلاها ، ومن المناقب والفضائل أوْلاها بالشّرف وأُولاها . فإن كل المعالي الدنيوية - وإن تناهتْ - فليست باعتبار المعالي العلمية والشرف الحاصل بها في وِرْد ولا صَدْر ، فإنه يحصل للعالم أولًا - وبالذات - الفوز بالنعيم الأُخروي الدائم السَّرمدي ، الذي لا تعدل منه الدنيا بأسرها قيد شرط بل مقدار سوط . ويحصل له ثانيًا - وبالعرض - من شرف الدنيا ما يصغُر عنده كل شرف ، ويَتقاصَر دونه كلُّ مجد ، ويتضاءل

---

(١) الوحى : السير بعجلة .

لديه كلّ فخر . وإن من فهم مقدار ما في العلوم من العلوّ ، كان عند نفسه أعزّ قدرًا وأعلى محلًّا وأجلّ رتبةً من الملوك ، وإن كان متضايق المعيشة ، يركب نعليْه ويلبس طِمْرَيْه . وقلتُ في هذا المعنى من أبياتٍ :

قد كنتُ ذا طِمْرَيْن أمرحُ في العُلى مَرَحَ الأغَرِّ بجانب الميدانِ
ما كنتُ مضطَهَدًا فأطْلُب رِفعةً أو خاملًا فأرِيد شهرةَ شاني

فاحرص - أيها الطالب - على أن تكون من أهل الطبقة الأُولى ، فإنك إذا ترقّيتَ من البداية التّصوُّرية ، إلى العلّة الغائيّة ، التي هي أول الفِكر وآخر العمل ، كنتَ فرْدَ العالم ، وواحد الدهر ، وقريع الناس ، وفخر العصر ، ورئيس القرن ، وأيّ شرفٍ يُسامي شرفك ، أو فخر يُداني فخرك !! وأنت تأخذ دينك عن الله وعن رسوله ، لا تقلِّد في ذلك أحدًا ، ولا تقتدي بقول رجُلٍ ، ولا تقف عند رأيٍ ، ولا تخضع لغير الدليل ، ولا تعوِّل على غير النّقد . هذه والله رتبةٌ تسمو على السماء ، ومنزلة تتقاصر عندها النجوم . فكيف بك إذا كنت مع هذه المزية مرجعًا في دين الله ، ملْجأ لعباد الله ، مُترجِمًا لكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ ، يدوم لك الأجر ، ويستمرّ لك النفع ، ويعود لك الخير ، وأنت بين أطباق الثرى ، وفي عداد الموتى ، بعد مئين من السنين ، ولا يحول بينك وبين هذا المطلب الشريف ، ما تُنازِعك نفسُك إليه من مطالب الدنيا ، التي تروقها وتودّ الظّفر بها ، فإنها حاصلةٌ لك على الوجه الذي تحبّ ، والسبيل الذي تريد ، بعد تحصيلك لما أرشدتُك إليه من الرُّتبة العلمية ، وتكون - إذ ذاك - مخطوبًا لا خاطِبًا ، ومطلوبًا لا طالبًا . وعلى فَرْض أنها تُكدي عليك المطالب وتُعاند الأسباب ، فلست تعدمُ الكفافَ الذي لا بدّ لك منه ، فما رأينا عالمًا ولا متعلِّمًا مات جوعًا ، ولا أعوزه الحال[1] حتى انكشفت

---

(١) وجد على هامش المخطوطة ما نصّه : =

عورتُه عُرْيًا ، أو لم يجد مكنًّا يكنّه ، ومنزلًا يسكنه ، وليس الدنيا إلا هذه الأمور ، وما عداها فضلات مشغلةٌ للأحياء مهلكةٌ للأموات .

أنا إنْ عشتُ لستُ أعْدَمُ قُوتًا … وإذا متُّ لستُ أعدمُ قَبْـرًا

وعلى العاقل أن يعلم أنه لن يُصيبه إلا ما كتبه الله له ، ولا يعدوه ما قدّره له ، وأنه قد فرغ من أمر رزقه الذي فرضه الله له ، فلا القعود يصدّه ، ولا السّعي وإتعاب النفْس يُوجب الوصول إلى ما لم يأذن به الله . وهذا معلومٌ من الشرع ، قد توافقت عليه صرايحُ الكتاب والسنة ، وتطابقت عليه الشرائع ، وإذا كان الأمر هكذا ، فما أحقَّ هذا النوع العاقل من الحيوان ، الذي دارت رَحَى التكليف عليه ، ونيطت أسباب الخير والشر به ، أن يشتغل بطَلَب ما أمره الله بطلبه ، وتحصيل ما خلقه الله لتحصيله ، وهو الامتثال لما أمره به من طاعته ، والانتهاء عما نهاه عنه من معاصيه . وإن أعظم ما يريده الله منه ، ويقرّبه إليه ، ويفوز به عنده ، أن يشغل نفسه ، ويستغرق أوقاته في ظلب معرفة هذه الشريعة التي شرعها الله لعباده ، ويُنفق ساعاته في تحصيل هذا الأمر الذي جاءت به رسل الله إلى عباده ، ونزلت به ملائكته ؛ فإن جميع ما يريده الله من عباده عاجلًا وآجلًا ، وما وعدهم به من خير وشر ، قد صار في هذه الشريعة ، فأكرِمْ برجُلٍ تاقت نفسُه عن أن يكون عَبْدَ بطنِه ، إلى أن يكون عبدَ دِينِه ، حتى يناله على الوجه الأكمل ، ويعرفه على الوجه الذي أراده الله منه ، ويُرشد إليه من عباده من أراد له الرشاد ، ويهدي به من استحقّ الهداية ، فانظر - أعزَّك الله - كم الفرْق بين الرجُلَيْن ، وتأمّل قدْر مسافة التفاوت بين الأمرين . هذا يستغرق جميع أوقاته ، وينفق كل ساعاته في تحصيل طعامه وشرابه

= من نظم العلامة البدر الأمير في هذا المعنى :

ما مات والله جوعًا عالمٌ أبدًا … سلِ التواريخَ عنه والدَّوَاوِين

وملبسه ، وما لا بدّ منه ، قامَ أو قعدَ ، سعَى أو وقفَ ، وهذا يقابله بسعيٍ غير هذا السعي ، وعملٍ غير ذلك العمل ، فينفق ساعاته ويستغرق أوقاته في طلب ما جاء عن الله وعن رسوله ﷺ ، من التكاليف التي كلّف بها عباده ، وما أذن به من إبلاغه إليهم من أمور دنياهم وأُخراهم ؛ لينتفع بذلك ثم ينفع به من شاء الله من عباده ، ويبلّغ إليهم حُجَّة الله ويعرِّفهم شرائعه .

فلقد تعاظم الفرْق بين النوعين ، وتفاوت تفاوتًا يقصر التعبير عنه ، ويعجز البيان له ، إلا على وجه الإجمال ، بأن يقال : إن أحد النوعيْن قد التحق بالدوابّ ، والآخر بالملائكة ؛ لأن كل واحدٍ منهما قد سعى سعْيًا شابه من التحقَ به ، فإن الدابّة يستعملها مالكها في مصالحه ، ويقوم بطعامها وشرابها وما يحتاج إليه ، ومع هذا فمن نظر في الأمر بعين البصيرة ، وتأمّله حق التأمُّل ، وجد عيشَ مَنْ شَغَل نَفْسَه بالطاعة ، وفرَّغها للعلم ، ولم يلتفت إلى ما تدعو إليه الحاجة من أمر دنياه ، أرْفَه ، وحاله أقْوَم ، وسروره أتَمّ ، وتلك حكمة الله البالغة ، التي يتبيّن عندها أنه لن يعدو المرء ما قُدِّر له ، ولن يفوته ما كان يدركه ، وكما أن هذا المعنى الذي ذكرناه ثابتٌ في الشريعة ، مصرَّح به في غير موطنٍ منها ، قد أجراه الله على لسان الجبابرة من عباده وعُتاة أُمّته ، حتى قال الحجاج بن يوسف الثقفي في بعض خطبه ما معناه : أيُّها الناس ، إن الله كفانا أمر الرِّزق ، وأمَرنا بالعبادة ، فسعيْنا لما كُفيناه ، وتركْنا السَّعْيَ للذي أُمِرنا به ، فليتنا أُمرنا بطلب الرِّزق ، وكُفينا العبادة ؛ حتى نكون كما أراده الله منّا . هذا معنى كلامه ، لا لَفْظه . فلما بلغ كلامه هذا بعضَ السلف المعاصرين له ، قال : إن الله لا يُخرج الفاجر من هذه الدار وفي قلبه حِكمةٌ ينتفع بها العباد ، إلّا أخرجها منه ، وإنّ هذا مما أخرجَهُ من الحجاج ، فانظر هذا الجبار ، كيف لم يَخْفَ عليه هذا الأمر ، مع ما هو فيه من التجبر وسفْك الدماء وهتْك الحرم ، والتجرُّؤ على الله وعلى عباده وتعدِّي حدوده . فما أحقَّه

بأن لا يخفى على من هو أَلْيَنُ منه قلبًا ، وأقلّ منه ظُلمًا ، وأخف منه تجبرًا ، وأقْرَب منه مِن خيرٍ ، وأبْعَد منه من شرٍّ ، وإن مَن تصوّر هذا الأمر حقَّ التصوُّر ، وتعقَّله كما ينبغي ، انتفعَ به انتفاعًا عظيمًا ، ونال به من الفوائد جسيمًا ، والهداية بيد الهادي جل جلاله وتقدَّستْ أسماؤه .

وإن لحُسن النية وإخلاص العمل تأثيرًا عظيمًا في هذا المعنى ، فمن تعكّستْ عليه بعضُ أموره من طَلَبة العلم ، أو أكلف عليه مطالبه وتضايقت مقاصدُه ، فليعلم أنه بذنبه أُصيب ، وبعدم إخلاصه عُوقب ، أو أنه أُصيب بشيْءٍ من ذلك محنةً له وابتلاءً واختبارًا ، لينظر كيف صبره واحتماله ، ثم يفيض عليه بعد ذلك من خزائن الخير ومخازين العطايا ، في ما لم يكن بحسبان ، ولا يبلُغ إليه تصوُّرُه ، فليعضّ على العِلْم بناجذه ، ويشدّ عليه يده ، ويشرح به صدره ، فإنه لا محالة واصل إلى المنزل الذي ذكرنا ، نائلٌ للمرتبة التي بيّنّا ، وما أحسن ما حكاه بعضُ أهل العلم عن الحكيم أفلاطون ، فإنه قال : الفضائل مُرَّة الأوائل حُلوةُ العواقب ، والرذائل حلوة الأوائل مُرّة العواقب . وقد صدقَ ؛ فإن من شغلَ أوائل عمره وعنفوان شبابه بطلب الفضائل ، لا بد له أن يفطم نفسه عن بعض شهواتها ويحبسها عن الأمور التي يشتغل بها أترابه ومعارفه ، من الملاهي ومجالس الراحة وشهوات الشباب . فإذا انتهى إليه ما هم فيه من تلك اللّذّات والخلاعات ، وجدَ في نفسه - بحُكم الشباب ، وحداثةِ السّنّ ، وميل الطبع إلى ما هناك - مرارةً ، واحتاج إلى مجاهدةٍ يردّ جامِحَ طبعه ومتفلّت هواه ومتوثّب نشاطه ، لا يتمّ له إلا بإلجام شهوته بلجام الصبر ، ورباطها بمربط العفّة . وكيف لا يجد مرارة الحبْس للنفس من كان في زاويةٍ من زوايا المساجد ، ومقصورة من مقاصرِ المدارس ، لا ينظر إلا في دفتر ، ولا يتكلّم إلا في فنٍّ من الفنون ، ولا يتحدث إلّا إلى عالم أو متعلّم ، وأترابُه ومعارفه مِن قرابته وجيرانه وذوي سِنّه وأهل نشأته وبلده ، يتقلّبون في رافِهِ العيش ورائق

القصف . وإذا انضم لذلك الطالب ، إلى هذه المرارة الحاصلة له بعزْف النفس عن شهواتها ، مرارةٌ أُخرى هي إعواز الحال وضِيق المكسب وحقارة الدخل ، فإنه لا بدّ أن يجد من المرارة المتضاعفة ، ما يعظُم عنده موقعه ، لكنه يذهب عنه ذلك قليلًا قليلًا ، فأول عقدةٍ تنحلّ عنه من عُقَد هذه المرارة ، عند أن يتصوّر ما يؤول به الأمر وينتهي إليه حاله ، من الوصول إلى ما قد وصل إليه مَنْ يجده في عصره من العلماء ، ثم تنحلّ عنه العقدة الثانية بفهم المباحث وحفظ المسائل وإدراك الدقائق ، فإنه عند ذلك يجدِ من اللّذّة والحلاوة ، ما يذهب بكل مرارةٍ ، ثم إذا نال من المعارف حظًّا ، وأحرز منها نصيبا ، ودخل في عِداد أهل العلم ، كان متقلّبًا في اللّذّات النفسانية التي هي اللذات بالحقيقة ، ولا يعدم عند ذلك من اللذات الجسمانية ، ما هو أفضلَ وأحلى من اللذات التي يتقلّب فيها كلّ مَنْ كان مِن أترابه ، وهو إذا وازن بين نفسه الشريفة وبين فردٍ من معارفه الذين لم يشتغلوا بما اشتغل به ، اغْتبَطَ بنفسه غايةَ الاغتباط ، ووجد من السرور والحبور ما لا يُقادر قدْره . هذا باعتبار ما يجده من اللذة النفسانية عند أن يجد نفسه عالمةً ونفس معارفه جاهلةً . ويزداد ذلك بما يحصُل له من لوازم العلم ، من الجلالة والفخامة ، وبُعد الصيت وعظم الشهرة ، ونَبَالة الذِّكر ورِفعة المحلّ ، والرجوع إليه في مسائل الدِّين ، وتقديمه على غيره في مطالب الدنيا ، وخضوع مَن كان يُزري عليه ويستخفّ بمكانه من بني عصره ، فإذا جَمَعهم مجلس من مجالس الدنيا كانوا له بمنزلة الخَدَم ، وإن كان على غايةٍ من الإفلاس والعدم . ثم إذا تناهى حالُه وبلغ من الحظّ في العلم إلى مكانٍ عليٍّ ، انثال عليه الطَّلَبة للعلوم ، وأقبل إليه المستفتون في أمر الدين ، واحتاج إليه ملوك الدنيا فضلًا عن غيرهم ، فيكون عند هذا عيشُه حلوًا محضًا ، وعمره مغمورًا باللذات النفسانية والجسمانية ، ويرتفع أمره عن هذه الدرجة ارتفاعًا لا يُقادر قدره ، إذا

تصوّر ما له عند الله من عظيم المنزلة وعليّ الرتبة وعظيم الجزاء ، الذي هو المقصود أوّلًا وبالذات من علوم الدين .

وكنت في أوائل أيام طلبي للعلم في سن البلوغ أو بعدها بقليل ، تصوّرتُ ما ذكرتُه هنا ، فقلت :

سددتُ الأُذنَ عن داعي التَّصابي فلا داعٍ لديَّ ولا مُجيبُ
وأنفقتُ الشَّبيبَةَ غير وانٍ لمجدِ الشيب فليَهْنَ المشيبُ

وقلت أيضًا رامزًا إلى هذا المعنى :

وأُبدي رغبةً لنجودِ نَجْدٍ وشوقًا لانْتِشاقي منه رِيَحا
وما بِسِوَى العقيقِ أقام قلبي وأضحى بين أهليهِ طريحا

وأما كون الرذائل حلوة الأوائل مُرّة العواقب ؛ فصِدْق هذا غير خافٍ على ذي لبٍّ ، فإن مَنْ أرسل عنان شبابه في البطالات ، وحلّ رباط نفسه فأجراها في ميادين اللذات ، أدرك من اللذة الجسمانية من ذلك بحَسَب ما يتفق له منها ، ولا سيما إذا كان ذا مال وجمال ، ولكنها تنقضي عنه اللذة وتفارقه هذهَ الحلاوة ، إذا تكامل عقلُه ورجح فهمُه وقوي فكره ، فإنه لا يدري عند ذلك ما يدهمه من المرارات ، التي منها الندامة على ما اقترفه من معاصي الله ، ثم الحسرة على ما فوّته من العُمر في غير طائلٍ ، ثم على ما أنفقه من المال في غير حلّه ، ولم يفز من الجميع بشيء ولا ظفر من الكل بطائل . وتزداد حسرته وتتعاظم كربته إذا قاس نفسه بنَفْسِ مَن اشتغل بطلب المعالي من أترابه ، في مقتبل شبابه ، فإنه لا يزال عند موازنة ذاته بذاته ، وصفاته بصفاته ، في حسراتٍ متجدِّدة ، وزفراتٍ متصاعدة ، ولا سيما إذا كان بيته في العلم طويل الدعائم ، وسلفه من المتأهِّلين لتلك المعالي والمكارم ، فإنه حينئذٍ تذهب عنه سكرةُ البطالة ، وتنقشع عنه عماية الجهالة ، بكروبٍ طويلة ، وهموم ثقيلة ، وقد فاته ما

فات ، وحِيلَ بين العَيْر[١] والنَّزَوان، و (حالَ الجَرِيضُ[٢] دُونَ القَرِيض)، و (في الصَّيف ضَيَّعتِ اللَّبَن)[٣]. فانظر - أعزّك الله - أيّ الرجلين أَرْبَح صفقةً ، وأكثر فائدةً ، وأعظم عائدةً . فقد بيّن الصُّبح لذي عينين ، (وعند الصَّبَاح يَحْمَدُ القومُ السُّرى) »[٤].

رحم الله الشوكاني الإمام ، حيث يقول واصفًا المتعالمين : « لقد أهدت لنا هذه الأيام ما لم يكن لنا في حساب ، من زعانف هم سقط المتاع وفقعة القاع وأبناء الرِّعاع ، لابَسُوا طَلَبَة العلم بعض المُلابسة ، وشارَكُوهم بجامع الخلطة والعشرة في مثل النظر في مختصرات النحو ، حتى صاروا ممن يتمكّن من إعراب أواخر الكلم ، ثم طاحت بهم الطوائح ورمتْ بهم الروامي إلى أن سائر العلماء المتبحّرين - في علم الشرع وغيره من أهل العصر وغيرهم - فهم عند هؤلاء النَّوْكاء[٥] الرُّقَعاء لا يفهمون شيئًا ولا يعقلون ، فقبّح الله تلك الوجوه ، فإنها صارت عارًا وشنارًا على أهل العلم ... دنّسوا عرض العلم ، وجهّموا وجهه ، وأهانوا شرفه ... » .

قال - رحمه الله - مرغّبا في طلب العلم : « استكثِرْ من الفنون ما أردتَ ، وتبحَّرْ في الدّقائق ما استطعتَ ، وجاوب من خالَفَك وعذلك وشنّع

---

(١) العير : الحمار الأهلي أو الوحشي .
(٢) الجريض هو الريق ، وهذا المثل شهير ، معناه أنه حال الغمُّ والغصصُ دون الشِّعر والطَّرب .
(٣) زيادة يقتضيها المعنى . وأصل هذا المثل أن دختنوس بنت لقيط كانت امرأة لعمرو ابن عدس ، وكان شيخًا فابغضتْه ، فطلّقها ، وتزوّجها فتى جميل الوجه ، وأجدبت السنة ، فبعثت إلى عمرٍو تطلب منه حلوبةً ، فقال المثل المذكور .
(٤) من الأمثلة السايرة ، يُضرب للرجل يحتمل المشقة رجاء الراحة .
(٥) الحمقى .

عليك بقول القائل :

أتانـا أن سـهلًا ذمّ جهـلًا   علـومًا ليـس يعرفهنَّ سَـهْلُ
علومًا لو دَرَاها ما قَلاهـا   ولكنَّ الرِّضا بالجهل سهلٌ »

٢٦٢ - الشيخ محمد الأمين الشنقيطي ، صاحب « أضواء البيان »[١] :

الإمام القدوة محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي ، صاحب كتاب « أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن » . من خير مَنْ يُقتدى به من رجال القرن الرابع عشر في العلم والتُّقى والورع والزهد في الدنيا ، وبذل الجهد في نشر العلم ، والدأب الشديد قبل ذلك في تحصيله حتى فاق أقرانه في كل ذلك .

قال فيه الشيخ محمد بن إبراهيم مفتى الديار السعودية سابقًا - رحمه الله - : « مُلِىء علمًا من رأسه إلى أخمص قدميه » .

وقال عنه أيضًا : « آية في العلم والقرآن واللغة وأشعار العرب » .

وقال عنه الألباني : « من حيث جَمْعه لكثيرٍ من العلوم ، ما رأيتُ مثله » . وشبهه بابن تيمية .

وقال عنه الشيخ حمّاد الأنصاري : « وله حافِظَةٌ نادِرِيَّةٌ قويّة ، ويعتبر في وقته نادرًا ، ولم يكن له منافس في تفسير القرآن بأنواعه الأربعة : بالقرآن، والسنة، وأقوال السلف، واللغة العربية. وعنده في اللغة استحضار عديم النظير » .

حفظ القرآن في بيت أخواله وعمره عشر سنوات ، وتعلّم رسم المصحف العثماني عن ابن خاله محمد بن أحمد بن محمد المختار ، وقرأ عليه التجويد في مقرأ نافع برواية ورش ، وقالون من رواية أبي نشيط ، وعمره

(١) كل ما يأتي في هذه الترجمة من كتاب « ترجمة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي صاحب أضواء البيان » للشيخ عبد الرحمن السديس . طبع دار الهجرة .

ست عشرة سنة . ودرس الأدب دراسةً واسعة على زوجة خاله ، وأخذ عنها مبادىء النحو كالأجرومية ، ودروسًا في أنساب العرب وأيامهم والسيرة النبوية ، ونظم الغزوات لأحمد البدوي الشنقيطي ، وهو يزيد على خمسمائة بيت ، وشروحه لابن أخت المؤلف المعروف بحمّاد . ونظم عمود النسب للمؤلف وهو يعدّ بالآلاف ، وشرحه لابن أخته المذكور على خصوص العدنانيين .

وقد صور الشيخ شدَّة انشغاله في شأن طَلَب العلم في شبابه ، بقوله رحمه الله : « ومما قلت في شأن طلب العلم ، وقد كنت في أُخريات زمني في الاشتغال بطلب العلم دائم الاشتغال به عن التزويج ؛ لأنه ربما عاق عنه ، وكان إذ ذاك بعض البنات ممن يصلح لمثلي يرغب في زواجي ويطمع فيه ، فلمّا طال اشتغالي بطلب العلم عن ذلك المنوال ، أيِسَتْ مني ، فتزوّجتْ ببعض الأغنياء ، فقال لي بعض الأصدقاء : إنْ لم تتزوج الآن مَنْ تصلحُ لك ؛ تزوّجتْ عنك ذواتُ الحسب والجمال ، ولم تجد من يصلح لمثلك . يريد أن يُعجلني عن طلب العلم ، فقلت في ذلك هذه الأبيات :

دَعَاني النَّاصحون إلى النِّكاحِ غداةَ تَزَوَّجَتْ بِيضُ المِلاحِ
فقالوا لي تزوَّجْ ذاتَ دَلٍّ خَلُوبَ اللَّحْظِ جَائِلَةَ الوِشاحِ
ضَحُوكًا عن مُؤشَّرةٍ رِقاقٍ تَمُجُّ الرَّاحَ بالماءِ القَراحِ
كأن لِحَاظَها رَشَقَاتُ نَبْلٍ تُذِيقُ القلبَ آلامَ الجراحِ
ولا عجَبٌ إذا كانتْ لِحاظٌ لِبَيْضاءِ المحاجِرِ كالرِّماحِ
فكم قَتَلَتْ كَمِيًّا ذا دلاصٍ ضعيفاتُ الجُفُونِ بلا سِلاحِ
فقلتُ لهم دَعُوني إن قلبي من الغَيِّ الصُّراحِ اليومَ صاحِ
ولي شُغْلٌ بأبكارٍ عَذَارَى كأنَّ وُجُوهَها غُرَرُ الصَّباحِ
أراها في المهارِقِ لابِساتٍ بَراقِعَ من معانيها الصِّحاحِ
أبيتُ مفكِّرًا فيها فتُضْحِي لِفَهْمِ الفَدْمِ خافِضةَ الجَنَاحِ

أَبَحْتُ حَرِيمَهَا جَبْرًا عليها وما كان الحريمُ بمُسْتباحِ

يقول الشيخ عن بدء طلبه للعلم : « قدمتُ على بعض المشايخ لأدرس عليه ، ولم يكن يعرفني مِنْ قبل ، فسأل عني : مَنْ أكون ؟ في ملأ من تلامذته ، فقلتُ مرتجلاً :

هذا فتًى من بني جاكانَ قدْ نَزَلا به الصِّبَا عن لسانِ العُرْب قد عَدَلَا
رَمَتْ به هِمَّةٌ علياءُ نَحْوَكُمُ إذ شَامَ بَرْقَ علومٍ نورُهُ اشتَعَلَا
فجاءَ يرجو رُكامًا من سَحائِبه تكسو لسانَ الفتى أزهارُهُ حُلَلَا
إذ ضاقَ ذَرْعًا بجهلِ النَّحوِ ثُمَّ أبي أَلَّا يُميِّزَ شكْلَ العينِ مِنْ فَعَلَا
وقد أتى اليومَ صَبًّا مُولَعًا كَلِفًا بِـ « الحمدُ للهِ » لا أبغي به بَدَلَا

يريد دراسة « لامية الأفعال » .

وقد مضى - رحمه الله - في طلب العلم قُدُمًا ، وقد ألزمه بعض مشايخه بالقران ؛ أي أن يَقْرن بين كلِّ فنَّين ، حرصًا على سرعة تحصيله ، وتفرُّسًا له في القدرة على ذلك ، فانصرف بهمة عالية في درسٍ وتحصيل .

صنَّف - رحمه الله - في بلاده قبل مجيئه إلى الديار السعودية :

١ - نظم في أنساب العرب .

ألّفه قبل البلوغ ، يقول في أوّله :

سَمَّيْتُهُ بخالِصِ الجُمانِ في ذِكْرِ أنسابِ بني عَدْنانِ

وبعد البلوغ دَفَنَه ، قال : « لأنه كان على نيّة التّفوُّق على الأقران » . وقد لامه مشايخه على دفنه ، وقالوا : كان من الممكن تحويل النيّة وتحسينها .

٢ - رَجَز في فروع مذهب مالك .

يختصّ بالعقود من البيوع والرهون ، وهو آلاف متعدّدة ، قال في

أوّله :

الحمدُ لله الذي قـد نـدَبا لأنْ نَميزَ البَيْعَ عن لَبْسِ الرِّبَا

٣ - نظم في الفرائض .

٤ - ألفيّة في المنطق .

مصنَّفاته بعد إقامته بالمدينة المنورة :

١ - منْع جواز المجاز في المنزّل للتعبُّد والإعجاز .

٢ - دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب .

وهذا الكتاب موضع إجلال وتقدير أهل العلم ؛ لما حواه من نفائس ودُرَر ونُكَت من مسائل العلم ، لا تكاد توجد مجموعةً في غيره .

٣ - مُذكّرة أصول الفقه ، على روضة الناظر لابن قدامة .

وهي مذكّرة قيِّمة لا يكاد يُغني غيرها عنها ، ولا سيّما في مواطن الترجيح والمباحث العقليّة . وقد استدرك الشيخ - رحمه الله - على ابن قدامة عَزْوه لمذهب مالك ما ليس منه .

٤ - رحلة الحج إلى البيت الحرام .

وهي رحلة علمية ، وحَصَر الشيخ في كتابه هذا خمسًا وأربعين مسألة أجاب عنها .

٥ - آداب البحث والمناظرة .

٦ - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن .

يقول الشيخ عطية محمد سالم تلميذ الشيخ الشنقيطي في « تتمّة أضواء البيان » ٨/٧٥ : « ينبغي أن يُعلم أن أضواء البيان ليس تفسيرًا شاملًا لجميع القرآن ، كما يظنه البعض ، ويتطلّب فيه تفسير كل ما أشكل عليه ، بل هو تفسير خاصّ على منهج مختصٍّ به ، وهو تفسير ما أُجمل من الآيات ، أيًّا كان سبب إجماله من حيث اللفظ أو المعنى ، وبيان هذا الإجمال من آيات أُخر ، سواء كان بالمنطوق أو المفهوم أو الفحوى ، أو بسُنَّةٍ ثابتة ، ثم استتباع

ذلك ببيان الأحكام التي تُؤخذ من هذه الآية ، فهو تفسير خاص وبمنهج مختصٍّ به .

وإن هذا المنهج الخاص الجديد في مسلكه ، لهو حقٌّ على كل من تحقّق فيه قول الشيخ رحمه الله ، حقٌّ على من توّفر حظُّه من العلم بكتاب الله ممّن كان مثله أو قريبًا منه .

وقد كان - رحمه الله - حريصًا كل الحرص على إتمامه ، ولكن وافته المنيّة قبل ذلك بعد أن أنجز مهامّه ومقاصده ، وذلّل صعابه ، وفتح أبوابه إلا اليسير اليسير منه ، وهو ما بعد سورة قد سمع .

ومن العسير جدًّا ، أو المتعذّر فعلًا ، أن يأتي أحد بمنهج الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، ولا سيّما مع ما أعطاه الله من سعة العلوم في عدّة فنون كالمتخصِّص في كل فنٍّ .

وقد اشتغل بتفسير القرآن على أوسع مجال في المملكة حوالي ثلاثين سنة تقريبًا ، وفسّر القرآن في المسجد النبوي وحده ثلاث مراتٍ تقريبًا ، وقد سمعتُه يقول : ما من آية في المصحف إلّا وعندي عنها ما قيل فيها . وقد ظهر ذلك جليًّا في أضواء البيان بحمد الله .

يقول الشيخ عبد الرحمن السديس : وأخبرني ابنُه عبد الله ، أنه كان يجلس في المجلس ، فيأتي الضيف ولا يشعر به ، حتى ينبّهه ابنُه إلى قدوم الضيف ، وذلك لانشغال فكره بتجميع شواهد آيةٍ من كتاب الله ، وذلك زمن تأليفه « أضواء البيان » . وأخبرني بنحو ذلك تلميذُه الشيخ أحمد بن أحمد الشنقيطي .

وحدثني ابنه عبد الله ؛ قال : حدثني أبي أنه كان يقرأ في البلاد زمان طلبه للعلم في « مختصر خليل » في أول كتاب النكاح ، حتى وصل إلى قول خليل : « في عشرة ندبه ولو ببيع سلطان لفلس » ، قال لي : أقرأنيها

شيخي بعد العصر ، وكانت دراسته جرديّة ، بحيث يقرأ كل ما قيل في الباب . قال : فأخذتُ شُرّاح خليل وحواشيه على هذه المسألة ، وجلستُ أُراجعها حتى جاء الليل ، ثم أوقدتُ النار أُطالع في ضوئها إلى الصبح ، ولم أَنَمْ ، ولم أُصَلِّ غير الفريضة ، فوجدتُ أن للشُّرّاح في قول خليل قولَيْن ، ولو كنت أبحث في الكتاب والسُّنّة ، لأتيتُ للأُمّة بالعَجَب .

يقول الشيخ عطية سالم في ترجمته للشيخ ص٣١ في تعليقه على قول الشيخ - رحمه الله - عن نفسه :

ولي شُغلٌ بأبكارٍ عَذارَى ... كأنّ وجوهَها ضوْءُ الصّباحِ
أبيتُ مُفكِّرًا فيها فتُضحي ... لفَهْمِ الفَدْمِ خافضةَ الجناحِ

ما نصُّه : « نعم ، إنه كان يبيت في طلب العلم مفكِّرًا أو باحثًا ، حتى يذلِّل الصّعاب، وقد طابق القول العمل ؛ حدثني - رحمه الله - قال : جئت للشيخ في قراءتي عليه ، فشرح لي كما كان يشرح ، ولكنّه لم يشفِ ما في نفسي على ما تعوّدتُ ، ولم يروِ لي ظمئي ، وقمتُ من عنده وأنا أجدني في حاجةٍ إلى إزالةِ بعضِ اللَّبْسِ ، وإيضاح بعضِ المشكل ، وكان الوقت ظُهرًا ، فأخذت الكتب والمراجع ، فطعالتُ حتى العصر ، فلم أفرغ من حاجتي ، فعاودتُ حتى المغرب ، فلم أَنْتَهِ أيضًا ، فأوقد لي خادمي أعوادًا من الحطب أقرأ على ضوئها ، كعادة الطُّلّاب ، وواصلتُ المطالعة ، وأتناول الشاهي الأخضر كلّما مللتُ أو كسلتُ ، والخادم بجواري يُوقد الضوء ، حتى انبثق الفجر وأنا في مجلسي ، لم أُقم إلا لصلاةِ فرضٍ أو تناولِ طعامٍ ، وإلى أن ارتفع النهار ، وقد فرغت من درسي ، وزال عني لبسي ، ووجدتُ هذا المحلّ من الدرس كغيره في الوضوح والفهم ، فتركتُ المطالعة ونمتُ ، وأوصيتُ أن لا يوقظني لدرس ذلك اليوم ؛ اكتفاءً بما حصلتُ عليه ، واستراحةً من عناء سهر البارحة . فقد بات مفكّرًا فيها ، فأضحت لفهم الفَدْم خافِضة الجناح » .

رحم الله الشنقيطي ، السائر على درب ابن تيمية ... والمتواضع .

« العلم ثلاثة أشبار ، من دخل في الشِّبر الأول تكبّر ، ومن دخل في الشبر الثاني تواضع ، ومن دخل في الشِّبر الثالث علم أنه ما يعلم » .

يقول : « ولو كنت أبحثُ في الكتاب والسُّنة لأتيت الأُمَّة بالعَجَب » .

مثل ما قال ابنُ تيمية في سجنه ، بعد قراءته للقرآن أكثر من ثمانين مرة : « قد فتح الله عليّ في هذه المرة من معاني القرآن ، ومن أصول العلم ، بأشياء كان كثير من العلماء يتمنّونها ، وندمتُ على تضييع أكثر أوقاتي في غير معاني القرآن » أو نحو هذا مع أن ما قاما به في الذَّبِّ عن كتاب الله والدعوة إليه وبه ، لا يقوم بمثله إلّا أقلّ القليل من أهل العلم والإيمان .

قال الشيخ الشنقيطي لولده الدكتور عبد الله عميد كلية القرآن بالمدينة : « نفعني الله بشيخٍ لي كان يقول لي : اعلم أن الفقهاء يقولون : إذا كان هناك ذكي ذكاءً لا يوجد مثله إلّا قليل ؛ تكون فروض الكفاية فَرْض عينٍ عليه ، فاتّق الله في الأُمَّة ، ففروض الكفاية فرض عينٍ عليك .

ونفعني الله بشعر محمد بن حنبل الشنقيطي :

لا تُسِءْ بالعِلْمِ ظَنًّا يا فَتَى ... إنَّ سوءَ الظَّنِّ بالعِلْمِ عَطَبْ
لا يُزَهِّدْكَ أخي في العلم أنْ ... غَمَرَ الجُهَّالُ أربابَ الأدَبْ
إنْ تَرَ العالِمَ نَضْوًا مُرْمِلًا ... صِفْرَ كَفٍّ لم يُساعِدْهُ سَبَبْ
وتَرَ الجاهلَ قَدْ حازَ الغِنَى ... مُحْرزَ المَأمُولِ من كُلِّ أَرَبْ
قد تجوعُ الأُسْدُ في آجامِها ... والذِّئابُ الغُبْسُ تَعتَامُ القَتَبْ
جَرِّعِ النَّفْسَ على تَحصيلِهِ ... مَضَضَ المُرَّيْنِ ذُلٍّ وسَغَبْ
لا يهابُ الشَّوْكَ قَطَّافُ الجَنَى ... وإبارَ النَّحْلِ مُشْتَارُ الضَّرَبْ »

وحدثني أيضًا أن الشيخ قال له : « حفظت شُرّاح خليل في مدةٍ من الزمن ، وبعد ستة شهور بدأ يضيع عليّ حفظي ، فاضطررت لنظمه خوفًا من الضياع » .

وقال لابنه عبد الله : « لا توجد آية في القرآن إلّا درستُها على حِدَةٍ » .

وحدثني الشيخ عطية أنه لما عرض عليه تفسيره لقوله تعالى : ﴿ **ما منعك ألّا تسجد إذ أمرتك** ﴾ [الأعراف : ١٢] مكتوبًا بعد أن أفرغه من الشريط المسجّل ، وكان الشيخ قد ألقاه في المسجد النبوي ارتجالًا ، وأعطاه الشيخ عطية الأوراق ليراجعها ، وسمع الشيخُ المكتوبَ بصوته ، قال : « لولا أني أسمع صوتي بأذني ، وأنت أتيتني بها مكتوبة ، ما صدّقت أن شخصًا يقول هذا ارتجالًا » . وذلك بعد حوالي سنة من إلقائه الدرس ، والذي تضمّن ردًّا على ابن حزم في إنكاره القياس ، وهو مطبوع الآن في ملحق بآخر « مذكرة أصول الفقه » في عشرين صفحة ، وسبقت الإشارة إليه .

يقول الشيخ : « إن الله يفتح على المرء ما لم يكن يتوقّع ، ثم إن المسجد يجمع عجائب من أجناس مختلفة ، ويكفيني واحد يحمل عني ما بلّغت مما عندي » .

وقال ابنه : « قال لي الشيخ محمد المختار بن أحمد فريد الشنقيطي : إذا سألت الشيخ عن شيء في اللغة ، فقال لك : لا أدري . فلا تبحث عنها في المعاجم ، لأنني جرّبت » .

ولو لم يكن للشيخ إلّا « أضواء البيان » هذا الكتاب الجليل العظيم ، لكفاه فخرًا مدى الزمان .

يقول محمد بن عبد الله بن أحمد الجكني الشنقيطي في رثاء الشيخ الشنقيطي - وصدق -:

بَكَتِ المثاني تَرْجُمَانَ بَيانِها ... حَامِيمُها تبكي عليهِ وصادُ
وكذا المعاني كالمثانِ ثَواكِلًا ... أُمَّاتُها تَبْكي وتبكي الضَّادُ
هذا البيانُ وهذه أضواؤهُ ... عَزَّتْ لغيرِ الشيخ لا تنقادُ
قل للذي يَرْتَاضُها لا تَحْسَبَنْ ... أَنَّ البيانَ صحيفةٌ ومِدادُ
جَهِلُوا ولا عَجَبٌ فتلك حقيقةٌ ... أَنَّ البيانَ بصيرةٌ وفؤادُ
يا مُبدعًا معنى البيان ومُبْدِيًا ... عَجَبًا ومن خُتِمَتْ به الأمجادُ
إنَّ المعانيَ بعد ما أَلَّفْتَها ... وتآلفتْ ليصيدَها المُصطادُ
يُخشَى بفقْدِك أن تعودَ شواردًا ... بَدَدًا فما يدْرُون كيفَ تُصادُ
يا شيخَنا بل يا ضياءَ قلوبنا ... كنتَ الحياةَ فشَقَّ منك بُعادُ
دَفَنَ الأمينَ أعِزَّةٌ لو أَنهم ... عَلِموا النفوسَ فِدَى الأمينِ لجادُوا

وقال الشيخ محمد بن مدين الشنقيطي في الشيخ الشنقيطي رحمه الله :

يُرَوّي البَرَايا من روايا عُلُومِه ... بنقْل صحيحٍ عن فُحولِ المذاهب
وتفسيرهِ مِنْ حِفْظِه كُلَّ آيةٍ ... بأُختٍ لها أَعْظِمْ بِهِ من مَواهِبِ
إذا رجفَ اليَمُّ الخِضَمُّ بمَنْزِعٍ ... من العلْمِ أَبْدَى فيه كُلَّ العجائبِ
عجيبٌ غريبٌ في البرايا وإنَّما ... غرائبُهُ في العلْمِ فوقَ الغرائبِ

ولله در الشيخ بكر أبو زيد تلميذ الشيخ الشنقيطي الذي قال فيه : « لو كان في هذا الزمن أحد يستحقّ أن يُسمّي شيخ الإسلام ، لكان هو » .

٢٦٣ - محدث العصر فضيلة الشيخ أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين الألباني :

« قال فيه الشيخ ابن باز : ما رأيت تحت أديم السماء عالمًا بالحديث مثل العلاّمة محمد ناصر الدين الألباني »[١].

(١) الألباني آثاره وثناء العلماء عليه . لمحمد بن إبراهيم الشيباني جـ١/٦٥ - ٦٦.

وقال فيه الشيخ محمد بن صالح بن عثيمين : « قلّ رجلٌ يكون مثله في هذا الزمان » . أي في الحديث .

« في عصر الفتن والغوايا وخساسة الهمم ، عصر الزهد في العلم ، والقصور في طلبه ، أن قيّض لها علمًا فذًّا من بقايا السلف ، بكّر في طلبه للعلم ودوَّنَهُ ، وصبر على تلقّيه صبرًا طويلًا ، وحرّض شباب الأُمّة على طلبه ، ودلّهم على مصادره ومظانّه . لقد ذبّ ناصر الدين عن السُّنّة - ستين عامًا - تحريف الغالين وانتحال المُبطلين ، حتى أصبح حديثُ رسول الله ﷺ والدفاع عنه جزءًا من حياته ودمه الذي يجري في عروقه ، فحورب كثيرًا من أقرانه ومن متعصِّبة زمانه فزُجّ في السجن مرتين بسبب العداوة والبغضاء .

وقد كان من نعم الله على الشيخ ناصر أثناء سجنه أن دعا المسجونين إلى ما كان يدعو إليه خارج السجن ، فاستجاب لدعوته خلْق كثير ، واستفاد من سجنه أنه ألّف فيه مختصره على صحيح مسلم بن الحجاج ، وهو غير اختصار مسلم للمنذري الذي حقّق أحاديثه الشيخ .

وحثّ الناس في السجن على صلاة الجماعة والجمعة ، وهذه أول مرة تقام صلاة الجمعة في القلعة من بعد سجْن ابن تيمية رحمه الله .

وكانت همته العالية ، وشغفه بالعلم لا تعرفان الحدود والقيود ، مثله مثل ابن الجوزي يقول عندما سجن : « غير أني قد استسلمت لتعذيبي ، ولعلّ تهذيبي في تعذيبي ، لأن علو الهمة يتطلّب المعالي المقرّبة إلى الحق عز وجلّ » . لله درُّهم .

علّمه والده القرآن والتجويد والصرف وفقه مذهبه الحنفي ، وتلقّى بعض العلوم الدينية والعربية على بعض الشيوخ من أصدقاء والده مثل الشيخ سعيد البرهاني إذ قرأ عليه كتاب « مراقي الفلاح » وبعض الكتب الحديثة

في علوم البلاغة ، وأخذ الشيخ إجازة في الحديث من الشيخ راغب الطبّاخ علّامة حلب في زمانه » .

توجّه الألباني إلى علم الحديث في نحو العشرين من عمره ، متأثرًا بأبحاث مجلة المنار التي كان يصدرها الشيخ محمد رشيد رضا ، ولقد كانت لكتابات الشيخ رشيد رضا أكبر الأثر في دفعه إلى دراسة الحديث الشريف .

يقول الشيخ الألباني - فيما يرويه عنه الشيخ محمد المجذوب في كتابه « علماء ومفكرون » -: « ذات يوم لاحظت بين الكتب المعروضة لدى أحد الباعة ، جزءًا من مجلة المنار ، فاطّلعتُ عليه ، ووقعت فيه على بحثٍ بقلم السيد رشيد رضا ، يصف فيه كتاب الإحياء للغزالي ويُشير إلى محاسنة ومآخذه . ولأول مرة أواجه مثل هذا النقد العلمي ، فاجتذبني ذلك إلى مطالعة الجزء كلِّه ، ثم أمضى لأُتابع موضوع تخريج الحافظ العراقي على الإحياء ، ورأيتني أسعى لاستئجاره لأني لا أُملك ثمنه ، من ثَمَّ أقبلت على قراءة الكتاب ، فاستهواني ذلك التخريج الدقيق حتى صمَّمتُ على نسخه ، وهكذا جهدتُ حتى استقامت لي طريقةٌ صالحة تساعد على تثبيت المعلومات ، وأحسب أن هذا المجهود الذي بذلته في دراستي تلك ، هو الذي شجعّني وحبّب إليَّ المضي في ذلك ، إذ وجدتُني أستعين بشتَّى المؤلفات اللُّغوية والبلاغة وغريب الحديث لتفُّهم النص إلى جانب تخريجه ». ويتابع الأستاذ المجذوب : « وقد أطلعني الشيخ على عمله في ذلك النَّسْخ ، فإذا أنا تلقاء أربعة أجزاء في ثلاثة مجلدات ، تبلغ صفحاتها ألفين واثنتي عشرة في نوعين مختلفين من الخطّ ، أحدهما عادي ، والثاني دقيق علّق به في الهوامش تفسيرًا أو استدراكًا . ولعمر الحق إنه لمجهود يعجز عنه أولو العزم من أهل العلم في هذه الأيام ، فكيف إذا أُضيف إلى

ذلك أن الشيخ لم يكن آنئذٍ قد تجاوز العشرين من العمر ، ولا جَرَم أن هذا الجهد الجبار في تأليف تلك المجلدات ، مع الاستعانة بكل وسائل التحقيق المتيسرة للفتى أيامئذٍ ، كان ذا أثر كبير في تمرُّسه بهذا الضرب من العمل العلمي ، فهو وإن كان لا يستحوذ على رضاة بصورة تامة ، قد شقّ له الطريق إلى تقدُّم أعلى في هذا المضمار .

ومن خلال هذه الحياة وتلك النشأة ، وهاتيك الملابسات ، يتراءى لي أن ثمة عواملُ خفيّة كانت دائبة على توجيه الفتى في ذلك الطريق ؛ لتجعل منه في النهاية واحدًا من كبار خَدَمَة السُّنّة المطهرة في ديار الشام » .

وحول هذه المؤثرات يقول الشيخ : إن نِعَم الله عليّ كثيرة لا أُحصي لها عَدًّا ، ولعلّ من أهمّها اثنتين : هجرة والدي من ألبانيا إلى الشام ، ثم تعليمه إيّاي مهنة في إصلاح الساعات . أما الأُولى فقد يسّرتْ لي تعلُّم العربية ، ولو ظللْنا في ألبانيا لما توّقعت أن أتعلَّم منها حرفًا ، ولا سبيل إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ إلَّا عن طريق العربية . وأمّا الثانية فقد قيَّضتْ لي فراغًا من الوقت أملؤه بطلب العلم الذي لا بدّ لطالبه من التفرغ .

يقول الشيخ – عندما سُئل عن الطريقة التي يوفّق بها بين تفرُّغه للعلم واشتغاله بتصليح الساعات وبيعها –: إنّ ذلك صحيح ، ومن توفيق الله تعالى وفضله عليّ أن وجّهني منذ أول شبابي إلى تعلُّم هذه المهنة ، ذلك لأنها حُرّة لا تتعارض مع جهودي في علم السُّنّة ، فقد أعطيتُ لها من وقتي كل يوم ، ما عدا الثلاثاء والجمعة ، ثلاث ساعات زمنية فقط ، وهذا القدر يمكنني من الحصول على القوت الضروري لي ولعيالي وأطفالي على طريقة الكفاف طبعًا ، فإن من دعائه عليه الصلاة والسلام : « اللهم اجعل رزق آل محمدٍ قُوتًا » . رواه الشيخان . وسائر الوقت أصرفه في سبيل

طلب العلم والتأليف ودراسته كتب الحديث ، وبخاصّة المخطوطات منها في المكتبة الظاهرية ، ولذلك فإنني ألازم هذه المكتبة ملازمة موظفيها لها . ويتراوح ما أقضيه من الوقت فيها ما بين ست ساعاتٍ إلى ثماني ساعاتٍ يوميًّا ، على اختلاف النظام الصيفي والشتوي في الدوام فيها .

وكان إذا جاء وقت صلاة الظهر أذّن وصلّى بالمسلمين في المكتبة ، وكذلك الأوقات الأُخرى كالمغرب والعشاء .

وكان والده - رحمه الله - يحذره قائلًا : « علْم الحديث صَنْعة المفاليس » . ورغم هذا فقد ازداد حب الفتى لحديث رسول الله ﷺ وتمييز صحيحه من ضعيفه .

وبما أنه كان يعيش في كنف والده الذي يعول أسرة كبيرة ، فلم يكن بمقدوره أن يشتري ما يحتاج إليه من الكتب التي لا يجدها في مكتبة أبيه العامرة بكتب المذهب الحنفي خاصة ، فلذلك يَّمم شطر المكتبة الظاهرية ، وكانت من نعم الله الكبرى عليه ، إذا كان يجد فيها ما لا يستطيع شراءه من الكتب ، كما كان يستعين أحيانًا ببعض المكتبات التجارية الخاصّة ، التي يعدّها الشيخ من التوفيقات الربانية بسبب ما تيسّر له من الاتصال بالسيد سليم القصيباتي وابنه عزت ، اللذيْن يملكان إحدى أكبر مكتبات دمشق ، وقد مكّنا الشيخ من كل كتابٍ يعوزه الاطّلاع عليه ، فيسمحان له باستعارته لزمنٍ غير محدود دون أجر ، حتى يأتيهما راغب في شراء الكتاب . فيبعثان إليه فيردّه إليهما ، وبذلك فسح لهذا النَّهم ، الذي لا يشبع من العلم ، أن يجد تحت تصرفه أعدادًا لا حصر لها من الأسفار التي هو في أمسّ الحاجة إليها .

ولعلّ الاهتمام بالحديث أصبح شغله الشاغل ، حتى كان يُغلق محلّه ويذهب إلى المكتبة الظاهرية ويبقى فيها اثنتي عشرة ساعة ، لا يفتر عن

المطالعة والتعليق والتحقيق ، إلا أثناء فترات الصلاة ، وكان يتناول طعامه البسيط في المكتبة في كثير من الأحيان فيها - ولعمري هكذا الأوائل من أهل الحديث - ولهذا قدّرتْه إدارة المكتبة ، فخصّصتْ له غرفةً خاصّة به ؛ ليقوم فيها مع بعض أُمّهات المصادر بأبحاثه العلمية المفيدة ، فكان يدخل قبل الموظفين صباحًا ، وفي بعض الأحيان كان من عادة الموظفين الانصراف إلى بيوتهم ظهرًا ثم لا يعودون ؛ ولكن الشيخ يبقى في المكتبة ما شاء الله له البقاء فربما يصلي العشاء ثم ينصرف . وإن كل من رآه في المكتبة - آنذاك - يعرف مدى اجتهاده وحرصه على الاستفادة من وقته ، حتى إن كثيرًا من الناس كانوا يحملون عليه لكثرة انهماكه في المطالعة والتأليف أثناء زيارتهم له في المكتبة ، وللشيخ عذره ؛ لأنه لا يريد إضاعة الوقت بالتّرحاب والمجاملة ، وكان يجيب عن بعض الأسئلة التي تُوجّه إليه وهو ينظر في الكتاب ، دون أن يرفع بصره إلى محدِّثه ، بأوجز عبارةٍ تؤدي إلى الغرض ، وكما يقول الأستاذ د . محمد الصبّاغ : عين في الكتاب وعين في السائل . وكان من ثمرة هذا الجهد تخريجه أحاديث البيوع في موسوعة الفقه الإسلامي ، وغيرها من المؤلفات ، وفهرس لمخطوطات الحديث في المكتبة الظاهرية . وكان الشيخ يستفيد من سفره إلى حلب كل شهر ، حيث يذهب إلى مكتبة الأوقاف الإسلامية الوحيدة العامرة بالمخطوطات هناك ؛ يقضي فيها الساعات الطويلة في دراسة مخطوطاتها ونَسْخ ما هو ضروري منها لمشروعاته العلمية ، وصنع الشيخ فهرسًا لمخطوطات الحديث في هذه المكتبة ، ومن الكتب التي نسخها من هذه المكتبة : كتاب « الزوائد » للبوصيري .

مجالسه العلمية :

وقد كان للشيخ برنامج أسبوعي يعقده ويحضره طلبة العلم وأساتذة الجامعات .

وقد درّس في هذه المجالس من الكتب العلمية ما يلي :

(١) الروضة الندية .
(٢) منهاج الإسلام في الحكم لمحمد أسد .
(٣) أصول الفقه لعبد الوهّاب خلاف .
(٤) مصطلح التاريخ لأسد رستم .
(٥) فقه السنة .
(٦) الحلال والحرام .
(٧) الترغيب والترهيب .
(٨) فتح المجيد .
(٩) الباعث الحثيث .
(١٠) رياض الصالحين .
(١١) الإلمام في أحاديث الأحكام لابن دقيق العيد .
(١٢) الأدب المفرد . وكان يدرّس على النساء ، وكان يختار منه ما صحّ من الحديث ويعلّق عليه .

وزاد الأستاذ محمد عيد عباسي أحدُ تلاميذ الشيخ :

(١٣) اقتضاء الصراط المستقيم .
(١٤)

واختير الشيخ أستاذًا لمادة الحديث بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ، فظلّ يدرِّس بها ثلاث سنواتٍ ، كان خلالها مثالًا للجدّ والإخلاص ، حتى أنه كان يجلس مع الطلاب على الرمل أثناء الاستراحات بين الدروس ، ويمرّ به بعض الأساتذة والطلاب حوله على الرمل فيقولون : هذا هو الدرس الحقيقي، وليس الذي خرجت منه أو الذي ستعود إليه. حتى وشى الواشون، وعُزِل الشيخ عن التدريس في الجامعة . وقد كان من حسناتِ الشيخ على الجامعة الإسلامية ، أنه أوّل من درّس علم الإسناد ، وهو بهذا أول معلِّم يقرِّر هذا العلم في جامعة في العالم . يقول الدكتور أمين المصري رئيس قسم الدراسات العليا للحديث في الجامعة الإسلامية لطلاب الجامعة : « نحن نستفيد من كتب الألباني ما نقدِّم بعضها لكم » . وقال مرةً : « من نَكد الدنيا أن يختار أمثالنا من حَمَلة الدكتوراة لتدريس مادة الحديث في الجامعة ، وهناك من هو أوْلى بذلك منّا ، مما لا نصلح أن نكون من تلامذته في هذا

العلم ، لكنها النظم والتقاليد » . وكان الدكتور أمين يعدّ نفسه من تلاميذ الشيخ .

ولكثـرة مؤلفات الشيخ العلمية الدقيقة ، صار الشـيخ مرجعًا في الحديث ، يأتيه العلماء والأساتذة وطلبة العلم ودكاترة الجامعات في الفقه والحديث ، يسألونه عن معضلات المسائل ، فيجيب عنها إجابة المتمكِّن الواثق مع ذكر المراجع والصفحات ، وفي كثير من الأحيان يذكر كتبًا لم يسمع بها الحاضرون ؛ لأنها لم تر النور بعد ، إنما هي دفائن خزانة المكتبة الظاهرية بدمشق التي هو أعرف الناس بذخائر مخطوطاتها وبالأخص الحديثية منها .

يقول محمد بن إبراهيم الشيباني في ترجمة الألباني : « الشيخ لم تسنح له الفرصة ليكتب قصة حياته بنفسه ؛ لانشغاله بطلب العلم والتَّنقُّل في فنونه ، وإلا لأصبحتْ قصته مؤثِّرةً حزينة مُبكية ، وقد قال لي يومًا : لو كان عندي فُسْحة من الوقت ، لكتبتُ ما لم تسمع به من القصص .

ومن شدة العنت والفقر الذي عاشه الشيخ ، أنه كان لا يملك قيمة ورقة يشتريها ليسوّدها بما منّ الله تعالى عليه من علْمٍ فيها ، فكان يطوف في الشوارع والأزقّة يبحث عن الأوراق الساقطة فيها من هنا وهناك ؛ ليكتب على ظهرها ، وذلك لأن وجه الورقة يكون عادة مكتوبًا فيه ، إمّا دعوة لافتتاح معرض ، أو حفلة زواج ، أو دعاية لمصنوعةٍ من المصنوعات وقد أطلعني الشيخ على بعض الكتب المخطوطة التي كُتبت بهذه الأوراق ، وأغلبها قد تقطَّعتْ أطرافُها وتساقطت ، وقال لي مرة : كنت أشتري الأوراق (سقط المتاع) بالوزن لرِخَصِه » .

يقول الألباني حفظه الله : « تحقيقًا مني للنُّصح لإخواني المسلمين ، صنّفت ولا أزال أُصنِّف من الكتب ، ما به يستعين القُرّاء على تمييز الصحيح

من الضعيف ، والطيب من الخبيث مما يدور على ألسنة الناس ، أو سُجّل في بطون الكتب من الحديث » .

قال ابن الجوزي : « البكاء ينبغي أن يكون على خساسة الهمم » .

فقد ضعفت الهمم وماتت الرغبة في استبحار كتب الحديث من ألفها إلى يائها .

أين طلاب العلم الذين يقفون على طُرق الحديث وتعدُّد رواياتها ! أين الذين يشغلهم معرفة المُتابَعَات والشواهد والطرق في كتب الحديث المسندة ؛ من صحاحٍ ، وسننٍ ، ومعاجم ، ومسانيد ، وأجزاء ، وفوائد ، ومشيخات . أين الذي يستخرج كنوزها ليطوِّق جِيد العلم بالنافع الماتِع من التخريجات الحديثية الرصينة ! صاروا أعزَّ من عَنْقاءُ مُغْرِب .

وقد كانوا إذا عُدُّوا قليلًا   فقد صاروا أعزَّ من القليلِ

رجال مؤمنون ونساء مؤمنات يحفظ الله بهم الأرض ، بواطنهم كظواهرهم ، بل أجلَى ، وسرائرهم كعلانيتهم ، بل أحلَى ، وهممهم عند الثريّا ، بل أعلى ، فالناس في غفلاتهم ... وهم مع الحديث في خلواتهم ، تحبُّهم بقاع الأرض ، وتفرح بهم أملاك السماء .

لا سبيل إلى سلوك طريقهم إلا بإدمان الطَّلَب ، وكثرة المذاكرة والسهر ، والتَّيقُّظ والفهم ، والتَّردُّد إلى مجالس العلماء ، وإلّا تفعل :

فدعْ عنك الكتابةَ لستَ منها   ولوْ سوَّدتَ وَجْهَك بالمدادِ

« فإن أنستَ يا هذا من نفسك فهْمًا ، وصِدقًا ودِينًا وورعًا ، وَإلَّا فلا تتعنَّ ، فعلم الحديث صلف ، فأين علم الحديث وأين أهله ؟! كدت أن لا أراهم إلَّا في كتاب أو تحت تراب »[1].

(١) تذكرة الحفاظ للذهبي «٤/١» .

يقول الشيخ سليم الهلالي - حفظه الله -: « ولكن أبى الله إلّا أن يُتمّ نوره ، فقيَّض لعلم الحديث رجلًا جدَّده ، وأوضح قواعده التي حبّرها علماء الحديث عمليًّا ، فهرع الباحثون إلى كُتُبه زرافاتٍ ، وتداعَوْا إليه رجالًا وركبانًا ، فبرقتْ في الأفق بُشرى ، وأُخرى نحبُّها ؛ أن يتولَّى المخلصون ترشيد هذه الصحوة العلمية ، ترشيد في التَّوجُّه والنَّوْعية ، وتجريد في العمل والنِّيَّة . والله المستعان .

هذا الرجل هو شيخنا محدِّث العصر - ولا فخر - العالم الربّاني أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين بن نوح نجاتي الألباني ، الذي سلخ بضعًا وخمسين عامًا في الاشتغال بعلم الحديث النبويّ وخدمة السُّنّة المطهرة ، دراسةً وتدريسًا وتأليفًا وتحقيقًا ، عملًا ودعوةً ، فرَسَخَ في رياض الفقه قدمُه ، وسبح في بحار التخريج قلمُه ، فأتى بتحقيقاتٍ جليلة خلتْ عنها الدفاتر ، وأشار إلى تدقيقاتٍ نقية لم تحوها كتب الأكابر ، شهد له بذلك شانئوه قَبْل مُحبيه ، ومخالفوه قبل مُوافِقيه ، ولذلك فإنني لست مُبالِغًا إذا قلت : إنه لا يستغني باحث في هذه الأيام عن الرجوع إلى آرائه في التضعيف والتصحيح ، فإنها مَحْض النُّصح النَّصيح ، ومخْض عن زبد الحق الصريح ، يُنقِّح فيها ما لا يستغني عن التنقيح ، ويرجِّح ما هو مفتقِرٌ إلى الترجيح ، ويوضِّح ما لا بدَّ فيه من التوضيح »[(١)] .

وقد ظهر من مؤلفات الشيخ سيل غامر فوّاح بأريج السنة ، ومن مؤلفاته:

(١) آداب الزفاف في السنة المطهرة .

(٢) الآيات البيِّنات في عدم سماع الأموات على مذهب الحنفية السادات . تحقيق .

---

(١) المعجم المفهرس لأطراف الأحاديث ١/١١ - ١٢ . طبع دار ابن الجوزي التي خرّجها الألباني لسليم الهلالي .

(٣) الأجوبة النافعة عن أسئلة لجنة مسجد الجامعة .

(٤) الاحتجاج بالقدر . تحقيق .

(٥) إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل .

وهو من أعظم كتب الألباني ، ولو لم يكن للألباني إلّا هذا الكتاب لكفاه ، وحسْبه أنه الكتاب الوحيد في تخريج أحاديث فقه الحنابلة .

(٦) إصلاح المساجد من البدع والعوائد للقاسمي . تحقيق .

(٧) اقتضاء العلم العمل . تحقيق .

(٨) الإيمان لابن تيمية . تحقيق .

(٩) الإيمان لابن أبي شيبة . تحقيق .

(١٠) الإيمان لأبي عبيد . تحقيق .

(١١) بداية السّول في تفضيل الرسول ﷺ . تحقيق .

(١٢) تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد .

(١٣) تخريج أحاديث مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام .

(١٤) تصحيح حديث إفطار الصائم قبل سفره بعد الفجر ، والرَّدّ على من ضعَّفه .

(١٥) أحكام الجنائز .

(١٦) تلخيص أحكام الجنائز .

(١٧) تمام المنّة في التعليق على فقه السنة .

(١٨) التَّنكيل لما ورد في تأنيب الكوثري من الأباطيل .

(١٩) التَّوسُّل أنواعه وأحكامه .

(٢٠) حجاب المرأة المسلمة .

(٢١) حجاب المرأة ولباسها في الصلاة .

(٢٢) حجة النبي ﷺ كما رواها عنه جابر رضي الله عنه .

(٢٣) الحديث حجة بنفسه في العقائد والأحكام .

(٢٤) حقوق النساء في الإسلام وحظّهنّ من الإصلاح المحمدي العام . تحقيق .
(٢٥) حقيقة الصيام . تحقيق .
(٢٦) خطبة الحاجة التي كان رسول الله ﷺ يعلمها لأصحابه .
(٢٧) دفاع عن الحديث النبوي والسيرة في الرد على جهالات الدكتور البوطي في كتابه « فقه السيرة » .
(٢٨) الرّدّ على التعقيب الحثيث .
(٢٩) رفع الأستار لإبطال أدلّة القائلين بفناء النار . تحقيق .
(٣٠) رياض الصالحين . تحقيق .
(٣١) سلسلة الأحاديث الصحيحة . وهي من أقْيَم ما كتب الشيخ .
(٣٢) سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيىء في الأُمَّة بارك الله في يمين الشيخ .
(٣٣) تحقيق شرح العقيدة الطحاوية .
(٣٤) صحيح ابن خزيمة . تحقيق .
(٣٥) صحيح الترغيب والترهيب .
(٣٦) صحيح الجامع الصغير وزيادته .
(٣٧) ضعيف الجامع الصغير وزيادته .
وهما من أجود ما كتب شيخنا .
(٣٨) صحيح الكلم الطيب .
(٣٩) صحيح سنن أبي داود .
(٤٠) ضعيف سنن أبي داود .
(٤١) صحيح سنن النسائي .
(٤٢) ضعيف سنن النسائي .
(٤٣) صحيح سنن الترمذي .

(٤٤) ضعيف سنن الترمذي .

(٤٥) صحيح سنن ابن ماجه .

(٤٦) ضعيف سنن ابن ماجه .

وغيرها من عشرات المؤلفات . ولو لم يكن للشيخ إلا ضعيف وصحيح السنن الأربعة ، لحُفِر اسمه بمدادٍ من نور على جبين تاريخ السُّنّة .

يقول الشيخ محمد المجذوب في مدح الشيخ ناصر الدين الألباني :

قالوا ألا كلمةٌ في الشيخ تُنْصفُه   فقد طغى الجورُ حتى في الموازينِ
شُنَّتْ عليه حروبٌ لا يُسوِّغها   عقلٌ يرى الحقَّ في ظِلِّ البراهينِ
فقلتُ فوقَ ثنائي ما يُبَلِّغُهُ   محدِّثُ الشّامِ عن خير النَّبيِّينِ
ورَدُّهُ الجيلَ للوَحْيِ الجليلِ يدٌ   ما إنْ يُكابِر فيها غيرُ مفتونِ
وحَسْبُهُ أنَّهُ هزَّ العقولَ وقَدْ   باتتْ مِن الحَجْرِ والتَّقليدِ في هُونِ
فأصبحتْ ذاتَ وعْيٍ ليسَ يُعجِزُهُ التَّـ   ـمْييزُ ما بين مفروضٍ ومسنونِ
والدِّينُ سِرٌّ من الرحمنِ بيَّنَهُ   رسولهُ وسِواهُ محضُ تخمينِ
والجامدون حيارَى ليسَ في يدهم   إلّا روايةُ مجروحٍ لمَوْهُونِ
فما عسى أن يقول الشِّعْرُ في رجلٍ   يدعوه حتى عِداهُ ناصرَ الدِّينِ
وأيُّ خيرٍ إذا فَرْدٌ تجاهَلَهُ   وقد فشا فَضْلُه بين الملايينِ[١]

٢٦٤ - فضيلة الشيخ أبو عبد الله عبد العزيز بن عبد الله بن عبد الرحمن ابن باز :

الممثَّل في شخصه الكريم مشيخة الإسلام في هذا العصر ، إمام أهل السنة في هذا العصر، المحدِّث الأثري، الفقيه النابغة، مُفتي الديار السعودية ، ومرجع المُستفتين من مختلف أنحاء العالم .

---

(١) علماء ومفكرون عرفتُهم لمحمد المجذوب جـ١/٢٩٩ - ٣٠٠ .

حفظ الشيخ القرآن عن ظهر قلبٍ قبل أن يبدأ مرحلة البلوغ .

وبحفظه لكتاب الله باشر انطلاقه في طلب العلم ، وجهاده فيه ، فما ينفكّ عالمًا ومتعلِّمًا ، وواعظًا ومذكِّرًا ، لا يكاد يجد في غير سبيله هذه متعةً ولا فائدةً . لم يحبس الشيخ وقته على أستاذٍ واحد ؛ بل اتصل بالعديد من المشايخ يتلقى عنهم العلم كلّ في حدود تخصُّصه .

ويعدِّد الشيخ من أساتذته الشيخ محمد بن عبد اللطيف بن عبد الرحمن ، والشيخ صالح بن عبد العزيز بن عبد الرحمن ، والشيخ محمد بن إبراهيم ابن عبد اللطيف . ويشيد الشيخ بمشايخه هؤلاء وآثارهم في تشجيعه على المثابرة في تحقيق الخير والعلم والتَّبحُّر في عقيدة السلف .

ومن مشايخه : الشيخ سعد بن حمد من آل عتيق ، والشيخ حمد ابن فارس ، والشيخ سعدو البخاري بمكة الذي أخذ عنه علم التجويد.

على أن أطول سِنِيِّه الدراسية تلك التي قضاها في التتلمُذ على سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ ، الذي استمر ملازمًا له نحو عشر سنوات .

وقد فقد الشيخ ابن باز البصر في التاسعة عشر من سِنِيِّه[1] .

واستمر الشيخ يطلب العلم بعد فقده لعينيه ، ولكن قلبه يزداد نورًا ، وعوّضه الله بذكاء في القلب . يقول أحد الشعراء :

رأيتُك أعمى العينِ صار ضياؤها ... بقلبِك حتى صرتَ فَجْرًا مُبَلَّجَا
فصار سوادُ العين في القلب فاقتدى ... يَنظمُ من نورِ الشريعة مَنْهَجَا

عوضه الله بصبرٍ على العلم ومثابرة وذكاء مفرط « فالشيخ حافظ العصر في علم الحديث ، فإذا سألته عن حديث من الكتب الستة ، أو من

---

(١) من ترجمة للشيخ من كتاب : علماء ومفكرون عرفتهم . لمحمد المجذوب . طبع دار الاعتصام .

عند غيرهم ، ففي الغالب تجده مذياعًا فصيحًا يستحضر الحديث سندًا ومتنًا ومن تكلّم فيه ، ورجاله وشرحه ، فأْتوني بأهل العيون المُبصرة يكونون كالشيخ في علمه وفقهه »[١].

يقول الشيخ عائض القرني في ترجمته للشيخ ابن باز : « وتستمر الحال بالشيخ ؛ فلا يفتر ليلًا ولا نهارًا ، يبحث عن العلم ويطلبه من مظانّه ، وفي حياته درسَ العلم على قلّة ذات اليد ومع الفقر ، ومع العمى ومع العَوَز ، إذا صدق المسلم في طلب العلم ، ونوى الفائدة .

قال الله تعالى : ﴿ **والذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سُبُلنا وإن الله لمع المحسنين** ﴾ [العنكبوت : ٦٩].

إذا سألتَ الله في كل ما أمَّلْتَه   جُزتَ البحارَ والفَلاحَ بهمَّة
تُخرج ماءُ الصفاءِ ما شابها   قولَ حاسدٍ أو مقولة بَاهتِ

والذي يودّ الحصول على العلم عليه أن يقرأ سيرة الشيخ ، فإن من السلف الصالح منْ هو أعلم من الشيخ بكثير ، لكن علينا أن ننظر إلى سيرة رجل حيٍّ بين أظهرنا يمثّل العلم في قمته ، وقد حصل له في حياته فقرٌ وعَوَز ، والكتب وقتها ليست متوفّرة ، والطباعة كانت ضعيفة ، ووسائل التَّنقُّل ما كانت بذاك ، والرجل أعمى ، ومع ذلك حصّل وحصّل ، ووصل إلى ما وصل إليه، فأين الشباب؟! فالعلم متوفر، والطباعة سهلة، والمجلدات كثيرة ، والجامعات مفتوحة والأساتذة كُثر ، والعلماء متوفِّرون ، وفي الثقافة غزارة ، فأين من يطلب العلم ؟!

خرج الإمام القفَّال - وقيل الإمام الشاشي - إلى أحد الأمصار لطلب العلم وعمره أربعون سنة .. لم لا نطلب العلم في الأربعين وفي الخمسين وفي

(١) الممتاز في مناقب الشيخ ابن باز لعائض القرني ص١٣ ، ١٤ دار الصميعي للنشر والتوزيع .

الستين ؟! فالإمام البخاري يقول في الصحيح ، في « كتاب العلم » : « وقد تعلّم أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام في الكِبَر » . فلم لا نتعلّم ولو كبارًا ؟! .

ذهب القفّال وعمره أربعون فقال: كيف أطلب العلم، ومتى أحفظ ، ومتى أفهم ، ومتى أُعلِّم الناس ؟! فرجع فمرّ بصاحب ساقيةٍ يسوق على البقر ، وكان الرِّشاء - هذا الحبل - يقطع الصخر من كثرة ما مرّ ، قال : أطلبُهُ وأتضجَّرُ من طلبه !!

اطلُبْ ولا تَضْجَرْ من مطلبٍ   فآفةُ الطّالِبِ أن يَضْجَرَا
أمَا تَرى الحَبْلَ بَطُولِ المَدَى   على صليبِ الصَّخْرِ قد أثَّرا

واستمرّ يطلب العلم ، وأصبح إمامًا من كبار الأئمة الشافعية ، ومِنْ جهابذة الدنيا .

إذ الطموح والهمّة العالية واستعذاب المنايا والمخاطرة بالنفس حتى تصل إلى المطلوب وإلى الهدف السامي »[١] .

« والشيخ ابن باز نَحْوِيٌّ يُجيد اللغة العربية الفصحى ويشرحها ويمليها على طلابه .

وله في الفرائض قَدَم ، وأمَّا في الحديث فهو محدِّث جِهْبِذ ، يعرف الرجال ، وتسأله في الرجال ، وقد سألته قبل ما يُقارب أربع سنوات عن الحجاج بن أرطاة ، قال : ضعيف ومدلّس . وغيره من الرجال ، وهو يحفظ مئات ، بل آلاف الرجال في ذهنه ، إذا سألته عن الرجل أخبرك عنه وما قيل فيه ، وهو مُغرم بعلم الرجال ، يُطالع كثيرًا في تهذيب التهذيب لابن حجر ، وهو كتابه المفضّل فيما أعلم ، وقال لبعض محبّيه : « رُبّما حفظتُ

(١) الممتاز في مناقب الشيخ ابن باز . لعائض القرني (١٧ - ٢٠) .

ثمانين في المائة من هذا الكتاب » . وفتح الباري ، وقد قرأه مراتٍ عديدة من وقت طلبه للعلم إلى الآن ، وهو الذي تولّى الإشراف على إخراجه وتحقيقه للناس ، بالاشتراك مع الفاضليْن محبّ الدين الخطيب ومحمد فؤاد عبد الباقي - رحمهما الله تعالى - والذي مكث فيه ابن حجر يؤلِّفه اثنين وثلاثين سنة ، وهو كتاب ، لو كان في العصر معجزة ، لكان هذا الكتاب » .

وللشيخ مشوار مع الفَجْر في تعليم طلبة العلم من بعد صلاة الفجر إلى طلوع الشمس ؛ يدرِّس الشيخ في كتاب « فتح الباري » ، و « فتاوى ابن تيمية » ، و « بلوغ المرام » ، و « الكتب الستة » و « شرح العقيدة الطحاوية »[١] ، و «تفسير ابن كثير» و «البداية والنهاية» و «جامع العلوم والحكم» ومجلس العشاء ، ما بين الأذان والإقامة من « رياض الصالحين »[٢].

يقول الشيخ محمد المجذوب في الشيخ ابن باز :

روى عنك أهلُ الفضلِ كلَّ فضيلةٍ ... فقلْنا حديثُ الحبِّ ضَرْبٌ من الوهْم
فلمّا تلاقيْنا وجدْناك فوق ما ... سمعْنا به في العِلْم والأدب الجمِّ
فلم نَرَ شيخًا قَبْلَ بازِنا ... يصيدُ فلم يُؤذِ المَصِيدَ بدَمِ

يقول عائض في مدح الشيخ ابن باز :

قاسمتُكَ الحُبَّ من ينبوعِهِ الصّافي ... فقمتُ أُنشدُ أشواقي وألطافي
لا أبتغي الأجر إلّا من كريم عطاء ... فهو الغفورُ لزلّاتي وإسرافي
عفوًا لك الله قد أحببتُ طَلْعَتَكم ... لأنّها ذكّرَتْني سِيَر أسلافي
يا دمعُ حَسْبُك بُخلًا لا تجودُ لمَنْ ... أجرى الدموع كمَثْلِ الوابِلِ السّافي

---

(١) الممتاز ص٤٤ ، ص٦٦ - ٦٧ .

(٢) ابن باز الداعية الإنسان . طبع مؤسسة عكاظ ص٤٩ - ٥١ .

يا شيخ يكفيك أن الناسَ قد شُغِلوا ... بالمُغرياتِ وأنتَ الثّابتُ الوافي
أغراهمُ المالُ والدنيا تجاذبُهمْ ... ما بين مُنْتَعِلٍ منهم ومن حافي
مجالسُ اللغو مَنْداهم وروحتُهم ... أَكْلُ اللحوم كأكْلِ الأَقْطِ في العافي
وأنت جالست أهْلَ العلم فانتظمتْ ... لكَ المعالي ولم تُولَعْ بإرجاف
بين الصحيحيْنِ تغدو في خمائِلِها ... كما غدا الطَّلُّ في إشراقها الضافي
يكفي مُحَيَّاك أن القَلْبَ يَعْمُرُهُ ... مِن حُبِّكم ولَدَيَّ أضعافُ أضعافِ
أراك كالضَّوء تجري في محاجِرِنا ... فلا تراك عيونُ الأَجْلَفِ الجافي
كالشَّدْو أشواقي وتأسرُها ... بنَغْمةِ الوحْي مِنْ طه ومِن قافِ
ما أنْصَفَتْك القوافي وهي عاجزةٌ ... وعُذْرُها أنها في عصر إنصافي[(١)]

لطيفة :

قال الشيخ جمال الدين القاسمي في كتابه « قواعد التحديث » ص٦٠ تحت عنوان « أيادي المحدثين البيضاء على الأُمَّة وشُكر مساعيهم » : « يقول جامعه الفقير : من أين للبليغ أن يُحصيَ أيادي المحدِّثين ، وهم الذين عَشقوا الهدي النبوي دون العالمين ، فتتبّعوه ممّنْ بدا وحضر ، وكابدوا لأخْذه أهوال السفر ، فكم جابوا صَحَارٍ تتلظّى تَلَظِي الرَّمضاء ، وقطعوا عن العمران فيافي تستدعي اليأس وتُروِّع الأحشاء ، فحفظوا ووعوْا ، ولِعَهْد النَّفر للتَّفقُّه في الدين رعوْا ، ودفعوا عن الدين صُنع الوضّاعين ، وانتحال المفترين ، وذُبَّ الكـذب عن كلام الرسول الصادق ، بما مهّدُوه من تحرِّي كل راوٍ موافِق ، فدونوا ما سمعوه بالسند فرارًا عن الرَّمْي باتّباع الأهواء ، وتحكيم الآراء ، فاستبرأوا لدينهم بجليل هذا الاحتياط ، ودرّبوا الأُمّة على التَّثبُّت في توثيق عُرى الارتباط . رحماك اللهمَّ ، فالاعتراف بمآثرهم الحسنة أمرٌ واجب ، وشُكر فضْلهم لا يُقصِّر عنه إلَّا مَن هو عن الاتِّباع ناكِب ،

(١) الممتاز في مناقب الشيخ ابن باز لعائض القرني ص٧٢ - ٧٤ .

أَفَليست دواوينهم - بعد القرآن - دعائم الإسلام التي قامت عليها صُرُوحه ، وأعضاد الدِّين التي بان منها صَرِيحُه ، لا جَرَمَ لولا أخْذهم بناصية ما دوَّنُوه من صحيح السُّنَّة ، لَانثالت على الناس جراثيم الأباطيل المستكنَّة ، التي رُزِىء بها الدِّين ، في عصر الوضّاعين المنافقين ، الذين دخلوا في دين الله للتشويش ، فردّ الله كيدهم بتنقيب المحدِّثين عن خُرافاتهم ودأبهم في التفتيش ، حتى أشرقت شموس صحاح الأخبار ، وانبعثتْ أشعتها في الأقطار ، وتمزّقتْ عن البصائر حُجُب الجهالة ، وأغشية الضلالة . فرحم الله تلك الأنْفُس ، التي نهضت لتأييد الدِّين ، ورضي عمَّن أحيا آثارهم من اللاحقين . آمين » .

* * *

فصــــل

دنــاءة الهمة في التزهيد في العلم أو طلب الفلسفة وعلم الكلام

مرّ بك أحوال السادة من وَرَثة العلْم النبوي وخُزّانه .

وعلى الطرف الآخر أرواح لم تُربِّها الرسل فما فلحت ولا صلُحت .

ومَنْ لا يُـرَبِّهِ الرسولُ ويَسْقِهِ لبانًا له قد درَّ من ثدي قُدْسِهِ
فذاك لقيطٌ ما له نسبةُ الوَلَا ولا يتعدَّى طورَ أبناءِ جِنْسِهِ

من صوفي صاحب ذوق يُزهِّد في العلمْ ويستغني عنه .. كقول من قال منهم : «نحن نأخذ عِلْمنا من الحي الذي لا يموت ، وأنتم تأخذونه من حي يموت».

وقولهم : « ما يصنع بالسَّماع من عبد الرزاق[1]، من يسمعُ من الخلّاق » .

وقولهم : العلم حجاب بين القلب وبين الله عزّ وجل .

وقولهم : لنا علم الخُرق ولكم علم الورق .

وقول الآخر « إذا رأيت الصوفي يشتغل بـ « أخبرنا » و « حدّثنا » فاغسل يدك منه .

لسان حالهم وبغية مناهم : المواجيد .

ويقول قلبي قال لي عن سره عن سرِّ سرّي عن صفا أحوالي
عن حضرتي عن فكرتي عن خَلْوتي عن شاهدي عن واردي عن حالي
عن صَفو وقتي عن حقيقة مشهدي عن سِرِّ ذاتي عن صفات فعالي
دَعْوى إذا حقَّقْتَها ألفيْتها ألقابَ زُور لُفِّقتْ بمُحالِ
تركوا الحقائق والشرائع واقتدوا بظواهر الجُهّال والضُّلالِ
جعلوا المِرَا فتحًا وألفاظ الخَنا شطْحًا وصالوا صولةَ الإدلالِ

---

(١) إمام حُفّاظ اليمن الذي أكرى الإمام أحمد نَفْسَه حمّالًا حتى يصل إليه .

ونحو هذا من الكلمات ، التي أحْسَنُ أقوالها : أن يكون جاهلًا يُعذَر بجهله ، أو شاطِحًا معترِفًا بشطحه ، وإلا فلولا عبد الرزاق وأمثاله ، ولولا « أخبرنا » و « حدثنا » ، لما وصل إلى هذا وأمثاله شيءٌ من الإسلام .

ومَنْ أحَالَكَ على غير « أخبرنا » و « حدثنا » ، فقد أحالك : إمّا على خيال صوفي ، أو قياس فلسفي ، أو رأي نفسي . فليس بعد القرآن و « أخبرنا » و « حدثنا » ، إلا شبهات المتكلِّمين ، وآراء المنحرفين ، وخيالات المتصوِّفين ، وقياس المتفلسفين ، ومن فارق الدليل ، ضلَّ عن سواء السبيل ، ولا دليل إلى الله والجنة سوى الكتاب والسُّنّة . وكل طريق لم يصحبها دليل القرآن والسنة ، فهي من طرق الجحيم ، والشيطان الرجيم[(١)].

وآخر مرادهم من العلم الفلسفة ، نبوّة الخاصَّة كما يقولون ، وقدّموا العقل على النقل ، وعارضوا نصوص الوحييْن ، وشهودُهم أرسطو وأفلاطون وفيثاغورس وابن سينا ، والفارابي وأبو الهذيل والعلّاف والنَّظَّام ، وأوقاح المعتزلة وأفراخ الصّابئين والمجوس .

أما الرسولُ ففيلسوفُ عوامِّهم ... والفيلسوف نبيُّ ذي البرهانِ
والحقُّ عندهمُ ففيما قالَهُ ... أتباعُ صاحبِ منطقِ اليونانِ
ومضى على هذي المقالة أُمَّةٌ ... خلفَ ابن سينا فاغتذَوْا بلَبَانِ
فاسأل بهم ذا خبرة تلقاهُمُ ... أعداءَ كلِّ موحِّدٍ رَبّاني
وانظر إلى أنهارِ كُفرٍ فُجِّرَتْ ... وتَهُمُّ لولا السيفُ بالجَرَيانِ

وانظر إلى فلاسفة الصوفية من الاتِّحادية وأصحاب وحدة الوجود .. الرعاع من أمثال : العفيف التلمساني ، والصدر القونوي ، وابن سبعين ، وابن عربي ، وابن الفارض وغيرهم .

---

(١) نقل بتصرف من مدارج السالكين ٢/٤٦٨ - ٤٦٩ ، إغاثة اللهفان ١/٢٣٢ .

يقول الشافعي : إنما فسد العرب لمَّا تركوا لسان الفطرة واتّبعوا لسان أرسطاليس .

من أنت يا رسْطُو ومن أفـلاطُ قَبْلَكَ يا مبلَّدْ
ومن ابن سينا حين قَـــرَّ ر ما هديت له وأرْشَدْ
هـل أنتـمُ إلّا الفَـرَا شُ وقـد رأى نـارًا تَـوَهَّجْ
فـدنا فأحـرق نَفْسَـه ولـو اهتـدى رُشْدًا لأبْعَدْ
فلتَخْسَأ الحكماءُ عن ربٍّ لـه الأفلاكُ تسجُدْ

أيُترك نور الكتاب والسُّنّة .. ونجري وراء سراب رجلٍ من يونان ، كان يعبد الأوثان ويجحد بالرحمن ، يضع بعقله قانونًا يصحح - بزَعْمِهِ - علوم الخلائق وعقولهم .. وما وُزن به علْمٌ إلّا أفسده . ومن العجب أن هؤلاء الأوقاح جعلوا نصوص الأنبياء من باب الظنون وهي من الوحي ، وجعلوا كلمات المنطقيين وقواعد الفلاسفة والجهمية من باب اليقين .

أوقاح فكّروا وقدّروا وظنّوا وخرصوا ، وتعبوا وما أغنَوْا ، ونَصِبوا وما أجدَوْا، وحاموا وما وردوا، ونسجوا فهلهبلوا، ومشطوا ففلفلوا[١]... سافروا في درك المطالب العالية على غير الطريق ، فما ربحوا إلا أذى السفر ، وبعثوا في البلاد بغير دليل ، فلم يقفوا للمطلوب على عينٍ ولا أثر .

رضُـوا بالدَّعاوَي وابتُلُـوا بخيالهـم وخاضوا بحار الفكر والقوم ما ابتلّوا
فهم في السُّرى لم يبرحوا من مكانهم وما ظَعَنُوا في السَّيْر عنه وقد كَلُّوا
لهم كلّ وقتٍ حيرةٌ بعد حيرةٍ وجهلٌ على جهلٍ فلا بُورك الجهلُ[٢]

(١) شعر مفلفل : إذا اشتدّتْ جعودته .
(٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطِّلة لابن قيم الجوزية تحقيق د . علي بن محمد الدخيل الله ٨١٨/٣ - ٨٢٠ . دار العاصمة .

وعلى أثرهم يمضي علماء الكلام ؛ لا للإسلام نصروا ، ولا للفلاسفة كسروا ، كما يقول أبو يوسف - لله درُّه -: « الجهل بعلم الكلام هو العلْم ، والعلم بالكلام هو الجهل ، وإن الرجل إذا صار رأسًا في الكلام تزندق » .

ولله درّ القائل : « أكثرُ الناس شكًّا عند الموت : أهلُ الكلام » .

وقول الخونجي : « أُشهِدكم أني أموت وما عرفتُ مسألة واحدة ، إلّا مسألة افتقار الممكن إلى واجب » . ثم قال : « والافتقار أمرٌ عدميٌّ ، فها أنذا أموت وما عرفتُ شيئًا » .

وقال ابن الجويني عند موته : « لقد خضتُ البحر الخِضَمّ وخلَّيتُ أهل الإسلام وعلومهم ، وما أدري على ماذا أموت ، أُشهدكم أني أموت على عقيدة أُمِّي » .

وقال الشهرستاني :

لعمْري لقد طُفتُ المعاهدَ كُلَّها ... وسيَّرتُ طرْفي بين تلك المعالمِ
فلم أرَ إلّا واضعًا كفَّ حائرٍ ... على ذَقنٍ أو قارعًا سِنَّ نادمِ

وقال الرازي في كتابه « أقسام اللّذّات » ص١٦٧ :

نهايةُ إقدامِ العقولِ عِقالُ ... وأكثرُ سَعْيِ العالمين ضلالُ
وأرواحنا في وحشةٍ من جُسُومِنا ... وحاصِلُ دنيانا أذًى ووَبالُ
ولم نَسْتَفِدْ مِنْ بَحْثِنا طُولَ عمرنا ... سوى أن جَمَعْنا فيه قِيل وقالوا
وكم من جبالٍ قد علتْ شُرُفاتِها ... رِجالٌ فماتوا والجبالُ جبالُ

لقد تأمّلتُ الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية ، فما رأيتُها تشفي عليلًا ، ولا تروي غليلًا ... ومن جرَّب مثل تجربتي ، عرف مثل معرفتي .

وهذا ابن أبي الحديد الذي خلط في كتبه بين آراء الفلاسفة والمتكلِّمين ، يضرب أقوال هؤلاء بهؤلاء وهؤلاء بهؤلاء ، ويجلس بينهما حائرًا يقول ويعترف أن المعقولات لم تُعطه إلّا حيرةً .

فيـك يـا أُغلوطـةَ الفكـر ضاع دهري وانقضى عُمْري
سافَرَتْ فيك العقولُ فما ربحـتْ إلّا أذى السَّفـرِ
قاتَـلَ الله الأُلـى زَعَمـوا أنَّـك المعروفُ بالنَّظَـرِ
كذبُـوا إن الذي ذكـروا خـارجٌ عـن قـوّةِ البشـرِ

وكذلك قال شمس الدين الخسرو شاهي - وكان من أجلّ تلامذة فخر الدين الرازي - لبعض الفضلاء ، وقد دخل عليه يومًا فقال : ما تعتقد ؟ قال : ما يعتقده المسلمون . فقال : وأنت منشرح الصدر لذلك مستيقنٌ به ؟ أو كما قال ، قال : نعم . فقال : اشكُر الله على هذه النعمة ، لكني والله ما أدري ما أعتقد ، والله ما أدري ما أعتقد ، والله ما أدري ما أعتقد . وبكى حتى أَخْضَلَ لحيته .

وقال محمد بن سالم بن واصل الحموي : أضطجع على فراشي ، وأضع الملحفة على وجهي ، وأُقابِل بين حُجج هؤلاء وهؤلاء حتى يطلع الفجر ، ولم يترجّح عندي منها شيء .

ولله درّ الشافعي حين يقول : حُكمي في أهل الكلام أن يُضربوا بالجريد والنِّعال ، ويُطاف بهم في القبائل والعشائر ، ويُقال : هذا جزاء من تَرَك الكتاب والسُّنّة وأقبل على الكلام .

وقال : لقد اطَّلعتُ من أهل الكلام على شيءٍ ما ظننتُ مسلمًا يقوله ، ولَأَن يُبتلى العبد بكل ما نهى الله عنه - ما خلا الشرك بالله - خيرٌ له من أن يُبتلى بالكلام[١] .

لقد وعّروا الطريق إلى العلم .. وأتوْا بالمنطق وهو لحم جملٍ غثّ لا رأس جبل وعر ، لا سَهْل فيُرتقى ، ولا سمين فيُنتقَل .

---

(١) انظر شرح الطحاوية ٢٣٨/١ - ٢٤٧ ، الصواعق المرسلة لابن القيم جـ٢ .

لولا التَّنافُس في الدنيا لما وُضِعتْ   كُتُبُ التَّناظُر لا المُغني ولا العُمَدُ[١]
يُحلِّلُون بزَعْمِهِم منهم عُقَدًا   وبالذي وضعوه زادتِ العُقَدُ

« فيا أرباب المعقولات ، ويا أهل الذاتي والعرضي ، وأهل المقولات العشر والكليّات الخمس، ويا أهل المختلطات والموجّهات، والقضايا المسوّرات والمهملات ، ويا أهل الشكل الأول والثاني والثالث والرابع ، وأصحاب القياس الحملي والشرطي ، وأهل العقول المقدمة بزعم أربابها على الوحي ، ويا من سار على دربكم من أفراخكم .. هل هذا ثمرة عقولكم وحاصل معقولكم ؟!

فعلى عقولكُمُ العَفاءُ فإنّكمْ   عاديتمُ المعقولَ والمنقولَا
وطلبتمُ أمرًا مُحالًا وهو إذْ   راكَ الهُدى لا تبتغون رسولَا
وزعمتمُ أنّ العقول كفيلةٌ   بالحقِّ أين العقلُ كان كفيلَا
وهْو الذي يقضي فيَنْقُض حُكْمَه   عقلٌ ترَوْن كليهما معقولَا
وتراه يجزِمُ بالقضاءِ وبعد ذا   يُلقي لديه باطلًا معلولَا
لا يستقلّ العقلُ دون هدايةٍ   بالوَحْي تأصيلًا ولا تفصيلَا
كالطَّرْفِ دون النورِ ليس بمُدْركٍ   حتى يراه بُكرةً وأصيلَا
وإذا الظلامُ تلاطمتْ أمواجُهُ   وطمعت بالإبصارِ كنتَ مُحِيلَا
فإذا النبوّة لم يَنَلْك ضياؤها   فالعقلُ لا يهديك قَطُّ سبيلَا
نورُ النُّبوّة مِثْلُ نورِ الشمسِ للـ   ـعَيْنِ البصيرةِ فاتَّخِذْه دليلَا
طرق الهُدى محدودةٌ إلَّا على   مَنْ أمَّ هذا الوحَي والتنزيلا
فإذا عدلتَ عن الطريق تعمُّدًا   فاعلَمْ بأنك ما أردتَ وُصُولَا
يا طالبًا دَرْكَ الهُدى بالعقلِ دو   ن النَّقْلِ لن تلقَى لذاك دليلَا

(١) المغني في علم الكلام . والعمد في الأصول وعلم الكلام . لشيخ المعتزلة القاضي عبد الجبار .

كم رامَ قبلك ذاك من متلـذِّذٍ حيران عاشَ مدى الزمان جَهُولَا
ما زالتِ الشُّبُهاتُ تغزو قَلْبَهُ حتى تَشَحَّطَ بينهـنَّ قتـيلَا
فتـراهُ بالكُلِّيِّ والجُزْئـيِّ والـــذَّاتي والعَرَضيِّ طُولَ زمانه مشغولَا
فإذا أتاه الوَحْيُ لم يأذَنْ له ويقـوم بين يـدَيْ عِـداهُ مثيلَا
ويقـول تلـك أدلّـةٌ لفظيـة معزولةٌ عن أن تكون دليلَا
وإذا تمرُّ عليه قال لها اذهبي نحو المجسِّم أو خُذي التّأويلَا
وإذا أبت إلّا النّزولَ عليه كا ن لها القِرَى التحريف والتبديلَا
فيحلُّ بالأعـداء ما تلقـاه من كيـدٍ يكون لحقِّها تعطيلَا
واضربْ لهم مثلًا بعميانٍ خلوا في ظُلمةٍ لا يهتدون سبيلَا
فتصادَمُوا بأكُفِّهم وعِصِيِّهـم ضربًا يُدير رحَا القتالِ طويلَا
حتى إذا ملُّوا القتال رأيتهمْ مشجوجًا او مَفْجُوجًا او مقتولَا
وتسامَعَ العميانُ حتى أقبلوا للصُّلح فازداد الصِّياحُ عويلَا »[١]

قال بعض المتكلمين : أفنيتُ عمري في الكلام أطلب الدليل ، وأنا لا أزداد إلَّا بُعدًا عن الدليل ، فرجعت إلى القرآن أتدبَّره وأتفكَّر فيه ، وإذا أنا بالدليل حقًّا معي وأنا لا أشعر به ، فقلت : واللهِ ما مثلي إلَّا كما قال القائل :

ومن العجائبِ والعجائبُ جَمَّةٌ قُرْبُ الحبيبِ وما إليه وصولُ
كالعِيسِ في البيداءِ يقتلها الظَّما والماءُ فوق ظهورها محمولُ

يقول ابن القيم :

واعَجَبًا لمنطـقِ اليونـانِ كَمْ فيه من إفْك ومن بُهتانِ
مُخَبِّطٌ لجيِّـد الأذهـانِ ومُفسِدٌ لفطرةِ الإنسـانِ
مضطربُ الأُصُولِ والمباني على شفا هارٍ بناهُ البـاني

(١) الصواعق المرسلة ٣/٩٧٧ - ٩٨١ .

أحوجُ ما كان إليه العاني   يخونُه في السِّرِّ والإعلانِ
يمشي به اللسانُ في الميدانِ   مشيَ مُقيَّدٍ على صَفوانِ
متّصِلُ العثارِ والتَّواني   كأنه السَّرابُ بالقيعانِ
بدا لعينِ الظَّميءِ الحَيرانِ   فأمَّهُ بالظَّنِّ والحسبانِ
يرجو شفاءَ غلَّةِ الظمآنِ   فلم يَجِدْ ثمَّ سوى الحرمانِ
فعاد بالخيبةِ والخسرانِ   يقرعُ سنَّ نادمٍ حيرانِ
قد ضاع منه العُمْرُ في الأماني   وعاينَ الخفَّةَ في الميزانِ

ومن كان من هوس بهذه المنزلة ، فهو بأن يكون جهلًا أَوْلَى منه بأن يكون علما .. فما دخل المنطق على علمٍ إلا أفسده وغيّر أوضاعَهُ وشوّش قواعده[1] .

وهذا آخر يقول :

وغايةُ ما حصّلتُهُ من مباحثي   ومن نظري من بعد طُولِ التَّدبُّرِ
هو الوقْفُ ما بين الطريقين حيرةً   فما عِلْمُ من لم يَلْقَ غيرَ التَّحيُّرِ
على أنني قد خضتُ منه غمارَهُ   ولم أرتضِ فيه بدون التَّبحُّرِ[2]

فيا من وجّهتم وجوهكم شطر بلاد اليونان .. هلُمّوا فهذه والله الطريق .. وهذه أعلام مكة والمدينة .. وهذه آثار القوم لم تنسخها الرياح ولم تُزكِّها الأهوية :

وكنت وصحبي في ظلامٍ من الدُّجَى   نسير على غير الطريق ولا ندري
وكُنّا حيارى في القِفارِ ولم يكن   دليلٌ لنا نرجو الخلاصَ من القَفْرِ
ظِماءٌ إلى وِرْدٍ تبُلُّ غليلَنا   وقد قطعَ الأعناقَ منّا لَظَى الحَرِّ

(١) مفتاح دار السعادة ، وعن الإفادة من مفتاح دار السعادة لسليم الهلالي ١/ ٢٦٣ - ٢٦٥ . طبع مكتبة الصحابة بجدَّة .
(٢) التحف في مذهب السلف للشوكاني ص٥٤ .

فما هو إلَّا أن تبدَّى لناظري سَنَا بارقٍ يبدو كخيطٍ من الفَجْرِ
فقلتُ لصَحْبي هل ترونَ الذي أرى فقالوا اتَّئدْ ذاك السرابُ الذي يجري
فخلَّفْتُهم خلفي وأقبلتُ نحوَهُ فأوردني عينَ الحياةِ لدى البحرِ
فناديتُ أصحابي فما سمعوا النِّدا ولو سمعوه ما استجابوا إلى الحشرِ(١)

وأقل ضررًا من هؤلاء المقلِّدة الذي يُغالون في التقليد ويلوون عنق الأدلَّة انتصارًا لمذاهبهم .. ولا يعرفون إلَّا آراء الرجال ، وعدلوا عن الدليل .

تريد تنامُ على ذي الشُّبَه وعَلَّك إن نمتَ لم تَنْتَبِهْ
فجاهدْ وقلِّدْ كتابَ الإلهِ لتلقى الإله إذا متَّ بِهْ
فقد قلَّدَ الناسُ رهبانَهُم وكلٌّ يُجادِل عن راهِبِهْ
وللحقِّ مُسْتَنْبِطٌ واحدٌ وكلٌّ يرى الحقَّ في مَذْهَبِهْ
ففيما أرى عَجَبٌ غير أنْ بيان التَّفرُّقِ من أعْجَبِهْ(٢)

ولله در ابن عبد البر حيث يقول :

لا فرقَ بين مقلِّدٍ وبهيمةٍ تنقادُ بين جنادِلٍ ودَعاثِرِ

يصل الأمر في التقليد والعكوف عليه « أنهم اختلفوا في حكم تزوُّج الحنفية بالشافعي ، فقال بعضهم : لا يصح ، لأنها تشكُّ في إيمانها . وقال آخرون : يصحّ ؛ قياسًا على الذِّمِّيَّة »(٣).

بل وحتى بين أبناء المذهب الواحد : « قال أبو بكر بن العربي : ولقد كان شيخنا أبو بكر الفهري يرفع يديه عند الركوع ، وعند رفع الرأس منه ،

(١) الصواعق المرسلة لابن القيم ٢/٦٦٨ - ٦٦٩ .
(٢) جامع بين العلم وفضله ٢/١١٤ .
(٣) فقه السنة للشيخ سيد سابق ١/١٠ . طبع الفتح للإعلام العربي - الطبعة العاشرة .

وهو مذهب مالك والشافعي ، وتفعله الشيعة . قال : فحضر عندي يومًا في محرس أبي الشعراء بالثغر موضع تدريسي عند صلاة الظهر ، ودخل المسجد من المحرس المذكور ، فتقدّم إلى الصف الأول ، وأنا في مؤخّره قاعد على طاقات البحر ، أتنسّم الريح من شدَّة الحرّ ، ومعي في صف واحدٍ أبو ثمنة رئيس البحر وقائده ، في نفرٍ من أصحابه ينتظر الصلاة ، ويتطلَّع على مراكب المنار ، فلمَّا رفع الشيخ الفهري يديه في الركوع وفي رفع الرأس منه ؛ قال أبو ثمنة وأصحابه : ألا ترون هذا المشرقي كيف دخل مسجدنا ؟! قوموا إليه فاقتلوه وارموا به في البحر فلا يراكم أحد . فطار قلبي من بين جوانحي ، وقلت : سبحان الله ! هذا الطرطوشي فقيه الوقت . فقالوا لي : ولِمَ يرفع يديه ؟! فقلت : كذلك كان النبي ﷺ يفعل ، وهو مذهب مالك في رواية أهل المدينة . وجعلت أُسكِّنهم وأُسكِّتهم ، حتى فرغ من صلاته ، وقمتُ معه إلى المسكن من المحرس ، ورأى تغيُّر وجهي فأنكره ، وسألني فأعلمتُه فضحك وقال : من أين لي أن أُقتل على سُنَّة ؟! فقلتُ له : ويحلُّ لك هذا ، فإنك بين قوم إن قُمتَ بها قاموا عليك ، وربما ذهب دمُك ؟! فقال : دَعْ هذا الكلام وخُذ في غيره »[(١)] .

فانظر أخي إلى دناءة الهمة إذا تعلَّقتْ بتزهيدٍ في العلم ، أو خيالٍ وذوقٍ وحالٍ صوفي ، وقياس فلسفيّ ، أو آراء منطقيٍّ من أهل الكلام ، أو مقلِّدٍ غالٍ في تقليده غبي .

أو دناءة همّة من يطلب غيرَ العلم .. ويزهد في تحصيله ، وقد هُيِّئتْ له سبل الراحة ، بل سبل الرفاهية في كل شأن من شئون العلم ، في أمكنة الدِّراسة المريحة ، ذات الأجواء المكيَّفة والأنوار الوضّاءة ، والهواء البارد الناعم البليل صيفًا والدافئ المريح شتاء ، وتُقَدَّم له الكتب المطبوعة المخدومة بالعناية

---

(١) الاعتصام للشاطبي تحقيق سليم الهلالي ١/٤٦٤ - ٤٦٥ . طبع دار ابن عفان .

والإخراج الجميل ، المؤلَّفة على أيسر الأساليب وأفضلها سهولة ومتعة .

وتيسَّرت الآن للدّارِس الراحل عن بلده أسباب السفر ووسائله ، ولو بأقصى الشرق أو الغرب ، بسرعة مذهلة ، وراحة شاملة ، والدارس الآن يسمع صوت العالم المرموق في داخل بيته ، ويشهد فيه صورته إلى جانب صوته ، ولا يعجز عن الوصول إلى كتابٍ مطبوعٍ تملُّكًا ، أو مخطوطٍ تصويرًا من المكتبات العامة القريبة أو البعيدة ، وهو جالس في بيته ، متكىء على أريكته ، يُصوِّر الكتاب الذي كان يكتبه سلفُه في شهر ، بنصف ساعةٍ ، فإذا هو لديه كالأصل ، لا نقص ولا زيادة ، ولا تصحيف ولا تحريف .

شتان ما يومي على كُورِها ... ويومُ حَيَّان أخي جابـرِ[1]

فما يُعجز الناس إلَّا دناءة الهمم .

من فاته التعليـمُ حين شـبابِهِ ... فكبِّـر عليه أربـعًا لوفاتـهِ

فإن حياةَ المرءِ بالعلْمِ والتُّقَى ... فإن لم يكونا فلا اعتبارَ لذاتهِ

ومِنْ دناءةِ الهمَّة : التَّعالُم :

يقول بقية السلف الشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد في كتابه القيِّم « التَّعالم وأثره على الفِكر والكتاب » : « كم رأينا نزالًا في حلائب العلم من رائِم للبروز قبل أن ينضج ، فراش قبل أن يبرى ، وتزبَّب قبل أن يتحصرم ، وقد قيل : « البداية مَزَلَّة » . ويُؤثر عن الإمام علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - قوله : « العلم نقطة كثَّرها الجاهلون » . وهو بمعنى قول الغزالي : « لو سكت مَنْ لا يعلم لسقطَ الخلاف » . وما يراد بهم هنا إلا « المتعالمون » الذين ناموا عن العلم فما استيقظوا ، وبالغوا قبل أن يبلُغوا ، فركبوا مطايا

---

(١) صفحات من صبر العلماء على شدائد العلم والتحصيل لأبي غدة ص٣٩٣ . نشر مكتب المطبوعات الإسلامية بحلب - الطبعة الثالثة .

الخير للشرّ . وشكا حالهم ابن القيم رحمه الله فقال :

فَظٌّ غليظٌ جاهلٌ مُتَمَعْلِمٌ   ضخمُ العمامةِ واسعُ الأردانِ
مُتفيهقٌ مُتضلِّعٌ بالجهل ذو   ضِلَعٍ وذو جَلَحٍ من العِرفانِ
مُزْجَى البضاعةِ في العلوم وإنّه   زاجٍ من الإيهامِ والهَذَيانِ

قال ابن حجر : « إذا تكلّم المرء في غير فنِّه ، أتى بهذه العجائب » .

وقيل لسفيان بن سعيد الثوري - رحمه الله تعالى - فيمن حدَّث قبل أن يتأهَّل فقال : « إذا كثر الملَّاحُون ، غرقتِ السفينة » ..

أين هؤلاء من تواضع العلماء . قال أبو عمرو بن العلاء : « ما نحن فيمن مضى إلا كبَقْلٍ في أُصول نخلٍ طوال » .

المتعالمون زيادةٌ على أنصباء أهل العلم ؛ كواو عمرو ، ونون الإلحاق . وفي « الشَّمَقْمَقِيَّة » :

ولا تُكن كواو عمرٍو زائدًا   في القوم أو كنُونِ المُلْحَقِ

فهذا القطيع هم غُول العلم ، بل دودةٌ لزجةٌ ، متلبّدة أسرابها في سماء العلم ، قاصرة من سموّ أهله ، وامتداد ظلّه ، معثرة دواليب حَرَكته ، حتى ينطوي الحق ويمتدّ ظلُّ الباطل وضلاله ، فما هو إلا فجر كاذب وسهم كاب حسير .

هو الوزير ولا أزْرَ يُشَدُّ به   مثْل العروضيّ له بحرٌ بلا ماءِ

وإنه لزادهم الهابط « التّعالُم » عتبة الدخول الفاجرة إلى خُطَّة السوء الجائرة « القول على الله بلا علم » .

إنها « قضية التعالم » مظلّة صانعي الخيام الهادئة الممتدّ رواقُها ، والتي يقيمها ويحمي حماها من بين أيدينا ومن خلفنا ذُباباتُ « الطوائف » التي تداعت علينا أرسالها : مُنابذة الحياة الصافية من الكَدَر وشوائبه ، وعلى وجه الخصوص : في العلْم منه ، والعلم أثمنُ دُرَّة في تاج الشرع المطهر .

لكنّ هذا الضَّرب من العباد ما يلبث أن يلحقه الإدبار فتُحيط به خطيئته .

كلُّ مَن يدَّعي بما ليس فيه فضحتْهُ شـواهدُ الامتحـانِ

ولذا قال قتادة « من حدَّث قبل حينه ، افتضح في حينه » .

والحَجْر واجب على كل « مفلس » لصالح الجماعة .

فالمتعالم ، أو العالم الماجن ، يُحجر عليه من الفُتيا ونحوها لصالح الديانة .

ومن أبرز الأمثلة على التَّعالُم .. ما جاء عن الخنفشاري المتعالم – هذا الطراز النَّكِد – ما جاء في كتب المحاضرات عن « مفتي الخنفشار » : أن رجلًا كان يُفتي كل سائل دون توقُّف ، فلحظَ أقرانُه ذلك منه ، فأجمعوا أمرهم لامتحانه ، بنحتِ كلمةٍ ليس لها أصل ، هي « الخنفشار » فسألوه عنها ، فأجاب على البديهة : بأنه نبْتٌ طيِّب الرائحة ينبت بأطراف اليمن ، إذا أكلته الإبل عقدَ لبنها ، قال شاعرهم اليماني :

لقد عقدت محبتكـم فـؤادي كما عقد الحليبَ الخنفشارُ

وقال داود الأنطاكي في « تذكرته » كذا ، وقال فلان وفلان ... وقال النبي ﷺ . فاستوقفوه ، وقالوا : كذبت على هؤلاء ، فلا تكذب على النبي ﷺ . وتحقَّق لديهم أن ذلك المسكين . جِراب كذبٍ ، وعيبة افتراء في سبيل تعالُمِهِ . نسأل الله الصون والسلامة .

ومنهم الجوباري : أحمد بن عبد الله الجوباري ، إذ بلغ من كذبه وتغفيله ، أنه لما ذُكر له اختلاف المحدِّثين في سماع الحسن البصري رحمه الله تعالى ، من أبي هريرة رضي الله عنه ، ساق بإسناده قوله : إن النبي ﷺ قال : سمع الحسن من أبي هريرة[1] .

---

(١) التعالم : بقلم بكر بن عبد الله أبو زيد ٥ – ١٦ . مكتبة التربية الإسلامية .

ومِن دناءةِ الهمَّة : تتبُّع رُخص الفقهاء :

إن الإشاعة لغَثَاثة الرُّخص ، والتجسيد للآراء الشّاذَّة وتربية مولودهما « التلفيق » بمعنى جمع الرُّخص والشواذّ من المذاهب ، منابذةً للاعتقاد السليم ، بل هي من صنع صنائع العداء ، ومُحتضنها يكون بأسًا على المسلمين وبلاءً .

فلله كم تربَّع على وَكْر هذه الفتنة من مارد ، وأبرزها باسم الشريعة من مُحتايِل ، على شُبهٍ يُبديها أو يبتديها ، والقلوب ضعيفة ، والشُّبه خطّافة .

وقد صاح بهذا الضَّرب جلَّة العلماء ، وأبانوا أن من منازل العبودية الأخذ بالعزائم والرُّخَص الشرعية ، أما المُفتعلة فهي عن الشرع بمعزل عن عزائمه ورخصه .

وهذا من منازل العبودية ، أمَّا تتبُّع رخص المذاهب وشاذ العلم فهو من نواقضها .

قال الشيخ الهروي رحمه الله في منزلة الرغبة من منازل العبودية : « وتمنَعُ أصحابها من الرجوع إلى غثاثة الرُّخَص » . قال ابن القيم شارحًا لذلك : « أهل العزائم بناء أمرهم على الجدِّ والصِّدق ، فالسُّكون منهم إلى الرخص رجوعٌ وبطالةٌ »[١] .

وقال أيضًا رحمه الله : « ثم ذلك الخلاف قد يكون قولًا ضعيفًا ، فيتولّد من ذلك القول الضعيف - الذي هو من خطأ بعض المجتهدين - وهذا الظَّنّ الفاسد - الذي هو خطأ بعض الجاهلين - تبديلُ الدين ، وطاعة الشيطان ، ومعصية رب العالمين . فإذا انضافت الأقوالُ الباطلةُ إلى الظنونِ الكاذبة ، وأعانتْها الأهواء الغالبة ، فلا تسألْ عن تبديل الدين والخروج عن

---

(١) مدارج السالكين ٢/٥٧ .

جملة الشرائع بالكُلّيَّة »[١].

فيحرم تلقُّط الرُّخص والتلفيق بين المذاهب بلا دليلٍ شرعي .

قال سليمان التيمي : لو أخذتَ برخصةِ كلِّ عالمٍ ، اجتمع فيك الشرُّ كلُّه .

وقال ابن عبد البر : هذا إجماعٌ لا أعلم فيه خلافًا .

وقال معمر بن راشد : لو أن رجلًا أخذ بقول أهل المدينة في السَّمَاع وإتيان النساء في أدبارهن ، وبقول أهل مكة في المتعة والصرف ، وبقول أهل الكوفة في المُسْكِر ؛ كان أشرَّ عباد الله .

وقال الأوزاعي : من أخذ بنوادر العلماء ، خرج من الإسلام .

وقال الإمام أحمد : لو أن رجلًا عمل بقول أهل الكوفة في النّبيذ ، وأهل المدينة في السماع ، وأهل مكة في المُتعة ؛ كان فاسقًا .

قال القاضي إسماعيل : دخلت يومًا على المعتضد فدفع إليّ كتابًا فقرأته ، فإذا فيه الرُّخص من زلل العلماء قد جمعها بعض الناس ، فقلتُ : يا أمير المؤمنين ، إنما جَمَعَ هذا زنديقٌ . فقال : كيف ؟ فقلت : إن من أباح المتعة لم يُبِحِ الغناء ، ومن أباح الغناء لم يُبح إضافته إلى آلات اللهو ، ومَنْ جَمَعَ زَلَلَ العلماء ثم أخذَ بها ، ذهبَ دِينُه . فأمر بتحريق الكتاب .

قال دنيء الهمة ممن يتّبع زلّات العلماء :

أباح العراقيُّ النَّبيذَ وشُرْبَهُ ... وقال حراماِن المُدامةُ والسُّكْرُ
وقال الحِجازيُّ الشرابانِ واحدٌ ... فحلَّتْ لنا من بَيْنِ قوليْهما الخمرُ
سآخذُ مِن قوليهِما طَرَفَيْهما ... وأشْرَبُها لا فارَقَ الوَازِرَ الوِزْرُ

ذهب العلماء إلى عدم جَواز تتبُّع الرُّخص ، وإلى هذا ذهب ابن تيمية وابن القيم والعلائي وابن مفلح وتاج الدين السبكي والشاطبي .

---

(١) إغاثة اللهفان ١٤٦/٢ ، والتعالم ص٨٩ ، ٩٠ .

قال إبراهيم بن شيبان : من أراد أن يتعطَّل ويتبطَّل ، فليلزم الرخص[١] .

* * *

(١) انظر الرسالة القيّمة : زجر السفهاء عن تتبُّع رُخَص الفقهاء . لجاسم الدوسري .

□ خاتمــة □

إيهِ أحاديث نعمـانٍ وسـاكِنِهِ إن الحديثَ عن الأحبابِ أسمارُ

* * *

وحدَّثْتَنِي يا سعدُ عنها فزِدْتَنِي جُنُونًا فزدني من حديثِكَ يا سَعْدُ
هواها هوًى لم يعرفِ القلبُ غيرَهُ فليس له قَبْلٌ وليـس له بَعْدُ

فهذه بعض تراجم ممن جُمعت فيهم صفات الحمد الخِلْقي والكسبي ... والله أعلم حيث يجعل العلم ... موهبة مبتدأة ... وعطية جهد فيها طالبها ... وصانها بكدّ القرائح ، وجهد الأبدان وإعمال القلوب والجوارح ، فمِنْ ترّفعها يحمد صاحبها .

« تبارك الله ماذا تبلُغ الهِمَمُ » .

ومن تقاصُرِ هممنا نُلام إلى حيث يرتفع الممدوح بها إلى أعلى من مناط النجوم ، ثم يترقّى إلى ما تتقاصر العقول عن إدراك حقيقته ، ويتنازل المذموم بالتقاعُد عنها إلى أسفل من حظيظ التُّخوم ، إلى ما يُبعد الأنظار عن سواد شقوته ، ومن يُرِدِ الرب تعالى به خيرًا يُنِلْه منها ما شاء على ما يصنع ، ومن يرفع الله لا يُوضَعْ .

نعم .. كانت مجالسهم عسلًا بمثلهم ، فتعلقمتْ بمثلنا .. والله لكأنّ سياحاتهم العلمية وأخبارهم على فقرهم وعُدمهم ، وضعف الوسائل لديهم ، كأنها من صُنع الخيال ، أو أحاديث السمر ، ولكنها ما كانت إلّا صدقًا وحقيقة يحدوهم إليها أشواق محرقة ، وآمال عذاب في نفوسهم ، صنعوا بها ما يعدّه بعض الناس اليوم من المبالغات والأساطير فـلله درُّهم على ما بذلوا وما صبروا ، وما سهروا وما بكروا ، ورحمة الله على تلك الأجساد الطاهرة

الكريمة ، والعزائم المؤمنة الخارقة العظيمة .

جادَ بهم الدهرُ ، وأطلعهم شموسَ هداية وعرفان .

فرحمات الله على أصحاب الهمم العالية العليّة ، الصابرين المحتسبين الذين صابروا وصبروا ، وخَلّفوا وآثروا .

ماتوا وغُيِّبَ في التُّرابِ شُخُوصُهم فالنَّشْرُ مِسكٌ والعظامُ رميمُ

يقول ابن عقيل الحنبلي : « حاشا المبدىء، الخالق لهم على تلك الأشكال والعلوم ، أن يرضى لهم في الوجود بتلك الأيام اليسيرة المشوبة بأنواع الغُصص ، وهو المالك ، وبتلك اللمحة التي عاشوها في الدنيا ، وقد مُزِجت بالعلاقم ، لا والله لا رضا لهم إلَّا بضيافةٍ تجمعهم على مائدةٍ تليق بكرمه سبحانه ، نعيم بلا ثُبور ، وبقاء بلا موت ، واجتماع بلا فُرقة ، ولذَّات بغير نَغْصة »[(١)].

بل واللّهِ علمٌ لا ينتهي ، وهذا أغلى ما يشتهونه في الجنة ، وأعلى منه نظرٌ إلى وجه الكريم في يوم المزيد ولقياه ، جزاء ما أعطوا لدينهم ولعلم نبيهم ﷺ من دمهم ونور عيونهم ، وشعلة عقولهم . جزاء ما أوقفوا أنفاسهم لخدمة العلم ، فكانت أحاديثهم وسيرهم تقرّ العين .. وفرائدهم يقول البحر الزاخر : من أين أُخذ مثْل دُرِّها ؟! من أين ؟! وفوائدهم التي سوَّدوا بها القرطاس ، ويودّ لو زيد فيه سواد القلب والبصر ، وتسود بها الأوراق ، فتصبح أسود من الشمس والقمر .

طلع صبحُ هممهم فاستغلظ فاستوى على سوقه ، فكانت فوق النجوم ، وتقهقر خلفها القمران .. وأولى بنا بعد أن سردنا طرفا منها أن يصمت عندها

(١) ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب ١/١٦٥ .

اللافظ .. لسان حالهم يقول : همتنا أعلى من كلامكم .. يُشار إليها بالأصابع .

أخذنا بآفاقِ السماءِ عليكمُ　　لنا قَمَراها والنُّجُومُ الطَّوالِعُ

* * *

انتهى المُجلَّد الأوَّل ويليه المُجلَّد الثاني

إنْ شاء الله تعالى

فهرس المجلد الأول

* * *